إتحاف أعلام الناس
بجمال أخبار حاضرة مكناس

تأليف

ابن زيدان: عبد الرحمن بن محمد السجلماسى
(١٢٩٠ - ١٣٦٥هـ)

تحقيق

الدكتور على عمر
بقسم التاريخ والحضارة الإسلامية
بجامعة المنيا والإمام بالرياض
ومن الباحثين بمركز تحقيق التراث (سابقا)

الجزء الأول

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨

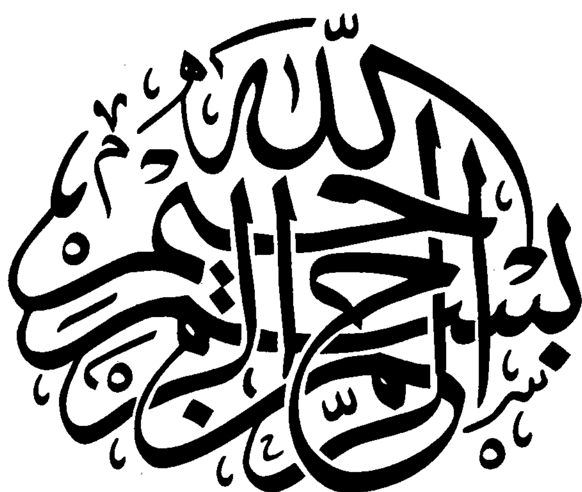
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد ـ القاهرة
٢٥٩٢٢٦٢٠-٢٥٩٣٨٤١١ / فاكس: ٢٥٩٣٦٢٧٧
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس ج١
تاليف: ابن زيدان عبد الرحمن بن محمد المكناسى ، تحقيق: على عمر
ـ ط ١ ـ القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ٢٠٠٨
٥ مج : ٢٤ سم
تدمك : ٦ ٣٨٩ ٣٤١ ٩٧٧
ا- الفقهاء ـ معاجم
أ- عمر ، على (محقق)
ب- العنوان

ديوى : ٩٢٢،٥٨

رقم الايداع :٧٦٦٦ /٢٠٠٨


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة هذه الطبعة

***

المؤلف وإسهاماته فى الحياة الثقافية بالمغرب:

ابن زيدان: عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن على بن الشريف العلوى السجلماسى، أبو زيد: مؤرخ من أعيان المغرب الأقصى ولد سنة ١٢٩٠هـ.

كان السلطان محمد بن يوسف يخاطبه بابن عمنا، نقيب عائلتنا ومؤرخ دولتنا.

ولد ونشأ فى «مكناسة الزيتون»، واستكمل دراسته فى جامعة القرويين بـ«فاس» سنة ١٣٢٤هـ، وولى نقابة الأشراف بـ«مكناس» و«زرهون».

وزار «مصر» حاجا فى سنتى ١٣٣١ - ١٣٥٧، واستقر فى «الدار البيضاء»، يدير المدرسة الحربية المغربية فيها، وتوفى بـ«مكناس» سنة ١٣٦٥هـ.

من كتبه: «إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس»، وهو الذى نقدم له اليوم، و«الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة»، وديوان شعر، أكثره مدائح نبوية.

وجمع خزانة كتب تعد من أكبر الخزائن فى المغرب.

والكتاب الذى نقدم له اليوم يتناول تاريخ مكناس منذ الأجيال القديمة ومنذ ملوكها الأولين حتى عصر المؤلف.

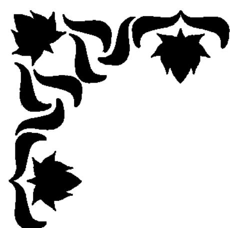
وهو للباحثين قبل غيرهم يجدون فيه ما تضن عليهم به المراجع الأخرى حيث تناول فى إسهاب تاريخ مكناس وفق منهج لا يتوافر فى المراجع المماثلة.

وقد اعتمدنا في طبعتنا هذه الطبعة الأولى لهذا الكتاب بالرباط سنة ١٣٤٧هـ، وذلك بعد تنقيحها.

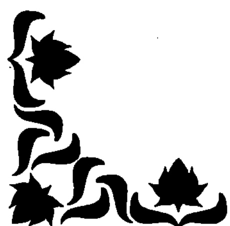
هذا وقد تركنا النص على حاله في بعض المواد دون تدخل في تعديل أسلوب الكتاب، وذلك وفق منهج المؤلف حيث أشار إلى ذلك بقوله: «وقد أتينا لك أيها المطالع بالنصوص المتبادلة بين نواب الدول الأجنبية ونواب الحكومة الشريفة في المؤتمرات السياسية والاجتماعات الرسمية على ما فيها من علل التركيب وركاكة الإنشاء، وعدم التنظيم، محافظة على نص الأصل وعدم تغييره، واعتماداً على همة القارئ اللبيب، الذي لا تعزب عنه الحقيقة، وسترى بقية من ذلك بعد هذا بقريب».

أما ما عدا ذلك فقد قمت بتصويبه عند موضعه، ولم أشر في تعليقاتي إلى كل ما قمت به من تصويب، وإنما نبهت على بعضه فقط.

* * *




الموضوعات والصور
التي صدرت بها طبعة
الرباط سنة ١٣٤٧هـ






﴿ جلالة السلطان الأعظم سيدي محمد بن يوسف ﴾

﴿ أيد الله نصره وعلاه ﴾

الإهداء

(إلى صاحب الجلالة)

(مولانا السلطان سيدى محمد بن يوسف أيده الله)

***

أحسن أثر، عن يراعى يؤثر، فيحمد ويشكر، ويقر بفضله ولا ينكر، مثل إتحاف أعلام الناس، بجمال حاضرة مكناس، عاصمة فخر جدودك الكرام، واسطة عقد الملوك العظام، السالك فى تدبير الممالك، أحسن المسالك، السلطان الجليل، أبو النصر والفدا إسماعيل، وجدك الإمام، الذى خضعت لعزه المشام، أبو زيد عبد الرحمن بن هشام، قدس الله أرواحهما فى دار السلام.

وبما أن جنابكم المرفوع أمره على المفارق، أحق أن تهدى إليه نفائس الذخائر والمهارق، قدمته هدية، لسمو جلالتكم الزكية، وكل الرجاء أن يحل لديها محل القبول والإقبال، وينظر بعين الاحتفاء والاحتفال.

ولا غرو فإنه حسنة من حسنات عصرك، ومفخرة من مفاخر قطرك ونتيجة اجتهاد أحد أبناء، عائلتك العلية، ومؤرخي دولتك العلوية، فإليكه يا مولاى هدية، وطرفة سنية، تفخر بحلول ناديك، ويناجيك مهديها ويناديك:

مولاي يا سبط الرسول محمد ... من اسمه المحمود من أسمائه
من علمه البحر الذى حارت عقو ... ل ذوي النهى والفهم فى إملائه
من حلمه أنسى سماحة أحنف ... وتجاوز المأمون عن أعدائه
من جوده الغيث الذى لو رامه ... معن أقر بعجزه وعنائه
أهدى لحضرتك الشريفة منشدا ... بيتى فتى أربا على نظرائه

(أهدى لمجلسـه الكريم وإنما ... أهدى له ما حزت من نعمائه)
(كالبحر يمطره السحاب وماله ... فضل عليه لأنه من مائه)
أهدى كتابا جامعا آثار من ... فازوا بنعمة ربهم ورضائه
أسلافك الغر الألى أنباؤهم ... كالروض فى أرواحه وبهائه
فاقبل فديتك تحفة من عابد الـ ... ـرحمن مخلص وده وولائه
ذاك ابن زيدان الذى يزداد فى ... علياك حسن مديحه وثنائه
ولتبق يا مولاي فى نصر وفى ... عز يفوق النجم سمك بنائه
فلأنت من تزهو الدنا بوجوده ... ولأنت من يبقى الهنا ببقائه

* * *

الله خصك بالسيادة والعلا ... وحباك ما ترجوه من آلائه
وإلى مراقى السعد ترقى صاعدا ... ما لاح بدر ساطعا بسمائه

[illegible]   [illegible], par Versailles, le [illegible]

Mon bien cher [illegible],

C'est avec le plus grand [illegible] que [illegible] de présenter les [illegible] volumes que vous [illegible] sur l'histoire de [illegible]. Nul autre ne [illegible] titres que vous à la [illegible] d'un tel ouvrage [illegible] qui est le symbole des traditions [illegible] siècles par votre famille dans le règne [illegible] tre Sultan Moulay Ismaïl le Grand, [illegible] part des [illegible] le grand [illegible] collaboration dans l'[illegible] du Protectorat français [illegible] ne, pour le développement [illegible] prospère.

En [illegible] chapitres [illegible] l'histoire de votre ville [illegible] les temps [illegible] celles de ses plus anciennes [illegible] les fastes du règne de Moulay Ismaïl, la construction de ses palais, l'aménagement de ses jardins, [illegible] et grandioses allant jusqu'aux [illegible] et bien au delà des mers nous amène à [illegible] les relations avec notre grand Louis XIV.

Votre livre s'adresse [illegible] savent [illegible] pages ce que [illegible] volumes ne pouvaient leur prendre [illegible] à [illegible] toujours [illegible] et [illegible] [illegible] votre ville.

Au milieu de vos livres les [illegible] [illegible] place d'honneur, parmi les [illegible] de [illegible] et qui me [illegible]

[illegible]

كلمة تقديم

***

بقلم المشير ليوطي ماريشال فرنسا ووزير حربيتها ومقيمها العام بالمغرب سابقا وعضو المجمع العلمى الفرنسى وهى كلمة خاطب بها فضيلة المؤلف بما ترجمته:

طوري فى ١٩ غشت ١٩٢٩

صديقى العزيز:

قبلت مع مزيد السرور تقديم كتابكم القيم الذى ألفتموه عن تاريخ مكناس، وإن لكم من المزايا ما يجعلكم أجدر الناس بالخوض فى هذا المجال، أوليس اسمكم رمزاً لتلك التقاليد التى اعتنت أسرتكم الكريمة بتتبعها على مر العصور، أوليست أسرتكم تتصل مباشرة بعظمة السلطان مولاى إسماعيل الأكبر، وهذا وقد جمعتم مع احترامكم للماضى أفكارا حديثة قيمة فأظهرتم ذلك بمعاونتكم فى العمل المشترك بين حكومة المخزن والحماية لترقية ذلك المغرب الذى لا يزيد إلا قوة ورفاهية.

لقد أحييتم لنا فى فصول عديمة النظير تاريخ مدينتكم منذ الأجيال القديمة ومنذ ملوكها الأولين، ثم صورتم لنا مجد ملك المولى إسماعيل وكيف شيد القصور وخطط البساتين فتتبعناه فى عمله المدهش العظيم الذى شمل جميع أطراف المملكة، وكم يلذ لنا أن نتتبع أعماله وراء البحار فنحيى صلاته الودية مع ملكنا العظيم لويس الرابع عشر.

إن كتـابكم هذا هو للأدباء قـبل غيـرهم فيجـدون فيـه ما تضن عليـهم به المجلدات الكثـيرة، ثم هو لتـلاميـذ مدارسكم وتلامـيذ مـدرستنا «مـدرسة الدار البيضاء» حيث سيـبقى اسمكم محبوبا محترما، ثم هو للفـرنسيين الذين سيجدون فيه ما يقوى إعجابهم بمدينتكم.

إننى خصصت لكتابكم «عبير الآس» مكان الشرف بين أعز الكتب لدى وبين الذكريات التى تحوط بى وتذكـرني سنوات ماضية قضيتـها بينكم ولا أنساها أبدا ـ وتجعلنى دائم الاتصال ببلادكم العزيزة.

ليوطي

* * *

تصدير

تواريخ المغرب

«نبذة صغيرة»

* * *

التاريخ أنباء الخلف بأحوال السلف، وهو معيار توزن به أعمال الأمة فى هذا الوجود ويعلم منه مكانها بين الأمم غيرها على هذه الأرض، وهو السائق للعزة والدليل الخريت فى الدلجة.

وللمغرب تاريخ معروف فى إجماله، مملوء بالبطولة، حفيل بالمآثر العظمى والوقائع الفاصلة الكبرى، وصحفه دالة على استبحار عمرانه وتمدن سكانه وإدراكه البسطة فى أغراض الحياة ومذاهبها، وبلوغه يفاع المجد وذُرَا الحضارة، لما قام فيه الأفذاذ الذين قادوا الأمم فأحسنوا مقادها وساقوها إلى مواطن العزة فبلغوها ومثله فى ذلك كمثل هذه الأقطار المتألف من مجموعها عالم الإسلام ولا سيما وقد كان منها عضوا بارز المكانة محسوس الأثر. و«مراكش» و«فاس» و«سبتة» و«سجلماسة» ثم «مكناسة» حواضر مغربية كان لها شأن فى العلم والأدب والحضارة بحيث يصح إدراجها بجانب غيرها من كراسى الإسلام وحواضره فى الشرق والغرب.

وقد نشأ التاريخ المغربى متدرجا على ناموس النشوء والارتقاء، فلذلك يغلب على عهوده الأولى أن يكون مؤرخوها المعاصرون لها أجانب من هذه الديار، ثم لما استقام للبلاد أمرها وبلغت أشدها صار لكل دولة وعصر مؤرخون معاصرون يحفظون للأجيال القادمة أنباء العصور السالفة وينقلون للآتى خبر الذاهب بما استطاعوا من جمع وتدقيق، وأعانهم على ذلك أن جمهورهم كان متصلا بالدولة مطلعا على ما قد يحتاج إليه إذ ليس فيهم - فى الغالب - إلا وزير أو كاتب أو نحوهما.

فكان منهم فى عهد المرابطين شاعرهم أبو بكر بن الصيرفى الغرناطى (-٥٥٧) وكان فى عهد المهدى والموحدين مؤرخون منهم: «صاحب الأنساب» فى معرفة الأصحاب أصحاب الإمام المهدى، وأبو بكر بن على الصنهاجى البيذق صاحب «تاريخ الموحدين»، وعبد الواحد بن على التميمى المراكشى مؤلف «المعجب» وغيرهم كالقاضى يوسف بن عمر الإشبيلى وابن حمويه السرخسى والقاضى الأكرم على بن يوسف القفطى (-٥٦٨) صاحب تاريخ المغرب ومن تولاه من الموحدين فلما انقرضت دولتهم وقام المرينيون بجليل أعمالهم ونضجت فى عهدهم الحضارة بالمغرب قام بتدوينها أصحاب الذخيرة السنية وروضة النسرين وروض القرطاس وشاعر ذلك العصر الكاتب عبد العزيز الملزوزي فى نظم السلوك وغيرهم كالسفير الخطيب بن مرزوق فى المسند الصحيح الحسن فى مآثر أبى الحسن وكاتب الدولة ابن خلدون وضيفها ابن الخطيب فى آثاره، ثم دالت الدولة للوطاسيين منهم فما لبثوا بها إلا أياما واستلمها منهم السعديون، فظهر بليغهم الوزير الفشتالي بمناهل الصفا والجزولي بالنفحة المسكية، والرئيس ابن عيسى بالممدود والمقصور من سنا الملك المنصور، وابن القاضي بالمنتقى المقصور ودرة الحجال، وغيرهم بغير ذلك، ثم صار الأمر للعلويين فكان لهم مثل ما تقدم فكتب عن صدر دولتهم اليفرني ثم تلاه ابن إبراهيم الدكالي والغزال والضعيف والزياني، ومثله فى الدولة العلوية كمثل ابن القاضى فى الدولة السعدية فى الاعتبار بالتاريخ والتدوين فيه، واكنسوس وابن الحاج والسملالي والسباعي وصاحب الاستقصاء وغير هؤلاء.

ومن المؤرخين طائفة تخللت تلك الأدوار وعاشت فى ظل أفيائها ولكنها انتحت بكتبها ناحية خاصة منها، ولهؤلاء فى ذلك طرق مختلفة وأساليب شتى:

فمنهم من كان ذا منزع صوفى فرأى الاقتصار على أخبار الزهاد والمتصوفة، وعددهم فى هذه الأمة كثير ولهم فيها أى تأثير، وتدوين أحوالهم وما يتصل بهم

من قول أو عمل وهؤلاء فريقان: فريق له مؤلفات عامة كتآليف ابن الزيات المراكشي والبادسى والصومعى. وفريق له كتب ورسائل تخص أبا محمد صالحا، وأبا يعزى وأضرابهما ومؤلفات هؤلاء وموضوعاتهم كثيرة.

ومنهم من ألف فى أنساب الملوك والقبائل والبيوت الجليلة القدر الكريمة الأصل وأكثر ما ألف فى هذا المعنى فى أهل فاس وأقله فى غيرها من الجهات والكاتبون هنا كثير.

ومنهم أرباب الفهارس والأثبات وهى تفيد من شاء الاطلاع على حالة المغرب العلمية فى الجملة، وقد ألف فى ذلك عياض كتابه «الغنية»، ثم ابن رشيد وابن الشاط وعبد المهيمن الحضرمى وأبو زكريا السراج وزروق وابن هلال وابن غازى والمنجور والجادرى وابن القاضى وعبد الواحد السجلماسى المراكشى والفاسيون والعراقى ويحيى البكرى السوسى والمنجرة واليوسى والمرغيثي والحضيكى والعميرى والبنانيان ابن عبد السلام وابن الحسن والتاودى والهشتوكى والورزازى والكوهن وغيرهم.

ومنهم من كتب فى طبقات الرجال وتراجم الأعلام كطبقات المالكية للقاضى عياض وتسمى بالمدارك، وقد اختصرها ابن سهل وابن علوان المصرى وابن حمادة السبتى تلميذ القاضى وزاد عليها زوائد، وطبقات الأعيان لابن عجيبة ورجال القرن العاشر لابن عسكر وطبقات القرنين الحادى عشر والثانى عشر للقادري ورجال القرن الحادى عشر المسمى بالإعلام بمن مضى وغبر لعبد الله الفاسى وطبقات أهل الحساب والفرائض لابن القاضى وله ذيل علي ابن خلكان هو المسمى «بدرة الحجال فى أسماء الرجال» وله ذيل آخر على ابن قنفذ من أول المائة الثامنة إلى تمام العاشرة وكذلك ذيل على الصلة أحمد بن فرتون الفاسي (-٦٦٠) وابن عبد الملك المراكشى (٦٣٤-٧٠٣) قاضى أبى يعقوب المرينى على مراكش فى كتابه «الذيل والتكملة على الموصول والصلة»، وسلك الفتح بعض أدباء المغرب فى

قلائده التى خدم بها مجلس الأمير إبراهيم ابن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ثم جمع ابن هانى السبتى كتابا فى شعراء المائة السابعة سماه «الغرة الطالعة» وجاء بعده أبو الوليد ابن الأحم فجعل لأدباء العدوة قسما من كتابه نثير الجمان فيمن ضمه وإياهم الزمان، واقتصر العلمى على من لقيه من أدباء عصره فى أنيسه المطرب، ومن هذا الباب ما وضع خاصا ببعض الأفراد الممتازين كاليحمدى وزير مولاى إسماعيل والعياشى زعيم السواحل وأمثالهما من الفضلاء.

ومنهم المؤلفون فى المدائن يذكرون أخبارها وما تقلبت فيه من الأحوال وكيف تداولتها الدول ومن كان فيها من الرجال والأسر النبيهة وقد ألف محمد بن يوسف الوراق القيروانى (٢٩٢-) فى أخبار سجلماسة ونكور والبصرة تآليف حسانا كما يقول ابن حزم. وفى فاس ألف عبد الملك بن موسى الوراق كتابه «المقباس فى أخبار فاس» وألف فى تاريخها ابن حنون وابن عبد الكريم وابن أبى زرع وفى رجالها ابن القاضى وابن الأحمر وابن عيشون والمدرع والفاسى والكنانى وجمع المقرى كتابا فيمن لقيه من الأعلام بها وبمراكش. وألف ابن أبى بكر الحضرمى السلسل العذب والمنهل الأحلى فى سلك من تحلى سلكهم فى الأربعين من جيل فاس ومكناسة وسلا. وفى سبتة ألف القاضى عياض العيون الستة وهى من كتبه التى لم تتم. وألف غيره بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة فى الدول المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب والكوكب الوقاد فيمن دفن بسبتة من العلماء والزهاد. وفى مكناسة ألف ابن جابر نزهة الناظر وابن غازى روضه الهتون والجبلى النفحات الوردية. وفى زاوية الدلاء ألف الحوات واليازغى. وفى درعة ألف محمد المكى الناصرى الدرر المرصعة.

ولا يزال هذا التاريخ المغربى تعمل فيه الأقلام وتنضب فى تدوينه المحابر وتعمل فيه الليالى والأيام وهو لا يزداد إلاَّ نُدْحَةً فى البحث واستقصاء وتنقيبا ومن

ذلك هذه الحركة المباركة التى قام بها ثلة من أرباب الأقلام فى بعض أرجاء المغرب فاختص كل واحد بتـدوين تاريخ مدينة من مدنه _ كمراكش وفاس وسلا والرباط وطنجة _ وتبيان ما كـان لها من عهد زاهر ومجد غابر وذكر زعـماء رجالها الذين كانت لهم يد فى العلم والأدب منها، وجمع ما كان من ذلك متناثرا بعد أن أدركه التلاشى وكاد يصبح مضمحلا داثرا، وهى فـكرة حميدة كان سعى أربابها مشكورا وعسى أن تعم أصقاع المغرب فيقـوم بتنفيذها من يأنس من نفسه اقتدارا على ولوج هذا الميدان والإجادة من نصيبه منه حتى نرى تلك التواريخ يوما وقد أحكم وضعها وأتقن ترتيبها وجمعها وأصبحت مادة فوارة لتاريخ المغرب العام.

وهذا أثر جليل من ذلك النحو قد جمع فأوعب واستدرك فأعجب وأغرب، وسيكون ولا ريب من أهم مؤلفـات المغرب التاريخية وأغزرها مـادة وأكثرها إفادة وجمعا، وقد اجتمعت فيه ثلاث من كن فيه كان حقيقا بالامتياز عن غيره والحظوة بالخصوصية ألا وهى، قيمة الكتاب وأهمية الموضوع واقتدار المؤلف فى فنه:

أما عن المؤلف فـسمـاحة الأستـاذ النقيب مـؤلف هذا الكتاب أحـد حملة التاريخ عندنا الذين يقول لسان حالهم:

فجسمى فى دهره ماكث وعقلى فى أول الدهر ناء

وهو غنى بشهرته ومكانته وخزانته الزيدانية عن زيادة التعريف والتبيين.

وأما عن الموضوع فإن مكناس جمعت بين الطريف والتليد والقديم والجديد، وهى إحدى حواضر المغرب بعد سجلماسة مركز بنى مدرار وفاس كرسى الأدارسة ومن اقتفاهم ومراكش دار المرابطين ومن بعدهم. وقد مـرت عليها أيام كسيت فيها نضارة الحـضارة وظللهـا جلال الملك والإمـارة وكانت فيـها قلب المغـرب ومأوى الوزراء والكتاب والشعراء وأرباب العلوم والصنائع والفنون.

وأما عن الكتاب فإن المؤلف متى كان قائما على فنه مضطلعا بأعبائه منقطعا إليه جاء فى كتابه بنتيجة ذلك كله، وفى هـذا الكتاب ما لا يكاد يتأتى لغير مؤلفه الإتيان به أو العثور عليـه، وقد أحيا الله به مواتا ونشر بإبرازه رفـاتا وإن فيه فوائد هى أعز ما يطلب، ووثائق تكشف عن كثـير من الأسرار المكتومة وتراجم هى لب التاريخ وحليتـه، ولولاه ذهبت وكأن لم يكن أربابها شيئًا مـذكورا إلى ما حلى به من نادر الصور وقيم الغرر.

وإن أقل ما يجازى به مؤلف وقد أبدى للناس كتابه - بعد أن أنفق عليه من ذهنه ووقته وجهده ويده - أن يقال له: أحسنت وأفدت ولا زال قلمك منهلا.

الرباط ١١ جمادى الثانية ١٣٤٨ عبد الكريم بن الحسنى

* * *

الحمد لله حق حمده

وللفقيه الأديب السيد محمد غريط لما وقف على رسم المؤلف:

يا مـــرسـل الفكـرة فى جـنة   أتــت مـن الــزهــر بـألــوان
جنة أخـــبــار يـتــوق لهـــا   من ليـس بالمســتكبـر الجــانى
إن شـئت أن تبـصـر مـبـرزها   نزهـة ألبـــاب وأعـــيـــان
فـــانظر إلـى رسـمـــه تـلف به   لوصـــفـــه أحـــسن تبـــيـــان
وهو أبـو زيد النـقـــيـب الذى   ينـمـــو لفـــرع الملـك زيدان

* * *

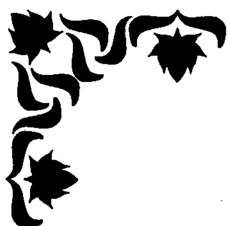


علمي غـذا روحي وراحة بنيـتي — وتفكري فـرضي وخيـر مجـالس

وتدبري راحى وريحـاني وكـتـ — بي فى انفـرادي مطربي ومـؤانس

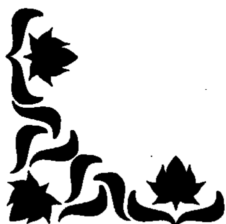
وأرى حـياتي دون ذلـك ما لهـا — نفع كـعـيشـة عـابث متـقـاعس

عبد الرحمن بن زيدان




إتحاف أعلام الناس
بجمال أخبار حاضرة مكناس

لابن زيدان




بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد وآله

مقدمة المؤلف

***

حمدا لمن تعالت عظمته عن أن تحيط بها الأخبار. وتقدس فى سلطانه فقصرت الأفهام عن كنهه على مر الأجيال والأعصار. لا يعزب عن علمه ما كان وما يكون. ولا تخفى عليه خافية من أحوال الظهور والبطون. كل يوم هو فى شأن، وإليه ترجع الشئون. مدارك العقول فى موقف الحيرة تحت ذيل القصور. وتحريرات النقول فى قصوى العي على بساط الفتور.

عقل العقل أن يكون محيطا ... ليس ربى مركبا أو بسيطا
حجب الكل عن دراية كنه ... وهو بالكون لا يزال محيطا

سبحانه ما أجل بره، وأوسع امتنانه، أسدل على كل مكون قبل نشأته وبعدها فضله وإحسانه.

لم يخل قط عن إمداد وإيجاد ... مكون رائحا قد كان أو غاد
فالاعتراف له بالبر يورث أن ... يزيد من فضله من غير تعداد

فله الشكر ما تحلت الألسن بذكر الوقائع، وقامت فى صحائف الأذهان أخبار الرقائع.

شكرا لرب تعالى ... وفضله قد توالى
من يصرف العمر منه ... فى طاعة ما تغالى

ونشـهـد أنه الله الذى لا إله إلا هو شـهـادة تعـصـم من الأوهام والشكوك وترشد الجازم بها إلى الاتباع فى المآخذ والتروك.

تعـالى أن يشـارك فى صـفـات   وكل خلـقــه كـيـف الشـــريك

تقــدس أن تحـيـط به عـقــول   وجـل اللـه مـــــولانا المـليـك

ونشهد أن سيدنا ونبينا ومولانا محـمدا عبده ورسوله الصادق فيما قص من الأنباء، وأبدى من أسرار من تقدمه من الرسل والأنبياء.

برى الله خـيـر العـالمين مكمـلا   وأولى عـلاه فـوق مـا منه أمـلا

وصور منه الشـكل غير مـشارك   على كل مـوجود جـلاه مفـضلا

فصل اللهم عليه صلاة تملأ الأرض والسماء، وتدوم بدوام ملكك، فلا يأتى عليها إحصـاء ولا استقصاء، وعلى آله نجوم الاهتداء وأمـان الأمة، القاعدين على صهوة المجـد البالغين من كل مقصـد همه، وأصحابه الذيـن نصروه وشدوا أزره، وحملوا عنه إلى من لم يحضره نهيه وأمره.

أما بعد: فيقول خديم العلم والتاريخ عبد الرحمن بن محمد بن عبدالرحمن ابن على بن محمد بن عبد المالك بن زيـدان ابن فخر ملوك المغرب وجد سلاطينه مولانا إسماعيل بن الشريف الحسنى السـجلماسى: إن لله تعالى فى أجيال العوالم - من مكنون السر وخفى الدقائق - مـا لا تحتوى على بيانه فنون المجازات وأنواع الحقـائق، أودع فيهـا حكما ترجع دون تمام إدراكـها الأمانى حـسرى، وتقف فى مشاهد إبداعها فتخر آونة شكرا وأخرى برقائقها سكرى.

كيف وهى مظاهر قدرته الباهرة، وتجلياته التى تكل أولاها والآخرة. فأعقل الناس من رآها بلب الاعـتـبـار، وعرف أن منهـا مـا سـبيله الادكـار، ومـا أبرز للاختبار، فـاعتبروا يا أولى الأبصار، فوقف به مـا رأى وسمع من أحوال القرون الشاسعة، على هدى يجده فى المعاش والمعاد من الأعمال النافعة.

وإن الفن الذى يجمع من ذلك زبدة الأوطاب، ويميـز بين ما خبث وطاب، علم التـاريخ الذى هو من أجل ما يدخـر، وتقدم أهمـيته ولا تؤخـر، يريك من المعدوم مـوجودا، ومن المقطوع سـابقا فصـلا ممدودا، حتى كـان من انقرض الآن ينطق، وشـمس حيـاته لا زالت تشرق، فـلم يفت المتقـدم المتأخـر إلا بالأشبـاح والصور، إذا جليت منهم العبر وتليت عليهم السور.

أخبار من سبـقوا إدراك عصرهم وجـودهم يجتلى فى طى نشـرهم
ناجـوك دون لســان إذ تبين من حديثـهم ما خلا في مر عـمرهم

فاعرف قدره مـا بين الفنون، ومتن فخامته إذا تليت المتـون، فقد نوه الذكر الحكيم بإنافة شأنه. وقص على المعتبـر فائدته وبدائع حسنه، وناهيك بما ضمنه من أسراره، وكـشف للألباب من خـبايا أسـتاره، فقـد أرى أخبـار المرسلين وحمـيد سيرهم، ومـا لقوا من نشأتهم إلى انتقالهم عن عـالم الدنيا ورحلتهم، ومن أجل ذلك أمـر الله أشرف الموجـودات، أن يتأسى بهم فى سنى تـلك الحالات فـقال: (فبهداهم اقتده).

ولهذا ومثله تصـدى الأعلام لتدوينه، والتنقير عن تفصـيل حوادثه وشئونه، اقتـفاء لما ذكـر الله فى الكتاب، وانتـحالا لما يستـعذب ويسـتطاب ما بين مـوجز ومطنب، ومشرق فيه ومغرب.

بيـد أنى لم أجد من يشـفى العلة، ويبرد من الصـادى الغلة، بشرح أنـباء مكناســة الزيتون، ونظـم ما تناثر من درها المكنـون، بعد بلاغ الجـهد فى القـديم والحديث، فيمن يروى مسند ذلك الحديث، ومـا صنفه إمام المحققين وخاتمتهم ابن غازى فى روضـه الهتون، نقطة من بحـر ولقطة عجلان لا تـأتى على البعض من عجـائب بيت الملك وسرها المصون، ولا تـروى من هو بقيظ الجهل بهـا صديان،

وعذرا له لأنه أول قارع لأبوابها، وغير مسبوق بشيء يعتبر فى اختراعه من لبابها، وتلك العادة المحكمة فى أول متكلم.

غير أن له الفضيلة بسبقيته على العالم والمتعلم، فالهجوم على ما يصعب لا يحكمه إلا البطل، وبعد جناية النحل يجنى العسل، إذ الفضل كل الفضل لمن إذا الليل عسعس، طرق العقيلة فى حيها وقد أحدق بها الحرس، ومن تكلم بعده فى شيء من هذا الموضوع فى ديوان فيه أو فى غيره مشروع فعلى أثره عول وبإضاءته فرع ما فرع وأصل ولم أر منهم من هز لنشر طيها عطفا ولا من اقتطف من مشكاة أنوارها قطفا بل هم عن تدوين شئونها فى انقباض وكل يدعى أنه خالى الوفاض إجماعا على الوفاق والتراض، وجنوحا إلى الزمانة بدلا عن الانتهاض، وما أراهم إلا لما تكامل فيها الحسن والإحسان، بهتت العقول فكل عنها منهم اللسان وتركوا القول جملة وتفصيلا، وتساقطوا على غيرها قبيلا فقبيلا

تكاثرت الظباء على خداش فما يدري خداش ما يصيد

وليس هذا بالرأى الحميد، ولا بما يلوى اللبيب فيحيد فقد أطبق العقلاء على أن ما لا يدرك كله لا يترك بعضه أو جله.

وطالما رمت الأخذ بهذه القاعدة فأجد النفس عن الجولان فى ذلك الميدان قاعدة، إذ فقد مواد تقص تلك الأنباء يوجب العجز عن أن تتحمل منها الأعباء سيما وقد ضن على أغبياء جهلاء هذه المدينة التى كانت كل البلاد من محاسنها مدينة وتقاعدوا على ما لديهم وطووا كشحا دون الاقتراح فيه عليهم، مما عسى أن يظن به خبر ذلك الحى، ونشر ما أصبح الآن منه فى ربقة الطى أو له بسالفه أدنى استمداد، يكون عند النهوض عمدة استعداد، بل آل سؤالى منهم ما أملت من الدفاتر، أن أصبح ودهم من قبيل العفا الداثر فكان تقلص ظل الوداد نتيجة

القضية، وسهام البين عين المعروف والعطية، ظنا منهم أن العلم منحصر فى الحصول على ذلك الوطر انحصار المبتدأ المعرف بلام الجنس فى الخبر، وما دروا أن فى بذل ما لديهم إنقاذها من البلا ورفعها عن أن يحل بها من الأرضة البلا فجمعوا بين رذيلتى البخل وكتم العلم جمعا، والحال أنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

فنهض من إجابته عندى فرض عين، وخلافه فى سماء الوداد كسوف وغين يحثنى بإزعاج على أن أجوب تلك الفجاج لأنظم ما سعت الأيام فى نثره وأكمل من الروض ما يحسب من بتره وأضيف إلى أغراضه ما حدث بعد عصره مرسلا عنان القول غير لاحظ لحصره

بدائع تزهو من سناها الخرائد　　　ونظم نثار ما حوته القلائد

أصول لذى التحقيق يبقر باطنا　　　وفى ظاهر الأرقام تلك زوائد

فقلت حملتنى فى قصدك أصرا، وقد فقدت من أبناء العصر تأييدا ونصرا، فلم تزده الإباية إلا حثا واقتراحا ولا نظم البراهين على الإعواز إلا شغفًا وارتياحا فحرك منى ما كان سكن هبوبه وقوى عزمى على فتح ما أغلقت جيوبه فأجبته مستعيذا بربى من حسد سابقى ودونى وتربى لائذا بحوله ومعونته فى السر والنجوى سائلا منه سبحانه أن يجعلنا ممن اعتصم بحبله الأقوى، وأدرجه فى سلك أهل الطاعة والرضا، ووفاه من قصده ما يحب ويرضى.

وعنونته (بإتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس) ولك أن تسميه عبّير الآس من روض تاريخ مكناس، أو حسن الاقتباس من مفاخر الدولة العلوية وتاريخ مكناس.

ورتبته على مقدمة وأربعة مطالب تهذب علم الشيخ، وتفتح ما أغلق على الطالب.

المقدمـة حشوتها من نفـيس الفوائد مايعـود على الخبير بالصـلات والعوائد وينسى الغرثان[1] لذيذ الموائد والعاشق الولهان محاورة الغيد والخرائد.

والمطلب الأول فى اخـتطاط البلاد، وذكر الخـلاف فى نشأتهـا بين الرؤساء والأفراد.

وثانى المطالب فى نعـوتهـا التى أسلت عن الحـسناء والحـسن، وأنست من البقاع سواها كل سهل وحزن.

وثالث المطالب فى تفـصيل تراجم علمائهـا وذوى الفضـائل والحيثـيات من رجالها ووجهائها، وإن انتقلوا إلى غيرها من البلاد، سيان عندى حاضرها والباد.

ورابعها وجيز الإشارة إلى ما توارد علـيها من الأحوال وما مر بها من أنواع الحبور والمحال.

المقدمة

التاريخ لغـة: تعيين الوقت مطلقا، وعـرفا علم يبحث فـيه عمـا مضى من سالف الدهـور وعن أحوال المتقـدمين من الأمم وأسمـاء المشاهيـر منهم ومعـرفة أزمنتهم وأمكنتهم، وسيرهم وعوائدهم، وما يتعلق بحياتهم ووفياتهم.

وينقسم إلى أثرى وبشـرى: فالأول ما قصتـه الكتب المنزلة، والسنة النبوية، والثانى مـا دونه علماء الأمم من الوقـائع والحوادث والحروب، وينقـسم أيضا إلى قديم وحديث، فالقديم: ما كان قبل الإسلام والحديث: ما كان بعده.

وعلى هذا التقـسيم جـرى جل مؤرخى العرب، ولكل أمـة وجيل تقـاسيم اصطلحوا عليها لسنا بصدد التعـرض لها، ثم ما دون أو يدون فى التاريخ إما عام وإما خـاص، فقد يقع فـى الدول من بدء الدنيا، وقد يخـتص بالدولة الإسلامـية

---

(١) الغَرْثان: الجَوْعان.

مثلا، وقد يكون فى أعمار الأعيان ووفياتهم، وقد يكون فى اختطاط البلدان والمساجد والربط وغير ذلك.

وأما أصل موضوعه فأعمال البشر فى كل زمان ومكان، والفحص عن سير المتقدمين من الملوك والعلماء والصلحاء والوقائع الحربية وغيرها، وحالة المدنية والعمران، وقوة الدول وفشلها، وأسباب تقدمها وتأخرها واضمحلالها.

وأما واضع الأثرى منه فهو الله تبارك وتعالى، أنزله على رسله الكرام فى كتبه الناطقة بالحق وأعظمها القرآن، فقد تكررت فيه أقاصيص المتقدمين وأحوال الماضين وخصوصا مع الأنبياء والمرسلين، حتى قال مولانا تبارك وتعالى فيه خطابا لنبينا ﷺ: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ... ﴿١٢٠﴾﴾ [سورة هود آية ١٢٠]، وقال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ... ﴿٥﴾﴾ [سورة القمر آية ٤، ٥]. وفى هاتين الآيتين الكريمتين تنبيه على ما يقصده العاقل من الاطلاع على أحوال الماضين والوقوف على سير الغابرين من الاعتبار والاتعاظ والاستبصار، ولذلك نرى القرآن يتفنن فى إيراد القصة الواحدة وإعادتها بأساليب من طرق البلاغة ويبرزها فى صور شتى على قدر ما فيها من وجوه العبر وضروب النظر، حتى احتوى من ذلك على جم مما كان لا يعرف الوجه الواحد من علوم أقاصيصه إلا أفراد الرهبان، ورؤساء الأحبار، ولذلك وصف نبينا ﷺ كتاب ربنا هذا بقوله: «فيه نبأكم وخبر ما كان قبلكم».

وكذلك أوحى الله تعالى من هذا الفن التاريخى إلى أنبيائه - فى غير ما أنزله عليهم من الكتب أيضا - ما لا يستطاع استقصاؤه، وقد حدث نبينا ﷺ من ذلك بما ملأ الدفاتر، وعلى ذلك جرى سلفنا الصالح، فلم يزل الصحابة رضوان الله عنهم يتفاوضون فى حديث من مضى، ويتذاكرون فى أخبار من تقدمهم من الأمم، واقتدى بهم فى ذلك سادات التابعين وأتباعهم بإحسان إلى يومنا هذا.

وأما واضع البشرى فهو الإنسان وهو قديم الوضع من عهد نبى الله آدم عليه الصلاة والسلام، ومأخذ ذلك هو قوله عندما تيقظ من نومته التى ألقاها الله عليه

- ليخلق حواء من ضلعه - كما ورد فى التوراة: (هذه عظم عظمى ولحم لحمى) إذ قوله هذه حكاية حادثة شاهدها وواقعة حال حققها، ثم ترقى التاريخ بهذا المعنى شيئا فشيئا كسائر العلوم البشرية حتى دون ذلك، وكل شيء يبدو صغيرا ثم ينمو كما هو مشاهد، «سنة الله التى قد خلت فى عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا».

والتاريخ أيضا بمعنى التوقيت أى تعيين الوقت، كذلك قديم الوضع، فقد روى ابن عساكر فى تاريخه بإسناده إلى الزهرى والشعبى، قالا: لما أهبط آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة وانتشر بنوه فى الأرض، أرخوا من هبوطه إلى أن بعث الله سيدنا نوحا عليه السلام، فأرخوا من مبعثه إلى وقعة الطوفان، فأرخوا حتى جاءت حادثة نار سيدنا إبراهيم عليه السلام فأرخوا بها.

ثم اجتمع رأى كل أمة من الأمم على شيء، فأرخ الروم واليونان بميلاد إسكندر الرومى، وأرخ المسيحيون بظهور سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وأرخ بنو إسحاق من مبعث نبى إلى مبعث نبى آخر، وأرخ بنو إسماعيل - من بنيان البيت - حين بناه إبراهيم وإسماعيل - حتى تفرقوا، فكان كلما خرج قوم من تهامة أرخوا بخروجهم ومن بقى بتهامة منهم أرخ بخروج سعد ونهد وجهينة بنى زيد من تهامة حتى مات كعب بن لؤى فأرخوا من موته، ولا زالوا يؤرخون بما كان من الحوادث حتى أتى عام الفيل فجعلوه تاريخا إلى أن حصلت الهجرة فأرخوا بها وبقيت مبدءا للتاريخ الإسلامى إلى الآن[1].

ويعتبر التاريخ بالليالي، لأن الليل عند العرب سابق على النهار، لأنهم كانوا أميين لا يحسنون الكتابة ولم يعرفوا حساب غيرهم من الأمم، فتمسكوا بظهور الهلال، وإنما يظهر بالليل فجعلوه مبدءاً للتاريخ.

(١) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ١/ ٣٠.

وأما ثمرته فالانتفاع بتذكر الحوادث التى حصلت فى الكون خيرا أو شرا، والتبصر فى الأمور والاسترشاد بما فات فى كل ما هو آت للتخلى عن الصفات الذميمة والتحلى بالآداب والأخلاق الحميدة، إذ قصص من قبلنا عبرة لأولى الألباب فى أحوال الدين والدنيا وما يعقلها إلا العالمون.

فإذا اطلع العاقل على سير المتقدمين من الأمم الراقية وأخلاقهم وسياستهم تأسى بهم وقاس نفسه عليهم، فانتصح بأحوالهم فى دينهم ودنياهم، واكتشف عن عورات الكاذبين فيجتنب سوء أعمالهم ووخيم منقلبهم، ووقف على أحوال الصادقين فيقتدي بهم ويحرز لنفسه من معلومات العالمين وتصانيفهم واكتشافاتهم ما يشحذ ذهنه ويزيد فى قوة إدراكه بأقرب الطرق وأيسرها مما لم يحصل عليه من سبقه إلا بعد العناء والكد.

وأما فضيلته فهو من أعظم العلوم وأعزها وأشرفها وأنفعها وأجملها وأكملها فهو أكبر مرب للأذهان ومرق لحالة الإنسان والعمران، وهو فى الحقيقة برنامج ما مضى وتذكرة ما عناه الأولون من أحوال وتقلبات، وتبصرة لأولى الألباب فى المستقبل، وعمر جديد للمطالعين يغنم ولا يهمل وفى فضله قيل:

ألا إن فى التاريخ علما وحكمة ... وفيه اعتبار بالقرون الأوائل
إذا لم تكن بالجسم شاهدت من مضى ... فبالفضل قد شاهدتهم والشمائل
لذاك اعتنى بالكتب فيه أئمة ... جهابذة أولو التقى والفضائل
وهم كل قاض أو فقيه مدرس ... وذو أدب لم يدره باسم جاهل

وقال لسان الدين ابن الخطيب فى صدر أرجوزته رقم الحلل فى نظم الدول:

وبعد فالتاريخ والأخبار ... فيه لنفس العاقل اعتبار
وفيه للمستبصر استبصار ... كيف أتى القوم وكيف صاروا

يجرى على الحاضر حكم الغائب	فيثبت الحق بسهم صائب
وينظر الدنيا بعين النبل	فيترك الجهل لأهل الجهل

وقيل:

إن شئت تكثير عقل فيه مصلحة	لأجلها دارت الأفلاك أدوارا
فانظر لمعنى المواليد التى اختلفت	واقرأ تواريخ من فى الدهر قد صارا

وقيل:

ليس بإنسان ولا عاقل	من لا يعي التاريخ فى صدره
ومن درى أخبار من قبله	أضاف أعمارا إلى عمره

وقيل:

إذا عرف الإنسان أخبار من مضى	توهمته قد عاش حينا من الدهر
وتحسبه قد عاش آخر دهره	إلى الحشر إن أبقى الجميل من الذكر
فكن عالما أخبار من عاش وانقضى	وكن ذا نوال واغتنم آخر العمر

وقيل:

وما التاريخ إن فكرت إلا	رياض تجتنى منها ثمارا
تنادم تارة فيها ملوكا	وأخرى سادة علما كبارا
وآونة تنادم شرب راح	أداروا فى مجالسهم عقارا
تفيدك حالة الماضين علما	ولا تألوك نصحا وادكارا
ترى فيها البلاد وساكنيها	كأنك حاضر معهم جهارا

به يعـرف من خلف سـير من سلـف، ولولاه لجهلت الأنـساب، ونسـيت الأحسـاب، وتقطعت الأسبـاب. ولم يعلم الإنسان أن أصله من تـراب ومآله إلى خراب. وقد ضـمنت مقالتى التاريخيـة التى أمليتها بنادى الخطابة بمكناس خـمسة عشر وجها من فضائله فلتنظر ثَمَّة.

وأقوى دلـيل على فضله وشـفوف شـرفه بين العلوم وقـوع الاستـدلال به والاحتجاج فى القرآن الكريم - الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - فى قوله جل من قائل: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾**﴾ [سورة آل عمران آية ٦٥] وهذا كـما قال العلماء من لطائف الاستدلالات وأنفسها.

وأما حكمه فـإنه يكون مطلوبا فى غالب الحالات، وربما كان فـرض كفاية، وبالجملة فالقول الفصل مـا أفصح به أبو على اليوسى - فى قانونه - إذ قال: كل ما يحتاج فيه إلى شيء من أمور الشرع كتاريخ سكة معلومة، أو مكيال معلوم، أو مسجد عتيق، أو التقى فـلان بفلان من الرواة، أو إمكان التقائه، أو كان فلان من المتقدمين أو من المتأخرين أو من الصحـابة أو لا، وغير ذلك فهو داخل فى العلوم الشرعية المهمة، وما سوى ذلك بخارج عنهـا غير أنه إن أفاد فائدة أخرى كالاعتبار والاستبصار والاهتزاز بوصف محـمود بسماع أخبار من اتصف به من صلاح، أو عبادة، أو زهد، أو شجـاعة أو حلم، أو سخاء ونحوه والانتهـاء عن مذموم عند ذكر من نعي به، أو تـعليم صنعة أو حيلة نافـعة، أو غيـر ذلك من المصالح فـهو محـمود كسـائر العلوم التى ليست مـن أمور الدين كالحـرف والصنائع التى تجلب للإنسان - كـما هو مشـاهد - جزيل المنافع وذلك إن لم يعطل عـما هو أهم منه وإلا فالأهم المقدم.

وأما نسبْـته إلى غيره من أصـول العلوم الأدبية فهو جزئى لـها، وهى اللغة والصرف والاشـتقاق والنحـو والمعانى والبيان والـعروض والقافيـة والخط وقرض

الشعر والإنشاء والمحاضرات، نعم الثمانية الأولى أصول، والأربعة بعدها فروع، كما صرح بذلك أبو البقاء فى كلياته وغيره، قال: ومنها التواريخ والبديع ذيل للمعانى والبيان، وقد جمعها الشيخ حسن العطار فى قوله:

نحو وصرف عروض بعده لغة ... ثم اشتقاق وقرض الشعر إنشاء
كذا المعانى بيان الخط قافية ... تاريخ هذا العلم العرب إحصاء

وقد توقف الشيخ الأمير فى عد التاريخ من علوم العرب وقوفا مع ظاهر كون الأمية فيهم هى الأصل وعمدة التاريخ الكتابة. ونحن نقول توقفه غير ظاهر، لأن العرب أكثر الناس اعتناء بالمحافظة على معرفة الأنساب وأشد الأمم ولوعا بحكاية الوقائع والأخبار والحروب والقصص، وذلك فى أشعارهم كثير، وغير خاف أن شعر العرب مستودع أخبارها، ففيه علومهم وأخبارهم وحكمهم وهو ديوانهم الجامع لمآثرهم، وقد جعل الله تعالى أناجيلهم فى صدورهم، وأغناهم بقوة الحفظ وسيلان الأذهان عن الاحتياج للكتابة وما يتبعها من الوسائل، ولو دفعنا عنهم التاريخ بعدم كتابتهم لدفعنا بذلك أيضا عنهم سائر العلوم الأدبية التى لا ينازعهم فيها أحد وذلك باطل بالضرورة، وسترى فى كلام الحسن بن سهل الآتى قريبا أن علم النسب وأيام الناس عربى الأصل وكفى به ردا لتوقف الأمر.

ثم إن إطلاق الأدب على الاثنى عشر المذكورة مولد حدث فى الإسلام كما أفصح بذلك شارح القاموس، فإن علم الأدب لغة هو: تعلم رياضة النفس ومحاسن الأخلاق. قال أبو زيد الأنصارى: الأدب يقع على كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان فى فضيلة من الفضائل، والأزهرى نحوه كما فى المصباح، ونقل الخفاجى فى العناية عن الجواليقى فى شرح أدب الكاتب أن معناه لغة حسن الأخلاق وفعل المكارم هـ.

وقال ابن خلدون فى مقدمته: هذا العلم يعنى الأدب لا موضوع له ينظر فى إثبات عوارضه أو نفيها، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهى الإجادة فى فنى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم، فيجمعون لذلك من كلام العربَ مما عساه تحصل به الملكة: من شعر عالى الطبقة، وسجع مَبْثُوثة[1] أثناء ذلك متفرقة يستقرى منها الناظر فى الغالب معظم قوانين العربية، مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم به ما يقع فى أشعارهم منها، وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة، والمقصود بذلك كله أن لا يخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحى بلاغتهم إذا تصفحه، لأنه لا تحصل الملكة من حفظه إلا بعد فهمه، فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه[2].

ثم إنهم إذا أرادوا حد هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف، يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهى القرآن والحديث إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم فى كلام العرب إلا ما ذهب إليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية فى أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية، فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم هـ[3].

ونقل أبو على اليوسى فى محاضراته عن الحسن بن سهل قال: الأدب عشرة أصناف: ثلاثة شهرجانية وهى ضرب العود ولعب الشطرنج واللعب بالصوالجة، وثلاثة أنوشروانية وهى الطب والهندسة والفروسية، وثلاثة عربية وهى الشعر والنسب وأيام الناس، والعاشر مقطعات الحديث والسمر وما يتعاطاه الناس بينهم فى المجالس وهذا عام هـ.

---

(١) تحرف فى المطبوع إلى «ثبوتة» وصوابه لدى ابن خلدون الذى ينقل عنه المصنف.

(٢) مقدمة ابن خلدون ٣/ ١١٣٩.

(٣) مقدمة ابن خلدون ٣/ ١١٣٩.

وفى نفح الطيب أن علم الأدب فى الأندلس كان مقصورا على ما يحفظ من التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات[1] الحكايات، قال: وهو أنبل علم عندهم، ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل[2].

وإنما كان التاريخ من الفنون الأدبية لأنه أكبر مرشد للتخلق بمكارم الأخلاق ومجانبة أهل الرذائل والنقائص والفرار من الأشرار، ولأنه أقوى معين ومساعد على نمو قوة ملكة الإنشاء نظما ونثراً للاستشهاد بشواهده والاستمداد من فوائده والائتمار بأوامره والانتهاء بنواهيه وزواجره لمن أبصر رشده وأراد الله هدايته.

وأما استمداده فهو إما من الكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان. وإما من أخبار الأنبياء أهل التحقيق والعرفان. وإما من الحوادث المشاهدة بالعيان. والآثار الضخمة العظيمة الشان. وإما مما دونته رواة الأخبار وأولاه ما نقلته عن مشاهدة وعيان. فإن ذلك يغنى هم كل برهان. ويكسب صاحبه علما يقينا لا يشككه فيه ثان. وإما من الوقائع المسموعة ممن شاهدها من المعاصرين الأعيان.

نعم لا غنى لمن يعول فى النقل على هذا الأصل من اعتبار أحوال المسموع والمسموع منه، أما الأول فبأن يعتبر إمكانه فى نفسه باعتبار العقل والحقيقة فإن دخل فى حيز الإمكان بهذين الطريقين نظر فيه، واعتبره ثانيا باعتبار حال المسموع منه بأن يكون ثقة غير مغفل فإن لم يكن فيهما مانع فحينئذ يعول عليه ويجعله أصلا لديه، وإنما اعتبرنا الإمكان شرطا فى قبول ما جاء من هذه الطريق وفى الحقيقة كل الطرق مثلها لأن غير الممكن لا نظر فيه، إذ هو ملطوم به وجه الآتى به، وأما ما صح عن المعصوم فلا يكون إلا ممكنا إذ:

---

(١) فى المطبوع «ومستطرفات» والمثبت لدى المقرى فى نفح الطيب الذى ينقل عنه المصنف.

(٢) نفح الطيب ١/ ٢٢٢.

لم يمتحنا بما تعيا العقول به حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم

وبهذا يأمن الخائض فى هذا الفن من البناء على المستحيل، وإنما اعتبرنا حال المسموع منه لأنه لا التفات لنقل كذوب، ولا لمن ليس بضابط، فإنه لا بناء إلا على أساس صحيح، وإلا كان الإنسان عاقبته الخيبة، ومن هنا تعلم أن صاحب هذا الفن لا غنى له عن التبصر فى علم الحقائق والرقائق والمهارة فى المواد والطرائق حتى يكون ناقدًا بصيرًا، وبإماطة أذى غثه من سمينه كفيلاً خبيرًا.

ومن طرق استمداده أيضا الآثار القديمة والبناءات الضخمة العظيمة كقصر البنت الموجود أثره بالحِجر بكسر الحاء وسكون المعروف اليوم بمدائن صالح فى وادى القرى على طريق المار من الشام إلى مكة المعظمة، وبقايا الرواق الأعظم، وقصر بصرى حوران، وقلعة صلخد فى حوران، وبقايا قصر المشتى، وبقايا القصر الأبيض، وبقايا الأهرام وما بصعيد مصر من الآثار، وما بمصر أيضا عند أطلال مدينة طيبة القديمة.

وما بالقدس الشريف من بقايا بناء نبى الله سيدنا داود عليه الصلاة والسلام، وما كان شاخصًا من الأطلال قبل، بل وفى الحين الحالى الكائنة بمدينة وليلى[١] من جبل زرهون المعروفة فى زماننا الحاضر بقصر فرعون مع ما اكتشفه علماء الفن من الآثار العجيبة الهائلة ذات البال فى هذا العهد هنالك أيضا وغير ذلك مما يطول.

ومنها السكك المضروبة من ذهب وفضة وغيرهما كورق أهل الكهف، وبعث أحدهم به إلى المدينة كما نص الله تعالى فى كتابه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ونقود السَّبَئِيِّين فى اليمن، ونقود الرومانيين الموجودة فى الزمن الحاضر بمتحف الآثار المكتشفة بمدينة وليلى المشار لها ووهب اللات وغيرها.

---

(١) لدى ياقوت: وَلِيلَى: مدينة قرب طنجة.

وقد شاهدت عين البعض مما ذكر وصور البعض فى كتب المعتنين بذلك الشأن، وكالرسوم والأعمدة والقوائم الضخمة التى يستدل ببقائها من زمان نشأتها القديم إلى زمان الوقوف عليها على أنها منظور إليها بعين العناية والاعتبار والرعاية والرسوم والأطلال مع ما رقم عليها، وسيمر بك بعض ذلك إن شاء الله فترقب، وكل ما يشهد لحقيقة الأمر وينتفى به الشك فى حكاية الواقع.

ثم بعد تحصيل الناظر فى هذا الفن لهذه الأصول فعليه أن يعضدها بأصل رابع وهو التثبت والتحرى ولزوم الصدق وعدم الميل مع غير الحق حتى يتجرد بالكلية، عن الأغراض الشخصية، والمحاباة والحمية، وحكاية غير الواقع ونسبة الأمور والواقع ونسبة الأمور والوقائع لغير أربابها، إذ بالتثبت يثمر مقاله، ويزكو بين البرايا حاله، وبالعلم ينفذ من مهاوى السقوط فى الزلات والأغاليط، وبالأمانة تنتفى عنه الشهوات والأغراض، فيتكلم بلسان الحرية، متجافيا عن الشهوات النفسية، وواقفا عند حد العدل والمدنية.

ولا غرو أن فحول المؤرخين قد استوعبوا أخبار ما تكلموا عليه من أيام الأمم وسطروها على صفحات الدفاتر، ولكن خلطها المتطفلون بدسائس من الباطل لاحظوها بطرف فاتر، ولفقوها بزخارف واهى الروايات، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال فى تلك الحكايات، ولم يرفضوا ترهات الأقاويل، ولم يميزوا بين الصحيح وما ليس عليه تعويل، فتحققهم فى أمرها قليل، وطرف تحقيقهم فى الغالب كليل.

وعن ذلك نشأ ما حشيت به التواريخ من كثرة الدخيل، الذى لا يلتفت إليه إلا سقيم الإدراك عليل، ولا يؤبه به لا فى قبيل ولا فى دبير.

والغرض من التنبيه على هذا تحذير مطالع التواريخ من التعويل على كل قيل، والبناء عليه من غير تفرقة بين صحيح أصيل، وباطل دخيل.

أما الذين ذهبوا بفضل الشهرة والأمانة المعتبرة فى التاريخ فهم قليلون، منهم اليعقوبى فى منتصف القرن الثالث، وابن جرير فى «تاريخ الأمم والملوك» المتوفى عام عشرة وثلاثمائة، والمسعودى فى تواريخه الثلاث «أخبار الزمن» و«الأوسط» و«مروج الذهب» المتوفى سنة خمس وأربعين وثلاثمائة، وابن الأثير فى كامل التواريخ المولود سنة خمس وخمسين وخمسمائة، المتوفى سنة ثلاثين وستمائة. وابن خلدون فى كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر، المتوفى رمضان سنة ثمان وثمانمائة.

وتواريخ هؤلاء من بدء العالم إلى أيامهم، وقد جاء من بعدهم فى كل زمان ومكان من استدرك ما فاتهم وذيل عليهم بتدوين ما قصرت عنه حياتهم واستمر ذلك إلى وقتنا هذا وهو ثانى عشرى رجب الفرد الحرام عام تسعة وثلاثين وثلاثمائة وألف، فكثرت بسبب ذلك موضوعات هذا الفن وتنوعت أساليبه، وتعددت أسبابه، حتى لو رام أحد تقصّى ذلك لعجز.

وقد ذكر المسعودى جملة كبيرة منها وتاريخه لغاية سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة فما ظنك بما بعد ذلك.

وقد عد الشيخ عبد الرحمن بن حسن الجبرتى فى كتابه «عجائب الآثار» جملة صالحة منها، وسرد صاحب «كشف الظنون» من التواريخ فى زمانه ثلاث عشرة مائة، وقد أوجز إذ لا موقع لهذا العدد فى جانب ما فاته من ماض عنه فأحرى ما هو آت بعده.

فعلى الإنسان أن يستفرغ فى الاستطلاع جهده ولا يوقع نفسه فى ورطة الحصر، فإنه ما رامه أحد إلا تعدى طوره. وأفنى عمره ولم يبلغ غوره. وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها.

وأما مسائله فهى عبارة عن كليات حكمية مأخوذة من التمحيص التفصيلى يهتدى بها فى أحوال الدول ومآل حياتهم، كقولهم: كل دولة لا بد لها من عصبية

فى أول نشأتها، وقولهم: الطمع والترف يؤديان إلى دمار الممالك، وتعطيل المسالك، وقولهم: إن الدول إذا تهممت بالطرف والذخائر وقصرت همها على الحلى والحلل والفرش الهائلة والمبانى المشيدة دل ذلك على تحلل تركيبها واضمحلال ضخامتها وفناء رونقها وحسنها ونقصان كمالها وآل أمرها إلى الاندثار والدمار، وقولهم: العدل سور لا يغرقه ماء ولا تحرقه نار ولا يهدمه منجنيق وقولهم: عدل قائم، خير من عطاء دائم، وقولهم: لا يكون العمران، حيث لا يعدل السلطان، وقولهم: قيمة العدل ملك الأبد وقيمة الجور ذل الحياة، وقولهم: العدل يسع الخلق والجور يقصر عن واحد، وقولهم: من كثر ظلمه واعتداؤه قرب هلاكه، وقولهم: رأس المملكة وأركانها وثبات أحوال الأمة وبنيانها العدل والإنصاف، وقولهم: الظلم نقيصة لا يألفها إلا كل متوحش جاهل، والعدل فضيلة عظيمة لا يتحلى بها إلا كل متمدن عاقل.

العدل روح به تحيا البلاد كما ... دمارها أبدا بالظلم ينحتم

الظلم شين به التعمير ممتنع ... والعدل زين به التمهيد ينتظم

وقولهم: إن خير السلاطين من عمل فى أمر الرعية بالعدل والإنصاف ولم يقبل بغى بعضهم على بعض، وقولهم الملك لا يتم عزه إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أوامره ونواهيه، وقولهم: بالعدل تطول المملكة وتصح الرعية وتكثر العمارة، وقولهم: إذا هم الوالى بالجور وعمل به أدخل الله النقص فى أهل مملكته حتى فى التجارات والزراعات وفى كل شيء، وإذا هم بالخير أو عمل به أدخل الله البركة على أهل مملكته حتى فى التجارات والزراعات وفى كل شيء ويعم البلاد والعباد.

واعلم أن مدار جل هذه الكليات على العدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [سورة

النحل آية ٩٠]، وأن العدل هو القسطاس المستقيم فى الرعايا والعوالم، فإن الله تعالى خلق العوالم مختلفة متقابلة متضادة مزدوجة، ويعسوب ثباتها الكفيل بسعادة حياتها هو العدل فيها يربط شئونها بالطريق الوسط، الخالى من التفريط والشطط، فإن ذلك به تطمئن القلوب من الشعوب، وبه ترتبط على التعاضد فى مدلهمات الخطوب، وبضده تنال مهاوى الفشل والتفرق والاندثار، وتلاقى الأمة من شقاوة الحياة سائر الأخطار.

فحقيق على كل دولة رامت السعادة والثبات أن تجعل العدل أساس تصرفاتها، ومركز سائر تقلباتها، وأن تتعاهد إصلاح ما اختل من ذلك كل حين، وأن تجعله محور دوائر المراقبة منها على ممر الأوقات والسنين، وليس يتأتى ذلك إلا بإدمان النهضة لتصفح أحوال المتولين، والمبادرة لطرد الظالمين، والضرب على أيديهم، وإظهار مزايا من وجد منهم لطريق العدل سالكا، ولسائر الأغراض الشخصية فى ولايته تاركا، فقد قيل لبعض الحكماء: بم يزول الملك؟ قال: بغش الوزير، وسوء التدبير. وفساد الطوية، وظلم الرعية، ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ... ﴿٢٦﴾﴾ [سورة ص آية ٢٦].

هذا وقد آن أن نتخلص للمقصود فنقول: حيث كان فن التاريخ تقصر الحافظة عن الإحاطة بإفادته، وتنقض خطا القلم عن الإلمام بسائر مهماته، تعين صرف العنان من الإنسان لتحرير ما هو الأهم به فى طوره الآن.

وذلك شيئان أصل تخطيط بلدة أقيم فيها. وأحوال دولة هو الآن بين رجالها، وأهمية الأول هى باعتبار أن جاهل تخطيط بلدته، التى بها مسقط رأسه ومحط رجال أهل جلدته، يكاد مع انتفاء الموانع أن لا يضرب له فى الإنسانية بسهم من فئته، ويعد ذاهلا حتى عن أصل نشأته.

وأهمية الثـانى هى باعتبار أن جاهل ما هو بين الأظهـر حال، يكاد يحصل اليأس منه بمعرفـة ما لمن بعد عنه ممن تقدم من الأحوال. فكانت معـرفة الشخص بتخطيط بلدة إقامته، وأحوال رجال دولته، عـنوانا كاملا لنجابته، ومحكا واضحا لشفوف قدره ومكانته.

وبهذه الطريقـة تعين علىّ أن أجعل إفادة الطالب بملخـص تخطيط وتقلبات بلدتنا، ووقائع وأحوال رجال دولتنا، من واجب الحقـوق المرعية، والتحف السنية المرضية. فأقول:

من الرازق الوهاب أرجـــو هداية ... وتسـديد قـول بين كـل الخليـقـة

وفتحا قريبا يذهب الرين عن حشا ... أقـام بهـا عـجـب وداء ضـغـينة

ويشرح صـدرا ضيـقا حـرجا بما ... ألم من الأوزار من سـوء سيـرة

المطلب الأول

بلدتنا مكناســة الزيتون بكسر الميم كـما جزم به ياقـوت الحموى فى مـعجم البلدان والفيروزابادى فـى القاموس. وقد تقال بدون هاء عند عـدم الإضافة، ولم تكن إضافـتها للزيتون مـقارنة لنشأتهـا، وإنما حدثت بعد ذلك عند إنشـاء الزيتون بها، وإنما صارت تضـاف إليه وقتئذ للتـحرز عن مكناسة القبـيلة الحالة أحواز تازا التى بينها وبين فـاس مائة وثمانيـة وعشرون كيلو مـترا للذاهب من باب الساكـمة بالكاف المعقودة أحد أبواب فاس، والساكـمة التى ينسب هذا الباب إليها هى امرأة مجـذوبة توفيت قـرب عام خـمسين ومائـة وألف ودفنت يسار الخـارج من الباب المذكور، فصار الباب ينسب إليها ذلك.

ووجه تسمية بلدتنا بمكناسة سكنى طائفة من القبيلة البربرية الشهيرة بمكناسة بها وذلك فى سـالف الدهور ونسبة هذه القبـيلة هى لجدهم مكناس بن ورصطيف البربرى، وتلخيص ما فى المقام أن فرقة من قـبيلة مكناسة نزل البعض منها شرقى

مدينة فاس وهم الذين أفصحنا سابقا بكون مقرهم أحواز تازا ونزل بعض آخر منها غربى مدينة فاس علـى مسافة ستين كيلو متـرا وهم سكان هذه المدينة فى الأعصر المتقادمة.

وأشار ابن الرقيق إلى أنهم هم الذين أنشـئوها، وأن سكانهم أولا كانت فى بيوت الشعر، ثم حملتهم الثروة على التخاصم وإجلاء الأقوى للأضعف، فصاروا بذلك يتخـذون الدور بموقع مكناسة ويتابع بعـضهم فى ذلك بعضا إلى أن كـثرت دورها وصارت من أعاظم المدن، وصرح بذلك حسـن بن محمد الوزان الغرناطى ثم الفاسى الشهير فى أوربا بجان ليون فى «رحلتـه» وعليه فنسبتها إليهم لإنشائهم لها وسكانهم بها، وقد كان اختطاطهم لهـا قديما قبل الإسلام كما أفصح به بعض المؤرخين، وصـرح بعض المعاصـرين من الأوربيين فى مـؤلف له فى مكناسـة بأن ذلك كان فى القرن الرابع قبل ميلاد سيدنا عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وكان تمدنها وقتئذ عبارة عن قرى متعددة كما يأتى عن ابن غازى.

تنبيهان اثنان: الأول: ما سبق من أن بين فاس ومكناسة ستين كيلو مترا هو الذى حرره أهل الفن من الدولة الحامـية الآن، وقد حققوا ذلك بعـلامات نصبوها على رأس كل عدد كما هو شأنهم فى أمثال ذلك، وعليه فما وقع فى رحلة حسن ابن محمد الوزان من أن بين فاس ومـكناس ستة وثلاثين ميلا[1] وكذا ما وقع فى كتاب فتوحات مولاى رشيد، ومولاى إسماعيل لمؤلفه مويت الفرنسى، من أن بين مكناسة وفاس الجديد ثمانية وأربعين ميلا.

وكذا ما وقع فى الروض الهتون هنا من قوله مرة إن بين مكناس وفاس نحوا من ثلاثة برد ونصف بريد.

وقوله: مرة أخرى إن بينهما نحو أربعين ميلا. هـ.

---

(١) وصف إفريقيا لابن الوزان - ص ٢١٩.

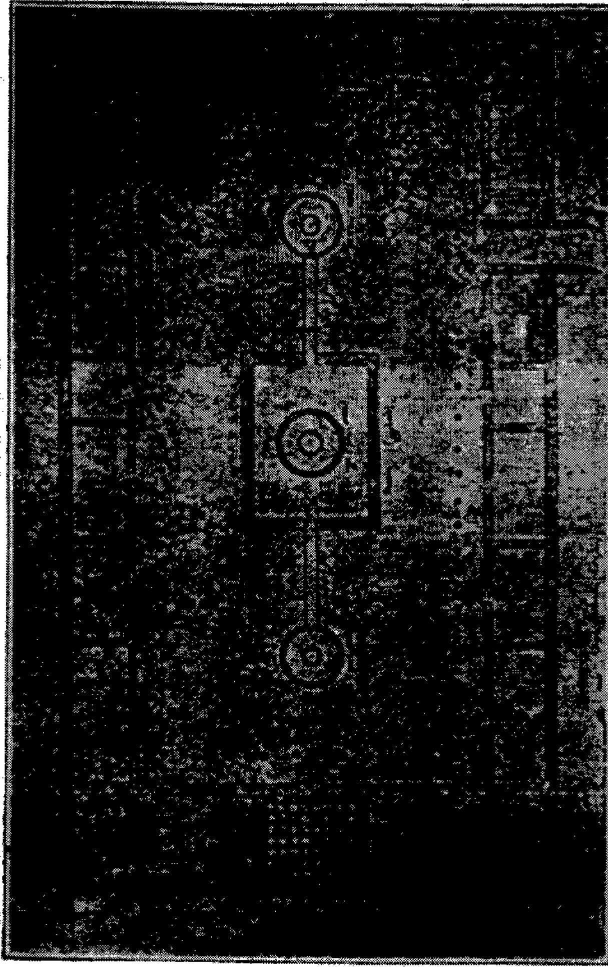
كله مبنى على المتعارف عند أهل كل وقت أو ناحية فى قدر الميل فإنه يختلف باعتبار ذلك؛ ولذلك وقع الاختلاف فى حد الميل إلى أقوال كثيرة كما فى القاموس وغيره وأيضا فقد كانت التقديرات مبنية على التقريب غالبا عند المتقدمين، وكذا يقال فى المسافة التى بين تازا وفاس فإن القدر الذى قدرناه فيها هو الذى حرره أهل الفن الآن وحققوه على الوجه السابق، فينبغى أن يختبر به قول الروض هنا إن بينهما نحوا من سبعة برد.

ومن أبين طرق التوفيق أن يقال: إن المسافة التى قدر من قدمنا ذكرهم هى باعتبار الطرق التى كانت مطروقة فى أزمنتهم والطرق الموجودة الآن هى غير تلك، لأنها تفارقها تارة وتجامعها أخرى، بحسب ما يقتضيه الخط الهندسى العصرى بالنسبة للسهل والوعر منها كما هو مشاهد وهو جمع حسن والله أعلم.

ولا تظن أن تحرير هذا المبحث لا أهمية له فإن عليه ينبنى مشروعية قصر الصلاة وعدمه لقاطع تلك المسافة، وذلك مما كان يتردد فيه أهل العلم لعدم تحرير قدرها.

الثانى: جزم فى الروض هنا بأن مكناسة فرقة من زناتة، والذى جرى عليه ابن خلدون والقلقشندى فى صبح الأعشا وابن الخطيب فى الحلل الموشية وغيرهم أن مكناسة قبيلة مغايرة لزناتة، وإنما جعلت الإضافة للزيتون فارقا لأن الشيء يتميز عن غيره بخاصته التى اختص بها، إما باعتبار الوجود، وإما باعتبار الكثرة، والثانى هو المراد هنا.

فإن مدينتنا هذه كانت امتازت بكثرة زيتونها كثرة تليق بإضافتها إليه، وإنما قيدت بقولى كانت وبقولى كثرة تليق إلخ، لأن تلك الكثرة امتازت بها قبل لم تبق لهذا العهد ولا فيما قبله بكثير بما توالى عليها من الفتن والأهوال والحروب واختلاف الدول وتقلبات الأحوال، سنة الله التى قد خلت فى أرضه وعباده ولأن



صورة تقريبية تمثل الهيأة التى كان عليها قصر الستينية على عهد السلطان الأعظم مولاي إسماعيل

زيتون فاس كان يزيد على زيتونها بنحو ثلاثة أعشـار وما وقع فى كتاب الاستبصار بعجائب الآثار المؤلف سنة سبع وثمانين وخمسمائة من أن زيت مكناسة أكثر زيت فى جميع المغرب[1] يتعين تأويله بما يوافق ما ذكرناه.

قال ابـن غازى فى روضه: وغـارس جل زيتونـها وزيتـون القرمدة بـفاس وزيتون رباط تازا هو عامل بـلاد المغرب محمد بن عـبد الله بن واجاج أوائل أيام الموحدين، وقد كان يبلغ ثمن حب زيتونهـا عام حمله خمسة وثلاثين ألف دينار ـ أى مائة وخمسة وسبعين ألف فرنك تقريبا باعتبار صرف وقتنا هذا وهو رجب عام تسعة وثلاثين وثلاثـمائة وألف = وذلك قبل أن يستولى على المـغرب تخريب بنى مرين عند اختلال أمر الموحدين[2].

قلت: وهذا القدر الذى كـان يبلغه ثمن الحب إذ ذاك له بال بالنسـبة لذلك الزمان وسكته وسنبـينه فيما يأتى بحول الله على مبـدأ الدولة الموحدية وعلى وجه نسبتها للتوحيد وابن غـازى المذيل بهذا على روضه تأتى ترجمته فى المحمدين من رجال مكناسة إن شاء الله.

ومكناسة من البلادات العـظيمة كما في شرح القـاموس وكتاب الاستـبصار ودونك لفظ الاستبصار: وهى من البلادات العتيقة المجيدة، إلى أن قال: وهى من عز[3] بلاد المغرب، لها أنظار واسعة[4] وقرى عامرة وعمائر متصلة[5].

وقال غـيره: وكانت المداشر مـحدقة بهـا من كل جهة، كل مدشـر بمزارعه وغراسـاته ومرابعه إلى أن ظهر فـساد السعـيد بن عبد العـزيز فى أرض المغرب،

(١) الاستبصار فى عجائب الأمصار، ص ١٨٨.
(٢) الروض الهتون. ص٥٠.
(٣) في المطبوع: «أعز» والمثبت من الاستبصار الذي ينقل عنه المصنف.
(٤) في المطبوع: «متسعة» والمثبت رواية الاستبصار الذي ينقل عنه المصنف.
(٥) الاستبصار، ص ١٨٨.

وذلك فى العشرة الثانية من القرن التاسع، فخلا المداشر وانجلى عنها أهلها، خلا من مداشرها اثنا عشر ألف مدشر والبقاء لله تعالى.

قلت: وهى واسطة عقد عواصم المغرب فاس ومراكش.

واقتصر ياقوت الحموى المولد الرومى الأصل البغدادى الدار المتوفى بحلب سنة ست وعشرين وستمائة فى كتابه «معجم البلدان» على أنهار اسم جامع لمدينتين صغيرتين على ثنية بيضاء بينهما حصن [جواد] اختط احداهما يوسف بن تاشفين والأخرى قديمة(١).

قلت: وكأنه يعنى بالقديمة تاورا المشتملة زمن عمارتها على الحمامات والمسجد الجامع، وغير ذلك مما يأتى لأن الخراب وإن وقع فى مكناسة القديمة سنة خمس وأربعين وخمسمائة فإن تاورا وغيرها عمرت بعد ذلك إلى سنة ست عشرة وستمائة كما يأتى بحول الله فترقب، وقد كان ياقوت فى هذا التاريخ موجوداً وتأخرت وفاته عنه بنحو عشر سنين كما تقدم.

لكن فى «نشق الأزهار» لشمس الدين محمد بن أحمد بن إياس الحنفى ما نصه: أجل مدائن مكناسة مدينتان إحداهما تسمى تاقررت(٢) وهى مدينة مرتفعة عن الأرض، وشرقها نهر عليه أرحاء بالماء، وبها بساتين، وأهلها ذوو مال وثروة، وإليها ينسب عسل النحل المكناسى.

والمدينة الأخرى تسمى بنى زياد، وهى مدينة عظيمة لم يكن فى المغرب أنزه منها وبها نهر يجرى فى شوارعها وأسواقها ودورها، وبها حمامات وهى مدينة مشهورة.

وكتاب «نشق الأزهار» هذا فرغ مؤلفه من تأليفه فى رابع عشر شعبان عام اثنين وعشرين وتسعمائة هجرية فصاحبه متأخر عن ياقوت، وقد صرح بأن ثانى

---

(١) معجم البلدان ٥/ ١٨١.

(٢) فى المطبوع: «أكرارت» والمثبت رواية نزهة المشتاق ١/ ٢٤٤ التى ينقل عنها المصنف.

المدينتين المعتبرتين فى مكناس بنى زياد، فمن الجائز أن تكون هى المرادة لياقوت بالمدينة القديمة، ويقوى ذلك ما يأتى عن نزهة المشتاق من أن مكناسة مدينة بنى زياد وأنها مدينة عامرة لها أسواق وحمامات وديار حسنة والمياه تخترق أزقتها، وأنها لم يكن فى أيام الملثم أعمر قطر منها إلخ.

ولا يمكن أن يكون عنى بالقديمة وليلى لأن مدينة وليلى لا تعرف باسم مكناس، وإن كانت مجاورة له، ولأنها كانت بطلت عمارتها وخربت إلا النادر منها قبل ولادة ياقوت بما يزيد على مائتين من السنين، ولأن مكناسة القديمة بربرية كما تقدم ووليلى رومانية كما يأتى ولغير ذلك مما سيفصل بعد.

ولا تنافى بين الصغر الموصوفة به مدينة مكناس فى نقل ياقوت وبين العظم الموصوفة به فى نقل شارح القاموس لأن شارح القاموس تأخر زمنه عن زمن ياقوت بالكثير فكل منهما وصفها بما كانت عليه فى زمنه.

وزمن شارح القاموس متأخر عن زمن المولى إسماعيل مصير مكناسة على ما هى عليه من العظم حتى الآن فلذلك وصفها به، وأما المدينة الثانية فى كلام ياقوت فهى الموجودة الآن.

وقول المعجم على ثنية بيضاء قال الراغب: الثنية من الجبل ما يحتاج فى قطعة وسلوكه إلى صعود وحدور فكأنه يثنى السير.

هذا هو الواقع هنا فإن الآتى لمكناسة من ناحية زرهون يكون من عبوره وادى بُورُوح ـ بضم الباء وسكون الواو وضم الراء بعدها واو ساكنة ثم حاء مهملة ـ فى صعود إلى أن يدخلها، وكذلك الآتى إليها من ناحية فاس من عبوره وادى وَيْسَلَنَ بفتح الواو وسكون الياء وفتح السين المهملة بعدها وفتح اللام ـ كذا رأيته مضبوطا بخط صاحب الروض الهتون ـ يكون أيضا فى صعود إلى أن يدخلها من سائر أبوابها والخارج منها ينحدر.

وقول المعجم بينهما حصن كأنه يعنى به قصر عامل مكناسة قديما الآتى فى كلام ابن غازى وسيأتى عنه أيضا إطلاق اسم الحصن عليه كما أطلقه ياقوت، والظاهر أن هذا الحصن كان فى زمن ياقوت لازال قائم الجدران فلذلك اعتبره، وإن كان قد خلا قبل ذلك ومسته أيدى التخريب وقت فتح مكناسة الآتى، ثم اضمحل أثره بعد بالكلية، ولا يصح أن يعنى به القصبة الأمرينية لأنها إنما حدثت بعد وفاة ياقوت بما يقرب من خمسين سنة كما يأتى فى محله ولعدم صدق الثنية عليها فى كلامه.

وقوله اختط إحداهما يوسف بن تاشفين. هـ.

يوسف هذا هو أعظم أمراء المرابطين ولد سنة أربعمائة وتوفى فى مهَل محرم فاتح سنة خمسمائة، فيكون عمره على هذا مائة سنة.

وقد صرح ابن غازى بأن المدينة المسماة بمكناسة فى زمنه إنما أحدثها المرابطون بعد ظهور الموحدين، وأول الموحدين ظهوراً المهدى بن تومرت، وهو إنما دخل عاصمة المرابطين مراكش فى صفة ناسك قبل الإمارة عام أربعة عشر وخمسمائة كما قاله غير واحد منهم علي بن محمد بن أحمد بن عمر بن أبى زرع من أهل المائة الثامنة فى كتابة الأنيس المطرب.

والأمير وقت دخول المهدى بن تومرت لمراكش هو علي بن يوسف المذكور وأيضا قد اقتصر ابن أبى زرع على أن بناء حصن تاجرارت كان سنة خمس وأربعين وخمسمائة كما يأتى، وحيئذ فكيف يكون مختط المدينة الحادثة هو يوسف وهو قد مات قبل اختطاطها بنحو ست وأربعين سنة، فالصواب أن المختط لها من المرابطين من بعده.

فصل: قال فى الروض وكانت البلاد قبل فتحها ديار كفر مجوس ونصارى، وحاضرتها إذ ذاك مدينة يقال لها وليلى سميت باسم ملكها وليلى، وآثارها عظيمة



آثار مدينة وليلي الأزلية

باقية لهذا العهد بأرض خيبر من ناحية جبل زرهون تعرف اليوم بقصر فرعون، هـ. من خطه[1].

وقال بعد هذا: وبأسفله ـ يعنى جبل زرهون ـ على اثنى عشر ميلا من مكناسة بموضع يقال له تازجا أثر بناء عتيق ضخم يسمى قصر فرعون، وكان ثَمَّ سوق غبار يجتمع فيه يوم الأربعاء، وتنسب هذه السوق لَوَلِيلَى، ويذكر أن وليلى كان ملك الروم وكان له هناك تلك المدينة، وهى كانت حاضرة تلك البلاد كذا ذكره بعض المؤرخين[2].

ولما استولى الفتح على المغرب شمل مدينة وليلى وغيرها وبها نزل السيد الطاهر النقى التقى إدريس بن عبد الله رضى الله تعالى عنه على شيخ أَوْرَبَة حسبما هو مذكور فى تاريخه من خطه[3].

قلت: تازجا ضبطه ابن غازى بفتح الزاى، ومدينة وليلى رومانية فتحها سيدنا عقبة بن نافع عام اثنين وستين، واعتنق أهلها الدين الإسلامى على يد والى سيدنا عمر بن عبد العزيز عام مائة، ثم استقلوا أيام العباسيين وقام بالأمر عبد المجيد الأوربى إلى عام اثنين وسبعين ومائة سنة، وفيه نزلها مولانا إدريس بن عبد الله الكامل ثم بنوه من بعده إلى أن تغلب موسى بن أبى العافية عام خمسة وثلاثمائة، وفى عام خمسين وأربعمائة دخل أميرها مهدى بن يوسف الجزنائى فى طاعة يوسف بن تاشفين، وبقيت فى طاعة لمتونة إلى عام واحد وأربعين وخمسمائة، فحاصرها عبد المؤمن بن على الموحدى ولما تمكن منها طمسها وخرب آثارها.

وفى عام أربعة وخمسين وخمسمائة جدد بالقرب منها حصنا سماه تاقرارت، كذا وقفت عليه بخط بعض عدول أعلام مكناسة الأثبات، وسيأتى لنا مزيد كلام ونقد فى ذلك، وكون البلاد كانت ديار كفر إلخ، لا يخالف ما سبق من كون مكناسة بربرية، لأن أنواع الكفر التى ذكرها كلها كانت موجودة فى بربر هذه البلاد.

---

(١) الروض الهتون - ص ٥١.

(٢) الروض الهتون - ص ٦٩.

(٣) الروض الهتون - ص ٦٩ - ٧٠.

وقول ابن غازى: وكانت البلاد ـ يعنى بلاد مكناسة وما والاها وما هى منه من بلاد المغرب الأقصى هذا هو المتعين فى محمل كلامـه بقرينة قوله: قبل فتحها إلخ، لأنه أشار به للفـتح الذى كان فى صدر الإسلام، إذ هو الذى كـان فيه أهل البلاد على ما وصـفهم به وهو كان عمـوميا فى المغرب الأقـصى لا فى خصوص مكناس، وبقرينة قوله وحاضرتهـا إلخ لأن مسمى مكناس لم يكن فى القديم قطراً ولا جهـة متسـعة فيهـا الحواضر والبـوادى والقواعد وغـيرها، وإنما مسـماه بلاد مخصوصة فى مساحة معينة ذات قـرى بعضهم يطلق على جميعها اسم المدينة كما تقدم عن ابن الرقيق وغيره، وبعضهم يتـسامح فيطلق على كل قرية مدينة كما يقع ذلك فى القرطاس وغيـره، وبعضها لا يسمح لها بواحـد من الإطلاقين كما يأتى عن ابن غـازى، وذلك باعتـبار تقلبـات الأحوال عمـارة وخرابا ولما سـبق من أن مكناسة سميت باسم مختطيها وسكانها ولا قائل بأن مدينة وليلى بناها مكناسة ولا سكنوها بل سيأتى أن مكناسة بمعنى القبيلة هى التى خربت أولا مدينة وليلى.

فإن قلت قول ابن غـازى من قطر مكناسة وضواحيهـا جبل يقال له زرهون وبأسفله على اثـنى عشر مـيلا من مكناسة بموضع يقـال له تازجا، أثر بناء عـتيق ضخم يسمى قـصر فرعون ويذكر أن وليلى كـان ملك الروم، وكان له هناك تلك المدينة إلخ، صريح فى كون مكناسة قطراً من قوله من قطر إلخ، وفى كون زرهون ومن جملته وليلى منه لقوله ومن ضواحيها إلخ، فإن ضواحى البلاد جهاتها.

قلت: لا صراحـة فى ذلك ولا متمسك فـيه أصلا، أما قـوله قطر مكناسة فليست الإضافة فيه بيانية، وإنما هى على معنى فى أى من القطر الذى فيه مكناسة بقريـنة قوله: على اثنى عـشر مـيلا من مكناسـة، وأما قـوله: وضواحـيها فـإنه تصحيف والـذى فى نسخة عتيـقة ونواحيهـا بالنون أى جمع ناحية وعليـه فالأمر واضح، إذ النواحى بمعنى الجهـات، وهى ظرف متسع لا تعيين فـيه. وعلى فرض

أنه لا تصحيف فيه وأن الواقع فى النسخ كلها وضواحيها بالضاد نقول: إنه لا حجة فيه لأن الضواحى لها إطلاقات منها النواحى وحينئذ فالنسختان متوافقتان، ثم بعد كتبي هذا وقفت على نسخة «الروض الهتون» التى بخط مؤلفها فإذا فيها ما لفظه: من نظر مكناسة وضواحيها جبلا كبيراً إلخ فانزاح الإشكال من أصله وظهر أن النساخ صحفوا نظر بقطر، وعليه فمعنى كون جبل زرهون من نظر مكناسة أنه تابع لها، ثم إن كلام ابن غازى فى غير موضع مبين للتغاير بين مكناس وزرهون، من ذلك قوله: فى قصر فرعون الذى هو من جملة جبل زرهون أنه على اثنى عشر ميلا من مكناسة إلخ، فهو ظاهر فى مغايرة ما هو من زرهون لمكناسة بل وصريح فى مغايرة قصر فرعون الذى هو مدينة وليلى عنده لمكناس.

ويعضد ذلك أيضا قوله وهى، أى وليلى كانت حاضرة تلك البلاد انتهى فإنه مبين للمراد من عبارته الأولى أعنى قوله: وحاضرتها إذ ذاك مدينة إلخ، وأنه لم يرد بها بلاد مكناسة بالخصوص بل هى وما جاورها ويعضده قوله قيل ولم تكن مكناسة فى القديم ممدنة وكانت حوائر إلخ، فإنه صريح فى أن مسمى مكناسة مغاير لحاضرة البلاد مدينة وليلى ويعضده أيضا قوله قبل ذلك: إن مكناسة هى كما وصف ابن الخطيب إذ يقول:

وكفاك شاهد حسنها وجمالها ... أن أوثرت بالقرب من زرهون

فهو اعتراف منه ومن ابن الخطيب بأن زرهون ليس منها وإنما هو قريب منها وهو كذلك، ويعضده أيضا قوله: قيل ولم يكن لهذه الحوائر قديما مدينة مسورة إلخ، فهو كالصريح فى أن ما كان قديما ممدنا مصورا وهو حاضرة البلاد وليلى ليس من مكناسة إلى غير هذا من نصوصه ونصوص غيره الدالة على المراد، وأن زرهون ووليلى أعنى قصر فرعون لا دخل لهما فى مسمى مكناسة، وحينئذ فلا يشكل قوله أولا وثانيا أن مدينة وليلى هى حاضرة البلاد على ما تقرر - والعيان

يغنى فيـه عن البيان - من أن مدينة وليلى هى من جـبل زرهون الموالى لمكناسة لا من نفس بلاد مكناسة، ولا يـكون فى ذلك أدنى متمسـك على أن مكناس القديمة هى مدينة وليلى كما قد توهم لما بيناه، ولأن ذلك ليس بمعروف، وقد تضافرت[1] نصوصهم على أن مـولانا إدريس الأكبر لما قدم المغـرب الأقصى نزل بمدينة وليلى ولم يقل أحد منهم نزل بمدينة مكناس، ولا صرح أحد من متقدمى المؤرخين بنسبة مديـنة وليلى إلى مكناسة، وعلـيه فـما وقع لبـعض المعاصـرين من الأوربيين فى مؤلف له وصف فيـه مكناس من قوله جعلت مكناس قاعدة وقـتية لمولاى إدريس فى القرن التاسع قبل بناء فاس، هـ.

لعل مستنـده فيه فهم كلام ابن غـازى على غير وجهـه، وقد بان لك وجه الحق فيه، وهذا والله أعلم هو الذى أوقع صاحبنا النحرير النقاد أبا عبد الله محمد بوجندار فى الجزم بأن مدينة مكناس القديمة هى المدينة الأثرية التاريخية وهى مدينة وليلى فى كلماته الذهبية.

وقول ابن غازى سميت باسم ملكها جزم بهذا هنا وتفصي عن بعد ذلك فى قوله ويذكر أن وليلى إلخ.

وقـد رأينا مـؤرخى الأوربيين اليـوم ينكرون وجـود ملك مـسـمى، بذلك ويقولون: إنه اسم بربري يراد به فى لسان البربر النبات المسمى بالدفلا، هذا أصله عندهم، ثم أطلقوه على المدينة ولعله لكونه كان كثيراً بواديها وانظره مع ما جزم به البكرى فى المسـالك، مِنْ أنّ وليلى هى طنجـة بالبربرية، نعم إن كـان وليلى فى لسان البربر يطلق على الأمرين النبات المذكور وطنجة فلا إشكال.

(١) في المطبوع: «وقد تظافرت» وتضافرو عليه - بالضاد المعجمة - تعاونوا وضافر كل منهم الآخر.

وقول ابن غازى بأرض خيبر كذا سمى هو محل قصر فرعون فيما نقلناه عنه أولا، وقد سماه فيما نقلناه عنه ثانيا بتازجا، والاسمان معا غير معروفين فى موضع قصر فرعون المعروف بهذا الاسم الآن ولا قبله فيما نعلم، والمعروف إطلاق خيبر عليه هو الجهة العليا الشرقية المقابلة الداخل من باب الحجر أحد أبواب زاوية زرهون التى بها ضريح البضعة النبوية الطرية الطيبة الإمام إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن مولانا علي بن أبى طالب، ومولاتنا فاطمة الزهراء بنت إمام المرسلين وحجة الله على العالمين نبينا محمد صلى الله عليه وآله وأصحابه الكرام الطاهرين.

كما أن المعروف بتازجا، هو الجهة العليا غربا التى تلى يمين الداخل من الباب المذكور للزاوية المذكورة، وما نزل عن الباب المذكور خارجا عنها يقال له تحت تازجا بهذا الاسم الإضافى يعرف حتى الآن، نعم يوجد فى عرصة بعد وادى وليلى هناك أثر قوس كان قائما هناك على هيئة عمل قصر فرعون فيظهر من ذلك أن عمارة قصر فرعون كانت واصلة لهذا المحل وأن ابن غازى لذلك أشار بالاسم الثانى، وأن اسم المحل حدث فيه بعد ابن غازى تصرف بما ذكرناه وأما الاسم الأول فالله أعلم كيف وقع له فيه.

وقول ابن غازى فى المنقول عنه أولا من ناحية جبل زرهون اهـ. مع قوله فى المنقول عنه ثانيا وبأسفله يعنى جبل زرهون أسفل منه، وليست هى منه حقيقة، وأظن أن أبا القاسم الزيانى فى رحلته به اقتدى فى قوله أن مدينة وليلى قرب زرهون وليس الأمر كذلك فالصواب قول ابن أبى زرع فى أنيسه، والجزنائى فى جنَازَهرْ الآس، والحلبى فى دره، أن مدينة وليلى قاعدة جبل زرهون ومثله ما نقله فى القرطاس عن البرنسى من أن وليلى التى دفن بها المولى إدريس هى من زرهون زاد غيره أنها بالطرف الغربى منه، اهـ.

قلت: والابتداء الطبيعى لجبل زرهون المتميز عن أرض بلاد مكناسة فى طريق الذاهب منها للزاوية المذكورة هو أصل المحل المعروف هناك بعقبة العربى ـ بفتح العين والراء وياء ساكنة بعد الباء ـ فكل ما بعد ذلك فهو منه ومن جملته قصر فرعون المعروف بهذا الاسم الآن، وهو فى شمال شرقى مكناسة على ثمانية وعشرين كيلو مترا، وأما ابتداء جبل زرهون فى طريق فاس فهو فيما قاله ليون الإفريقى فى رحلته من أوطاسايس، زاد غيره على أربعة عشر كيلو مترا من فاس.

قال ليون يمتد جبل زرهون للمغرب على مسافة ثلاثين ميلا وعرضه عشرة أميال(1).

وقال غيره: يمتد للمغرب على أربعين كيلو مترا. قال ليون: وهو بين مدينتين كبيرتين إحداهما شرقية وهى فاس والأخرى غربية وهى مكناس(2).

قلت: وليون هذا كان حيا سنة ثلاثين وتسعمائة من الهجرة النبوية واسمه حسن بن محمد الوزان وهو فى الأصل غرناطى، وقرأ بفاس بعد أن سكنها، كان ركب البحر فأسره الطاليان وذهبوا به لسلطانهم، وهو الذى أسس تعليم العربية بروما، وكان يحسن اللسانين الطاليانى والفنيولى، ويعرف عند الأوربيين بجان ليون ورحلته هذه باللسان العجمى فى ثلاثة أجزاء ضخام طبعها المؤرخ شفير الفرنسى فى باريز عام ألف وثمانمائة وخمسة وتسعين مسيحية، وعلق بهوامشها فوائد وتنبيهات من كلام مرمول فى تاريخ إفريقية له وبكلام غيره.

ثم ما قدمناه عن ابن غازى فى مدينة وليلى وقصر فرعون صريح فى اتحادهما، ومثل ذلك له فى تكميل التقييد، وقد سبقه إلى الجزم بذلك البكرى فى

---

(1) وصف إفريقيا، ص٢٩٤.

(2) وصف إفريقيا، ص ٢٩٥.

كتاب الاعـتبار والرشاطى - بضم الراء - فى اقتـباس الأنوار، ومثل ذلك للحلبى فى الدر النفيس وابن زكرى فى شرح همزيته وغيرهم.

وقد عين ابن غـازى مسـمى ذلك باعتـبار الموقع بأنه أسفـل جبل زرهون، وباعتبار المسافة بأنه على اثنى عشـر ميلا وهى أربعة فراسخ من مكناس، كما عين ذلك أيضـا بنزول مـولاى إدريس به على شيـخ أوربة حين ورد من الحجـاز، ولا نعلم له مخـالفا فى كون نزول مولانا إدريس كـان بمدينة وليلى، وإنما الخلاف فى اتحاد مسماها ومسمى قـصر فرعون، ففى رحلة ليون[١] الإفريقى أن وليلى مدينة بناها الرومان قـديما على رأس الجبل حين تملكهم بغـرناطة وأداروا بها سوراً مـبنيا بحجارة كبيرة منحوتة[٢]، وجعلوا لها أبوابا عالية واسعة، وطول سورها نحو ستة أميال، ثم خربت وأصلحها مولاى إدريس حين ملك بها وبعد موته دفن بها، ولم يبق بهـا إلا اثنان أو ثلاثة من الديـار يسكنهـا المكلفـون بخـدمة ضـريح مـولاى إدريس[٣].

قال: وبها عينان تسقى بهـما غراستها، اهـ.[٤] فعلق على كلام ليون هذا طابع رحلته المتـقدم الذكر ناقلا عن تاريخ إفـريقية لمرمـول أن وليلى تسمى توليت يعنى بالبربرية، وأن بانيها الرومان على رأس الجبل، وأنها محاطة بسور من الحجر المنجور[٥] طوله ثمانية كيلو متـرا وأن المكناسيين كانوا خربوها وأن مولاى إدريس أصلحها وجعلها عاصمة، ثـم خربها يوسف بن تاشفين من المرابطين وحينئذ تفرق

---

(١) وصف إفريقيا، ص٢٩٥ - ٢٩٦.

(٢) فى المطبوع: «سوراً وحجراً كبيراً منجوراً» والمثبت رواية ليون الذي ينقل عنه المصنف.

(٣) وصف إفريقيا، ص ٢٩٦.

(٤) وصف إفريقيا، ص٢٩٦.

(٥) منجـور - سبق هذا التـعبـير من قـبل. والنجر في الأصل: نحت الخـشب، والمراد هنا الحجارة المنحوتة.

أهلها فى الجبل وبطلت عمارتها ولم يبق بها إلا نحو خمس عشرة دارا يسكنها الفقهاء القائمون بخدمة الضريح الإدريسى المقصود المزوار من نواحى المغرب وفيها عينان من الماء جاريتان.

زاد شفير أن مدينة وليلى تسمى فى وقته زاوية مولاى إدريس، اهـ.

وهذا التصريح منه يطابق بعض ما وصفها به ليون ومرمول ككونها فى رأس جبل فإنها أعنى الزاوية الإدريسية كذلك بالنسبة لما نزل عنها وباعتبار حومتى تازجا وخيبر منها لا مطلقا، وكالعينين الجاريتين إن قلنا إن المراد بهما منبعان وسقايتان وإن لم يكن أصلهما داخل البلد فيكون المراد بهما عين خيبر وعين فَكْرَة- بفتح الفاء وسكون الكاف بعدها راء مفتوحة ثم هاء ساكنة - فإن ماءهما هو الجارى داخلها، وأن جريان الثانى قاصر على ناحية مخصوصة بخلاف الأول فإن معظم انتفاع السكان به وكونها لم تكن متمدنة وقتئذ ولا آهلة بالسكان وإنما كان يسكنها خَدَمَة الضريح، وهذا والله أعلم هو وجه اشتهارها باسم الزاوية، إذ لم تكن تستحق فى القديم عنوانا سواه، ولعل كثرة سكانها ووقوع تمدنها، إنما تنافس الناس فيهما بعد أن شيد سيدنا الجد المولى إسماعيل الضريح الإدريسى فيها وتنافس الملوك حفدته للتذييل عليه فى ذلك حسبما سيمر بك مفصلا، حتى صار من أعظم القصور والمشاهد، وانضم لذلك احترام الملوك للسكان رعيا لحرمة الجار، إلى أن صارت إحدى مدن المغرب كما هى عليه الآن، ومن ثم والله أعلم لم يذكرها مؤرخو الأزمنة السالفة فى مدن المغرب كابن الخطيب فى مقامات البلدان وكتاب معيار الاختيار، فى ذكر المعاهد والديار، وفى ريحانة الكتاب، ونجعة المنتاب، التى نقل ابن غازى منها آخر روضه والمقَّرى فى نفح الطيب وكذا الزيانى فى رحلته فإنه تعرض لمدن المغرب ولم يذكر الزاوية فيها بهذا العنوان وإنما ذكر مدينة وليلى هذا مع تأخر زمنه.

ويكون عمـارتها نشأت تدريجـا لأجل الاحترام المذكـور صرح فى الأزهار العاطرة وكـذا صرح مويت الفرنسى الذى كـان أسيراً عند مولاى رشـيد ومولاى إسماعيل فى كتابه فتوحات مولاى رشيد ومولاى إسماعيل بأن زَرْهُون لم تكن فيه مدينة فى ذلك الوقت ولم تكن به إلا المداشر، وكذا صرح بذلك ليون فى رحلته، وكل ذلك يعضـد أن ابن غازى لم يقصـد بما قدمناه عنه الزاوية الإدريسـية، وإنما قصد بمدينة ولِيلَـى خصوص المعروف اليوم بقـصر فرعون، وهو الذى شيـدت فيه الدولة الحامية قـصور السكان المكتشفين لآثاره القديمة كل يوم، وحـينئذ يتحقق أن مسمى وليلى فى كلام ابن غازى خاص بالمعـروف اليوم بقصر فرعون، ولا يشمل الزاوية البتة، وإنما أهمل ذكرها مع ذكره لجبل زَرْهُون ولسوقه لكونها غير موجودة على الهيـئة التى تستـحق الذكر فى تاريخـه، ولأن كذلك مسـمى ولِيلَى فى كلام ليون ومرمول فإنه على ما ذيله به شـفير، خاص بمسمى الزاوية الآن، ولا تعلق له بالمسمى بقصر فرعون البتة.

فإن قلت حيث كان الأمر هكذا فمن لازمه أن مخالفى ما جرت عليه طائفة ابن غازى يفرقون بين وَلِيلَى وقصر فرعون وحينئـذ فما مسمى قصر فرعون عندهم هل هو المعروف بهذا العنوان الآن أو غـيره ؟ قلت قال ليون: قصر فـرعون مدينة صغيرة قديمة بناها الرومان على رأس جبل قريب من ولِيلَى بنحو ثمانية أميال، قال وأهل جبل زَرْهُون يقولون باني قصر فرعـون موسى ولم تظهر لى حجة ذلك ولم يوجـد فى التاريخ تقـدم ملك لفرعـون ولا للمصـريين على المحل قال: وتـوجد حروف لتينية منقوشـة فى بعض أحجاره تدل على أن الرومان هم الذين بنوه قال: ويوجد بالمدينة نهران متخالفـان كل واحد يأتى من ناحية وأودية المدينة ورباها كلها مغطاة بأشجار الزيتون، وبقرب المدينة غابة يكثر فيها الأسد والنمر[1] هـ.

فعلق عليـه شفير نقلا عن مـرمول: يوجد من ناحية مـن رأس الجبل مدينة صغيرة على بعد اثنى عشر كيلو مترا من وليلى وأهلها ينسبونها لفرعون مصر، ولا يوجد فى الـتاريخ أن فرعـون والمصريين ملكوا إفـريقيـة، ومشاهيـر المؤرخين إنما يسمونها قصر زَرْهُون وتقرأ إلى الآن كـتابة قوطية فى بعض سورها تدل على أنها

(١) وصف إفريقيا، ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

بناها القوط وبقربـها نهران صغيـران خروجهما من رأس الجـبل، والسهول والرُّبَى كلها مغطاة أى بالأشجار، وقـد خربت هذه المدينة وقت تخريب تيوليت أى مدينة وليلى، ولم تعمر لكون الأهالى يحيون الـسكنى بالبادية دون المدن، وبقربها سوق على ربوة يعمر يوم الأربعاء يـقصدها المكناسيون والفاسيـون ومن بات بها احترس من كثرة الأسد هـ.

ثم نقل شفير عن جغرافية موريطانية الطنجوية لتيسو أن أثر قصر فرعون هو أثر بولبيس يعنى نواحى وليلى يـدل على ذلك كتابتان فى حـجر قال: وهذا الأثر يوجد فى ربوة مـستديـرة مستطيلة من جـبل زرهون وهذه الربوة تمنعهـا شعبـتان عميقتـان نحو المشرق والمغرب، وبقربها وادى فرعون يمر نحـو الجنوب ويستخرج من هذا الأثر أحجـار للبناء منها مـا بنيت به باب منصور العلج بمكناس الذى فـيه سوارى من الرخام بصنعة عجيبة هـ.

فقول ليون قـريب من وليلى إلخ مع قول مرمول على بعد اثنى عـشر كيلو مترا من وليلى الخ كلاهما صريح فى مغايـرة قصر فرعون الذى قصدا بيانه لوليلى التى تقدم أنها هى الزاوية عندهما، وكذا قول شـفير عن مرمول خربت هذه المدينة وقت تخريب تيوليت الخ صريح فى ذلك أيضا ثم وصف لـيون ومرمول لها بأنها على رأس جبل يجوز تنزيله على المعروف الآن بقصر فـرعون باعتبار ما سفل عنه من الجبل، فإن من نظر لبسـيط قصر فرعون صار فى عيـنيه كأنه على رأس الجبل الذى انحط عنه، وكذا النهران المختلفان فإنهما قد لا ينافيان ذلك التنزيل ويحملان على وادى وليلى والوادى المعروف بوادى الميت، فـإنهما بالنظر لقصـر فرعون كل واحد يأتى من جهـة له ومن رأس جبل فى الظاهر، وإن كانا فى الواقع مـتحدين فـإن الثـانى من أصـول الأول وإليـه صـيرورتـه ودورانه، وكذا يـتنزل على ذلك استخراج أحجار البنـاء منه فإنه لا زال مشاهدا، وكذا لا ينافى ذلك وصف الرُّبَى

والسهول بأنها كلها مغطاة بالزيتون فإن بعض ذلك بقربه لا زال كما وصف، والباقى لعله كان ثم سقط.

وإنما المنافى لذلك ما نقله شفير عن تيسوا من وصفه بأنه على ربوة مستديرة مستطيلة تمنعها شعبتان عميقتان، فإن هذه الصفات تقرب من المسمى بقصبة النصرانى الكائنة بناحية من الجبل المذكور المكتنفة بين مداشر الهروشى وآيت سيدى حساين وسيدى أقضات - بسكون القاف وفتح الضاد مشبعة وسكون التاء- بل هذه برأس الجبل أشبه حتى إن الحال بها يشرف على بسيط سانس ومدينة فاس من شدة علو موقعها، وكذا وصف قربه من الغابة فإنه بها أشبه، وكذا قربه من السوق المذكورة وهى المسماة بالسوق القديم الواقعة فى سفح بل وأعلى باب الرميلة فإنه بالقرب من قصبة النصرانى أمَسّ وكذا تغطية الرُّبَى والسهول بالأشجار فإنه بها أمس وكذا الوصف بالصغر فإنه لائق بها إذ دور سورها المحيط بها يبلغ ستمائة متر واثنين وعشرين مترا تختص كل جهة من طولها بمائتى متر وعشرين مترا وكل جهة من عرضها بشطر باقى العدد المذكور واتساع جدرانها متر واحد وخمسون سنتيمترا.

ولا زال غالب جدرانها قائما إلى الآن بخلاف المعروف اليوم بقصر فرعون فإن دور سوره يقدر بخمس وعشرين مائة متر فهو يزيد على سور قصبة النصرانى بثلاثة أضعافه وشىء.

فائدة: مما أظهره الاكتشاف الحالى داخل محيط سور قصر فرعون هذا أثر سقاية منحوتة فى الحجر وقد أثرت فيه كثرة الأوانى التى كان يسقى بها منها أثرا بين الوضوح، وهذا مما يدل على طول العمارة هناك وكثرة السكان، ويوجد هنالك أيضا قوس عظيم من الحجر المنحوت يسمى قوس النصر لا زال قائما إلى الآن والأمير الذى أقيم له هذا القوس هو كراكلة، وبانيه ماركيس أصله فينيقى، وكان على قوس النصر هذا عربة تجرها ستة من الخيل مصورة من النحاس بهيئة كبر

الخيل الطبيعى، ويستفاد من الكتابة المرموقة فى الحجر هنالك أن ذلك القوس نصب لتذكير واقعة تاريخية.

وطول شارع قصر فرعون هذا أربعمائة وخمسة وأربعون مترا، ويقدر سكانه وقت عمارته باثنى عشر ألف نسمة، وبعد قصر فرعون من الزاوية الآن خمسة كيلو مترا تقريبا نبه على ذلك رئيس الآثار القديمة بالرباط شاتلان القائم على ذلك الاكتشاف فى مقالته الاكتشافية التى أملاها لجماعة الجغرافيا بالدار البيضاء.

ولنرجع لما كنا فيه فنقول: وكذا القرب من وادى وليلى فإن ذلك يصح أيضا لأن القرب نسبى، وبخارج جدارها الغربى عينان صغيرتان يظهر أن أصلهما عين كانت داخلها وردمت بالهدم فتفرق بذلك ماؤها خارجا على منبعين، نعم قصبة النصرانى ليس سورها من الحجر المنجور بل هو كغالب البناءات المغربية المعهودة، ولا هى بالصفة التى يستخرج منها حجر البناء، بل وصولها لا يتأتى الآن للراكب، وإنما يتأتىّ للراجل لوجود الشعبتين المانعتين.

فالحاصل أن الصفات التى وصف بها ليون ومن وافقه مسمى قصر فرعون منها ما لا يقبله إلا مسمى قصر فرعون المعهود الآن، ومنها ما لا يقبله إلا قصبة النصرانى المذكورة، ومنها ما هو محتمل، ثم إن كان مرادهم به قصبة النصرانى وحكمنا حينئذ بأن الصفات المنافية لها إنما هى توسع باعتبار ما فى تلك الجهة أو غلط يتوجه البحث معهم حينئذ بأنهم جعلوا المقصود من مسمى قصر فرعون غير المعروف به عند الخاص والعام بهذا العنوان فى زمنهم وقبله وبعده إلى الآن، وذلك غير لائق.

وإن كان مرادهم بقصر فرعون مسماه المعهود وحكمنا بأن ما لا يقبله من الصفات الواقعة فى كلامهم جارية على ما قدمناه اتجه بحث آخر، وهو أن تفرقتهم بين وليلى وقصر فرعون وجعل مسمى الأول هو الزاوية لا دليل عليه.

لا باعتبار الآثار القديمة لفقدها بالكلية فى الزاوية، وهو موافقون لغيرهم فى أن وليلى مدينة أثرية قديمة فلم تجز مخالفتهم لغيرهم بعد إجماعهم معهم على هذا بغير دليل.

ولا باعتبار نصوص من تقدمهم من المؤرخين، ولا يقال إنهم تمسكوا فى ذلك بكون الضريح الإدريسى بالزاوية وذلك دليل كونها هى وليلى من جهة أن تملكه وموته كانا بوليلى بلا خلاف، وما وقع للسهيلى من أنه مات بإفريقية يرجع لذلك عند التحقيق لأنا نقول إن من تقدمهم ومن تأخر عنهم من المتأخرين كالبرنسى، وابن أبى زرع والجزنائى، والحلبى، وابن القاضى وغيرهم قد نصوا على أنه وإن كانت وليلى عاصمة ملكه وبها توفى لم يدفن داخلها، وإنما دفن خارجها بصحراء رابطتها.

وبعضهم يقول رباطها وبعضهم يبدل الصحراء بالصحن فيقول بصحن رابطة باب وليلى.

وقد حكى فى الأزهار العاطرة تبعا لغيره اتفاق المؤرخين على مضمون ما تقدم وبإضافة هذه الرابطة لوليلى يجاب عن قول ابن خلدون دفن إدريس بوليلى هـ.

فيكون معناه بمحل مضاف إليها والرابطة كما فى تاج العروس عبارة عن العلقة والوصلة واسم لجماعة الخيل المرابطة على بلد.

والرباط كما فى القاموس يطلق على معان منها واحد الرباطات المبنية، ومنها ملازمة ثغر العدو، ومنها المحافظة على أوقات الصلاة ومنها حديث فذلكم الرباط هـ.

الحاصل من هذا أنه دفن خارجها بصحراء أى بصحن المحل المتعلق بها إما لعبادة يقيمها أهلها به، وإما لملازمة الحراس من غارة العدو عليها.

فالـرباط والرابطة إما حـصن أهل العسـة على وليلى، وهو الأظهـر، وإما متعبد أهلها كصوامع الرهبان التى تكون دائما خارج مدنهم، وأيًّا ما كان فهى من أثارات وليلى، ومن جملة بناء أهلهـا الذى له تعلق خاص بها، فصحت إضافـتها إليها.

وعليـه فإن كـان مـراد من جعـل الزاوية هى مدينة ولـيلى هذا المعنى الذى شرحناه فلا بحث معـه إلا من جهة تخصيصه لوليلى بالمحل التـبعى منها وإهماله للمحل الأولى الأصلى منها، واللائق العكس، ويمكن أن يجاب عن ذلك بجواب لطيف ظريف وهو أن الإهمال الذكرى تابع للإهمال الحسى، فحيث انعكس الحال وصار التـبعى عامـراً والأصلى خرابًا استحق الـتبعى بعمـارته واسترسـالها حكم الأولية والأصالة، واستحق الأصلى بخرابه وانقطاع عمارته حكم التبعية والفرعية، والمنظور إليه غالبـا هو المتبوع لا التابع، إلا أن قول لـيون ولم يبق بها إلا اثنان أو ثلاثة من الديار الخ. وقول مرمول: ولم يبق بها إلا نحو خمس عشرة دارا إلخ لا يقبله لأن المقالين المذكـورين مقتضيان لكون العمـارة كانت بها كثيرة وتلك بقـيتها للتخريب الذى شرحه مـرمول، مع أن ذلك إنما كان فى وَلِيلَى الأصلية، ولم يكن فى رابطة صحـرائها التى هى وليلى الـتبعـية، وإلا لم تكن صـحراء وقت الدفن الإدريسى بهـا مع أنها كانت صـحراء، ولذلك عنون عنهـا بها ولم تحـدث فيـها العمارة تدريجا إلا بعد الدفن كما تقدم، نعم إن كان المحل المسمى رابطة أو رباطا عبارة عن حصن كما اخترناه سابقـا وأن هذا الحصن كان مشتملا على دور عديدة وقد شملهـا التخريب السابق، وبقـية دوره هى التى استثناها مـن تقدم ذكره صح الجواب المذكور ولم يكن فى قول من ذكر ولم يبق إلخ ما ينافيه.

هذا والأقـرب عندنا نظرا لما تقـصيناه من شـواهد الحال وقـرائن الآثار، أن قصبة النصرانى، إنما كانت من توابع مـدينة وليلى التى هى قصر فرعون المعروف، فمن أطلق عليها قصر فرعون أو وَلِيلَى بهذا الاعتبار صح إطلاقه وإلا فلا.

فتحرر من هذه المباحث المتعلقة بمدينة وليلى التى اعترف ابن غازى بأنها كانت قاعدة البلاد وحاضرتها، أنها من نفس جبل زرهون بل هى قاعدته، وأنها ليست هى مكناسة القديمة، كيف وهى رومانية! ومكناسة القديمة بربرية، وأنها هى التى تعرف الآن بقصر فرعون، وأن الزاوية الإدريسية ليست هى مدينة وليلى الأصلية، وإنما كان موقعها تابعا لها ومن إضافاتها ومتعلقاتها، فهى من وليلى تبعا لا أصالة، وأنها لم تكن عامرة كما هى عليه الآن، وإنما تتابعت عمارتها بعد أن شيد المولى إسماعيل الضريح الإدريسى بها، ولذلك لم يتعرض لها ابن الخطيب فى كتبه ولا ابن غازى، ولا من وافقهما طبق ما أشرنا إليه سابقا، وأن اسم الزاوية هو الذى كانت تستحقه قبل العمارة فاستمر عليها بعدها، وأن قصبة النصرانى ليست هى قصر فرعون الأصلى، وإنما هى من إضافاته فيصح إطلاقه عليها تبعا لا استقلالا، ولو لم يكن من دلائل ذلك إلا تعين كل باسمه الخاص قديما وحديثا لكفى وأن ما خالف ذلك كله إما توسع أو غلط والله أعلم.

ملاحظات:

الأولى: من الغريب ما نقله فى الأزهار العاطرة عن بعض الطلبة من أن مدينة وليلى هى عين القصر لا قصر فرعون قائلا: لأنه قد خلا قبل البعثة على ما قيل هـ. وعين القصر هذه هى الكائنة بالضفة اليسرى لوادى وليلى المار أسفل باب الحجر أحد أبواب الزاوية سميت عين القصر لقربها من قصر على مثال بناء قصر فرعون كان قديما هناك ثم سقط وبقى منه قوس، وإليه تنسب عرصة هناك، فيقال عرصة القوس أيضا كما سبقت الإشارة لذلك ولم يوجد هناك أثر لغير هذا القصر وحينئذ فلا يصح أن يكون ذلك المحل هو مدينة وليلى إلا على سبيل الإضافة والتبعية نظير ما قدمناه، على أن ذلك الطالب بنى دعواه على التفرقة بين وليلى وقصر فرعون وقد سبق تحرير اتحادهما ورد ما خالفه، وأما تعلق ذلك الطالب

بالقيل الذى حكاه وهو أن وليلى خربت قبل البعثة فهو تعلق بما هو أو هن من بيت العنكبوت لما سبق أن وليلى خزبتها قبيلة مكناسة أولا ولما جاء مولاى إدريس نزل على شيخ أَوْرَبَة بها ثم لما بايعوه أصلحها وصيرها عاصمة ملكه، ثم لما بنيت مدينة فاس وصارت هى العاصمة تناقصت عمارة وليلى إلى أن خربها يوسف ابن تاشفين وحينئذ بطلت عمارتها وتفرق أهلها فى الجبل، وقد سبق أن موت ابن تاشفين كانت فاتح القرن الخامس.

ولا يقال إن هذا التقدم لا حجة فيه لما تقدم مما يشير لاضطراب كلام قائله، لكونه جمع بين ما لا يصح تنزيله إلا على الزاوية وبين ما لا يصح تنزيله إلا على وليلى ولكونه جعلهما شيئا واحدا وهما شيآن متغايران فى الواقع، لأنا نقول قد نبهنا فيما سبق على الجمع بين ذلك بأن موقع الزاوية هو من وليلى بحسب التبع والتعلق والإضافة، فلا اضطراب إِذَنْ، وإنما على العارف أن ينزل كل شىء فى محله، ولكون نزول مولاى إدريس على أوربة بوليلى التى هى قصر فرعون هو كالمتفق عليه عند أهل المعرفة، وأما ما يذكر من أن عين القصر لم تكن قبل مولانا إدريس وإنما نبعت بركزه لحربته فى محلها، فهو إن صح لا يعين أن محلها هو نفس مدينة وليلى الأصلية كما لا يخفى.

الثانية: زعم بعض المؤرخين المعاصرين ألا وهو صديقنا الناقد أبو عبد الله محمد بوجندار فى كتابه المذكور آنفا أن الذى خرب مدينة وليلى هو عبد المؤمن الموحدى، وذلك لا يصح ففى الأصل أعنى «الروض الهتون» أن أمر الموحدين زمن عبد المؤمن لم يزل يتقوى وسكان الجبال ينزلون إليهم من صياصيها مذعنين، حتى إن من نظر مكناسة وضواحيها جبلا كبيرا مانعا حصينا يقال له زرهون، وفيه من الخلق أمة كثيرة لا تحصى عدة، أرسلوا بيعتهم مع جماعة منهم إلى عبد المؤمن ابن على وهو بين الصخرتين من أحواز تلمسان، وجَرَّأوا الموحدين على دخول

المغرب وأعانوهم على محاصرة مدينة مكناسة، فكانوا أبدا مبغضين لأهل تلك البلاد وكانوا بسبب سبقهم أحرارا من المغارم كتب لهم بذلك صكوكا كانت بأيديهم ولم يتعرض لأموالهم كما فعل بالأملاك التى أُخذت عنوة. هـ من خطه.

وهو صريح فى أن أصل زرهون بايعوا عبد المؤمن قبل دخوله لمغربنا، وفى أنهم كانوا محترمين عنده، وفى أنه ما تعرض لأموالهم ولا لأملاكهم بعد دخوله، وكيف يجتمع مع هذا تخريبه لقاعدة بلادهم مدينة وليلى! وأى موجب بعد ما تقدم يدعوه لذلك!

الثالثة: حيث كان أهل وليلى تفرقوا فى جبل زرهون بسبب تخريب يوسف ابن تاشفين لقاعدة بلادهم مدينة وليلى على ما سبق فى نقل شفير عن مرمول، ومن الواضح أنه ما فعل ذلك بها إلا لتمنّعهم بها واستعصائهم عليه فيها، فهم حينئذ قد ذاقوا وبال مخالفة الملوك ونالتهم خسارتها العظيمة بالفعل، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، والعاقل من اعتبر بالحوادث التى مرت عليه، وأوصلها العلم اليقينى إليه. والسعيد من وعظ بغيره وحينئذ فبدارهم بالطاعة لمن ظهرت غلبته، وقويت شوكته، وبايعه أكثر الإيالة المغربية ولا سيما مع تظاهره بالعدالة وانتدابه لهد منكرات من قبله وتحصنهم بها من إعادة التشديد عليهم والهلاك والمجاعة هو من حسن تدبيرهم وسداد نظرهم، ولا ملام عليهم فى ذلك، ولا سيما حيث كان ذلك وقت تقلص الدولة المرابطية واضمحلال قوتها وصيرورة الرعية فى حكم الإهمال من جهتها، وفى أيدى الهلاك من جهة الدولة القائمة عليها ففى «شرح القصيد» للشيخ السنوسى من شروط الإمام. قدرته على تنفيذ الأحكام هـ.

وقد نقل ابن يونس وغيره أن مالكا سئل إذا بايع الناس رجلا ثم قام آخر فدعا الناس لبيعته فبايعه بعضهم، فقال: إن كانت بيعة الأول على الخوف فالبيعة للثانى إذا كان عدلا هـ.

وفى «شرح المقـاصد» من صار إمامـا بالقهر والغلبـة ينعزل بأن يقهـره آخر ويغلبه هـ.

وفى البكى السبب المتفق عليه أى فى خلع الإمام كل مـا يختل معه مقصود الإمامة هـ.

قال رأس العارفين فى حواشيه فدخل فيـه العجز عن القيام بالمصالح وينبغى اعتباره من حيث كونه نسبة وإضافة بحيث يوجد أقدر منه فيولى هـ.

وفى «المواقف» وشرحـها وللأمـة خلع الإمام وعزله بسـبب يوجبـه مثل أن يوجد منه مـا يوجب اختلال أحـوال المسلمين وانتكاس أمور الدين كمـا كان لهم نصبه لانتظامها وإعلائها هـ.

وأما إعانتهم للموحدين فى مـحاصرة مكناس فذلك من لازم الطاعة، ومن الواجب فى حق من أبى أن يدخل فيمـا دخلت فيه الجماعة، وقـد نقل ابن عرفة وغير واحد من متأخرى فقهـاء المالكية فقها مسلما عن الصقلى وهو ابن يونس أن شيخه القاضى أبا الحسن صوب قول سـحنون إن كان الإمام غير عدل وخرج عليه عدل وجب الخروج معه ليظهر دين الله هـ.

كما نقلوا أيضا عن عز الدين كذلك أنه إن كان فسق الإمام القائم أخف من فسق الإمام المقـوم عليه ككون المقوم عليه فسـقه بانتهاك حرمـة الأبضاع، والقائم بأخذ المال بغير حق، فإنه يجوز القتال مع القـائم لإقامة ولايته وإدامة نصرته دفعا لما بين مفسدتى الفسوقين ودرءا لما هو أشد من معصية القائم هـ.

قال ابن عـرفة: ونحـوه خروج فـقهاء القـيروان مع أبى يزيد الخـارج على الثالث من بنى عبيد وهو إسماعيل لكفره وفسق أبى يزيد والكفر أشد هـ.

ونقل شيخ شـيوخنا فى اختصـار الرهونى عن «شرح المقاصد» مـا نصه ابن عبد السلام تجوز إعانة الأخف ظلما على الأثقل كالمنتهك للأموال أو الأبضاع على المنتهك للدماء هـ.

ووزانه جواز إعانة الأخف مفسدة متطرقة على الأشد، ثم قال: ويجوز الدفع عن الأخف ضررا ومفسدة والقتال معه لدفع ما هو أشد هـ.

وعليه فقول خليل فللعدل أى ولو بالإضافة هـ.

ولا خفاء أن حال عبد المؤمن مع المقوم عليه من بقية المرابطين لا يخرج عن الحال التى تكلم عليها سُحْنُون والحالة التى تكلم عليها عز الدين، وحينئذ فبُغْض المكناسين للزرهونيين لأجل مبادرتهم لبيعة عبد المؤمن وإعانتهم له فى حصار مكناس خارج عن القوانين الشرعية والسياسية، وإنما هو أمرٌ قَادَتْهُمْ إليه طبيعة النفوس على عادتها فى مخالف هواها إلا من عصمه الله وقليل ما هم.

ويكفى اللبيب هنا أن يتذكر أن المغرب كله إنما سعد بقيام مولانا إدريس على بنى العباس فيه، وأن أهل وليلى الذين تفرقوا فى جبل زرهون هم أهل اليد البيضاء فى تلك الساعة بِبِدَارِهم دون غيرهم لمبايعته، وبكون سعادة باقى قبائل المغرب مكناسة وغيرهم فى ذلك إنما كانت على يدهم وبحسب التبعية لهم ومن نتائج نصرتهم له وإشهار سيوفهم على كل من انقبض عن طاعته، ولم يحتم بمعاهدته، فسبقهم إلى ميادين هذه الخيرات عتيق، وقديما آووا منه إلى الركن الوثيق، فالإنصاف مقابلتهم على ذلك بالشكران، ولله در أبى العباس الحلبى إذ قال شاكراً لهم على ذلك ومترنما بمديحهم فى دره النفيس:

إن مدحت الماجدين أوربه ... وجد القلب بمدحى أَرَبَهْ
مدح من أيد إدريس الرضا ... ابن طه المصطفى ما أطيبه
ورضا مولى الموالى استوجبوا ... إذ أجابوه بما قد طلبه
وامتثال الأمر منهم فيهم ... كل فرد منهم قد أوجبه
واحمدن عبد الحميد المرتضى ... إذ دعاهم وإليهم حَبَّبَهْ

قـاتلوا بين يـديه جـمـلة | طـالـبـين بره أو قـربـه
ليس منهم مـن فـتى عند الوغى | عن قـتال خـوف مـوت حـجبه
بل لقـد كـان إذا مـات الفتى | منـهـم ألـفـى بموت طـربـه
ليس مـنهم مـاجـد إلا غـدا | لعـدو بحـسـام ضـربه
فـاحمـدن أنصار إدريس الرضـا | حـمدهم قـول المحب استـوجبه
فـعـل أنصـار بـطه فـعـلوا | مـع إدريـس الـكـرام أوربـه
ربنا ارحـمهم وأدخل جـمعـهم | جنـة الفـردوس ذات المرتبـه

اهـ.

وليت شعرى أى فضيلة حصلها المكناسيون وقتئذ من هاتيك الحروب والتفرد بالخلاف سوى الدمار والهلاك للآلاف المستكثرة من النفوس وتخريب البلاد والديار وهتك الحريم وإضاعة الأموال، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

الرابعة: سبق أن أهل مصر وهم القبط قوم فرعون لـم يحفظ فى التاريخ تقـدم ملك منهم ولا سلطنة على هذه الديار المغـربيـة، وأن الكتابة الموجـودة فى أحجار قصر فرعون الدالة على بانيه ومملكتـه قديما هى لاتينية وقوطية نسبة للقوط بالواو بعد القـاف المضمومة، وهم قـبيل قيل إنهم من الإفرنج كـما فى تاريخ ابن خلدون وغيره.

وعليه فـما وقع فى «الدر النفـيس» و«شرح الهمـزية» لابن زكرى والأزهار العاطرة من أن قصر فرعون يذكر أنه من بنيـان القبط أى بالباء الموحدة الساكنة بعد القاف المكسـورة لا تعويل عليه ولا حـجة فى اشتهـار ذلك القصر بالإضـافة إلى فرعون، لأن الظاهر حـمل ذلك على التشبيـه، البليغ أى أن ذلك البناء القائم من تلك الأحجـار العظيمـة المحكمة التـرصيف المقتـضى للخلود فى العادة هـو كبناء فرعون المدعى للربوبية المقتضية للخلود.

الخامسة: جزمنا أولا بأن بين مكناسة وقصر فرعون ثمانية وعشرين كيلو مترا، وبذلك جزم أيضا بعض من ألف فى وصف مكناس من الأوربيين المعاصرين اعتماداً على ما تحرر الآن بطريقة فى المسافة المذكورة بعد تعيين نهجها وترصيفه، وعليه فما نقلناه بعد ذلك عن ابن غازى من أن بينهما اثنى عشر ميلا يحمل على ما قدمناه فى المسافة التى بين فاس ومكناس وفاس وتازا.

السادسة: قول ابن غازى السابق وكان ثم سوق غبار إلخ يعنى فى المحل الذى به آثار البناء العتيق الضخم المذكور، وقد نسخ هذا السوق لا باعتبار الزمان ولا باعتبار المكان، وإنما يعمر السوق منذ أدركنا داخل الزاوية يوم السبت وعشية يوم الجمعة، نعم بعد انبساط الحماية كان بعض الحكام أشار بإبراز سوق البهائم لظاهر البلد فحول أولا بإشارته خارج باب عين الرجال منها، ثم نقل لوسعة عين خيبر خارج باب عين فكرة منها وعلى ذلك استمر الحال إلى الآن.

السابعة: بالسودان مدينة تسمى وليلى وأخرى تسمى أوليلى نبه عليهما الزيانى فى رحلته، وقد قيل إن وليلى زرهون تسمى بطنجة أيضا حكاه ابن غازى فى تكميل التقييد، وكذا كانت تسمى تيوليت وبوليبل، وقد يقال بوليبس كما تقدم، كما أن مكناسة كانت تسمى صلدا بالصاد وسلدا بالسين، وبحفظ المؤرخ لهذه الأسماء يفهم المراد من عبارات المؤرخين.

الثامنة: علم مما سبق أن قبيلة أوربة هم أهل وليلى فى الزمن الإدريسى، وأن أهل وليلى هم الذين تفرقوا بجبل زرهون لما خربت قاعدة جبلهم وحاضرة البلاد وليلى، فيخرج من ذلك أن أهل زرهون هم قبيلة أوربة ولا زال الأوربيون به وخصوصا بالزاوية منه، وقد حفظت رسومهم القديمة العديدة هذه النسبة لهم، ومنهم أولاد ابن الخياط وأولاد بو يحيى وبيد بعضهم ظهائر ملوكية قديمة باحترامهم وتسويغ بعض الأملاك لهم رعيا لسابقتهم وهم متمسكون بها إلى الآن،

وعليه فما وقع فى «الروض» هنا بعد مـا قدمناه عنه من قوله ويذكر أن أصل أهله يعنى جبل زرهون روم هـ لا يلتـفت إليه وكأنه لذلك أشار بحكايتـه له بلفظ يذكر الحاكم بعدم ثبوته.

وقول «الروض» كـانت البلاد ديار كفـر مجوس ونصـارى إلخ، قلت: أما المجوس فـهو فى الأصل مـعرب منج كوش ـ بضم الكاف ـ ومـعناه قصـير الأذن عرف به رجل صغيـر الأذنين كان فى قديم الزمان اخترع دين المجوسـية ودعا إليه فتوبع عليه، ثم بعد زمن سيدنا إبراهـيم عليه السلام نشأ رجل آخر اسمه زرادشت الفارسى فجرد هذا الدين المجوسى وأظهره وزاد فيه، وعلى يده دخلت الفرس فيه لثلاثين سنة خلت من ملك ملكهم يستاسب، فتمـجسوا حينئذ عن آخرهم بعد أن كـانوا فى الطور الأول على دين سيـدنا نوح عليـه السلام، ثم صـاروا فى الطور الثانى لدين الصابئة واستمروا عليه نحو ألف سنة، ثم بعد ذلك صاروا فى طورهم الثالث للمـجوسـية بدعوة زرادشت الذى يعـتقدون فـيه أنه نبى مـرسل، وبإعانة ملكهم يسـتاسب كمـا بينا، ومدار دين المجـوسية على تعظيم الـنار وسائر الأنوار والقول بتركيب العـالم من النور والظلمة واعتقاد القدمـاء الخمسة، وهى عندهم: البـارئ تعالى، وإبليس لعنه اللـه. والهيلولى، والزمـان، والمكان وغيـر ذلك من تفاصـيل المجوسيـة كما بينه صـاعد الأندلسى فى طبقـات الأمم، وقد تولى بسط تفاصيل هذا وبيان فرق أهله الإمام الشهـر ستانى فى «الملل والنحل» وغيره، فمن تعلق له غرض بها فـليتظرها هناك، ومن نحل أهل المجوسية تفـضيل الفرس على العـرب وعلى سائر الأمم كـذا فى «صبح الأعـشى» للقلقـشندى المولود سنة ست وخمسين وسبعمائة المتوفى يوم السبت عـاشر جمادى الأخيرة سنة إحدى وعشرين وثمانمائة.

قلت: وتفضيل المجوس للفرس على غيرهم هو تفضيل لأشراف أهل ملتهم على الغير اتباعا لحمية الجـاهلية لا غير، ولعلهم بعد دخول الفرس فى الإسلام لا

يقولون بتفضيلهم كفعل اليهود فى تفضيلهم لعبد الله بن سلام قبل علمهم بإسلامه وتنقيصهم له بعده والقضية فى الصحيح، وأما حديث لو كان الإيمان بالثريا لأدركه رجال من فارس يعنى الفرس كما يأتى عن زروق فهو خاص فى خاص ثم هو بيان لفضلهم لا لتفضيلهم.

والنصارى جمع نصران كالندامى جمع ندمان، ونصران صفة مشبهة كعطشان وسكران إلا أنه غير مستعمل، والمستعمل هو نصرانى بزيادة الياء التى للمبالغة، هذا إذا عبر به المفرد الواحد، وإذا أريد التعبير عن الأفراد المتعددة يقال نصارى، سموا بذلك لأنهم نصروا المسيح عليه السلام، أو لأنهم كانوا معه فى قرية اسمها نصران أو ناصرة فسموا باسمها، أو من اسمها وعلى هذا فالياء ياء نسبة لا زائدة للمبالغة، ثم هى نسبة للملة والدين المسيحى فكل آخذ به فهو نصرانى من أى فريق كان وفى أى بلد كان.

وكذا النسبة فى المجوسى فإنها دينية فكل آخذ بدين المجوس فهو مجوسى أيا كان، ولا كذلك الرومى والفرنجى وأشباههما، فإن النسبة فى ذلك طينية وبلدية لا دينية.

وقرية ناصرة هى بطبرية على ثلاثة عشر ميلا منها، وفى معجم ياقوت وكان فيها مولد عيسى عليه السلام، ومنها اشتق اسم النصارى، وكان أهلها عيروا مريم فيزعمون أنه لا يولد بها بكر إلى هذه الغاية، وأن لهم شجرة أُتْرُج(١) على هيئة النساء وللأترجة ثديان وما يشبه اليدين والرجلين وموضع الفرج مفتوح، وأن أمر هذه القرية فى النساء والأترج مستفيض عندهم لا يدفعه دافع وأهل بيت المقدس يأبون ذلك ويزعمون أن المسيح إنما وُلد فى بيت لحم، وإنما انتقلت به أمه إلى هذه

(١) الأُترج: شجر يعلو، ناعم الأغصان والورق والثمر، وثمره كالليمون الكبار، وهو ذهبي اللون، زكي الرائحة، حامض الماء. وهو كثير بأرض العرب، وتبقى ثمرته عليه جميع السنة.

القرية، قال ياقوت: فأما نص الإنجيل فإن فيه أن عيسى ولد فى بيت لحم، وخاف عليه يوسف من هاردوس ملك المجوس فأُرى فى منامه أن احمله إلى مصر، فأقام بمصر إلى أن مات هاردوس فقدم به القدس، فأُرى فى المنام أن انطلق به إلى الخليل، فأتاها فسكن مدينة تدعى ناصرة[1].

كذا فى تاج العروس.

قلت: ما فى نص الإنجيل من أن عيسى عليه السلام ولد ببيت لحم به جاءت رواية شداد بن أوس رضى الله عنه فى حديث الإسراء والحديث خرجه الطبرانى والبزار، وابن أبى حاتم وابن مردويه، والبيهقى وصححه خلافا لإنكار ابن تيمية له وإن كان تابعا فى إنكاره لابن حبان وابن الجوزى فى موضوعاته، وقد وافق على ذلك الذهبى فى الميزان.

لكن كلام هؤلاء إنما هو فى إنكاره من رواية أبى هريرة ومع ذلك فقد قال الحافظ ابن حجر فى «لسان الميزان» إن الموضوع فى تلك الرواية شيء خاص وهو قوله ثم أتى بى إلى الصخرة فقال يا محمد، من هاهنا عرج بِكَ إلى السماء وأما باقى الحديث فقد أتى من طرق أخرى منها الصلاة فى بيت لحم وردت فى حديث شداد بن أوس والله أعلم ثم هذا الذى نقله فى تاج العروس عن ياقوت عن الإنجيل هو فى إنجيل متى إلا أن الذى نقله عنه الشيخ عبد الله الأسلمى أحد أحبار النصارى الذين أسلموا وحسن إسلامهم، وساقه بواسطته الزيانى فى رحلته هو أن الخائف على عيسى هى أمه مريم، وأنها هى التى أمرها ملك فى المنام بالخروج به لمصر قال وهذا الذى وقع فى إنجيل متى لم يقع فى بقية الأناجيل الأربعة. انظر تمامه فقد استدل بذلك مع غيره على أن متى ساق ذلك فى إنجيله تبعا لبعض الكذابين لا غير.

---

(١) الخبر بطوله لدى ياقوت - ٥/ ٢٥١.

فصل: قال فى الروض قيل: ولم تكن مكناسة فى القديم ممدنة وكانت حوائر[1] كثيرة متفرقة[2] وهى تاورا وبنو عطوش، وبنو برنوس، وبنو شاوش، وبنو موسى، وهذه كلها على الضفة الغربية من وادى فلفل المذكور، إلا تاورا فإنها بضفتيه الغربية والشرقية، وغراساتها كلها منتظمة متصل بعضها ببعض لا فاصل بينها، قال: وفلفل يعرف الآن بأبى عمائر، وفيه يقول شيخ شيوخنا الأستاذ أبو عبد الله ابن جابر فى نزهة الناظر:

فلن ترى فى سائر العمائر   مثل محاسن أبى العمائر

يمر النهر المذكور من قبلة إلى الجوف قريبا من سورها أصله والله أعلم من جبل فازاز. هـ من خطه ملفقا.

قلت: تاورا بفتح الواو والراء حسبما ضبط ذلك ابن غازى بخطه، ويعنى بكونها أى مكناسة ليست بممدنة أنها لم تكن مجتمعة الديار ولا عامة المنافع ولا منضمة الشمل بسور حافظ كما قدمه.

وإلى وادى أبى العمائر المذكور ينسب باب أبى العمائر من أبواب هذه الميدنة، وإنما نسب إليه لقربه منه وعبور الداخل إليه والخارج منه من تلك الناحية عليه، والباب المذكور هو أحد أبواب المدينة وهو واقع فى شمال غربى مستقبل حمرية من باب ضريح الشريف أبى الحسن على بن محمد بن على دعى بمنون أحد رجال العلوم والمعارف المرجوع إليه بالعاصمة قديما المتوفى سنة أربع وخمسين وثمانمائة.

ومركز الباب المذكور الطبيعى هو فى مقابلة باب دار البارود المعدة لتصفية ملحه، وهى إحدى آثار فخامة العاصمة قديما وهناك دار بارود أخرى كانت معدة

---

(١) حوائر: جمع لحائر، وهو المكان المطمئن الوسط المرتفع الحروف، ومن ذلك سموا البستان بالحائر.

(٢) فى المطبوع: «مفرقة» والمثبت من الروض الذى ينقل عنه المصنف.

(٣) الروض الهتون - ص ٤٥، ٥٣.

لصنعه وهى التى موقعها بالمحل بين الباب المحدث عنه وبين الباب الأخرى هناك للمدينة المسماة بباب المرس لوقوع المرس الإسماعيلى الهائل خارجها، وموقع هذا الباب الثانى بالناحية الشرقية ومنه الآن يقع النزول لعيون أبى العمائر وكلتا الدارين من فخامة العاصمة، وقد صارت الدار الثانية التى ينزل من بابها للعيون المذكورة محلا الآن للأشغال العمومية الدولية كما أضيفت الأولى فى العصر الحاضر للجنان العمومى المسمى موقعه فى القديم بالحبول المعد فيما سلف مربضا لبقر الأهالى المتجرين فى بيع اللبن الذى هو من أهم حاجيات تموين العاصمة.

ومن ضروريات مستشفياتها اختار الأقدمون من أهاليها مكان الحبول المذكور لاستقرار بقرهم لما فيه من الجمع بين منفعة القرب والتحصين بسور العاصمة وبابها ودفع مضرة عفوناتها باتصاله بالباب وانفصاله عن غالب المنازل، وحيث جعلت الدولة الحامية المربض المذكور بستانا عموميا وتفرقت جموع بقره بسبب ذلك داخل العاصمة، صارت الانتقادات الطبية تتوجه إلى أرباب ذلك البقر كل حين لاتصال مضرة عفوناته بالأهالى، وقد كان استقرار البقر بالحبول حاجزا عن ذلك الاتصال. وقاضيا على مضاره بالبعد والانفصال.

وباب أبى العمائر المذكور قد هدته الدولة الحامية عند حلولها بالعاصمة المكناسية ولم تبق له عينا ولا أثرا، والقصد من ذلك إزالة الحاجز بين العاصمة القديمة والمدينة الجديدة الآتى ذكرها حتى لا تسد باب الأولى فى وجه الثانية، ويتيسر سير العربات والسيارات بين المدينتين بدون أدنى حرج ولإمكان المواصلة بينهما فى سائر الأوقات.

ومن هذا الباب يخرج قاصد غابة الزيتون المعروفة بحمرية المحدث بها تخطيط المدينة الجديدة وبخارجه على يمين الذاهب لفاس أو للمدينة الجديدة عيون متدفقة بالزلال العذب الفرات، كانت الدولة الحامية حصنتها بالبناء وصانتها عما

كان معششا بـها من القذرات، وحجرتها على خاصة الأهالى وعامتـهم، وانتقتها لشربـها ومن حصلت لـه رغبة من وجـهاء الأهالى فى الورود من مـوردها المعين طلب الترخيص من لدن الحكـومة الأجنبية، فتنافس رؤسـاء الأهالى وأعيانهم فى التـحصـيل على الترخـيص فى السقى منـها، وذلك بعـد أن لم تكن لديهم تلك العيـون شيئا مـذكورا فى ماضى العصـور بل كانت تعافـها النفوس وتشمـئز من الشرب منـها القلوب، لأنها كـانت محل غـسل أوساخ الصـوف والثيـاب الخلقة وأبوال الدواب والمواشى وأرواثهـا، ولكن النفـوس مـيالـة ومجبـولة على حب الجديد. ومحاكاة الطالع السعيـد. وحريصة على الاتصال بما منه منعت، كما أنها حريصة علـى الانفصال عما إليـه ألجئت. هذا والمحنكون وذوو المعرفـة من قدماء الأهالى كانوا يحققـون أن ماء تلك العيون هو وإن كان حسنا فهـو أحط رتبة عما رشح له بالنسبة لغـيره، ثم لما طال استيطان الفرنسـيين بمكناسة أنتج البحث المدقق من عرفائهم أن أحسن مـاء يوجد بالبلد خفة وصفاء وعـذوبة هو ماء عين تاكما _ بالكاف المعقودة- الكائنة شرقى المدينة على مسافة تنيف على أربعمائة متر تقريبا.

فحينئذ صرفت حامية مكناسة وجـهتها عن ماء عيون أبى العمائر، وأباحت ورده لمن يريده من وارد وصادر، فـضعفت رغبـة الأهالى فى السقى من ذلك الماء بعد الحـرص الشديد، ورجع لهـا بعض ما كان بهـا قبل من المسـتقذرات كـغسل الأثواب الوسخة وأدخلت الدولة الحـامية ماء عين تاكما للمديـنة الجديدة وقصرته عليهـا واستغنت به عمـا سواه، ثم بعد كتـبي هذا أدخل ماء عين تاجمـا للمدينة الأهلية أيضا لمكناسة واتخـذت له سقايات عمومية بأزقـتها وأبيح إدخاله للدور لمن تعلقت له به رغبـة بالشراء من الإدارة البلدية، وقد كان مـاء هذه العين فى سالف الدهور مسوقا للمـسجد الأعظم بالعاصمة فى ساقـية وسط حائط حذو الوادى فى ناحية ضريح أبى زكرياء الصبان المعروف الآن بسيدى بوز كرى، إلى أن يجرى فى

باب الحفاة وغيره من المسجد المذكور فى الأخدود المعدلة إلى الآن هناك لتطهير أرجل الحفاة الداخلين للمسجد حفظا ونقاوة وإبعاداً لأسباب الدنس عن المسجد لما انبنى عليه الدين الحنيفى من النظافة فى سائر وجهاته المقدسة المعضوض عليها بالنواجذ من رؤساء الملة الحنيفية قديما وخصوصا المؤسسين لمعابده، القائمين بتشييد محامده، ولكن لما كانت من سنة الله التى قد خلت فى بلاده وعباده ولن تجد لسنة الله تبديلا إحالة الأحوال وصيرورة الكل إلى خبر كان، توفرت عوامل الإهمال، الموجبة للخراب والاضمحلال، حتى صار ذلك المجرى وما انبنى عليه نسيا منسيا، وأضيف ماء الساقية للوادى كما أضيف إليه ماء عيون أبى العمائر وغيرها مما هو بإزائه.

والوادى المذكور يسمى فى ماضى الزمان بفلفل وأبى العمائر، وفى حاضره بأسامى متعددة بحسب الأمكنة المار فيها، منها بوفكران، ومنها عين معروف، ومنها در دورة.

وقد تحقق لدينا أن أصل منبعه من الكهف الكائن بقبة جبل بُوْزَكُّو - بضم الباء وسكون الواو وبعدها وفتح الزاى وتشديد الكاف المعقودة مضمومة - الكائن هو أى الجبل بأقماشن من آيت بورزون فخذ من قبيلة بنى مطير، ويعرف الكهف المشار له بكهف الريح، سمى بذلك لشدة الرياح الصاعدة من جوفه، حتى إنه لا يكاد يمكن الإشراف على قعره ولا يكاد يمكن المشرف عليه أن يمسك نفسه معها عن السقوط فى هوته كذا قيل.

وبسفح هذا الجبل بالمحل المعروف بَمزَّعْتِوالْ _ بفتح الميم وتشديد الزاى المفتوحة وسكون العين المهملة وكسر التاء وفتح الواو المشبعة بعدها لام ساكنة _ عيون، أصل معظمها وأكثرها ماء من الكهف المذكور بدون أدنى ريب يلحق فى ذلك سكان ذلك المحل، قالوا: لأنه مهما سقط بذلك الخرق شيء خرج فى بعض

تلك العيون، وذلك أقوى دليل وأصدق برهان على أن أصلها منه، وهذا المحل لا يعرف اليوم ببنى فـازاز ولا الجبل المذكور بالنسبة إليهم، أمـا فى غابر الأزمان وقد كان يطلق فـازاز على تلك الجبال كلها حـتى جبل آزرو الشهيـر المعروف، والمحل الذى يعرف اليوم بفازاز عند تلك القبـائل البربرية بينه وبين الجبل الذى يخرج منه الماء المذكور مهامه فيحه تنيف على سبعين كيلو مترا.

ومعنى مزعتوال بلسان البربر منفر البقر سمى بذلك لوجود ضريح به إذا مر البقر أمامه نفر وشرد على ما أخـبرنى به غير واحد من الثقات سكان ذلك المحل، ومن أصول منبع بوفكران العظيمة عين معروف ويمتد خـمسين كيلو مترا يبلغ منبعه فى اليوم أربعين ألف متر مكعبا على ما حققه بعض الفرنسيين

فصل: قال فى «الروض»[1]: إلا تاورا، فإنهـا بضفتيـه الشرقية والغـربية وغراسلتها كلها منتظمة متصل بعـضها ببعض لا فاصل بينها، وتاورا أقرب الحوائر من المدينة من جـهة باب البـراذعيين ومن حـوائرها أيضا بنو زياد وتقع غـربا من الحوائر المذكورة وليست على الوادى المذكور، لكن لها جدول من نوع ساقية طويلة المسافة صعبة المجرى.

قال: وببنى زياد أيضا عيـون يسقون منها بعض أملاكهم، ويسقـون بعضها بالساقية المخرجة من وادى فلفل المذكور، وبعـضها بعل وكان العنب البعلى بها فى غاية الطيب بموضع هنالك يقال له المتروئـي إليه ينسب العنب المتروئي هنالك، قال الأستـاذ أبو عبد الله بن جـابر فى «نزهة الناظر» بعد ما ذكـر أصناف العنب التى بمكناسة:

لكنـنى أقـول دون سـوء | ما فاق الأعناب سوى المتروئي

وهو عنب أبيض شديد الحلاوة ولا سيما الأنثى منه، ويذكر أنه من قوته لا يستحيل خـمرا إلا عند اعتدال الزمان، ومن غلوهم فيه أنهم يقـولون إنه يستصبح

(١) الروض الهتون - ص ٥٣ وما بعدها.

بخمـره، وهنالك قرية كان يـقال لها قـرية الأندلس كانت[1] من عمل بنى زياد سكنها على قديم الزمان قوم أندلسيون وتناسلوا بهـا وأقاموا دهراً لم تتغير ألسنتهم ولا أشكالهم إلا من كان منهم كثير الامتزاج بأهل البلد[2] فإنه تغير لسانه وكانت لهم بالقرية المذكورة كرمات بعل فى أرض رملة حمراء كذا قيل، وهذه القرية والله تعالى أعلم هى المسمـاة فى هذه الأعصر تلاجدوت، وبهـا جرى المثل السائر «دار الكرامة يا تلاجـدوت» ومنها كان الشـيخ أبو الحسن علي بن يوسف التـلاجدوتى المدعو بسيدى علي بن يشو، وهو من شيوخ شيـخنا الفقيه الحافظ سيدى أبى عبد الله محمـد القورى، والخطيب البليغ المصقع سيـدى أبى العباس أحمد بن سـعيد الحباك الغفجميسى وكلامهم اليوم برطانة البربر المفرطة فى العجمة من خطه.

قلت: أما السـاقية الصعـبة المجرى فلم يبق لهـا أثر لهذا العهد، وأمـا قرية الأندلس المسماة تلاجدوت فلم يبق لها أيضا أثر ولا خبر، وكون مسمى تلاجدوت هو قرية الأندلس يخالفه ما فى كتاب الاسـتبصار، بعجائب الأمصار، المؤلف سنة سبع وثـمانين زخمـسمـائة، فإن فـيه أن من مدن مـكناسة الأربعـة تلاجدوت[3] وتفسـيره المحلة، قال: وهو مـحدث البناء، وهو مشـرف على بطاح وبقاع مملوءة بياضا[4] كثير الثمـار، وأكثرها الزيتون فسميت به، وهذه المدينة عليهـا سور كبير وأبراج عظيمة، وهى مدينة حفيلة. هـ.

وهذا الذى وصـفها بـه لا ينطبق إلا على تاكرارت المدينة الآن، فـعليه لـها اسمان كل منهما فسر بالمحلة فالله أعلم.

وأما الشيخ أبو الحـسن التلاجدوتى والقورى والحـباك فستأتـى تراجمهم فى محالها بحول الله فترقب.

---

(١) فى المطبوع: «كأنها» والمثبت من الروض الذى ينقل عنه المصنف.

(٢) فى المطبوع: «البلاد» والمثبت من الروض الذى ينقل عنه المصنف.

(٣) في الاستبصار الذي ينقل عنه المصنف «تاقرارات» وقـد أشار المصنف فيما بعد إلى الاسم الوارد في الاستبصار. وقال: فعليه لها اسمان كل منهما فسّر بالمحلة.

(٤) في الاستبصار: «مملوءة بفيضات» وفي نسخة أخرى منه بالهامش «بيضات».

فصل: قال في «الروض» وكانت حارة تاورا التى هى أقرب الحوائر إلى المدينة الآن يشقها وادى فلفل ديارها على ضفتيه شرقا وغربا، والغراسات بها وبسائر الحوائر متصلة بالديار، وبتاورا أرحاء كثيرة كان أكثرها يحتوي على أربعة أحجار، وكان من جملتها بيت واحد للزغابشة يحتوي على خمسة أحجار، وكان فيها حمامان اثنان، أحدهما منسوب للزغابشة والثانى للمختص يعرف بحمام أبى الخيار بإزائه عين كبيرة تنسب كذلك لأبي الخيار، ماؤها عذب معين صاف تُسقى به طائفة كبيرة من أملاك تاورا، ومن أملاك من تحتها، وكانت حارة تاورا تنقسم أقساما: قسم يقال له: بنو عيسى ديارهم بالضفة الغربية من الوادي يذكر أنهم أصل بني زغبوش، لكن لا تعلم صحة ذلك، غير أنهم كانوا يجدون في بعض العقود القديمة نسبتهم إلى عيسى بلفظ فلان بن فلان العيسوي، ويستدلون بذلك على أن بني زغبوش من بني عيسى، والله تعالى أعلم(١).

وقسم بالضفة المذكورة قبله من بني عيسى يقال له بنو يونس ويسمى أيضا هذا القسم تاورا الفوقية، وبهذا القسم كان المسجد الجامع، وبين هذين القسمين موضع عال جدا يعرف بالجهنمية، وقسم بالضفة المذكورة يقال له: فاس الصغيرة، كأنها سميت بذلك لاختراق الماء خلالها كمدينة فاس، وبالضفة الشرقية من الوادي قسم يقال له الجنان الصغير، وقسم يسمى بني أبي نواس، وقسم يسمى حارة بنى زغبوش، وحارة الزغابشة، وثم كانت ديار بني محمد بن حماد وغيرهم، وكان ببني زياد حمام وببني مروان حمام يعمران، وكان ببني موسى حمام تعطل قبلهما والله تعالى أعلم. من خطه(٢).

قلت: أما الحارة فكل محلة دنت منازلها كما في «القاموس»(٣) وهو معنى قول «المصباح» الحارة المحلة تتصل منازلها، والجمع حارات.

وأما حوائر المعبر به في «الروض» فهو جمع لحائر وهو كما في شرح «القاموس» عن أبى حنيفة المكان الطمئن الوسط المرتفع الحروف، ومن ذلك سموا البستان(٤) بالحائر. هـ.

---

(١) الروض الهتون - ص ٥٧.
(٢) الروض الهتون - ص ٥٨.
(٣) القاموس (ح ي ر).
(٤) القاموس (ح ي ر) وانظر لذلك أيضًا: المعجم الوسيط.

وهو منطبق تمام الانطباق على موقع تاورا الطبيعي، فإنها مطمئنة الوسط مرتفعة الجوانب من جهاتها الأربع كالحياض، يسبب لوسطها مسيل ماء الأمطار ضرورة كانت ذات بساتين متعددة تتصل كل دار ببستان كحالة دور سكان الأروى الإسماعيلي ونواحيه فى عصرنا الحاضر.

وحارة تاورا المذكورة وما عطف عليها هي الكائنة شرقا عن يمين الذاهب لزرهون الخارج من باب البراذعيين والحوائر الأخرى عن يساره غربا.

وأما الخارج من باب تريمي الصغيرة أحد أبواب المدينة اليوم وقيدنا بالصغيرة احترازا عن تريمي الكبيرة القصبة الشهيرة الكثيرة السكان الكائنة داخل باب البراذعيين المحدث فيها اليوم الباب الذي أعد لدخول البقر عند إيابه من المسارح فتبقى الحوائر التاورية وما عطف عليها عن يساره.

وجميع تلك الحوائر لا يعرف اليوم إلا بتاورا، إلا حارة بني موسى فإنها لازالت معروفة باسمها القديم والطريق المارة لزرهون فاصلة بين حوائر تاورا وحوائر بني موسى، وغراسات تلك الحوائر والبساتين الزيتون والتفاح وأنواع الإجاص[١] والسفرجل[٢] والرومان والخوخ وأنواع كثيرة من التين لا تكاد توجد في غيرها والمشمش والبرقوق والعنب والتوت الشهي، والليم[٦].

وقد عفت تلك الحوائر ودرست الأطلال والرسوم، ولم يبق لهذا العهد بالمدينة لنسل سكان تلك الحوائر أثر غير بني حموش المعروفين في الزمن الحاضر بالحمامشة، فإنه لا زال البعض موجودا أعرف واحدا منهم يتعاطي خطة العدالة،

---

(١) الإجاص: شجر من الفصيلة الوردية، ثمره حلو لذيذ، يطلق في سورية وفلسطين وسيناء على الكمثرى وشجرها، وكان يطلق في مصر على البرقوق وشجره.

(٢) السفرجل: شجر مثمر من الفصيلة الوردية.

(٣) الليم: الليمون.

وغير زغبــوش المدعوين اليوم بالزغابشة فإن بقية نســلهم موجود بالمدينة اليوم على قلة وما لغــيرهما من باقي تلك الشــعب والقبائل من بقــية فالبقــاء لله وحده وكل شيء هالك إلا وجهه، وسنأتي بعد إن شاء الله تعالى على بيان وقت تخريب هذه الحوائر ورجوع العمارة إليها ثم انقطاعها عنها بالكلية.

ومن الحوائر والبــساتين الشــهيرة في هذه الأعــصر بضفــتي تاورا: البســتان المعروف بعرصة النصراني ولم أدر ما وجــه هذه الإضافة وابن شملاك وابن العلام والقادرية وخواش والنجــار والحارة وبوخيار ولا زال جل مــا ذكر يسقى من وادي أبي العمائر، وبعضها يسقى من عين أبي الخيار المارة الذكر، ولا زال ماؤها العذب المعين يتدفق، وهي إحــدى المواضع التي أعدت لغــسل الصوف والثيــاب بعد منع ذلك وازالته من عيون أبي العــمائر السالفة الذكر، كمــا يسقى أيضا بعض الحوائر المشار لها بماء عيني الغولة وعرصة النصراني وأيس بالكثير ماؤهما ولا يوجد بتاورا اليوم من العيون غير ما ذكر.

ومن أشهر حوائر بني موسى في العصر الحاضر: جنان العريفة ومولاي زيان والظاهر، وبهذه البساتين عيون منهمرة بالعذب الزلال مبنية عليها الصهاريج المهمة تسقي منها غراساتها كما تسقي كغيــرها من الساقية المرعوفة بقشمارة ـ بفتح القاف وسكون الشين المعجمــة وفتح الميم المشبعــة وتشديد الراء مفتوحــة بعدها هاء وماء هذه الساقية يخرج من ماء أودية المدينة المضاف ويسقي أيضا بعض تلك الأجنة بماء عيون حربل - بفتح الحاء المهملة وسكــون الراء - النابعة أسفل قصبة تولال خارج باب سيدي سعيد أحد أبواب المدينة كما سيمر بك بحول الله.

تنبيــه: قــد ســبق ابن غــازي إلى وصف هذه الحــوائر الإدريسي في «نزهة المشتاق» فقال: مكناسة مدائن عدة وهي في طريق سلا ومدينة مكناسة هي المسماة

تاقررت[١] وهي الآن باقية على حالها لم يدركها كبير تغيير، وهي مدينة حسنة مرتفعة على الأرض يجري في[٢] شرقيها نهر صغير له أرحاء وتتصل بها عمارات وجنات وزروع، وأرضها طيبة، ولها مكاسب وأموال طائلة، ومكناسة سميت باسم مكناس البربري لما نزلها مع بنيه عند حلولهم المغرب، وأقطع[٣] لكل ابن من بنيه بقعة يعمرها مع ولده، وكل هذه المواضع التي أحلهم بها تتقارب وتتجاور أمكنتها، وبلاد مكناسة منها التي تعرف ببني زياد وهي مدينة عامرة لها أسواق عامرة وحمامات وديار حسنة والمياه تخترق أزقتها، ولم يكن في أيام الملثم بعد تاقررت أعمر قطرا من بني زياد، وبينهما نحو من ربع ميل، ومنها إلى بني تاورا وتاقررت نحو ذلك وكانت مدينة تاورا[٤] متحضرة جامعة غامرة وأسواقها كثيرة والصناعات بها نافقة، والنعم والفواكه لا تقضى بها حاجة ـ أي لكثرتها ورخصتها ـ والماء يأتيها من جنوبها من نهر كبير فينقسم في أعلاها ويمر ما انقسم هناك من المياه فيخترق جميع أزقتها وشوارعها وأكثر دورها[٥].

وبين تاورا وبني زياد مدينتان صغيرتان إحداهما القصر وهي مدينة صغيرة في الطريق من تاقررت إلى السوق القديمة على رميتي سهم، وهذه المدينة بناها أمير من أمراء الملثمين وجعل لها سورا حصينا وبني بها قصرا حصينا ولم تكن بها أسواق كثيرة، ولا طائل تجارات، وإنما كان ذلك الأمير يسكنها مع جلة بني عمه والمدينة الأخرى في شرقي هذه تعرف ببني عطوش، وهي ديار متصلة وعمارات في بساتين لهم هناك، ولهم أشجار وغلات وزيتون كثير وشجر تين وأعناب وفواكه جمة وكل ذلك بها رخيص[٦].

---

(١) في المطبوع: «تاكرارت» والمثبت في نزهة المشتاق ١/ ٢٤٤، التي ينقل عنها المصنف.

(٢) في المطبوع: «على» والمثبت رواية نزهة المشتاق.

(٣) في المطبوع: «اواقتطع» والمثبت رواية نزهة المشتاق.

(٤) في نزهة المشتاق: «تاورة».

(٥) نزهة المشتاق ١/ ٢٤٤ - ٢٤٥.

(٦) نزهة المشتاق ١/ ٢٤٥.

وأسفل هـذه المنازل على مجـرى الماء الذي يأتي من بني عطوش قبـيلة بني برنوس من مكناسة، وهي في منازل وديار ومـزارع وكروم وعمارات وزيتون كـثير وفواكه تباع بالثمن اليسير، وفي شمـال قصر أبي موسى سوق يقصد إليها في كل يوم خميس يجتمع إليه جميع قبائل بني مكناس وتسمى السوق القديمة، ومن قبائل بني مكناس المجاورة لهـذه البلاد بنو سعـيد وبنو موسى ويسكنهـا من غير قـبائل مكناسـة، بنو يسيل، ومـغيلـة، وبنو مصـمود، وبنو على، وورياغل، ودمـرو، وأَوْرَبَةَ[1]، وسبغاوة[2].

فقوله مـدائن عدة قد سمى منها بعد تاقـررت وبني زياد وتاورا والقصر أي المعنون عنه سابقا بالحصن وبني عطوش، وقد بين تقارب بعضها من بعض بأن بين واحـدة والأخرى نحـو ربع مـيل، وبعد أن وصـف بني زياد وتاورا بذلك بين أن مدينتي الحـصن وبني عطوش واقعتـان بينهما، فيكون تـباعد هذين المدينتين فيـما بينهما وفـيما بين ما همـا واقعتان بينه أقل من ذلك بكثـير، وأنت تراه قد وصف العامر والغـامر من هذه المدن ولم يعد منها مدينة وَلِيلَي، مع كـونها لو كانت من مكناسة عنده لكانت أولى بالتوصيف من جميع مـا ذكر لما تقدم من قدمها، وأنها مدينة أزلية، وأنها حاضرة البلاد، فـدل ذلك على أنه لا يراها منها ولا أن موقعها من بلاد مكناسة.

وقوله وهي في طريق سلا، يعني للقاصد لها من فاس وأحوازه، وقد صرح في كلامه الذي اختصرنا ذكـره بأن بين فاس ومكناسة أربعين ميلا، وكل ذلك منه

---

(١) في نزهة المشتـاق: «دمر وواربة». وأوربة: قبـيلة شهيـرة من البربر البـرانس، كانت في القديم تشتـمل على بطون وعمائر كثـيرة، مثل: جاية، ونفاسـة، وزهكوجة، ومزيانة، ورغيوة، ودقيوسـة. وقد عظمت تلك البطون فيما بعد حتى صـارت فى عداد القبائل. كانت مواطن هذه القبيلة عند دخول الإسلام إلى المغرب بجبل زرهون وما جاوره، وكان أميرها يدعى سكرديد بن زوغى، ولى عليهم مدة ٧٣ سنة، وأدرك الفتح الإسلامى، ولما مات سنة ٧١ بقيت زعامة البربر فى هذه القبيلة حتى دخل إدريس الأول المغرب، فتنازل له إسحـاق بن محمد الأوربى عن الإمـارة وقام بنصرته، وبعـد ذلك اندمجت وربة فى عداد القبائل البربرية واندثر اسمها، ونسب أهلها إلى الجبل الذى يسكنون به (زرهونى - الزراهنة) ولم يبق يحمل اسمـها إلا بطن تحول إلى ناحية تارة واندمج فى قـبيلة البرانس (وربة) ولكن بقى ما يذكر بها كأولاد الوربى، وحومة الوربية بفاس.

(٢) نزهة المشتاق ١/ ٢٤٥.

تعيين لموقع مكناسة بالجهة والمسافة، حتى يعلم أن ما بعد عن طريق سلا وعن المسافة المذكورة ليس من مكناسة، وقد تضمن وصفه لبعد ما بين مدنها الإشارة لقدر مساحته أيضا حتى لا يقع في وهم أحد اشتباه شمول موقعها بموقع غيرها مما خرج عنها.

وقوله: ومدينة مكناسة يعني أعظم مدنها عمارة وحضارة كما يوخذ من قوله ولم يكن في أيام الملثم بعد تاقررت... إلى آخره، أو مراده المدينة القائمة المرعوفة بذلك في وقته.

وقوله: الآن، يشير به لتاريخ تأليفه لكتابه المنقول منه، وذلك أواسط القرن السادس من الهجرة كما بينه ابن خلدون في مقدمته وغيره.

وقوله سميت باسم مكناس البربري لما نزلها مع بنيه[(١)]...إلخ، صريح في أن جد القبيلة نفسه نزل بها، فيستفاد من ذلك وجه كونها تسمى تارة مكناس، وتارة مكناسة، وهو أن الأول ملحوظ فيه اسم أكبر الحالين بها، وهو جد القبيلة، والثاني ملحوظ فيه اسم القبيلة.

وقوله ولم يكن في أيام الملثم[(٢)]...إلخ، الذي ينصرف إليه هذا الوصف عند الإطلاق هو يوسف بن تاشفين فرد تلك الدولة الكامل أعظم أمراء المرابطين، وإنما قيل له الملثم لكونه كان يستعمل اللثام في وجهه على عادة قومه، وعلى ذلك جرى أمراء بنيه وقومه من بعده، وأيامه كانت في النصف الأخير من القرن الخامس كما علم من تاريخ وفاته الذى قدمناه، وحيتئذ يكون هذا مقتضيا لكون تاقررت كانت موجودة زمن يوسف بن تاشفين، وذلك موافق لما قدمناه عن ياقوت الحموي من أن يوسف هو المختط لمكناس الحادثة أي تاقررت، ولكن قدمنا تصريح ابن غاري من أئمة مكناسة بأن تاقررت إنما اختطت بعد ظهور الموحدين، وذلك إنما كان بعد موت يوسف بسنين،وعليه فيحمل الملثم في عبارته على من اختطت تاقررت في أيامه من أمراء بنيه.

---

(١) نزهة المشتاق ١/ ٢٤٤.

(٢) نزهة المشتاق ١/ ٢٤٤.

وقوله: أعمر قطرا من بني زياد، قد قدم أن بني زياد مدينة محصورة، وذلك يدل على أن مراده بقطرها موقعها ومساحتها لا غير.

وقوله: في الطريق من تاقررت إلى السوق القديمة على رمتي سهم[1]... إلخ، يعني أن مدينة القصر التي هي حصن عامل مكناسة واقعة في طريق السوق القديم، وبينهما وبين تاقررت القدر المذكور وهو رميتا سهم بالتثنية.

وقد تحصل من كلامه هذا وما ذكره قبله أن موقع هذا الحصن يعتبر بين كل من تاورا وبني زياد ومن تاقررت والسوق القديم.

وقوله وفي شمال قصر أبي موسى إلى قوله السوق القديمة كذا هو في نسختين اثنتين من نزهة المشتاق قصر بالصاد المهملة وأبي موسى بلفظ الكنية ولا أتحقق الآن المراد بهما، وقد تقدم البحث عن موقع السوق القديمة فارجع إليه.

وقوله ومن قبائل بني مكناسة المجاورة لهذه البلاد[2] إلى قوله وأَوْرَبَة[3]... إلخ صريح في أن هؤلاء خارجون عن موقع مكناسة وإن جاورها، وفي أن من جملتهم أوربة الذين هم أهل زرهون كما تقدم، والله أعلم وأحكم.

فصل قال في الروض: وكانت هذه المواضع كلها في غاية من الخصب وكثرة المياه والأشجار، وكان أهلها آمنين مطمئنين في عيش رغد ونعمة تامة منذ ملك أمراء المسلمين بنو تاشفين بلاد المغرب وأخمد[4] الله تعالى بسيوفهم نار الفتنة البربرية فانقطعت مطامع رءوس النفاق من بربر المغرب[5]. من خطه.

قلت: قال بعضهم يشير والله أعلم إلى فتنة جور مغرواة في دولتهم عند اشتغالهم بنهب أموال الرعية والفسق وتمزيق الأعراض وما لا يحل سماعه.

(١) نزهة المشتاق ١/ ٢٤٥.
(٢) نزهة المشتاق ١/ ٢٤٥.
(٣) في نزهة المشتاق: «وارية».
(٤) في الروض الهتون: «وأغمد».
(٥) الروض الهتون - ص ٥٨.

والبربر: اختلف فيهم اختلافا كثيرا فقيل إنهم من ولد فارق بن بيص بن حام، والبربر يزعمون أنهم من ولد إفريقش بن صيفى الحميري، وزناتة منهم تزعم أنهم من لخم، والأصح عند أهل التحقيق أنهم من ولد كنعان، وأنه لما قتل ملكهم جالوت الفلسطيني وتفرقت بنو كنعان قصدت منهم طائفة بلاد المغرب وسكنوا تلك البلاد وهم البربر.

وقبائل البربر كثيرة جدا، منهم كتامة وبلادهم بالجبال من المغرب الأوسط وكتامة هم الذين أقاموا دولة الفاطميين مع أبي عبد الله الشيعي، ومنهم صنهاجة ومن صنهاجة ملوك إفريقية بنو بلكين بن زيري، ومن قبائل البربر زناتة وكان منهم ملوك فاس وتلمسان وسجلماسة ولهم الفروسية والشجاعة المشهورة، ومن البربر المصامدة وسكناهم في جبال درن، وهم الذين قاموا بنصر المهدي بن تومرت وبهم ملك عبد المؤمن وبنوه بلاد المغرب وانفرد من المصامدة قبيلة هنتاته ـ بنون فتاء ثم تاء بعد الألف فهاء السكت ـ وملك منهم إفريقية والمغرب الأوسط أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص، ثم خطب لولده أبي عبد الله محمد بن يحيى بالخلافة واستمر الحال على ذلك إلى سنة اثنتين وخمسين وستمائة، ومن قبائل البربر المشهورة برغواطة ومنازلهم في تامسنا على البحر المحيط، وقيل إن برغواطة منسوبون إلى برغاطي وهو صالح بن طريف اليهودي نسب إلى الموضع الذي نشأ به وهو برغاطة موضع بفحص شريش من بلاد الأندلس، فعربت العرب هذا الاسم، وقالوا برغواط، وقد كانت هذه الفرقة على غير الإسلام وفيهم من تنبأ كذبا وزورا وقد قطع الله دابرهم فلم تبق لهم من باقية.

والبربر مثل العرب في سكنى الصحاري ولهم لسان غير العرب قال ابن سعيد: ولغاتهم ترجع إلى أصول متحدة وتختلف فروعها حتى لا تفهم الا بترجمان كذا في تاريخ أبي الفداء مع زيادة من غيره.

ودرن بالتحريك جبل عظيم من جبال البربر بالمغرب فيه عدة قبائل وبلدان وقرى، وهو المعروف في كتب المسالك والجغرافيا بالأطلس، ويعرف في كل محل باسم فيعرف في بلاد المصامدة بالكلاوي وهو المطل على مراكش ويعرف بداخلية بلاد البربر بجبل العياشي.

قال ابن سعيد: وهو جبل شاهق مشهور لا يزال عليه الثلج أوله عند البحر المحيط الغربي في المغرب وآخره في جهة الشرق على ثلاثة مراحل من إسكندرية من الديار المصرية ويسمى طرفه الشرق المذكور رأس أوتان فكون امتداده نحو خمسين درجة.

قال ابن خلدون ويسكن هذا الجبل من البربر أمم لا يحصيهم إلا خالقهم ثم قال: إن جبل درن هذا من جهة غربيه مطل على بلاد المغرب الأقصى وهي في جوفه ففي الناحية الجنوبية منها بلاد مراكش وأغمات وتادلا، وعلى البحر المحيط منها بلاد آسفي ومدينة سلا، وفي الجوف عن بلاد مراكش بلاد فاس ومكناسة وتازا وقصر كتامة وهذه هي التي تسمى المغرب الأقصى في عرف أهلها، وعلى ساحل البحر المحيط بلدان أصيلا والعرائش، وقد سميت هذه البلاد شرقا بلاد المغرب الأوسط وقاعدتها تلمسان. وسيأتي عن ابن سعيد وغيره ما يخالف ما قاله ابن خلدون هنا في تفسير المغرب الأقصى، وفي القاموس وشرحه والبربر جيل من الناس لا تكاد قبائله تنحصر.

قال أبو عبد الله الحميري المتوفى سنة تسعمائة في الروض المعطار في أخبار الأقطار: إنهم والحبشة من ولد حام وقيل إنهم من بقية نسل يوشع بن نون من العماليق الحميرية وهم رهط السميدع وأنه سمع لفظهم فقال ما أكثر بربرتكم وقيل غير ذلك الجمع البرابرة زادوا الهاء فيه إما للعجمة وإما للنسب وهو الصحيح.

قال الجوهري: وإن شئت حذفتها، وهم أي أكثر قبائلهم بالمغرب في الجبال من سرس وغيرها متفرقة في أطرافها وهم زناتة وهوارة، وصنهاجة، ونفزة، وكتامة، ولواته، ومديونه، وشباته، وكانوا كلهم بفلسطين مع جالوت فلما قتل تفرقوا كذا في الدرر الكامنة للحافظ ابن حجر.

وقال البلاذري: حدثني بكر بن الهيثم، قال: سألت عبد الله بن صالح عن البربر فقال: هم يزعمون أنهم من ولد قيس بن عيلان وما جعل الله لقيس من ولد اسمه بر.

وقال أبو المنذر: هم من ولد فاران بن عمليق بن يلمع بن عابر بن شليخ بن لوذ بن سام بن نوح، والأكثر الأشهر أنهم من بقية قوم جالوت وكانت منازلهم فلسطين، فلما قتل جالوت تفرقوا إلى المغرب، أو هم بطنان من حمير صنهاجة وكتامة صاروا إلى البربر أيام فتح والدهم إفريقش الملك بن قيس بن صيفي بن سبأ الأصغر، كانوا معه لما قدم المغرب وبني إفريقية، فلما رجع إلى بلاده تخلفوا عنه عمالا له على تلك البلاد فتقووا إلى الآن وتناسلوا، انتهى.

وما أنكره عبد الله بن صالح في نسب البربر هو الذي اقتصر عليه ابن أبي زرع في أنيسة في خصوص زناتة ومنهم بنو مرين، وبين في رفع نسبهم لقيس أن جالوت من حملة أجدادهم، وعلى مثل ذلك اقتصر أيضا ابن الخطيب في الحلل الموشية لكن قال ابن خلدون: إدخال جالوت في نسب البربر خطأ والحق أن جالوت من بني فلسطين أحد شعوب حام وهم إخوة القبط والبربر والحبشة والنوبة كما ذكرنا في نسب أبناء حام، وقد دثرت أمة فلسطين وكنعان وشعوبهما لهذا العهد ولم يبق إلا البربر، واختص اسم فلسطين بالوطن الذي كان لهم.

والتحقيق الذي لا ينبغي التعويل على غيره أن البربر من ولد كنعان انظر أوائل الجزء السابع من تاريخه فقط بسط فيه رد ما يخالف ذلك معتمدا على ما

حرره إماما الفن حافظا الاندلس أبو محمد ابن حزم وأبو عمر ابن عبد البر قائلا فهم ولد كنعان بن حام بن نوح واسم أبيهم مازيغ، انتهى.

وقد جزم الحافظ ابن حجر في الفتح بأن بني مرين من البربر.

ومما يستملح إيراده هنا في مناسبة ذكر هذا الاسم أعنى اسم أبيهم ما ساقه في الاستقصا من كتاب الجمان إذ قال: لما كانت خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه واستفتحت مدينة مصر وكان عليها عمرو بن العاص، قدم عليه ستة نفر من البربر محلقين الرءوس واللحي، فقال لهم عمرو ما أنتم وما الذي جاء بكم؟ قالوا: رغبنا في الإسلام فجئنا له لأن جدودنا قد أوصونا بذلك، فوجههم عمرو إلى عمر رضي الله عنهما وكتب إليه بخبرهم، فلما قدموا عليه وهم لا يعرفون لسان العرب كلمهم الترجمان على لسان عمر، فقال لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن بنو مازيغ، فقال عمر لجلسائه: هل سمعتم قط بهؤلاء؟ فقال شيخ من قريش: يا أمير المؤمنين هؤلاء البربر من ذرية بر بن قيس بن عيلان، خرج مغاضبا لأبيه وإخواته فقالوا بربر أي أخذ البرية، فقال لهم عمر رضي الله عنه: ما علامتكم في بلادكم؟ قالوا نكرم الخيل ونهين النساء، فقال لهم عمر: ألكم مدائن؟ قالوا: لا، قال: ألكم أعلام تهتدون بها؟ قالوا: لا، قال عمر: والله لقد كنت مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته فنظرت إلى قلة الجيش وبكيت فقال لي رسول الله ﷺ: يا عمر لا تحزن فإن الله سيعز هذا الدين بقوم من المغرب ليس لهم مدائن ولا حصون ولا أسواق ولا علامات يهتدون بها في الطرق، ثم قال عمر: فالحمد لله الذي منّ علي برؤيتهم ثم أكرمهم ووصلهم وقدمهم على من سواهم من الجيوش القادمة عليه، وكتب إلى عمرو بن العاص أن يحملهم على مقدمة المسلمين وكانوا من أفخاذ شتى[1]، انتهى.

قلت: وهذه الحكاية غريبة جدا فهي في عهدة صاحب الجمان، في أخبار الزمان، وهو العلامة المؤرخ الأجل المشهور بالشُّطَيْبِي.

---

(١) الاستقصا ١/ ١٣٠.

وقد استفيد مما تقدم أن أكثر سكان المغرب من قبائل البربر، وعليه فلا ريب أنهم ممن ينسحب عـليه ذيل القوم الذين وجـدهم ذو القرنين عند مغـرب الشمس الذين ذكـرهم الله تبارك وتعـالى في محكم ذكـره لكل ما يعـاملون به من الخـير وضده كمـا قال جلت قدرته: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾ [سورة الكهف آية٨٥، ٨٦].

قال الشيخ زروق في القواعد: لكل بلاد ما يغلب عليها من الحق والباطل، فإذا أردت أن تعرف صالح بلد أي أن تقف على الحقيقـة فيما ينسب إليه من الخير والدين فانظر لباطل أهلها، أي الذي غلب على أهلها من الأوصاف المذمومة شرعا هل هو بريء منه أو لا؟ فإن كـان بريئا منه فـهو ذاك، أى فهـو صالح كمـا يقال عنه، وإلا بأن كان غير سالم من تلك الأوصاف الرذيلة القبيحة في عين الشرع فلا عبرة به، أي لأن مـشاركته لهم في باطلهم هي عنوان مـساواته لهم في ضلالهم، فلم يتميز حينئذ عنهم بصـلاح حال ولا بزكي من الأفعال، فمن أين يكون صالحا فيهم، وبحسب هذا فاعتبر فـي أهل المغرب الأقصى من الأوصاف المحمودة شرعا السخـاء وحسن الخلق، أي لأن الباطل الغالـب على أهله هو الشح وسوء الخلق، فإن وجـدته أي فيمن يـنسب لصلاح منهم فاعلم أنـه كما يقـولون، وإلا فدع أي لكونه من جـملة أهل ذلك الباطل الذين تطلب أنت ضـدهمّ، وفي أهل الأندلس كذلك، وفي أهل المشرق الغيرة لله وسلامة الصدر، لأن الباطل الذي غلب عليهم هو الأضغان والأحـقاد وعدم الغيـرة الدينية إلى غير ذلك، وقـد أشار رسول الله ﷺ لهذا الأصل أي ما غلب على أهل البلاد من خيـر أو شر فذكر أوصاف البلاد وعوارضـها كقـوله في المشرق: الفتنة هـا هنا. وكذا نجد، وفي الفـرس: لو كان الإيمان عند الثريا لتناوله رجال من فارس، وفي أهل اليمن: إنهم ذوو أفئدة. وفي أهل المدينة: إنهم خيـر الناس مع ما وصفـهم الله به من قوله: يحبـون من هاجر إليهم.

وقال عليه الصلاة والسلام: السكينة والوقار في أهل الغنم، والفخر والخيلاء في أهل الخيل، والغلظة والجفاء في الفدادين، تبع أذناب الإبل والبقر.

وقال عمر رضي الله عنه في إفريقية: بلاد مكر وخديعة.

وقال مولانا جلت قدرته لذي القرنين في أهل المغرب الأقصى ﴿إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ فدل على استحقاقهم لكل ما يعاملون به من خير أو شر وأنهم لذلك أهل والله أعلم، انتهى. من القواعد بزيادة شرح وإيضاح.

ولا ريب أن البربر من أهل الغنم والخيل، وأنهم من تباع أذناب الإبل والبقر كما هو مشاهد، وعليه فقد توفرت فيهم دواعي الخير والشر كما علم مما تقدم.

ثم إن أشار إليه الشيخ زورق من حمل الآية على التخيير عليه اقتصر أكثر المفسرين. ومنهم من حمل (إِمَّا) فيها على التنويع والتقسيم، ثم الذاهبون إلى الأول اختلفوا في تصويره - وفي طريق تحريره - ففي أبي السعود إما أن تعذب بالقتل من أول الأمر وإما أن تتخذ فيهم حسنا بالدعوة إلى الإسلام والإرشاد إلى الشرائع. ثم قال وخير بين القتل والأسر والجواب من باب أسلوب الحكيم، لأن الظاهر التخيير بينهما وهم كفار، ثم قال: ويجوز بأن تكون (إما)، (وإما) للتنويع دون التخيير أي وليكن شأنك إما التعذيب وإما الإحسان فالأول لمن بقي على حاله والثاني لمن تاب، انتهى.

وفي الخازن إما أن تعذب بقتل من لم يدخل في الإسلام، وإما أن تتخذ فيهم حسنا، يعني تعفو وتصفح، وقيل: تأسرهم فتعلمهم الهدى خيره الله بين الأمرين، انتهى.

وفي النسفي خير بين أن يعذبهم بالقتل إن أصروا على أمرهم، وإما أن تتخذ فيهم حسنا بإكرامهم وتعليم الشرائع إن آمنوا والتعذيب القتل، واتخاذ الحسنى الأسر، انتهى.

وفي النيسابوري: خيره الله بين أن يعذبهم بالقتل وأن يتخذ فيهم حسنا وهو تركهم أحياء فاختار الدعوة والاجتهاد، انتهى.

وفي روح البيان أنت مخير في أمرهم بالدعوة إلى الإسلام، إما تعذيبك بالقتل أن أبوا وإما إحسانك بالعفو والأسر، وسماهما إحسانا في مقابلة القتل ويجوز أن يكون إما وإما للتنويع إلى آخر ما سبق عن أبي السعود، انتهى.

وفي البيضاوي فخبره الله بين أن يعذبهم أو يدعوهم إلى الإيمان كما حكى بقوله قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب ـ أي بالقتل على كفرهم، وإما أن تتخذ فيهم حسنا ـ بالإرشاد وتعليم الشرائع.

وقيل خيره الله بين القتل والأسر وسماه إحسانا في مقابلة القتل ويؤيد الأول قوله: (أما من ظلم) إلى (نكرا) أي فاختار الدعوة وقال أما من دعوته فظلم نفسه بالأسرار. ثم قال: ويجوز أن تكون (إما)، (وإما) للتقسيم دون التخيير، انتهى.

وفى البحر، وقوله: إما أن تعذب بالقتل على الكفر، وإما أن تتخذ فيهم حسنا بالحمل على الإيمان والهدى إما أن يكفروا فتعذب وإما أن يؤمنوا فتحسن فعبر في التخيير بالمسبب عن السبب.

قال الطبري: إيجاد الحسنى هو أسرهم مع كفرهم، يعني أنه خيره مع كفرهم بين قتلهم وبين أسرهم وتفصيل ذي القرنين أما من ظلم... إلخ يدفع هذا القول، انتهى.

وفي ابن جرير يقول: إما أن تقتلهم إن لم يدخلوا في الإقرار بتوحيد الله ويذعنوا لذلك بما تدعوهم إليه من طاعة ربهم، وإما أن تتخذ فيهم حسنا، يقول: وإما أن تأسرهم فتعلمهم الهدى وتبصرهم الرشاد، انتهى.

وفي الفخر: خير الله ذا القرنين فيهم بين التعذيب لهم إن أقاموا على كفرهم، وبين المن والعفو عنهم، وهذا التخيير على معني الاجتهاد في أصلح الأمرين، كما خير عليه السلام بين المن على المشركين وبين قتلهم.

وقال الأكثرون هذا التعذيب هو القتل وأما اتخاذ الحسنى فيهم فهو تركهم أحياء.

قلت: والتخيير في الآية في أهل المغرب الأقصى على أحد القولين بين التعذيب والإحسان اللذين شرحتهما التفاسير سابقا هو بالنظر لحالهم الكفري وقتئذ أما من صار منهم بعد مسلما فليس إلا الإحسان في حقه باحترام نفسه وماله كما قال عليه الصلاة والسلام في حديث الصحيح، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها الحديث.

وأما ما يتبادر من قول زورق سابقا، فدل على استحقاقهم لكل ما يعاملون به من خير أو شر وإنهم لكذلك، انتهى. من كونهم يستحقون ذلك حتى في زمنه الذي هم فيه على الإسلام فيتعين أن يكون محله ما يستحقونه بالذنوب التي يرتكبونها وقتئذ وإلا فالإسلام عاصم للدم والمال قطعا كما رأيت نص صاحب الشرع عليه فلا تغتر بالظواهر المقطوع بتعطيلها وعدم الوقوف معها، على أن الآية إنما هي خبر عما قيل لذي القرنين في قوم معينين فلا مساس لها بما فهمه الشيخ زورق.

وقد أشار في «صبح الأعشى» تبعا لابن سعيد إلى ما أومأ إليه الشيخ زروق من كون أهل المغرب الأقصى بعد كون الإسلام وصفهم فيهم أوصاف خيرية تقتضي الإحسان وأوصاف شرية تقتضي عدمه بقوله: قد تقدم أن معظم هذه المملكة في الإقليم الثالث أي في بعضه، قال ابن سعيد: الإقليم الثالث هو صاحب سفك الماء والحسد والقتل والغل وما يتبع ذلك قال وللمغرب الأقصى من ذلك الحظ الأوفر سيما في جهة السوس وجبال درن، فإن قتل الإنسان عندهم على كلمة وهم بالقتل يفاخرون، ثم قال: إن الغالب على أهل المغرب الأقصى كثرة التنافس المفرط والحماقة وقلة التغاضي والتهور والمفاتنة، أما البخل فإنما هو

في أراذلهم بخلاف الأغنياء، فإن في كثير منهم السماحة المفرطة والمفاخرة بإطعام الطعام والاعتناء، بالفاضل والمفضول[1].

قلت: وما وسم به أهل جبال درن هو الشائع عنهم لحد الآن، وخصوصًا عن جبابرة رؤسائهم، وأما التهور والمفاتنة فقد كان ذلك ديدنا شائعًا في نواحي المغرب الأقصى وخصوصًا عند أهالي البدو من بربره إلى أن أخمدت جل ذلك جيوش الحماية، وهذه السمات وأمثالها هي التي تأهلوا بها بعد الإسلام للدخول تحت قوله تعالى: ﴿إِمَّا أَن تُعَذِّبَ﴾، ولكنهم قد اتصفوا مع ذلك بسمات حسنة التي منها السماحة المتقدمة في كلام ابن سعيد وإن خالفه ما تقدم عن زروق، ويمكن الجمع بينهما بحمل كلام كل واحد منهما على جهة من المغرب الأقصى مخصوصة، وإن أطلق كل ولحد منهما في العبارة، ولكن الجمع يتعين عند الإمكان ومنها غير ذلك من الفضائل والفواضل التي امتاز بها المغرب على غيره وحفظها التاريخ، وبمثل ذلك تأهلوا بعد إسلامهم أيضًا للدخول تحت قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾، فإن قلت مقتضي التخيير استواء الطرفين مع أن المسلم إذا أتى أحد الأمور الداخلة تحت قول الحديث السابق إلا بحقها من كفر بعد إيمان أو زنى بعد إحصان أو قتل معصوم، فقد ارتهن في موجب حد، وقد تقرر أن الحدود لا يسوغ شرعًا التساهل فيها، فأين التخيير حينئذ؟ قلتَ: التخيير الحقيقي الموافق لظاهر الآية هو فيما عدا ما يوجب حدًا من حقوق الإسلام، وأما التخيير فيما يوجب حدًا فهو بالنظر إلى قتل النفس حقيقي أيضًا، لأن الولي له العفو فهو مخير، وأما حد الكفر، فإنما يتعين إن لم يتب، وأما إن تاب وراجع الإسلام فلا، وهذا أيضًا تخيير بالنظر إلى مرتكب ذلك بين الرجوع عما صدر منه فيخلي سبيله وبين الاستمرار عليه فيقام عليه الحد فهو تخيير في الجملة.

---

(١) صبح الأعشى ١٧٨/٥.

وكذا الزاني بعد إحصان، فإنه إن ثبت عليه ذلك بإقرار، له الرجوع عنه، فهو في التخيير على وتيرة الذي قبله يليه، وإن لم يكن تخييراً بالنسبة للحاكم الذي هو مقتضى الآية، ثم إنك إذا أعطيت النظر فيما سبق حقه تجد سائر الأقطار الإسلامية أهلها بهذا الصدد فيهم الخير والشر والفاضل والمفضول، وإنما تمايزت الأقطار والجهات بكون الخير أو الشر الذي في جهة غير ما يكثر منها في جهة أخرى، وهذا هو الذي سبق مشروحًا في كلام زروق.

وبهذا البيان يلوح لك أن آية تخيير ذي القرنين في أهل المغرب حالة كفرهم هي من أعظم مناقب المغرب وأهله، بحيث كانوا بوصف قاض عليهم بالتعذيب لا غير، ومع ذلك نصت الآية على أن العدول عنه لاتخاذ الحسنى فيهم هو أمر لا تأباه قوالبهم، ولا تقصر عن استحقاقه عواملهم، فالشر الحالي وقتئذ وبعدئذ فيهم عارض، والخير هو العرق الأصلي النابض، وكذلك كان ويكون فإنهم لا يدلون دلالة ثقة عارف ماهر على خير إلا وقصدوه، ولا يحملون حمل مجد راسخ على صلاح حال إلا وتشبثوا به وألفوه.

ولهذا جاء في بعض روايات حديث الطائفة التي لا تزال ظاهرة على الحق أنها بالمغرب، وعضدت ذلك رواية لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة، واللفظ محمول على حقيقته حتى تدل قرينة على أن المراد خلافه أو يؤدي ظاهره إلى محال، فعند ذلك يتعين صرفه عن الظاهر، على أن الحديث شامل لأهل المغرب حتى على صرفه عن ظاهره في بعض تأويلاته.

هذا ولكون ياقوت الحموي شرقيًا ضدا للمغرب وأهله أساء في معجمه حيث تكلم على البربر الذين هم معظم سكانه فأورد آثارا في ذمهم لا توجد في الأصول المعول عليها، ولا تكاد تصح عند ذوي الأنظار السليمة لمضادتها للأصول المقطوع بها، ولم يكترث بما ورد في إثم من كذب على النبي ﷺ وكثر سواد ذلك

بكلمات أضافها لابن حوقل التاجر تنبيء عن سفه القائل والناقل، من حيث إن لكل ساقطة لا قطة ونطق الأراذل العوراء

من يعن بالمجد لم ينطق بما سفه   ولم يحد عن سبيل المجد والكرم

والعيان مكذب لتلك التقولات، ومنزه للملموزين بها عن سفسافها، والنادر إن وجد لا حكم له، إذ لا يحسب الخلق السيئ على الأمة إلا إذا كان فاشيًا عند أفرادها مألوفًا عند جميعهم، يفعله فاعله منهم من غير أن يحاذر نكيرا أو يخشى لومة لائم، لا يخالفه أحد منهم إلا مستترا، ويخاف المذمة إن ظهر بالمخالفة أمام الجمهور.

فإن كان الخلق السيئ يتصف به فرد أو جماعة يستترون به أو يعلنونه مع اشمئزاز الجمهور منهم، كانت المذمة قاصرة على الفاعلين لا تعدوهم إلى الأمة بأسرها، وحينئذ يكون من الخطأ الفاحش ما ألصقه ياقوت بجنب الأمم البربرية ونبهنا على ذلك هنا لئلا يغتر به المجهول ومن في قلبه مرض ويقع في مهواة مرتعه الوخيم، وقديما حذر الناصحون من الاغترار بكل ما في بطون التواريخ حسبما مر بك فيما أسلفناه من التنبيه على ذلك في المقدمة فلا تغفل.

وقد وقع لصاعد الأندلسي وهو من أهل القرن الخامس في كتاب «طبقات الأمم»[1] أن البربر خصهم الله بالجهل والطغيان ومراده جهل العلم الفلسفي الذي هو موضوع مدحه وأن البربر لم يستنبطوا شيئًا منه بعقولهم قديمًا ولا عرفوا بالمهارة فيه.

وأقول: العلم الفلسفي لم ينفرد البربر بالخلو عنه بل قد شاركهم في الخلو عنه قديمًا أمم كثيرة، منهم العرب الذين هم أشرف الأمم حسبما تظاهرت على

(١) طبقات الأمم - ص١٨.

ذلك الأدلة، وخلو العرب من العلم الفلسفي هو بشهادة صاعد نفسه، إذ قال[1]: فهذا ما كـان العرب من المعرفة، وأما علم الفلسفة فلم يمنحـهم الله شيئًا منه، ولا هيأ طباعهم للعناية به. . . إلخ.

وحينئذ فالفلسفة إن كانت شرفًا فالمصيبة إذا عمت هانت وإن لم تكن كذلك وهو دليل خلو شـرف الأمم عنـها فقد طهرهـم الله منها، ولذلك لما فتح الصحابة -رضوان الله عليهم-بلاد فارس زمن ثاني الخلفاء الراشدين الفاروق رضى الله عنه ووجدوا الكثير من كتب الفلسفة بها، وكـتب إليه أمير الجيش سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه يستشيره فيما يفـعل بها؟ أجابه بقوله: اطرحوها في ماء يمحوها فإن يكن فيها خير فقد أغنانا الله بأهدى منه، وإن يكن شراً كفانا الله إياه، انتهى.

فامتثلوا ما أشار به من إعدامها بغرق أو حرق نقله ابن خلدون وغيره.

وأما تفرقـة صاعد بين العرب والبربر بأن الـعرب كانت عارفة بفنون لغـتها فهي مردودة بأن كل أمة ذات لغة كذلك، وشفـوف لغة العرب تابع لشفوف أهلها وتأكد بورود الكتاب والسنة موافقين لها، فإِذَنْ إنما فزع صاعد لإظهار تلك التفرقة بين العرب وغيرها من الأمم الخالية عن الفلسفة قديمًا ليدفع الشناعة اللازمة بأن ما ذم به البربر واقـع في العرب أيضًا، فكأنـه يقول العرب وإن خلت عن ذلـك فلها علم في الجملة وليس ذلك بدافع لها عنه، لأنه إنما يمدح بما شرف بنفسه عنده وهو الفلسـفة لا بما شرف بغـيره، ولأن البـربر لما علموا من الشـرع شفوف فـنون لغة العرب سارع علماؤهم إليها حتى حصلوا على ما أدركته العرب منها، وقبل الشرع لم يتقرر شفوف لغة على أخرى، وكل الأمم كانت على علم من فنون لغتها، فلا وجه حينئذ لتلك التفرقة على أنه وإن تستر بتلك التفرقة أوّلاً فقد وقع في الشناعة التي فر منهـا ثانيًا بقـوله فلم يمنحهم الله. . . إلخ، فـصار ذا ما بذلك لـلفريقين وكفاه بذلك قبحًا.

---

(١) طبقات الأمم - ص٦١.

وأيضًا شرف الفلسفة إنما هو في الدنيا لا غير، وقد ذم الله تعالى علما هذه صفته بقوله: يعلمون ظاهرا عن الحياة الدنيا وهم عن الآخرة... إلخ. وكل شرف لا نتيجة له في المآل. فهو في الحقيقة وبال. على أن ابن خلدون قد عقد في الفصل السادس من مقدمته ترجمتين اثنتين بين فيهما بطلان علمي الفلسفة والتنجيم كما أومأ إلى المفاسد التي دخلت على أهل الدين من الفلسفة، وحينئذ فالشفوف الحقيقي، إنما هو لمن شرفه علمه في الحال والمآل، ولعلماء البربر من ذلك الحظ الوافر والحمد لله.

وناهيك مهم في القرن الثالث وأوائل الرابع بأبي جعفر أحمد بن نصر بن زياد البربري أحد العلماء الراسخين، ومن بهم في حفظ المذهب المالكي يضرب المثل، وبابن القوطية من أئمة العربية وهو من أهل القرن الرابع، وبأبي الحسن الجزيري من أئمة علم الوثائق وهو من أهل القرن السادس، وبشهاب الدين القرافي من أئمة المعقول والمنقول وهو من أهل القرن السابع، وبأبي محمد عبد الله بن أبي بكر الصَّودي بفتح الصاد من أئمة الحساب والفرائض وهو أيضًا من أهل القرن السابع، وبأبي محمد صالح الفاسي، وأبي محمد التادلي وهما من أئمة الفقه المضروب بهما المثل في حفظه وإتقانه علما وعملا، وهما أيضًا من أهل القرن السابع، ومثلهما في ذلك وفي الفرائض الحافظ السطي الأوربي نسبة إلى أوْربة - بفتح الهمزة والراء المهملة والباء الموحدة ـ بطن من البرانس كذا في سبائك الذهب. وهو من أهل القرن الثامن، وبابني الإمام أبي زيد وأبي موسى التلمسانيين من أئمة المعقول والمنقول، وهما من أهل النصف الأول من القرن الثامن، وبالإمامين العارفين سيدي إبراهيم التازي، وسيدي إبراهيم المصمودي وهما ممن حاز طرفا من القرن التاسع إلى غير هؤلاء ممن حفظ التاريخ شرفهم العلمي.

وقد حقق كونهم من البربر أهل الخبرة بالأنساب، العارفون بالقواعد في هذا

الباب، وأما من تأخر منهم واشتهرت معارفه فى الآفاق كأبي علي اليوسي، وأبي سالم العياشي فهم كثيرون والحمد لله وقد عقد البكري في المسالك والممالك، ترجمة أتى فيها بنبذة من تدقيق البربر في السياسة وحسن التلطف في استخراج الحقوق ممن غمصها والوصول إلى تحصيل المصالح بعد درء المفاسد.

وبذلك كله يتبين لك أن القول الفصل في هذا البساط هو ما نبه عليه صاحب «الاستقصا» إذ قال: البربر من أعظم الأجيال وأعزها ولهم الفخر الذي لا يجهل، والذكر الذي لا يهمل. وقد تعددت فيهم الملوك العظام. وكان لهم القدم الراسخ في الإسلام. واليد البيضاء في إعلاء كلمة الله، ومنهم أئمة وعلماء وأولياء وشعراء وأهل المزايا والفضائل[1]، انتهى.

وبعد أن كتبت ما تقدم وجدت الباقعة أبا زيد ابن خلدون سبق إلى تحرير ذلك فقال: قد ذكرنا من أمر البربر وأخباره ما يشهد بأنه عزيز على الأيام، وأنهم قوم مرهوب جانبهم، كثير جمعهم، مظاهرون لأمم العالم وأجياله من العرب والفرس واليونان والروم، وأما تخلقهم بالفضائل الإنسانية وتنافسهم في الخلل الحميدة وما جبلوا عليه من الخلق الكريم ومرقاة الشرف والرفعة بين الأمم، ومراعاة المدح والثناء من الخلق من عز الجوار، وحماية النزيل، ورعي الوسائل، والوفاء بالقول والعهد، والصبر على المكاره، والثبات في الشدائد، وحسن الملكة والإغضاء عن العيوب، والتجافي عن الانتقام، ورحمة المسكين، وبر الكبير، وتوقير أهل العلم، وحمل الكل وكسب المعدوم، وقرى الضيف، والإعانة على النوائب، وعلو الهمة، وإباية الضيم ومشاقة الدول، ومقارعة الخطوب، وغلبة الملك، بيع النفوس من الله في نصر دينه فلهم في ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف، وحسبك ما اكتسبوه من حميدها واتصفوا به من شريفها، أَنْ قَادَتْهُم إلى

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ١/ ١٢٠.

مـراقي العـز وأريت[1] بهم على ثـنايا الملك، حـتى علت علـى الأيدي أيديهم ومضت في الخـلق بالقبض والبـسط أحكامهم، وأما إقـامتـهم لرسوم الشـريعة، وأخذهم بأحكام الملة ونصرهم لدين الله، فقد نقل عنـهم منه ما كان ملاكا لعزهم ومقادا إلى سلطانهم، وقـد كان للمبرزين من ملوكهم كيـوسف بن تاشفين، وعبد المؤمن ويعقـوب المريني من الاهتمـام بالعلم والجهاد وتـشييـد المدارس، واختطاط الزوايا وسد الثغـور وبذل النفوس في ذات الله، وإنفاق الأموال في سبـيل الخير، ومجـالسة أهل العلم، وترفيع مكانهم، والوقـوف عند حد إشاراتهم، والتـعرض لشكوى المتظلمين، وإنصـاف الرعايا من العـامل والضرب على يد أهل الجـور ما شهد لهم بها آثارها الباقية بعدهم، وأما وقوع الخوارق فيهم، وظهور الكاملين في النوع الإنساني من أشخـاصهم، فقد كان فيهم من الأوليـاء المحدثين أهل النفوس القدسيـة، والعلوم الوهبية، ومن حملة العلم عن التـابعين ومن بعدهـم من الأئمة كسـعيـد بن واسول جد بني مـدرار ملوك سجلمـاسة، أدرك التـابعين وأخذ عن عكرمة، وكـأبي زيد مخلد ابن كـيداد[2] اليفـرني الخارج على الشيـعة سنة ثنتين وثلاثمائة، وكـمنذر بن سعيد قـاضي الجماعـة بقرطبة المتوفي عـام ثلاثة وثمانين وثلاثمائة، وكـأبي محمد بن أبي زيد أحـد أعلام المغرب، وككبير عـلماء أنساب البربر سابق بن سليمان وغيرهـم من علماء الفنون[3] هذا ملخص الغرض من كلام ابن خلدون وناهيك به في هذا الباب.

تنبيه: ما سبق عن زروق عن سيدنا عمر في إفريقية لا يعارضه ما أورده غير واحـد كـالبكري في «المسـالك والممـالك» وابـن الدباغ في «مـعـالم الإيمان» من الأحاديث في فضل إفريقية، لأن تلك الأحاديث لم تصح.

(١) في تاريخ ابن خلدون الذي ينقل عنه المصنف «وأوفت».

(٢) في المطبوع: «كيداء» والمثبت عن ابن خلدون.

(٣) الخبر بطوله لدى ابن خلدون في تاريخه ٦/١٠٣ - ١٠٦.

بل قال ابـن ناجي في ذيل «معـالم الإيمان» بعد ايرادها سـمعت شيـخنا أبا القاسم البْرزُلي يقـول عن شيخه وشيخنا أبي عبـد الله ابن عرفة يغلب على الظن أنها موضوعة.

فصل: وحيث أتـينا بشرح مـا يتعلق بمن بهم سـميت بلدتنا هذه مكـناسة فلنرجع لتتميم ذلك بذكر من انضاف إليهم في حلولها وقت تخطيطها فنقول:

قال في «الـروض»: وورزيغَة يذكر أن أصل أهـلها روم[1]، انتهى. قلت: ورزيغة ـ بفتح الواو وسكـون الراء وكسر الزاي وسكون الياء وفتح الغين المعـجمة بعدها هاء تأنيث.

والروم بالضم ويقـال لهم بنو الأصـفر جـيل معـروف يجمع فـرقًا شَـتَّى، واختلفوا في نسبتهم، فقيل: هم مـن ولد الروم بن عيصو بن اسحاق عليه السلام سمـوا باسم جدهم، وقيل: سمـوا روما، لأنهم كانـوا سبعـة رَامُوا فـتح دمشق ففتحوها وقتلوا أهلها، وكان سكانها سكَرة - بفتحات - للعازر بن نمروذ بن كبوش بن حام بن نوح عليـه السلام والسكرة الفعلة ثم جعلـوا يتقدمون حتى انـتهوا إلى أَنْطَاكِيَـة، ثم جاءت بنو العيص فأجلـوهم عما افـتـتحوا وسكنوه حتى انتـهوا إلى القسطنطينيـة فسكنوها فسـموا الروم بما رَامُوا من فتح هذه الكور، وقـيل في وجه تسميتهم غير هذا.

وقد حـكى المسعـودي في «مروجـه» أقاويل ترجع كلهـا إلى أنهم من ذرية عيـصو، لكن قـال ابن خلدون قد أنكر ذلك المحـققون، والصـحيح نسـبهم إلى يافث.

وقد خطَّأ ابنُ حـزم قول من نسبـهم ليعصـو قال: وإنما وقع هذا الغلط لأن مـوضع بني عيـصو الذي يقـال له يسـعون يسـمي أروم فظنوا أن الروم من ذلك الموضع وليس كذلك، لأن الروم إنما نسبوا إلى رُوملُس[2] باني رومة[3]، انتهى.

---

(١) الروض الهتون - ص ٥٤.

(٢) في المطبوع: «روماش» والمثبت لدى ابن حزم الذي ينقل عنه المصنف.

(٣) جمهرة أنساب العرب - ص ٥١١.

قال ابن خلدون: ثم المحققون ينسبون الروم جميعًا إلى يونان الإغريقيين منهم واللطينيين ويونان معدود في التوراة من ولد يافث لصلبه، انتهى. واقتصر في روح البيان على أن الروم الأولى من ولد يافث والأخيرة من ولد عيصو بن إسحاق... إلخ. قلت: وهذا الذي اقتصر عليه قد نسبه السهيلي قبله لغير واحد فقال في روضه: وليس كل الروم من ولد بني الأصفر فإن الروم الأولى فيما زعموا هم من ولد يونان بن يافث بن نوح والله أعلم بحقائق هذه الأشياء وصحتها، انتهى. فإن صح هذا القول المفصل أمكن الجمع به بين ما نقله ابن خلدون وما نقله غيره ولم يحتج إلى تخطئة ما نقله غير ابن خلدون على كثرتهم.

قال ابن خلدون وأما الإفرنج فنسبهم هروشيوش(١) مؤرخ الروم إلى غطرما ابن عومر بن يافث. وقال ابن سعيد فيما نقل عن البيهقي وغيره: أن يونان هو ابن علجان بن يافث ولذلك يقال لهم العلوج، ويشاركهم في هذا النسب سائر أهل الشمال من غير الترك، فالإغريقيون من ولد إغريقش بن يونان، والروم من ولد رومي بن يونان، واللطينيون من ولد لطين بن يونان، فالشعوب الثلاثة من ولد(٢) يونان.

قال: وأعظم من أخذ بدين النصرانية الإفرنج، وقاعدة بلادهم فرنجة ويقولون فرنسة بالسين، وملكهم الفرنسيس وهؤلاء فرنسة أعظم ملوك الفرنجة ومن الفرنجة البنادقة والجلالقة، انتهى كلام ابن خلدون ملخصًا.

وحاصل ما نقله عن ابن سعيد أن اليونان يجمع الروم بفرقهم والإفرنج يفرقهم لأن الإفرنج من جملة أهل الشمال.

وقد حكى المسعودي في مروجه الاتفاق على أن الإفرنج من ولد يافث بن

(١) في المطبوع: «هيورش» والمثبت لدى ابن خلدون ٢/ ١٨٤.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٢/ ١٨٤.

نوح إلا أنه لم يعين الواسطة التي يدلون بها إليه وقد سبق بيان واسطتهم في نقل ابن خلدون عن مؤرخ الروم وعن ابن سعيد، وذلك مصرح بأن الروم غير الإفرنج الذين من جملتهم الإفرنسيس.

لكن يشكل على ذلك ظاهر قول الحافظ ابن حجر في فتح الباري: أنبأني غير واحد عن القاضي نور الدين ابن الصائغ الدمشقي، قال حدثني سيف الدين فليح المنصوري، قال أرسلني الملك المنصور قلاوون إلى ملك المغرب بهدية فأرسلني ملك المغرب إلى ملك الإفرنج في شفاعة فقبلها وعرض علي الإقامة عنده فامتنعت، وقال لي لأتحفنك بتحفة سنية، فأخرج لي صندوقًا مصفحًا بذهب فأخرج منه مقلمة ذهب فأخرج مها كتابا قد زالت أكثر حروفه وقد التصقت عليه خرقة حرير فقال: هذا كتاب نبيكم إلى جدي قيصر ما زلنا نتوارثه... إلخ.

ونحوه في عمدة القاري للعيني من غير ذكر سنده فانظر قوله ملك الإفرنج مع قوله هذا كتاب نبيكم إلى جدي... إلخ، فإنه ظاهر في كون هذا الملك من جنس رعيته الفرنج وخصوصا الفرنسيس منهم لما تقدم عن ابن خلدون من أن فرنسة أعظم ملوك الإفرنجة، انتهى.

فتكون الإفرنجة وخصوصا فرنسا منهم من الروم، إذ لا خلاف أن قيصر الذي قال فيه ملك فرنجة في هذه القضية - إنه جده - من عظماء الروم.

وعلى هذا فما وقع في كتاب سيدنا الجد الأكبر المولى إسماعيل لسلطان فرنسا في حينه وهو لويز الرابع عشر من قوله: أنت من سلالة عظيم الروم الذي كتب له جدنا وسيدنا... إلخ. وكذا ما وقع له في كتابه لسلطان إنكلترا حيث غاضبه قومه وفر إلى سلطان الفرنسيس من قوله له فيه كما خاطب أي النبي ﷺ قيصر ملك الروم جد هذا الملك الذي لجأت إليه، وأنت مقيم لديه... إلخ. كلاهما صحيح.

وفي ذلك كله حجة لما كلف قرره بعض محققي مشايخنا في درسه على البخاري من أن هرقل الذي كتب له ﷺ هو جد للدولة الحامية، انتهى.

والحاصل أن الاعتماد على هذا أولى من الاعتماد على ما نقله ابن خلدون في نسب الإفرنج عن مؤرخ الروم، ويعضد ذلك ما جزم به الشيخ فريد وجدي في «دائرة معارفه» من أن فرنسا أصلها من اللاتينيين، انتهى. واللاتينيون هم اللاطينيون وقد سبق أنهم من الروم، ويعضده أيضًا قول ابن أبي زرع في أنيسه أن ملك الفرنسيس الرومي نزل على تونس ليلة خمس وعشرين من ذي الحجة سنة ثمان وستين وستمائة قال: وكانت الروم في أربعين ألف فارس ومائة ألف رام ومائة ألف راجل، انتهى.

فأنت تراه جعل ملك الفرنسيس روميا وجعل جنده وقومه روما، وإن كان ابن خلدون أشار للجواب عن مثل هذا بقوله وما يسمع في كتب الفتح من ذكر الروم في فتح إفريقية فمن باب التغليب، لأن العرب يومئذ لم يكونوا يعرفون الفرنج وما قاتلوا في الشام إلا الروم فظنوا أنهم هم الغالبون على أمم النصرانية، فإن هرقل هو ملك النصرانية كلها فغلبوا اسم الروم على جميع النصرانية ونقلته الأخبار عن العرب كما هي، فجرجير المقتول عند الفتح من الفرنج وليس من الروم، وكذا الأمة الذين كانوا بإفريقية غالبين على البربر ونازلين بمدنها وحصونها إنما كانوا من الإفرنجة، انتهى.

ولا يتأتى جوابه هذا فيما ذكره ابن أبي زرع لأنه ليس نقلا عن العرب وقد قبل في الاستقصاء ما اعتمده ابن خلدون فالله أعلم.

قال في «الروض»: وتقع ورزيغة شرقا من نهر فلفل وبينهما مسافة، وفى ولِورَزْيغة حارتان قريبتان منها: بنو مروان وبنو غفجوم، وبنو مروان أقرب إليها، وماؤها من وادي ويسلن من أودية مكناسة وبها عيون[1]، انتهى. من خطه.

---

(١) الروض الهتون - ص ٥٤.

قلت: أما غفجوم - فبفتح الغين المعجمة وسكون الفاء وضم الجيم بعدها واو ساكنة فميم - وأما وَيْسَلَنْ - فبفتح الواو وسكون الياء بعدها سين مهملة فلام مفتوحة فنون ساكنة - كما تقدم ولا يعرف في الوقت الحاضر محل بورزيغة يطلق عليه اسم من الأسماء المارة غير زنقة بني مروان بالمحل المعروف في زماننا بحَجَر الذئب - بفتح الحاء المهملة والجيم - وهو اسم للنهج المار بين البساتين لوادي ويسلن المذكور.

ومن حوائر ورزيغة الشهيرة في الوقت الحاضر السلاوي وبو عشرين ولا يوجد بها في هذا الزمان من العيون غير العين المعروفة بعين الكبير وجميع غراسات حوائرها تسقي من وادي ويسلن المار الذكر، وويسلن هذا هو على طريق المار من العاصمة المكانسية لفاس على سبعة كيلو مترات من العاصمة وماء هذا الوادي لا يدخل منه للمدينة شيء.

قال في «الروض» وكانت ورزيغة مخصوصة بالأمن يسكن أهلها الخيمات بالجنات فلا يلحق أحدهم خوف ولا يتوقعه إلا من جهة الأسد خاصة[1]، اهـ. من خطه.

قلت: ولم يبق لهذا العهد أثر للأسد بها ولو بنواحيها القريبة، نعم يوجد بقبيلة حروان المجاورة للمدينة بالمحل المعروف بأَشَمّاس - بفتح الهمزة والشين وتشديد الميم المشبعة وسكون السين المهملة - كما يوجد أيضًا بالمحل المسمى لديهم ببُوعْشوش - بضم الباء الموحدة وسكون الواو والعين المهملة وضم الشين المعجمة مشبعة وسكون الشين المعجمة أيضًا - في الغابة ثم على بضع آلاف من الأمتار من المدينة، وسيأتي نص بعض مؤرخي الأورباويين وبين على كثرة وجوده قرب قصر فرعون أيضًا، وحيتئذ فلا التفات لمن يزعم منهم عدم وجوده، ويجزم بأنه لم يبق له اليوم ولا قبله بكثير أثر بهذه الديار المغربية ولا بنواحيها، ويعلل ذلك بضعف

(١) الروض الهتون - ص ٥٥.

حرارة القطر في هذه الأعصر الأخيرة على ما كانت عليه في الأعصر الغابرة، وبأنه لو بقي له أثر لوجد جلده وتداول بين مجاوري ساحة استقراره وغير ذلك من العلل الواهية.

هذا والأسد ويقال له الليث والضرغام في أسام كثيرة هو من أعظم الحيوانات المفترسة يصطاد عادة بالليل وهو في إفريقيا أكثر وأكبر جسما منه في آسيا ولا يوجد في أمريكا ولا في الجهة التي تحل فيها الأسلحة النارية.

وكأن حدوث هذه الأسلحة بهذه النواحي هو الذي أبعده منها للمحل الذي ذكرنا.

قال في «حياة الحيوان»: قالوا وللأسد من الصبر على الجوع وقلة الحاجة إلى الماء ما ليس لغيره من السباع، ومن شرف نفسه أنه لا يأكل من فريسة غيره فإذا شبع من فريسته تركها ولم يعد إليها وإذا جاع ساءت أخلاقه، وإذا امتلأ من الطعام ارتاض ولا يشرب من ماء ولغ فيه كلب، وقد أشار إلى ذلك الشاعر بقوله:

وأترك حبها من غير بغض ... وذاك لكثرة الشركاء فيه
إذا وقع الذباب على طعام ... رفعت يدي ونفسي تشتهيه
وتجتنب الأسود ورود ماء ... إذا كان الكلاب ولغن فيه[1]

انتهى.

وقد تعقب الفاضل الشيخ محمد فريد وجدي كلام صاحب حياة الحيوان بما لفظه: نقول يستبعد العقل امتناع الأسد عن ماء ولغ فيه كلب، أوّلاً لأن الأسد والكلب لا يجتمعان على ماء واحد حتى يرى أحدهما الآخر، وليس للأسد من خصيصة تطلعه على الغيب فتدله على أن كلبًا ولغ في هذا الماء أو ذاك، ويظهر لنا أن السبب في هذا القول هو ذلك الشعر، فإن الشاعر لما ذكر ترفع نفسه شبه نفسه ومعشره بالأسود ونظراءهم بالكلاب، وقرر أن الأسود لا ترد ماء ورد فيه الكلاب،

(١) حياة الحيوان الكبرى للدميرى ١/ ٣.

فجـاء البـاحث عن طباع الحـيوانات فنقل ذلك نقـلا وجعله مـن صفـات الأسود الحقيقية وهو خيال، انتهى.

وأقول إن ذلك الانتقاد، الذي لا سند له عند ذلك الفـاضل المنتقد سوى ما تخيله من الاستبـعاد. لا مسلك له في سبيل السداد: أمـا أولا: فإن المنتقد لم يزد على الميل للنفي من غـير جزم والناقـل لذلك قد أثبتـه جازما به فلـه بذلك مزيد علم، فكان إثباته مقدما لا محالة على ميل المنتقد للنفي.

وأما ثانيًـا فقوله: وليس للأسد من خـصيصة. . .إلخ هو أيضًـا نفي بمجرد التَّوهُّم والتـخيل، فإن الأسد ذكـر أهل هذا الفن له خصائص جمـة، منها أنه لا يتـعرض للمـرأة الحائض مع أن الحـيض هو أمر باطني في المرأة، وعـدم تعـرضه للمتصـفة به لا يكون إلا بخصيـصة توجب للأسد إدراك ذلك كتـمييز المتـصفة به برائحة أو نحـوها، وإذا جوزنا هذا بالنسـبة للأسد في حق الحـائض لزم أن نجوز ذلك في حقـه أيضًا في غيرها كـالماء الذي ولغه كلب، على أن مثل هذا مـوجود حتى في الكلب الذي هو الغاية في الخساسة، فقد جاء فيه أنه لا يلغ في دم مسلم كما في «الشفا»، ومن البديهي أن تفـرقة الكلب بين دم المسلم وغيره لا بد لها من خصيـصة تؤدي الكلب إليها، وإذا جـاز اتصاف الكلب بمثل هذه الخصيـصة فلأن يجوز في أعظم السباع بالأحرى.

وأما ثالثًا: فـإن من جملة ما وجه به أهل العلم عدم دخول مـلائكة الرحمة لبيت فيه كلب قبح رائحته، انتهى.

ولا مانع من أن توجـد بقية هذه الرائحة الشـديدة القبح في الماء الذي ورده وولغ فيه، وكفى فـيها دليلا للأسد الذي يعافه على كـونه ورد ذلك الماء قبله حتى يتجنبه.

وأما رابعًا: فقد قال في «حياة الحيوان»[1] في الكلب من اقتفاء الأثر وشم الرائحة ما ليس لغيره من الحيوانات، انتهى.

أي ولذلك ترى كلب الصيد لا يزال يتشمم ويقتفي الأثر حتى يخرج الصيد دلالة عليه بأنفاس بدنه وبخار جوفه كما في «عجائب المخلوقات»[2].

ولا شك أن الأسد هو أعظم الكلاب كما دلت عليه قصة دعائه ﷺ على عتبة بن أبي لهب بقوله: اللهم سلط عليه كلبا من كلابك، فكانت الإجابة بتسليط أسد على المدعو عليه فافترس رأسه.

وأما خامسًا: فقول المنتقد ويظهر لنا أن السبب في هذا القول هو ذلك الشعر... إلخ، يرده ما قدمناه عنهم في الحائض وعدم ولوغ الكلب في دم مسلم، فإنا ما رأيناهم ذكروا شعرا في ذلك يدعى استنادهم إليه، مع أن الخاصية المطلعة على ذلك الغيب ثابتة فيهما كما شرحناه، وإذا ثبت للأسد والكلب فيما ذكر فما المانع من ثبوت مثلهما لهما أو لأحدهما في غير ذلك، وبهذا كله يتبين لك أن استبعاد ذلك الفاضل المنتقد ممنوع، وأن دعوى أن مثبت ما استبعده، إنما استند لذلك الشعر مدفوعة، على أنا لو فرضنا أن المستند هو ذلك الشعر لا غير لم يجز تكذيب الشاعر فيه ولا صرف كلامه فيه عن ظاهره إلا ببرهان، لا بمجرد التخمين العاري عن الحجة والبيان، ولو ساغ ذلك لكان كلام الفاضل المنتقد بذلك أولى والله تعالى أعلم.

وتسمى البربر الأسد إزم - بكسر الهمزة وفتح الزاي وسكون الميم - ومن طبعه أنه لا يؤذي الإنسان في حال تمام ميزه وإدراكه غالبًا، والغالب على الإنسان فقد الشعور وتمام الذهول عند رؤية الأسد.

---

(١) حياة الحيوان للدميري ٢/ ٢٧٩.

(٢) عجائب المخلوقات - ص ٣٣٦.

وكما يوجد السبع بالمحلين المذكورين بجروان، يوجد النمر والفهد بهما أيضا وكلاهما ضرب من السباع. الأول يشبه الأسد غير أنه أصغر منه وأخبث أخلاقا وأشجع قلبا منقط جلده بنقط سود يقال له بلسان البربر أَغَلْيَاس - بفتح الهمزة والغين المعجمة وتسكين اللام بعدها مثناة تحتية - وهو لا يعدو على الإنسان غالبا وإنما يفتك بالمواشي ولا يتخذ محلا لسكناه غير رءوس الشجر.

والثاني ضيق الخلق شديد الغضب طويل النوم يضرب بكثرة نومه المثل فيقال أنوم من فهد، ويسمى بالبربرية ووغل - بواوين أولاهما مفتوحة وثانيتهما ساكنة بعدها غين معجمة مفتوحة - ولايؤذي من الإنسان إلا من هجم عليه بمحله، ويعدو بكثرة على ما سواه، ويوجد الكل بكثرة بقبيلتي زيان وبني مجيلد النازلتين وراء قبيلة جروان.

فصل: قال في «الروض» قيل: ولم يكن لهذه الحوائر قديما مدينة مسورة وكان واليها يسكن قصراً أدركه القدماء خرابا يعرف بقصر ترزجين، ولعل جيمه معقودة، وهو على ربوة من الأرض شرقا من بني زياد، وغربًا من وادي فلفل وجوفا من المدينة الآن. فلما ظهر امر الموحدين أحدث المرابطون على الوادي المذكور غربا منه حصنا سموه تاجرارت بالجيم المعقودة وكذلك بقي اسمه، وتفسير هذا اللفظ المحلة أو المجتمع بلسان البربر هكذا قيل[1]، انتهى. من خطه.

قلت: أما ترزجين ـ فبتاء مضمومة بلسان بعدها راء مضمومة فزاي ساكنة فجيم مكسورة فياء ساكنة فنون ـ وكأن هذا القصر هو الحصن الذي عناه صاحب معجم البلدان فيما قدمناه عنه من قوله بينهما حصن، انتهى. كما تقدم.

والبينة ظاهرة مما وصفه ابن غازي هنا كما فيما سبق أيضًا على أن ما حكاه ابن غازي هنا من أن مكناسة القديمة وهي التي عبر عنها بالحوائر لم تكن فيها مدينة مسورة، دليل على أن مدينة وَكِيلَي ليست داخلة عنده في مسمى مكناسة

---

(١) الروض الهتون - ص ٥٩.

القديمة وقد مر بسط ذلك، وأمـا تاجرارت - فبتاء مفتوحة بعـدها ألف فجيم فراء فألف فـراء فتـاء ساكنة - وما وصف به قـصر ترزجين ينطبق تمام الانـطباق على ناحية برج العـريفة الشهيـر الكائن بحارة بني موسى قرب الجنان المنسـوب للعريفة المشار لها أيضًا بالمحل.

فالظاهر أن القصر كان هنالك فخرب وأحدث بعده البرج المذكور زمن سيدنا الجد المولى إسـماعيل قدس سره، وإن كـان عدم تعيين ابن غازي لقـصر ترزجين بكونه من ورزيغة أو بمجـاورته لها وعدوله إلى التجوير بغـيرها كما تراه يبـعد ما قلناه كما يبـعده أيضًا ما يأتي قريبًـا في سوق الغبار من كونهـا إزاء قصر ترزجين ... إلخ، والله أعلم.

وتفسيـر تاجرارت بالمحلة في لسان البربر به جـزم ابن خلدون في تاجرارت التي حوز تلمسان فلعل ابن غازي إليـه أشار بقليل، وكذلك جزم بذلك الزياني فى رحلته وهو من علماء البربر، وإن كنت قد سألت غـير واحد من البربر عن تفسير تاجرارت بالمحلة فنفـاه وجزم بعدم وجوده في لسـانهم، وأنهم وإنما يقولون المحلة وبعضهم يقول تمحلت بزيادة مثناة فوقية قبل الميم.

كـما أني بحـثت عن لفظ أسكل الآتي قـريبًا وإطلاقـه على مفـرد الاهرية المتخذة من الدوم فجزم بعدم وجود هذا اللفظ عندهم.

ثم قال في «الروض»: وهذا الحـصن هو المدينة الموجودة لهذا العهـد، فلما أخذوا في بنائهـا اجتهدوا فـيه وأعجلهم الأمـر حتى احتاجـوا على ما يحكي إلى إقامة شقة من سوره بالأهرية المتخـذة من الدوم لادخار الأطعمة، ويسمى واحدها بلسان البربر أسكل، وملئوها ترابا، وقاتلوا دونها حتى أكملوا البناء بعد ذلك(١).

وفي القطر الغربي من أبراج سـورها برج مبني بالحجر والجيـار بناء محكمًا يسمى برج ليلة، سموه بذلك، لأنه بني من ليلته فيما زعموا، ونقل الوالي بدر بن

---

(١) الروض الهتون - ص ٥٩ - ٦٠.

وجوط - بالجيم المعقودة إلى المدينة المذكـورة وجوه الناس واغنياءهم ولم يترك من الأقوات شيئا إلا نقله إليها، وترك جمهور الناس في مواضعهم.

فأول غارة شنها المُوَحّدون على تـلك الأرض بسوق الغبار يوم الأحد، وذلك أنه لما وضعت هذه الموضوعـات على الصفة المذكورة من التفـرق كانت لهم سوق غبار بإزاء قصر ترزجين المتقـدم الذكر، وهو الذي يسمى بالسور القديم - بالراء - أو بالسوق القديم - بالقاف - كما يجرى على ألسنة الناس اليوم.

ومسجد الحـصن المذكور وصومعته لم يزالا قائمين لهـذا العهد، وكان أهل القصر وأهل الحوائر يجتمعـون إلى تلك السوق كل يوم أحد، فبينما هم يوم أحد قد اجتمعوا وكملوا بالسوق المذكورة وهي بأرض مرتفعة إذ أشرفوا على خيل مقبلة إليهم في زي المرابطين اللثم والغفائر القرمزية والمهاميـز التاشفينية والسيوف المحلاة والعمائم ذوات الـذؤابات فلما رأى القوم هذا الزي، قالوا: تقـوية السلطان جاءتنا وسارعـوا للقائهم فرحين بهم وهبطوا عن آخـرهم، فلما خرجوا عن منع القـصر والسوق حسـر الفرسان اللثم، ونادوا أبابا يا المهدي! وكان ذلك شـعارهم وأجالوا السيوف عليهم، ولم ينج منهم فيما ذكروا أحد وكانوا آلافا - رحمهم الله[(١)].

وما زال الناس لهذا العـهد يتحدثون أن المقابر التي عند باب مسـجد السوق القديم هي مقابر شهداء، فلعلهم هم والله تعالى أعلم[(٢)].

وكان الموحدون حـينئذ يسمون الناس المجسـمين ويقاتلونهم قتال كـفر وكان الناس يسمونهم الخوارج[(٣)]، ولم تزل الغارات تشن عليهم فيـقتل الرجال وتسبى النساء والذرية وتستـباح الأموال، والتضييق يتـوالى والمكايد تدبر والحيل تدار حتى ضاق ذرع الناس بكثرة الوقائع عليهم[(٤)].

ومن الأخبار التي كانت مشتهرة عند أهل الوطن أنه كان بأحواز تاورا شجرة

---

(١) الروض الهتون - ص ٦١.

(٢) الروض الهتون - ص ٦١.

(٣) الخوارج: أى المخالفين للمهدى.

(٤) الروض الهتون - ص ٦١.

كبيرة من النشم الأسود المسمى بالتغصاص باشمام الصادين زايين، وربما يكتبه المتفاصحون، التقصاص - بقاف وصادين - فبينما الناس قد انبسطوا لتدبير أشغالهم ومعايشهم إذ فاجأتهم الخيل وأحاطت بهم فلجأوا إلى تلك النشمة وظنوا أن النجاة فيها، فتعلق بها منهم خلق كثير، وضم الموحدون الحطب لتلك الشجرة وأضرموا النيران حولها، فسقط كل من كان فيها واحترقوا عن آخرهم، واحترقت النشمة بقيت منها بقية مدة من الزمان، وكانت عند أهل الأوطان من جملة مواعظ تلك الفتنة[1]، انتهى. من خطه.

قلت: ومما يرجع للخبر الأخير ما رأيته في كتاب «أخبار المهدي ابن تومرت» لعصريه مؤرخ دولته أبي بكر الصنهاجي المدعو البيدق صحيفة ٦٥: أنه لما خرج المعصوم من فاس نزل بمغيلة عند يوسف بن محمد وعبد الرحمن بن جعفر ثم منها نحو مكناسة، فلما أشرفوا على الكدية البيضاء نظر إلى الكدية فإذا بها مملوة رجالا ونساء تحت شجرة لوز، قال فدخل المعصوم فيهم ميمنة وميسرة وبددناهم يمينا وشمالا، ثم سار إلى السوق القديم ونزلنا به بمسجد أبي تميم عند الحسن بن عشرة، انتهى. فلينظر مع ما لابن غازي.

أما الموحدون فهم دولة بني عبد المؤمن من كومة القائمين بمملكة المغرب بعد دولة المرابطين، سماهم بذلك أول قائم بدعوتهم، وهو المهدي بن تومرت لزعمه أن كل من لا يجري على مقتضى العقيدة التي جمعها هو بلسان البربر المبنية على اعتماد طريق الخلف من تأويل المتشابه ومنافرة طريق السلف من إقرار نصوص المتشابة كما جاءت، فهو كافر مجسم، وأن التوحيد منحصر في أصحابه الذين تعلموا عقيدته، وبهذا السبب أباح لأصحابه قتل من عداهم قتال كفر، وسوغ لهم سباياهم وغنائمهم وسهل على نفسه وعلى أصحابه بذلك سفك دم المسلمين من غير توقف، وارتكب بذلك داهية عمياء.

---

(١) الروض الهتون - ص ٦١ - ٦٢.

وقد كان المرابطون الذين اغتصب هو وأتباعه ملكهم على طريق السلف في اعتقادهم، وكانوا من متانة الدين بالمكان المكين، ومن دوام العدل ما أكسبهم مزيد التمكين، إلا أنهم كانوا على سذاجة بداوة لم تفارقهم.

ومن رشحاتها أن الإمام أبا حامد الغزالي لما صنف في أيامهم كتابه «إحياء علوم الدين» ووصلت نسخة إلى الأندلس وإلى المغرب الأقصى فرآها علماؤه على طرز جديد لم يعهد، أنتجته مهارة أبي حامد في العلوم التي من جملتها علوم الفلسفة، أنكروها وبثوا إنكارها في قلوب أمرائهم المرابطين حتى اتفقوا معهم على التقاط نسخة وجمعها وإحراقها، ونفذ الأمر بذلك بقرطبة من الأندلس، فوصل خبر ذلك إلى الإمام أبي حامد وكان ابن تومرت وقتئذ يتعلم عنده في مدرسته ببغداد فحينئذ رفع أبو حامد يده إلى السماء ودعا بتمزيق ملك المرابطين كما مزقوه، فعلم ابن تومرت أن دعوة أبي حامد في ذلك دعوة مظلوم لا ترد فقال له: يا إمام، ادع الله أن يجعل ذلك على يدي، سأل ذلك منه مرتين فأجابه الغزالي في الثانية بقوله: اخرج يا شيطان فسيجعل الله ذلك على يدك فخرج قاصدا لذلك في زي ناسك متقشف ينشر العلم ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلى أن تم له بذلك الناموس الأمر مع ما سبق في علم الله الأزلي من قضاء ابن تومرت أول أمراء الموحدين على دولة المرابطين، مع ما وصفنا من متانة دينهم ومزيد عدلهم وكون أيامهم كانت أيام خصب وفتح بقطع شأفة ملكهم، ومن توغل الموحدين في سفك دماء المسلمين بدون توقف هذه الوقعة التي حكاها ابن غازي التي أوقعوها على غدر وغفلة بعمار السوق القديم من أهل مكناسة الزيتون، فإن قال قائل إن ما جزمتم به من حضور ابن تومرت حين دعاء الغزالي على المرابطين بتمزيق الملك يخالفه توقف صاحب الاستقصا في ذلك حيث عبر بقوله يقال إنه كان حاضراً. . . إلخ، قلنا: إن صاحب الاستقصا حيث عدم في الجزم المناط. تحرى

في النقل واحتاط، وذلك شأن الفضلاء أهل الصدق والأمانة في هذا البساط، لاسيما وهو إنما كتب ما حنشه ابن خلدون بقوله: ولقي أبا حامد فيما زعموا . . . إلخ، وأما الانتقاد على الجازم بالمتوقف كما فعل السائل فهو محض غلط إذ المهيع المعروف والمنهج المتبع المألوف، هو أن من حفظ حجة على من لم يحفظ لا العكس.

والذي جزمنا به هو الذي جزم به الحفاظ قبلنا وقبل صاحب الاستقصاء بأزمنة طوال، ودُهُورٍ خَوالٍ، ففي الصحيفة الثالثة والثلاثين والمائة من الجزء الأخير من النسخة المطبوعة من «معيار» الحافظ أبي العباس الونشريسي عن ابن القطان في كتابه «نظم الجمان». فيما سلف من أخبار الزمان. عن عبد الله بن عبد الرحمن العراقي شيخ مسن من سكان فاس، قال: كنت ببغداد بمدرسة أبي حامد الغزالي فجاء رجل كث اللحية على رأسه كرزى صوف فدخل المدرسة وحياها بركعتين ثم أقبل على الشيخ أبي حامد فسلم عليه فقال: ممن الرجل؟ فقال: من أهل المغرب الأقصى، قال: دخلت قرطبة، قال: نعم، قال: فما فعل فقهاؤها؟ قال: بخير، قال: هل بلغهم الإحياء؟ قال: نعم، قال: فماذا فعلوا فيه؟ فلزم الرجل الصمت حياء منه، فعزم عليه ليقولن ما طرأ فأخبره بإحراقه وبالقصة كما جرت.

قال: فتغير وجه الشيخ أبي حامد ومد يده إلي الدعاء والطلبة يؤمنون، فقال: اللهم مزق ملكهم كما مزقوه، وأذهب دولتهم كما حرقوه، فقام محمد بن تومرت السوسي الملقب بعد بالمهدي عند قيامه على المرابطين فقال له: أيها الإمام ادع الله أن يجعل ذلك علي يدي فتغافل عنه أبو حامد فلما كان بعد جمعة إذا شيخ آخر مثل شكل الأول فسأله أبو حامد فأخبره بمثل الخبر المتقدم فتغير وجهه ودعا بمثل دعائه الأول فقال المهدي علي يدي فقال: اخرج يا شيطان سيجعل الله ذلك على يدك فقبل دعاءه وخرج ابن تومرت من هناك إلى المغرب برسم تحريك الفتن، وقد علم أن دعوة ذلك الشيخ لا ترد فكان من أمره ما كان، انتهى.

وفي كتاب «المعجب في تلخيص أخبار المغرب». ما مضمنه: وحكي أنه ذكر للغزالي ما فعل بكتبه، وابن تومرت حاضر ذلك المجلس فقال الغزالي حين بلغه ذلك: ليذهبنَّ عن قليل ملكه ـ يعني فاعل ذلك بكتبه ـ وليُقتلنَّ ولده وما أحسب المتولي لذلك إلا حاضرا مجلسنا !وكان ابن تومرت يحدث نفسه إذ ذاك بالقيام فقوي طمعه، وكَرَّ راجعا من بغداد إلى ما قدر له[1]، انتهى.

وكان تاريخ هذا الإحراق سنة سبع وخمسمائة هـ.

وعلي هذه الصورة جلبه عنه الشيخ الرهوني في الشهادات من حواشي الزرقاني له مسلما، وإن كانت النسخة المنقول عنها من المعيار وقع فيها إسقاط بعض ما هو ثابت في نقل الرهوني الذي اعتمدناه، وكذا نقل هذه القصة علي الوجه المذكور ابن الخطيب في «الحلل الموشية» إلا أنه أسقط منها قول الغزالي: اخرج يا شيطان. . .إلخ.

وقد كانت بيعة المهدي بخصوص جبل درن منتصف رمضان عام خمسة عشر وخمسمائة، ومن ذلك الحين ظهر أمره وصارت زحوف أتباعه تهاجم كل من انقبض عن بيعته، ومنهم أهل مكناسة كما نبه عليه ابن غازي فيما تقدم، نعم بناء حصن تاجرارت محل المدينة الآن كان سنة خمس وأربعين وخمسمائة كما جزم به ابن أبى زرع، وفيه كان تخريب مكناسة القديمة، وفيه فتح الموحدون مكناسة بعد حصارهم إياها سبع سنين فأزيد، كذا عند أبي زرع لكن الذي صحح ابن غازي أن المدة أربع سنين وأشهر، وذلك في إمارة عبد المؤمن بن علي.

قلت: هذا كلامهم في هذا المحل ولي فيه إشكال، وهو أن حصار سبع سنين أو أربع إن كان علي مكناسة القديمة التي أفصح ابن غازي بأنها كانت حوائر غير ممدنة ولا مسورة، فحصار ما كان بهذه الصفة من عدم التحصين لا يستدعي

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب – ص٢٤٥ – ٢٤٦.

تطويل المنازلة إلى هذه السنين، لا سيما والحوائر في محل ليس بمنيع، إذ لا تحول دون منازله عقبة كئود ولا جبل عال شديد، كيف وقد قتل منازلوهم منهم في أول غارة شنوها عليهم آلافا متعددة في ساعة واحدة كما سبق عن ابن غازي، زد على ذلك ما ذكره واصفو هذا الحصار من أن الموحدين خندقوا علي مكناسة في حصارهم إياها خنادق متعددة، ولا خفاء أن عيش أهل مكناسة علي كثرتهم طول تلك المدة مع هذا الحصار الموصوف بعيد لأن ذلك الطول يهلك الزرع، والظهر، والضرع، وسائر ضروريات العيش.

ومن المعلوم أن الثروة التي تحمي صاحبها من الهلاك مع الطول إنما توجد في كل زمان عند بعض الأفراد لا عند عموم الناس ولا عند جمهورهم، ثم لو فرضنا أن أولئك الأفراد شركوا العموم في منافع ثروتهم، فإن ذلك مع انقطاع المادة يئول عن قريب بالجميع إلى الإفلاس، فأني يتأتي والحالة هذه الخلاص لمقاومة ذلك الطول: وإن كان الحصار على المدينة الجديدة المحصنة وهي تاجرارت كما يصرح بذلك كلام ابن غازي الآتي، فقد سبق عن ابن أبي زرع أنها فتحت في العام الذي بنيت فيه، فأين كانت حينئذ مدة حصار سنة كاملة فضلا عما زاد عليها؟ ثم كلام ابن غازي في هذا المحل خال عن الترتيب. بعيد عن التحرير والتهذيب، فإنه ذكر أولا بناء تاجرارت وأن القتال وقع قبل إكمال سورها، وهذا يقتضي أنها بنيت كلا أو بعضا وقت الحصار، ثم ذكر قضية السوق القديم بعدها وهي دالة علي أن أهل مكناسة وقتئذ لم يكونوا علي أهبة قتال ولا استعداد لحرب، وهذا لا يتأتي إلا قبل الحصار، وهو خلاف ما دل عليه ما سبق من كلامه وكذا هذا التنافر واقع بين ما ذكره في قضية النشمة وما قدمه في بناء تاجرارت ولو قدم حكاية السوق القديمة والنشمة على حكاية تاجرارت لسلم من هذا التدافع كلامه فتأمل ذلك كله.

وأما برج ليلة الذي ذكره ابن غازي فقد اندثر ولم يبق له الآن رسم ولا طل، وقد قيد بعضهم علي كلام ابن غازي هنا ما صورته هدم هذا البرج سنة خمس وتسعين أو أربع وتسعين وزيد موضعه في المدينة حين هدم جميع سورها وزيد ما وراءه غربا في المدينة، وبقي موضع هذا البرج إلي سنة إحدي وعشرين، وبني في موضعه الوزير أبو زكريا يحي المعروف بالمريني سقاية نفيسة ومسجدا فوق صاباط علي ممر بين الباب الجديد وباب البراذعيين وصومعة، وأوقف عليه أحباسا كثيرة كما هي عادته تقبل الله منه.

وسميت هذه الزيادة التي وراء السور جناح الأمان، وكان يعرف هذا السور عند من أدركناه ببرج الانفاض، انتهى.

قلت: أفادني بعض أجلاء فضلاء العصر ممن له معرفة بخطوط الأئمة أن خط ذلك التقييد والنسخة المقيد علي هوامشها هو خط الفقيه الصالح الرحال أبي علي الحسن صديق الشيخ السيد صالح الشرقاوي العمري وناسخه، وعليه فلا ريب أن هدم البرج المذكور كان في دولة سيدنا الجد المولي إسماعيل لأنه هو الذي هدم سور المدينة، وزاد ما وراءه غربا في المدينة فيكون المراد بسنة خمس في عبارة التقييد المذكور سنة خمس وتسعين بعد الألف.

والمسجد الذي بناه زكريا لا زال إلي الآن قائم العين والاسم فوق الساباط المذكور ويعرف بمسجد سيدي يحيى، وقد كان فيما سلف أشرف علي الاندثار، وفي هذه الأزمنة الحاضرة جدد كما جددت سقايته بعد ما تناولتها أيدي الاندثار أزمنة طوالا، بعد أن كان تعذر وصول الماء إليها، إلا أنها ليست الآن علي ما وصفت به من النفاسة، ومن هذا الساباط إلى ناحية الباب الجديد يسمى الآن سويقة زعبول ـ بفتح الزاي المعجمة وسكون العين المهملة بعدها باء موحدة فواو ساكنة فلام ـ وسويقة مصغر: سوق، ومن هذا المحل إلي مسجد باب البراذعيين

كله يسمى بجناح الأمان وجناح الأمان هو الذي علي يسار المار من باب الجديد إلي مسجد البراذعيين.

وأما ما على اليمين فإنما اكتسب تلك التسمية بالمجاورة، وأما الصومعة التي ذكر فلم يبق لها لهذا العهد رسم ولا وسم، وأما يدّر -بتشديد الدال وسكون الراء- فهو لفظ بربري، معناه بالعربية: يعيش، ووجلوط لفظ بربري أيضا معناه بالعربية الشجاع، والمعنى يعيش ابن الشجاع.

وأما سوق الغبار الذي وصفه فلا يعرف له اليوم اسم ولا رسم، نعم ما وصفه ابن غازي به يكاد ينطبق على المحل المعروف بذراع اللوز الكائن خارج باب البراذعيين أحد أبواب العاصمة المكناسية الآن شمال المحل المعروف هناك ببرج العريفة يمتد عنه للغروب، وهو مشرف على حارة تاورا شمالا وعلى حارة بني موسى غربا، وبطرفه أعلى المحل المعروف بباب جَمّال - بفتح الجيم وتشديد الميم - أشجار من اللوز والزيتون، وقرب برج العريفة المذكور أثر بناء قديم يعرف الآن بالفنيدق.

وأما قبور الشهداء المشار إليها فهي التي على يمين المار من الباب المذكور لضريح الولي الشهير مولانا عبد الله بن حمد، وعلى يسار المتوجه منها لباب تزيمي أحد أبواب العاصمة أيضا الذاهب في الطريق المعروفة بقصبة الأعواد تصغير قصبة، والمقابر المذكورة تحيط بها أطلال سور قديم وليس ثم أثر صومعة، أما المسجد فلا زال أثره قائم الأطلال ممتلئ بالأزبال والقذرات، موقعه على يمين الخارج من باب البراذعيين بمقربة من قبور الشهداء، وكان به أثر سقاية وقنوات، وربما لا زالت تحت الأزبال إلى الآن، ويطلق الآن اسم السوق القديم على محل بزرهون موقعه بالموضع المعروف باب الرميلة بين الزاوية الإدريسية ومداشر موساوة وحمراوة، والأمغاصيين، إلا أن ما وصف به ابن غازي السوق القديم لا ينطبق على هذا المحل.

فصل: قال في «الروض»: وكانت في المدينة بداوة ثم تمدنت واكتسبت حضارة، وزيد بعد [عام] الستمائة في جامعها الأكبر زيادة ظاهرة، وجلب إليها الماء على ستة أميال من عين طيبة الماء، عجيبة القدر بموضع يقال له تاجما، وأجري الماء إلى الباب [الشرقى] الجوفي من أبواب الجامع وسمي باب الحفاة، وكان متصلا بالباب الذي يسمي لهذا العهد باب الزرائعيين، وبنيت قريبا مَن هذا الجامع دار للوضوء حفيلة على مثال دار الوضوء بفاس، وهذا كله في أيام الموحّدين(١).

وقال إن الإمام أبا زكريا الوطاسي لما دخلها في القرن التاسع جدد بعض رسومها الدارسة وأنشأ بجامعها المجلس المسمي بالأسبوع لكون القراء يختمون فيه القرآن العزيز في كل أسبوع، وأمر بتحويل باب الحفاة إلى قرب دار الوضوء الكبرى التي تقدم ذكرها، ورأي أن ذلك أنسب من الباب الجوفي الذي كان قبل ذلك للحفاة كما تقدم، فلما حفر الصناع في الباب الموالي لدار الوضوء المذكورة ليبنوا به مجرى للماء وجدوا ذلك هنالك مبنيا بناء متقنا، ولم يكن عند أحد به علم، ولا بقي من مسني المدينة من عنده من ذلك خبر، فقضي الناس العجب من فطنة الأمير المذكور رحمه الله تعالى(٢).

قال: ويقال بلغت عمارتها إلى أن كان بها أربعمائة مسجد قال الأستاذ ابن جابر: وحول كل مسجد سقاية فالله أعلم من خطه.

قلت: أما أبو زكريا الوطاسي فإن تعبير ابن غازي عنه بالإمام مشعر بأنه كان سلطانا ولم يحفظ التاريخ ذلك فيما علمناه، وأبو زكريا يحيي بن زيان الوَطَّاسِي المريني الفاسي كان في القرن التاسع كما قال، ولكنه إنما كان وزيراً لعبد الحق المريني وكان عادلا، توفي قتيلا غدرا سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة، أورد ذكره تقي الدين ابن فهد في لحظ الألحاظ بذيل طبقة الحفاظ(٣).

---

(١) الروض الهتون – ص ٧٤ وما بين حاصرتين منه.

(٢) الروض الهتون – ص ٩٥.

(٣) لحظ الألحاظ – ص ٣٤٣.

وكذلك ولي الوزارة لمن ذكر ولده أبو زكريا يحيي بن يحيي المذكور، ولكن هذا لم يكن له من أفعال الخير ما يذكر، بل كانت وزارته شرا على الأمة وعلى عائلته بالخصوص حتى إن وزارته لم تدم إلا سبعين يوما وأعقبها ذبحه وذبح جمهور عائلته، وذلك سنة ثلاث وستين وثمانمائة.

وهناك أبو زكريا وطاسي ثالث، وهو أبو زكريا يحيي بن أبي عبدالله الوطاسي المدعو البرتقالي، وهو أخو السلطان أحمد الوطاسي إلا أنه إنما كان أميرا من قبل أخيه على القصر، توفي فيه أسر السعديين سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة فهو متأخر عن التاريخ الذي ذكره ابن غازي.

وفي كلامه السابق تنبيه على ما كان للمتقدمين من الاعتناء بالمشروعات، فانظر إلى الحد الذي بلغه اعتناء أهل الدين بمحال تعبدهم وكل ما ينضاف إليها مما يتوقف عليه المتعبد، وناهيك بما قد بلغ من الاعتناء بماء عين تاجما المتقدمة الذكر من وقوع التحبيس على إصلاح مجاريه حتي لا يقع مانع من وصوله للمسجد الأعظم فمن ذلك دار بحَوْمَة القرسطون، إحدى حومات العاصمة، حبستها على ذلك امرأة مكناسية بتاريخ أوائل جمادى الأولي عام خمسة وعشرين ومائة وألف، وذلك في دولة السلطان مولانا إسماعيل، أما نفس العين فقد رأيت التصريح بأن إجراء مائها للمسجد المذكور كان في دولة الموحدين.

وكلام صاحب الروض في باب الحفاة أولا وثانيا صريح في أنه هو الذي أجري إليه الماء أيام الموحدين بعد الستمائة، وهو الواقع جوفي المسجد، ولا شك أن هذا الباب الجوفي هو المعروف بذلك الاسم الآن، وهو المقابل لعنزة المحراب المقابلة لمحرابه على ما في ذلك المحراب من تمام الانحراف عن القبلة.

وعليه فالتحويل الذي فعله الوَطَّاسي لم يستمر، بل رجع بعد ذلك اسم باب الحفاة إلى مسماه أيام الموحدين، واستمر على ذلك إلى الآن وإن خلا عن

المناسبة المعهودة في مثله من أبواب حفاة المساجد، وهي إعطاء ذلك الاسم للباب القريب من باب ديار وضوئها.

وكأن موجب ذلك سهولة وصول الماء من صحن المسجد إلى الباب الجوفي لقربه منه واتصال الصحن به، بخلاف الباب القديم فإن وصول الماء منه إليه ملزوم بطرف من محصر المسجد والمرور المذكور ملزوم لتعاهده بالإصلاح عند موجبه، والتعاهد المذكور من لازمه تعذر التعبد في ذلك الطرف من المسجد في أزمنته المتكررة عادة، وإن شئت قلت دائما نظرا لإدمان وجود بلل أقدام الحفاة فيما حاذي الباب المذكور للمسجد الموجب لتعفين حصر المحل بذلك واتقاء المتعبدين لها، وقد تقرر أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وبه اتجه لك وجه تكرر النسخ في القديم واستمرار العمل على نسخه، مع وجود مناسبة وجه التسمية فيه دون الناسخ، على أن هذه المناسبة وإن فقدت في الناسخ فقد خلفتها فيه مناسبة أخري وهي موافقته للمعهود في غالب أبواب حفاة المساجد الكبار من كونها جوفية، كبابي الحفاة في القرويين والأندلس بفاس، فإنها نافذة في الصحن وبهذا كله اتضح الحال، وانزاحت كل شبهة عن المجال.

وقول ابن غازي وكان متصلا. . .إلخ، اسم كان فيه لا يرجع لهذا الباب الذي أجري إليه الماء أيام الموحدين، وإنما يرجع للمسمي باب الحفاة قبل ذلك، وهو القديم الذي وجدت آثار كونه باب الحفاة حين أمر الوطّاسي بالتحويل إليه كما بينه بعد، أي وكان باب الحفاة قبل ذلك متصلا. . .إلخ. فاهتدي إليه الوطاسي بوجود وجه التسمية فيه بعد ذهاب العلم بكونه كان هناك عن جميع أهل البلد من طول العهد بالتحول.

وهذا تسجيل من ابن غازي على أهل بلدته بأن إهمال التاريخ بلية قديمة فيهم وفيه إيماء إلى إقامة العذر لنفسه حيث اقتصروا على ذلك النزر في رَوْضِهِ هذا

وهو البحر علما، فـيكون تقصير غيره معفوا بالأحـري كما أومأنا لشيء من ذلك في ديباجة هذا الكتاب.

وبما تقدم بأن لك التـئام كلام ابن غازي ومـناسبة أوائله لأواخره ومطابقـته للواقع الخارجي في كون باب الزرائعيين المعروفة بذلك في عهده وكذلك في عهدنا هذا، كان متصلا بباب الحفاة القديم الذي اهتدي إليه الوطّاسي.

وزبدة الخبر أن باب حـفاة هذا المسجد الجامع كـان أولا هو المقابل لباب دار الوضوء وهو المتصل بباب الزرائعيين، ثـم صار في أيام الموحدين هو الباب الجوفي الذي يدعي بذلك الآن، ثم رده الوطاسي إلى مـسماه القـديم، ثم رجع بعده في زمن غير معروف لدينا إلى الباب الجوفي، واستمر العمل على ذلك إلى الآن.

والماء الجاري لهذا الباب هو من الصهريج الصـغير الواقع في صحن المسجد بمقربة مـن الخصة هنالك، ويـعرف هذا الصهـريج اليوم عند العـامة بالكسـيكيس بالتصغير، وماء هذا الصهريج يمر وسط المسجد في سـاقية مزلجة غير مقبوة إلى أن يصل لبـاب الحـفـاة، والنهج الـذي به هذا البـاب يعـرف في مـاضي الأعـصـر بالشماعين، وفي حاضرها بقبة العطارين.

وأما مسمى باب الزرائعـيين فهو البويب الصغير المتصل ببـاب الحفاة القديم الشرقي المعد هو أي البـويب المذكور لدخول المؤذنين ليلا للمسـجد ولا أذكر الآن وجه إضافته للزرائعيين.

وباب الكنيف المشار له قـد حول منذ أعصر خوال وصـار في محله، وكان للبـيع والابتيـاع وأحدث لهـا باب بمنعطف الأصلي القديم، ولا زال قـوس ذلك الباب ظاهرا للعيان في أعلى الدكان المذكور محدثا، كما أنه لا زال أثر قنوات باب الحـفاة القـديم ومحل انصـباب فـيض مائة لـلوادي المضاف الكبـير المار بالشـارع

العمومي إلى الآن، وقد كان باب الزرائعيين الماء الجاري كماجوره المتصل به، وبقربه عن يمين داخله أمام درب الفَرَسْطون ـ بفتح القاف والراء وسكون السين المهملة وضم الطاء بعدها واو ساكنة فنون ـ تنور كبير أي مجل يمتلئ من الماء الجاري في البابين المذكورين، وفي أعلى التنور ثقب نافذ لرحاب مستودع المسجد الأعظم يتناول منه الماء القيم بوظيف التوقيت والمؤذنون بحبل ودلو صونا لحرمة المسجد وأخذا بالأحوط فيما عسي أن يحدث لهم من الحدث الذي لا يبيح دخول المسجد، ولا زالت تلك الآثار المقدسة إلى حد الآن.

ومن ذخائر هذا المستودع الموجودة به إلى الحين الحالي الأسطرلاب[1] البديع الشكل المتقن الصنع مرقوم فيه بخط كوفي ما صورته: الحمد لله حبس هذا الأسطرلاب الباشا محمد بن الأشقر على منار الجامع الأعظم من محروسه مكناسة، انتهى.

وفيه بالقلم المشرقي: هذا حبس خديم المقام العالي المولى الإسماعيلي الباشا محمد الأشقر على منار الجامع الأعظم من محروسة مكناسة بتاريخ شقيح، انتهى.

وفي دائرته صنعه محمد بن أحمد البطوطي لطف الله به في سنة شقيح، انتهى.

قلت: والتاريخ المشار له بحروف لفظة شقيح (بشين معجمة فقاف فياء ومثناة تحت فحاء مهملة) هو عام ثمانية عشر ومائة وألف.

وجملة أبواب المسجد المذكور الآن أحد عشر بابا الثلاثة السالفات الذكر وباب الحجر سميت بذلك لأحجار ثلاث مسبوكات كانت مغروسة بين بابي المسجد والمدرسة المعروفة الآن بالفيلالية وفيما سلف بمدرسة القاضي ومدرسة الشهود، يمر على تلك الأحجار المتوضئ بالمدرسة المذكورة إذا رام الدخول

(١) الأسْطُرْلاب: جهاز استعمله المتقدمون في تعيين ارتفاعات الأجرام السماوية. ومعرفة الوقت والجهات الأصلية.

للمسجد وكان لهذه الأحجار قيّم على تنظيفها كل حين، وله على ذلك جراية شهرية من الحبس المعين لذلك.

ولم تزل تلك الأحجار قائمة والقَيِّمَ على تنظيفها بالمرصاد طبق ما وصف إلى أن رصفت الدولة الحامية ذلك النهج كله بالحجر المنجور في الحين الحالي فأزيلت تلك الأحجار وانقطعت الجراية وأبطل العمل.

وباب الخضر وهو لا يفتح إلا يوم الجمعة ولا أدري ما وجه هذه التسمية ولا العلة في كونه لا يفتح إلا في يوم المذكور.

وباب تربيعة الذهب سمي بذلك لكونه في مقابلة تربيعة القيسارية المعدة الأزمنة الماضية لبيع الحلي والجواهر الثمينة النفيسة، وكانت محكمة القاضي متصلة بهذا الباب في تلك الأعصر، وهي الآن دكان تباع بها أنواع المتاجر، وهذه الأبواب الخمسة كلها في شرقي المسجد بالنهج المسمى في الماضي بسماط الشهود وفي الحاضر بزقاق سباط السبْع ـ بسكون الباء.

وباب الخضارين وبجانبه متصلا به بويب صغير يدخل منه النساء لصلاة الجمعة والمؤذنون ليلا مثل باب الزرائعيين، وهذان البابان هما المقابلان لباب مدرسة الخضارين، وكان بين باب الخضارين هذا وباب المدرسة قبالته حجارات بالأرض على نحو ما كان في باب مدرسة الشهود وباب المسجد قبالتها، وباب سماط الشهود الآن، ويقابل هذا الباب المكتب الذي كان محكمة القضاة فيما سلف، ولم يزل معداً لذلك إلى زمان تولية شيخ بعض شيوخنا العلامة المتضلع النقاد حامل لواء المعقول والمنقول في زمانه سيدي أحمد بن سودة المري خطه القضاء بالعاصمة، وهذا المكتب لا زال إلى الآن قائم العين وسط سماط العدول المذكور، وقد كان هذا السماط فيما سلف وغَبَر، مُعَداً لبيع الخضر، ثم رجع سماطا لباعة الحرير يعرف بالحرارين، ثم رجع سماطا للعدول ولا زال كذلك إلى الحين الحالي.

وباب الكتب وإنما اكتسب هذه الإضافة لقربة من المكتبة العلمية، وهو الذي جعل بداخله شيخ الشيوخ القاضي ابن سَوْدَة المذكور المحكمة الشرعية بعد أن أهمل المكتب المعد لذلك لدي من تقدمه، ثم اقتفي أثره في اتخاذها لذلك نوابه ومن تولي بعده.

ولم تزل معدة لذلك إلى أن عينت الدولة الحامية المحكمة الشرعية أولا بدار اللب الشهيرة المعقبة على مؤذني الليل بالمسجد دون مؤذني النهار وقفت على رسم تحبيسها ولفظه: الحمد لله حضر لدي شهيديه التاجر الأوجه الخير الدين الأرضي الأبر السيد الحاج مسعود ابن المرحوم بفضل الله تعالي السيد الحاج محمد اللب الأندلسي، وأشهدهما على نفسه أنه متي حدث به حادث الموت الذي لا بد منه ولا محيد لكل مخلوق حي عنه، فجميع داره الكائنة بقبلة المسجد الأعظم من الحضرة العلية بالله مكناسة المفتوح بابها للمر الكبير الطالع للحمام الجديد المجاورة له ولزنقة المزطاري ولدار حرزوز التي هي الآن على ملك ولد عمه الأرضي الماجد المرتضى الخير الدين السيد الحاج محمد بن إبراهيم اللب النسب تكون حبسا على جميع بنات صلبه، مع زوجه معتقته الحاجه عافية، من تأيمت منهن واحتاجت للسكنى تسكن برأسها فقط من غير زوج ولا أولاد، فإن انقرضن عن آخرهن رجعت الدار المذكورة حبسا على أولاد السيد الحاج محمد بن إبراهيم اللب المذكور ذكورا وإناثا، للأنثى شطر ما للذكر في منفعة السكني وتسكن برأسها من غير أولاد ولا زوج، ثم أولاد الذكور منهم ذكورا منهم وإناثا، ثم عقب الذكور على نحو ما ذكر ووصف طبقة بعد طبقة ما تناسلوا وامتدت فروعهم، ولا يسكن الأبناء مع الآباء ولا من هو أحط رتبة من الأعلى إلا من استحق السكني لحاجة وفاقة، فيسكن مع من قبله إن حملتهم الدار، وإلا بأن كثروا فيخرج الغني للفقير ولو كان سابقا عنه، ولا يسكن من الإناث إلا من تأيمت واحتاجت للسكنى تسكن برأسها فقط كما ذكر، وجميع من ذكر من المحبس عليهم أولا وآخرا يسكن الدار

بنفسه، ولا يكري لأحد وإن اتسعت واحتاج لمن يسكن معه فيسكن من احتاج للسكني من الطبقة التي بعدها أو التي بعدها، ولا يكري أحد لأحد فإن انقرضوا عن آخرهم والبقاء لله وحده رجعت الدار حبسا على مؤذني الليل بمنار المسجد المذكور يشتركون في ذلك على حد السواء، ولا يدخل معهم مؤذنو العشاءين في ذلك حبسا مؤبدا ووقفا مخلدا، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، ومن بدل أو غير فالله حسيبه وسائله وولي الانتقام منه، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، إشهادا صحيحا طوعيا قصد به وجه الله العظيم والدار الآخرة، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ولا يخيب لراجيه وقاصده أملا، شهد عليه بذلك عارفا قدره وهو بحال كماله وعرفه وفي أوائل جمادي الثانية عام خمسة وثلاثين ومائة وألف، انتهى.

عينت المحكمة الشرعية الدولة الحامية ثانيا من دور الحبس كان يسكنها في غابر الأعصر مزاور المؤذنين المكلف بالتوقيت وآلاته بالمسجد الأعظم، وآخر من سكنها من أولئك المكلفين السيد الجيلاني الرحالي وإن لم يعط وسم مزوار وبها توفي، كما سكنها قبله قاضي مكناس أبو محمد العباس بن كيران مدة، وكان بابها داخل باب الجنائز الخارجي أحد أبواب المسجد المذكور المقابل - هو أي الباب - لمسجد الحجّاج عَلَى يسار الداخل منه للمسجد، تنفتح دفة الباب على بابها رحم الله آباءنا المتقين، ما أشد اعتنائم واحتياطهم لأمور الدين، اختاروا لسكني الموقت الذي عليه المدار في معرفة أوقات الصلوات التي هي من الدين بمنزلة الرأس من الجسد هذه الدار التي كادت أن تكون من نفس المسجد تيسيرا عليه ورفقا به وجمعا له بين مصلحتي المحافظة على القيام بحق الرب المعبود وحق الأهل.

ولما عينت هذه الدار محكمة أغلق بابها الأصلي المشار وأحدث لها باب بالشارع العمومي المار وسط سماط العدول بين باب الكتب المذكور في جملة أبواب المسجد وباب الجنائز.

وهذه الأبواب الخمسة كلها في الجهة الغربية من المسجد الجامع وفي هذا المسجد العظيم المقدار ثريات ثلاثة من الصفر[1] مكتوب بالدائرة الأولي من كبراها: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا. . .إلخ السورة، وفي دائرتها الثانية بعد الاستعاذة والبسملة والصلاة عليه ﷺ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا. . .إلخ السورة، وفي دائرتها السفلي صنعت هذه الثرية بمدينة فاس حرسها الله لجامع مكناسة شرفه الله بذكره، وكان الفراغ من عملها في العشرين من شهر ذي القعدة عام أربعة وستمائة.

وفيه مائة وثلاثة وأربعون قوسا، ومن الأساطين مائة أسطوانة[2] وأربعة وثلاثة أسطوانة وهذا العدد غير شامل للأساطين الملصقات بالجدارات.

فائدة: أول من أحدث الأساطين للظلال وهي مجانب مسقفة تظل الناس وتكنهم من الشمس والمطر عبد الملك بن مروان وذلك عام ثمانين، انتهى.

وفي المسجد من الصفوف المصطفة المتباعدة الأكناف، البالغة في محاسن الأوصاف، تسعة الصف الأول منها عديم النظير في اتساع العرض، إذ عرضه ستة أمتار وأربعة وثمانون سنتيما[3]، وهذا القدر لم أر ما يحاكيه في عرض صفوف غيره من المساجد، نعم عرض الصف الأول من جامع المنصور بمراكش يزيد عليه بواحد وأربعين سنتيما إذ عرضه سبعة أمتار وخمسة وعشرون سنتيما، وطوله خمسة وسبعون متر، أما عرض صفوف جامع بني أمية بدمشق الشام فيفوق الجميع إذ عرض كل بلاط من البلاطات الثلاث نحو التسعة أمتار.

وطول مسجدنا المكناسي من جدار المحراب إلى العنزة تسعة وثلاثون مترا وعشرون سنتيما، وعرضه من الجدار الشرقي إلى الجدار الغربي أربعون مترا

---

(١) الصفر: النحاس الأصفر.

(٢) الأسطوانة: العمود والسارية.

(٣) أى سنتيمتر.

وخمسة وتسعون سنتيما، وطول صحنه واحد وعشرون مترا وأربعة عشر سنتيما، وعرضه سبعة عشر مترا وواحدا وأربعون سنتيما، وعرض الجناح الأيمن خمسة عشر مترا واثنان وعشرون سنتيما، وعرض الجناح الأيسر أحد عشر مترا وأربعة عشر سنتيما، وعرض كل ربع من أرباع مناره خمسة أمتار وخمسون سنتيما، وسعة كل جدار منها متر واحد وسبعون سنتيما، وعدد درجها مائة درجة، وثلاث عشرة درجة علو كل درجة عشرون سنتيما.

قال في الروض: وكانت الصاعقة نزلت أيامهم يعني - بني مرين - على صومعة جامعها أي مكناسة الأعظم والناس في صلاة العصر فقتلت نحو سبعة رجال وهدت بعض أركان الصومعة ودخلت في تخوم الأرض بباب بإزاء الصومعة يعرف اليوم بباب الزرائعيين، فانتدب لبنائها شيخ الإسلام الفقيه أبو عمران موسى بن معلى المعروف بالعبدروسى، واستنجد أهل اليسار منهم فجمعوا من المال ما أصلحوا به ما انثلم من الصومعة المذكورة فيما حدثني به والدي والشيخ المعمر أبو زيد عبد الرحمن النيار موقت الجامع المذكور ومزوار[1] مؤذنيها، انتهى. من خطه[2].

قلت: الصاعقة نار تسقط من السماء لها رعد شديد. قال في روح البيان: ولا دخان لها وتتوالد في السحاب، وهي أقوي نيران هذا العالم فقد تغوص في البحر، وتحرق الحيتان داخله، وعن ابن عباس رفعه: إن الملك الذي يسوق السحاب إذ اشتد غضبه طارت من فيه نار وهي الصاعقة. وعند الحكماء أنها أثر اصطكاك كهربائتين إحداهما صاعدة والأخري نازلة.

وعند النيسابوري في تفسير قوله تعالى (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا. . .إلخ، إن القوى الفلكية إذا وقعت على العناصر بإذن الله فحركتها وخالطتها حصل من اختلاطها موجودات شتى من سحاب ومطر وطل وثلج وبرد

(١) مزوار: هذه التسمية انفردت بها بلاد المغرب، وصاحبها بمثابة صاحب الحسبة فى قبيلته.

(٢) الروض الهتون - ص ٩٣.

وريح ورعد وصواعق، وبعد أن بين كيفيـة تولد ذلك قال: فهذا القدر من الحقائق في هذا المقام لا ضيـر في معرفتـها، بعد أن يعتقـد انتهاء أسبابهـا إلى مدبر الكل سبحـانه، انتهى. ونبه بهذا على رد ما شـرحه الحكماء الفلاسفـة في هذه الحقائق إلى الأصل الأصـيل الديني من أنه لا فاعل إلا الله سـبحـانه، وأن ذلك لا ينافي إجراء الموجودات على ما تقتضيه الحكمة من قرن الأمور بأسبابها العادية.

وقد أشـار لمثل ذلك الرازي أيضا عند قـوله تعالى: هو الذي يريـكم البرق خوفـا وطمعا.. .إلخ، وإن أنـكر ذلك عليه أبو حيـان قائلا: هذا الرجل غـرضه جريان ما تنتحله الفلاسفة على مناهج الشريعة وذلك لا يكون أبدا، انتهى.

وبحثـه هذا مع الرازي غير وجيـه، لأنه لم يقصد تنزيل كـلام الحكماء من حيث كونه رأيا لهم على مناهج الشـرع، وهم لا يرون ذلك، ولا يقولون بالفاعل المختار وينسبون الأفعال للطبيعة، بل قصـده ربط المسببات بأسبابها، وأما ما قدمناه عن النيسابوري فهـو بيان لكيفية ربط هذه المسبـبات بأسبابها العادية التي اقتـضتها الحكمـة الإلهيـة وأتقنت كل شيء صنعـا من غيـر تعـريج على نسبـة ذلك لرأي الحكماء، بل مع التصريح بمنافيه وهو كونه فعلا ومن آثار قدرته وبديع حكمته.

وحينئذ فبحث أبي حيان مع الرازي لا يرد على النيسابوري وعلى ذلك والله أعلم حمل الشيخ زكريا والحافظ السيوطي صنيع البيضاوي في تخريجه آي التنزيل في هذه الحقائق على مثل الكيفية التي شرحها النيسابوري، ولذلك أرى كلامه في حواشيـهما على تفسـيره، وبه يجاب عن تعقب الإبريز بقـوله: على ناصر الدين البيضاوي درك في تفسير قوله تعالى: وينـزل من السماء من جبال فيها برد بطريقة الفلاسفة، والعجيب من سكوت الحافظ السيوطي في الحاشية على ذلك وكذا شيخ الإسلام زكريا في حاشيته عليه، انتهى. فليتأمل.

قيل والصاعـقة تسقط عادة على أرفع شيء وخـصوصا البارز كـالجبال دون الأرض السهلة والحارة، وقد يؤيد ذلك نزولها هنا على خصوص الصومعة المرتفعة

لكن قال في الإبريز: القول بأن الصاعقة لا تنزل في الأرض السهلة المستوية الحارة غير صحيح، فإنا شاهدناها تنزل في سلجماسة وهي أرض مستوية سهلة حارة صحراء، ولا أحصي كم شاهدناها تنزل فيها.

وقد ذكر السيد في شرح المواقف أن صبيا كان في صحراء فأصاب رجليه صاعقة فسقط ساقاه ولم يخرج منه دم، وقد ذكر المفسرون نزولها في الصحراء عند قوله تعالى: ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، انتهى. وترجمة أبي عمران العبدوسي تأتي بعد.

وطول محراب مسجد هذه الصومعة متران اثنان وثمانون سنتيما وعرضه متر واحد وسبعون سنتيما.

وفي الجهة الغربية منه المكتبة العلمية الجامعة لمحاسن الكتب القديمة لولا اختلاس جُلّ نفائسها ومد اليد العادية في ذخائرها الثمينة وإضاعة باقيها من ولاة الأحباس بعدم التعاهد والإصلاح أولا وتعطيل منفعتها بغلق أبوابها عن القراء ثانيا، حتى آل الأمر بسبب ذلك إلى أن صار الكثير مما بقي من كتبها التي يعز أن توجد في غيرها إلى حد لا ينتفع به أصلا لتمزقه وتلاشيه ووضعه في محل الكناسة والأزبال، وذلك من المفاسد التي لا تباح.

ومن العظائم التي أوقعت في الجناح، مع كون جانب الحبس غنيا، وبتجديد ذلك ورده إلى حال شبابه مليا، وهلا أيقظ ولاة الأحباس فعل الدولة الحامية فيما شيدته من المكتبة العلمية العديمة المثال بالمدرسة العليا بعاصمة الرباط وجلبت إليها نفائس الكتب المغربية وغيرها، ونصبت بها القيمين المهرة الحازمين المتلقين للقراء في كل حين بأوجه ضاحكة، مع تسهيل مناولة مقصد القارئ منها وإعانته على نيل بغيته، مع أنك إذا نظرت في مصارف الأحباس تجد الكثير منها يخرج في مقابلة لا شيء، إنما هي أسماء لا حقيقة لمسمياتها، كما تجد العدد الوافر منها

يخرج فيما لا أهمية له في نظر المحبس ولا في نظر الشرع، زد على ذلك وقوع التعذير في كل حين في غير المرموق بعيون أولي الأمر من المساجد ورباعها، فإذا تهدم جانب أو منفعة من منافعه أو ربع ينتفع به فيه مما هو بعيد عن التفات من ذكر ترك نسيا منسيا، حتى تعمل في مجموعه عوامل الخراب ولا يبقي له رسم ولا طل والأمر لله من قبل ومن بعد، اللهم يا مولانا وفق ولاة أمرنا لما فيه حياة شعبنا، وصلاح ديننا وسددهم وأعنهم على ذلك.

وأما مجلس الأسبوع الذي ذكر ابن غازي أن الوطاسي أحدثه، فهو الذي في أعلى ساباط الأسبوع المحمول على الجهة العليا من الجدار الشرقي للمسجد الجامع المذكور، وعلى الجدار المقابل لذلك من جدارات مدرسة القاضي المشار لها، وباب هذا المجلس هو في الصف الأول من المسجد، وقد بين ابن غازي وجه تسميته بذلك فيما مر عنه، لكن ذلك الوجه لم يستمر بل خلفه وجه آخر وهو قراءة سبع القرآن به في المصحف الذي حبسه جدنا من قبل الأم فخر الدولة العلوية بعد جده مولانا إسماعيل سيدي محمد بن عبدالله، فمن مناقبه - قدس الله روحه - تحبيسه لمصحف عتيق بخط بارع، تراجمه وسوره وأجزاؤه بالقلم الكوفي الذي لا يوجد له مثيل، سفره من ألواح الساج البديع المرصع بالصفائح المموهة بالذهب اللطيفة الشكل، قرأت عقد تحبيسه بأول ورقة من ذلك المصحف بتاريخ الثامن عشر من رجب عام سبعة وسبعين ومائة وألف، على خزانة الجامع المذكور.

وفي هذا المصحف كانت تكون قراءة السبع الواحد من القرآن بالمجلس المذكور كل يوم، وافتتاح أولها يوم السبت، وختم آخرها عند جلوس الخطيب على المنبر يوم الجمعة، وتقسيم هذه السباع على النهج المبين في قول القائل:

فإن تشأ فقف على ما قد وقف ... عليه خير مرسل مع السلف
وذاك في العقود لا النساء ... ويونس وسورة الإسراء
والشعرا وسورة اليقطين ... وقافها والختم بالتبيين

ومعنى هذه الأبيات إن أردت أيها القارئ المتعبد بالتلاوة موافقة السنة وعمل سلف الأمة في تعبدك وتلاوتك، فقف وقفا ليس بالواجب عليك في يوم افتتاحك على سورة العقود، وفي ثانيه على سورة يونس، وفي ثالثه على سورة الإسراء وفي رابعه على سورة الشعراء، وفي خامسه على سورة اليقطين، وفي سادسه على سورة قاف، وفي سابعه يكون الختم ويدل لهذا ما في النوع الخامس والثلاثين من الإتقان من أن قراءة القرآن في سبع هي أوسط الأمور وأحسنها، وهو فعل الأكثرين من الصحابة وغيرهم، وما أخرجه الشيخان عن عبدالله بن عمرو، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ القرآن في شهر، قلت: إني أجد قوة، قال: اقرأه في عشر، قلت: إني أجد قوة قال: «اقرأه في سبع ولا تزد على ذلك».

وما أخرجه أبو عبيد وغيره من طريق واسع بن حَبَّان[1]، عن قيس بن أبي صعصعة وليس له غيره أنه قال: يا رسول الله في كم أقرأ القرآن؟ قال: «في خمسة عشر قلت: إني أجد أقوي من ذلك، قال: اقرأه في جمعة».

وقول ابن أبي زيد في الرسالة ومن قرأ القرآن في سبع فذلك حسن، انتهى.

قال الشيخ زروق: يعني أن الختم في كل أسبوع حسن، وعلى ذلك كان السلف فمنهم من يجعلها بين الليل والنهار، ومنهم من يجعل ختمة بالليل وختمة بالنهار فيختمون الليله ليلة الجمعة، والنهارية يوم الاثنين، ويكون ذلك أول الليل وأول النهار يستغفر له الملائكة في بقية يومه، وقد اختلفت طرقهم في التجزئة وأحسنها في اليوم الأول ثلاث سور، وفي الثاني خمس، وفي الثالث سبع، وفي الرابع تسع، وفي الخامس إحدي عشرة، وفي السادس ثلاث عشرة، وفي السابع يختم بقيته إلى أن قال: ومنهم من يجزئ بالأحزاب والآي ونحو ذلك، وكلٌّ واسع وفعل السلف أحسن.

وقال الإمام أبو حامد الغزالي في الإحياء: «قيل إن أحزاب القرآن سبعة،

(١) بفتح المهملة ثم موحدة ثقيلة، قيده ابن حجر فى التقريب – ص ٥٠٩.

الحزب الأول ثلاث سور، والحزب الثاني خمس سور، والحزب الثالث سبع سور، والحزب الرابع تسع سور، والخامس إحدى عشرة سورة، والسادس ثلاث عشرة سورة، والسابع المفصل من قاف هكذا حزبه الصحابة، وكانوا يقرءونه كذلك».

قال العراقي في حديث تحزيب القرآن سبعة أحزاب رواه أبو داود وابن ماجه من حديث أوس بن حذيفة في حديث فيه قال أوس فسألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف تحزبون القرآن؟ فقالوا ثلاثا وخمسا وسبعا وتسعا وإحدي عشرة وثلاث عشرة وحزب المفصل.

وفي رواية للطبراني فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ كيف كان رسول الله ﷺ يحزب القرآن؟ فقالوا كان يحزبه ثلاثا فذكره مرفوعا وإسناده حسن، انتهى.

وقال أبو حامد أيضا ينبغي أن يكون الختم ما بين الشهر إلى الجمعة فيكون إذا أبطأ ختم القرآن في الشهر مرة، وإذا عجل لم ينقص من الجمعة.

ولم يزل العمل مستمرا على قراءة ذلك المصحف بالمجلس المذكور ويختم في كل أسبوع كما تقدم إلى زمن نظارة ابن عمرو على الأحباس بمكناسة، وقد كان ناظرا عليها في دولة الأمير المطاع الأمر مولانا الحسن قدس الله روحه في فراديس الجنان، وابن عَمْرو هذا، هو الحاج محمد بن عمرو الصنهاجي أصلا، المكناسي نشأة ودارا ووفاة، كان من رؤساء مكناسة وذوي الوجاهة بها والصيت الذائع والثروة ذات البال بالنسبة لأهل جلدته، تقلب في عدة وظائف مخزنية منها ولاية رياسة الأمانة على الأملاك المخزنية، ومنها الولاية على البناءات السلطانية الحسنية، ومنها الولاية على غير الرشداء من أولاد أفراد أعيان العائلة الملوكية لما كان له عند الجلالة السلطانية من المكانة، والحمل على الصدق والأمانة، ومنها ولاية النظر على عموم الأوقاف المكناسية والزرهونية مما عدا الزاوية الإدريسية فقد

كان لها ناظر مستقل، اتفق فى نظارته أن مات القيم بالأسبوع المذكور فى المجلس المشار وحين رام من له النظر فى الأمور الشرعية بمكناس وقتئذ إقامة خلف للقيم المذكور وأمر الناظر أن يجرى له من الأحباس مثل ما كان لمن قبله زعم أن القيم السابق لم يكن له راتب معين فى الحبس، وإنما كان متطوعا، فكان فى جوابه هذا وامتناعه من دفع الإعانة إبطال ذلك المشروع الحسن، فى ذلك المجلس المستحسن نعم ذلك المجلس هو وإن هجر عن المشروع المتقدم فقد تلافته بقايا السعادة بأن جعل الآن مكتبة علمية على ما سبق فيها، ونسيت المدرسة المتقدمة الذكر للقاضى لكون القاضى أبى على الحسن بن عطية[1] الونشريسى كان يدرس بها، وأضيفت للشهود لأنها كانت بأعلى سماطهم وهو محل باعة الخضر الآن ويعرف بنهج الخضارين كما تقدمت الإشارة لذلك.

ومؤسس هذه المدرسة هو أبو يوسف المرينى[2] كما سيمر بك قريبا، وأضيف الساباط للأسبوع لارتفاع المجلس الأسبوعى السالف الذكر عليه.

وبالمدينة اليوم من المساجد ما بين صين وساقط ومتداع للسقوط نحو ثمانية وسبعين والباقى من العدد السابق عن ابن غازى، منه ما صار دورا، وبساتين وقصورا، ومنه ما اندثر ولم يبق له خبر ولا أثر.

والمعد للخطبة منها اليوم اثنا عشر مسجدا ودونك عدّها: ١ المسجد الأعظم المعروف بالجامع الكبير، و٢ المسجد العتيق وهو المعروف بجامع النجارين، و٣ جامع الزيتونة، و٤ جامع باب البراذعيين، و٥ مسجد سيدى عبد القادر العلمى، و٦ مسجد سيدى سعيد، و٧ مسجد القصبة السلطانية، و٨ مسجد قصبة هدراش ويعرف بجامع لال خضراء، و٩ مسجد الأزهر الموسوم بجامع الأروى، و١٠ مسجد قصبة بريمة، و١١ مسجد السيد الحاج القدوة الولى الشهير، و١٢ مسجد بقصبة تولال.

---

(١) فى المطبوع: «أبى الحسن بن عطية» وصوابه لدى الونشريسى فى وفياته فى موسوعة أعلام المغرب ٢/ ٦٩٢. وانظر لذلك أيضًا: الروض الهتون - ص ٨٨.

(٢) الروض الهتون - ص ٨٨.

وبها من الصوامع التي ينادى بها للصلاة ثمانيـة وعشرون: ١ صومعة العتق وهو جامع النجارين، و٢ صـومعة المسجد الأعظم، و٣ صومعـة جامع الزيتونة، و٤ صومـعة جامع باب البراذعـيين، و٥ صومعة سـيدى أحمد بن خـضراء، و٦ صومعـة سيدى عبـد القادر العلمى، و٧ صومعـة جامع الصباغين، و٨ صـومعة جامع التـوتة، و٩ صومـعة جامـع براكة، و١٠ صومـعة جـامع ابن عزو، و١١ صومـعة جـامع الزرقاء، و١٢ صـومعـة جامع السـاباط، و١٣ صومـعة سـيدى اليابورى، و١٤ صومعة جامع القصبـة المعروف بلال عودة، و١٥ صومعة الضريح الإسماعـيلى، و١٦ صومعة باب مـراح، و١٧ و١٨ صومعتان اثـنتان بدار المخزن السعيدة، و١٩ صومعة جامع قصـبة هدراش المعروف بلال خضراء، و٢٠ صومعة جامع الأروى، و٢١ صـومعة سيدى سـعيد، و٢٢ صومـعة جامع الدار البـيضاء بآجدال، و٢٣ صومـعة سيدى الحاج القـدوة، و٢٤ صومعة بريمة، و٢٥ صـومعة جامع سعدون، و٢٦ صومعة سيدى الورزيغى، و٢٧ منار جامع تولال، و٢٨ منار جامعه جراوة بالجبابرة.

وبها من السـقايات نحـو السبعين والبـاقى أمسى فى خـبر كان والبـقاء لله وحده.

فـصل: قـال فى «الروض»: وكـان بهـذه المدينـة فى أيام الموحـدين ثلاث حـمامات البالى والجـديد والصـغير، وهـى باقية لهذا العهد، وكان أحدث فيها أبو زكريا يحيى بن غُنْصَـالُبَهْ المهاجر المعروف بابن أخت ألفنش فى العـشرة الثانية من القرن السابع حماما كِبيرا حفيلا محكما فجاء فى غاية الإتقان، وكان أبو زكريا هذا فنشيًّا، هاجر إلى سلطان الموحدين واستـوطن مكناسة مظهراً لدين الإسلام، وكان يسكن بهـا فى دار كبـيرة بشرقى الجـامع الأعظم مقابلة لأحـد أبوابه تنسب لعلى بن أبى بكر أحد حفاظ الموحدين، [كان] قد ولى العمل بها، وكان أبو زكريا

هذا قائد فرسان يتصرف فى ردع شرار البربر الرحالين، وكان فى زى الموحدين فاعلا للخير محبا فى أهله، وله فى إحداث هذا الحمام مناقب اشتهرت عنه من إرضائه أصحاب الديار التى اشتراها لذلك فى أثمانها وغير ذلك، وعمر هذا الحمام ما شاء الله ثم خرب منذ زمان، وآثاره باقية لهذا العهد عند سوق الغزل منها، وفيه يقول الأستاذ أبو عبد الله بن جابر فى رجزه المسمى بنزهة الناظر:

وإنما الحمام كان الفنش ذاك الذى إذ كان كان العيش

إلى أن قال وقد كان الشيخ أحمد اللحيانى الورتاجنى أيام قيامه بمكناسة أحدث بها حماما حول داره ودثر بعده، ثم عمر لهذا العهد ينسب إليه فيقال له حمام المرينى، وهو الآن رابع حماماتها، انتهى. من خطه[1].

قلت: قوله غُنْصَالبه هى - بضم الغين المعجمة وسكون النون وفتح الصاد مشبعة بعدها لام ساكنة فباء مفتوحة فهاء سكت - هكذا ضبطه بخطه.

وسلطان الموحدين الذى كان فى العشرة الثانية من القرن السابع هو المنتصر بالله بن الناصر بن يعقوب المنصور، وأما الحمام البالى فإنه لا زال قائم العين إلى الحين الحالى، إلا أنه لا يعرف اليوم بهذا الوصف، وهو المعروف بحمام مولاى عبد الله بن أحمد، ويدل لذلك تصريح بعض المقيدات الحبسية الموثوق بصحة خبرها بذلك ودونك نصها: ومنها أى من العقارات الحبسية الكوشة المتصلة بالحمام البالى المعروف بحمام مولاى عبد الله بن أحمد، انتهى.

وأما الحمام الجديد فإنه لا زال قائم العين معروف الاسم إلى الآن.

وأما الحمام الصغير فإنى لم أقف على تعيين مسماه الآن، إلا أن الغالب على الظن أنه حمام التوتة، إذ هو أصغر حمام يوجد فى البلد مع ظهور قدمه.

وأما حمام أبى زكرياء الفنشى فقد قال بعض من تأخر زمانه فى طرة قيدها

(١) الروض الهتون - ص ٧٥ وما بين حاصرتين منه.

على كلام «الروض» هنا ما لفظه: أدركـنا هذا الحمام وقد اتخذ معـصرة للزيتون، وبقى كذلك سنين متطاولة والآن جعل محلا لعـمل البارود بسويقة باب البراذعيين فى قبلة ضريحى الوليين سـيدى عبد الله الدراوى وسيدى أحـمد بن خضراء نفع الله المسلمين ببركاتهما، وما زال الحمـام على قبتين محكمتى البناء على أعمدة من الحجر المنحوت، انتهى.

قلت: هذه الأوصاف تنطبق تمام الانطـباق على المعصرة القـائمة العين الآن المجاورة للفرن الـكائن بالسويقة المذكورة المعـروفة اليوم بسويقـة جبالة، ولا زالت إحدى القـبتين شـاخصـة إلى الآن بالمعصرة المذكـورة ولم يبق أثر لتلك الأعـمدة الحجـرية، نعم يوجد ثَمَّ بناء بالحـجر المنحوت لا يبـعد أن يكون هو حـجر تلك الأعمدة، كما أن الذى تعطيه القرائن أن ذلك الفرن المتصل بها هو عين القبة الثانية هدمت وبنى الفرن فى محلها والله أعلم.

وأمام حمام المرينى فهو الحمام المعروف اليوم بحمام السويقة ويستفاد ما يدل لذلك من بعض التقاييد الحـبسية الموثوق بخبرها أيضا، إذ فـيها تجوير درب الست هنو بحمام المرينى والحمام المجاور لذلك الدرب هو حمام السويقة.

وأما سـوق الغزل بالمحل الذى أشـار له ابن غازى فـلا يعرف الآن، والذى أدركناه موضعه بمقـبرة سيدى أحمد الدراوى التى كان يخـرج إليها من الباب الذى كان بوسط العـشابين خارج باب بريمة، وقـد حول حين حلت الفتن وكثـر الهرج أواخـر الدولة الغـزيزية إلى زاوية من زوايا بطحـاء الهـديم وأُغلقت باب المقـبـرة المذكورة خوف هجوم الرعاع على العاصمة منها، وكان غلق هذا الباب فاتح واحد وعـشرين وثلاثـمائة وألف.ـ ولا زال سـوق الغـزل يعمـر بالهـديم إلى الآن كل صباح.

هذا وعدد حمامات المدينة اليوم أحد عشر ودونك أسماءها: ١ حمام سيدى

ملوك، ٢ حمام التوتة، ٣ حمام تربيعين، ٤ حمام السويقة، ٥ حمام مولاى عبد الله بن أحمد، ٦ حمام باب البراذعيين، ٧ حمام مولاى إسماعيل، ٨ حمام لال خضراء، ٩ حمام جامع الزيتونة، ١٠ حمام الجديد، ١١ حمام الحرة ويعرف بحمام سيدى عمرو بو عوادة، ويمكن أن تكون الحرة التى أُضيف إليها هذا الحمام هى أم أيمن بنت على البطوئى[1] أم السلطان يعقوب بن عبد الحق المرينى لأنه كثيرا ما تذكر فى الكتب التاريخية بالحرة والله أعلم.

والذى يعين أنه هو المضاف اليوم لبوعوادة الولى المتبرك به هو ما فى «ممتع الأسماع» ولفظه: أبو حفص عمرو بن عوادة دفين حومة حمام الحرة من مكناسة، وأما الدار التى كان يسكنها الفنشى فوصف ابن غازى لها يقضى بأنها فى موقع مدرسة الشهود المتقدمة الذكر، أو سوق البز المعروفة بالقيسارية.

وعدد دور المدينة الآن ثمانية آلاف دار وخمسمائة وخمس عشرة دارا.

وعدد دكاكينها أربعة آلاف تقريبا.

وعدد حوماتها تسعة وعشرون وهى حومة حمام الجديد، وزقاق القلمونة، وأروى مزيل، وجامع الزيتونة، وقعر وردة، وفرن النوالة، وسيدى أحمد بن خضراء، وعقبة الزرقاء، والتوتة، وتزيمى الكبرى، وتزيمى الصغرى، وجناح الأمان، وزنيقة الأنوار، وجامع النجارين، وظهر السجن، والصباغين، وبريمة، وقصبة هدراش، وباب مراح، وسيدى عمرو الحصينى، وسيدى النجار، والدريبة، والستينية، والدار الكبرى، والأروى، والجبابرة، وبنى محمد، والدار البيضاء، والملاح.

وأما بالنظر إلى التقسيم فمكناس كغيره من مدن الإيالة ينقسم كما فى البستان، فى تخطيط البلدان، ثلاثة أقسام: القصبة المولوية، والمدينة الأصلية، والملاح، والسور محيط بالجميع.

---

(١) بضم الطاء مشددة، فواو وهمزة قبل ياء النسب، قيده صاحب نشر المثانى فى موسوعة أعلام المغرب ٣/ ١٢٨٥.

وعدد أرجاء الماء بها اليوم اثنتان وأربعون، وعدد الأفران اثنان وثلاثون، وعدد الطرازات المعدة لنسج الصوف ثمان وعشرون، وعدد الإصطبلات تسع وأربعون، وعدد معامل الزليج والأوانى الخزفية وما شاكلها تسعة عشر.

وعدد سكانها من الأهالى ثمانية وعشرين ألف نسمة ومائتان وسبع على ما أنتجه الإحصاء الأخير، والذى يظهر من تساهل المكلفين بهذا الإحصاء وعدم ضبطهم أن عدد السكان يزيد على ذلك بما ينيف على العشر، وأما عدد سكانها من الإسرائليين فخمسة آلاف وسبعمائة وثلاثة وستون، وأما سكانها من الفرنسيين المدنيين فألف وتسعمائة، وأما سكانها من الأجانب غير الفرنسيين فسبعمائة وتسعة وخمسون، فجميع السكان على هذا ست وثلاثون ألفا وستمائة وتسع وعشرون، وقد أشرنا إلى أنه لا معول لمن رام التحقيق على هذا الإحصاء فقد أغفل أهله عائلات كثيرة من الأهالى والأجانب.

فصل: قال ابن غازى: وذكر ابن خلدون أن السلطان أبا يوسف المرينى لما فرغ من بناء البلد الجديد المسمى بفاس الجديد، أمر ببناء قصبة مكناسة، انتهى من خطه[1]. زاد غيره وجامعها، انتهى. أى أمر ببناء جامع القصبة معها، وزاد ابن خلدون فشرع فى بنائها من سنته، انتهى. يعنى سنة أربع وسبعين وستمائة كما بينه هو وابن أبى زرع وغيرهما.

والشروع فى بناء فاس الجديد اتفقت كلمتهم على أنه كان فى شوال من السنة المذكورة زاد فى «روضة النسرين» وغيرها أن ركوب ابن يوسف من القصبة القديمة بفاس وخروجه لتأسيس فاس الجديد وحفر، أساسه كان ضحى يوم الأحد ثالث شوال عامه، وزاد ابن أبى زرع أن أمره ببناء قصبة مكناسة كان فى شوال المذكور.

قلت: فعلى هذا كان الشروع فى فاس الجديد والفراغ منه فى ظرف نحو العشرين يوما لا غير، وهو فى غاية البعد، والذى عند ابن خلدون أن كمال

(١) الروض الهتون - ص ٨٧ - ٨٨.

بناء المدينة المذكورة وسكنى الأمير المذكور بها كان سنة أربع وسبعين وستمائة، انتهى.

فلم يصرح باليوم والشهر اللذين كان فيهما ذلك، فجاز أن يوافق ما صرح به ابن أبى زرع، وجاز أن يخالفه وهو الظاهر، ويعضد ذلك ما فى الحلل الموشية لابن الخطيب، وهذا لفظ ما فى النسخة المطبوعة الآن منها، وفيها أى فى سنة أربع وسبعين وستمائة ابتدئ بناء البلد الجديد بخارج مدينة فاس وهو المدينة البيضاء وتم فى ذى الحجة سنة سبع وسبعين وستمائة، انتهى.

والظاهر صحة ما قاله ابن الخطيب، فإن العادة فى البناء الكثير وخصوصا مدينة أن لا يتم إلا فى أعوام، وسيمر بك أن مدة بناء سيدنا الجد المولى إسماعيل للقصر الكبير بمدينتنا مكناسة ثمانى سنين مع ما كان عليه من ضخامة الملك وشدة الحرص على البناء، مما لا يساويه فيه بل ولا يدانيه بانى فاس الجديد، وسيمر بك فى كلام الزيانى وغيره شاهد ذلك، وفى كلامه زيادة على ما لابن خلدون بتعيين الشهر الذى وقع الفراغ من بناء فاس الجديد فيه وهو ذو الحجة، وفيه مخالفة أيضا لابن أبى زرع فى وقت الشروع فى قضبة مكناسة، فصريح كلام ابن أبى زرع أنه كان فى شوال، ومقتضى ما لابن الخطيب أنه فى ذى الحجة وهو الظاهر والله أعلم.

ثم هذه القصبة قصبة مكناسة المحدث عنها لم يتنازل أحد من المؤرخين فيما رأينا للتصريح بما يحقق تحديدها وتفاصيلها، غير أن الشواهد والقرائن التى تعطيها نصوصهم ترشد إلى أن موقعها كان فيما بين منتهى جامع القصبة المعروف بهذا الاسم قديما وحديثا وبجامع لآل عودة أيضا، وبين السور الواقع بإزائه الذى هو آخر القصبة الإسماعيلية المحيطة بالقصور الملوكية المعدة لسكنى العائلة الآن.

وأما تحقيق حدود القصبة المرينية فى هذه المساحة التى أرشدت إليها قرائن

نصوصهم وكذلك الجـزم ببقاء شيء من عينها بعد الإضافات الكثـيرة والتجديدات الهائلة التى أنشأتها الهمة الإسماعـيلية هناك، فهو مما لا سبيل إليه فى هذه الأزمنة الحاضرة، وحـسب الواقف هنا قبول هذا الخبر التاريـخى من غير تطلب لمطابق له خارجا، وسنأتى بحـول الله من تفاصيل تأسيـسات الجد مولانا إسـماعيل وهائل تخطيطاته فى قصبته ما يزيح عنك البين، ويدفع عنك فيما سطرناه المين.

نعم جامع القصـبة المذكور سيـأتى لنا ترشيح أنه هو جامعـها المرينى المأمور ببنائه معها، وإن كنا لا نجزم بأن البناء الموجود فيه الآن هو الأصلى وسننبه على ما عينه النص فيه أنه من الأعمال الإسماعيلية أو غيرها والله أعلم.

وأبو يوسف بانى القصبـة المذكور، هو أمير المسلمين يعقـوب بن الأمير أبى محمد عبد الحق الزناتى المرينى وهو سادس سلاطين الدولة المرينية لقبه القائم بأمر الله والمنصور بالله، مولده سنة تسع وستـمائة، وبويع سنة ست وخمسين، وتوفى سنة خمس وثمـانين وستمـائة، فعمـره خمس وسبـعون سنة، ومدة ملكه تسـعة وعشرون سنة وستة أشهر واثنان وعشرون يوما، كذا فى «روضة النسرين».

وما ذكره فى هذه ملكه يقتضى أن مبايعته كانت قبل فاتح عام ستة وخمسين بستة أشهر، وهو مخالف لما تقدم عنه من أنها سنة ست وخمسين فاعرفه.

صفـته: أبيض اللون، تام القـد، معتـدل الجسم، حسن الوجـه والصورة، واسع المنكبين، أشيب كـأن لحيته قطعة ثلج من بيـاضها ونورها وإشراقـها، وكان شجاعا حازما، من فضائله أنه لم تهزم له راية ولم يقصد عدوا قط إلا قهره، ولا جيشا إلا هزمه، ولا بلداً إلا فتحها.

استرجع سَـلاَ من يد الإصبان فى ظرف أربعـة عشر يوما من احتـلالهم بها وذلك سنة ستـمائة وثمان وخـمسين، وانتصـر عليهم الانتصـارات الباهظة وغنم غنائم طائلة، وقد نقل بعد وفاته فدفن فى روضة شالة من رباط الفتح.

تنبيه: قال ابن أبى زرع: ومن تابعه ومن سعادتها يعنى فاسا الجديد وسعادة طالعها أنها لا يموت فيها خليفة ولم يخرج منها لواء إلا نصر، ولا جيش إلا ظفر، انتهى.

وأقول كم لواء خرج منها فكسر. وجيش فهزم ودمر. والعيان أكبر شاهد وحسبك ما وقع أواخر الدولة العزيزية فى فتنة أبى خمارة التى قضت على ما كان من بقية الرمق بالمغرب، وسيمر بك بحول الله وقوته تفصيل ذلك، نعم إن قصرت تلك المقالة على ما سلف كما هو مقتضى ظاهر لفظها فلا بحث إلا من جهة أن المقالة تقتضى أن عدم وقوع ذلك فى سالفه لأجل خصوصية هناك، مع أن ذلك إنما كان اتفاقيا وإلا لدام، والله أعلم.

ثم قال فى الروض: وبنى السلطان أبو يوسف أيضا بمكناسة مدرسة الشهود التى بأعلى سماطهم هنالك، ويقال لها مدرسة القاضى، لأنها كان يدرس بها القاضى أبو على الحسن بن عطية الونشريسى وسيأتى ذكره إن شاء الله تعالى، ثم نوه بها أبو الحسن المرينى المسمى بأبى الحسنات الكثير الآثار بالمغرب الأقصى والأوسط والأندلس، فبنى فيها مرافق كثيرة كزاوية القورجّة، وزاوية باب المشاورين وغير ذلك من السقايات والقناطر فى طرقاتها ونحوها، ومن أجلٍّ ذلك المدرسة الجديدة، وكان قدم للنظر على بنائها قاضيه على المدينة المذكورة أبا محمد عبد الله بن أبى الغمر(١).

فحدثنى والدى - رحمه الله - أنه كان يسمع ممن أدرك من الشيوخ أن السلطان أبا الحسن رحمه الله تعالى لما أخبر بتمام بنائها جاء إليها ليراها، فقعد على كرسى من كراسى الوضوء حول صهريجها، وجئ بالرسوم المتضمنة للتنفيذات اللازمة فيها، فغرقها فى الصهريج قبل أن يطالع بما فيها وأنشد:

لا بأس بالغالى إذا قيل حسن   ليس لما قرت به العين ثمن

(١) الروض الهتون - ص ٨٨.

(٢) الروض الهتون - ص ٩٠.

ولما ولى بعده ولده أبو عنان نوه بهـا أيضا وتفقد أحوالهـا، وكان من جملة ذلك أن أمر بالاقـتصار على عـشرة من الشهود بهـا وعزل الباقين على كـثرتهم، انتهى من خطه[1].

قلت: أما مدرسة القاضى فقد قـدمنا بعض ما يتعلق بها وهى المعروفة اليوم بالمدرسة الفيلالية، وكأنهـا تنسب لمن كان يسكنها من طالبى العلم أهل تافيلالت، وقد نبهنا فيما سبق على أن سماط العدول حول عنها للدكاكين المسندة للجهة التى عن يمين المصلى بالمسجد الأعظم.

وأما أبو الحسن المرينـى فهو السلطان أبو الحسن على بن السلطان عـثمان بن يعقوب بن عبد الحق المرينى لقبه المنصـور بالله، مولده فى صفر سنة سبع وتسعين وستمائة، وبويع يوم الجمعة الخـامس والعشرين من ذى القعدة سنة إحدى وثلاثين وسبعمـائة، وتوفى بجبل هنتانة ليلة الثلاثاء السـابع والعشرين من ربيع الأول سنة اثنتين وخمـسين وسبعمـائة، ودفن بمقبرة السـعديين الشهيـرة بمراكش يوم الأربعاء التالى ليوم وفاته المذكور، ونقل إلى تربة أسلافـه بشالة فى اليوم السادس عشر من جمادى الأولى من العام المذكور حسبما هو منقوش فى رخامة على القبر الذى نقل منه بالروضة المذكورة قد وقفت على ذلك بنفسى، ورأيته بعين رأسى.

قال فى «روضـة النسرين»: فـمدة ملكه عشـرون سنة وثلاثة أشهـر ويومان اثنان وعمره ستون سنة، انتهى.

وما ذكـره فى مدة عـمره مـخالف لما ذكـره فى تاريخ ولادته ووفاتـه، فإن مقتضاها أن عمره خمس وخمسون سنة ونحو شهرين اثنين لا غير.

صفته: طويل القامة، عظيم الهيكل، مـعتدل اللحية، حسن الوجه، سالكا سبيل العدل والتقوى، محبا للصالحين، حبب إليه الطيب.

---

(١) الروض الهتون - ص ٩١.

تنبيه: قال فى «روضة النسرين» وجميع ما ولد له ما بين ذكور وإناث وسقط وغيـره ألف وثمانمائة واثنان وستـون، أخبرنى بذلك ثقتـه الشيخ المعمـر علال بن آمصمود الهسكورى ا هـ.

وأبو الحسن هذا هو فخر الدولة المرينية وواسطة عقدها، ومشيد منار مجدها يعرف عند العامة بالسلطان الأكحل لسمرة لونه، عهد له بالملك والده.

قال ابن خلدون: ولما هلك السلطان أبو سعـيد اجتمع الخاصة من المشيخة ورجال الدولة لولى عهده الأمير أبى الحسن وعـقدوا له على أنفسهم وآتوه طاعتهم وبيعتهم. قال: وتولى أخذ البيـعة له يومئذ على الناس المزوار عبو بن قاسم رئيس الوزعة والمتصرفين، انتهى.

وأبو الحسن هذا هو صاحب وقـعة غرق الأساطيل بمرسى بجاية الشـهيرة، وكان عدد تلك الأساطيل التى تراكمت عليهـا الأمواج من كل مكان نحو الستمائة أسطول، قال، فى نفح الطيب[1]: إن أساطيل الـسلطان أبى الجسن كـانت نحو الستمائة فهلكت كلها ونجا هو على لوح وهلك كل من كان معه من أعلام المغرب وهم نحو أربعـمائة عالم، منهم: أبو عـبد الله محـمد بن سليمـان السطى شارح الحوفى، ومنهم: أبو عـبد الله محـمد بن الصبـاغ المكناسى، وتأتى ترجمـته فى رجال مكناسة، ومنهم الأستاذ الزواوى أبو العباس وغير واحد.

وكان غرق الأسطول على ساحل الأندلس، وهو الذى استرد جبل الفتح من يد الإصبان وهو جبل طارق بعد أن أنفق عليه الأموال وصرف إليه الجنود والحشود ونازلته جـيوشه مع ولده وخواصـه وضيقوا بـه إلى أن استرجعـوه ليد المسلمين، وذلك سنة ثلاث وثلاثين وسبـعمائة، وبعد اسـترجاعه اهتم ببنائه وتحـصينه وأنفق عليه أحمال مال فى بنائه وحصنه وسوره وأبراجـه وجامعه ودوره ومحاريبه، وكان

(١) نفح الطيب ٦/ ٢١٤ - ٢١٥.

بقاء هذا الجبل بيد العدو أربعا وعشرين سنة، إذا كان استيلاؤهم عليه سنة تسع وسبعمائة، وكانت مدة حصار أبى الحسن له ستة أشهر، وكم خلد فى المغربيين من مفاخر تستلفت الأنظار، وتبرهن عما كان له من ضخامة الملك والاقتدار، ولم يزل أمره بين نمو وظهور إلى وقعة غرق أساطيله المذكورة ثم صارت ضخامة ملكه بعدها تتراجع ودولته تتناقص إلى أن لبى داعى مولاه.

وأما زاوية القورجّة - بتشديد الجيم كما رأيته فى خط ابن غازى - فقد عفى منذ أزمنة طوال اسمها، وإن بقى إلى الحين الحالى رسمها فى الجملة وموقع مسماها بالمحل المعروف اليوم بعقبة الزيادين، ويقال لها عقبة الزيادى، كان فيما سلف تطاول على جانب منها بعض أولى الأمر وصيره من جملة روض له وذلك الروض هو المعد الآن محكمة للمراقبة المدنية على الحكام الأهليين والشئون البلدية والكوميسارية، وصار طرف آخر من تلك المدرسة معدا لربط الدواب، والفاضل عن ذلك جعل معملا لطبخ الجبص، وعهدى بمحرابها فيما مر قائم العين، أما الآن فلا أدرى. وهذه الأمكنة كلها بيد الأجانب اليوم.

ولا عجب فى صدور هذا وما ضارعه من قوم لا يهمهم تعظيم حرمات الله ولا يرعوون عن السعى فى تخريبها وانمحاء ما أثله حماة الدين من الأعمال الشريفة المبرهنة على شممهم. وعلى هممهم. أولئك الذين عاشوا وشغلهم الشاغل إقامة معالم الدين، والمحافظة على كيان عزه المتين.

ومن خرب قلبه من التقوى، ونشأ فى عماية وتغذى بلبان الجهل العريق والاستبداد التام واتخذ إلهه هواه فترك بيوت المجد بلاقع. وأدار من بلاياه كئوس السم الناقع، وظن الخيانة أمانة، وسفاهة الرأى عبادة وديانة، أنى يستغرب منه صدور ما ذكر من إهانة حرمات الله والتطاول عليها! هذا وسلاطيننا الجلة الأماجد لم تأخذهم سنة فى زمن من الأزمنة عن تنبيه رعاياهم وولاة أمرهم، وإعطائهم

الأوامر كل آونة بالتحفظ على الشعائر الإسلامية والأخذ بالحزم فى صيانتها، وكف كل يد عادية رامت التوصل إليها لأغراضها الشخصية.

فمن ذلك ما أصدره أمير المؤمنين السلطان سيدى محمد بن عبه الرحمن بن هشام لبعض ولاة أمره. ودونك نص ما كتبه لعامله الطالب محمد بركاش:

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، ولفظ ما بداخل الطابع الشريف محمد بن عبد الله وليه خديمنا الأرضى الطالب محمد بركاش، أعانك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد: فقد تساهل الناس خصوصا الأغنياء وأهل الوجاهة فى أمر الأحباس حتى صاروا يتوصلون لما أرادوه منها بأى وجه أمكنهم ويجعلون ذلك فى صورة المعاوضة، وصار النظار والقضاة يعتبرونهم فلا يردون إليهم حاجة، حتى انتقل بذلك كثير من الأحباس فبلغ لمولانا الوالد المقدس بالله ذلك فأمر الولاة خصوصا القضاة الذين لهم دخل فى هذا الأمر بعدم معاوضتها رأسا، وتقرر هذا الأمر بمراكشة وفاس فلا يوجد أحد يعاوض شيئا منها، وحتى إن تعينت المصلحة فيها فلا بد من رفع أمرها لسيادته ينظر فيها بما اقتضاه نظره ولما ولانا الله سبحانه هذا الأمر اقتفينا أثره فى ذلك وسددنا الأبواب فى وجوه طلابها، على أن هذه المعاوضة إنما قال من قال بها من العلماء على شروط وأين هى تلك الشروط وما تقرر فى هذه المدن أردناه أن يتقرر فى ذلك الثغر السعيد، وها نحن أمرنا القاضى هناك وأكدنا عليه فى عدم الموافقة على المعاوضة رأسا، كما أمرنا وصيفنا القائد محمد بن عبد الكريم الجبورى بأن لا يساعد أحدا عليها بوجه وأعلمناك لتكون على بصيرة وقد توعدنا القاضى والعامل على ذلك والسلام، فى الربع من صفر عام تسعة وسبعين ومائتين وألف هـ.

وأما زاوية باب المشاورين فهى التى بدرب سيدى غريب بمقربة من ضريح سيدى سلامة على يسار الداخل للدرب المذكور من نهج الحمامصيين، غير أن هذا

الاسم لا يعطى لهـا الآن ولا يعرفـها به أحـد، وهى اليـوم على حالة يرثى لهـا عششت بها الأوساخ والأزبال والقذرات وباضت وفرخت، إذ كانت مدت لها فيما سلف اليد العادية كسابقـتها القورجية فصيرتهـا إصطبلا لربط الدواب آونة ومربضا للبقر أخرى من غير رادع ولا زاجر. ولا استحياء من الملك القاهر، مبيد الأكاسرة وكل جبار عنيد.

وأما المدرســة الجديدة فهى المعروفـة اليوم بالبوعنانية نسـبة لأبى عنان، ولا أعرف وجـها لهذه النسـبة والحال أنهـا إنما أنشأها والده أبو الحـسن وهى مراد ابن غازى هنا لوجوه:

أحدها: قوله ومن أجل ذلك. . .إلخ فإنه مشعـر بفخامة بنائها وعلو شأنه، وهذه الصفة لا توجد على الكمال فى غيـرها من مدارس مكناس، لا سيما مع ما سبق عنه من أن بانى مدرسة القاضى هو أبو يوسف، فلم يبق الاحتمال حينئذ إلا فى مدرسة الخضارين، وهذا الاحتمال يدفعه كونها على غير الصفة المنوه بها.

ثانيهـا: تصريحـه بأنه بناها على يد قاضيـه ابن أبى الغمـر وقد وافق ذلك التنصيص عليه فى سادس أبيـات القطعة الشعرية المنحوتة فى جبص محـرابها كما يأتى.

ثالثها: أن التاريخ المعين لبنائها فى البـيت السابع من القطعة الآتية الذى كان ملكا فيـه هو أبو الحسن المذكور فهو الآمـر بتأسيسـها والحاضر عند كـمالها وتمام تخطيطهـا والعيـان فى ذلك كله يغنى عن البـيان، فـإنه يوجد إلى الحين الحـالى منقوشا على يمين وشمال محراب قبتها ما صورته.

نزه جـفـونا مـنك فى مـدرسـة   أريـت علـى كـل سـنى ونـزهـة
لقـد تبـدت فى فنون وشـيـهـا   كـــروضـــة غب انسكـاب ديمة
أكـملهـا البـانـى على إتقـانهـا   فكـمل الحـــسـن بهـــا وتمت

بأمـــر مـــولانا المطاع أمـره | على العـالـى الندى الخليـفـة
من شـرف العلم وأعلى قـدره | وأظهـــر الحق بكل وِجـــهـة
على يدى قـاضيـه فى مكناسـة | ابن أبى الغـمـر الحمـيـد السيـرة
عـام ثـلاثين وسـتــة خلت | من بعـد سبـعـمـائة للهـجـرة
فنصـــر الرحـمن من زان بـهـا | مكنـاسـة الغـرب أتم نصـرة
ونفع الـذى أقـام حـسنـهـا | بفـضل جـد وكـريم نـيـة
مـا رفـعت بيـوته فـى أرضـه | وتلـى الأذن لهـا برفـعـة

وكان مـجيء السلطان أبى الحسن لرؤية هذه المدرسـة عند انتهـاء بنائها من فاس، وقد بقى على ابن غازى التنصيص عـلى ثالثة المدارس بمكناس الموجودة فيه إلى الآن، وهى مدرسة الخضارين المعروفة بمدرسة مولاى عبد الله بن حمد، وهى المقابلة لسماط العـدول الآن مع ظهور قدومها، وسنذكر ما تجـدد فيها من المدارس بعد.

ولنذيل مـا تقدم بما شيـدته الدولة الحاليـة العلوية شيـد الله منارها فى هذه البلدة فنقـول: قد بنى بمكناسـة الملك المطاع، الذى ملأت جـلالته القلوب مـهابة ورعبا فى سائر الأصقاع، تاج مفـرق الدولة العلوية العلية ومؤسس فخرها ومؤثل مجدها، سيدنا الجد الأكبر المولى إسماعيل برد الله ثراه وفسح له فى عدنه مساجد ومدارس ومعالم دينيـة، ووسع أكنافها ومهدها ومدنها وأتـقنها، وأحكم صنعها، وحصنها بالأسوار الشاهقة والمعاقل الضخمة الشامخة، والصقائل والأبراج العديدة ذات البال وأدارها بقصبـات عديدة، منها ما هو متصل بسـور البلد، ومنها ما هو منفصل عنه كما سيمر بك مفصلا بحول الله.

فمن تأسيـساته بها قصـوره الفاخرة الجمـيلة المتنافسة المزرية بدائعهـا بالبديع وضخـامة آثارها بما بناه الأولون على اختـلاف عناصرهم، وتباين أديانهم وتبـاعد

أزمنتهم المضروب بهياكلها المدهشة الأمثال بين عظماء الدول سلفا وخلفا الخالدة الذكر فى بطون تواريخ الأمم السالفة.

فمن تلك القصور التى ما زالت ولا تزال صفحات التاريخ المغربى موشاة بذكر جمالها وكمالها قصر المحنشة والمدرسة اللذان بهما اليوم القصور السلطانية. وفيهما سكنى حرم العائلة الملوكية الكريمة فى العصر الحاضر وقبله بكثير.

ومنها داره الكبرى ذات القصور العديدة والمصانع المنيعة المريعة، والحصون المدهشة الحصينة، والأوضاع العجيبة المتناسقة، والأسوار الضخمة الشامخة الرائقة فى أعين عشاق الآثار المتجولين من سواح أقطار المعمور، المستعذبة فى أذواق أولى الألباب الرحّالين المعتنين المتأملين، تفيد ذوى الأبصار عبرة وذكرى تقصر النعوت دون وصفها، وتنحت البيوت فى جوفها.

قال أبو عبد الله أكنسوس فى «جيشه العَرَمْرَم[1]»: لو شاهد المنصور الذهبى سوراً واحداً من أسوار السلطان مولانا إسماعيل لعلم أن ما أفنى فيه عمره من ذلك المنزل المسمى بالبديع، إنما هو فى التمثيل كدار إبليس التى تباع فى عاشوراء يلعب بها البنات. ولا تحتاج المشاهدة إلى إقامة البينات، انتهى.

تبلغ سعة جل جدرانها مترا ونصفا، ويبلغ ارتفاع سمك غالبها خمسة عشر مترا.

فمن القصور المربعة فى هذه الدار، الجامعة أصناف المحاسن والفخار، (قصر الستينية) الفسيح الفائق ذو المنظر البهج الذى تجسم فيه الانشراح، ورفرفت على طالعه الميمون أعلام الأفراح، وجر ذيول العجب على الزوراء، وازدرى بالزاهرة والزهراء، وأخجل قباب الشام، والخورنق والأهرام، ينيف طوله على مائة متر وعرضه على خمسين، كان له أيام شبابه مباح فسيح محيط بجوانبه الأربعة

(١) العرمرم: الجيش الكثير.

محمول السقف على أعمدة الرخام الناصع البياض، على رأس كل عمود كرسى من المرمر البديع المزخرف بالنقش العالى المبرهن على كمال براعة الصانع واقتداره على إبراز كل غريب فتان، تستوقف لطافته الأنظار، ويحير عجيب إتقانه النظار، اصطفت تحت ظل ذلك المباح الظليل أبواب قبب متقابلة بسائر جوانبه الأربعة، تتخللها دور وقصورها فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، تجسمت فيها الأبهة والبهاء، وحير وضعها الهندسى أهل النهى، ورصع فسيح تلك الأرض، طوله والعرض، بالزليج المختلف الألوان، وصهاريج صافى الرخام وجوابيه الباهض جمالها وترتيب نظامها القاذفة عن أنابيبها الماء المعين، الذى يغار من صفائه الزئبق واللجين، وألبست جدرانه حلل الجبص الموشاة بأبرع وَشْي وأغلاه وأعلاه، وتمنطقت بمنطقة من الزليج ذى الألوان المختلفة المذهل بمتقن تطريزه المرضعة عن الرضيع، حوت من كل أصفر فاقع وأحمر قانى وأبيض ناصع وأسود حالك وأخضر وأزرق ما تنشرح بمرآه الصدور، وتنطفى به لواعج المصدور، لا يقصر ارتفاع تلك المنطقة عن قامة، فى غاية الاستقامة.

بشمال هذا القصر منار يسر الناظرين متجل فى حلة سندسية خضراء، متوج بتاج مموّه بخالص الإبريز[1] تلوح على نواحى القصر منه لوائح السراء.

ووجه تسمية هذا القصر بالستينية وجود قبب بها لها مزيد أبهة وبهاء، ومن جملته كونها مسقفة بالعمل المعروف عند أهل حرفة النجارة بالستينى فأعطيت التسمية للقصر كله من باب تسمية الكل باسم الجزء الأعظم، وما عدا ذلك وهو جل القبب الإسماعيلية فى سائر قصوره مقبو بالجيار والآجر مزخرف بالجبص البديع النقش.

وفى هذا القصر صار محل سكنى مؤلف هذا الكتاب وفى روضه فيه قال صديقه الحميم الفقيه المؤرخ أبو عبد الله سيدى محمد بوجندار مساجلا للأديب

(١) الإبريز: الذهب الخالص.

الشهير نابغة لبنان الشيخ رشيد مصوبع وقت اتفاق اجتماعهما بذلك الروض وذلك ثانى عشر جمادى الأولى عام ستة وثلاثين وثلاثمائة وألف.

أبو جندار:

قم بى إلى اللذات قبل فواتها هذى الرياض الزاهـــرات فواتها

مصوبع:

نشتـــاقها بعد الفـــراق لأنها أحيت لنا الأرواح بعد مماتها

أبو جندار:

طاب الغبوق بها على شمس الأصيـ ـل وطـيرها الشادى على دوحـــاتها

مصوبع:

قد زينت مكناسـة بجمالها كالخال زين للدمى وجناتها

أبو جندار:

فكأنما هى جـنة الفردوس فيـ ـها ما يروق العين من لذاتها

مصوبع:

إن قام يعبس قلب مكروب اسى أهـــدت لعـــابس قلبه بســــماتها

أبو جندار:

وإذا تنسم طيبها ميت الهوى أحـــياه ما حياه من نسماتها

مصوبع:

حسناتها ليســت تعد وحسبنا أن السرور يكون من حسناتها

أبو جندار:

والحسن والإحسان بعض صفاتها ... والأنـس والإيناس بعض هـباتها

مصوبع:

نرنــو لها فنخــال طلــعة ربها ... فى البشر والإشراق من زهراتها

أبو جندار:

ونجار هل حاكت جميل صفاته ... أو أنه الحـاكى جـميل صفاتها

مصوبع:

نشرت لنا كفاه من طيب النهى ... ما كان أطيب من شذا نفحاتها

أبو جندار:

وطوت عــواطف قلــبه ودًّا لنا ... مثل المدام الصرف فى كاساتها

مصوبع:

لازال بدر عــلاه فى سمـــواته ... يسمو على الجوزاء فى سمواتها

وقال أيضا أبو عبد الله بوجندار مـساجلا لصفى ودنا حليف الفضل والأدب الفقـيه سيدى مـحمد بن اليـمنى الناصرى حين اجتـماعهـما الذى فيه أيضـا قال مفتتحا:

ب: لله من مـــجلس رقت حـــواشـــيــه ... وشاه بـالحسن والإحـسان واشـيه

صرى: تغشى قلوب الأولى حلو أبساحته ... من السـرور على المدى غـواشيـه

ب: وكـــيف لا وأريـج الروض أرجـــه ... بما به تنـتـشى عــقـول ناشــيـه

صرى: أما ترى الروح فى أرجائه رقصت ... زهوا وعجبـا ببادى الفضل فـاشيه

ب: ذاك العلى الـذى العليـاء تخـدمـه   والسـعـد يقـدمـه لدى مماشـيـه

صرى: بحر العلوم أبو زيد ابن زيدان من   بدر العـلا فى عـلاه لا يماشـيـه

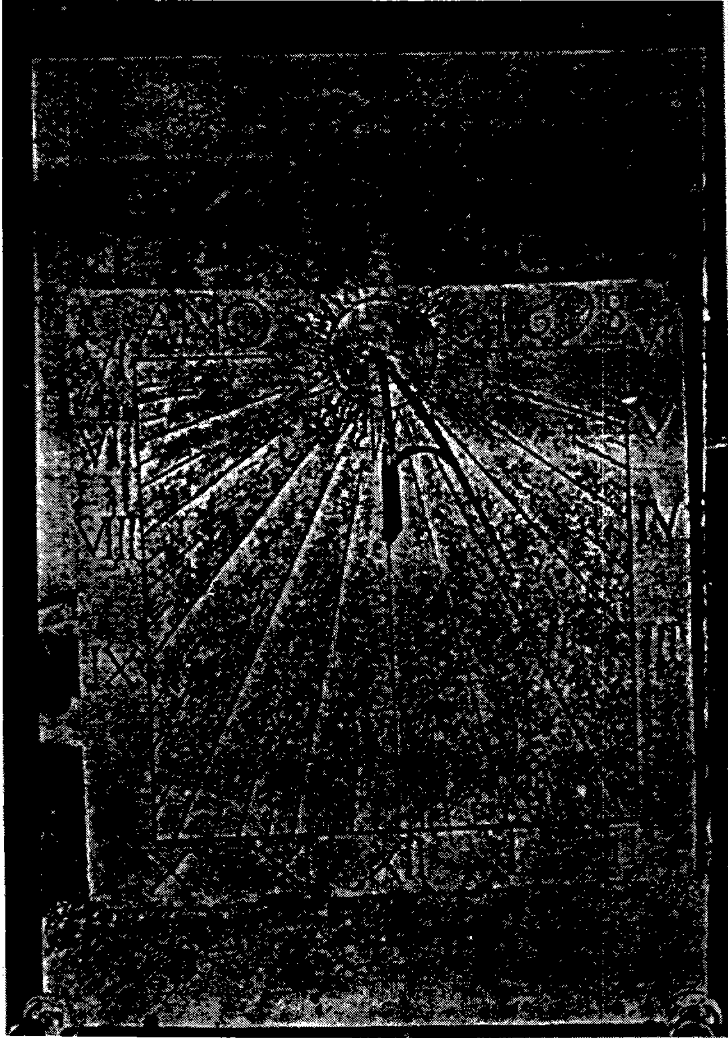
ب: لا زال يرقى مـن العليـاء ذروتهـا   ولا أنيل مـناه فـيـه واشـيـه

صرى: مـا سرى الهم عـمن أم ساحـته   وطاب في مجلس رقت حـواشيه

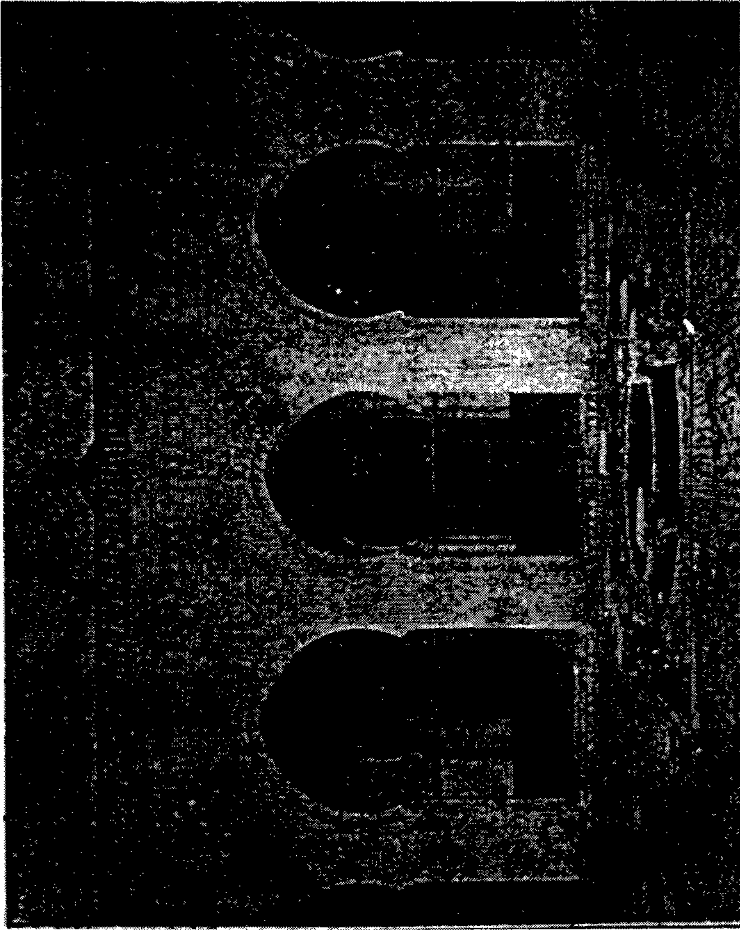
ومنها أعنى القصور الإسماعيلية (قصر النصر) الذى كان أسسه زمن خلافته فى دولة أخيه السلطان الأفخم مولاى الرشيد، ذلك القصر المتسع الأكناف المعروف اليوم بدار لال بانى المحدث الباب بحومة الدريبة، بمقربة من مسجد القصبة الملوكية الذى تقام به الصلاة يوم الجـمعة، وبه يكون احتفال الجـلالة المولوية لصلاتها عند حلول ركابها الشريف بالعاصمة المكناسية حتى الآن.

ومنها قصـر مولاى زيدان، ومنها قصـر الشعشاع ولا يقصـر قصر من هذه القصور عـما فصلناه فى القـصر السابق قصر الـستينية فى الأبهـة والزخرفة، وإن اخـتلفت أوضاعـها فى الاسـتطالة والتـربيع، ولا يخلو واحـد منها عن صـروح شامخات يشرف منها على ضواحى مناظر مكناس الطبـيعية المختلفة الشكل ما بين منخفض ومرتفع وأرجائه الأريجة، كما أنه لا يخلو واحـد منها من مسجد للتعبد أو مساجد.

فمنها المسجد الأنيق الحافل ذو الصفوف التسعة، والأساطين الرخامية والقبة ذات الخصـة العظيمة التى لازالت قـائمة إلى الزمـان الحاضر، ومنهـا يدخل اليوم للضريح الإسـماعـيلى، طول هذه القبة كـعرضـها يبلغ طول هذا المسـجد سبـعا وثمانين مترا وعرضه تسعة أمتار وعـشرون سنتيما، ويعرف هذا المسجد فى العقود الحبسية بمسجد الرخـام، والظاهر أنه إنما كان معدا للصلوات الخمس، فإن ثبت أنه كان للجمعـة احتمل حينئذ أن يكون هو المراد بمسجد القصـبة فى قول أبى القاسم الزيانى: ولما ضاق مسجد القصبة أسس الجامع الأخضر أكبر منه، انتهى.



الرخامة الشمسية الموجودة الآن بجامع القصبة



صحن مسجد القصبة الإسماعيلية

ويكون الجامع الأخضر هو جامع لال عودة، فيكون كل منهما من تأسيساته ولكن الأظهر كما سنبينه بعد خلاف ذلك، ومع الأسف فقد خرب هذا المسجد وخرب سقوفه ومزقت أثواب بهجته كل ممزق، وفرقت أعمدته الرخامية أيدى سبأ ولم يبق منها غير خمسة منها أربعة لازالت قائمة بمحالها ممثلة لما كان عليه ذلك المسجد من الضخامة، ومنها واحدة ملقاة على الأرض، والمسجد صار بعضه ممرا يدخل منه للضريح المذكور وللضريح المجذوبي فى طريق الخراجة التى كان يخرج منها المولى إسماعيل قيد حياته لأداء الخمس فى المسجد المذكور والبعض الآخر مقبرة ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وجامع لال عودة ينتظم من صفوف خمسة، وجناحين وصحن فسيح ينيف طوله عن خمس وعشرين مترا وعرضه عن ستة عشر، به قبتان إحداهما فى الجهة الشمالية طولها أحد عشر مترا وعرضها ستة أمتار وسنتيمات، والأخرى فى الجهة الجنوبية طولها سبعة أمتار وسنتيمات وعرضها ينيف على ستة أمتار، وبوسطه خصة من المرمر واسعة الأكناف يتفجر منها العذب الفرات ومدرسة بأسطوانة على يمين الداخل ذات بيوت تسعة، وغرفة يصعد إليها بدرج ستة عشر، وبإزاء هذه المدرسة المنار المتقدم الذكر فى قصر الستينية يصعد إليه بمائة وإحدى عشرة درجة، وبهذا المنار مستودع معد لآلات التوقيت ولاستقرار القيم بالعمل بها فى غاية اللطف تكتنفه منافع ومرافق.

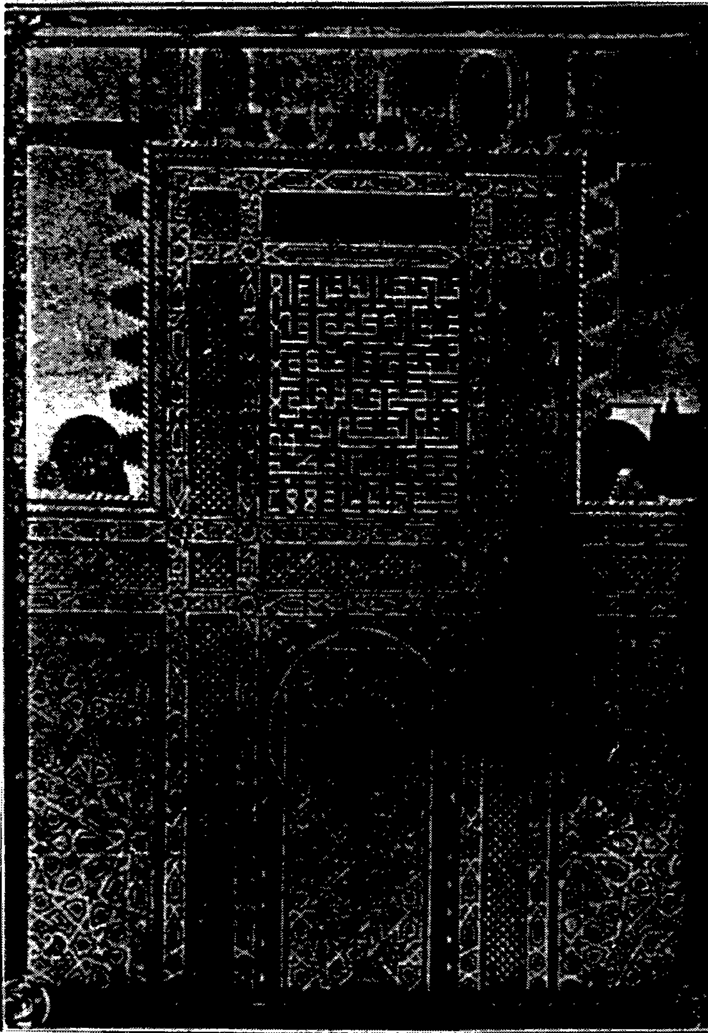
ومن جملة آلات التوقيت العديمة المثال التى لا يوجد لها نظير رخامة شمسية فى غاية الإتقان وقد كانت هذه الرخامة الشمسية آية فى تحقيق الوقت، فيحكى أن ذلك استمر فيها إلى أن وقعت بين القيم بها وبين القيم بمثل ذلك بمستودع المسجد الأعظم داخل المدينة وهو الميقاتى الشهير السيد الجيلانى الرحالى منافسة فى ذلك، حملت الثانى على أن أغرى من عوج شاخص الرخامة المحدث عنها فوقع الخلل

فيهـا بذلك وهذا الخلل الأعوجاجى وإن تلافاه القـيم بالنظر فى ذلك حينه، وهو الفقيه سيدى الحسن المنونى لكنه مـات بعد ذلك فأدرك الرحالى بعد ذلك منيته فى تعطيلها ولا زالت معطـلة إلى الآن ملقاة فى زوايا الإهمال غير مكتـرث بها، وقد كانت هذه الرخامـة من صنع من كان فى قبضة الأسـر من النصارى العالمين بذلك الفن، ويدل لذلك تاريخها المسـيحى المرقوم فيها بالقلم الرومـانى وهو عام ثمانية وتسعين وستمائة وألف.

وقد جـوز بعض الفرنسـيين أن تكون هذه الرخامـة مهداة لمـولانا الجد من سلطان فرنسا المعاصر له لويز الرابع عـشر، وعضد ذلك بما كان بين السلطانين من المواصلة، وبما كـان لسلطان فرنسـا المذكور من الاعـتناء بالآلات الشـمسيـة على اختلاف أنـواعها حتى كـان يدعى بالسلطان الشمسى، فأجـبته بأن هذا الاحـتمال يبعده خلوها من نقش اسمى المهدي والمهدى له مع أهمية ذلك فى الموضوع لما فيه من تخليد الفخر للجانبين، وبأنها لو كان الأمر فيها كذلك لكانت على جانب من الزخرفة عظيم، ومـا ظنك بهدية من أمير عظيم فى قومه لأمـير طائر الصيت فى المشارق والمغارب فاستحسن ذلك منى.

ووراء المدرسـة المشار لهـا غربا صـحن فسـيح طوله أمتـار ثلاثون وعشـرة سنتـيمـات وعرضـه سبع وعـشرون ونيف، وفى غـربه مبـاح ذو أقواس خـمس وأساطين أربع بناؤها باللبن والجـيار، خر سقفه فـى هذه الأزمنة الأخيرة طول هذا المباح ثمانية عشر مترا ونيف وفى الجانب الشرقى منه سقاية ماء.

ولهذا المسجد بابان باب القصر السـتينية المار الذكر - وليس هو الباب الذى تدخل منه الجلالة السلطانيـة اليوم للمسجد، بل سـد ذلك الباب وأدخل فى بيت من بيـوت إحـدى الدور ولا زال إلـى الآن ظاهر الأثر، وإن تنوسـي المرور منه وانقطع السبيل الموصل إليه واندثر - وباب نافذ إلى المدينة يدخل منه عامة المصلين من جيش وحشم وأتباع.



باب مقصورة مسجد القصبة

قلت: كذا وصف الباب الثانى من هذا المسجد غير واحد، وقولهم: وباب إلى المدينة إما أن يعنى به بعد الانفصال من باب القصبة الموالي لجهته وهو باب منصور العلج، لأن الجامع المذكور داخله، وإما أن يبقى على ظاهره ويحمل ذلك على أن السور الذى به باب منصور لم يكن وقتئذ، وإما أن يقال إن مراد الزيانى ومن تبعه بالمسجد الأخضر المنتقل إليه من مسجد القصبة المعروف بهذا الاسم اليوم الذى كلامنا فيه، هو جامع الأنوار الكائن عن يسار الخارج من القصة على باب منصور العلج، والاحتمال الأول بعيد لخروجه عن الظاهر، والثانى أبعد منه لكون الواصفين لباب المسجد الذى الكلام فيه كلهم تأخرت أزمنتهم عن تلك البناءات كلها، مع تصريحهم بأن المولى إسماعيل أفرد قصبته عن المدينة وجعل براح الهديم بينهما والثالث موافق لحقيقة وصف البابين، لأن أحدهما وهو الكبير العمومى مفض للمدينة، والثانى وهو باب دويرية الكتب المقابلة الآن لدار أولاد عم الجلالة السلطانية العلامة المرحوم مولانا العباس مفضية للقصبة بلا شبهة، فلم يبق حينئذ إلا كون جامع الأنوار لا يعرف بالأخضر الذى عبر به الزيانى ومن تبعه، وهذا أمر قريب لأن أسماء الأماكن وما تعرف به تتبدل وتنتقل مع طول الزمان بما يعرض لها كما مر بك كثير من ذلك فى هذا التقييد.

وأما كون جامع الأنوار من الإنشاءات الإسماعيلية فسيتبين لك أمره بعد وهناك تأتى بقية هذا المبحث إن شاء الله.

وقد قرأت فى نقش زليج أعلى باب مسجد القصبة القائم الآن ما صورته:

الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيه وعبده، أمر بعمل هذا الباب المبارك مولانا إسماعيل أمير المؤمنين أيده الله ونصره، وكان الفراغ من إنشائه أوائل جمادى الثانى سنة تسعين وألف، وفى المسجد الأخضر قال بعض شعراء عصره من قطعة ما لفظه:

وإن ذكرت مصر بجامع أزهر ففى القبة الخضرا بدور كوامل

وقرأت أعلى باب المقصورة الملوكية فى نقش الخشب بالخط الكوفى الرائق من جامع القصبة المذكور ما لفظه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج: آية ٧٧] صدق الله العظيم.

صنع هذا عام ثمانية وثمانين وألف بالقلم الغباري، وقد كان أصلح هذا الخشب فسقط الصفر الموالي للألف إما لجهل مباشر الإصلاح أو غلطه، فأوقع الكثير من الناس في الوهم وأن ذلك اللوح صنع عام مائة وثمانية وثمانين، وذلك لا يصح بحال، قال بعضهم: وكل هذا لا يدل على أن أصل جامع لال عودة من الإنشاءات الإسماعيلية، أما المكتوب على الباب فلكونه لا ذكر لبقية الجامع فيه، وأما المكتوب على المقصورة فكذلك إما لكونه كان أنشأها به قبل ضيقه به فأقرت هناك بعد التحول عنه، وإما لكونها نقلت إليه بعد تخريب جامع الأنوار.

وفي هذا المسجد تقام حفلة صلاة الجمعة لدى الملوك أحفاد مولانا إسماعيل إلى الزمان الحاضر والغاية داخلة كما تقدم، وقد لعبت أيدي التلاشي والتخريب أدواراً كثيرة بهذا المسجد رغما على ملازمة ملوكنا الجلة لصلاة الجمعة فيه وقت ما حل ركابهم الشريف بالعاصمة المكناسية، ولولا أن الله تعالى تداركه بذلك حتى رمم أكثره لأصبح كغيره في خبر كان.

ومن قصور الدار الكبرى أيضا قصر الكشاشين، وهو عبارة عن فسيح مستطيل ذي أساطين مصطفة مبنية بالجيار واللبن والحجر عليها أقواس مرتفعة فاقع لونها تسر الناظرين، بعضها قبالة الداخل، وبعضها عن اليمين والشمال كلها مقبوة السقف، كان هذا القصر معدا للطبخ وشئونه وخزن لوازمه وسكنى القيّمات بمباشرة ذلك من وخش الرقيق وحشم الحاشية الملوكية تتخلل هذه القصور وتكتنفها مناهج مستطيلة مقبوة السقف ذات أبهة ومهابة، في سقوفها كوات ينفذ منها



منبر جامع القصبة الإسماعيلية

الضوء لتلك الشوارع التى ساد السكون فيها، من تلك الشوارع ما خر سقفه، ومنها ما هو قائم السقف حتى الآن رغما عن التخريب الذي استأصل شأفة تلك المحاسن، وغير ماء بهجتها الذي كان غير آسن، فمع الأسف خلعت تلك المباني حلل الزينة وتوحشت بعد الأنس تلك الربوع، وأخنى الدهر بجديدها، وتولى متسلط النحس على سعيدها، فانتثر عقد نظامها وتفرقت أنقاضها فى أقطار المغرب وبنيت منها المساجد والمدارس والرباطات والدور حسبما أفصح بذلك أبو القاسم الزياني في روضته وحفظته لنا تقاييد أسلافنا الكرام، وتلقيناه عمن تلقاه منهم وكشطت حلل تلك الجدرات التي طالما جرت على المتطاول ذيول الإعجاب وبدت عيون كواتها العديدة التي جفت جفونها المنام، لما دهاها حال اطمئنانها من الاغتيال وحق لمن بقي به رمق بعد أن أخذ على حين غفلة أن يتنبه، وبأعين النجوم في السهر يتشبه، وقد حفر هطال دموع تلك العيون في خدود تلك الجدرات أخدودا أسفر عن كونه كان وعاء لقنوات مجارى ماء الأمطار المنسدلة من أعلى السطوح إلى أسفل الوادي الساري في تخوم الأرض.

وقد أحاط هذه الدار العظيمة المقدار التي هي في الحقيقة مدينة بالأسوار الضخمة الشاهقة والأبراج والسقائل حتى صارت كأنها مركز حربي هائل. وَلاَ فَنَدَ[1] إذا قلت: كانت مركزا حربيا من أعظم مراكز العالم الحربية، وقد أدركنا بقية أعمدة الرخام وكراسيه التي كانت محمولة عليها مباحات القصور الملوكية متراكما بعضها فوق بعض، منها ما هو ظاهر، ومنها ما غطاه الثرى يعثر عليه بالحفر، وقد كان الكثير من ذلك ملقى بباب قصر المحنشة، ولم يزل كذلك إلى أن دخلت الدولة الحامية فنقلت بعضه لدور كبراء موظفيها، والبعض الآخر للجنان العمومي الذي أحدثته بالمحل المعروف بالحبول - بفتح الحاء - وقد تلقينا من آبائنا

(١) فَنَدَ فَنَداً: ضعف رأسه من الهَرَم، وكَذَبَ، وأتى بالباطل.

أنهم تلقوا من آبائهم أن جميع تلك الأعمدة مع كراسيـها كان ملقى بقصر الستينية وغيرها من القصور المذكورة، ومنها نقله السلطان المولى الحسن لباب قصر المحنشة المشار له أوائل دولتـه، وكم اتخذت من ذلك الرخام من جوابي وصـهاريج وزليج وألواح لعتبات الأبواب وغـيرها ورتج وغير ذلك، وفرقت في بقاع المغـرب وكثيرا ما كان يقع العثور على الأعمدة والكراسي الرخامية تحت الثرى عند حفر أساس أو غيـره في ردم تلك المباحات التى لا زالت الآثار الدالة علـيها شاخـصة إلى الآن، كما أنه لا زال يعـثر على زليج الأرض وقنوات مجاري المياه للصـهاريج والجوابي سائر فـروع القصـور السلطانية عند مـا تدعو الحاجـة لنقل تراب أو حفـر أساس ونحوه.

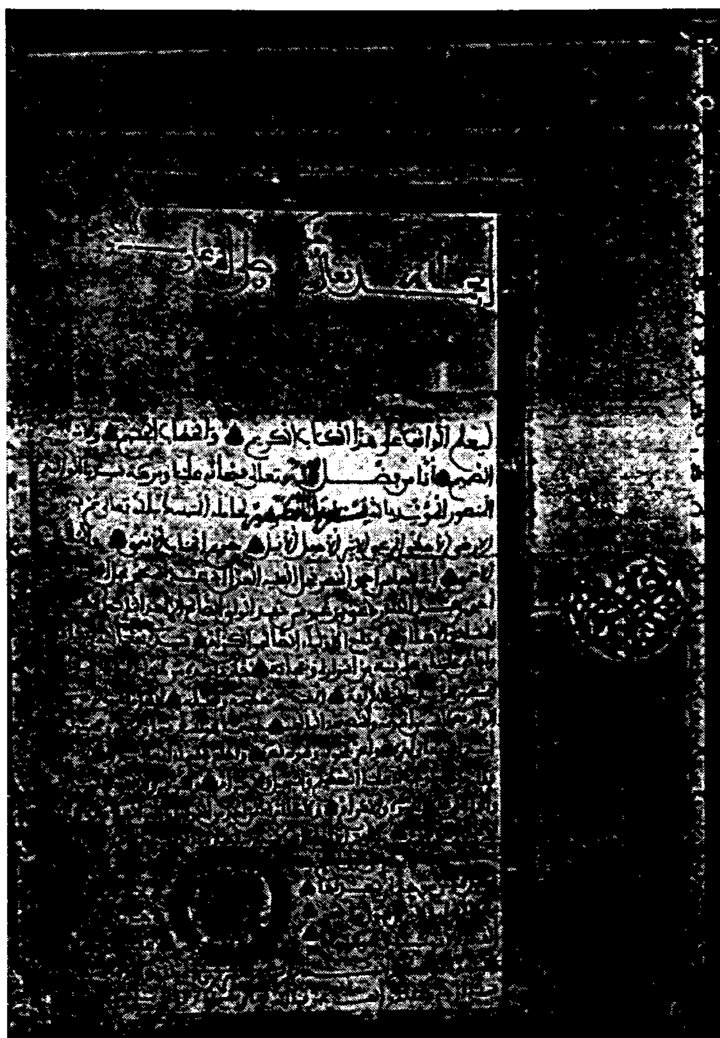
وكانت مـدة الاشتغال في بناء قـصور هذه الدار أعني دار الخلافة الموسـومة باسم الدار الكبرى حتى الآن ثمانية أعوام، إذ كان الشروع في ابتداء تأسيسها على ما قـاله الزياني وغيـره بعد وفـاة السلطان المولى الرشيـد وجلوس السلطان المولى إسماعيل على منصة الملك، قال اليفرني في «النزهة» وكانت مبايعته رحمه الله في الساعة الثانيـة من يوم الأربعاء سادس عشر من ذي الحجـة متم عام اثنين وثمانين وألف، ووافق ذلك ثالث عشر إبريل، انتهى وقريب منه في «روضة التعريف».

قلت: والذي في «الدر المنتخب» أن مبايعته بفاس كانت في الثانية من زوال يوم الأربعاء الخامس عشر من الشهر المذكور وأن ذلك وافق ثالث إبريل، انتهى.

وكون البيعـة كانت في الخامس عشر من الشهـر المذكور هو الذي في «نشر المثاني»[1] أيضا.

واقتـصر في «السلوة» على حكاية الخلاف المذكـور في ذلك وأما الزيانى في «البستان» وأبو مـحمد عبد السلام بن الخياط القادري فـي جزئه فقالا: إن وصول

(١) نشر المثاني - موسوعة أعلام المغرب ٥/ ١٩٩٩.



خبر موت المولى لرشيد بفاس كان في الخامس عشر من الشهر المذكور وفيه كانت البيعة، انتهى. وفيه تسامح.

وقال صاحب السر الظاهر: إن وفاة الرشيد كانت ثاني عيد الأضحى وأن بيعة المولى إسماعيل كانت في اليوم الخامس من وفاته، انتهى.

وهو محتمل لدخول يوم الوفاة في الأيام الخمسة المذكورة، فيكون قائلا إن البيعة في الخامس عشر ولزيادة الخمسة عليه، فيكون مارا على أنها في السادس عشر ولعل التحقيق ما جرى عليه صاحب النشر ومن وافقه، وكان انتهاء العمل فيها سنة تسعين وألف ويشهد لذلك ما هو متوج به بابها من الكتابة المتضمنة لتاريخ تمام العمل فيها ودونك نصه:

دار الخلافة لاح نور قبابها   تختال بين رياضها وهضابها
فكأنما الأنهار في جناتها   يمنى المليك الفخر يوم عبابها
مولاي إسماعيل من جُرثُومَةٍ[1]   نقل الأئمة جده أوصى بها
يا راصدا لطوالع من سعدها   فنظام شملك ١٠٩٠ في عضادة بابها

ومن تأسيساته السرداب الهائل الكائن تحت أرض فسيح قبة الخياطين ذو الأساطين المحكمة البناء والأقواس الضخمة الشاهقة، تمر فوقه الركبان، وتجر الدواب عليه الصخور العظيمة، وتسير السيارات البخارية المشحونة بالأثقال ذات البال آناء الليل وأطراف النهار، بل جعلت فوقه جنات ذات أشجار وبقول وصارت تسقى بالماء كل آونة فلم يؤثر عليه شيء مما ذكر، يعرف هذا البناء اليوم بحبس قارة، ويقال: إنه كان من جملة السجون المعدة للأسارى وغيرهم من أصحاب الجرائم العظيمة يبيتون به ليلا ويخرجون نهاراً للخدمة.

(١) جُرثُومة الشيء: أصله.

قال أبو القاسم الزياتي: وكان في سجونه من أسارى الكفار خمسة وعشرون ألف أسير ونيف، وكانوا يخدمون في قصوره منهم: الرخامون، والنقاشون، والحجارون، والحدادون، والبناءون، والنجارون، والزواقون، والمهندسون، والمنجمون، والأطباء ولم تسمح نفسه بفداء أسير بمال قط - أي وإنما كان يفدي بعضهم من أسر من المسلمين - وكان في سجونه من أهل الجرائم العظيمة كالسارق والقاطع والقاتل نحو الثلاثين ألفا كلها تقيل بالخدمة مع أسارى الكفار ويبيتون بالسجون والدهاليز تحت الأرض.

قال: وأمر الشيخ الحسن اليوسي مع المعتصم ابنه عام حجمها وهو عام واحد ومائة وألف بأن يبعث النصارى أسرى العرائش لحضرته فبعثوهم وكانوا ألفا وثمانمائة فكان يخدمهم في بناء قصوره - أي الخارجة عن قصور الدار الكبرى لانتهائها قبل التاريخ المذكور كما تقدم - من جملة غيرهم من الأسارى والمساجين ومن الليل يبيتون بالدهليز، انتهى.

قلت: استعمال المساجين بالخدمة نهارا وجعلهم بالسجن ليلا هو السنن الذي تفعله الدولة الحامية مع المساجين من الأهالي وكأنها أخذت ذلك من فعل المولى إسماعيل ولا يعرف اليوم الباب الذي كان يدخل منه لهذا السرداب والدخول إليه في الوقت الحاضر، إنما يقع من ثقب في سطحه حذو الجدار المحيط ببراح قبة الخياطين المذكورة من الجهة الغربية.

ومنها الصرح الشاهق المبني فوق ساباط الباب المعروف الآن بباب الرايس ذو الأقواس العشرة، خمسة عن يمين المار فيه، ومثلها عن شماله المحمولة على الأعمدة الحجرية العظيمة التي لا زالت موجودة قائمة لهذا العهد، أربعة عن اليمين ومثلها عن الشمال.

ومنها الصـرح الهائل الذى كـان فوق القصـر المعروف اليـوم بأروى الجزارة الواقع بعقبة الضـريح الإسماعيلى أمام مكتب الاستـعلامات الآن، والهري العظيم الموجود إلى الوقت الحاضـر داخل عرصة البحراوي الشهيـرة، كان هذا الهري في زمن السلطان المولى الحسن مُعَداً لخزن الحطب والصـرحان معـا أصبحا في خـبر كان، وإنما سـمي القصـر بأروى الجزارة لأنه كـان معدا لنزول الجـزارين الملازمين للحضـرة السلطانية في الظعن والإقامـة وربط دوابهم به بعد تخـريبه فيمـا خرب وزوال زينته وقد جدد بعـضه الموالي للعقبة المذكورة بعـد حلول الدولة الحامية بين أظهرنا.

ومنها الـقصر المعـروف اليوم ببين القـبب الكائن بباب ابن القـاري الداخلي المجاور لجنان البحراوية والأترجية من الجنة السلطانية.

ومنها القصـر المعروف بدار لال صفية الذي به اليـوم سكنى أبناء عم الجلالة السلطانية العلامة النقاد مولانا العبـاس بن عبد الرحمن بن هشام المقابل بابه الحالي لباب منصور العلج.

ومنها الهـريان العظيمان الموجودان بإزاء صـهريج السواني أحدهمـا يحتوي على ثلاثمائة وخـمس وأربعين أسطوانة طوله مائة ونيف وثمانون متـرا وعرضه لا يقل عن تسع وسـتين مـترا، كـان هذا الهـري على جـانب من الضخـامـة عظيم يشخص للعيان بسطة ملك منشئه ومـقدرته على الإتيان بكل عجيب، كان سطحه بمثابة برج عظيم يوضع عليـه من الآلات الحربية كل مدهش غـريب الشكل، متناه في العظم بالنسبة لزمانه الغابر.

وقد لعبت أيدي البلى بجـديده، وخرت سقوفه التي كـانت تضاهي شوامخ الجبـال، ومع الأسـف فلا زالت عـوامل الخراب عـاملة فيه إلى الوقت الحـاضر وهو اليـوم وكر للبـوم والهـوام وأنواع الحشرات، وهذا الهري هو الذي قـال فيه

أبو القاسم الزياني: وجعل بها هريا لخزن الزرع مقبو القنانيط يسع زرع أهل المغرب كله ا هـ.

وقد كان جعل لسطحه طريقا تستوي مع الأرض في بعض الجهات يقال إنها كانت مصعدا للجمال الحاملة للقمح فتذهب بأحمالها فوق السطح حتى يوضع حول الكوة المفتوحة فيه لصب القمح لذلك الهري منها فيستغني بذلك عن فتح باب الهري اللاصق بالأرض إلا عند حصول موجبه، ولو لم يكن من آثار عظم ثروة ملكه قدس الله روحه إلا هذا الهري وما أعد له وما ذكر من صفات الخزن فيه لكفى، فكيف وسائر تصرفاته الهائلة إنما هي بعض آثار ثروته البعيدة عن الوصف.

والهري الآخر بإزاء سابقه متصل به لا زال صين السقف حتى اليوم رغما عما نبت عليه من الأشجار حتى صار كأنه غابة من عدم المباشر ومن يهتم بتعاهد إصلاحه، بهذا الهري عدة آبار في غاية العمق ذات مياه عذبة طافية وجعل لكل بئر دولابا عظيما ينقل منه الماء ويصبه في المجاري المعدة له إلى أن يصب بالصهريج صهريج السواني المذكور، يبلغ طول هذا الهري سبعا وسبعين مترا وكسرا، وهو الذي قال فيه أبو القاسم الزياني: وجعل بجواره يعنى جوار الهري المتقدم الذكر سوانى[1] للماء في غاية العمق مقبو عليها، وفي أعلاها سقالة مستديرة لوضع المدافع والمهاريز ترمي لكل ناحية، اهـ.

قلت: وقد تهدمت تلك السقالة ولم يبق لها في الوقت الحاضر أثر، وجعل بمقربة من هذين الهريين صهريجا كالبحيرة يجتمع فيه الماء الجاري في تلك المجاري تسقى من فيضه رياض وبساتين ينيف طول هذا الصهريج على ثلاثمائة متر، وعرضه على مائة وأربعين، ولم يكن مقصده المحمود في حفر تلك الآبار واختراع

(١) السَّانِيَةُ: استقت أو أخرجت الماءَ من البئر ونحوها. والسّانيةُ الأرضَ: سَقَتْهَا.

ذلك الصهريج يرمي لتلك الغاية فقط، بل لغرض أشرف وأسمى وأهم لا يعقله إلا المهرة السياسيون العالمون.

وتلك الغاية هي بقاء سكان المدينة في اطمئنان وأمان في حالتي السلم والحرب مع عتاة البربر، إذ المياه الداخلة للمدينة إنما تأتى من بحبوحة القبائل البربرية، وقد حفظ التاريخ ما كان لهم من التمرد وإباية الامتثال للأوامر المخزنية وعدم تلقيها بالسمع والطاعة والنظر لمن عداهم، وبالأخص سكان الحواضر بعين الصغار والاحتقار، وأقل ما يتوصلون به لأذاهم صرف مواد المياه عنهم والماء ضروري في حياة عموم الإنسان بل كل شيء حي، ولذلك يرى كل كيس متأمل لا تعزب عن علمه مقاصد العقلاء ذوي الآراء السديدة والأفكار المصيبة، أن مطمح نظر هذا السلطان العظيم الشأن فيما يوطد الأمن ويجلب الراحة لرعيته عموما ولمن بعاصمة ملكه من السكان خصوصا، ولذلك تراه بالغ في تحصين هذه القلعة فأحاطها بأسوار عديدة لا يخلو سور منها عن سقائل وأبراج مشحونة بالعدة والعدد، وادخر بها من الأقوات والذخائر والقوة الحربية ما تؤمن معه كل غائلة وتكسر به شوكة كل عاد باغ ومارق عن الطاعة ولزوم الجماعة، ولم يزل يبالغ في التحصين حتى صير عاصمة ملكه حاضرة في بادية وبادية في حاضرة بحيث يمكن لأهلها الاستغناء عن كل ما يجلب إليها من الخارج من زرع وضرع، فلهم من المزارع بداخل سورها ما هو فوق الكفاية لأنواع الحراثة ورعي الماشية والجدران الحصينة وراء الكل ومحيطة بالجميع، والأبواب ذات الأبراج والسقائل المدهشة الحصينة مغلقة في وجوه البغاة ذوي الشقاق.

ولم يكن ذلك لخوف منه ولا لجبن فيه كما توهمه الجهلة الحاسدون ومن في قلبه مرض من الملحدين والقاصرين، إذ قد نص التاريخ لنا ما كان مجبولا عليه من الشجاعة والإقدام وقوة الجأش، فقد قال مؤرخ الدولة العلوية أبو القاسم الزياني: وبالشجاعة أدرك السلطان إسماعيل ما أدرك وبلغ ما بلغ رحمه الله،

وكيف يتوهم جبنه وخوفه ذو بصيرة والبربر الذين احتاجت العاصمة إلى كل هذا التحصين من أجلهم، لم يستقر لمحصنها أبي النصر مولانا إسماعيل قرار حتى نهض إليهم وأوقع بهم الإيقاعات التى تحدث التاريخ بها حتى استأصل قوتهم وسلبهم السلاح والكراع وصيرهم عملة لبيت المال ولأهل العاصمة يعيشون في مهنة ذلك لا غير، حتى كانت المرأة تخرج والذمي من وجدة إلى وادي نون ولا يوجد من يسألهما من أين وإلى أين، ولم يبق بالمغرب سارق ولا قاطع ومن ظهر عليه شيء وهرب يؤخذ في كل قبيلة مر بها وفي كل قرية، وكلما بات مجهول الحال بحلة أو قرية يثقف بها إلى تبيين براءته، وإن تركوه فإنهم يؤاخذون به ويدون ما سرقه واقترفه من الجرام كالقتل وغيره كما قاله الزياني وغيره، أم كيف يرمي إلى ذلك فكر ذي لب وهو يرى ويسمع ما حفظه التاريخ من أحوال عواصم الدول الكبار من المبالغة في التحصين، حتى إن الآستانة عاصمة تركيا قد أحاط بها بنوها الأولون من الروم قبل حلول تركيا بها جدران ثلاثة عظيمة متوالية في كل جهاتها الثلاثة.

وأما الرابعة فالبحر متصل بها وحتى إن عاصمة مدينة دهلي أعظم مدن الهند بل مدن الإسلام كلها بالمشرق، سورها المحيط بها لا يوجد له نظير.

قال ابن بطوطة وغيره: عرضه أحد عشر ذراعا ويمشي في داخل السور الفرسان والرجل من أول المدينة إلى آخرها قال: وأسفله مبني بالحجارة وأعلاه بالآجر وأبراجه كثيرة متقاربة، قال وهي من بناء الكفار وحتى إن تَدْمُر - بفتح التاء وسكون الدال وضم الميم - إحدى مدن الشام الشهيرة التى بلغت من التوثيق وشدة التحصين ما نسبت به إلى البناء السليماني بمباشرة الجن والشياطين.

وفي توصيف بنائها قال في «معجم البلدان»: هي من عجائب الأبنية، موضوعة على العمد الرخام، زعم قوم أنها مما بنته الجن لسيدنا سليمان عليه السلام، ونعم الشاهد على ذلك قول النابغة الذبياني:

إلا سليـــمــــان إذ قـــال الإله له قم في البـرية فاحـدُدْها عن الفَنَد

وخَيِّس[1] الجِنَّ[2] إني قد أمرتهم يبنون تَدْمُرَ بـالصُّفَّاحَ والعَـمَدِ[3]

وأهل تدمر يزعـمون أن ذلك البناء قـبل سليمان بن داوود عـليهمـا السلام بأكثر مما بيننا وبين سليمان ولكن الناس إذا رأوا بناء عجيبا جهلوا بانيه أضافوه إلى سليمان وإلى الجن[4] اهـ. وأصله للجاحظ.

وفي كتاب مـذاهب الأعراب وفلاسفة الإسلام مـا نصه، قالوا: ولكنكم إذا رأيتم بنيانا عجيبا وجهلتم موضع الحيلة فيه أضفتموه إلى الجن ولم تعانوه بالفكر. وقال العرجي:

سدت مسامعها لقرع مراحل من نسج جن مثله لا ينسج

اهـ.

وهكذا السور المحيط بأنطاكية فقد تحدث التاريخ بعظمه عرضا وعمقا[5].

ولنقصر السيـر في متسع هذه المهامه، وفيما ذكـرناه تنبيه للمصنف من سنة أوهامه.

على أن مبـاهاة العظماء من ملوك الجاهـلية والإسلام بالبناءات الهـائلة أمر معروف، ومهيع مسلوك غيـر مخوف، ففي «نفح الطيب»: ولا خفاء أنه أي البناء يدل على عظم قـدر بانيـه، ولذلك قال أميـر المؤمنين ناصـر الدين المرواني باني الزهراء رحمه الله تعالى حسبما نسبهما له بعض العلماء:

---

(١) تحرف في المطبوع إلى: «وجيش» وصوابه لدى ياقوت.

(٢) تحرف فـي المطبوع إلى: «الجنى» وهو غـير صـحيح عـروضيـا، وصوابه لدى يـاقوت، والبيتان من بحر البسيط.

(٣) معجم البلدان ٢/ ١٧.

(٤) معجم البلدان ٢/ ١٧.

(٥) انظر في ذلك ياقوت، مادة (أنطاكية).

هِمَـمْ الملوك إذا أرادوا ذكـــرها من بعـــدهم فـبَــأَلْسُن البُنْـيــان
إن البــناء إذا تعـــاظم قَـــدْرُهُ أضحى يدلّ على عـظيم الشان[1]

ومن إنشاءات مولانا إسماعيل في قلعته القصر المسمى لهذا العهد بدار البقر وهو المعنون على بابه بـباب مـسعـود بن العـربي، وهو متـصل بقـصر المحنشـة والمدرسة، ومـجاور لباب مراح مـقر المماليك الملوكـية وموقع هذا القصـر شرقي صهريج السواني، ومن جهة الجنوب النهج العمومي هناك أضيف القصر للبقر لأن السلطان الأكمل المقدس مولانا الحسن كان جـعله مقرا للبقر الحلوب الذي يقام من حليـبه في سـائر الظروف السنوية تموين الحليب لداره العليـة، وكذا جـعله مـقرا للقـيمين بحليـبهـا تحت إشراف أمين حـتى يصل لمحله بالدار المولوية ليـد المكلف بتقسيطه على أفـراد العائلة الملوكية ثمة، والزائد على التقسـيط من الزبد المستخرج منه على ما اقتضـته أنظاره السمية وأوامره العليـة، يجمع ويحمل لجنابه العلى كل سنة حيثما كان من إيالته السعيدة.

والعادة في كل بقـرة انقطع حلبها نقلها للعـزائب السلطانية ويؤتى بالحلوب بدلها، وبـذلك كان الحليب لا ينقطع من الدار السـعيـدة في سائر فصـول السنة، وعلى ذلك استمر العمل إلى آخر الدولة العزيزية، ثم انقطع وفني السكان القيمون وخرب القـصر وصار براحـا تزرع فيه البقـول والخضروات، والعـادة المحكمة إلى الوقت الحاضـر هي دخول سلطان الوقت عند الإياب من حفلة صـلاة الأعياد من باب مسعود المذكور للدار العلية تيمنا بالسعادة التي في اسم من نسب إليه وقد كان ﷺ يغير الأسماء القبيحة ويحب الفأل الحسن.

ومن فاخر تـأسيساته في قلعـته الإصطبل بل القصر الذي أعـده لربط خيله ذلك القـصـر الباهي البـاهر، الذي لم يزل أثر بـنائه التاريـخي دينا للأوائل على

---

(١) نفح الطيب ١/ ٥٢١..

الأواخر، ذلك القصر هو المعروف اليـوم باسم الأروى ذلك القصر هو الذي أشار إليه أبو القاسم الزياني بقوله: وجعل لهـا إصطبلا لربط خيله وبغاله، طوله فرسخ مسقف بدائرة البرشلة على سواري وأقواس هائلة كل فرس مربوط اثنى عشر ألف فرس وبين الفرس والفرس عشرون شبرا، يقال إنه كان مربط اثنى عشر ألف فرس مع كل فرس سـائس ونصراني من الأسـارى لخدمتـه، وفي هذا الإصطبل ساقـية للماء مقبـوة الظاهر، وأمام كل فرس محل مفتوح كـالمعدة لشربه، وفي وسط هذا الإصطبل قبب متعددة لوضع سروج الخيل على أشكال مختلفة اهـ.

وفي هذا الإصطبل هري عظيم على طول الأروى لخزن الشعير المعد للعلف يسع شعـير المغـربين، وهذا الهري لا زال قائمـا حتى الآن، إلا أنه قـد خرّ بعض سقفه، وهذا السقف بعضه الآن مساو لأرض الأروى والبعض الآخر بارز عنها وبه أبوابه، ومن الغريب أن الزيـاني ومن تبعه لم يتـعرضوا لذكـره مع كونه من هائل المباني الإسماعـيلية التي لا زالت قائمة العين كما ذكـرنا. قال أبو القاسم الزياني: وبجوار هذا الإصطبل بستـان على قدر طوله فيه من شجر الزيتـون وأنواع الفواكه كل غريب عجيب طوله فرسخ وعرضه ميلان اهـ.

قلت: صار هذا البستان قبل اليوم دورا للجيوش السلطانية، وغالب دوره لا تخلو عن غراسات ويعرف اليوم باسم الزيتون، صار هذا الاسم علما له بالغلبة.

ومن المبـاني الهائلة بهـذا الإصطبل أيضا هيكل الهـري الماثل الآن فيـه وهو هيكل عظيم هائل اشتمل على أهرية منها هري سـبع قبب. وقد دخلنا هري سبع قبب هذا فوجدناه انتـصب من بناء مهول مدهش يمثل عظمة بانيه وكـمال اقتداره، وبه ست قبب مـحيطة بالقبة الوسطى العظيـمة التى هي سابعة القـبب، يقال: إن هذا الهري كان معدا لوضع السلاح الحربي فيه حتى يحتاج إليه، وقد كان السلطان العظيم الشأن المولى حـسن عين هذا الهري لخزن البارود ثم بعد مـدة طرأ عليه ما

أوجب نقل البارود منه، وذلك الطارئ هو حدوث بلل بارضه لم يعهد فيه قبل فنقل منه ووضع بهري آخر حذوه، ولم يزل مصونا به إلى أن حلت الدولة الحامية وألقته في صهريج السواني التقمته أفواه قنوات مجاري مياهه أيام امتلائه.

وبطرف هذا الهيكل باب يصعد منه في مطلع بدون درج على هيئة مطلع منار حسان برباط الفتح وجامع الكتبيين بمراكش إلى الصرح العظيم المحمول على هذا الهيكل الفاخر المساوي له طولا وعرضا وارتفاعا، وهذا الصرح هو المعروف اليوم باسم المنصور، اشتمل على عشرين قبة في كل جهة قبب خمس، الخامسة في كل ربع هي الوسطى وهي أكبر قبب ذلك الربع مع كونها مربعة ومساوية لمقابلتها، وبكل قبة شباك يشرف الناظر منه إما على العاصمة تماما وبسيطها، وإما على ما حواليها ينيف طول ذلك الصرح والهيكل المحمول هو عليه على مائة متر، وعرضهما سبعون وفي هذا الصرح يقول الكاتب أبو حفص الحراق:

أنا قصر العتاق من الجياد ... بناني الله في نحر الأعادي
على يد عبده المنصور حقا ... وصلت على القصور بكل نادي
وكيف لا أصول على المبانى ... وإسماعيل قد أسمى عمادي
وشيدنى بتوفيق ويمن ... وعمرني بآلات الجهاد
وروع بي الصليب وعابديه ... فنال العز من رب العباد
أدام الله ملكه في هناء ... وأعقابه إلى يوم التنادي

قلت: قوله بناني - هو بالباء في أوله من البناء ضد الهدم ولا يصح أن يكون بالفاء من الفناء بمعنى العدم، لأنه إنما يتعدى بالهمز وهو في البيت متعد بنفسه ولأن الإتيان به في طالعة مديح بناء ذلك القصر مما يتشاءم منه لأنه دعاء

بإعدامه، وهو كالمنافي للمقصود. هذا وليس يقصر ارتفاع هذه الهياكل وصرحها عن أربعين مترا وذلك أيام بهجته وشبابه.

ومن المفاخر الإسماعيلية المعصرة الفاخرة البناء الواقعة في الجانب الشرقي من أروى مزيل التي صارت اليوم معملا للصناعة الحديدية، يقال إن زيتون حمرية كان يطحن بهذه المعصرة.

وقد وصف هذه القصبة الإسماعيلية بعض من كان مستخدما في بنائها من أساري الأورباويين وهو مويت الفرنسي في كتابيه اللذين وضعهما في وصف المملكتين الرشيدية والإسماعيلية وفتوحاتهما وقضية أسره فيهما فقال: إنها في الجنوب الشرقي للمدينة، وأن ابتداء بنائها عام أربعة وسبعين وستمائة وألف مسيحي، وطولها أكثر من عرضها، كما أن عرضها من الجانب الجنوبي الغربي أقل من عرضها من الجانب الجنوبي الشرقي.

ولها ثلاثة أبواب أعظمها الذي بالجانب الجنوبي الشرقي ويسمى باب الخلاء أي المفضي لخارج المدينة، على جانبيه برجان عظيمان عاليان مربعان على كل واحد منهما ثلاث شرافات على هيئة نور السوسان بنتهما الأسارى عام سبعة وسبعين وستمائة وألف مسيحي. وهذا الباب يقابل المقبرة.

والباب الثاني يسمى باب الحجر لبنائه بالحجر المنحوت وهو المقابل لروى مزين.

والثالث يسمى باب المدينة وهو المقابل لها ثم هذه القصبة لها ثلاثة أسوار من جهة الشمال الشرقى عرض أولها ستة أشبار، وعلى طرفيه برجان مربعان ذوا شرافات، وعرض السور الثاني ثلاثون شبرا، وبين هذين السورين فسيح مربع يسمى روى مزين والثلاثون شبرا التي في عرض الحائط الثاني لم تستمر في عرض

الحائط كله، بل أسقط البناءون منها حتى صار البارز منه عشرة أشبار بني على طرفيه جداران صغيران عرضهما ثلاثة أشبار وعلوهما قامة وبينهما داخل الجدار المذكور يطوف على القصبة العبيد الساكنون بالأبراج من غير أن ينظر إليهم أحد لا من داخل القصبة ولا من خارجها.

وأما السور الثالث وهو سور قصر الحريم وهو أعلى من الأولين وبه كوات وفرج وعليه يطوف عبيد الدار المخصيون وليس على القصبة من الجهة الأخرى إلا سور واحد عرضه عشرة أشبار، وله أبراج متينة شاهقة مربعة من جملتها معقلان: أحدهما في جانب القصبة الشرقي، والآخر في جانبها الغربي.

وفي الجانب الجنوبي من هذه القصبة قصبة صغيرة بنيت سنة ثمانين وستمائة وألف مسيحية تسمى الأوَدايَة، عرض أسوارها ستة أشبار، ولها أبراج مربعة بشرافاتها تفضل بين القصبتين مقبرة، قال: وللقصبة الإسماعيلية منظر رائق من بعيد. قال: وتتصل بها مدينة مكناس من الجهة الشمالية الغربية. قال: وفي عام واحد وثمانين وستمائة وألف اشترى مولاى إسماعيل الجنات المجاورة للجنان الذي أنشأه على هيئة أكدال بمراكش، وكان قصده أن يجعل دائرته ثلاثة كيلو مترات، وقد أكمل عمله في شهر واحد استخدم فيه في أبان المطر الغزير الأسارى والعبيد والقواد والأشراف وغيرهم كما خدم فيه بنفسه وكذا خدم بنفسه في بناء قصوره اهـ.

قلت: أما باب الخلاء المذكور فهو المعروف اليوم بباب الرايس، وإنما كان يسمى باب الخلاء زمن خدمة هذا الأسير بالبناءات الإسماعيلية، وإلا فقد صار باب العمارة، وفى وسط القصبة ومن هنا يفهم أنه لم يصف القصة بتمامها لأنها زادت بعده كثيرا، والباب المفضى للخلاء من تلك الجهة هو باب الناعورة البراني والمقبرة التى أشار لمقابلة باب الرايس لها هي مقبرة سيدى عمرو الحصيني، ومقابلتها له ليست حقيقية، بل هي مقابلة في الجملة لأن الخارج من باب الرايس

تكون المقبـرة عن يساره، وقد حال الجدار المار فـيه ماء شرب المدينة المقـابل لباب القصر الملوكي المسمى بالمدرسة بين المقبرة والباب المذكور.

وأما باب الحجر فإنه لا زال يعرف بهذه الإضافة إلى الآن، وهو الذي يدخل عليه لحومة سيدي النجار ويمر فوقه لحـومة الدريبة وكلام هذا الأسير فيه يدل على أن باب أبي العمائر الواقع خارج هذا الباب لم يكن في زمنه وكذا باب المرس وإنما حدثا بعـده، وهو قد كان المولى إسمـاعيل مَنَّ عليه بالفكاك من الأسـر في جملة سبعين أسيراً عام واحد وثمانين وستمائة وألف مسيحى.

وأما باب المدينة الذي ذكـره فهو المعـروف بباب منصـور العلج، وكلام هذا الأسير نص في كون أصل هذا الباب للمولى إسـماعيل فولده مولاي عبد الله إنما نمقه كما يأتي ذلك بحول الله.

وأما القصبـة الصغيرة التي قال الأسير إنهـا في الجانب الجنوبي الشرقي فهي قصبة هدراش، ونسبته إياها للأوداية لعل ذلك كان لسكنى الأوداية بها أول الأمر، والمقبرة الفاصلة بين القصبتين هي مقبرة الحصيني المتقدمة، وأما قوله: روى مزير، فهـو عنده آخره راء، الشائـع في ألسنة العامة آخـره نون، والذي يكتبـه الموثقون والمتـفاصـحون آخـره لام، ويذكر أن مـزيل المضاف إليـه كان قـيمـا على أروى خصوصية هناك، وهو من أرقاء السدة الملوكيـة، وبالأسف فقد أصبحت مشيدات هاتيك القـصور بلاقع، ولـم تلف لـتلافي أشـلائها من راقع، استعـمرتهـا أنواع العصافـير والحشرات ودرست مـعالم تلك الزينة الثمينة، وخـربت تلك القبب بل انمحت آثارها وجعل عاليها سافلها وإلى الله عاقبة الأمور.

ولما وقفت على تلك الرسـوم الدارسة، المستوحـشة بعد أن كانت مـؤنسة، وطال تدبري في مـبداها والمآل، تذكـرت ما أنشـأه ابن عربي الحـاتمي في كـتاب «المسامرات» لما دخل الزاهرة فوجدها بلاقع إذ قال:

ديـار بأكـنـاف المـلاعب تـرتـع | ومـا إن لها من ســاكن وهي بلقع
ينوح عليها الـطير من كل جانب | فـتـصمت أحـيـانا وحـينا ترجع
فـخـاطبت منهـا طائرا متـفـردا | له شـجن في الـقلب وهو مـروع
فـقلت على ماذا تنوح وتشـتكي | فقـال على دهر مضى ليس يرجع

وخيل لي أنها تنشدني قول من قال:

الله أخـــر مـدتي فـتـــأخـرت | حـتى رأيت من الزمـان عجـائبـا

وليس ببعـيد من طريق الاعـتبار أن تكون الحكمـة في سرعـة تخريب تلك القصـور وغيـرها مما يأتي من البناءات الإسـماعيليـة على عظمهـا وثخانة بنـائها القاضيتين بالنظر للعادة بتأبيدها في الجـملة جعل ذلك في مقابلة هدم قصر البديع الذي كان أســسه بمراكـشة السلطـان أبو العباس أحـمد المنصـور السعـدى الملقب الذهبى، لفيـضان الذهب في زمانه حتى قـيل كانت ببابه أربع عشرة مـائة مطرقة تضرب الدينار دون ما هو مـعد لغير ذلك من صوغ الأقـراط والحلي وشبه ذلك - المبتدأ تأسـيسه في شوال عام ستـة وثمانين وتسعمائة، واتصل العمل فـيه إلى عام اثنين وألف ولم يتخلل ذلك فـترة، وفى عام تسعـة عشر ومائة وألف أمـر مولانا إسماعيل بـهدمه فهدمت معالمه، وبـددت مراسمه، وغيرت محـاسنه وفرق جمع حسنه وعاد حصيدا كأن لم يغن بالأمس.

قال في «نزهة الحادي» تأملت لفظ البديع فوجدت عدد نقط حروفه بحساب الجمل مائة وسبعة عشر، وهذا القدر هو الذي بقي فيه البديع قائما عامراً فإنه فرغ منه عام اثنين وألف، وشرع في هدمه عام تسعة عشر ومائة وألف، فمدة بقائه بعد تمام بنائه مائة وســبعة عـشر سنة على عـدد اسمه وذلك من غـريب الاتفاق اهـ، وكون الجـزاء من جنس العمل أمـر معـهود في التصـاريف الإلهيـة في كثـير من

الجزئيات، وليس هذا بمزاحم لما أشار البعض إليه فى حكمة هدم البديع من كون أنقاضه صارت بعد هدمه كالراجعة لأصولها، إذ ما من نقطة مغربية إلا وصار إليها في الأغلب بعض أنقاضه، كما أن القوة المخزنية كانت ألزمت وقت بناء البديع سائر النقط المغربية حمل ما قدرت عليه مما لديها من مقومات بناء قصر البديع المذكور وإيصاله إلى محل بنائه.

قال في «النزهة» حتى إنه وجدت بطاقة فيها إن فلانا دفع صاعا من جيار حمله من تنبكتو وظف عليه في غمار الناس اهـ. فكان تفريق أجزائه بعد الهدم وفق ما جمعت عليه حين البناء وذلك أيضا جزاء من جنس العمل جزاء وفاقا والحكم والنكت لا تتزاحم على أن ما ذكروه هو حكمة لهدم البديع، وهذا الذي أشرنا إليه هو حكمة لهدم ما شيده سيدنا الجد هادم البديع برد الله ثراه.

وفي كل شيء له آية   تدل على أنه الواحد

فليعتبر بذلك البصير، وليراقب فيما يأتيه وما يذره الآخذ بالنواصي الوارث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، وليعلم أنه كما يدين يدان.

ومن تأسيساته الفائقة العجيبة التي لم ينسج على منوالها ناسج مدينة الرياض العنبري، جوار قصبته السعيدة لا زال موقعها إلى الآن بدخول الغاية يعرف لدى الجمهور بالرياض، خارج باب زين العابدين، أخذ أبواب المدينة اليوم، كان عينها لأخواله الأوداية عام ألف وثمان وثمانين كما في «الروضة السلمانية» وأمرهم ببناء دورهم بها.

وفيها كانت دور العمال والكتاب وذوى الحيثيات من أعيان الدولة، قال أبو القاسم الزياني: وكانت مدينة الرياض زينة مكناسة وبهجتها، وبها آثار أهل دولة مولانا إسماعيل كل من كان له وظيف بخدمته بنى داره بها وتنافس العمال والقواد

في بناء القصور والدور، فقد كان بدار علي بن يش أربعة وعشرون حلقة يجمعها باب واحد، وكانت دار عبد الله الروسي وأولاده أعظم منها كانت حومة وأمثالها من القواد، وبنى كل عامل مسجداً في حومته وبوسطها المسجد الأعظم الإسماعيلي ومدرسته وحمامه وفنادقه وأسواقه الموقوفة عليه وكانت تنفق فيها البضائع التى لا تنفق بغيرها. اهـ.

هذا وقد طارت الركبان وقص التاريخ لنا ما كان لسيدنا الجد الأكبر السلطان المولى إسماعيل من الاهتبال بأمر هذه المدينة مدينة الرياض المذكورة، وما كان لذويها لديه من شفوف المكانة، وناهيك أنها كانت كرسي الوزارة في دولته، بل كانت محط رحال أولي الأمر من رعيته في عصمته، شيد فيها المسجد الأعظم الحافل الذي فاخرت به الأواخر الأوائل، وشيد بها الدور والقصور والأسواق، والحمامات، وغير ذلك من الرباع والعقار، ووقف الجميع على ذلك المسجد الفاخر.

ولقد وقفت في بعض التقاييد التي يكاد القطع يحصل بصحتها والعقود القديمة التي لا مطعن فيها على ما صورته: الحمد لله الذي لا يضيع أجر من أحسن عملا، ولا يخيب لمن أخلص له النية أملا، والصلاة والسلام على سيدنا محمدا آخرا وأولا، وبعد فإن مولانا أمير المؤمنين، الموفق بتوفيق المعين المتوكل في جميع أموره على رب العالمين، المنتخب من عترة النبي الطاهر لصلاح الدنيا والدين. عز الإسلام والمسلمين. تاج الملوك المجاهدين، الملك الهمام الذي اعتز الإسلام تحت لوائه، ورتع الأنام في ظل هديه الصالح واهتدائه، وأسس قواعد الملك الذى أناف على ثواقب الكواكب شامخ بنائه، ذو المجد الأثيل، والفخر الأصيل. أبو الوليد مولانا إسماعيل، شكر الله أنظاره، وخلد مآثره وآثاره، وعمر بالنصر العزيز منازله ودياره، ابن مولانا الشريف، العلى القدر المنيف، لما وصل

الله لخلافته العلية ما عود، ومتع مما خول وأعان على ما خلد، أعلى الله منار عدلها، وشكر مكارم قولها وفعلها، جاهد في الله حق جهاده، حتى استخلص من أيدي الكفار رقاب عباد الله وحصون بلاده، وجدد ما اندثر من العمائر، وشيد ما تركه الأوائل للأنام من المآثر، إلى غير ذلك من المآثر الحسان، الدالة على معاليه في كل زمان، اللهم كما نصرت به الدين، وأيدته على أعدائك الكافرين، وجعلته رحمة للعباد، وعصمة للبلاد، ونقمة لأهل الفساد، فأكرم اللهم خلافته العزيزة بطول البقاء، وألزم أوامره وصوارمه أقوم الاضاء.

وحين بوأه الله المراتب العلية، والأفعال الزكية المرضية. صرف همته لتشييد المساجد، وتشهير المعاهد، وخصوصا مسجد المدينة العليا الجديدة العنبرية الذي جعل له من الأوقاف داخل المدينة وخارجها ما هو مرسوم بالورقات الثلاث قبل هذه المواليات لها وقف شهيداه الواضعان لاسميهما عقب تاريخه مع ناظر المسجد في حينه، وهو المكرم عبد الوهاب ابن الناظر المكرم عبد العزيز حجاج على عين جميع أوقاف المسجد المذكور عمره الله بدوام ذكره داخل المدينة المذكورة وخارجها، كل وقف منها على انفراده، وحازه معاينة، وجدد الحوز، ولما تحقق عند العلامة القاضي بحضرة مولانا العلية، وخطيب منبرها العالي المخصوص لديه بترفيع المزية. المصروف إليه خطاب القضاة بإيالته الحسنية، قاضي الجماعة، ومصرف الأحكام المطاعة، سيدى محمد أبو مدين بن حسين السوسي ما عليه الناظر المذكور من الحزم، والسعي في المصالح والعزم، أوصاه أن يعمل على ما يقربه عند الله من مرضاته، ويظفر بجزيل مثوباته، وفي أواسط رجب الفرد عام ثمانية ومائة وألف الحمد لله شهد واضع اسمه عقب تاريخه بمعرفة المواضع المقيدة بالقوائم الست بمحوله مع ما في القائمتين أعلاه معرفة تامة كافية ويشهد مع ذلك بأنها محبسة على المسجد الأعظم، من المدينة العليا المختطة عن الإذن العلى بالله

من قبل مولانا المنصور بالله الإمام العدل المعظم المتواضع لذكر الله ورسله، فرع الدولة الحسنية وأمكن ركنها، حامي حمى خلافة الإسلام، مولانا إسماعيل بن مولانا المقدس مولانا الشريف الحسني أمده الله بعزيز تأييده وبمعونة نصره ورشده آمين.

وهي المسماة بالرياض العنبري عمره الله بدوام ذكره وحرسها حبسا يجري مجراها ولا يحيد عن طريقها وسبيلها مؤبدا ووقفا مخلدا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، ومن بدل أو غير فالله حسيبه وسائله وولي الانتقام منه، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، فمن عرف ذلك كما ذكر قيد به شهادته في أواخر جمادى الثانية عام ثمانية ومائة وألف، الحمد لله الذي جعل الخلافة شمسا من عنصر النبوءة فأضاءت على أديم البسيطة أنوارها، وارتفع إلى السها والفراقد منارها، وتألق بالإصباح نهارها، ولاحت في سماء المجد بدورها وأقمارها، وهزت عطف الزمان انتشاء مناقبها الشريفة وأخبارها، وفاض لبركتها على أكناف المعمور خضمها الزاخر وتيارها، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي ظهرت نبوءته قبل ولادته، وبشرت الأحبار والرهبان بعموم رسالته، وخرقت له حجب الآفاق، وفرجت له السبع الطباق، فحاز على كافة الأنبياء والمرسلين خصال السباق، صلى الله عليه وعلى آله والرضى عن أصحابه صلاة كاملة ورضى تاما وسلم كثيرا أثيرا، أما بعد: فإن الله تعالى قد اختار لصلاح هذه المغارب، من سعد به البادي والحاضر والشاهد والغائب، الإمام المنتخب من عترة النبي الذين علوا مناقب ومناصب، ورقوا إلى أشرف المنازل والمراتب، الملك الهمام، حافظ بيضة الإسلام وكافل أمة النبي عليه السلام، صاحب الفتوحات المنسقة النظام، جمال الأنام، تاج الإمارة عز الإسلام، الذي أسفر عن صبح النصر العزيز نصله، واشتمل على خواص الشرف الأصيل جنسه وفصله، وطابت فروعه

لما استمد من ريحانتي الجنة أصله، ذا العزم الأمضى، والسعي الأَرْضَى، الملك المنصور أبا المآثر الحسان والمفاخر السلطان المجاهد في سبيل ربه وابتغاء مرضاته، مولانا إسماعيل بلغه الله من رضاه أقصى مسئوله، وأعانه على جهاد عدو الله وعدو رسوله، ابن مولانا الشريف بن مولانا على جدد الله عليهما ملابس الرحمة. وجزاهما أفضل ما جزى الصالحين من ملوك هذه الأمة، لما ولاه الله أمر عباده، وبسط يده في أرضه وبلاده، ونصره على أعدائه، وأيده في أرضه بملائكة سمائه، واستقر ملكه الشامخ البناء بمدينة العز مكناسة الغراء، دار ملك الجهاد، وكرسي دار الإمارة المظفرة العساكر والأجناد، عصمها الله ووقاها، وحفظ بها كلمة الإسلام وأبقاها، فلما استقر بها ملكه الأشرف وانعقدت بالنصر العزيز راية الفتوحات على قناة العدل الذي عليه مدار الأمور، وعشا إلى نور سراجه الوهاج الخاصة والجمهور، ضاقت المدينة المولوية بجيشه المنصور، أمر أيد الله أمره، وأبد فخره، وأدام تأييده ونصره، ببناء المدينة الجديدة العنبرية المختصة بأمره السلطاني، المؤيد بالتأييد الرباني، لا زال نافذا بعون الله ميسر المآرب، ومطاعا له في جميع أقطار المغارب، فبنيت صانها الله من طوارق الحدثان وحاطها من سوء ما يجري به الملوان، وأسس بها مسجدا للخطبة عتيق، وبنى عن أمره العالي البناء الحسن الوثيق، وصل الله عوائد صنعه الجميل لديها، وعمره بدوام الذكر والعبادة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولما كمل بناؤه وأعانه من له القوة والعون سبحانه على ذلك حمد الله تعالى، وأثنى عليه الذي وفقه وأعانه عليه، ورجا كمل الله رجاءه أن يدخل تحت عموم حديث الصادق المصدوق، صلوات الله عليه وهو قوله ﷺ: «من بنى لله مسجداً بني الله له قصراً في الجنة»، وقوله ﷺ: «من بنى لله مسجداً يبتغي به وجه الله العظيم بنى الله له مثله في الجنة» وقوله ﷺ: «من بنى لله مسجدا بنى

الله له في الجنة أوسع منه» إلى غير ذلك من الأحاديث النبوية. وصحاح الأخبار المصطفية.

وأمر أيد الله أمره عام ستة ومائة بعد ألف بجلب الماء له من عين البيضاء في قادوس مختص به ويكون الموضع الذي يجري فيه القادوس حبسا عليه من العين المذكورة إلى المسجد الجامع المذكور في جميع الأملاك السلطانية، وألزم ناظر المسجد المذكور في حينه وهو المكرم عبد الوهاب بن الناظر المسن المكرم محمد بن عبد العزيز حجاج مع من له النظر العام والأمانة الكاملة في أمر البناءات كلها السلطانية على اختلاف أنواعها وأجناسها بداره العلية حرس الله رفيع أعتابها، وصان من طوارق الحدثان على أبوابها، ناصح خدمته السلطانية، في السريرة والعلانية، وهو الطالب محمد بن الثقة الخير خديم أهل كتاب الله المحب لآل بيت رسول الله ﷺ وعلى آله محمد الكاتب شُهِر الأندلسي نَجاراً، الفاسي داراً، ومنشأ وقراراً، بالوقوف التام على خدمة ذلك الماء على أن يصل إلى المسجد الجامع المذكور فوقفا عليه، وصرفا كليتهما إليه، حتى بلغ على مقتضى غرضه السلطاني فجعل نصره الله ثلاثة أرباعه للمسجد الجامع المذكور، والربع الواحد الباقي منه للسقاية التي هنالك بإزاء المسجد.

تقبل الله عمله، وبلغه في نصر الإسلام وصلاح الأنام أمله، ولما علم من قوله ﷺ ما علم من أنه عليه السلام قال: «من بنى لله مسجدا بنى الله له في الجنة أوسع منه» أراد حصول تلك الفضيلة فأمر أيده الله بزيادة صفين اثنين ليوسع بهما، فزيدا على نظر الإمام المقرون بالبركة قبلي المسجد الجامع المذكور وصل الله سعده، وأناله من الثواب الجزيل قصده، والحمد لله ولي التوفيق والتسديد، المتكفل لمن شكره بالمزيد، ولمن توكل عليه بالإعانة والتأييد.

وصلى الله عليه سيدنا محمد نبيه الذي اصطفاه من العبيد، وجعله السبب الأوصل في نجاة الناجي وسعادة السعيد، وعلى آله وصحبه صلاة لا تنقطع أبد الأبد ولا تبيد.

فحبس عليه من الأوقاف بداخل المدينة وخارجها ما يذكر، ويعين ويفسر بعد إن شاء الله، فالذي بداخلها أمنها الله وحماها جميع الدار المتصلة بغربي المسجد المذكور، وجميع الدر ذات البيوت المتصلة بشرقي المسجد المذكور، وجميع الطراز المسند للسقاية الكبرى المنشأة هناك قرب المسجد المذكور وهو الذى صار الآن دارا، وجميع الحمام الجديد المقابل لقبلى المسجد المذكور بفرنه ومنافعه، وجميع الفرن الذي بأعلى الحمام قبلي المسجد المذكور، وجميع النصف الواحد على الشياع في كافة فندق ابن عزوز صاحب إفراك في شركيته بالنصف الآخر على مقربة من باب الرياض، المواجه لسيدي سعيد بن أبى بكر نفعنا الله به، وجميع الحوانيت الثلاثة التى بأسفل باب المِيضَأة[1] مع البيوت المسندة إليه، وجميع الحانوتين المتصلتين بالقنت المواجه لداخل الرياض من بابه الأكبر باب ثلاثة فحول أسفل دار الباشا منصور الرامي، وجميع التسع حوانيت المتصلات بداخل الرياض أمام بابه النافذ لقرب الولى سيدى سعيد، مبدؤهن من الحانوت. الثانية لحانوت القنت المواجه للباب المذكور بصف واحد، وجميع الحانوت الصغرى التي برحبة التبن عن يسار الصاعد غربا بعد دخوله من الباب المذكور، والذى بخارجها جميع الأربعين حانوتا عن يمين الصاعد لباب المشاوريين، أحد أبواب مكناسة، وجميع موضع الثانى عشر حانوتا المتصلة بها من جهة روضة سيدى عبد الرحمن القرشي، وجميع التسع حوانيت المتصلة بها من أعلى التى بناها حجاج، وكل الحوانيت صف واحد في اعتمار صنعة الذميين، عددها إحدى وستون حانوتا بجميع ما لذلك من المنافع والحرم وكافة الحقوق الداخلة والخارجة، ليصرف من فوائد الحبس ما يفضل عما يحتاج إليه أصله من الوجوه الضروريات مما يبقى أصل الحبس معه محوطا فيما يحتاج إليه المسجد الجديد المذكور من إصلاح مبانيه ومياهه وحصره وزيت الاستصباح به ورواتب القائمين بأموره وغير ذلك مما يحتاج إليه.

(١) المِيضَأة: الإدواة فيها ماء يُتوضأ به، والموضع يُتَوَضَّأ فيه.

ومن إنشاءاته المحبسة جميع المكتب المسند إلى المسجد المذكور لتعليم أولاد المسلمين قراءة القرآن، وجميع السقاية التي هناك، صير في بنائها مائة مثقال دون الخشب، وجميع المنجرة المتصلة بالمسجد المذكور لخدمة الخشب لإصلاح المسجد وأوقافه، وصير في جلب الماء من العين البيضاء إلى المسجد المذكور ما يذكر مفصلا، من ذلك ثمانية وعشرون قنطارا من الزيت من معصرة مولانا المظفر المنصور، وثمانية وعشرون ألفا من القادوس الثلثي مدفوع في جملته بيد الفخار ألفا أوقية اثنان دراهم وأربع كوشات من الجير مدفوع فيها مائة مثقال، وأجرة المعلم القوادسي عن مدة خدمته عشرة أشهر ثلاثمائة أوقية دراهم، وأن المال المدفوع على يد الناظر المذكور في الصفين اللذين أمر مولانا بزيادتهما قبلي المسجد المذكور صرة من التبر بيعت بمائة وثلاثين مثقالا دراهم، وكل المال المصير في بنائهما وفي جلب الماء للمسجد المذكور وفي بناء السقاية والمكتب هو من مال مولانا الخاص به.

وحبس نصر الله أعلامه ماء آخر يطوى له قادوسه وحده من الوادي إلى أن يصل للمَسجد المذكور. اهـ.

ومع هذا الاهتمام العظيم بتحصين هذا السعي المشكور المكين من هذا الإمام العظيم منشئ مدينة الرياض، حتى تدوم قائمة بنفسها في سائر الشئون والأغراض، لم ينفع حذر من قدر فلم تعش المدينة بكل بناءاتها الدينية والدنيوية إلا خمسا وخمسين سنة قضتها كلها في ازدهاء وازدهار، لا تحوم نحو ساحتها الأكدار، وطالع السعد على أرجائها مشرق، وخميس اليمين والأماني بأكنافها محدق.

وفى هذه المدينة يقول الفقيه الكاتب أبو حفص عمر الحراق من قصيدة يخاطب بها كتاب الحضرة الإمامية.

أكـتـاب الإمـام لـقـد سـعـدتم بآثـار لســيـــدنا ســـديدة

دنوتم من قـصـــور أبى المعـالى وقـــد كـانت منازلـكم بعـيــدة

ومـــا دار تقـــرب منه إلا مـبـــاركـة بلا ريـب سـعـيـدة

قال فى «الدر المنتخب المستحسن» وقـد أجازه السلطان على هذه القصيدة بأربعمائة مثقال نفذها له عند عامله الباشا على بن عبد الله الريفى فقبضها منه فى الحال. اهـ.

قلت: هذا وأبيك الكرم ونخوة الملك، فـالأربعمائة مثـقال فى ذلك الزمان من الأمر ذى البال تقوم بما لا تقوم به اليـوم أربعمائة ألف فرنك، ثم لما قضى الله بخرابها ونثر نظام عـقد محاسنها، قيض لنقض محكم بنـائها السلطان المولى عبد الله نجل مؤسس قـواعدها على تقوى من الله ورضـوان، فأمر النصارى وغـيرهم بهدمه لأمر عرض له فى الحال اعتراه بسبـبه شبه اختلال، وذلك الأمر هو ما ذكره صـاحب «الدر المنتـخب» من إنه كـان إذا جن الليل اجـتمع من سكانـها القـواد والأعيان وتـذاكروا الأمور الواقعـة فى الآفاق والبلدان، وتذاكروا فيـما بينهم وإن أرادوا أمرا عليه صمـموا ويدبرون الأمر حتى يكون ما عليه عـولوا، فنصر مولاى أحمد الذهبى أولا كان فى مدينة الرياض المذكورة، وفـيها اتفقوا على عزله ونصر مولاى عـبد المالك فى الرواية المشهـورة، وفيهـا عزلوا مولاى عـبد المالك وردوا مولاى أحمد، وفيها اجتمع رأيهم على نصر مولاى عبد الله وكان مولاى عبد الله إذا فعل فعـلا اجتمعوا وتحدثوا، فكان مـولاى عبد الله لأجل ذلك لا يبلغ مناه، وإن أراد مولاى عبد الله أن يبـرم أمرا اجتمعوا وقالوا هـذا أمر لا نفعله بوجه ولا بحال، فبلغ الخبر لمولاى عبد الله فأعرض عن ذلك الأمر الذى أراد كأنه لم يبق له ببال، وأرسل إلى العـبيد الذين بمشرع الرمـلة ومن كان غائبا من جنوده وكـساهم وفرق عليهم الأموال، وزادهم فى الراتب وقدمه لهم على الكمال.

ففى فجر يوم السابع والعشرين من شوال عام ثلاثة وأربعين ومائة وألف حشد تلك الجنود وأعد آلة الهدم وركب فرسه ووقف على تل مشرف عليها وأمر بالهدم من كل ناحية والناس نيام فمن أسرع وحمل رزقه وقشه نجا، ومن لامعين له بقى قشه تحت الردم وارتحل الوداية لفاس الجديد مع إخوانهم وتفرق غيرهم بالمدينة، فما مضت عليها عشرة أيام إلا وصارت كدية من تراب يعشش فيها البوم، ولم يبق بها إلا الأسوار والجدرات قائمة كما قاله أبو القاسم الزيانى وغيره، والبقاء لله وحده، وله سبحانه وتعالى الأمر من قبل ومن بعد.

وقد صارت موقعها من مزارع العاصمة المكناسية ومراعى مواشيها، ولا زالت إلى الوقت الحاضر بعض الأطلال قائمة بها، وقد كانت تلك المزارع فيما سلف معدة لنزول الجيوش السلطانية عند ما يحل ركابها الشريف بالعاصمة المذكورة، وأحدث بها الآن محالا لسكنى اليهود لضيق حارتهم عنهم.

ومن تأسيساته حارة اليهود التى بها سكناهم الآن، أسسها عام ثلاثة وتسعين وألف كما بتأليف الضعيف وغيره، وأمر بإخراج أهل الذمة من المدينة وإسكانهم بالمحل المؤسس لأجلهم فسكنوه، وأخليت دورهم التى كانت وسط دور المسلمين بالمدينة، ثم سكنها أهل تافيلالت الذين بفاس بأمر من السلطان.

ومن تأسيسات مولانا إسماعيل قصبة بريمة التى لازالت قائمة العين والاسم إلى الحين الحالى الواقعة غربا من قصبة قصور الملك السعيدة، وقد وقفت فى بعض العقود الموثوق بها على بعض ما يتعلق بذلك ونص الغرض منها: كان الجناب العالى بالله مولانا أبو النصر تملك جميع أرض بريمة خارج الحضرة الهاشمية محروسة مكناسة، وأعطى مولانا المنصور ثمنها وأمر ببناء حوانيت خارج باب المشاوريين بالثمن المذكور، لكون الأرض المذكورة من أوقاف جامع الخضراء، وفضل من الثمن المذكور من بناء الحوانيت مائة مثقال، وكان المتولى لذلك عن أمر

مولانا المنصـور بالله تعالى القـائد الأرضى. الأجل الأحظى، خديم المقـام العالى بالله أبا العباس أحمد بن الأجل الفقيه الأكمل المرحوم بكرم الله سيدى أبى يعزى العرايشى، أشـهد الآن أنه صير لجـانب الحبس فى المائة مثقـال كذا فى سنة اثنتى عشرة ومائة وألف، اهـ.

ومن تأسيساته قصبة جناح الأمان الشهيرة إلى الآن.

ومنها قصـبة قعر وردة التى لازالت قائمـة العين والاسم إلى الحين الحالى، وكان تأسيسه إياها عام واحد ومائة وألف.

ومنها قنطرة ردرورة الشهيرة المعروفة قبل بقنطرة ابن يشو، أسسها عام واحد ومائة وألف على مـا فى بعض التقايـيد، وأنشأ بهذه الـقنطرة سقاية اهتم بشـأنها اهتمـاما زائدا حتى حـبس عليها عدة أوقـاف من رباع وعقار، كـانت تعرف هذه السقايـة بسقاية الذهب، ودونك بعض النصوص الشـاهدة لما لمنشئها مـن الاهتمام والاعتناء بأمرها: الحمد لله شهد لدى شهيديه أمين الدار العالية بالله، وناظر سائر الإيالة الشريفـة المعلم محمد بن مـحمد الكاتب الأندلسى أن مـولانا المنصور بالله تعالى مولانـا أمير المؤمنين، المجاهد فى سـبيل رب العالمين، مولانا إسـماعيل أبد الله أوامره، وخلد مـفاخره الكريمة ومآثره، آمين، حـبس جميع الحوش المسـتدير بالحيطان - غير ربع واحد منه بلا حائط - الـكائن بقصبة تزيمي المجّاور من أسفل الحوش حبس مـسجد صواغـة الذى بيد الوقاد على وجه الجـزاء على إصلاح الماء المجلوب لسـقاية الذهب التى أحدث بـناءها مولانا المذكور بقـنطرة ردرورة خارج مدينة مكناسة، وهذا العقـد بتاريخ جمادى الأولى عام سبعـة عشر ومائة وألف، ولما رأى أنجاله ورؤساء أعيـان دولته العظيمة ما لمتبوعـهم الأمير الطائر الصيت من الاهتبال والاهتمام بهذه السقاية، تسارعوا لاقـتفاء أثره فى التحبيس عليها، فحبس عليها نجله المظفـر أبو الحسن مولانا على كوشة وحانوتـين حسبما بعقد تحـبيس ما

ذكر المؤرخ بعـام ثمانية وأربعين ومـائة وألف، وحبس عليهـا خديم مقامـه العالى القائد على بن يشو اليارغى عقارا حسبـما بعقد وقفت عليه بتاريخ أواسط جمادى الثانيـة عام سبعـة وعشرين ومـائة وألف، ومع الأسف فقد اندثرت هذه السـقاية وعفت منها الآثار، ولـم تنتج لها أحباسـها العديدة أدنى وقاية من يد الاضمحلال والاندثار.

ومنها مسجد باب البراذعيين الشـهير، وكان تأسيسه له تحت نظر وزيره على ابن يشو، وذلك عـام واحد وعـشرين ومائة وألف، وهذا التـاريخ هو الذى رسم بخشب باب مقصورة المنبر بالجامع المذكور فى أبيات لعمل منبره، ونصّ ذلك:

أنا منبـــر للذكـر والـوعظ أنصب ... دوائى لأمــراض القلوب مـــجـرب

ومـولاى إسمـاعـيل عز عن امـره ... تأنـق فى صنـعى الوزيـر المهـــذب

على بن يشـــو راجـيـا فـضل ربه ... وإن رمت تاريخى بحقّ سيـحسب[1]

ومنها جامع الأنوار المعروف بهذا الاسم إلى الزمان الحاضر الذى بابه الأكبر عن يمين الداخل للقصبة الإسماعليـة من باب منصور العلج، ففى «زهر البستان». فى نسب أخوال سيـدنا زيدان بن مولانا إسماعـيل، أن مما شيده مولانا إسـماعيل مسـجد الأنوار الذى هو لأشتـات المحاسن جامع، فمـن سوارى رخاميـة يقارب عـددها المائتين، ومن صحن بديـع الشكل بهى المنظر رحب المتـسع عديم النظيـر بالعدوتين، بوسطه قبة ارتفعت عن أن تقاس بمثـال، قائمة على أعمدة من الرخام مختلفة الأشـكال، بزواياها الأربع شبابيك مصنوعة من الخشب أمـسكت بصفائح مذهبـة أركانهـا، أرضها مـفروشـة بالرخام، وسـماؤها وشيت من خـشب ملون

(١) في المطبوع: «وإن رمت تـاريخي (شاقك) يحسب» وهو غـير صحـيح عروضـيا. ولعل المناسب ما أثبتناه. والأبيات من الطويل.

منقوش بأبهى من طوق الحمام، يدخل إليها من جهاتها الأربع وبداخلها خصة رخام لم ير الراءون مثلها فى ضخامة الشكل وسعة الدائرة وإحكام صنعة ترصيف ما أحدق بها من الرخام، وبإزاء القبة بئر أحدق به أربع خصص صغار وإلى جنب كل خصة حوض يمتلئ منها، وبإزاء الصحن المذكور بالركن الذى التقى فيه الربع الشرقى بالربع القبلى منار يرقى فيه بغير مدارج، بل بترصيف مستوى المعارج، مطبق الأعلى فلا يصيب فيه المؤذن حر شمس ولا مطر، ولا ينال بصره من محارم المسلمين قطاف وطر.

ومن محاسن هذا الجامع أن أسند إليه بربعه القبلى من حيث اتصاله بالربع الشرقى خزانة الكتب مشملة على قبتين قائمة حلقتها على أربعة قوائم من الرخام، وبها من الكتب العلمية ألوف عديدة. . .إلخ ما وصفه به مما لا ينطبق إلا على جامع الأنوار المعروف بهذا الاسم الآن وذلك الانطباق وقت شبابه، وقبل انقلابه وإيابه، أما بعد ذلك فلم يبق من دلائل ذلك الانطباق إلا شهرته قديما وحديثا بجامع الأنوار مع ما أدركناه من بقايا دار الوضوء الموصوفة فى الجهة الشرقية إلى أن استأصلتها الدولة الحامية، ومع بقايا خزانة الكتب الموصوفة فى كلام زهر البستان، فإن بابها بالمحل المعين فى كلام زهر البستان مع ما سمعته من والدى عن والده رحمهما الله أن تلك الباب هى باب خزانة الكتب الإسماعيلية التى فرق السلطان سيدى محمد بن عبد الله كتبها على مساجد المملكة، وإنما قلت لم يبق من دلائل الانطباق إلا ذلك، لأن جامع الأنوار قد مسخ، وتقلب فى أطوار النحس والمسخ، حتى إنا ما أدركنا شيئا مما وصف من بهجته، ولا بعض ما يمثل حسن صورته، سوى الجدرات المحيطة به وأطلال بعض ما عداها، أما ما عدا ذلك فلم ندرك منه رسما ولا طللا وليت هو أنه انتهى عند هذا الحد، ولكنه زاد على ذلك بأن أُعِدَّ تارة لربط الدواب وأخرى لاستقرار من هم شر من الدوابِ، وهم

أخلاط أوباش العساكر الذين كانوا يأتون فيه كل الفواحش بكل معنى الكلمة، وآونة يكون سجنا للمتمردين، وطوراً يجعل خزينًا للشعير، إلى أن حازته الدولة الحامية وصيرته مدرسة لقراءة لغتها وغيرها، ولا ينافى كونه من الإنشاءات الإسماعيلية ما هو منقوش فى زليج بأعلى بابه ولفظه: ما للخورنق والبديع كمال. . . إلخ ما سيمر بك قريبا بحول الله لأنه إنما أسند فى هذه الأبيات لمولاى عبد الله إنشاء حلة تلك الباب لا غير وتلك الحلة وذلك الكمال يحملان على إنشائه بها خاصة تنميقا وتزويقا، أما أصل ذلك فهو لوالده المولى إسماعيل لما قدمناه عن زهر البستان من أن المولى إسماعيل هو المنشئ لذلك المسجد بكماله، وقد وصفه بذلك قيد حياة منشئه كما ينبنى عنه ما ترجم المولى إسماعيل به فى الكتاب المذكور.

وقد قدمنا أن هذا المسجد هو الذى يقوى فى نظرنا أنه المسجد الذى أسسه لما ضاق به مسجد القصبة الذى لازال يعرف بهذا العنوان إلى الآن، وكذا قدمنا أن دليل ذلك قول واصفى المسجد الذى أسسه بعد ضيق الأول وجعل له بابين بابا إلى المدينة. . . إلخ، فإن الباب الذى للمدينة بدون حاجز لم يوجد إلا فى هذا، ويزاد على ذلك أن ما وصف به «زهر البستان» جامع الأنوار مع قبته أظهر فى وصف الأخضر الذى أطلقه على المؤسس بعد الضيق واصفوه من وصف مسجد القصبة به، وكذلك ما فى بيت ذلك الشاعر السابق وهو قوله ففى القبة الخضرا، البيت، القبة الموصوفة فى جامع الأنوار أحق به وأليق، ويتأكد ذلك بكون الزيانى ومن تبعه لم يفصحوا فى البناءات الإسماعيلية بجامع الأنوار بهذا العنوان، مع أنه أحق بالذكر من كل مسجد بناه، لأن ما وصف به زهر البستان بناءه لم يوصف به شيء من المساجد التى شيدها، فدل ذلك على أنه هو مرادهم بقولهم أسس المسجد الأخضر إلى قولهم وجعل له لابين بابا المدينة. . . إلخ.

ويحمل المسجد الذى وصفنا تهدمه داخل الباب الأول للضريح الإسماعيلى

على أنه كان معدا عند المولى إسماعيل للصلوات الخمس، ومسجد القصة المعروف بهذا الاسم لصلاة الجمعة، وقد يصلى فيه الخمس أيضا عند ما يجده الوقت فى قصر الستينية المتصل به، أو لمقتض آخر، مقتضيات عظم المملكة وشامخ أبهتها.

والظاهر أن ذلك الاحتفال الهائل الذى خص به المولى إسماعيل جامع الأنوار، حتى إنه جعل أعمدته على كثرتها كلها رخاما مع تلك الخصة التى لم ير الراءون مثلها عظما وحسنا وغير ذلك، ولا سيما مع حصول الاستغناء عنه بعد العظمة الإسماعيلية لا بالنظر للمدينة ولا بالنظر للقصبة، فتكون خطبة مسجدها مع تخريب هذا رجعت إلى محلها الأصلى والله أعلم. وكان تأسيسه لهذا المسجد العظيم المقدار عام عشرة ومائة وألف كما فى «الدر المنتخب».

ومن إنشاءاته أيضا مسجد الأنوار المعروف فى العصر الحاضر بمسجد سوق السباط، ويدل لذلك ما هو منقوش فى لوح خشب ببعض جدراته ولفظه:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، الحمد لله الذى جعل أهل العلم أنجما يقتدى بهم فى كل وقت وزمان وزين بالاهتداء بهم كل مكان، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد سيد ولد عدنان، وعلى آله وأصحابه ما تتابع الملوان، هذا وإن مولانا المؤيد بالله الهمام محيى الملة والدين، وسالك سبيل الأئمة المهتدين، المجاهدين فى سبيل رب العالمين، أمير المؤمنين، مولانا إسماعيل بن الشريف الحسنى أيده الله ونصره، لما أنهى إليه أمر المسجد الذين أنشأه الناظر الأسعد، الموفق الأرشد، أبو عبد الله سيدى محمد بن محمد الكاتب القيسى الأندلسى أصلا ونجاراً، الفاسى نشأة وداراً، المسمى بمسجد الأنوار أمر نصره الله بإحضار علماء التوقيت العارفين بدلائل القبلة وهم السيد محمد بن عبد الرحمن المرابط والسيد العربى بن عبد السلام الفاسي والسيد حسيت الكامل، والسيد محمد بن سليمان العونى وحضروا بالمسجد المذكور واسعملوا البحث والنظر بطرق علماء الفن والأسطرلابات والدائرة ومقاييس الشمس، فأداهم اجتهادهم إلى أن

المحراب هو سمت مكة شرفها الله تعالى على المشهور، وأن طول مكة سبعة وسبعون درجة، وعرضها اثنان وعشرون درجة، وطول مكناسة خمسة وعشرون درجة، وعرضها أربع وثلاثون درجة بتقاطع خطي الطولين والعرضين بالدائرة الهندسية، قيدوا به شهادتهم لسائلها وفى أوائل جمادى الثانية عام اثنين وعشرين ومائة وألف الحمد لله لما ثبت بشهادة أهل العلم المذكورين الواجب تقليدهم للخاص والعام فيما ذكر وجب المصير إليه واتباعه «إذا قالت حذام فصدقوها» وهذا سبيل الحق وطريقه ففى الخبر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال كل صنعة يرجع فيها إلى صانعها أو كما قال(١) عليه الصلاة والسلام وكتب سعيد العميرى الحمد لله أعلم بأعماله عبد الله تعالى عبد الوهاب العرائشى هـ.

وأسس باب الخميس القائم العين إلى الآن، وهو أحد أبواب مدينة الرياض السالفة الخبر، وذلك عام ثمان وتسعين وألف، ويدل لذلك ما هو منقوش فى الزليج المتوج به أعلى الباب المذكور ودونك لفظه:

---

(١) فى هامش المطبوع: قال الحافظ ابن النجار فى تاريخه: «قرأت على أبى القاسم سعيد بن محمد الهمدانى عن محمد بن عبد الباقى الأنصارى، قال: كتب إليّ أبو عبد الله محمد ابن سلامة القضاعى، حدثنا أبو الحسن على بن نصر الصباح، حدثنى أبو النضر المفضل ابن على كاتب الراضى، أنه حضر مجلس أبى الحسن بن الفرات وعنده القاضى أبو عمر محمد بن يوسف فسأل عن شيء، فقال القاضى أبو عمر: قال رسول الله ﷺ: «استعينوا على كل صنعة بأهلها» وفيه يرد قول أبى الخير السخاوى فى المقاصد الحسنة، إنه لم يرد بهذا اللفظ فى الحديث، وإن تبعه الشيبانى فى تمييز الطيب، والبيروتى فى أسنى المطالب، ويقويه شاهدا له ما أخرجه أحمد عن طلق بن على، قال بنيت المسجد مع رسول الله ﷺ فكان يقول: قربوا اليماميَّ من الطين فإنه من أحسنكم له مَسًّا. وفى رواية ابن حبان فقلت: يا رسول الله، أنقل كما ينقلون؟ قال: لا، ولكن اخلط لهم الطين فأنت أعلم به. وما أخرجه أبو داود عن سعد قال: مرضت مرضا فأتانى رسول الله ﷺ يعودنى، فوضع يده بين ثديي حتى وجدت بردها على فؤادى، وقال لى: إنك رجل مفئود، فأت الحارث بن كلدة من ثقيف فإنه يتطبب. وهو يدل على جواز الاستعانة بأهل الذمة فى الطب كما فى الإصابة. وعلى كل حال:

فكل أمر له قوم به عرفوا ... فاندب لكل مهم أهل بلواه

انتهى مصحح.

وفى حواشى كنز العمال ٣/١٠٨ أن طلق بن على بن المنذر، هو أبو على اليمامى، وفد على النبى ﷺ وعمل معه فى بناء المسجد، وروى عنه.

أنا الباب السعيد سموت فخرا سمو البدر فى الفلك السعيد
سنا مولاى إسماعيل يبدو على ذاتى المنوطة بالسعود
ففى وقت سعيد قد بنانى وورخ نشأتى (جود المشيد)

وأسس باب الجديد على ما فى بعض التقاييد الموثوق بصحتها عام خمس ومائة وألف.

وجدد المسجد الأعظم عام سبعة ومائة وألف، وكان انتهاء العمل فيه عام تسعة ومائة وألف، ويشهد لذلك ما هو منقوش فى لوح خشب بباب المقصورة التى يخرج منها الخطيب بالمسجد المذكور ولفظه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، يا أيها الذين أمنوا أركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون، صدق الله العظيم، وبلغ رسوله المصطفى الكريم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا، أمر بتجديد هذا المسجد الأعظم مولانا إسماعيل بن الشريف أيده الله عام سبعة ومائة وألف، وكان الفراغ منه عام تسعة ومائة وألف:

يا أيها المنظر الجديد زينك الطالع السعيد
وقر منك الأمير عينا ومات من غيظك العنيد

وما هو منقوش بأعلى السقاية من المسجد المذكور ولفظه: الحمد لله وحده وصلى الله على من لاَ نَبِيَّ بعده.

تأمل بعد حمد الله حسنى وصل على محمد الشفيع
فما أبصرت فى الدنيا كشكلى أذكر زهر أيام الربيع
وللوراد أسقى سلسبيلا فلى فخر بذاك على الجميع
بجامعنا الكبير سموت فخرا علا شرفى بجانبها المنيع
بأمر إمامنا المنصور شادورا بنائي الرائق الأبهى الرفيع
وتاريخى أمعطاش هنيئا وقاك الله من ظما وجوع

وما هو منقوش بخشب عـنزته البديعة الإتقان العجيبـة الصنع اللطيفة المنظر ودونك لفظ ما هو منقوش فى الجهة الموالية للصحن:

ذى عـروس من المحـاسن تجلى ... باليـواقـيت وشـحـت واللآلي
وسـراج الملوك بالغـرب اسـمـا ... عـيل من دأبه اكـتسـاب المعـالي
كـان عن أمـره المطاع وجـودى ... كن له حـافظا أيا خـيـر والي

وما هو منقوش بها أيضا ولفظه:

بحـمـد الله يـفـتـح الكلام ... كـذاك صـلاة ربـى والسـلام
على المختـار مع آل وصـحب ... كعـرف المسك ما انسكب الغـمام
أدم يا رب عـز الدين وانصـر ... إمـامـا لا يعـادله إمـام

وما هو منقوش بدائرة هذه العنزة من الجهة المذكورة أيضا ولفظه:

أعوذ بالله من الشيطا الرجـيم، بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محـمد وعلى آله، وعنده مفاتح الغيب لا يعلمهـا إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعـلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين، وبوسط هذه الدائرة ما لفظه:

لك الحـمـد يا ألـله والأمـر كله ... فـصل على سر الوجـود مـحمـد
إمـام الـورى طرا وقـبـلة آدم ... نبى أتى بالخمس فى كل مسـجد
ومـعـجـزة القـرآن أكـبـر آية ... فطوبى لمـن يتلوه عند تـهـجـد
على العنزات الفضل لي لتـقرري ... بمكـناسـة دار الإمـام المـؤيد
وجـامـعـة أكـرم ببـيـت إلهنا ... فكم حله مـن عـالم مـتـعـبـد
وتاريخ إنشـائى وإظهار بهـجتى ... وحـسنى فشـا مجـد تراه بمشهـد
وصل إله العـرش فى كل لحظة ... على أحمـد الهادى وأشرف سـيد

ومنقوش بدائرة هذه العنزة أيضا من الجهة المقابلة لمحراب المسجد الداخلي ما لفظه:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران] إلى غير هذا مما هو منقوش بالقلم الكوفى وغيره فى هذه العنزة المباركة.

وجدد مدرسة الشهود المتقدمة الذكر عام ثلاثين ومائة وألف، ودليل ذلك ما هو منقوش بها على جدارها الشرقى قبالة الداخل وذلك فى زليج أخضر على صورة محراب ونصه:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

بحمد إلهى أبتدى وصلاته	على أحمد المختار طول المدى تترا
تأمل جمالى كى ترى الآية الكبرى	أحاكى لزهر فى السنا والعلا زهرا
تأنق فى البنيان والوشى صانعى	أنا منزل القراء حزت بذا فخرا
عن أمر أمير المؤمنين الذى سما	بنسبته للمصطفى وعلا قدرا
أبى النصر إسماعيل كمل بهجتى	بناظره السهلى قد سهل الأمرا
سليل العلا مزاج عبد الرحيم من	بإتقانه الأوقاف يلتمس الأجرا
وكملت عام الألف مع مائة وزد	ثلاثين شهر المولد أحبب به شهرا

فقوله كمل بهجتى... إلخ، معناه بتجديد إصلاحها وتنميقها.

وقد غلط فى فهمه بعض المتأخرين واغتر به صاحب «الدر المنتخب المستحسن» فقال: قال بعض المتأخرين: وأما المدرسة التى عن يسار المقابل لمحراب المسجد الكبير المقابلة بابها لباب المسجد فقد رأيت تاريخها فى رخامة مقابلة

للخصة، وأن أمير المؤمنين مولانا إسماعيل هو الذى بناها نصه نظما: بحمد إلهى . . .إلخ، الأبيات المارة ولا شك فى خطأ هذا النقل، إذ تقدم بناء هذه المدرسة وهى المعروفة بمدرسة القاضى وبمدرسة الشهود وذكرها فى «رَوْض» ابن غازى أشهر من نار على علم، كما أنه أخطأ فى نسبة التاريخ للرخامة، فإن الأبيات التى بها التاريخ إنما هى منقوشة هناك فى زليج أخضر كما قدمنا، وكفى بالعيان برهانا، وأشنع من هذا أن صاحب «الدر المنتخب» المذكور ما ذكر هذا الذى قدمناه عنه حتى قدم متصلا به أن مدرسة القاضى والشهود بانيها هو أبو يوسف المرينى، ومعلوم خارجا أنها هى التى عن يسار المقابل للمحراب المذكور، ثم أثره ذكر أن بانى التى على اليسار المذكور هو المولى إسماعيل، وهذا أقوى دليل على أنه لا يتصور أن المدرسة المذكورة هى التى على اليسار المذكور، فلم يميز بين مدرسة الشهود والقاضى وبين المدرسة الجديدة فى كلام ابن غازى، وظن أن التى على اليسار هى غير مسمى مدرسة الشهود فخلط، وما حرر ولا ضبط.

(رجع) والمولى إسماعيل هو الذى نصب المنبر المرونق بالمسجد الأعظم الموجود لهذا العهد يوم الجمعة ثانى عيد الأضحى عام اثنى عشر ومائة وألف على ما فى بعض التقاييد التاريخية.

وجدد مسجد سهب الملح وهو المعروف اليوم باسم مسجد ابن عزو على يد المسن المكرم السيد عبد الرحمن بن أحمد بن عزو، كما وقفت على ذلك في بعض التقاييد، وكان تجديده له عام واحد وثمانين وألف.

(فائدة) قال القلقشندي: أول من عمل المنبر في الإسلام سيدنا تميم الدارى عمله للنبي ﷺ، وكان قد رأى منابر الكنائس بالشام.(١) اهـ.

قلت: ويدل له ما في أبي داود عن الحسن بن على عن إبراهيم بن أبي داود عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ لما بدن قال له تميم الدارى: ألا أتخذ لك منبرا تجمع أو تحمل عليه عظامك؟ قال: «بلى»، فاتخذ له منبراً مرقاتين. اهـ.

وما في طبقات ابن سعد من حديث أبى هريرة وغيره، قال كان النبي ﷺ

---

(١) صبح الأعشى ١/ ٤٢١.

يخطب يوم الجمعة إلى جذع، فقال: إن القيام يشقّ عليّ، فقال تميم الدارى: ألا أعمل لك منبرا كما رأيته بالشام؟ فشاور النبى ﷺ المسلمين في ذلك، فرأوا أن يتخذه، فقال العباس بن عبد المطلب: إن لي غلاما يقال له كلابٌ أعمل الناس، فقال النبي ﷺ: مره أن يعمله، فعمله درجتين ومقعدا، ثم جاء به فوضعه في موضعه.(1) اهـ.

وتميم هذا هو أيضا أول من أسرج السراج في المسجد كما في «الإصابة»(2) من رواية الطبراني.

(رجع) ومن تأسيسات الأمير المذكور بناء قنطرة السيد على بن منصور الشهير، الآتي الذكر بحول الله، وكان تأسيسه إياها عام أربعة ومائة وألف.

ومنها القبة التى أمام المدرسة الجديدة الشهيرة اليوم بالبوعنانية عام تسعة ومائة وألف.

وجدد ضريح الولي المتبرك به سيدي يوسف الشريف أحد الصلحاء الذين ضمتهم داره الكبرى المتقدمة الوصف، وكان تجديده له عام ألف ومائة واثنين وعشرين ويدل له ما هو منقوش في رخامة بضريح الولي المذكور نقشا بديعا ودونك لفظه:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام، هذا ضريح الولي الصالح أبو المحاسن سيدى يوسف الشريف الشهير بأبي قنادل نفعنا الله ببركاته آمين، أمر بتجديد هذا الضريح المبارك الملك الإمام الجليل أبو النصر مولانا إسماعيل أيده الله ونصره أوائل المحرم فاتح سنة ١١٢٢هـ.

هكذا بالقلم الفاسي، ويوجد هذا الضريح وراء دفة الباب للدار المذكورة دار الخلافة على يسار الداخل.

---

(1) كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ١/ ٢١٥.

(2) الإصابة ١/ ٣٦٨.

ومنها ضريح الولي الصالح المولى أحمد الشبلي رضي الله عنه وأرضاه، ويدل لذلك ما هو منقوش بأعلى القوس الواقع يسار الذاهب من نهج القبابين لضريح سيدي عبد الواحد الأشقر المجاور هو أي القوس للسقاية يسار الذاهب منه لضريح الشبلي المذكور ولفظه:

يا ناظرا حرم الولي أحمد الـ شبلي وحسن جماله المتوقد

مولاي إسماعيل أسسه وهو تاج الملوك ونجل آل محمد

ومثله أيضا باللفظ ما بأعلى القوس الذي يذهب منه للضريح المذكور الآتي من ساباط الزمراني.

وضريح سيدي عبد الله القصري الولي الشهير.

وأسس جامع الزيتونة عام تسعة وتسعين وألف كما صرح بذلك صاحب الدر المنتخب المستحسن، ونصب منبرها في التاريخ المذكور وشاهده ما هو منقوش عليه الآن ولفظه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب] صنع هذا المنبر المبارك عام تسع وتسعين وألف، وقد كان سرادق ملكه في هذا التاريخ على الأنام ممدودا وأنت ترى سائر الآثار الدينية وخصوصا في عاصمته التى قصرنا الكلام فيها إنما كانت تبرز عن أوامره وهذا منها.

ومن تأسيسات مبانيه القصبات العديدة المحيطة بعاصمته المتصل منها بسور البلد والمنفصل عنه.

فمن المتصل القصبات الثلاث المتقدمة وهي: بريمة، وجناح الأمان، وقعر وردة ومنها القصبة المعروفة بقصبة هدراش وقد سبق بيان موقعها وتاريخ بنائها، ولا زالت قائمة آهلة إلى الآن.

ومنها القصبة المعروفة اليوم بقصبة سيدى سعيد، خارج باب وجه العروس المعروف اليوم بباب الملاح، أحد أبواب المدينة، ولا زالت قائمة آهلة أيضا إلى الآن.

ومنها القصبة المعروفة بتزيمي الكبرى خارج باب البراذعيين القديمة التى موقعها الآن عن يسار الداخل لباب البراذعيين الجديد، وهو الذي يعنون عنه بهذا الاسم الآن، فالجدار الذاهب عن اليسار المذكور من الباب الجديد المذكور إلى الباب القديم أمامه هو لقصبة تزيمي الكبرى المذكورة، والباب الذي عن يسار الداخل للباب القديم المذكور هو لها وبين البابين البراح الذي يباع فيه الخشب الآن كل يوم جمعة بعد الصلاة، ولا زالت هذه القصبة قائمة آهلة أيضا إلى الآن ولفظ تزيمي - بكسر أوله وثانيه المعجم بعده ياء ساكنة وميم مكسورة بعدها ياء ساكنة - هو اسم لقبيلة من عمل سجلماسة نقلت لسكنى القصبة المذكورة.

ومن القصبات المنفصلة التي أسسها سيدنا الجد المولى إسماعيل حوالي مكناسة وعلى مقربة منها قصبة الكدارة بكاف معقودة وقصبة حَرْطَان - بفتح الحاء المهملة وسكون الراء وفتح الطاء المشبعة ثم نون - وقصبة المولى المستضىء.

وقصبة بوفكران.

وقصبة المنزه.

أما قصبة الكدارة فنسبتها لفرقة من فرق الجيوش المولوية أنزله بها مؤسسها على ضريحه صيب الرحمات وموقع هذه القصبة في الجهة الجنوبية من المدينة وهي الآن خراب بيد المكلف بالأملاك المخزنية يكتريها منه من شاء لكون عمارتها الأصلية بطلت.

وأما قصبة حرطان فموقعها غربا من المدينة يسكنها فريق من قبيلة الخلط، وأصل الخلط من العرب لا من البربر كان نقلهم السلطان سيدي محمد زمن خلافته عن والده السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام في شهر قعدة الحرام عام سبعين ومائتين وألف على القول الصحيح من بلاد سفيان وبني مالك وأحواز

العرائش وعــددهم إذ ذاك مائتان وثمانيــة عشر نفــرا وأنزلهم بأرض مكّس - بفتح الميم والكاف المشددة بعــدها سين مهملة - وزكُّــوطة - بفتح الزاى المعجــمة وضم الكاف المعقودة مشددة بعدها واو ساكنة ثم طاء فهاء ساكنة - وأضافهم إلى الجيش البخاري، ثم صار يلحق بهم إخوانهم من القبيلة المذكورة إلى أن صار عددهم ألفا وخمــسمائة، ثم نقلهم إلى وادي الشــجرة مع القصبــة المذكورة ونقل من القصــبة والوادي المذكورين من كان بهما من أهل تادلا وأنزلهم بأرض مكس، ولا زال بها نسلهم إلى الزمان الحاضر.

وأما قصــبة مولاي المستــضيء فموقعهــا غرب المدينة قرب قصــبة حرطان، وليس بها اليوم إلا البــوم وأنواع الحشرات، ولذلك تعرف بالخاليــة، قالوا: ووجه إضافــتها للمــولى المستضيء أن السلطان المولى إســماعيل كــان مخيــما في بعض أسفــاره بالمحل الذي موقــعهــا به، فجــاء الطلق لبعض حظاياه ثَمَّ فــولدت المولى المستضيء، وأقام السلطان هنالك مدة نفاسها، وفي ذلك الوقت أمر ببناء القصبة، كذا تلقيته من غير واحد من ذوي السن العالية.

وأما قصبة بوفكران، فإضافتهــا للوادى الشهير الداخل للمدينة يسكنها اليوم فريق من الأشــراف العلويين، تقع فى جهة الشمــال من المدينة على مسافة ثــمانية عشر كيلو مترا، وبمقربة منها قصبة المنزه يسكنها مثل سابقتها فريق من العلويين.

ومنهــا أنه لَمّــا تملك أرض حــمرية التــى كانت تســمى قــبل بأبي حــفص بالمعاوضة الشرعية مع مالكها حسبما وقفت عليه فى نسخة مسجلة ثابتة نص ظهير تقديم النائب فى عقدها بعد الافتتاح:

من عبــد الله تعالى أميــر المؤمنين، المتوكل على رب العــالمين، المجاهد فى سبــيله ناصر الدين مــولانا إسماعــيل بن مولانا الشريف الحــسنى، ونص الطابع: اليمن والإقبال اليــمن والإقبال اليمن والإقبال إسماعــيل بن الشريــف الحسنى رعاه الله، أيد الله تعــالى بعزيز نصره أوامــره، وظفر عســاكره، وخلد فى الصــالحات

مآثره، وأسعد بمنه موارده ومصادره، آمين آمين، قدمنا بحول الله وقوته خديم جانبنا العالى، والنجد الذى أحرز من اشتراط النباهة والنجابة المقدم والتالى، القائد الأوجه، الأثير الأنبه، الأحفل الأرضى، الحازم الأحظى، القائد علي بن يعقوب اليوسفى المكناسى دارا، وصل الله أنجاده وأحرس على المسالك الحميدة والمساعى الجميلة إصداره وإيراده، لحيازة الأراضى التى لنا بحوز حضرتنا العالية بالله مكناسة وبيان حدودها وتعيينها وإخراجها من يد من كانت وعلى عقد المعاوضة فيما يظهر له منها بغيرها التى هى على ملك أناس المتصلة بأراضينا المجاورة لحضرتنا المذكورة، وعلى الصلاح فى ذلك والسداد تقديما أمضاه بعلائه وكساه رائق هلاله، لعلمنا بأنه أهل لما إليه قدمناه، وأحق بما أسديناه إليه وأوليناه، والله يصل توفيقه، ويجعل السداد والنجح رفيقه، بمنه والسلام وفى يوم الأحد رابع وعشرين المحرم الحرام فاتح سنة ثلاث وتسعين وألف عرفنا الله خيره وبركاته. اهـ.

ونص المعاوضة: الحمد لله انعقدت المعاوضة ببركة الله تعالى بين الشريف الأوجه الخير الأنزه الأحظى الأنقى السيد محمد دعي بسيدي حمّ بن إدريس بن وحود الحسنى المنونى، وبين القائد الحاج علي بن يعقوب المذكور أعلاه النائب عمن ذكر أعلاه بحكم ما ذكر أعلاه فى جميع الأرض المعروفة بأبى حفص المشتملة على سقى وبعل، التى على ملك الشريف المذكور الكائنة خارج باب القورجة، أحد أبواب مدينة مكناس، يحدها سهب الطبال والطريق المرور عليها لفاس، وتتصل بساقية خنفر وبطريق عين الشلوقى، وفى جميع الأرض التى للجانب العلى البعل الكائنة ببراكة خارج باب البراذعيين من المدينة المذكورة، يحدها الأرض المعروفة ليوسف النحال قبلة ومقطع الريح غربا، ويحدها أرض سيدى علي بن قاسم الشريف المنونى من الجهتين، والطريق الآتية من قبور الطوال وتتصل بأرض عزوز التى على ملك الشريف المذكور أولا، وذلك بأن أخرج

الشريف المذكور نفس ملكيته عن أرض أبى حفص التى كانت له عوضا عن أرض براكة التى صارت له بسبب المعاوضة المذكورة، كما أخرج القائد المذكور نفس ملكية المنوب عنه عن أرض براكة، التى صارت للشريف عوضا عن الأرض التى صارت للجانب العالى المعروفة بأبى حفص المشتملة على سقي وبعل، معاوضة صحيحة تامة بتلة بتة على سنة المسلمين فى معاوضتهم، ومرجع دركهم، وتملك كل واحد ما صار له عوضا عما صار عنه تملكا تاما على السنة فى ذلك، والمرجع بالدرك بعد النظر والتقليب والرضا صحيحا كما يجب من ناب عن نفسه فعن نفسه ومن ناب عن غيره فعنه عرفا قدره، شهد به عليهما بحال كمال الإشهاد وعرفهما أواخر القعدة من عام ستة وتسعين وألف الحق فيه والطريق الآتية من قبور الطوال صح به شهد عليهما بما ذكر أواخر صفر اثنين ومائة وألف، أحمد بن محمد لطف الله به وعبد السلام بن محمد. اهـ.

غرسها[1] كلها بأشجار الزيتون حتى تمت فيها مائة ألف شجرة من الزيتون ثم حبسها على الحرمين الشريفين، ثم لما توالى على مكناس ما توالى بعده رحمه الله من الهرج والمرج، وشبت نيران الفتن بين أولاده، وتمكن عيث العبيد على البلاد والعباد ومد الفساد والخراب فى الأرض أطنابه، كان مما امتدت إليه اليد بالحرق والقطع هذه الغاية، حتى تلفت من شجرها كمية ذات بال، ولما تمهدت البلاد، وانقادت العباد لسيدى محمد بن عبد الله واستتب الأمن وخضعت له الرقاب وانكسرت راية أهل الزيغ والفساد، قام على ساق من رتق ما انتجته تلك الفتن من الفتق، فكان من جملة ما تلافاه بهمته الفعالة إحياء ما اندثر من تلك الأشجار، بإعادة غرس ما قلع وحرق منها حتى رجعت لشبابها، ثم بعد ذلك فصل التحبيس، فجعل النصف حبسا على الحرمين الشريفين تختص المدينة المنورة على منورها أفضل الصلاة وأزكى التسليم بالثلثين، ومكة المشرفة بالثلث،

(١) جواب قوله: لما تملك... إلخ، المتقدم.

والنصف الآخر للمسجد الأعظم بمكناس يخرج منه كل سنة نحو الخمسمائة فرنك، يوجه منها خمسة وثلاثون فرنكا ونصف الفرنك تقريبا لجد العائلة المالكة مولانا علي الشريف دفين سجلماسة، تصرف فى مهمات الروضة والطلبة الذين يقرءون الحزب ودلائل الخيرات، والمؤذنين وقيم الروضة وطعام ليلة المولد النبوى، ومنها ثلاثة عشر فرنكا تقريبا توزع على الطلبة الموظفين لقراءة الحزب والصلاة على النبى ﷺ على قبر والدة المحبس الثانى وأعمامه بروضة أبى زكرياء الصبان نفع الله به، وقد كان لهذا القدر التافه الآن إذ ذاك شأن وبال، كما يخرج من النصف المذكور كل يوم رطل زيتا لضريح سيدى أبى يعزى ورطل لضريح مولانا إدريس الأزهر بانى فاس رضى الله عنهم جميعا وعنا بهم آمين.

ومنها أى الآثار الإسماعيلية جر الماء من بوفكران لزيتون حمرية فى ساقية وسط جدار ضخم لازالت بقاياه جهة باب القرمود وسيدى الشريف الوافى لهذا العهد.

ومنها بناؤه الجدار المحيط بغاية حمرية، ولا زال بعضه قائما إلى الآن.

ومنها جر ساقية لجنان العريفة طوطو ببنى موسى فى جدار عميق إلى أن يمر ماؤها فوق أقواس باب ثلاثة فحول التى هد منها قوس فى هذا التاريخ، والعريفة طوطو هذه هى: بنت بوشتى السفيانى، كانت عريفة للمولى إسماعيل وخلفت أولاداً منهم: القائد قاسم المجاهد، والحاج سليمان، وهنية المدعوة بالنسيم والتومية، وقد كان المولى زين العابدين بن المولى إسماعيل تزوج بالنسيم المذكورة فولدت له الشاد بالله، ومليكة وخلفت العريفة المذكورة أموالاً طائلة من العقار وغيره بمكناسة وغيرها.

ومن تأسيسات المولى إسماعيل ومآثره الخالدة التالدة الضريح الإدريسى الأفخر، والمشهد العلوى الأنور، الواقع بزاوية جبل زرهون التى قال غير واحد من أئمة الدين، حملة شريعة سيد الأولين والآخرين، بتفضيلها على سائر الأقطار

المغربية، لضمها جسد هذه البضعة الطرية، وكان تأسيسه لذلك المشهد الفاخر، الزهي الزاهر، سنة عشر ومائة وألف.

ويدل لذلك ما هو منقوش فى الرخامة الأولى المثبتة فى الجدار المواجه للداخل من باب قبة الضريح الإدريسى زاده الله بهاء ونورا ودونك لفظه:

هذه روضة بها خير هاد ... بضعة المصطفى وعين الرشاد

ملك طهر الإله به الغر ... ب من الشرك والشقا والعناد

واستقامت له الحشود وقد كا ... نت زمانا بالغى فى كل واد

فإذا ما نسبته فرسول الل ... ـه فى القرب رابع الأجداد

وتأدب فأنت ما بين صوم ... وصلاة وسنة وجهاد

وتلطف فأنت ضيف إمام ... فى حماه علاج كل فؤاد

خصه خالق الخلائق بالفضـ ... ـل وأحيا به أقاصى البلاد

فسل الله ما تشاء من الفض ... ـل فليس لفضله من نفاد

وتوسل بالمولى إدريس واقصد ... فى علاه بلوغ كل مراد

وابتهل للإله فى نصر مولى ... شأنه السعى فى صلاح العباد

شاد هذا المقام والفعل منه ... خالص لكريمه الجواد

عام ألف ومية بعد عشر ... من سنين السرور والإسعاد

وهذا تاريخ بناء نفس الضريح، وأما باب حفاته المقابل للباب المعروف هناك بباب المعراض، فكان تمامه فى السنة التى بعد التاريخ المذكور اتصالا كما يدل له المنقوش فى الزليج أعلى باب الحفاة المذكور ولفظه:

هذا مــقــام الحــسـنى الذى		وصــل أهــل الــلـه مــن بــابــه
أنشــأه السلطان مـحـتـسـبـا		لله فــى مــوصــول أســبــابه
علـى يد الـكاتـب فى (ايـقش)		ناظـر الأحــبــاش فــى آلائه
بشــرى لمــن قــد جــاءه زائرا		ومــرغ الخــد فى أعــتــابه(١)

اهـ.

على ما فـى البيت الثالـث مما لا يجوز فى الصناعـة الشعرية وعـلى ما فى البـيت الرابع من المبالغـة الشعـرية التى لا ينبـغى الاغتـرار بها، إذ لا يجـوز فى الشريعة الإسلامية تمريغ الخدود بالأعتاب كيفما كانت، وقد عده ابن حجر الهيثمى بل وما هو أدنى منه من الكبائر، هذا إن لم يقصد به العبادة وإلا فهو كفر كما فى غير ما ديوان.

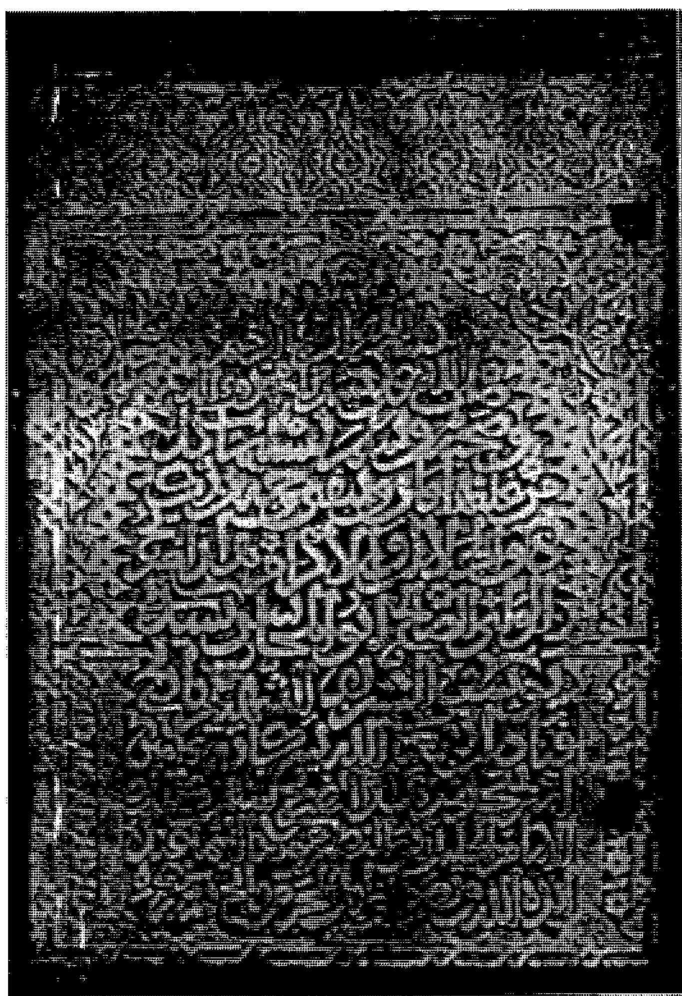
وقد ذكر الـسيخ زروق فى «قواعده» أن الزيادة لا تجـوز إذا كان هناك منكر من تقبيل جدرات القبر وغيـرها، فكيف بالتمريغ، والتاريخ المذكور هو المشار إليه بلفظ أيقش، اهـ.

قلت: انظر هذا مع ما وقـع لصاحب البسـتان وغيره مـن أن البناء كان سنة اثنين وثلاثين ومائة وألف، وتيقن أن الحق ما نقلناه، وبالدليل القاطع أيدناه.

وما هو منقـوش فى خشب ببـاب المدرسة المعـدة لسكنى الطلبة المهـاجرين لقراءة العلم والقرآن الكريم المقابلة لباب الحـفاة المذكور، ولفظه: النصر والتمكين، والفتح المبين، لمولانا إسماعيل أميـر المؤمنين، لكن هذه الخشبة يجوز أن تكون من أنقاض الدار الإسـماعيلـية الكبرى التى جلبـها سيـدى محمـد بن عبـد الله مثل رخامتى خدى باب القبة كما يأتى.

وما هو منقوش فى خشب مظل باب المسجد الإدريسى المتصل هو أى الباب

(١) بعض الأبيات غير سليم ونبه المصنف على ذلك عقب ذكرها.



رخامة ضريح أبي القناديل سيدي يوسف الشريف

بالجدار الشرقى من المدرسة المذكورة ولفظه: النصر والتمكين، والفتح المبين، لمولانا إسماعيل أمير المؤمنين، فإن قلت المسجد المذكور قديم ليس لمولانا إسماعيل فيه غير يد التجديد والتنميق. قال الحلبى فى الدر النفيس: أما المسجد الجامع الذى حذاء الروضة فقديم والله أعلم؛ أنه من عهد مولانا إدريس فيما يظهر ولم أقف على خبر أمره، ولكن فهمت ذلك بالعرف المألوف أن المسجد بنى بقرب قبره المبارك كما يفعل بقبور الصالحين وقيل إنه محدث. اهـ.

قلت: يمكن أن البناء الحالى هو بناء للمولى إسماعيل أحدثه بعد زمن تأليف الحلبى وعليه فلا مخالفة وقوله وقيل: إنه محدث يعنى أحدثه غير المولى إسماعيل لأن الحلبى كان فى زمانه وألف تأليفه المذكور قبل بناء المولى إسماعيل لهذا الضريح، وكان فراغه من تأليف الدر النفيس يوم الأربعاء العشرين من ربيع الثانى سنة ثمان وتسعين وألف.

ثم بعد كتبى هذا وقفت فى الدر المنتخب على ما لفظه: ثم بنى جامع الخطبة الكبير المتصل بمولانا إدريس بزرهون وهذا لا شك فيه ولا ترديد، ورتب رواتبها، وجعل لها ما هو معلوم للمساجد العظام، واشترى بذلك فضلا يبقى على التأبيد، يعم الأهل والآباء والوليد، إذ ذاك من الأعمال التى لا تنقطع بالمنية، وتبلغ فاعلها فى الدارين غاية الأمنية، ثم بنى المنار وشيده ورتب فيه المؤذنين ووقت لهم الأوقات، وعلم القائم بذلك ما يحتاج إليه فى سائر الحالات، ونصب لهم ما يحتاجون إليه من الآلات، ثم بنى المدرسة المتصلة بما ذكر على الشكل الذى هو الآن معروف، ورتب فيها طلبة للقراءة على الأمر المألوف، ثم بنى دار الوضوء وجلب إليها الماء وأحسن فى ذلك وأتقنها، وبنى دوراً ومكاتب ومواضع عديدة لنزول الزوار والضعفاء والأضياف وأعلنها، ثم بنى المساجد والمكاتب لتعليم الصبيان، ووقف على ذلك أوقافا عالية الأثمان، وبين لمن يقوم بكل وظيف ما له

من الأوقاف المختصة به وما يشترك فيه اثنان، ثم بنى الحوانيت والفندق والحمام والسقايات، وأجرى الماء فى سائر النواحى والجهات، وبنى قبة سيدى راشد المتقدم ذكره، وبنى حول ذلك بناءات ثم أدار البناء على الجميع ليطمئن الزائر والساكن ولا يخشى العاهات، وبنى قنطرة الوادى وقنطرة أخرى بناحية قصر فرعون وسهل الطرقات، وأمر ببناء الدور فى المواضع المرتفعات، وذلك كله على يد خادمه الباشا ابن الأشقر، وبعض كتابه ومن له الأمر.

وعند ذلك رغب الناس فى سكنى زَرْهُون، وصار منازل الأشراف وأهل الفضل والدين، وإن كان قديما هو مأوى الصالحين، ومحل إجابة السائلين وملجأ الراغبين، لكن كان غير مقصود للسكنى، وبوجود مولانا إسماعيل صار يغبط السكنى فيه الناس، وتقصده القبائل والرؤساء من سائر القبائل والأجناس.

وحين تم بناؤه على الوجه الذى أراده السلطان، وزاره ورأى ذلك بالعيان، ورأى عمارته واغتباط الناس فى البنيان، سجد لله شكرا، وحمد الله على عادته سرا وجهرا. اهـ.

وإنما تعرضنا هنا لذكر هذا الضريح الأعظم فى جملة تأسيسات مولانا الجد مولانا إسماعيل بعاصمته المكناسة لأن متبوعنا الإمام ابن غازى تعرض لذكر صاحبه ولذكر عاصمة ملكه التى كانت حاضرة البلاد مدينة وليلى ولكون المحل من جملة الأحواز المكناسية، وهذا هو ملحظ ما نأتى به بعد إن شاء الله مما يتعلق بزرهون وأهله.

وأما باقى بناءاته فى غير مكناسة فقد أتينا على جملة صالحة منها فى كتابنا المنزع اللطيف مفصلة وما أشرنا إليه من التأسيسات المتقدمة من هذا الإمام فى العاصمة المكناسية، فإنما هو قُلٌّ من كُثْر، إذ لا نسبة لما انهد منها واندثر أثره مع ما بقى منها مما مر بك.

قال أبو القاسم الزيانى: ومن يوم مات المولى إسماعيل والملوك من بنيه وحفدته يخربون تلك القصور على قدر جهدهم وما أكملوا نصفها مدة من نحو مائة سنة. اهـ.

قلت: ولا زالت يد التخريب عاملة إلى الحين الحالى فى تلك الحصون والأسوار الهائلة.

ولضخامة الآثار الإسماعيلية وانتشارها فى سائر الأقطار المغربية، توهم بعض الجاهلين أن ذلك فوق مقدور البشر وأنه من عمل الجان، وليس الأمر كما توهم أولئك الأغبياء، وإنما بناءات مولانا إسماعيل الهائلة أثر من آثار على همته، ووافر ثروته، وعظم دولته، ونفوذ كلمته، وكمال اقتداره، وحزمه وصرامته، فى سائر أطواره، ولذلك أزرت مبانيه بما بناه الفراعنة والأكاسرة حتى قال بعض حذاق الشعراء:

لقد بنت الملوك بناء فخر ... به ذكرت على مر الدهور
وأبنية الإمام أبى الفداء ... سليل المصطفى الليث الهصور
أتم ضخامة وأجل قدرا ... وأجمل منظراً أبهى قصور
وفى كل البلاد له حصون ... لتأمين المسافر فى المرور
ولو قيست مبانيه بما قد ... بناه من تقدم فى عصور
لكان لها اعتزاز وافتخار ... ببهجة حسنها وبنا الأمير
فدونك فاستمع قولى مصيخا ... فإن مقالتى ليست بزور
وفى مكناسة الغرا دليل ... كمثل الشمس فى صفة الظهور
فرحمة ربنا عدد الرمال ... على ملك تسامى عن نظير

وقال الوزير ابن إدريس:

قال للذين استعظموا من جهلهم ... إيوان كسرى أو بنا الأهرام
لم يبن ملك قد تقدم ما بنى ... مولاى إسماعيل فى الإسلام

وقال صديقنا المؤرخ النقاد أبو عبد الله محمد بوجندار الرباطى مساجلا صديقنا الفقيه الأديب الكامل أبا عبد الله محمد بن اليمنى الناصرى وكان ابتداؤها من الأول إذ قال:

مآثر إسماعيل أسمى المآثر ... ففاخر بما شاهدت منها وكاثر
ونزه جفونا فى محاسن صنعها ... تجد مفخرا يسمو جميع المفاخر
مفاخر إلا أنهن بدائع ... بدائع إلا أنها صنع ماهر
مصانع إلا أنهن نواصع ... نواصع إلا أنها كالزواهر
فعج بى رعاك الله نحو ضريح من ... غدت عن مزايا ملكه خير سافر
مزايا غدت علوية علوية ... علت بمليك كامل الفضل وافر

وقول الوزير ابن إدريس لم يبن ملك. . .إلخ، إشارة إلى تعضيد قول مؤرخ الدولة العلوية أبى القاسم الزيانى إن مبانى المولى إسماعيل بقلعة مكناسة وقصوره ومساجده ومدارسه وبساتينه شيء تذهل عند مشاهدته العقول، وتعجز عنه قدر الدول القديمة والحادثة، قال: ولا تلحق ضخامة مبانيه ما بنى كسرى فى المدائن، ولا الفراعنة فى مصر، ولا الروم برومة والقسطنطينية، ولا اليونان بأنطاكية والإسكندرية، ولا العماليق بالشام، ولا ما بناه بنو أمية ولا بنو العباس ولا العبيديون ولا المرابطون ولا الموحدون، ولا بنو مرين، ولا السعديون، قال: ولقد شاهدت الكثير من آثار الدول المذكورة فما رأيت أثرا أعظم من آثاره وأضخم من

بنائه، وأكثر من قصوره لأن من بنى من هذه الدول إنما يعتنى بتشييد قصر وتنميقه، والمولى إسماعيل لم يقتصر على قصر ولا على عشرة ولا على عشرين، بل جعل مبانى الدول كلها فى بطن قلعته بمكناسة كما يقال: كل الصيد فى جوف الفرا. اهـ.

وقد تابع الزيانى على مقاله هذا من نسج على منواله كصاحبى «الجيش العرمرم» و«الاستقصاء» وعليه جرى الوزير ابن إدريس كما رأيته.

وأما تعقب بعض فضلاء العصر وهو الشيخ محمد فريد وجدى ما فى الاستقصاء بقوله نقول فى هذا الكلام غلو عظيم لا يصحّ أن يصدر من مؤرخ على أنه يَدُلُّ فى الجملة على ما كان لهذا السطان من المبانى العظيمة. اهـ. فغير سديد لأن الغلو مدفوع بما بينه الزيانى من اقتصار كل دولة على تشييد بناء عظيم خاص، والمولى إسماعيل شيد فى بناءاته الضخمة الهائلة ما يوازى بناء كل دولة، وجمع ذلك فى قلعته فصارت قلعته جامعة لا يماثل ما شيدته الدول كلها، وهذا شيء انفرد به دونهم فاستحق بذلك تفضيل جملة مشيداته على ما شيده كل فرد منهم، إذ لم يتفق لفرد من تلك الدول من كثير المبانى الضخمة الممثلة لسائر مبانى من عداه من الدول ما اتفق للمولى إسماعيل، فأين الغلو فى ذلك حينئذ! وأين ادعاء أن ذلك لا يصدر من مؤرخ! كيف وقد صدر عن مؤرخين كما رأيت وأولهم الزيانى، ما أعلن بذلك حتى أخبر بمشاهدته لمبانى الفريقين فريق الدولة الإسماعيلية وفريق من عداها من الدول المتقدمة عليها فى أقطار المعمور، وجناب الشيخ الفاضل المعترض ليس معه إلا تحكيم الاستبعاد، الخالى عما يدعمه من وجوه الاستناد، وذلك هو منشأ الفساد، على أنه سيوافيك فى ترجمة المولى إسماعيل من مشيداته فى الأقطار المغربية الخارجة عن مكناسة ما يزيح عنك كل تشكيك وشبهة.

هذا والذى حدانا لشرح نقض ذلك الانتقاد، زيادة المنتقد قوله لا يصدر عن مؤرخ المعنونة بأن الغلو المنتقد به غير مقبول، لخروجه عن مناهج المعقول، أما لو طوى بساط تلك الزيادة المفسدة واقتصر على مجرد التنبيه على الغلو لقبلناه، وحملناه على الفرد المقبول عند سماسرة الفن ولم يعبأوا بمن خالفهم فأباه، وقلنا حينئذ بمجالات المديح التى لا غنى للمؤرخ عنها هى معدن ذلك ومأواه.

(تنبيه) علم مما سبق اهتمام المولى إسماعيل وغيره ممن تقدمه من ملوك المغرب بتشييد المساجد العظيمة والمدارس البهية والمشاهد العلية وتجديدهم لما وهى من ذلك تجديداً أرفع مما كان، لكن مع التجافى فى الجملة عن الإسراف وعدم التجاوز عن حدود الإمكان.

وعليه فما وقع فى رحلة الزيانى بعد بيان فخامة مسجد السلطان حسن بمصر من قوله: فرحم الله أفاضل الملوك الذين درجوا، والذين من خلفهم على مناهجهم نهجوا، لقد خلدوا من المآثر الدينية ما أوجب خلود الثناء عليهم ووصول الدعاء ممن بعدهم إليهم، ولم يزل أهل المشرق إلى الآن لهم فضل اعتناء ببناء المساجد والخانات، ويبالغون فى تعظيمها ويتنافسون فى ذلك ويبادرون إلى إصلاح ما وهى منها.

وأما مغربنا فلا تكاد ترى فى مدنه مسجداً عظيما قد أحدث بل مهدوما قد جدد، أو واهيًا قد أصلح، بل إن سقط شيء من أكبر مساجدهم فأحسن أحوالهم فيه إن كان مبنيا برخام أن يعاد بجص وآجر، وإن كان مجصصا أن يعاد بطين، بحيث تجد المسجد كأنه مرقعة فقير من كل لون رقعة، وما أرى سبب ما لمغربنا من الوهن إلا أمثال هذا من عدم تعظيم الله ولو فى الأمور الظاهرة، فضلا عن الباطنة، ولم يعتن بإقامة معالم الدين إلا أمير المؤمنين سيدنا محمد بن عبد الله فقد شيد بمدنه مساجد ومدارس ورباطات، واقتفى آثاره فى ذلك سلطاننا مولانا سليمان فى تشييد معالم الدين بكل مدينة. اهـ.

قلت: هذا مخالف للحقيقة، وبعيد عن سوى الطريقة، أما تأنق أهل المشرق فى بناء المساجد فى ينكر، وأما مبالغتهم فى تعظيمها فإن عنى بتأنق البناء فهو ما تقدم وإن عنى تعظيم الحرمات الشرعية فيها الذى نسب ضده لأهل المغرب فهو من مجازفاته المعهودة منه رحمه الله، فإن المقرر والمعهود عند الثقات وأفاضل الرحالين عكسه، وقد قدمنا فى الكلام على البربر وأهل المغرب كلام الشيخ زروق فى قواعده «الناص» على أن الغيرة الدينية عزيزة فى المشرق ولا توجد إلا فى أهل الخصوصية من أهله.

وقد نبه أبو سالم العياشى فى «رحلته» على ما يعضد ذلك من تهاون المشرقيين بحرمات المساجد، وإذا لم تكن حرمات المساجد قائمة وبأنواع التعبدات التى بنيت لها آهلة، فأى ثمرة للمبالغة فى تزويقها وتنميقها! هذا لو كان ذلك التزويق مأذونا فيه شرعا، فكيف وقد أباه الكثير من السلف، وكراهته هى مشهور مذهب أهل المغرب وهو مذهب مالك.

وفى صحيح البخارى أن سيدنا عمر بن الخطاب أمر ببناء المسجد وقال: أَكِنَّ الناس من المطر وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس. وقال أنس: يتباهون بها ثم لا يعمرونها إلا قليلا، وقال ابن عباس: لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى كنائسهم.

قال القسطلانى: فيه كراهة زخرفة المساجد لاشتغال قلب المصلى بذلك أو لصرف المال فى غير وجهه. اهـ.

وقال الخطيب ابن مرزوق فى «شرح العمدة»: وقعت المسألة بمجلس أمير المؤمنين أبى الحسن المرينى فى المسجد الجامع الذى أنشأه بظاهر تلمسان بضريح سيدى أبى مدين، إذ زوقت قبلته وذهبت، فأفتى أبو زيد وأبو موسى ابنا الإمام ومن حضر من أئمة المغرب بزواله وأبيت لهم ذلك، قال: والحق منعه ابتداء وأما

بعد عمله فلا أرى أن يزال، وقد أمر أمير المؤمنين بإزالة ما قرب من المصلى من ذلك، قال: وهذه المسألة مما عمت به البلوى، لا سيما فى بلاد المشرق، انظر المعيار فانظر قوله: مما عمت به البلوى لا سيما فى بلاد المشرق، فهو ضد ما جارف به الزيانى من مدح أهل المشرق به، ثم استثناؤه خصوص سيدى محمد بن عبد الله ومولاى سليمان يدل على أنه قصد المولى إسماعيل فى الدخول فى الذم الذى ذكره، وربما كان هو المقصود عنده به، وأنت ترى مما تقدم كثرة ما شيده من المعاهد الدينية فى خصوص مكناس وفى ترجمته المنزع اللطيف بعض ما شيده فى غيره والله المرشد بفضله.

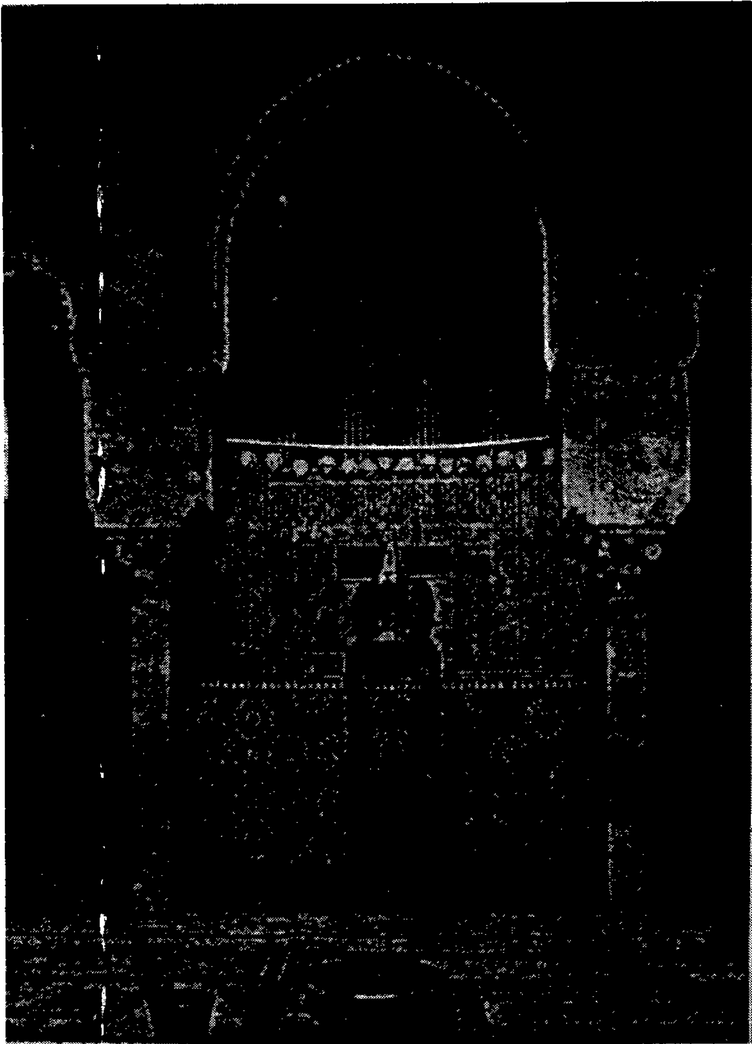
هذا وقول ابن مرزوق وأما بعد عمله فلا أرى أن يزال لا وجه له حيث إنه ممنوع ابتداء، والعلة هى شغل المصلى كما هو فى كلام عمر، فالواجب هو زوال ذلك الشاغل والإقلاع عن ذلك المنهى عنه فالحق مع ابنى الإمام لا يقال فى زواله إضاعة المال بلا فائدة، لأنا نقول وفى بقائه ضياع المال مع مفسدة شغل المصلى ودوام ارتكاب المنهى عنه.

وإذ قد أتينا على ما بلغه علمنا وما شاهدناه مما أسسه المولى إسماعيل من عظيم المبانى والغروس بعاصمته مكناسة الزيتون فلنعطف للتنبيه على ما أسسه فيها أيضا الملوك من بنيه وحفدته وعائلتهم الكريمة فنقول:

من تأسيسات السلطان الأصيل العريق المجد والفخار مولانا أحمد الملقب الذهبى بمكناسة ضريح والده الإمام الجليل، أمير المؤمنين مولانا إسماعيل، ذلك الضريح الذى أصبح فى باب الإتقان آية، البالغ فى التنميق والتنسيق الغاية، ذلك الضريح المحكم الصنع، العجيب الوضع، المنتظم من قبة لا نظير لها فى الأقطار المغربية بل ولا الشرقية فيما أعلم، يقال إنه اخترع بناءها على الشكل والهيئة التى كان عليها افراج والده صاحب الضريح المذكور الذى كان معدا لديه فى حركاته



باب قبة ضريح السلطان مولاي إسماعيل



دويرية الشريح الإسماعيلي ومحرابها

لدى أسفاره وتجـولاته فى إيالته لتوطيـد الأمن، وكسر صولة المتمـردين، وبخدى باب هذه القبة الزكية البـهية لوحتان رخاما بديعتـان منقوشتان أبدع نقش وأعلاه، طول كل واحدة مترا وسبع وستون سنتيما وعرضها خمس وتسعون سنتيما منقوش فى أعلى التى عن يمين الداخل ما لفظه:

باب ضريح إمام الغرب ذا فبه   بدر الهناء ونجم الدبن قد غابا

وبأعلى التى على اليسار ما لفظه:

فافسح له يا عظـيم المن منــزلة   فى الخلد وافتح إلى الغفران أبوابا

وبراح أمام هذه القبة طوله عشرة أمتـار وعرضه كذلك محيط بمباحات أربع محمـولة على اثنى عشر أسطوانة من بديع المرمـر، وبوسطه خصة مرمريـة لطيفة الشكل، وبهذا البـراح أيضا قبة فى الجهـة الجنوبية تقابل قبة الـضريح تعرف باسم الخراجة لكون الإمام أبى النصر مولانا إسماعيل كان يخرج منها من داره العلية إلى المسجد الذى وصـفنا تهدمه الكائن الآن داخل الباب الأول للضريح الإسـماعيلى، وهو الذى كان يؤدى فيه الصلوات الخمس كما أشـرنا لترشيحه ،مابقًا، وحذو هذه الخراجة قوس صغير بمثابة بيت القنادل بالجانب الغربى منها، وبإزائه بهو يقابله فى الجانب الشرقى محراب الصلاة وتحيط بجدرات الضريح والبراح المربع أمامها منطقة من الزليج المرصع أبدع ترصيع وأتقنه، ينيف ارتفاع تلك المـنطقة على متر وبأعلى منطقـة زليج قبة الضـريح قصـيدة رائقة منـقوشة فى زليج أسـود بخط بديع رائق محـيط بدائرة القبة، شاهدة بأن مـولانا أحمد المذكـور هو البانى والمؤسس لذلك المشهد الحفـيل الفائق، بيد أنه ضاع أول تلك القصيـدة وآخرها، ووقع اختلال فى أواسطها ودونك لفظ ما هو موجود منها الآن مع إصلاح يسير فعلى يمين الداخل:

فتح المدائن والحصون بجنده   وجهاده وحسامه البتار
نشر العطا غفر الخطا ستر الغطا   أغضى الحيا من حلمه الستار
مد الأمان على الأنام بظله   وشقى الحيا من كفه المدرار
قل للمفاخر لا تفاخر واعترف   لكماله بالعجز والإقصار
ماذا تقول لفضل آل محمد   وهم الغياث لكل خطب طارى
وهم الكرام إذا حللت بجاههم   وهم الأمان لأرضهم والجار
وهم هم من أمهم وأبوهم   متوسلين بجاههم للبارى
من ذا يعد على فضلا فى الورى   وأنا طويت المجد تحت جدار
فلى الفخار على المبانى كلها   آثاره تنبيك عن أخبار
قد شادنى البانى ولله ما بنى   وأطال فى سمك السماء منار
وأنالنى شرفا وفخرا باذخا   وبالانتساب له علا مقدار
خير الملوك من البرية كلها   الذهبى أحمد نخبة الأخيار
غيث البلاد إذا البلاد قد أمحلت   غوث الأنام لكل هول عار
جبر الإله به الأنام وصدعها   وكَسَابِهِ فى الفضل من هو عار
ورث الخلافة عن أبيه وإنه   أهل لها من سائر الأنظار
عقلا ودينا سؤددا وشجاعة   حزما وعزما دائم الأمطار
يغنى إذا أعطى وإن هو قد سطا   فتخاف فتكته أسود الضارى
ما مات والده المخلف مثله   فكأنه ما غاب عن أبصار
حسب على حسب تكامل مجده   وكذا ذوو الأحساب والأقدار

أبقــاك مــولانا لنـصــرة دينه ظلا ظليــلا فى سـمــا الأمـصــار

تغـــشـاك ألطاف الإله ونـصـره يتلـو عليك مــعــالى الإظهـــار

وسواك مـفضول وقـدرك فاضل وعـلاك فـوق الـكل فى الأسطار

مـا رام شأوك فى العُـلا مسـابق إلا وكنت أبـا السنا المـضــمــار

فعلى ضـريح أبيك رضوان الإلـ ـه وألف ألف ســلامـــه المعطار

وسـقاه مـولانا شـآبيب الرضـا تغـــشــاه بالآصـــال والأبكار

فى عـام (لبــاشـوق) داع إلهـه قــد صـار فى كــرم مع الأبرار

وقول البيت الثـانى: ستر الغطا معناه إمـا ستر السوء من قـولهم فعل به ما غطاه أى ساءه كمال فى المحكم، وإما ستر الكثير من قولهم ماء غاط أى كثير كما فى تاج العروس، أو ضمن ستر الغطا انسـداله إن لم يكن الأصل سدل فتصحف على الكاتب وهذا الاحتمال أظهر وقع تصحيف أو لم يقع، وقول السابع وهم هم من أمهم وأبوهم يقرأ من يكسر الميم فى قوله من أمـهم ويكون قوله وأبوهم مبتدأ خبره محذوف أى كذلك، وعلى يسار الداخل منها ما لفظه:

تاج الملوك إمـامـهم وضـيـاؤهم سـبط الرسـول ونبعـة المختـار

مولاى إسـمـاعـيل خيـر بيوتـهـا نجل الشـريف وطـلعـة الأسـرار

بيت المكـارم والسـيـــادة والندى قطب الجـلالة مـــعـدن الإكـبـار

ورث المجـادة كـابـرا عن كـابر والمجـــد مـــجـــدهم بـلا إنكار

قـــد طالمـا عــبـــد الإله بلـيله ونهـــاره وسطـا على الفـــجـــار

جبر الـكسير وكم أسيـر قد فدى بنفـــائس الأمــوال والأحـــجـــار

وبنى المسـاجـد والمدارس طائعـا مـــتـواضـــعــا لمليكه الجــبـــار

كم عفر الوجه الكريم على الثرى بســجـــوده شكرا بلا اسـتـكبـار

انتهى.

تبرج أعلى سطح هذه القبة بزينة حلة قرموده المزدرى بالزبرجد فى الاخضرار، تعلو تلك الحلة السندسية طاسات خمس من صفر مموهة بخالص الإبريز منتظمة فى قضيب من حديد سفلاها هى أكبرها والتى تليها دونها فى الكبر وهكذا، وعلى رأس ذلك القضيب لوح حديد لطيف مغشى بورقة من خالص الذهب يعرف ذلك اللوح باسم الخلالة منقوش فى إحدى جهتيها ما لفظه:

هذه رتب الكمال تبدت ولواء النبى خير البرية

وفى الجهة الأخرى ما لفظه:

فالتمس من شذاه أطيب نشر واغتنم طيبه بحسن الطوية

كان يعتقد كثير من الناس أن ذلك اللوح كله من خالص الذهب ويزعمون أنه كان لبعض حظايا الجناب الملوكى الإسماعيلى لما لبى مولاى، إسماعيل داعى مولاه وبنى ضريحه على الوصف المذكور أمرت بجعله ثَمَّ، ولم يزل ذلك الاعتقاد ساريا فى الناس حتى اعوج ذلك القضيب الحديدى الذى ركبت فيه تلك الطاسات الصفر وذلك اللوح المغشى بسبب هبوب عواصف الرياح توالت ثلاثة أيام أقلعت الأشجار، وكان ذلك فى ثانى عشر جمادى الأولى عام خمسة وثلاثين وثلاثمائة وألف، فعند ذلك أنزل ذلك القضيب بقصد إصلاحه فكشف الغيب أن اللوح إنما هو من حديد مغشى بالذهب وقد أعيد تمويه ما يحتاج للتمويه من تلك الطاسات لكن جاء التمويه الجديد بالنسبة للقديم بمثابة تشويه، إذ الأول قد مرت عليه قرون والثلوج تتراكم عليه وغزير الأمطار وعواصف الرياح تحمل إليه من الغبار، ما يغطى بهجته ويستر بريقه ولمعانه عن الأبصار، ومع ذلك فلم يؤثر ذلك أدنى تأثير، ويجد بباب الدويرية المذكورة باسم البراح السالفة الوصف زليج مكتوب فى نفس تزديجه ما لفظه:

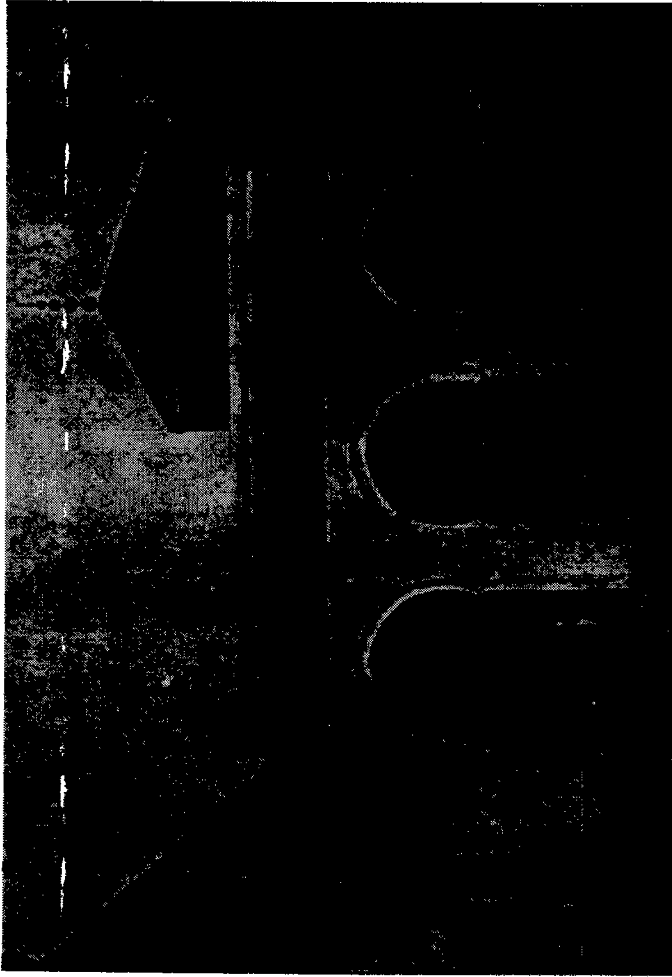
لساكنها السلامة والسعادة بطول الدهر ما غنت حمامه
وعز لايدانيه هوان وإقبال إلى يوم القيامة

وما لفظه أيضا:

ألا إن دخلت القصر فانظر محاسنى وهل أبصرت عيناك مثل هذا الخد
تبارك الله ما أرق شمائلى على من الرحمن عز بلا حد

انتهى.

وقد اختلست فى هذه الأيام الأخيرة زليجتان بهما البيت الأول وهو لسكانها.. إلخ، ويوجد خارج هذه الدويرة صحن فسيح طوله أمتار ثلاثون ونيف وعرضه أربعة عشر مترا به مباحان: أحدهما فى الجهة الشرقية والآخر قبالته بالجانب الغربى، ومزارة يصعد إليها بدرج خمس يشرف منها على قبة الضريح الأقدس على تلك المزارة شباك من حديد مموه بالذهب، وذلك فى الجانب الشرقى، وفى الجانب الشمالى من هذا الصحن قبة بها قبور بعض حرم السلطان المولى إسماعيل وبعض أنجاله وأحفاده تعرف هذه القبة بقبة الحاجبات، وفى قبالتها من الجهة الجنوبية ضريح العارف الكامل السيد عبد الرحمن المعروف بالمجذوب، وبوسط الصحن المشار أمام الضريح المجذوبى بئر حفرته امرأة بمال من صداقها بقرب عام ستة وخمسين وألف كما فى «ابتهاج القلوب» ويأتى فى ترجمة المجذوب بعض ما يتعلق بروضته المذكورة، وبعد الصحن المحدث عنه يوجد صحن آخر طوله يقرب من العشرة أمتار، وعرضه كذلك، بجانبه الشرقى صفة يقال إن بها مدفن الفرس الذى كان يركبه الشيخ المجذوب وحملت عليه جثته لمحل إقباره المشار، ومن هذا الصحن يخرج لمسجد صلاة الخمس المحدث عنه آنفا الذى بابه الأصلى القديم هو المعروف اليوم باسم باب مولاى إسماعيل، فإذا أراد الإنسان زيارة ذلك الضريح الأنور كلما وصل لصحن من الصحون المارة الوصف يصعد فى درج، وهكذا إلى أن يصل قبة الضريح.



صحن البير بالضريح الإسماعيلي

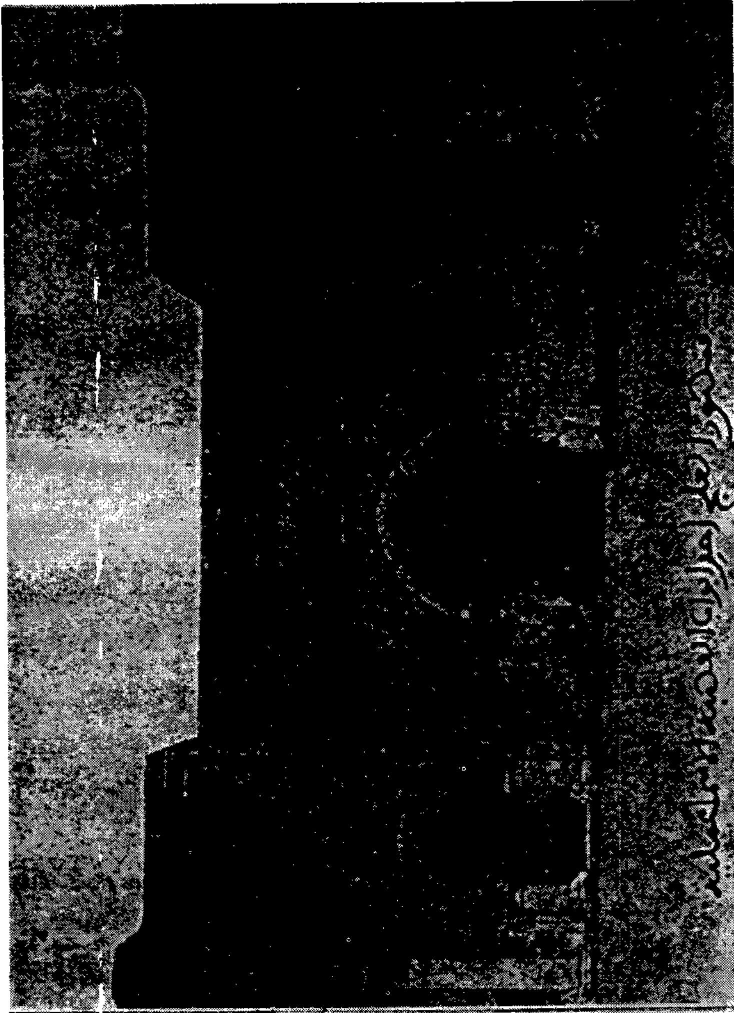
ولأجل هذا العلو وارتفاع بقعة الموقع تتراءى تلك القبة المتبرجة بحلتها الزبرجدية وتاجها المغشى بالذهب من مسافة ليست بالقريبة من سائر نواحى جهات البلد، لا يرى الرائى أعلى منها ولا أروق فى النظر، يغشاها نور نبوى تقر به أعين المحبين، ويكون قذى فى جفون المارقين والملحدين.

ومن تأسيسات السلطان مولانا عبد الله بن مولانا إسماعيل بهذه العاصمة الفاخرة تنميق باب جامع الأنوار الشهير الواسع الأكناف الواقع بين باب زين العابدين أحد أبواب المدينة الآن، وباب منصور العلج، وكان تأسيسه لذلك عام ستة وأربعين ومائة وألف، ويدل لذلك ما هو منقوش في زليج بخط بارع على الباب المذكور ولفظه:

ما للخورنق والبديع كمال	شرفي بمنشئ حلتي وكمالي
مولاي عبد الله من دانت له	شم الأنوف أجلة الأقيال
حسبي من الفخر المخلد أنني	أثر له والسعد في الإقبال
وقتى (مشوق[١١٤٦]) كل نفس ودها	تحظى به موصولة الآمال

وقد قدمنا أن أصل الجامع المذكور بكماله من أعظم منشآت والده المولى إسماعيل وشرحنا القول في ذلك بما له وما عليه فارجع إليه.

ومن تأسيساته أيضا تجديد باب القصبة الإسماعيلية المعروف باسم. باب منصور العلج على الطرز الذي هو عليه الآن على إصلاح للدولة الحامية فيما كان تصدع منه إصلاحا لم يغير ما كانت عليه، وهذا الباب أبت الأقطار المغربية أن تعززه بثان فهو وحيد الحسن بين أترابه، أنشأ تجديده عام أربعة وأربعين ومائة وألف وشاهد ذلك ما هو منقوش في زليج أسود بخط مشرقي بارع في أعلى ذلك الباب ولفظه: الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد الذي لا نبي بعده:



منظر باب منصور العلج أحد أبواب القصبة الإسماعيلية

طلعت مطالع سعدها أبراجى ... وأضاء في فلك الجمال سراجي
وحللت من أوج المعالي صهوة ... تسمو على الصهوات والآراج
بوجود من أحيا الوجود وجوده ... وأناره بسراجه الوهاج
من شاد بالنصر العزيز قواعدي ... وأدار بالفتح المبين رتاجي
بيت النبوءة والجلالة والعلا ... كهف الضعيف وغنية المحتاج
مولاي عبد الله متى أضحى به الـ ... إسلام معقود اللوا والتاج
ملك يطاع محبة ومهابة ... فتجيء في زمر وفي أفواج
في كل صالحة آثار تو ... فيق تنادي باسمه وتناجي
فانظر وقس ما غاب عنك بما ترى ... هذا قياس صادق الإنتاج
هل ورخت مثلي (دمشق[١١٤٤]) أو وشت ... صنعى يد صنعاء في ديباجي
أم خصت الإسكندرية بالذي ... يصفون من عمد ومن أزاج
أم في الملوك نظير مولانا الذي ... هو للعباد كفاية الأماج
فالله يبقيه لرحمة خلقه ... ولغيثها بالصيب الثجاج
والله يبقى دينه بوجوده ... بادي المعالم واضح المنهاج
ونوافل الخيرات تجبى نحوه ... من مغنم وهدية وخراج
وتحية المولى السلام تحفه ... مسكية النفحات والآراج

أشار بحروف لفظة دمشق للتاريخ المشار له. والآماج - بالفتح - جمع أمج بالفتح أيضا وهو الحر والعطش كما في القاموس[١].

---

(١) انظر القاموس (أ م ج).

ومن تأسيسات السلطان الأعظم، والملاذ الأفخم، سيدي محمد بن عبد الله بقلعة مِكْناسَة عاصمة ملك جـده المولى إسماعيل المسجد الأزهر، الرافل في حلل الأبهة والفخـار، ذلك المسجد الحافل الفاخر المعـروف اليوم باسم جامع الأروى، وكان تأسيسـه له عام تسعة وثمانين ومائة وألف، وشـاهد ذلك ما هو منقوش في الجبص على يمين المحراب وشماله ودونك لفظه:

أعوذ بالله من الـشيطان الرجيم، بسم الله الرحـمن الرحيم، هذا مـحراب مبارك سعيد قد بناه بمسجـدنا سيدنا ومولانا المنصور بالله المحروس بعين رعاية الله المجاهد في سبيل رب العالمين، المتوكل على الله القـوي المتين، محمد بن عبد الله ابن إسماعيل في عام تسع وثمانين ومائة وألف. اهـ.

ينتظم هذا المسجد من صفوف أربعة ذات أقواس محمولة على أربعة وأربعين سارية مبنية بالجيار واللبن، وصحن فسـيح لا يوجد له نظير في القطر المغربي فيما أعلم، طول هذا المسجـد ثمان وثمانون متـرا ونيف، وعرضه ستون مـترا، بوسط صحنه الرحب جابية من أصفى المرمر، وأعلاه من أكبر وأوسع ما أنت راء جوانبها الأربع أعني ما اتصل بها من الصحن مفروشة بزليج الرخام البديع، وباقي الصحن مفروش بالزليج الملون الفاتن الباهي.

ولهذا المسجد ثلاثـة أبواب لعموم المصلين أحدها في الجهة الغـربية، وثانيها في الجانب الشمالي، وثـالثها في الجانب الجنوبي وبويب صغيـر بالجانب الشمالي من الصف الأول يختص السلطان بالدخول مـنه لكيلا يقع في ورطة تخطي رقاب المصلين، ومع الأسف فـقد أهمل هذا المسـجد إهمالا لـيس عليه من مـزيد حتى عشش فيه عرمرم الخراب والتلاشي والدمار وباض وفرخ، رغما عن كونه تقام فيه الجمعـة والجماعة، وكـونه من المعاهد الإسلامـية الساميـة ذات البال، اندثر زليج أرضه ونبت الكلأ في صحنه، وتكاثف، ونبت الكرم في خـشب سقفه الذي كان على جانب من الزينة والزخرفة عظيم، هذا فيـما بطن منه، فما ظنك بما ظهر من سطحه إلى غير هذا مما لا أذكره.

وبخارج الباب الشمالي من هذا المسجد توجد مدرسة تحتوي على بيوت ستة وثلاثين عن اليمين والشمال بوسطها خصة لطيفة وبئر، وبآخرها قبة بديعة الشكل كانت على جانب من الزخرفة والنقش عظيم، وبهذه المدرسة منار المسجد المحدث عنه، كما يوجد خارج الباب الجنوبي مرحاض حافل محتو على خمس وعشرين مِيضأة، بوسط صحنه صهريج للماء مستطيل كان في غاية اللطف، وخارج هذا المرحاض في جداره الشرقي صهريج مستطيل طوله نحو المترين منحوت في حجرة واحدة، ومع الأسف فقد أصبحت بهجة ذلك كله في خبر كان، ومدت الأيدي العادية لاختلاس مَائِه.

وقد كان السلطان المولى الحسن في عزمه إحياء هذا المعهد الإسلامي الذي هو من آثار أسلافه الكرام وأياديهم البيضاء ورده إلى شبابه وشرع في ذلك بالفعل ولكن حالت المنية بينه وبين بلوغ مراده، ولولا تلافيه بجبر بعض ذلك الصدع لخرت سقوفه ولأصبح أحدوثة في خبر كان.

ومن تأسيسات الأمير سيدي محمد هذا قصره البهيج الموسوم باسم الدار البيضاء محل المدرسة الحربية الآن المعدة لتعليم ضباط المغاربة، أسس بهذا القصر الشامخ مسجدا منتظما من صفوف أربعة وصحن، وجعل له مناراً ومستودعا لوضع آلات التوقيت، وأسس بجانبه الشرقي مدرسة لطيفة وأحاط السور بالفسيح الطويل العريض المعروف باسم أجدال، وأسس بصدر هذا الفسيح قبة مرونقة بديعة على جانب من الإتقان والتزويق مكين، وجعل بإزائها حماما له باب ينفذ إليها وكنيفا، وكل ما يحتاج إليه من منافع ومرافق بحيث لا يحتاج القاطن فيها إلى الخروج منها لما تدعو إليه الحاجة اللازمة للإنسان أعد هذه القبة لفسحته، والجلوس لسماع مظالم رعيته، وأعد البسيط المذكور أمامها لرعي إناث الخيل العتاق أطلقها تغدو في مروجه وتروح إذ كان له ولوع تام بانتقاء الصافنات الجياد، وجلبها من كل صوب، وتربيتها والإنتاج منها.

وأسس بجوار هذا القصر جناني أسوفيط الكبير والصغير، وجنان باب القزدير، وجنان ابن حليمة وعرصة السنطرجية، والعرصة الجديدة حذوها المعروفة بالبحراوية وحبس جنان ابن حليمة المذكور مع العرصتين المشار لهما على المسجد الأعظم، ودونك نص عقد التحبيس:

الحمد لله حبس مولانا الإمام، السلطان المؤيد الهمام، ناصر الدين، المجاهد في سبيل رب العالمين، صدر الأفاضل المقدام، علم الأعلام، وابن سيد الأنام، العلامة الشهير، الداركة النحرير، صاحب الفتوحات الإلهية، والمواهب الربانية، الذي أشرق الوجود بكريم محياه، أمير المؤمنين سيدي محمد ابن أمير المؤمنين مولانا عبد الله ابن السلطان الجليل، الماجد الأثيل، مولانا إسماعيل، أدام الله عزه ونصره، وخلد في الصالحات ذكره، جميع جنان ابن حليمة وجميع عرصة السنطرجية وجميع العرصة الجديدة المجاورة لها والجميع داخل القصبة السعيدة على المسجد الأعظم من مكناسة تحبيسا مؤبدا، ووقفا مخلدا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، ومن بدل أو غير فالله حسيبه وولي الانتقام منه، تقبل الله من مولانا عمله، وبلغه سؤله وأمله، وبسط للناظر الأحظى السيد الحاج الطيب ابن السيد أبي القاسم المسطاسي يد الحوز على ذلك يتصرف فيه للحبس المذكور من بيع غلته وعلاجه مهل رمضان عام اثنين ومائتين وألف.

وقد أفردت الكلام على ماضي هذا القصر الملوكي وحاضره وعلى الأجنة المحتفة به بما يهم القارئ في رسالة مستقلة.

وأسس مسجد قصبة هدراش السالفة الذكر، ويعرف هذا المسجد اليوم بجامع لال خضرا، وقد تقدم لنا أنه من المساجد التي تقام بها الجمعة، وينتظم هذا المسجد من بلاطين وجناحين وأسس به كنفا وحماما بمقربة منه.

قلت: هكذا ذكر تأسيسه لهذا المسجد الزياني ومن تابعه، وانظره مع ما

قدمناه عن ذلك العقد القديم الموثوق به، من أن أرض بريمة كانت من أوقاف جامع الخضرا، ثم انتقلت للمولى إسماعيل. . .إلخ، وليس يعرف بمكناس جامع الخضرا غير هذا، فالظاهر أن سيدى محمد بن عبد الله جدد بناءه لا أنه أنشأ تأسيسه والله أعلم.

وأسس ضريح الشيخ محمد بن عيسى الشهير بالشيخ الكامل المتبرك به حيا وميتا، دفين خارج الباب المعروف باسم باب السيبة، أحد أبواب العاصمة المكناسية يقال إنه بناه من أنقاض ما هده من الدار الكبرى دار الخلافة الإسماعيلية المارة الذكر، وكان تأسيسه له عام ألف ومائة وتسعين، يدل لذلك ما هو منقوش داخل مزارة الضريح المذكور ولفظه:

أشاد أمير المؤمنين محمد ... علاه فلا زال العلي يؤيده
وجاء علي أيدي ابن وعزيز طالعا ... يؤيده (نصر وفتح واسعده)

أشار للتاريخ المشار بحروف نصر وفتح واسعده، وما يوجد أيضا في نقش الجبص فوق المنطقة الزليجية المحيطة بجدار قبة الضريح ولفظه:

نزه جفونك في المشيد العالي ... لترى بدائع نشأتي وكمالي
ما زهر أيام الربيع ووشي صنـ ... ـعاء يشابه حسن جيدي الحالي
حزت البهاء بجمع كل محاسن ... من ذا يزاحم رفعتي وجمالي
أو ما ابن عيسى القطب هذا من له ... سر شهير فاق كل جلال
بحر تلاطم موجه بعناية ... ومهابة وسعادة ونوال
قصاده خصوا بنيل مرامهم ... في عاجل أو آجل ومآل
لا يعرفن الضيم عبد يحتمي ... في حادث الدنيا له بظلال

قد سالمت كل السموم جميع من يعزى لـه في سهلها وجبـال
غياث من في الأرض يهتف باسمه ومفرج الأزمات والأوحال
أنزل بـه كل المنى تجـد الذي أملت من وجود ومن إفضال
من يستقم لا ينكرن ما قد يرى فحذار كل تعرض وجدال
أمؤمل المعروف هذا منهل من جاءه يسقي بعذب زلال
لكن كأس شرابه التسليم والـ ـظن الجميل وصادق الإقبال
كم كربة ومضايق قد فرجت بركاته بتضرع وسؤال
وغريب أوطان توطأ حبه فاقتاد ما يبغيه من آمال
ووضيع قدر قد رفعت حضيضه فوق النجوم فنال حسن منال
وبذا الإمام فزر تراه تبركا مولاي عبد المالك المفضال
إن الإمام محمد بن محمد الـ ـهادي الرسول به استقامة حالي
كم من مزايا نالها ظهرت كما أمن الورى بجلال ذي الإجلال
من ذاك أن أمر الخديم محمدا ولد العزيز بمبرز الأشكال
واشتد في أمر الأمير محمد ببنا ضريح مكثر الأفعال
قد حاز من حسن القوام لطافة أقسم بأنه فاقد الأمثال
واستنجز الأنصاف من كل غاية إن الصواب موضح الأقوال
وقل لمن رام ارتقاء كماله قصر فلا تدن بغير وصال
ولقد أتيت بما بدا أعلا الرضا فلعله من صالح الأعمال
ثم الصلاة على الشفيع محمد عين الوجود نهاية الإكمال

ولا يخفى ما في هذه القصيدة من التغالي الذي لا يكاد يخلو منه مديح في الغالب.

وبني قبة ضريح سيدي سعيد أبي عثمان.

وأسس مدرسة الشاوية وهي الواقعة أمام الداخل من المدينة لباب منصور العلج شرقا أحد أبواب القصبة الشهير، وهي المجاورة للباب المحدث لقصر الستينية المار الوصف، وبهذه المدرسة قرأت القرآن العظيم، وبها قرأه آباؤنا وأسلافنا الكرام برد الله ثراهم، ولقد تخرج بها من حملته منهم ما يناهز الألف، ومنا منهم إلا من له الخط الرائق الفائق، ولا زالت هذه المدرسة إلى حد الآن مكتبا لتعليم الصبيان ومسجدا لعبادة الرحمن، وقد كان الدهر أخنى عليها وبقيت في زوايا الإهمال دهرا طويلا إلى أن خرت سقوف صفوفها، واغتصب محرابها، ولعبت بجدراتها أيدي البلى، ونبتت بأرضها الكروم، وعششت بها البوم، وتكاثرت أنواع الطيور، وأخيراً صارت مقبرة معدة للدفن، وفي هذه الأزمنة الحاضرة أصلح ما يواجه الداخل منها.

وقد كان أول من انتدب لإصلاحه والدي قدس الله ثراه، فابتدأ مباشرة ذلك من ماله الخالص له ثم بعده أتم جانب الحبس ما كان ابتدأه من الإصلاح وبقي ما وراء ذلك وهو معظم المدرسة على ما وصفناه من الخراب والإهمال، مع توفر مادة الأحباس، إذ للمسجد الأعظم وما أضيف إليه من المساجد التي من جملتها المدرسة التي كلامنا فيها بالعاصمة المكناسية من الرباع ما بين دور ودكاكين وإصطبلات ومعاصر وديار الصابون وطرازات وحمامات ما قوم ثمن رقبته في أوائل رجب الفرد الحرام عام ألف وثلاثمائة وواحد وثلاثين بمائة ألف ريال وتسعة وأربعين ألف ريال ومائتى ريال وأربعين ريالا ونصف ريال.

وفي منفعته ثلاثة عشر ألف بليون ومائة وثمانية وخمسون بليونا، وفي مدخوله الشهري ثلاث وثلاثون مائة مثقال وستون مثقالا، وثلاث أواق ونصف

الأوقية حسبما وقفت عليه في صك الإشهاد بذلك بتاريخ أوائل رجب عام ألف وثلاثمائة وواحد وثلاثين.

وله من الأوقاف خارج المدينة بين بلادات وزيتون وجنات ما قومت رقبته بخمسائة ألف ريال وخمسة وثمانين ألف ريال وسبعمائة ريال واثنين وسبعين ريالا حسبما وقفت على ذلك أيضا في صك تقويم العراف المرجوع إليهم في ذلك بالتاريخ المتقدم.

ولمساجد السور من الأوقاف بداخل المدينة من حوايت وديار وفنادق ومعاصر وغير ذلك ما قومت رقبته بثمانية وتسعين ألف ريال ومائة ريال بالافراد وتسعة وخمسين ريالا، وفي المنفعة عشرة آلاف بليون وخمسائة بليون وسبعة وخمسين ريالا، وفي المنفعة عشرة آلاف بليون وخمسمائة بليون وسبعة وستون بليونا وفي المدخول خمس وثلاثون مائة مثقال وأربعة وثلاثن مثقالا وثمن المثقال حسبما وقفت عليه في عقد الإشهاد بذلك بالتاريخ المتقدم، وهذا خارج عن الأحباس الصغرى وما انضم إليها وعن أحباس مولاى عبد الله بن حمد، بل وعن المعاوضات التى وقعت في أرض حمرية ومدخولاتها.

وكذلك أسس السلطان سيدى محمد بن عبد الله أيضا بالقصبة مسجد باب مراح ومناره، وباب مراح هذا هو المعد إلى اليوم لسكنى مماليك الجناب السلطانى، وموقعه ما بين قصر المحنشة السعيدة وصهريج السواني المحدث عنه سابقا، وجوار جنان ابن حليمة الشهير، وجدد ما افتقر للتجديد من المسجد الأعظم، وجدد بناء مناره وذلك عام سبعين ومائة وألف، ويدل له ما هو مكتوب في نقش زليج بجدار المنار المذكور في الجهة الموالية للصحن ودونك لفظه:

الحمد لله وحده، وصلى الله على من لا نبي بعده.

بنى هـذا المنار أمـيـر صـدق محمـد الرضـا في عام (عـشق)

وجـدد فيـه مسـجـده فحـازت به مكنـاسـة قـصـبـات سـبق

أشار للتـاريخ المذكور بحروف لـفظة عشق، وجدد مـسجد باب البـراذعيين المذكور فيما مر كما جدد ضريح الولي الشهير سيدى سعيد المَشْنَزَائى ومسجده:

تنبيه: عدّ أبو القاسم الزياني من جملة ما شيـده السلطان سيدي محمد بن عبد الله من المعاهد الدينية مسجد سيدي سعيد المذكور، ومسجد بريمة، ومدرسته، ومدرسة الصهريج، وقد تبعه على ذلك صاحبا «الجيش» و«الاستقصاء».

قلت: ويتعين حمل كـلامهم في ذلك على تشييد الإصـلاح والترميم، وإلا فقد قـدمنا أن مؤسس تلك المغاهد الثـلاثة الأولى ومشيد بناءاتهـا هو جده مولانا إسمـاعيل، وقد ألمنا بشـواهد ذلك في تأسيسـات المباني الإسمـاعيلية، كـما أن الزياني وتابعيه قد أغفلوا من مباني سيدي محمد بن عبد الله بعاصمة جده مكناسة ما نبهناك عليه هنا فلتكن من ذلك على ذكر.

وأما مدرسة الصهريج فلا يعـرف لها اليوم أثر ولا موقع، بعد أن كانت هي وغيرها من مدارس الدولة العلوية المتقدمـة الذكر آهلة بما بنيت له، معتني بسكانها بمحافظة سلاطيننا على تفقد رواتبهم، ومن ذلك ما أصدره الإمام الذي افتخرت به الأواخر على الأوائل والمغارب على المشارق السلطان العادل سـيدي محمد بن عبد الله لناظر الأحباس بهذه العاصمة ونصه:

نأمر أحبـاس مكناسة الحاج الطيب المسطاسي أن يجعـل طلبة باب مراح في المرتب مثـل المدارس الست، وهي: مدرسة الـدار البيضـاء، ومدرسـة باب مراح ومدرسة قـصبة هدراش، ومدرسة الصـهريج، ومدرسة جامع الشـاوية، ومدرسة

سيدنا ومولانا إسماعيل رحمه الله بحسب سبع أواقي لكل واحد من الطلبة المذكورين في الشهر، ومثقال للمؤذن، وخمس عشرة أوقية للإمام، وخبزة لكل واحد في اليوم من عند الزياتينية كما تقدم لك أمرنا بذلك وراتبهم من الأحباس، كما هو مرسوم عندك ولا فرق بين الطلبة المذكورين فكلهم في ذلك سواء.

وأما طلبة مدرسة الأوداية فلا يقبضون إلا الراتب فقط، كما أمرناك قبل، وأما الخبز فلا تعطهم شيئا لأنهم في ديارهم ومع أهليهم هنالك، والسلام في ثاني عشر شوال من سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف.

ومن تمامه أن الخبز المذكور يكون من أربعة في الرطل، وكل ما يدفع الزياتينية من الخبز، فأعطهم خط يدك والسلام. اهـ.

فبمثل هذا الاعتناء من أمراء الملة كانت معالم الدين قائمة، وبه دامت المحافظة عليها حسا ومعنى ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن تأسيسات سيدي محمد بن عبد الله أيضا ما جدده بالضريح الإدريسي الأكبر المقدس، قال شيخنا الشريف البركة العلامة الأقعد سيدي محمد بن جعفر الكتاني في كتابه «الأزهار العاطرة الأنفاس» ما لفظه ثم لما ولى السلطان الأسعد، الهمام الأصعد، الأنوه الأرشد، مولانا محمد بن عبد الله بن مولانا إسماعيل المذكور، جدد بناء هذه القبة وما هو متصل بها مرة أخرى، وجلب لها المرمر الحسن مما كان بدار جده بمكناسة الزيتون، وبالغ في إتقان ذلك وإحكام عمله، وكان بناؤه له على ما هو مرقوم إلى الآن بالقلم الغباري برتاج دفة باب القبة المذكور سنة ثمانية وثمانين ومائة وألف. اهـ.

قلت: رتاج الدفة الذي به التاريخ المشار له هو الأسفل عن يمين الداخل للقبة، ولا زال ذلك التاريخ إلى الآن مفروشا فوقه الحصير لا تمكن رؤيته إلا برفع

الحصير عنه، ولعل من آثار هذا التجديد اللوحتين القائمتين في خدي باب القبة المصنوعين من المرمر الرفيع المنقوش في يمناها ما صورته:

يا ناظرا بهجتي الله يرعاكا

أمر بعمله مولانا إسماعيل بن مولانا الشريف عام ألف وسبع وثمانين. اهـ.

وفي يسراهما ما صورته:

أبشر بما ترتجي من خير مولاكا

فرغ من عمل هذا سنة سبع وثمانين وألف لمولانا إسماعيل أيده الله بعزيز نصره. اهـ.

فإن هذا التاريخ متقدم على تاريخ بناء المولى إسماعيل للقبة الإدريسية بنحو ثلاث وعشرين سنة كما قدم علم مما قدمناه، مع كون تاريخ اللوحين لا مزيد فيه على أنهما معمولان للمولى إسماعيل، وذلك يؤذن بأنه كان عملهما لقصور نفسه فنقلهما حفيده مولانا محمد بن عبد الله لخدي القبة الإدريسية لما جدد ما احتاج للتجديد منها، وليسا هما بأصلين فيها ولا مصنوعين لأجلها، وإلا لكان تاريخهما موافقا لتاريخ البناء الإسماعيلي المتقدم للقبة، ولكان فيه أيضا ما يؤذن بأن إنشاءهما للضريح الإدريسي، على أن تجديد مولانا محمد بن عبد الله لنفس قبة الضريح هو عندنا الآن مجمل، لأنه لا دليل عندنا على أنه جددها بعد أن نقضها من أصلها، فتكون الرخامة التي في مواجهة الداخل المكتوب فيها ذلك القصيد المختوم ببيان تاريخ المولى إسماعيل لبناء القبة، إنما أعيد إلى محله بعد التجديد، أو إنما كان التجديد في بعضهما، فيكون رخام ذلك القصيد لم ينزل عن محله منذ وضعه البناء الإسماعيلي بذلك المحل، والعادة قاضية بهذا، فإنه يبعد كل البعد أن يحتاج الضريح كله إلى التجديد في المدة التى بين السلطانين مولانا إسماعيل

وسيدي محمد، مع متانة الأبنية الإسماعيلية ومزيد اعتنائه بإتقان الأضرحة، ومع هذا فعلم الحقيقة عند الله تعالى.

ومن المتصل بالقبة الساحة أمامها المحيطة من جهاتها الأربع بالمباحات الأنيقة المحمولة على اثني عشر عمودا من الأعمدة الرخامية البديعة، وبوسط الصحن المحيط بتلك المباحات خصة تقذف من جوفها المعين الفرات المزدري باللجين صفاء، ويوجد بجدار الجهة الشرقية بهذا البراح محراب للصلاة يقابله بالجهة الغربية باب بيت القناديل، وبالجهة الشمالية باب لدار الزاوية بهيج أنيق، يقابل باب قبة الضريح الأقدس.

ودار الزاوية هذه أسست وأعدت لسكنى المنقطعات من الشريفات وجراية النفقة عليهم، وعلى طلبة المدرسة هنالك، والملازمين لدار الأضياف المعدة لسكنى المنقطعين والغرباء والفقراء من الرجال، وكانت دار الزاوية المذكورة يؤكل فها كل يوم بضميمة ما يضاف إليها نحو خمسة أمداد من القمح وما يلزم ذلك من إدام[1] وحطب وتوابل، وكان معظم ما يقام به ذلك أعشار سكان الزاوية الإدريسية، وبعض المداشر التابعة لها حبا وزيتونا، وبسبب ذلك كانت تعظم ثروتها في بعض السنين حتى يكون لها المطامير العديدة موفورة حبا، والخزائن مملوءة زيتا.

وكانت الملوك تنفذ من مدخولات دار الزاوية هذه إعانات قمحية وزيتية شهرية لبعض ذوى الحاجات وبالأخص الأشراف، كما كانت نفرق الخبز المستعمل هناك، وكذلك الكسكوسون على ديار المضطرين من آل البيت بالزاوية، وبسبب ذلك وجدت الأيدي العادية سببا إلى الاستيلاء منها على ما لا تستحقه، حتى أفضى ذلك إلى إغلاق باب دار الزاوية بعض السنين في وجوه المستحقين، وبقي من كان تجري عليه النفقة منها يتكفف الناس للإجحاف كثرة الخارج في غير

(١) الإدام: ما يُستَمْرأُ به الخبز.

وجوهه من مدخولها حتى استسلف لها بأمر المخزن، ولم يوجد ما يرد منه السلف لكون الأعشار التى كانت منفذة لها؛ إنما هى أعشار بعض العامة، وهم المقيمون بالزاوية والمجاورون لها وبقية الزراهنة كانت تدفع أعشارها بمكناس، وأما الشرفاء فقد كانت الملوك تسوغ لهم دفع أعشارهم لضعفائهم وتكل ذلك لأمانتهم، فلما رأى ذلك كثير من العامة تسارعوا لادعاء النسب النبوي الطاهر وفتحوا الطريق لتمشية ذلك وقبوله منهم وتأييد دعاويهم الباطلة ببذل المال لأولي الأمر، فآل ذلك إلى الإجحاف بدار الزاوية وإلى غلقها بالكلية كما تقدم، وهكذا عاقبة كل أمر أسند إلى غير أهله.

ثم لما رأى ذلك متأخرو الولاة والنظار اختصروا خارجها حتى ردوه لنحو خمس الخارج قبل، وصار لا يعطى منه إلا للمقيمات بدار الزاوية المذكورة مع طلبة المدرسة والقليل من المساكين المقيمين بدار الأضياف، ويدفع قليل منه لبعض محتاجي الشرفاء الساكنين بالزاوية، ثم لما أحدث الترتيب وقطع المخزن النظر عن التداخل في الزكاة لم يبق لدار الزاوية داخل إلا من بعض الأصول المحبسة عليها وخراجها يضعف عن القيام بخارجها، فكان المخزن بعد اختياره لذلك صار يؤدي لها مما يجبيه من الضرائب كل سنة خمسة عشر ألف بسيطة لتتميم الخارج اللازم لها، وكانت صورة الطعام المستعمل فيها في سائر الظروف المتقدمة أن القمح يطحن ثم تزال نخالته القوية بالغربال، وما عدا ذلك يستعمل منه الخبز والكسكوسون من غير تصفية، بل الغالب أن لبابه يستولي عليه نصف الخبزة السوقية وهو الذي يفرق على من عدا طلبة المدرسة ونوع فوقه، وهو الذي يدفع للطلبة.

ثم لما حسنت حالة الأحباس وتوفرت مادة ماليتها في الأقطار المغربية على يد المخزن حيث جعل لها وزارة خاصة تحت نظرها نظار ومراقبون، وعظم وفر

الأحباس بكل بلد، جاء وزير الأحباس المشار له لاختبار الأحوال بالزاوية وتعاهد الشئون، وذلك يوم الخميس فاتح صفر عام أربعة وثلاثين وثلاثمائة وألف، وحين شاهد حالة الخبز والكسكوسون الموصوفة أنكر ذلك وأباه، وأمر في الحين بأن يكون يشترى ذلك صافيا من السوق وتكون الخبزة لا تنقص عن السوقية، كما أمر باشتراء قدر معين لها من اللحم وتوابعه كل يوم ليطبخ مع الكسكوسون، وقد كان اللحم قبل ذلك لا يشترى لها إلا يوم السبت الذي يعمر فيه السوق هنالك، فكان ذلك من أعظم حسناته، وإنما فسد ما فسد بإهمال الولاة، وتقاعسهم عن القيام بمثل هذه النهضات، ألهمنا الله وإياهم الرشد في الحال والآت.

ودار الأضياف المشار لها هي الواقعة في أسراك وهي الأولى عن يسار الداخل للحرم الإدريسي من باب المعراض الشهير، وتلك الدار عبارة عن مربع محيط بمباحات أربع محتو على عدة بيوت وكنيف حافل.

ومن تأسيسات الأمير الفخيم الليث الهصور مولانا اليزيد بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل الزيادة الواقعة في الجهة الغربية من المسجد الإدريسي، يفصل بينها وبين المسجد القديم الصحن، وذلك عام أربعة ومائتين وألف، ويدل له ما هو منقوش في خشب بباب المسجد المذكور ودونك لفظه:

يا سائلا عمن بنى طلعتي ... ومن لدين الله شكلي يشيد

أنشأني المولى الملك الرضى ... محمد المهدي الإمام اليزيد

أعطاه مولانا جميع المنى ... وزاده نصرا وفتحا يزيد

ونشأتي من رام تاريخها ... فإنني (رشد) أراه يزيد

أشار بلفظ رشد للتاريخ المذكور، ويدل له أيضا اختلاف البناء القديم مع الزيادة في الشكل.

ومنها أيضا المسجد الشهير بجامع مولاي اليزيد إلى الآن بالزاوية المذكورة موقع هذا المسجد بالحومة المعروفة بتازجا من الزاوية المشار لها، تقام بهذا المسجد الجماعة والجمعة.

ومنها الدار الجديدة وهي قصبة سكنى الأشراف العلميين الآن بزاوية زرهون كان أنشأها لسكناه ولكنها لم تكمل في حياته.

ومن آثار السلطان العالم العامل الخاشع مولانا سليمان بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل الدار المعروفة اليوم بالدار الجديدة مع روضها، جوار جده المولى إسماعيل، وتلك الدار وروضها بها الآن إدارة شئون حاكم الأحواز المكناسية وما يضاف إليها.

ومنها تلافيه بالتجديد والترميم والإصلاح ما افتقر لذلك من القصور السلطانية المحنشة، والمدرسة وما انضم إليهما، قال أبو القاسم الزياني عاطفا على ما أسسه وشيده المولى سليمان بالأقطار المغربية كما ستقف عليه مفصلا في ترجمته بحول الله ما لفظه: ثم جدد قصور الملك لمكناسة بعد تلاشيها. اهـ.

قلت: مراده بالقصور قصر المحنشة، والمدرسة وما أضيف إليهما، أما قصور الدار الكبرى دار خلافة جده الأعلى فإنها إذ ذاك كانت خربة بيد بعض أفراد العائلة الملوكية الإسماعيلية، خربها والده سيدي محمد بن عبد الله وسلمها لمن استحقها من العائلة المذكورة حيث قاموا بطلب حقوقهم وراموا السكنى بدار والدهم، ولم يجد السلطان سيدي محمد بن عبد الله مناصا من ذلك لما لهم من الحق في بيت مال المسلمين، ورأى أن تسليمها لهم على بهجتها وضخامتها الملوكية التى مر بك بعض وصفها ليس من العدل والإنصاف في شيء لتعلق حقوق غيرهم من الخاصة والعامة ببيت المال.

ولذلك مَدَّ يَدَ الهدم والتخريب فيها لإزالة كل ما له قيمة، ولما صيرها بلاقع ولم يبق بها غير شاهق الجدرات المنسلخة عن كل زينة وما لا قيمة له توجب الالتفات نحوها، فعند ذلك سلمها لهم فتملكوها وبنوا فيها دورهم وأنشأوا بها غراسات متعددة واستقروا بها، ولا زال بها عقبهم إلى الحين الحالي يتصرفون فيها بالبيع والابتياع وسائر أنواع التصرفات.

ومن تأسيسات هذا السلطان الجليل المقدار مولانا سليمان السقايات التي على يمين ويسار الداخل من الباب المقابل لباب المعراض الشهير بالحرم الإدريسي بالزاوية، وكان تأسيسه لها عام ثمانية وعشرين ومائتين وألف، ويدل لذلك ما هو منقوش في زليج مثبت بالجدار الذي به السقايتان اللتان عن يمين الداخل ودونك لفظه:

تأمل بهجتي وبديع حسني ... وما ألبست من حلل البهاء
تجد عزي ومجدي وارتفاعي ... يفوق البدر في أفق السماء
جمعت من المحاسن كل فرد ... وأعظمها جوار أبي العلاء
إمام الغرب إدريس ذي المعالي ... سليل الأكرمين ذوي الوفاء
وقمت بباب روضته بجد ... أطهر زائريه بطيب ماء
بإذن إمامنا الأسمى بنوني ... وتاريخي (تجليت بالسناء)

أشار للتاريخ المذكور بحروف تجليت بالسناء.

ومن تأسيسات الأمير الأورع السلطان مولانا عبد الرحمن بن هشام بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل بالعاصمة الإسماعيلية قبب الخشب البديعة الشكل العجيبة المثال المعروفة باسم الخيمة، وهي الواقعة بجنان ابن حليمة في الجهة الشرقية منه المحمولة على ساقية وادي بوفكران التي يجري فيها ماؤه الداخل

للمدينة، وهذه القبة تحتوى على مباحات ثلاث محمولة على الأعمدة الخشبية، وثلاثة بيوت وبهو بوسطها إلى ما يتبع ذلك من منافع ومرافق، وجعل في الساقية المذكورة أمام المباح الجنوبي دولبا يحمل الماء من الساقية ويصبه في القنوات الموصلة له للخصة الواقعة أمام المباح المذكور وإلى غيرها من الفروع التي يجري فيها الماء، ثم مع السقاية التي بأسفل القبة المذكورة ويصعد لهذه القبة بدرج، وتحيط بجوانبها الثلاثة أبواب الزجاج الملون تركب هذه الأبواب هناك وقت حلول السلطان بالعاصمة المكناسية، وعند سفره تزال وتصان بالخزائن السلطانية إلى أن يعود من سفره فترجع لمحلها، وعلى هذا استمرار العمل إلى أواخر الدولة العزيزية.

ومنها إنشاء الباب الثاني لجامع القصبة المار الذكر والمباح داخله المشار له آنفا.

ومنها المباح الواقع على يسار الخارج من باب منصور العلج لبطحاء الهديم المحمول هو أي المباح على أساطين ستة حجرية، وكان إنشاؤه إياه على يد عاصمة سلفه المكناسية الباشا الأنصح القائد الجيلاني بن العواد الشهير، وكان ذلك المباح مُعَداً لجلوس أعيان الجيوش المظفرة وذوي الحيثيات منها في أوقات الأحكام المخزنية، حيث إن باب منصور العلج المذكور كان هو المحكمة الرسمية لباشا مكناس، يجلس به لفصل الخصوم وسماع المظالم كل يوم صباحا ومساء، وبهذه المحكمة الواقعة بباب قصبة الدار العالية بالله كانت العادة جارية في كل يوم جمعة يتناول الباشا وقواد اراحي الجيش الغداء أثر الفراغ من أداء فريضة الجمعة بجامع القصبة المار الذكر، وصائر ذلك من بيت المال ولم يزل العمل مستمرا على ذلك إلى انصرام دولة السلطان مولاي عبد العزيز، كما كانت العادة جارية بأن سائر الاحتفالات والأفراح المخزنية الرسمية التي تقام تحت رياسة الباشا إنما تكون بالباب المذكور، واستقر على ذلك الحال إلى أواخر الدولة الحفيظية.

ومن تأسيساته المباحان خارج باب قصر المحنشة السعيدة المحمولان على

اثنين وثلاثين عموداً من الأعمدة الحجرية، وأعدهما لجلوس الموظفين ورؤساء رجال البساط الملوكى وذوي الحيثيات وقت جلوس السلطان للنظر في أمور الرعية كل غدو ورواح عندما يكون جنابه بالقصر المذكور، وعند جلوسه في غيره من القصور السلطانية، أو نهوض ركابه الشريف من العاصمة يعمر الحرس المباحين المذكورين ليلا ونهارا ظعن السلطان أو أقام، ومع الأسف فقد استولى الخراب على تلك المباحات وعما قريب يستأصل شأفتها إن لم تتداركها يد الإصلاح.

ومن آثاره إتمامه لمسجد ومنار ضريح الولي الشهير مولانا عبد القادر بن محمد بن بلقاسم العلمي، ونقل الخطبة من مسجد سيدي أحمد بن خضراء إلى مسجده وذلك بعد وفاة صاحب الضريح، ووفاته كانت يوم الاثنين وقيل الجمعة سادس عشري رمضان المعظم سنة ست وستين ومائتين وألف.

كما أن السلطان مولانا عبد الرحمن المذكور هو الآمر والمنشئ لأحباس المسجد المذكور، وذلك من متخلف الولى سيدي عبد القادر المذكور حسبما تضمن ذلك ظهير له شريف هذه صورته:

خديمنا الأرضي الناظر الطاهر بن عثمان وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد: فقد بلغنا كتابك أن الولى الصالح سيدى عبد القادر العلمي نفع الله ببركاته، خلف من الناض اثني عشر ألف مثقال ومائة مثقال واحدة وواحدا وستين مثقالا وست أواقي وربع الأوقية، وقد كنا مهتمين بأمر مسجد زاويته المباركة الذي ابتدئ بناؤه في حياته من أين يكون الصائر على إكماله، حتى بلغنا تخليفه لهذا القدر المذكور فسري عنا، وعلمنا أن ذلك من بركاته رضي الله عنه، فنأمرك أن تقف في حيازة ذلك ووضعه تحت أيدي الأمناء هناك على وجه الحفظ والأمانة، وتشرع فى إكمال المسجد المذكور وإتمام تلك الحسنة على حسب ما كان يشير به السيد المذكور في حياته، وجد في ذلك كل

الجد ومهما احتجت إلى ما تصيره عليه يدفعه لك الأمناء، فإن عندهم أمرنا بذلك، وكن في خلال ذلك عينا وأذنا على الأصول التي تباع بمكناسة الزيتون وزرهون، فمهما ظهر لك أصل نفاع يشتريه الإنسان لنفسه فاشتره للزاوية المذكورة، ويؤدي الأمناء ثمنه حتى يستوعب بناء المسجد والأصول التي تشترى للزاوية من جميع متخلفه من الناض وغيره، ومهما اشتريت أصلا لذلك فأعلمنا به لنمضي تحبيسه ومتخلفه من الأثاث والبهائم، ثم أجره على ما تقتضيه السنة من البيع ونض الثمن، فإن السيد إنما ترك ذلك في حياته لأسرار لا نعلمها نحن، ولا يليق به بعد مماته إلا البيع، وما يتجمل في ذلك بعد التنضيض يضاف لما تحت أيدي الأمناء ويسلك به سبيله من الصائر على المسجد وشراء الأصول التي تحبس على الزاوية، والسلام في سابع شوال المبارك عام ستة وستين ومائتين وألف.

وقد امتثل الناظر المذكور أمره الشريف فاشترى أصولا هي الآن من أحباس ما ذكر بإمضاء الأمير المذكور لتحبيسها، ومن جملتها حظ في رحى وقفت على إمضائه لتحبيسه هذه صورته:

الحمد لله أمضينا بحول وقوته شراء الحظ في الرحى المذكور أعلاه يليه، وتحبيسه على الزاوية ومسجدها حيث أشير وبسطنا اليد للناظر على التصرف التام فيه وعلى الواقف عليه أن يعلمه ويعمل به، ولا يحيد عن كريم مذهبه، والسلام في ذي الحجة الحرام عام ١٢٦٦.

وأول من خطب بذلك المسجد العلمي الفقيه السيد قاسم بن حلام. كان رحمه الله من أهل الدين والورع ومن خاصة أصحاب صاحب الروضة العلمية، ثم بعده خطب سيدي محمد فتحا بوزكري من آل الولي الصالح سيدي أبي زكرياء الصبان أحد صلحاء مكناسة المشهور، ثم خطب بعده أخوه سيدي عبد الحق بوزكري، ثم بعده النقيب المفضال سيدي المختار الإدريسي الشبيهي، ثم بعده نجله

النقيب الأجل سيدي مشيش، ثم بعده أخوه سيدي محمد بن المختار المذكور وهو الخطيب الحالي.

أما الزاوية التي بها الضريح العلمي فمؤسسها هو صاحبها سيدي عبد القادر المذكور، كانت داره ورثها من أبيه، وكان يسكن بها مع أخته السيدة خديجة، ولما توفيت دفنها في بيتها الذي كانت تسكن فيه، وهو القبة المدفون معها هو فيها، كما أنه هو الذي شرع في تأسيس المنار واخترمته المنية قبل إتمامه، وكان تأسيسه لهذه الزاوية عام تسعة وخمسين ومائتين وألف، ويدل له ما هو منقوش في الجبص فوق الشرجب الذي عن يسار الداخل لقبة الضريح ولفظه:

سمت روضة لله فتح بابها ... وفاض بسر الهاشمي عبابها
فللواردين من هناها ظلالها ... وللصادرين من جناها رطابها
وللزائرين بالمكارم عمرت ... على بركات الله جل رحابها
وباليمن والإقبال والسعد خاطبت ... لقاصدها فوزوا فهذا لبابها
هلموا إلى كهف السعادة والرضى ... وكيف وللتاجين صح انتسابها
(وبالشكر) للمولى مطالع أفقها ... مدى الدهر ترجو أن يدوم احتسابها
فذي روضة ورحمة الله غيثها ... إلى البعث لا ينفك عنها انصبابها
فطوبى لمن يأوي إليها وينتمي ... ويلقاه من بشرى الكريم خطابها

أشار للتاريخ المشار بحروف لفظ وبالشكر، وهو مؤسس مسجد ضريحه القديم أيضا، أما الزيادة التي وقعت فيه مع الحالة التى هو عليها الآن فإنما أحدثت بعد على ما سيمر بك بحول الله قريبا.

ومنها تأسيس ضريح الولي الشهير سيدي عمرو الحصيني عام اثنين وخمسين

ومائـتين وألف ويدل لذلك ما هو منقـوش في الجدار الشـمالي من قـبة الضـريح المذكور المقابل الداخل ولفظه:

متع جـفونك في محـاسن شاني — عاد الشـباب فعـاد عيـشي الثاني
ألبـست من حلل الجـمال قـلادة — كـسـيـت بنور بهـائهـا أركـاني
فـأنا الحصـيني الشهـير مـقامـه — مـا بين قـاص فـي البـلاد وداني
فـالـله يمنح من يشـا بهـبـاته — كـمليكنا المنصـور ذي الـسلطان
ملك الملوك الصـالحين وفخـرهم — نور الخـلافـة عـابد الرحـمن
ابن الهـمام هشـام نجل مـحمـد — من آل أحـمـد سـيـد الأكـوان
عرفت بصـيرته المعـارف والهدى — فلذاك جـاد بجـوده فـبـناني
في عام (بشرى لي) بنيل مسرتي — إذ أتى البـشـير بدولة الـسلطان
بقـيت مـآثره الحـسـان مـصـانة — كـبـقـاء مـجـده سـائر الأزمـان
اللـه يكرمـه بكل كـريمة — ويـنيل قلبـه منـتـقـى الإيمان
بأجل مـبـعـوث وأكـرم مـرسل — وبآله والـصـحب والـتـبـيـان
ثم الصـلاة عليهم مـا صافـحت — أيدي النسـيـم ذوائب الأغـصـان

أشار للتاريخ المذكور بحروف: «بشرى لي».

ومنها إحـداث بَابَيْ السيبة ووجه الـعروس مع السور الممتد مـن الأخير إلى باب بريمة على مـا سيمـر بك لدى الكلام على الأبواب. ومنها مـسجـد السلامي بحومة الحفرة من الزاوية، وكان صدور إذنه بـذلك في حادي عشر صفر عام تسع وثلاثين ومائتين وألف، ومـحبس هذا المسجد المذكـور وما بني به هو سيـدي عبد

السلام بن على الإدريسي الشبيهي، جَدّ أولا سيدي عبد الله المعروفين بهذا الاسم الإضافي إلى الآن بالزاوية الإدريسية.

ومنها القصبة المعدة الآن لسكنى الشرفاء آل سيدي أبى الغيث بالزاوية المذكورة، قد كان أسسها للشرفاء الأمرانيين أهل يفران، وقفت على بطاقة من عامل الزاوية الإدريسية لخليفته بها إذ ذاك.

لفظها بعد الحمدلة والصلاة: محبنا وخليفتنا القائد قاسم بن علال أعانك الله وأرشدك، وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته عن خير مولانا نصره وأيده، وبعد: فيرد عليك ساداتنا الشرفاء العلاويون أولاد سيدي بلغيث، فاعلم أنه قد أتى أمر مولانا المولوي المطاع وها نص كتابه:

وبعد فإن أربعة وعشرين رحيلا من أبناء عمنا الشرفاء أهل سيدي بلغيث قد أنعمنا عليهم بالمحل الذي كنا أسسنا بناءه للشرفاء أهل يفران بزرهون، فأمر خليفتك أن يمكنهم من النزول به والسكنى فيه والبناء فيه لأنفسهم، فإن هؤلاء الشرفاء أهل سكينة وخير، وفيهم ثلاثة أناس طعنوا في السن، فانظر لهم دوراً بزرهون يسكنون بها والسلام، في ثامن رمضان عام ستة وخمسين ومائتين وألف وأنت نفذ الأمر المطاع على ما أمر به مولانا المنصور بالله. اهـ.

ومن تأسيسات نجله السلطان الأفخم سيدي محمد القبة الواقعة في الجهة الشمالية من جنان ابن حليمة السالف الذكر، وكان بناء هذه الفبة على يد أمينه الصادق الأحزم الطالب بوعزة الفشار البخاري.

ومنها قبة الزجاج الواقعة على الصقالة المشرفة على العرصة المعروفة بالبحراوية، تلك القبة هي التي بين قصري سكنى الجناب السلطاني من قصور المدرسة المولوية وبين الباب المعروف إلى الآن بباب الشبكة.

ومن آثاره زيادته في سمك قبة الضريح الإدريسي الأنوه بزاوية زرهون ورفعها في الهواء زيادة على ما كانت عليه من قبل، وتزيين ذلك بالحزام الأخضر الزليجي الكائن أعالي القبة الآن، وكان انتهاء العمل في تلك الزيادة سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف، والزيادة المذكورة هي من ابتداء حزام الزليج المذكور الذي لا يقل ارتفاعه عن متر، فالحزام داخل في الزيادة، ويوجد تاريخ البناء مرموقا بالقلم الغباري بلون أحمر فوق الحزام المذكور، ومنها في حرم ذلك الضريح أيضا المباح الأول خارج الباب الذي يدخل منه للصحن الذي به السقايات الذي تقدم، أن السلطان المولى سليمان كان أنشأها وكان السلطان سيدي محمد هذا المباح عام تسعة وثمانين ومائتين وألف على يد ناظره على ذلك الحرم الإدريسي الحاج قدور ابن عبد الرحمن بن الحاج محمد السراج دفين أبي العباس السبتي رضي الله عنه.

ويدل لذلك ما هو منقوش في زليج أسود بأعلى القوس الوسط من المباح المذكور ودونك محل الشاهد منه:

وانصر إماما عادلا في حكمه ... أعلى الإله بأمره هذا البنا
ذاك الأمير محمد المنصور نجـ ... ـل هشام البدري نجل نبينا
ولتذكر السراج ناظر وقفه ... إذ لم يزل في ذا النظارة محسنا
وقل إن تسل يا صاح عن تاريخه ... (يا زائرا إدريس سعدك قددنا)

أشار بحروف كلمات الشطر الأخير للتاريخ المومى إليه.

ومنها أيضا المدارج الرخامية المفضية لداخل ذلك الحرم الإدريسي مع تسوية الصحن المفضي لهذه المدارج وتزليجه على ما هو عليه الآن وتبديله الخصة الرخامية أمام قبة الضريح بالخصة العديمة المثال الموجودة هناك الآن.

ومن تأسيسات نجله السلطان العظيم الشأن مولانا الحسن بالقصور الملوكية قبة الباهية الواقعة بقصر المدرسة.

وقبة الزجاج المشرفة على غراسات جنان البحراوية.

ومنها الصرح البديع الذي أنشأه وشيده بقصر المحنشة وأحدث له بابا بالنهج المستطيل المعروف بأسراك وذلك عام خمسة وثلاثمائة وألف. وفق ما وقعت الإشارة للتاريخ المذكور بلفظ خذه في نقش زليج بأعلى الباب المذكور وسط أبيات لطيفة دونك لفظها:

تكامل هذا الباب حسنا وبهجة — وحاز ضروب الوشي والرقم والحكم
ولم لا ومبناه على العز والتقى — كما الحسن المولى به أمر الخدم
فقف وانشق الرحمى يهب نسيمها — به فهو باب اله فتح للكرم
بداخله الرضوان والأمن والهنا — وروض أريض فيه منزهه الأشم
فمن أمه يظفر بنيل مرامه — ويرجع مسرورا ويكفي الذي أهم
أدم ربنا العلياء والملك للذي — بناه وحطه في البنين وفي الحرم
وأوله عزا دائما متوافرا — ونصرا عميما ثابتا راسخ القدم

وجدد قصر المحنشة وأنشأ به قبة عظيمة وجعل لها بابين بابا للمحنشة وبابا للعرصة المعروفة بعرصة الرخام، إحدى البساتين التى تتخلل تلك القصور السلطانية، وهي التى على يمين الداخل للنهج المستطيل المعروف بيبين العراصي من باب المحنشة السعيدة المعد لاستقرار عبيد الدار الخصيان الذين هم عند الملوك بمثابة الحرس الداخلي، وأنشأ بهذا البستان أيضا حماما حافلا وجعل له بابين، بابا لقصر المحنشة المذكور وبابا بالبستان المحدث عنه.

ومنها الصقالة الشاهقة العظيمة المتصلة بساباط قصر سكنى جنابه السامي بالمدرسة السعيدة الطالع، وكان قصده من تأسيس هذه الصقالة إنشاء صرح عليها تتراءى منه بواسطة المرآة المكبرة المقربة الديار الفاسية، وشرع في بناء ذلك الصرح بالفعل إلا أنه لم يتم لذلك أمر، وحال حلول المنية دون الوصول إلى الغاية المقصودة، وكان ابتداء تأسيسه له عام ستة وتسعين ومائتين وألف على ما هو منقوش بالغباري في رخامة بخد الباب الذي يصعد منه للصرح المذكور، كما أنه منقوش على الخد الموالي ليمين الصاعد له ما لفظه:

باب السعود ومظهر الإقبال منه الصعود لغاية الآمال

ظهرت نتيجته وصين أساسه فبدا مشيدا في المقام العالي

وعلى الأيسر ما لفظه:

فتنافس الصناع والحكماء في إتقانه بمواهب المتعالي

تاريخ منشئه علا من مجد ذا الحسن الأمير سلالة الكمال

أما الإشارة للتاريخ الواقعة في البيت الأخير فإنها لم تظهر لي صحتها بعد الإمعان فلتتأمل.

وفي دولة السلطان المولى عبد العزيز أمر بهد ما كان أسس من ذلك الصرح المشار لعيب حدث به، وكان في عزمه اقتفاء أثر والده في تشييد ذلك الصرح إلا أن ذلك لم يكن في الكتاب مسطوراً، ولا زالت تلك الصقالة شاخصة للأبصار تتراءى من مسافة بعيدة.

ومنها تأسيس منار جامع المحنشة، إلا أنه اخترمته المنية دون إتمام عمله وفق ما رام.

ومنها القبب الخمس المتصلة بالمنار المذكور من الجهة الجنوبية، كان أعد تلك القبب لجلوس وزرائه وذوي الحيثيات والكبراء والوجهاء من المرظفين في خدمة جنابه الأسمى.

ومنها الصهريج المحدث أمام مسجد المحنشة المذكور المحتوي هو أي الصهريج على الجوابي الرخامية الخمس، في رأس كل ركن من أركانه الأربع واحدة والخامسة بوسطه وهي أكبرها.

ومنها قبتا الزجاج الواقعة إحداهما شمال المسجد المشار والأخرى جنوبه أحدهما لجلوسه على كرسي ملكه للنظر في أمور رعيته وعرض قضاياها عليه.

ومنها التربيعة المعروفة باسم الوسعة الواقعة بين بابي الدار العالية بالله المحنشة الباب الذي به استقرار عبيد الدار المذكورين وباب سي مسعود أضيف هذا الباب لبواب كان به من جملة وصفان الجلالة السلطانية اسمه مسعود كان متفقها، وأنشأ بالساحة المشار لها قبة ذات بال يجلس بها لسماع المظالم وإعطاء الأوامر، وجعل لها مباحا يضارعها في التنميق والزخرفة وجعل أمامها صهريجا لطيفا بوسطه جابية من الرخام الرائق تتدفق زلالا، وجعل عن يمين هذه القبة قبة دونها في الرونق والأبهة، وعن شمالها كذلك، وأمام هذه القبة على يسار الداخل من باب سي مسعود المتقدم الذكر عدة قبب معدة للشئون المخزنية، ومع الأسف فقد أسرع الخراب لذلك كله لعدم المعاهد والمباشر ومَتلافي ما انصدع فخر جل تلك السقف وانقلع الزليج وزالت تلك المحاسن ونبت الكلأ والكروم على عالي تلك الأسطح.

ومنها الدويرية التي بداخل باب سكنى عبيد الدار المتقدمي الذكر الكائنة على يمين داخله، وقد كان أعدها مكتبا لتعليم البنات القرآن العظيم، واستمر العمل على ذلك فيها إلى أن هَرِمت الدولة العزيزية.

ومن آثاره تجديد الباب المعروف بباب سي مسعود الذي مرت الإشارة إليه وذلك عام ألف وثلاثمائة، ويدل لذلك ما هو متوج به في نقش زليج ودونك لفظه:

باب السعود وبهجة الأمان هذا وباب الجود والإحسان

رفعت على التقوى معالم عزه محروسة بعناية الرحمن

فانظر محاسن طلعتي شمس الضحى منها استمدت أشرق اللمعان

(أوج شريف) صار تاريخي به يزهو بطلعته على كيوان

أسمي بديع محاسني ومعالمي ملك همام من بني عدنان

فهو الشريف السيد الحسن الرضا فخر الملوك وكهف كل أمان

ذاك المجدد للشريعة ركنها في غاية الأحكام والإتقان

فالله ينصره ويبقي ملكه متحصنا في عزة المنان

ومنها الأروى السعيد لربط خيله وبغاله بقصر المحنشة الميمون، وقد تهدم السور المحيط بهذا الأروى في هذا الأيام الأخيرة من الجهة الموالية لباب مراح المار الذكر، فسد بابه الاعتيادي الواقع بداخل المحنشة على يسار الداخل من باب هذا القصر الشهير بالباب الفوقانى، وهو الباب المقابل لباب الناعورة السالف الذكر وصار الدخول اليوم لهذا الأروى من الجهة المتهدمة السور بباب مراح المشار له.

ومنها الطريق السرى المعروف بـ(طالع وهابط) الموصل من قصر المحنشة المنيف لجنان ابن حليمة، بحيث يتيسر خروج الحرم الكبير من القصور السلطانية إلى جنان ابن حليمة الذى سبقت الإشارة إليه من غير أن يمر بالنهج العمومى الذى كان يمنع المارون من سلوكه وقت ما أرادت الجلالة السلطانية إخراج حرمها الطاهر

وحاشيتها الكريمة للتفسح فى ذلك الجنان، وبسبب ذلك ارتفع عن سكان تلك الناحية ضرر منع المرور من النهج العمومى كل آونة.

ومنها القبب التى بالنهج المستطيل المسمى بأسراك - بالكاف المعقودة - الكائنة هى - أى القبب - على يمين الذاهب، لقصر المدرسة الخارج من باب الرائس الشهير، وأعدها لجلوس وزرائه وأعيان كتابه وقت جلوسه للأحكام وسماع المظالم، وجعل لتلك القبب مباحات أعدت لجلوس بقية الكتاب مع أعيان رؤساء ذوى الحيثيات والموظفين.

ومنها الروض الجديد الذى أنشاه بالبحراوية بصهر يجيه.

ومنها قبة الزجاج التى على الصقالة بأعلى الروض المشار المشرفة عليه، بل وعلى عرصتى البحراوية والاترنجية.

ومنها الصرح الذى بأعلى باب المحنشة المقابل لباب الناعورة المذكور، إلا أنه لم يكمل.

ومنها تلافيه صدع مسجد الأزهر، المعروف بجامع الأروى.

ومنها تأسيس منار الضريح الإسماعيلى.

ومنها تجديد سقف المباح الشرقى بصحن الضريح المذكور.

ومنها زيادته فى مسجد الضريح العلمى المذكور آنفا لما كثر أتباع ذلك الولى وضاق بهم المسجد، وكانت زيادته فيه على يد ناظره إذ ذاك الحاج محمد بن عمرو الصنهاجى السابق الترجمة، وهو الذى رد محرابه إلى عين القبلة حيث هو الآن، إذ كان قبل فى الجهة الجنوبية موضع الخزين فى العصر الحاضر، وذلك بعد هرج ومرج بين أتباع صاحب الضريح والمعدل الميقاتى بمكناس إذ ذاك السيد الجيلانى الرحالى، وطال ذلك وتفاحش إلى أن رفع الأمر إلى الجلالة السلطانية فقام لذلك

وقعد وحضر بنفسه وأحضر مهرة المعدلين العارفين بأدلة القبلة من فاس ومراكش ومكناس، فأداهم اجتهادهم إلى أن الأصوب هو جعل المحراب بالمحل الذى أشار به ميقاتى مكناسة المذكور، وأنه لاَ وجه لرده للجهة الجنوبية التى كان بها قبل لقيام الأدلة على خطأ الواضع الأول، فأمر السلطان حينا بإمضاء ما قالوا وبسببه انحسمت مادة النزاع.

ومن تأسيسات هذا السلطان قصبة أهل تولال - بضم التاء وسكون الواو وفتح اللام المشبعة - وتولال اسم لواد من أودية صحراء تافلالت كان نقلهم السلطان المقدس مولانا عبد الرحمن بن هشام بن بلادهم لتمردهم وأنزلهم بنواحى فاس قرب دار دبيبغ، وجعلهم تحت نظر باشا الوقت بباب الدار العالية بالله ثمة وهو القائد فرجى الشهير، ثم نقلهم نجله السلطان سيدى محمد من فاس إلى نواحى مكناس وذلك عام اثنين وثمانين ومائتين وألف، وأدرجهم فى جملة الجيش البخارى، وكانت سكناهم إذ ذاك فى الخيام.

ثم فى دولة نجله السلطان مولاى الحسن أنشأ لهم القصبة المذكورة التى هى مستقرهم الآن، وموقع هذه القصبة غربا من المدينة، وقد أحدثت بها اليوم عدة دور ومسجد للصلاة.

ومنها قصبة الحاجب الشهيرة ببلاد بنى مطير على اثنين وثلاثين كيلو مترا من المدينة، وهذه القصبة هى التى صارت اليوم محلا لإدارة الأحكام الإدارية ومتعلقاتها.

ومنها المسجد الذى أنشأه بالساحة المقابلة للمزارة السفلى للضريح الإدريسى الأكبر التى كانت مستقرا للأوساخ والقذرات، ومحلا لذبح ما يهدى لضريح ذلك الإمام العظيم ليفرق، وعلى أبناء صاحبه وعلى من انتظم فى سلكهم من المقيمين بذلك الضريح الأقدس من الإنعام، وكان تأسيسه لهذا المسجد ولدار الذبائح المذكورة خارجه عام ثلاثة وثلاثمائة وألف، وفى هذا التاريخ أو قبله بيسير أنشأ

بالزاوية الإدريسية أيضا الحمام الجديد البديع سعة وشكلا، إلى غير هذا مما ليس لغايته وصول.

ومن تأسيسات نجله السلطان المولى عبد العزيز تجديد بعض القنوات التى يجرى فيها الماء للمساجد والمدارس بالمدينة وغيرها.

ومنها بناء الساقية مع القنطرة ذات الأقواس التى يمر فوقها الماء المجلوب من عين شانش النابع أصلها قرب مدشر موساوة أحد مداشر جبل زرهون ليزاد ذلك الماء على ماء عين خيبر الداخل للحرم الإدريسى وغيره من الأماكن التى يجرى بها الماء من تلك الزاوية المباركة، إلا أن هذا الماء إلى الآن لم يحصل منه المقصود الذى جلب لأجله، وهذا الماء هو الجارى اليوم بالمحل الذى أحدثته الدولة الحامية بأرض خيبر المعروف بالبئر ولسائر فروعه.

ومن ذلك أيضا تلافيه بالترميم والإصلاح ما كان تلاشى بذلك الحرم الإدريسى ومضافاته، كتجديدة لقرمود القبة الإدريسية وتبييضه لصومعتها ولمسجدها وتزويقه لمحرابه وترميمه لدار الزاوية ولدار الأضياف ولدار المخزن التى تستريح بها الجلالة الملوكية عند زيارتها لذلك الضريح.

ومن ذلك أيضا إنشاؤه للفندق الجديد المعروف بهذا الاسم بالزاوية الإدريسية وكانت هذه الأعمال جلها على يد الناظر السيد إدريس بن زاكور الفاسى، وبقيتها على يد بدله الناظر السيد الحاج الهادى غلاب أحد الأعيان بفاس الآن.

ومن آثار المولى زين العابدين تزليج أرض ضريح سيدى سعيد المَشَنْزَائى(1) السالف الذكر وما انضم إليه، وبناء الصفة الواقعة خارج بابه، وذلك أيام الفتنة البربرية التى حدثت فى دولة أخيه السلطان المولى عبد الحفيظ عام سبعة وعشرين وثلاثمائة وألف.

---

(1) تحرف فى المطبوع إلى: «المشترائى» وصوابه من دوحة الناشر فى موسوعة أعلام المغرب ٢/ ٨٨٠.

ومن آثار سلطاننا الحالى المعظم الملحوظ بعين الإجلال والإكبار مولانا يوسف أعز الله أمره، وأيده وأدام فخره، تجديد جبص المسجد الأعظم بمكناسة وتبليط أرضه بالجص وتزليج جناحيه.

ومنها إصلاح جامع القصبة وتجصيص صحنه الخارجى الموالى لبابه.

ومنها إصلاح مدرسة الشاوية المعروفة اليوم بجامع الستينية وتسقيف صف واحد منها.

ومنها إعادة تبييض جبص قبة ضريح جده الأكبر المولى إسماعيل قدس سره، وإعادة ما أزيل وتلاشى من زليج بعض جدراتها.

ومنها تجديد مسجد سيدى يحيى وسقايته المار الكلام فيها.

ومنها تجديد جامع الكرمة المعروف بزنقة حومة الأنوار قرب سيدى سلامة الولى الشهير.

ومنها إصلاح المسجد العتيق المعروف بجامع النجارين.

ومنها إصلاح مسجد الزيتونة ومسجد البراذعيين وزاوية مولاى عبد الله بن حمد المعدة للمعتوهين والضعفاء والمنقطعين، ومسجد باب عيسى وضريح سيدى علي بن نون، وضريح الست كلينة - بالكاف المعقودة.

ومنها إصلاح حمام باب البراذعيين، وتجديد ما افتقر منا للتجديد وكذلك حمام الزيتونة، وحمام مولاي عبد الله بن حمد، وحمام النجارين، وحمام السويقة، وحمام الجديد، وحمام سيدي عَمْرو بو عوادة، وحمام التوتة.

ومنها تجديد بعض سقف القصور السلطانية، وترميم ما دعت الحاجة الأكيدة لترميمه، وبالأخص قصور المدرسة الشريفة.

ومنها تجديد السقاية التي ببطحاء الهديم قبالة باب منصور العلج، تلك السقاية العجيبة الشكل العديمة المثال التي لم ينسج على منوالها في حاضر الأزمان ولا في غابرها ناسج، فما شئت من تزويق وتنميق، ونقش رقيق، يستلفت الأنظار، ويستوقف الأبصار، وكان تجديده لهذه السقاية على ما وصفناه عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف، ويدل لذلك ما هو منقوش في أعاليها ولفظه:

يا ناظرا في بهائي	ورونقي وازدهائي
فبغيتي ومنائي	منك جميل الدعاء
إلى جناب تسامى	به ابتداء انتهائي
مولاي يوسف أضحى	محبوب دان ونائي
مع المقيم العمومي	رئيس ناس الولاء
وأهل مجلس نصح	وهمة في ارتقاء
فادع لكل بخير	شكرا على جري ماء
وقل مؤرخ هذا	تاريخ زين بنائي

أشار للتاريخ المومي إليه بحروف الشطر الأخير من القطعة، ومع الأسف فقد مد الخراب لهذه السقاية يد الاعتداء ولم تجد منجدا، فإن دام حالها هكذا رجعت إلى ما كانت آلت إليه قبل، فإن هذه السقاية هي التي يعبر عنها في العقود الحبسية القديمة بالسقاية الكبرى، ففى بعض العقود الحبسية ما لفظه:

أرباب البصر سئل منهم الوقوف على عين مسجد زواغة الكائن بالهديم من الحضرة المذكورة المجاور للسقاية الكبرى التى هناك. اهـ.

وقد كان الدهر أخنى على هذه السقاية حتى تعطل وصول الماء إليها وصارت

مقر الأوساخ والأزبال، كما أخنى على المسجد المشار له في العقد السابق ولعب به شوطا في أدوار الامتهان، بعد العزة ورفعه الشان، إلى أن مزق مجتمعه أيدي سبأ فصار بعضه مربضا للغنم المعدة لتموين البلد وبعضه جرنة (محلا لذبح المواشي) ثم صار محل المربض من جملة روض لبعض عظماء الموظفين، وذلك الروض هو الواقع في الجهة الغربية من بطحاء الهديم المذكور المتصل بباب زواغة الشهير ذلك الروض هو الذي صار اليوم مكتبا اقتصاديا للدولة الحامية بالعاصمة المكناسية وأما الجرنة فقد صارت دكانا لبيع السلع.

ومن التأسيسات والآثار الخالدة التالدة الواقعة في دولة جلالة سلطاننا الأعظم أيضا القيسارية الجديدة المعدة لبيع أنواع البز الواقعة خارج باب بريمة المجاورة لسوق البز القديم المستندة على سوق السلالين، وقد كان موقعها قبل فندقا معداً لبيع الفحم وربط الدواب.

ومن أعظمها وأفخرها تأسيس المدينة الجديدة الكائنة بأرض غابة الزيتون المعروفة بحمرية، التي كان أنشأها سيدنا الجد الأعظم مولانا إسماعيل برد الله ثراه، وحبسها على الحرمين الشريفين مكة والمدينة حسبما مرت الإشارة إليه، وكان الشروع في تسطير طرقها في شهر غشت سنة ست عشرة وتسعمائة وألف مسيحية، وصدر الأمر العالي بتعويض أرضها معاوضة نقدية لمن يريد البناء بها من الأجانب والأهالي عام خمسة وثلاثين وثلاثمائة وألف موافقة شهر جوليت سنة سبع عشرة وتسعمائة وألف، وشرع في البناء بالفعل في محرم فاتح سنة ست وثلاثين وثلاثمائة وألف، وكان ثمن المتر المربع إذ ذاك فرنكا واحداً وخمسا وسبعين سنتيما.

ولما كثرت الرغبة وتهافت الأجانب والأهالى على الشراء ولاحت لوائح الاستعمار، بلغ ثمن المتر المربع سبعين فرنكا، ولا يسوغ لمشتر أيا كان أن يترك مشتراه بدون بناء فوق سنتين، ومثل ترك البناء أصلا بناء ما لا يبلغ صائره خمسة

عشر فرنكا لكل متر، فإن ترك البنـاء أصلا أو بنى ما لا يبلغ صائره ما ذكر ومرت الستتان، فإنه يحاز منـه مشتراه ويسلم لجانب الحبس ويرد للمشـترى ما خرج من يده بعد إسقاط قدر معين فى الصوائر.

ومنها تشـييد بناءات دار السـمن وروى مزيل الصلة بباب أبى العـمائر على الطراز الأورباوى الذى هى عليه الآن، حتـى دخل بذلك المحلان فى طور جديد، وصارا منظوراً ومرغوبًا فيهما بعد أن كانا مهملين ومرغوبا عنهما.

ومنها تأسيس البـاب المتصل بجدار البوسطة لدار السـمن، تمرّ عليه العربات والسـيارات الداخلة لدار الـسمن وترجع من القـديم حـذوه متـصلا به فـرارا من التصادم الناشـئ عن الورود والصدور من مورد واحد، وقد كـان بمحل هذا الباب المحدث مكتب لتعليم الصبيان:

ومنها إحداث الصـف الأول بمسجد الشافيـة مع مِيضَأة به، وإحـداث مباح آخر فى المسجد المذكـور، وإحداث مكتب عليه لقراءة الصبيان عـوضا عن المسجد الذى جعل بمحله البـاب المحدث بدار السمن المذكـور. وباب المكتب المحدث وهو النافذ للزقاق العمومى يمين الداخل لمسجد الشافية المذكور.

ومنها تجديد مسـجد تيبربارين، وزيادة المكتب حذوه صفا فيـه، ورد سقايته وكنفه إلى صحنه وقد كانتا بأسطوان بابه.

ومنها تجديد سقاية أبى الحسن على بن منون، وإحداث أنبوبين للسبيل بزقاق روى مزيل، وتجـديد سقاية جامع الزيتـونة، وتجديد سقـاية حومة حمـام الجديد، وسقاية درب القرع، وسقاية التوتة، وسقاية ضريح أبى محمد عبد القادر العلمى، وسقاية سبـع أنابيب مع تجديد سقفها وترصـيف أرض مباحها، وسقـاية حمادشة بتزيمى الصـغرى، وسقـاية تزيمى الكبرى، وسـقاية براكة، وسـقاية حومـة جامع الساباط، وسقاية الغمادين داخل باب الجديد.

وإحداث سقاية وكنف بالوسعة داخل باب السيبة، وتجديد سقاية العوادين وسقف سقاية الشريشرة، وسقاية تبربارين، وإحداث سوق لبيع الخضر يدعى البلاصة بالعريصة المعروفة قديما باسم حبس قارة التى كانت معدة لنزول قائد حنطة الأتاى، وإنشاء المحكمة الباشوية حذو البلاصة المذكورة، وإحداث البوسطة بمحل الزواية العينية التى كان أحدثها القائد إدريس بن يعيش، وصرف على بنائها كمية ليست بالتافهة الكائنة بدار السمن.

ومنها تجديد حائط محراب مسجد الولى الصالح عمرو بوعوادة، وتسقيف صفوفه وتزليج أرضه وإصلاح ميضأته، وإصلاح مسجد براكة، وتجديد مسجد سيدى الصفيفر بدرب سيدى عبد الله الجزار.

ومنها إنشاء المستشفى للأهالى الكائن أمام ضريح سيدى سعيد.

ومنها إنشاء الجرنة الحافلة لذبح الأنعام الكائنة خارج باب السيبة أحد أبواب المدينة.

ومنها تجديد جبص الضريح الأنور ضريح مولانا إدريس الأكبر وتجديد جبص ما حوله كذلك، وتجديد صبغ خشب سقفه الفخيمة، وإعادة تزويق ذلك كله ورده لبهجته ورونقه، وكان الشروع فى ابتداء العمل فى ذلك صبيحة يوم الاثنين تاسع عشرى شوال عام أربعة وثلاثين وثلاثمائة وألف، وانتهاء العمل فى غالب ذلك أواسط جمادى الثانية عام خمسة وثلاثين وثلاثمائة وألف.

ومنها تزليج أسراك من باب المعراض إلى مباح باب الحفاة هناك، وترميمه لجدران أسراك المذكور.

ومنها تزليج السقايات السليمانية الكائنة داخل باب الحفاة المذكور، وتجديد القف أعلاها.

ومنها تجديد قرمود قبة الضريح المذكور وسائر ما حوله من المسجد الأعظم هناك وغيره.

ومنها ترميم وتجديد ما وهى من غير واحد من مساجد جبل زَرْهُون.

ومنها تجديد وتوسيع وتحويل باب فكرة أحد أبواب الزاوية على الهيئة التى هى عليها الآن.

ومنها مسجد السوق البرانى بالزاوية الذى أنشأة وحبسه المرحوم الحاج أحمد ابن محمد الريفى بموافقة أميرنا الحالى مولاى يوسف أدام الله جلالته، فهذا ما حضرنا من التأسيسات والإشادات الواقعة بمكناسة وزرهون فى هذه الدولة السعيدة العلوية، وهو فى جنب ما جهلناه وما غاب عنا أو أغفلناه قُلٌّ من كُثْر، وليس إلا عند الله حقيقة الأمر.

قال فى الروض: وللمدينة ستة أبواب: باب البراذعيين، وباب المشاورين(١)، وبمقربة منه هوايمى ارتجمى، ودار الأشراف، وجامع الخطبة القديمة ويعرف لهذا العهد بجامع النجارين، وباب عيسى، وباب القلعة، وكان يسمى بهذا الاسم قبل أن تبنى هنالك القصبة على ما يظهر من كلام بعضهم والله تعالى أعلم وباب أقورج، وباب دردورة وربما قيل له باب الصفا. اهـ. من خطه(٢).

قلت: كتب بعضهم على هذا المحل ما صورته: كل باب من هذه الأبواب تغير عن حاله.

أما باب البراذعيين فقد أدركناه على خمسة أقواس تحيط به أبراج كثيرة فهدم فى سنة سبع وتسعين أو ثمانية وزحلق لناحية الجوف وبنى على ثمانية عشر قوسا محدقة بصحن فسيح، وبمدخله مسجد الخطبة مما صنعه وبناه الوزير على بن يشو.

---

(١) فى المطبوع: «المشاوريين» والمثبت من الروض الهتون الذى ينقل عنه المصنف.

(٢) الروض الهتون - ص ٧٨.

وأما باب المشاوريين فقد هدم أيضـا لقريب من هذا العهد، وبنى وراءه غربا باب يسمى باب برِّيمة بتشديد الراء مكسورة.

وأما باب عيسى فـقد هدم قبل هذا التاريخ وزيد فى القصبـة وموضعه الآن بين باب سعيِّد - بكسر ياء مشددة - وضريـح سيدى عبد الرحمن المجذوب نفعنا الله به.

وأما باب القلعـة فقد هدم وزيد فى القصـبة وموضعـه الآن قريب من باب العلوج.

وأما باب قورجـة فـقد هـدم وزيد فى القصبة وبنى جـوفا منه باب يسمى عبد الرزاق.

وأما باب دردورة فقد هدم ولم يبق ومـوضعه الآن بباب تزيمى، وتزيمى اسم قبـيلة أخرج أهلها من الصـحراء من عمـالة سجلماسـة وغربوا وأسكنوا فى هذا الموضع، وقد أدركناه قبل دار عـمل الفخارين، فأُخرج الفخـارون إلى عدوة النهر شرقا، وكان هناك قنطرتان قديمتان فهدمتا وجعلت قنطرة واحدة. اهـ.

قلت: إنما تكـلم ابن غـازى والمطرر عليـــه هنا على أبواب المدينـة القـديمة تاجرارت، ولم يتـعرض واحد منهـا لأبواب القصبـة القديمة ولا لأبواب القصـبة الإسـماعـيلية سـوى باب العلوج الذى ذكـره الثانى فـإنه هو باب منصـور العلج المعروف للقصبة الآن، وكذا لم يشر ابن غازى لموقع القصبة المرينية إلا فى قوله:

قبل أن تبنى هناك القصبة يعنى والله أعلم خارج باب القلعة.

ثم إن أبواب المدينة الموجودة لهذا العهد اثنا عشر بابا بضمبمة أبواب القصبة إليها لصـيرورتهما شيـئا واحدا ودخولهمـا معا فى مسمى مكناس كـدخول سائر القصبات المتصلة المتقدمة فيما أسلفناه.

فأما باب البراذعيين فموقعة قديما وحديثا فى الجانب الغربى للمدينة، غير أنه كما زحلق زمـن ذلك المطرر إلى الباب ذى الثمانيـة عشر قوسا الـذى ذكره كذلك زحلق بعـده الى البـاب الخـارج عنه المقـابل له الموجـود الآن وهو باب فى غـاية الارتفاع والسـعة والإتقـان وإحكام البناء، يكتنفـه برجان أحدهمـا عن يمين داخله والآخر عن شـماله، وتنفتح دفتـاه بين قوسين خرّ سـقفها وانهـد القوس الداخلى وغارباه الدالان عليه لازالا لهذا العهد.

ومن هذا الباب يخـرج لضريح الولى الكامل المولى عبد الله بـن حمد وهو متـصل من جهة يمين الخـارج منه بالسور المحـيط بقصبـة تزيمى الممتـد إلى الباب المعروف بباب تزيمى.

وعن يمين الخارج أيضا روضة قبور الشهداء.

وعلى يساره المقبرة العظـيمة الجامعة لجم غفيـر لا يعلمه الا الله من العلماء والأولياء الكاملين التى بها ضريح الشيخ محمد بن عيسى الولى الشهير.

وبينه وبين الباب ذى الأقواس الثمانية عشر صحن فسيح يقام فيه سوق لبيع الخشب كل يوم جمعة بعد صلاتها، وقد كان الداخل على الباب ذى الثمانية عشر قوسا المذكور ينعطف فيه لجـهة اليمين حيث الفندق الموجود الآن، ويدخل للمدينة من قوس كان مـجاورا للمئذنة فـسد ذلك القوس، وأحدث فى محلـه دكان للبيع والابتيـاع وروى صغيـر وجعل فوق الكل غـرفة، والكل تحت القوس الذى فـوقه المستودع محل القيم بالتوقيت، ولا زال كل ذلك قائم العين إلى الحين الحالى.

ولما سد ذلك القوس المشـار فتح نقب كالقوس مسـامت للبابين المذكورين، ومنه الممر الآن لكل ذاهب وآت.

أما الأقواس الثمانية عشر فمنها ما هو قائم العين والأثر حتى الآن، ومنها ما

هد وبقيت أساطينه أو بعضها شاهدة له، كان إذا دخل الإنسان من القوس المحدث في محله الدكان وما ذكر معه وجد خمسة أقواس فى صف عن يساره، وأربعة كذلك عن يمينه، فيمر بينهما مستطيلا، فإذا وصل إلى القوس الخامس استدبره منحرفا عن اليمين فيجد قوسا آخر عن اليمين فى مقابلة القوس الذى منه المرور الآن، وهو فى الوسط بين خمسة أقواس: اثنان عن اليمين ومثلهما على اليسار.

وهذا الذى يخرج منه الآن اشتمل على قوسين يحوطهما سقف واحد أحدهما مساو للأقواس التى عن اليمين واليسار، والآخر ملتصق بالجدار المحيط بالجميع.

والأقواس الأربعة التى عن اليمين والخمسة التى عن الشمال مع قوسين من الأقواس الخمس المقابلة، هى التى صارت فندقا وهو الموجود الآن عن يمين الداخل هناك، وعن يسار القوس الذى ذكرنا نقبه وفتحه للصدور منه والورود قوس آخر أحدث الحمام الموجود الآن فى محله، فمجموع الأقواس ثمانية عشر كما ذكر، منها ما هو قائم العين محكم البناء إلى الآن، ومنها ما أتى العفاء عليه ولم يبق البلى غير الأطلال الشاهدة لما كان عليه فى الماضى مما بيناه.

وكل هذه التغيرات حدثت بعد أن زحلق باب البراذعيين المعروف بهذا الاسم الآن، وذلك زمن سيدى محمد بن عبد الله كما بينا، وبانى الباب ذى الثمانية عشر قوسًا وكذا الباب المزحلق إليه هو المولى إسماعيل، فقول ذلك المطرر بنى عام سبعة أو ثمانية وتسعين يعنى وألف، وقد كان سرادق ملك المولى إسماعيل وقتئذ على الأنام ممدودا.

وأما باب المشاورين وباب عيسى وباب القلعة وباب أقورج، وباب دردورة فقد بسط ذلك المطرر السابق ما يبين مواقعها وما آلت إليه، وقد أفاد كلامه أن باب دردورة كان خارج باب تزيمى أحد أبواب المدينة المعروف بهذا الاسم الآن،

والقنطرة التى أشار لها هناك هى والله أعلم التى يمر عليها الذاهب للفخارين وغيرها هناك، وقد كان سقط بعضها قرب التاريخ فتدوركت بالاصلاح.

وموقع باب تزيمى فى الجانب الغربى الشمالى تنفتح دفتاه بين قوسين يسترهما سقف أعلاه غرفة معدة للقيم بحراسته، ووجه إضافته تقدمت الإشارة إليها، وخارج هذا الباب كانت سقاية السبيل المعروفة بسقاية الذهب المشار لها فيما أسلفناه فى ذكر الآثار الإسماعيلية، ولا زال إلى الآن سور صدر هذه السقاية شاخصا للعيان وكذلك غارباها، وقد أحدث فى محلها بناء جعلته دولة الحماية من جملة مرافقها.

ويوجد الآن باب بالنهج الموصل من باب منصور العلج لدار السمن، يسمى باب عيسى، وهو غير الأول قطعا، ولعله هو الذى كان يعرف بباب سعيد قديما، فلما هدم باب عيسى نقل اسمه إليه لقربه منه.

وأما باب عبد الرزاق فقد أدركته قائم العين متقن البناء محكم الصنع كان يخرج منه للحبول محل البستان العمومى الآن، ثم هد فى هذه الأزمنة الأخيرة ولم يبق له رسم ولا طلل، وصار محله براحا.

وأما باب بريمة فلا زال قائم العين إلى وقتنا هذا، غير أن الجدار المتصل به هدته الدولة الحامية ولم يبق للباب بعد هد هذا الجدار فائدة.

وأما باقى أبواب المدينة التى لم يقع لها تعرض ممن أسلفنا؛ فمنها باب السيبة وموقعه فى الجانب الغربى الجنوبى خارج باب الجديد المعروف بهذا الاسم إلى الآن بُنِىَ باب السيبة هذا على عهد السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام، وذلك لما أضرمت نار الفتن البربرية وتفاحش عيث أهل الزيغ والبغى وصارت لصوصهم توالى النهب لكل ما وجدت إليه سبيلا خارج بابَى الجديد وبريمة، وتفاحش الضرر

بالأهالى سكان البلد وضاقوا ذرعا من ذلك، بنى هذا الباب إذ ذاك على يد الباشا القائد محمد بن العـواد الكبير، وهذا وجه إضافته للسيبـة، تنفتح دفتا هذا الباب بين قوسين يعلوهما سقف وبين هذين البابين - أعنـى باب الجديد والسيبة - سوق به دكاكين للبيع والابتـياع وفسيح متسع كـانت تباع فيه الخيل والبغـال والحمير كل يوم خميس وأحـد، ثم تعطل يوم الأحد وبقى يوم الخميس إلى إن نـقل بعد نشر الحمـاية للمـحل الذى يعمـر فيه الآن خـارج المدينة بين ضـريحى سيـدى سعـيد المَشَنْزَائى[1] وسيدى محمد بن عيـسى - رضى الله عنهما - كل يوم خميس كما يعمر كل يوم أربعاء بالمحل سوق بهيمة الانعام.

ومنها باب سيدى سعيـد، ويقال له باب الملاح، وباب وجه العروس وموقع هذا الباب فى الربع الغربى الجنوبى، وهو من تأسيس السلطان المولى عبد الرحمن ابن هشام أنشأه أيضا عند شق البرابر عـصا الطاعة وامتداد تمردهم وإضرارهـم بأهل الذمة بنهب أمتـعتهم، حيث كانت حارتهم خارج سـور البلد عن يسار الخارج من باب بريمة، فأنشـأ المولى عبد الرحـمن هذا الباب والسور الممـتد منه إلى أن اتصل بباب بريمة أحد أبواب الفـخامة الإسماعيلية لـعاصمته المكناسية، وتنـفتح دفتا هذا الباب بين قـوسين يعلوهما سقف وإضافـته لسيدى سـعيد لوقوع ضريـحه وزاويته خارجه وللمـلاح لمجاورته له واتصاله ببابه، ولوجه العـروس لكون المزارع خارجه تسمى بوجه العروس، وذلك لنضارة اخضراره وبهجة أنواره فى سائر فصول السنة لأن جل الخضر التى تجبى للمدينة إنما تزرع ثمة.

ومنها باب زين العـابدين موقع هذا الباب فى الجـانب الغربى الجنوبى على يسـار الخارج من باب منصـور العلج لبطحـاء الهديم، بنى هذا البـاب المولى زين العابدين بن السلطان الأعظم المولى إسـماعيل أيام إمرته، تنفتح دفـتاه بين قوسين يعلوهما سقف فوقه غرفة.

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «المشترائى».

ومنها باب ابن القارى موقعه فى الجانب الغربى الجنوبى نسابقه، وهو باب محكم البناء يعلوه برج هائل يشتمل هذا الباب على بابين أحدهما يدخل منه لناحية القصور الملوكية من جهة صهريج السوانى، والآخر يدخل منه لناحية الأروى الإسماعيلى ومساكن الجيش الملوكى الذى كان بمثابة الحرس.

ومنها باب البطيوى، موقعه فى الجانب الغربى، وهو باب متقن البناء فى غاية الإحكام، يدخل منه لناحية الأروى المذكور.

ومنها باب كبيش - بصيغة التصغير - موقعه فى الجانب الشرقى فى ناحية الأروى كذلك أيضا.

ومنها باب الناعورة وموقعه فى الجانب الشرقى الشمالى يعلوه برج عظيم هائل محكم البناء عجيب الإتقان، أحدث السلطان العظيم الشان المولى الحسن فى هذا البرج بإزاء هذا الباب بابا آخر قبالة قصر المحنشة السعيد، ومنه اليوم مرور كل صادر ووارد ممن يأتى من ناحيته، ووراء هذا الباب باب آخر يعرف بباب الناعورة البرانى وهو حديث البناء ولا أستحضر الآن بانيه.

ومنها باب القزدير موقعه فى الجانب الشرقى يخرج منه لناحية ضريح أبى زكرياء الصبان، تنفتح دفتاه بين قوسين عليهما سقف، ومن هذا الباب كان دخول جيوش فرنسا الاستعمارية لهذه الحضرة المكناسية، وذلك فى زوال يوم الخميس ثامن جمادى الثانية عام ثمانية وعرين وثلاثمائة وألف موافق شهر مايو بلغتنا سنة إحدى عشرة وتسعمائة وألف على ما يأتى مفصلا بحول الله.

ومنها باب أبى العمائر خارب باب الحجر المتقدم الذكر كان موقعه أمام باب المرس الآتى، وقد تقدمت الإشارة لوجه هذه الإضافة وما آل إليه أمره.

ومنها باب المرس وهو لناحية القبلة، وإنا أضيف للمرس لوقوع المرس

الإسماعيلـى الهائل خارجه وهذه الأبواب الثمانيـة كلها - والله أعلم - من إنشاء المولى إسماعيل، والمرس المذكور هو من أعظم الآثار الإسماعيلية، وقد أدركنا هذا المرس يعمر بما يجبى إليه من زكوات الإيالة المولوية المجاورة للديار المكناسية وعليه قيـمون يحرسـونه وأمناء على محصـولات ما تجبى إليـه سنويا إلى أن اختل ذلك بحدوث الترتيب والضرائب الوقتية.

فهذه أبواب المدينة الموجودة لهـذا العهد، وكلها كما علمت من التـأسيسات الإسماعيلية غير باب زين العابدين، وبابى السيبة، ووجه العروس.

أما الأول فلولده من صلبه، وأما الأخيران فلحـفيده مولاى عبد الرحمن بن هشام بن محـمد بن عبد الله بن إسـماعيل، وقد أسس غيـر ما ذكر من الأبواب العظيـمة ذات الهيـاكل المدهشة التـى صارت داخل المدينة وبالأخص فى قـصبـته السعيدة.

قال أبو القـاسم الزيانى ومن تابعه: إنه جعل للقـصبة عشـرين بابا فى غاية السعة والارتفاع مـقبوة، وفوق كل باب منها برج عظيم عليه مـن المدافع النحاسية العظيمة الأشكال ما يقضى منه العجب. اهـ.

قلت: هذا غالب ما يتعلق بتفاصيل التأسيسات المكناسية من لدن شأنها إلى الوقت الحاضر، وأما الإتيان على جميعهـا فمن قبيل المحال، لا يعلم حقيقة ذلك إلا الكبير المتعال، وما أتينا به من ذلك لم يحـوه قبل تقييدنا هذا ديوان، ولا حاز فضـيلة حفظه وجـمعه واحـد من أبناء الإنسان، على طول الآنات ومـر الزمان، والفضل فى ذلك لـلواهب الفتاح المنان، وأنت ترى جل تلـك التأسيـسات والمآثر الخالدة التالدة، إنما هى لملوكنا العلويين، وقاداتنـا الأكرمين، ذوى الأيادى البيضاء على الإسلام والمسلمين، أعز الله كلمتهم، وأدام فى سماء المعالى منزلتهم، آمين.

[المطلب الثانى]

[فى نعوتها التى أسلت عن الحسناء والحسن]

[وأنست من البقاع سواها كل سهل وحزن]

قال فى الروض: ولو لم يكن من مفاخر مدينة مكناسة إلا اشتمال عملها على مدفن ولىّ الله تعالى المجمع عليه شيخ المشايخ سيدى أبى يعزى، لكان كافيا وقد ذكرت فى الفهرسة المرسومة بالتعلل برسوم الإسناد ـ بعد انتقال أهل المنزل والناد ـ بعض من لقيت بها كالشيخ الفقيه المتفنن أبى زيد عبد الرحمن الكوانى، والشيخ الأستاذ أبى الحسن بن منون الحسنى، والشيخ الخطيب الأحفل أبى العباس أحمد بن سعيد الغفجميسى، كما ذكرت هناك شيخنا العلامة أبا عبد الله القورى فيمن لقيت بمدينة فاس كلأها الله تعالى، وكان هذان الشيخان قد ارتحلا من مكناسة إلى فاس وسبب ارتحالهما مشهور عند الناس، فلنقبض عنه العنان والله المستعان. اهـ. من خطه(1).

قلت: أبو يعزى(2)، هو الولى الكامل العارف الشهير قال فيه ابن أبى زرع فى «روض القرطاس»: قطب دهره، أعجوبة عصره، أبو يَعْزَى يِلَنُّور بن ميمون ابن عبد الله الهزميرى، قيل من بنى صبيح من هسكورة، مات وقد نيف على المائة وثلاثين سنة، أقام منها عشرين سنة سائحا فى الجبال المشرفة على تنميل، ثم ارتحل إلى السواحل فقام بها منقطعا ثمانى عشرة سنة، لا يتعيش إلا من نبات الأرض، وكان أسود كبدى اللون طويلا رقيقا يلبس تليسا وبرنسا مرقعا وشاشية عزف على رأسه. اهـ.

ونقل فى المعزى عن عصريه مولانا عبد القادر الجيلانى أنه قال فيه إنه عبد حبشى. اهـ.

---

(1) الروض الهتون – ص ١٢٥.

(2) له ترجمة في شرف الطالب في موسوعة أعلام المغرب ١/ ٣٦٥.

وكذا اختلفوا فى اسم أبيه فقيل: ميمون كما تقدم، وقيل عبد الرحمن، وقيل عبد الله، وقد كان وجهه عاريا لا شعر فيه، وما وقع فى كلام الشيخ زروق من أنه دكالى فهو باعتبار كثرة مكثه بدكالة، وليس هو من نفس دكالة كما بينه فى المعزى، وكان بربرى اللسان أميا لا يحفظ إلا الفاتحة والإخلاص والمعوذتين، ومع ذلك كان يرد على من أخطأ فى القراءة عنده، ويلنُّور هو اسمه وقيل يالبخث.

من شيوخه: أبو شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجى دفين آزمور خدمه كثيرا، ومن شيوخه أبو عبد الله بن آمغار وغيرهما من الشيوخ الذين لقيهم، وهم نحو أربعين.

وممن أخذ عن أبى يعزى: أبو مدين الغوث المتوفى سنة أربع وتسعين وخمسمائة المدفون حذو تلمسان، وممن أخذ عنه أيضا الشيخ الفقيه الصالح، الإمام المرشد الناصح، سيدى على بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حِرْزهم - بكسر الحاء المهملة وسكون الراء وبعدها زاى - وربّما قيل ابن حرازهم كما فى الطبقات الكبرى للسبكى[1] وغيره المتوفى بفاس آخر يوم من شعبان سنة تسع وخمسين وقيل ستة وستين وخمسمائة وغيرهما من أئمة الشريعة والحقيقة رضوان الله عنهم.

توفى أبو يَعْزَى كما سبق عن نحو مائة وثلاثين سنة فى شهر شوال سنة اثنين وتسعين وخمسمائة[2]، ودفن بثاغية من جبل أيرجان ويقال فيه أركان - بالكاف المعقودة - وقبره هنالك إلى الحين الحالى مزارة عظيمة عليه مشهد فاخر، هو والله أعلم من بناءات مولانا الجدابى النصر مولانا إسماعيل.

وكشف أبى يعزى وكراماته وطاعة الأسود له واستجابة دعاء زائريه وقضاء

(١) طبقات السبكى ٦/٢٥٨.

(٢) في شرف الطالب: «سنة ٥٦١ هـ».

حوائجهم بإذن الله تعالى وإطعامه لزائريه الأطعمة المتنوعة كل وما يناسبه، واقتصاره فى نفسه على نبات الأرض وما تأكله البهائم أشهر من أن يذكر، وأجلى من أن يسطر.

وقد أفرد مناقبه ابن أبى القاسم الصومعى بمجموع فلينظر، وكان ابن غازى عنى بكون مدفن أبى يعزى من عمل مكناسة أنه كان داخلا تحت حكم ولاته، وقد انفصل محل دفنه من عمل عمال مكناسة قديما وصار من جملة عمل عمال قبيلة زيان، ولا ريب أن افتخار مدينة مكناسة بالقرب من مولانا إدريس الأكبر أجل وأعظم من افتخارها بالقرب من أبى يعزى.

قال فى «الروض»: نقل عن ابن الخطيب السلمانى فى وصف هذه البلدة فى كتابه «نفاضة الجراب» ما صورته وأطلت مدينة مكناسة فى مظهر النجد، رافلة فى حلل[١] الدوح، مبتسمة عن شنب المياه العذبة، سافرة عن أجمل المرأى، قد أحكم وضعها الذى أخرج المرعى، قيد البصر، وفذلكة الحسن، فنزلنا بها منزلا لا تستطيع العين أن تخلفه حسنا ووضعا، من بلد دارت به المجاشر المغلة، والتفت بسورة الزياتين المفيدة، وراق بخارجه للسلطان المستخلص الذى يسمو إليه الطرف، ورحب ساحة، والتفاف[٢] شجرة، ونباهة بنية، وإشراف ربوة.

ومثلت بإزائها الزاوية القُدْمى المعدة للوراد، ذات البركة النامية، والمئذنة السامية، والمرافق المتيسرة، يصاقبها الخان البديع المنصب، الحصين الغلق، الغاص بالسابلة والجوَّابة فى الأرض يبتغون من فضل الله، تقابلها غربا الزاوية الحديثة المربية برونق الشبيبة، ومزية الجدة والانفساح، وتفنن الاحتفال[٣] انتهى.

(١) في المطبوع: «حلة» ومثله فى الروض- ص ١٢٦ والمثبت من نفاضة الجراب - ص٣٧١.
(٢) تحرف في المطبوع إلى: «والتفات» وصوابه من النفاضة.
(٣) الروض الهتون - ص ١٢٦، نفاضة الجراب - ص ٣٧١ - ٣٧٢.

والزاويتان معا من بناء أمير المسلمين أبى الحسن المرينى، جدد الله تعالى عليه رحمته بفضله، إلا أن الأولى بناها فى دولة أبيه، والثانية بناها بعد استقلاله بالدولة.

ثم قال ابن الخطيب: وبداخلها مدارس ثلاث لبث العلم كلفت بها الملوك الجلة الهمم، وأخذها التنجيد، فجاءت فائقة الحسن: ما شئت من أبواب نحاسية وبرك فياضة تقذف فيها صافى الماء أعناق أسدية وفيها خزائن الكتب والجراية الدارة على العلماء والمتعلمين(١).

وتفضل هذه المدينة كثيرا من لداتها بصحة الهواء وتبحر أصناف الفواكه، وتعمير الخزين، ومداومة البر لجوار ترابها سليما من الفساد، معافى من العفن، إذ تقدم ساحات منازلها غالبا على أطباق الآلاف من الأقوات تتناقلها المواريث، ويصحبها التعمير وتتجافى عنها الأرض، ومحاسن هذه البلدة المباركة جمة قال ابن عبدون من أهلها ولله دره:

إن تفتخر فاس بما فى طيها ... وبأنها فى زيها حسناء
يكفيك من مكناسة أرجاؤها ... والأطيبان هواؤها والماء(٢)

ويسامتها شرقا جبل زرهون، المنبجس العيون، الظاهر البركة المتزاحم العمران الكثير الزياتين والأشجار، قد جلله الله شكراً ورزقا حسنًا فهو عنصر الخير ومادة المجبى وفى المدينة دور نبيهة، وبنى أصيلة، والله تعالى ولى من اشتملت ليه بقدرته. وفيها أقول:

بالحسن من مكناسة الزيتون ... قد صح عذر الناظر المفتون

---

(١) نفاضة الجراب - ص٣٧٢.
(٢) نفاضة الجراب - ص٣٧٢.

فضل الـهواء وصحـة الماء الذى ... يجـرى بهـا وسـلامـة المخـزون

سـحت عليـهـا كـل عين ثَرّه ... للمـزن هاميـة الغـمـام هتُـون

فـاحـمـر خـدُّ الورد بين أباطح ... وافـتـرّ ثغر الـزهر فوق غـصـون

ولقد كـفاها شاهدا مهـما ادعت ... قصب الـسياق القـربُ من زَرْهُون

جـبل تضاحكـت البروق بجـوّه ... فـبكت عِـذَابُ عـيـونه بعـيـون

وكـأنمـا هو بربرى وافـد[1] ... فى لـوحـه والتـين والزيتـون

حـييت من بلد خـصيب أرضـه ... مـثـوى أمـان أو مناخ أمـون

وضفت عليك[2] من الإله عناية ... تكسـوك ثوبى أمنـة وسكون[3]

انتهى.

ما قصـدنا نقله من نفاضة الجراب، ولم أكن وقفت عليـها حين ابتدأت هذا المجموع فلذلك اقـتصرت فى صدره على الخمسـة الأبيات التى علقت بحفظى من هذه القصيدة.

وقال فى «ريحانة الكتـاب. ونجعة المنتاب»: مكناسة مـدينة أصيلة، وشعب للمحـاسن وفصيـلة. فضلها الله تعـالى ورعاها، وأخرج مـنها ماءها ومـرعاها، فجانبـها مريع، وخيرها سـريع، ووضعها له فى فقـه الفضائل تفريع، عدل فـيها الزمان، وانسدل الأمان، وفاقت الفواكه فواكهها، ولا سيما الرمان، وحفظ أقواتها الاختزان، ولطفت فيها الأوانى والكيزان، ودنا من الحضرة جوارها، فكثر قصادها من الوزراء وزوارها، وبها المدارس والفقهـاء، ولقصبتها الأبهة والبهـاء، والمقاصير والأبهاء. انتهى. من خطه.

(١) كذا نفاضة الجراب والروض الهتون. وفى المطبوع: «نافذ».

(٢) في نفاضة الجراب: «وضعت إليك»، وما هنا في الموضعين رواية: «الروض الهتون».

(٣) الخبر والأبيات في الروض الهتون - ص ١٢٨، ونفاضة الجراب - ص٣٧٢ - ٣٧٣ .

قلت: «نفاضة الجراب. فى علالة الاغـتراب. بمن بقى من الأصحاب» هى فى أربعة أسفار.

«وريحانة الكتاب. ونجـعة المنتاب. فى الرسائل والمكاتبـات» فى جزء ضخم وهى مما ضمـته مكتبتـنا، وقد وهم من قال إنها فى ثمـانية أسفـار، وما نقله ابن غازى عنها مـثله باللفظ لابن الخطيب أيضا فى «معـيار الاختيار، فـى ذكر المعاهد والديار»، ومـراد ابن الخطيب بالحضـرة فاس، كمـا نبه فى «نفح الطيـب» قائلا: ويعنى بالحضرة مدينـة فاس المحروسة، لأنها إذ ذاك كرسى الخلافـة ومكناسة مقر الوزارة، وأهل المغرب يعبرون عن المدينة التى فيها كرسى الخلافة بالحضرة[1] هـ.

وأبو عبـد الله بن الخطيب هو الإمام القـدوة الهمـام، بغية الآمـل، العالم الأديب الكامل، الفقيـه الأكتب المتحلى بأجمل الشمـائل، الحافظ المتقن، المدرس المتفنن، ذو الوزارتين، لسان الدنيا والدين، وفخر الإسلام بالأندلس فى عصره أبو عبد الله محمـد بن الفقيه الرئيس عبد الله بن الفقيه الكاتب القائـد سعيد بن عبد الله بن الفقيه الصالح ولى الله سعيد بن على بن أحمد السلمانى القرشى القرطبى الأصل ثم الطليطلى ثم اللوشى ثم الغـرناطى المالكى المذهب. يعرف بيتـهم قديما ببنى الوزير، وحديثـا بلوشة ببنى الخطيب، ولد فى الخـامس والعشرين من شـهر رجب سنة ثلاث عشـر وسبعـمائة، وقرأ القـرآن أولا على أبى عبد الله بن عـبد المولى العواد، ثم على أستاذ الجـماعة أبى الحسن القيجاطى، وقرأ العـربية والفقه والتفسيـر على العلامة أبى عبد الله البيـرى، وقرأ على الخطيب ابن جزى، وعلى قاضى الجـماعـة أبى عبد الله بن بـكر، وتأدب على الرئيس ابن الجيـاب، وأخذ الطب والتعاليم وصناعـة التعديل عن أبى زكريا بن هذيل، وقـرأ على العلامة أبى القاسم مـحمد بن أحـمد السبـتى قاضى الجمـاعة بغرناطة المتـوفى سنة إحدى

(١) نفح الطيب ٦/ ٢١٣.

وستين وسبعمائة، وعلى العلامة شمس الدين أبى عبد الله محمد بن جابر المتوفى سنة سبعمائة وتسع وسبعين، وعلى العلامة محمد ابن محمد بن أحمد القرشى المَقَّرِى قاضى القضاة بفاس وغيرها من العلماء الأعلام.

وأخذ عنه أفاضل الفطاحل من قادة العلم كابن المهنى، والوزير ابن زمرك، وأبى عبد الله الشريشى، وأحمد بن سليمان بن فركون، وأبى محمد بن عطية وغيرهم.

وترجمته أفردت بالتأليف، توفى شهيدا بفاس سنة ست وسبعين وسبعمائة ودفن خارج باب الشريعة المعروف اليوم بباب محروق، وضريحه الآن عليه حوش صغير بمقابلة من روضة سيدى عبد النور، يفصل بينهما الطريق المرور عليها لظهر الخميس.

والزاويتان اللتان وصفهما ابن الخطيب فى كلامه المتقدم، هما: الزاوية القورجية، وزاوية باب المشاورين، والمدارس الثلاث، هى: مدرسة الشهود، والمدرسة الجديدة، وهى المعروفة اليوم بالبوعنانية، ومدرسة سماط العدول الآن، والقصبة هى: المرينية وقد بينا فيما سبق ما يتعلق بذلك كله.

وفى وصف هذه البلدة أيضًا يقول قاضى الدولة الإسماعيلية بها العلامة المبرز سيدى أبو مدين السوسى فى كتاب رفعه لمولانا إسماعيل: هذه الحضرة المشرفة بعناية مولانا إذ جعلها من ثماره. واصطفاها لقربه وجواره. وشنفها من بديع الفراديس ورفيع القباب، بما لو رآه الإسكندر لاعترف بأنه العجب العجاب، قد حليت من المحاسن بمنتهاها، وأسعدها الإسعاف بنيل أرفع مشتهاها، والعلوم قد تدفقت بها أنهارها، وتفتقت على أرج التحصيل أزهارها هـ.

وقد أكثر الشعراء والكتاب قديما وحديثا من وصف هذه الدينة التى كل بلد من محاسنها مدينة، وذكر شرفها الأصيل، والتفنن فى نشر ذلك فى قوالب

الإجمال والتفصيل، فمن ذلك قول العلامة الذى لا يحتاج إلى التمييز بعلامة سيدى محمد بن أحمد المسناوى:

كذب الذين ترفعت فى زعمهم ... فاس على مكناسة الزيتون
وأصاب من جعلت له مكناسة ... دار الإمارة والعلا والدين
بأبى العمائر عمرت أرجاؤها ... وترنمت أطيارها فى الحين

وقول علامتها وقاضيها أبى القاسم بن سعيد العميرى مذيلا لهذه الأبيات، ومعددا ما أحرزته من فاخر محاسن الصفات:

خطت قصيبتها بأسعد طالع ... فاختص فيها الملك بالتمكين
وبمشتهاها منتهى ما تشتهى ... للعين والسلوان فى وسلين
وبباب جمال يفوق جمالها ... مرأى دمشق ومرأى قنسرين
نشرت عليها محاسنا ورزيغة ... بالروح والريحان والنسرين

وقوله من قصيدة تنيف على عشرين بيتا:

أمكناسة الزيتون يا خير بلدة ... حدائقها تزهو على الحدق النجل
وما القول فيمن حال حال وصاله ... فلا جعل الله الموانع فى حل
إذا لاح نحو الغرب برق هوت به ... دواعى الجوى بعد العلو إلى السفل
وإن هبت الأرواح رق وراق من ... يسهل من أمريه ما ليس بالسهل
وإن غنت الورقاء بالأيك روعت ... فؤادا دعاه الشوق بالجد والهزل

وقول الشريف المنيف المولى محمد الغالى بن محمد الحسنى الإدريسى العمرانى اللجائى فى كتابه «دوحة المجد والتمكين» فى وزارة بنى العشرين

ومكناسة دار علم، وادراك وفهم، كانبها علماء فضلاء، وأئمة نبلاء فقهاء، وبدور سافرة، لا تريد إلا الدار الآخرة. انتهى.

وقول بعض شعراء الدولة الإسماعيلية وظرفاء أدبائها:

أمكـناسـة إنـى لرؤيـاك آمل ... وإن عاقنى شغل من الدهر شاغل
فـأنت التى حزت المفـاخر كلهـا ... ومنك تنشت فى البـلاد الفضـائل
إذا افـتخـرت مراكش ببـديعهـا ... ففى القـبة الخضرا تضـيق الأقاول
وإن ذكـرت مصـر بجـامع أزهر ... ففى الجـامع الخضـرا بدور كوامل
لك الفخـر يا مكناسة قد حـويته ... كـأنك بحـر والبـلاد جـداول

وقول العلامة الأديب الماهر أبى العباس أحمد بن على بن أحمد مصباح من قصيدة طنانة يمدح بها سيدنا الجد مولانا إسماعيل:

لئن مسها الأعيـاء أو شفها الظما ... فـمكناسـة راحـاتهـا وارتواؤها
بلاد هى الدنيـا بأجـمعـهـا التى ... أضـاء على كل البـلاد ضـيـاؤها
فـجنتـهـا الزوراء والزهر أهلهـا ... وأربعـهـا الزهرا ودجلة مـاؤها
إذا ما رأت أعلامـها نفس مدنف ... مـعنى تداعى للـرحـيل عـناؤها
وقـصر علـى أفنائها وقـصـورها ... مزايا جـسام ليس يخـشى فناؤها
فـتانوتهـا مـثل السمـا وقـبابهـا ... بدور أمـيـر المـؤمنين سنـاؤها

وقول الأديب سيـدى إدريس بن أحمد الوكيلى كـما بكناشة العلامـة المفتى سيدى بو بكر بن عبد الرحمن المنجرة ومن خطه نقلت:

مـكـنـاســـــــة دار عـلـم ... وبـالســــــرور بـنيــــه

تـاج الملـوك حـــبـــاهـا ... لـهــــا بذاك مـــــزيـه

وأهلـهـــا خـيـــر قــوم ... لهـم عـــهـــود وفـــيـــه

وقول الفقيـه الأديب العلامة العدل المدرس سيدى التـهامى بن الطيب آمغار رحمه الله تعالى:

لله مـــا أبهى عـمـائـر الحـمى ... مـــعـــالم الأنـس، مطالع المنى

مـعـاهدا مـابرحت مـحـفـوفـة ... بظـل أمن من فـــراديس الهـنا

قلبى إليـها قـد صبا كـيف وهى ... أول أرض مـــسنى منهـــا الثـــرا

مكناســـة قطب الـبـلاد كلهـــا ... وشـمـسـهـا التى إليــهـا المنتهى

أعظم بها من حـضرة عم الورى ... مـــددها ونفــعـــهـــا طول المدا

فـيـا لهـا من بلد يجلو الصـدى ... عن القلـوب الماء منهـا والـهـوى

أبو العـمـائر سـقـاها سلسـلا ... عـذبا مـعـينـا سـالما من القـذى

وطود زرهـون بقـــربهـــا زها ... على الجـبـال كلهـا وقـد سـمـا

فكل من أبـصـر مـعنى لفـظهـا ... يود لو أنـه فـيــهـــا قـــد ثوى

لا تسمـعن قول جحـود لم يجد ... إلى سـمـاء مجـدها من مـرتقى

ودت بقـــاع الأرض طرًّا أن ترى ... مـا خـصصت مـن السناء والسنا

أشـرقت الدنيـا بهـا إذ أحـدقت ... بهـا قصـور وسط روض مشـتهـا

مـا أعين رأت ولا قد سـمـعت ... أذن ولا خطـر قط بحــــشـــا

رفع سـمكها شـريف مـصطفى ... من آل أفـضل العـبـاد المصطفى

مشرفة على حمى حمرية ... ذات المعانى والحلى والحلا
تالله ما أبصر طرف مثلها ... فى الكون طرا قط منذ قد نشا
يكاد زيتها يضئ فى الدجى ... من قبل أن يمسه جمر الغضا
صفوفها جند لحاضرتها ... يحرسها ممن بغى ومن طغا
محتميا بعلمى ورزيغة ... ذات السرور والحبور والهنا
تأمل فى أبى السلو إذ جرى ... مسبحا لله فى در الحصا
كسا الرياض حللا من سندس ... فسجدت لله شكرا للحبا
حلى السواعد سوارى ذهب ... والساق خلخالى لجين قد صفا
يغشى عيون الناظرين نورها ... من كل لون مشرق يذكى الحجا
بالبنفسج زها بزرقة ... على يواقيت الشقيق وازدهى
فانتصر الورد له لمرحم ... فسليا لسانه من القفا
وصعد النرجس فيه طرفه ... أطراق كرا إن النعام فى القرى
فطأطأ الرأس صغارا وانثنى ... وأظهر الخجلة سنه واستحا
شأن من طغى تجبرا ... لا بد أن ينبذ يوما بالعرا
وأظهر الخيرى خيرا فى الضحى ... وهو يشرق إذا الليل سجا
مختفيا من الرقيب فى الدجى ... وشانه النمام خبرا ففشا
حروف خط فوق طرس أخضر ... مرصع جاءت لمعنى معتما
أصل زكا فرع زها زهر ذكا ... نهر سلا روح جلا ظل ضفا
تنازع الأذن العيون غبطة ... فيها إذا سجا الحمام أو شدا
جنتها الدنيا التى قد زخرفت ... لمن أقر نفسه على الهوى

هوى لكن محجوبة فى خدرها نحن للعشاق أرباب النهى
أطرق طرف الشمس منها خجلا وربما غاب بسحب كالدمى
فكم رشفنا ثغرها بمحضر من خلها الذى إليه تنتما
وكم أدارت كأس أنس فى الدجا حتى بدا وجه الصباح وانجلا
وسبحت كأس ببحر من طلا ملتطم برشف ريق قد شفنا
أم الكنوز قد حوى مالكها من الكنوز الفاخرات ما حوا
أم العشير حولها تفخر فى حللها على بنى موسى الرضى
وما رعت ذمام قصر مَرِض[1] ولا ذمام قصر[2] يكدر السها
بل رغبت عنهم عساها أن ترى وجه العروس كى تفوز بالمنى
لله ما أبهى محياه الذى جماله فى كل عين قد حلا
يحن شوقًا لجنان العافية شغفه الوهاد منه والربا
وما استوى إلى مياه ملك فباب ريح اليمن منتهى الحمى
محل أنس الغانيات فى الضحى ومربع الظبا ومرتع المها
فالنور منه شاخص كمقلة من ذهب إنسانها مسك ذكا
يهوى شباب الشمس غضا ناضرا دابا ويذيل إذا الشبيب عرا
ويحه أحرق حشاه حبها فصار أحوي من تباريح الجوى
كأن أرضه سماء قد بدلت نجومها مشرقة وقت الضحى
وحوله الرياض قدما قد محت رسومه أيدى الزمان فانمحى
أين البروج والحصون حولها والمسجد الأسمى السنى المبتنا

(١) فى المطبوع: «مرضن».
(٢) كذا فى المطبوع.

أودى بهـا الدهر الديهـار إن فى ذاك لآيــة لأربــاب الــنــهــى

فــيــالهــا من آية دلـت على أن ليس يبـقى غـير من لـه البقـا

لا تعـجبن ما دمت حـيا يا فـتى من كــــدر الدهـر إذا هو سـطا

مـا أبرزت إلا حـقـيق نعـتـهـا لكن على غـيـر منعـوتها جرى

مـا زال يوم الأربعــاء يذكـرنى وحـال هذه المغـانـى فى الصـبـا

على أنى فى رتبـة تسمـو السهـا أحـبـر فى روض الـعلوم والعـلا

أحــــرر الـنقل بـذهن ثـاقب ليلا وعند الصـبح يحمـد السرى

فــأحـكم الدرس بقـــول رائق يملى على كل ضـمـيـر مـا نوى

أطواراً أطـرب لحل مــــشـكل وربمـا أنصـب ممـا قــــــد زوا

مـشمـرا عن سـاعـد الجد وقـد سـاعـدنـا الجـد بكل مـبـتـغى

ممتطـيـا ذرى المعــالى دائمــا وقـصد من شـيمـته العلو العـلا

مــوفــقـا بـالله مــهــديا به مــؤيدا بنصــره كــمــا أشــا

فـقل لمن رام لحـــاق رتبــتى شـتــان مـا بـين الثريا والـثـرا

وهل ينال المجـد يـومـا من ونى أم هل ينال الرشيـد يوما من غـفا

بل ذاك مـحض فـضل ربنا الذى أعطى العـبــد كل شىء فـهـدى

ظنـوا بأنـى قلـق ومــــا دروا أنى امـرؤ عن مــوقف الذل نأى

والحـر يسـتـف الثرى ولا يرى عليــه فــضل أحــد من الورى

همـــتــه بالـله لا بغــيــره بالـله أخــــذه وبـالله العـطا

ومن تمـام فــضله عـليـــه أن منع مـا أطغـى وأعطى مـا كـفى

أحـمده حـمـدا يوافى مـا حبـا غـيـر أن لا أحـصى عليـه من ثنا

اهـ. كما وجد.

وقول بعض نبغاء الثغر التطوانى متوجا أوائل الصدور بما لفظه «مكناسة حسناء»:

مكناسة الزيتون فردوس الدنا ... تزهو ببهجتها على الزوراء
كلفت بها النجم المنيرة فانثنت ... سكرى بها تدنو إلى البطحاء
نور الغزالة مستمد جمالها ... حصباؤها در ترى للرائى
أبناؤها أهل الذكاء سجية ... أهل السخا يسدون للغرباء
سيما التمدن فى جباههم فهم ... بين الورى كالشامة البيضاء
تختال من رقص البلاغة ألسن ... لهم كميس الغادة العذراء
حزت الفضائل والتقدم للعلا ... مكناسة والطيب فى الأهواء
سادت طرائقك الفسيحة غيرها ... نسخت بحسن آية الأقذاء
نالت عذوبة كوثر أودية ... تختال فخرا من لجين الماء
الله يعلم أننى أحببتها ... أو ما تراها مسكن النبلاء
أهل بهم سعد الزمان وأخضبت ... أهل السخا بالبلدة الغراء

وقول صديقنا المؤرخ الأشهر أبى عبد الله محمد بو جندار الرباطى دام إسعاده:

مكناسة عهدى بها مرفوعة ... فلايا نصبت على التمييز
فتأرجت وتبرجت وتبرزت ... مثل العرائس ساعة التبريز
وكفاك أن رياضها وحياضها ... تنسيك فى «فرساى» من باريز
هاتيك إسماعيل أبدع صنعها ... ولهذه آثار صنع «لويز»

وكـلاهـمـا بلـد عليـه حلة		فى غـايـة الإبداع والـتطـريز
وعلى قصورهما المحاسن أصبحت		مـقـصـورة كـتـقـاصـيـر الإبريز
من لى بزورة تلـك أو هذى فـهل		حكم القـضاء أتى عـلى التجـويز
لا خـيب الله الـرجـا حـتى أرى		وعـد الزمـان اليـوم فـى تنجـيـز

وقوله:

مكناس ليـست لو ترى حجـراتها		إلا كناسـا للظبـا ومـهـاتهـا
بلد بهـا يأتى إلـى المضنى الشـفـا		يا حـسـرة المضنى إذا لم يـأتهـا
طاب الهواء مع الـهوى فى حيـها		والماء كـالصـهـباء فى كـاسـاتهـا
إن جـئتـهـا تسقـى بأكواب وكـأ		س من مـعين فى أكف سـقـاتهـا
فكـأنما هى جنـة الرضـوان طا		ف الحـور والولدان فى عـرصاتهـا
سـافـر إليـهـا عـاجـلا أو آجـلا		واغنم بهـا السـراء قـبل فـواتهـا
وإذا لمحت مـعاهـدا قد أومـضت		ومـضت بهـا اللذات فى أوقـاتهـا
حى ابن زيدان الرِّضـا والأحمـديـ		ـن الناظر الأسمى وخـير قضـاتها

وقول الأديب الماهـر الفقيـه السيـد إبراهيم بن أحمد السـلوى العدل الأول بنظارة الأحباس بالدار البيضاء:

إن مكناس بـلدة خـصـهـا اللـ		ـه برحـب الفنا وطـيب النسـيم
بلدة للـمـحـاسن الغـر أمـست		مـركـزا ينتـديه كـل كـريم
بلد طـيب ومـرعى فـسـيح		خـصب مـعشب بصنـع الحكيم
فـيـهـا الاطمـئـنان ألقى عـصـاه		وازدهت فى مـعـارف وعـلوم

وبهـا كـانت الفطـاحل من كـ ـل وزير وقـائد وزعـيم
وبهـا الدولة العـظيـمـة كـانت لأبى النصـر والفـخار الصـميم
كـان فـيـهـا إذ ذاك وقع عظيم ودوى يـروع كـل مـظـلـوم

إلى أن قال:

وبمكـناس كـم مـآثـر تتـلى أودعـتـهـا الـرواة بطن رقـيم
وكـفى نهـرها الـذى حل منهـا بمحـل السـوار فـى زند ريم
مـا لغـمـدان ما لبـغـداد مـعنى مـشـبه بالذى حـوت من رسـوم
ذاك باب المنصـور يشهد بالـعجـ ـز لمـن رامـه بعـىّ ذمـيم
واسـتـجـدت بهـمـة المتـوليـ ـهـا فـقـرت جفـون كل مـقـيم
وإلـى الآن لـم تـزل فـى تـرق واعـتناء مـعـضـدا بقـروم

وقول نابغة الشرق وناطورة الأدب الشيخ رشيد مصوبع اللبنانى:

فى المغرب الأقـصى رأيت مدينة فـيـه تعـد حـديقـة للـناظر
مكناس هاتيك الـديار فحيـهـا يا من مـررت بهـا بشـوق وافـر
لم يحك رقـتهـا سوى ماء بـهـا شـبم وغـيـر شـذا نسيم عـاطر

وقول صـاحبنا الفقيـه الأديب الناظم النثر السيـد محمـد بن الحاج السلمى الفاسى:

على مكـناسـة الزيتـون سـور يقـول لسـاكنيـهـا لا تـخـافـوا
هى الدنيـا جـمـالا وافـتـخـارا وإنى فى حـيـاطتـهـا لـقـاف

وقوله على لسانها:

يمثلني ذو اللب أول ما يرى حصوني بجيش للحروب عرمرم
فيخشى من التمثيل ما ليس يختشى من المرهف البتار وهو مصرم
فصينت دماء القوم والمال كله وأصبح شمل البغى وهو مهشم
ولم لا وغصن الحسن منى أعاده جلال ملوك الغرب ذاك المقدم
بمولاى إسماعيل كنت وحيدة وكل بحسن الوضع منى مغرم
فلا زال رضوان من الله عاطفا على رمسه والشأن منى معظم

وقوله:

بمكناسة الزيتون من ملح الحسن معان بها تعلو على كل ذى زين
لها الشرف الذاتى وفى الغير عارض إذا ما أعارت بعض ما لاح للعين
فمن شام دور الحى منها وقد سمت تخيل أزهارا منوعة اللون

وقول محبنا الفقيه العدل السيد عبد القادر العلمى المكناسى شهر بالعرائشى:

يا ناظرا مكناسة الزيتون ذات البها والحسن والتحسين
نزه لحاظك فى أجنتها التى تحيى فؤاد العاشق المحزون
وانظر إلى أسوارها وبروجها قد أسست للفخر والتحصين
فكأنها ملك بدا فى عرشه ليرى دفاع الهاجم المفتون
أو أنها عذراء حسن أحرست بجبالها عن ناظر بعيون
أحسن بها من بلدة فمياهها قد أجريت من كوثر ومعين
يكفيك فيها شرحها بهوائها صدرا لمكلوم الحشا بعيون
ولحسن منظرها البديع أنشدت (يا ناظرا مكناسة الزيتون)

وقول صاحبنا الأديب الفقيه القاضي السيد محمد الشنكيطي البيضاوي:

لله لله ما أبهاك مكناس | أرض هي الأرض بل ناس هم الناس
بها القصور وأسوار مشيدة | كالراسيات وأبراج وأقواس
تجسم الفخر في تلك المعاقل والـ | ـجلال والعزم والسلطان والباس
وماؤها السلسبيل العذب باكره | ريح هو المسك أنفاس فأنفاس
يكفي مدينتها أن الكبير بها | يضيء من علمه الفياض مقباس
إلى روائح من أخلاقه عبقت | ما الرند منها وما الريحان والآس

وقول صديقنا العلامة المشارك المتضلع السيد أحمد بن العياشي سكيرج من قطعة:

فما مكناسة الزيتون إلا | جنان الخلد أو دار السلام
هي الدنيا بها قد حاط قاف | لها من كل ما يحتاط حام
فمن فيها يحل ينال أمنا | به يحظى بحفظ مستدام
وفيها وسادة فقهاء فاقوا | سواهم في جلال واحترام

وقوله:

عرج على مكناسة الزيتون | فيها حلول الطالع الميمون
بلد تريك ضخامة الملك العلي | وتريك ما هو قرة لعيون
بلد بها ماء الحياة جرى وقد | طاب الهوى فيها غير الدون
لله من بلد تحلى أهلها | بإقامة المفروض والمسنون
ولهم من الآداب ما يسبي النهى | مع حسن أخلاق برفع شئون

فعليهم أذكى السلام يعمهم بالطيب من صب بهم مفتون

وقوله:

سكنت في مكناس فعرفت خير الناس
حتى تكون مفاخرا أولى الندا والباس
بلد بها تحيا النفوس بطيب الأنفاس
ما دمت لم تسكن بها لم تحظ بالإيناس

وقوله:

مكنس الغزلان مكناس وهل مثل مكناس يرى في المغرب
بلد فاقت بمن حل بها وبماء وهواء طيب

وقوله:

هذه مكناس يا قوم بدت هل رأيتم حسنها يسبي النهى
بلدة طابت وطابت ناسها وبها الأنفس قرت عينها

وقوله:

خليل فسر بي[1] بين سربي لمكناس ففيها تطيب النفس من بين أنفاس
لقد زرتها أزمان كان مساعدي زماني بناس كنت أعتادهم ناسي
فشاهدت أرضا لا نظير لها ولا نظير لمن فيها لدى الجود والباس
وقد زادني فيها ابن زيدان غبطة بها وبه قد تم في الناس إيناسي
فَسِرْ بِي كي تدوم مسرتي فإن لم تَسِرْ بالرجل سرت على الرأس

(١) في المطبوع: «خليل سربي» وهو غير صحيح عروضيا، والأبيات من بحر الطويل.

وقول الأديب أبى على حسون بن على بن عمر القسمطينى المعروف بابن الفكون فى قصيدة له فى رحلته من قسمطينة إلى مراكش كتب بها إلى أبى البدر ابن مردانيش وهو بقسمطينة عدد فيها البلادات التى دخل فيها مطلعها:

ألا قل للسرى بن السرى أبى البدر الجواد الأريحى

إلى أن قال: فيها:

وما مكناسة إلا كناس لا حوى الطرف ذى حسن سنى

وقول الوزير السيد الشرقى الإسحاقى فى رحلته: تذاكرنا الغرب يوما ونحن بمصر فذكرنا مطمح النفس، ومحل الأنس، مكناسة الزيتون وما بها من المعاهد التى استفتى القلب فيها نفسه وإن أفتاه المفتون، ففتت الشوق مناكل كبد، وبرح كل منا بما يجد، فأنشدنى صاحبنا الفقيه الأديب السيد بلقاسم بن الفقيه العلامة السيد سعيد العميرى لنفسه ما أنشده أيام نزوحه عن الحضرة المذكورة وجلائه عنها أيام الحادث الجارف، الذى استدعى التالد والطارف، بناحية جبل غمارة:

يا لـلوى لعمارة شئمتها بغمارة
أرابنى اليوم أمر كنت امتطيت غماره

إلى أن قال:

وكيف لى وبكره خلى الحبيب وداره
فليس يبغى سواها مأوى ولو كان داره

وقول حبيبنا الفقيه الكاتب الشاعر المطبوع الشهير السيد الحاج عبد الله القباج مشطرا للقطعة الشنجيطية المارة:

لله لله ما أبهاك مكناس خصب ورخص وأغراس وأعراس

مكناس مـا نظرت عـيـنى نظيـرتهـا أرض هى الأرض بل ناس هم الناس
بهـا القـصـور وأسـوار مـشـيـدة شـتى وفيـهـا من الإفضـال أجناس
وبين سـاحـتـهـا الآثـار ثابتـة كـالراسـيـات وأبراج وأقـواس
تجـسم المجـد فى تلك المعـاقل والفـخـار والعـز قلب والعـلا راس
والمجـد فـيـهـا مـقـيم والمهـابة والجـلال والعـزم والسلطان والبـاس
ومـاؤها السلسـبـيل العـذب باكـره ريح الصـبـا وهواه الخـمـر والكاس
مـا مـر منهـا امـرؤ إلا ومـر به ريح هو المسـك أنفـاس فـأنـفـاس
يكفى مـديتـهـا أن الكبـيـر بهـا هو الإمـام الذى تسـبـو له فـاس
والأبلج الفرد من لو فى الظلام سرى يضىء من علمـه الفـياض مـقبـاس
إلى روائح من أخـلاقـه عـبـقت فـوق القيـاس وللأخـلاق مـقيـاس
كـأنهـا من جنان الخلد قـد هبطت مـا الرند منهـا وما الريحـان والآس

وقـول المشطر المذكـور لا زال يشنف الأسـمـاع بخـرائده، ويحلى النحـور بفرائده:

بمكناسـة الزيتـون أهل مـعـالى وأهل عـوالى بل وأهل عـلالى
بلاد هواهـا لا يقـاس بـه هوى بلاد حـبـاها الـله خـيـر زلال
بلاد هى السلوان للنفـس والمنى وليـس بهـا هم وغم كـلال
بلاد ويكفيك اسمهـا عن صفاتها كسـاها جمـال الدهر ثوب جلال
بلاد فما فى الغرب من جنة ترى سـواها وما فـيـمـا ذكرت تغـال
بلاد بهـا الجنات والحـور غيـدها وفـيـهـا من الولدان كـل غـزال

بلاد ولكن من هوى كل مهجة أقيمت بلا ريب ودون جدال
بلاد لروح المرء روح وراحة وللجسم طب من أضر عضال
بلاد متى تقبل بهمك نحوها دخلت وحد الهم باب جمال
بلاد تنسى من أتاها بربعه وما غيرها ينسبه فيه بحال
بلاد هى الدنيا فخذها غنيمة لنفسك دارا لم تسم بملال
بلاد إذا أسقطت من أحرف اسمها وأوله حرفا ورمت سؤال
يعود كناسا والكناس مخصص لسكنى الظبا والريم بين جبال
بلاد بإسماعيل تزهو وتزدهي على كل مصر قد زها بظلال
بأنحائها آثاره وفخاره وللملك والسلطان خير مثال
وفي قلبها من نسله خير زمرة ومن آله الأطهار أفضل آل
ومزوارهم في عصرنا وكبيرهم أبو زيد الغطريف راحة بال
حلاحل مغناها وجحجاح أهلها وأورعها مصباحها المتلالي
سلالة زيدان الشهير بفضله قديما وأهل الفضل أهل نوال
وإن أبا زيد لأكرم سيد بكناسة فاعلم وثق بمقالي
شريف عفيف عالم متواضع وتاج فخار بل وسيف نضال
وبحر من الآداب عذب مذاقه خضم وبحر العلم كنز لآلي
له خلق كالزهر باكره الندى ووجه منير فيه ألف هلال
فلا زال للعلم المقدس خادما ولازال للتحقيق فيه موالي
ولا زال للتاريخ كوكب أفقه ولازال للآداب بدر كمال

انتهى.

قاله وكتبه في ثاني عشري ربيع الثاني عام أربعة وأربعين وثلاثمائة وألف، ودودكم عبد الله القباج وفقه الله. انتهى. من خطه.

وقول ابن عمنا الفقيه الأديب العدل مولاي الحسن بن النقيب الأبر البركة سيدي محمد بن العباس العلوي النَّجَار، الفاسي النشأة والدار والقرار:

إذا افتخرت فاس بطيب معانيها ... ولطف أهاليها ورقراق واديها

ومراكش الحمرا بطلع نخيلها ... وحسن سجايا أهلها وأغانيها

وثغر رباط الفتح بالأدب الذي ... غدا مفرقُ العليا يصول به تيها

فمكناسة الزيتون فاقت بتربة ... وطيب هواء وابتهاج مبانيها

فما مثلها الزهراء في حسن منظر ... ولم لا وسبط المصطفى هو بانيها

إمام همام ساعد السعد سعيه ... فكانت شموس الفضل مشرقة فيها

وقول صفينا الشريف الأديب سيد محمد فتحا بن يحيى الصقلي:

مكناسة ما لها في الحسن من ثاني ... تسبي عقول ذوي العرفان والشان

وأهلها حسن أخلاق لهم جملت ... نسيت من لطفهم أهلي وأوطاني

هواؤها عز أن يلفى له شبه ... به الدواء لمكروب وللعاني

وماؤها السلسبيل العذب منهله ... يشفي السقيم به من كل أحزان

هي العروس التي تجلي لمغربنا ... بين البلاد بحسن ثم إحسان

فاقت برفعتها كل البلاد ولا ... يلفي شبيه لها قاص ولا داني

وقول محبوبنا الأديب المفضال مراقب أحباس حضرتنا المكناسية سابقا وخليفة عامل فاس على فاس الجديد حينه السيد الحاج محمد بو عشرين.

يا رائدا للفخر والإيناس عرج لنيل المجد في مكناس
بلد حباه الله كل مزية وحماه من زيغ ومن أدناس
وكساه من ثوب الجمال أرقه ووقاه من شر ومن وسواس
فغدا بوجه القطر شامة خده وبجيده عقد من الألماس
تسمو معالمه بأقدس مشهد وبخير أرض أخرجت للناس
ونزاهة الأخلاق في نفس العلا وصيانة الأعمال في الأحباس

وقول مالك أزمة الشعر الأديب الماهر السيد محمد بن المفضل غريط من قصيدة:

يانجل زيدان يا أندى الكرام يدا يامن أضاءت به أرجاء مكناس
مدينة من شكا ضيقا بهجته ففي ترامسها لسقمه آس
كأن بركتها وجه سوالفه ما يبهج العين من أغصان أغراس
ياحسنها إن حكت شمس الأصيل بها مخلص التبر محلولا بقرطاس
تنال في حوزها أفكار زائرها ما لا تناله بالأوتار والكاس
هوى يتيم من رقت طبيعته بلي يلين طبع النافر القاسي
تلك الديار التي جلت ضخامتها فاستوجبت مدحها من جلة الناس
وأودعت من صنيع الملك ما وسمت بالعجز عن مثله ملوك أحناس
ينبي بما كان للمجد المقدس من ملك عظيم جليل الفخر والباس
يستوقف الفكر حتى لا يجيء له من كل أبنية الدنيا بقياس

وقوله من قصيدة:

فلعله يجد السبيل لحضرة ... تسمو بنصرتها على «غمدان»
بلد تصادق ماؤها وهواؤها ... كتصادق الأرواح والأبدان
مغني القصور الشم والدور التي ... لم تلف في «شام» ولا «بغدان»
مكناسة إحدى الشهود لمالك ... بعظيم منقبة ورفعة شان
مجلى مآثر من تجول صيته ... في سائر الأقطار والأوطان

إلى أن قال:

بلد لها آوت أصولي عندما ... غمر «الجزيرة» وابل «الإصبان»
فتبوءوا دارا يعز قطينها ... وتفيئوا في نعمة وأمان
وتسنموا في دولة علوية ... رُتَبًا تُنَاهِضُ رتبة «السلماني»
وتشرفوا بمراسم مرعية ... لم يخترم أحكامها الملوان
بلد تكامل حسنها بفريدة الـ ... ـعقد الذي يغلو عن الأثمان

وقوله:

أهل الصفا والود من مكناسة ... الزيتون ذات البشر والسلوان

وقوله:

بمكناس غنمت صفاء وقت ... وأنسا ما رأيته في سواها
فإن أكثرت ذكراها فإني ... شغفت بها وتيمني هواها

وقول الفقيه الكاتب السيد محمد بن داني من قصيدة طنانة أنانة:

لمكناس على البلدان فخر ... عميم والفخار لها قديم

وقول صديقنا الحميم العلامة سيدي المدني بن الحسني الحسني الرباطي:

لله مكناس في حسن وإحسان … يرنو لها كل إنسان بإنسان
حديقة تدع الأحداق محدقة … بمنظر يزدري بـ«شعب بوان»
بها يصح ضعيف الجسم من علل … يرتد من حسنها صحيح أبدان
لقد تجلت محاسن البديع بها … على منصة ديوان وإيوان
فمن مناخ بها صارت نسائمه … بين الأماثل من أمثال ميداني
ومن روابي إذا اقتعدت صهوتها … تري القصي كـ(زرقاء) بميدان
ومن قصور إذا رام البليغ لها … وصفا يكون القصور وصفه الداني
ومن دساكر فيها للعساكر قد … كانت مبوأة من نسل عبدان
ومن حصون كغيل السيد ما فتئت … مأوى الكماة لمن يأتي بعدوان
تناطح السحب و[الأهرام] من صعد … كـ[الدردنيل] و[ارثور][1] و[فردان]
وقد تجلت مفاخر الإمارة من … [أبي الفدا] فغدت تزري [بغمدان]
يفتر ثغر (أصيلا) و(العرائش) مع … [ثغر الزقاق][2] لنصر فوق تبياني
ومن مدارس زانتها قد انبجست … منها العلوم فأروت كل ظمآن
ومن مساجد للعباد مزهرة … كالكتبيين[3] بدت أو مثل حسان[4]
ومن عيون بها للصادي مزهرة … وكل راء وقاف ما (بوفكران)

(١) في هامش المطبوع: بالروسيا.
(٢) في هامش المطبوع: طنجة.
(٣) في هامش المطبوع: بمراكش الحمراء.
(٤) في هامش المطبوع: الرباط.

ومن بساتين تحكي في منازهها حلي البدائع من در وعقيان
وأخضر يانع وأبيض يقق وأصفر فاقع وأحمر قاني
كأنها في جمالها وبهجتها آجام (جلق)[1] أو كغاب (بولان)[2]
والورق تشدو على الأوراق من مرح والطير يرقص زهوا فوق أفنان
والماء يعلو وقد أبدي لنا نغما كالناي وقعه (زرياب)[3] عيدان
لذاك تنشد من أقوالها مثلا إذا سقتها السما بكل هتان
إن البساتين (في الدنيا بلا عدد وليس فيها لعمري مثل)بستاني
فقد تكامل فيها الحسن واتسقت لها الحلي فبدت عروس بلدان
فأذكرتنا (فروق)[4] في مباهجها أو (الكنانة)[5] أو جسرا (ببغدان)[6]
لما استعارت محاسن الشموس غدت عطر العروس وزادت بابن زيدان
إذ صار بهجتها فضلا وكان بها [كاليحمدي] الرضا و[كابن حمدان][7]
عليك مني سلام عاطر أرج يعم ربعكم الزاهي إحسان

وقول حبنا ناظر مكناسة الحالي الفقية الأديب أبي العباس أحمد الصبيحي السلاوي:

---

(١) فى هامش المطبوع: دمشق الفيحاء.
(٢) فى هامش المطبوع: غابة بولينا ببارس.
(٣) فى هامش المطبوع: مغني بالأندلس.
(٤) في هامش المطبوع: فروق الآستانة العثمانية.
(٥) فى هامش المطبوع: مصر الفاطمية.
(٦) فى هامش المطبوع: بغداد العباسية.
(٧) فى هامش المطبوع: في حلب الشهباء.

عــرج على مكـنـاســة الزيتــون ... مــتــيــمــنا بالتين والـزيتــون

وأنخ مطيك حـيث منطلق الهـوى ... يشـفي الجـوي والجسم بالتـعـيين

حـيث المياه الدافقـات ترقـرقت ... وجـرت بأودية كـمـا بعــيـون

حـيث البسـاتين الكثـيفـات التي ... كـالغـاب تحـسبـهـا بلا تخـمين

حـيث الـزياتين الكثـيــرات التي ... لا حـــد يدركــهـــا إلى زرهون

حيث الصوامع شامخات في السما ... تقــــضـي بكـل عناية بالـدين

حـــيــث المآثر جـــمـــة لـلـوكنا ... لا سـيـمـا المفـضال إسـمـاعين

لا تنس مـنهـا دوره وقـــصـــوره ... ومـعـامل التحـصين والتـحـسين

وأمـاكن الأجنـاد والأسـرى بهـا ... ومـخـازن التـجنـيـد والتـمـوين

ولبـــــاب مـنصــــــور تـراه آية ... من أكـبـر الآيات فـي التـمـدين

هذا وإن بـهــــا أفـــاضل جـلة ... مـــوتي وإحــيــاء بهــذا الحين

ناهيك بالشـيخ ابن عـيـسي منهم ... وكـــذاك رب الـدار للمــــسكين

واقـصد بأحـيـاء بها رب القـرى ... من غـيـــر مـعـرفـة ولا تـبـيين

عين البـلاد أخـــو الوداد المرتضى ... العــالم المخطـوط في التــدوين

ذاك ابن زيدان الـنقــيـب ومن له ... في الخلق لطـف الورد والنسـرين

أبقـــاه مـولاه لنـشـر عـبـيـره ... وسـقي ريـاضـا حلهـا بهــتـون

وقولي:

مكناسة الزيـتون تيهي وافـخري ... حزت الشفـوف على بلاد المغرب

بمناظر يسـبي العـقول جـمالهـا ... وزلال مـــائك والهـــواء الـطيب

وأريج أرجـــاء ولطف حـــدائق ... بك أحدقت وبديع ربع مـخصب

وفـواكـــه كـالشـهــد إلا أنهـا ... مـــسكيـــة تزري بشـــغـــر أشنب

أعظم بمـا قـد نـلتـــه من رونق ... يصــبو له في الـناس كل مهـذب

وقد شطر قطعـتنا هذه قاضي مكناسـة الحالي شيـخنا أبو العباس البلغـيثي حفظه الله بما لفظه:

(مكناسة الزيتون تيـهي وافخري) ... فـالتيـه من ذات المحاسن يعـذب

ولئن فخرت فلا غـرابة حيث قد ... (حزت الشفوف على بلاد المغرب)

(بمناظر يسـبي العقـول جمـالها) ... جـمد الذي بجـمالهـا لم يطرب

وجـلال ربي قد سـمـوت بموقع ... (وزلال مـائك والهـــواء الطيب)

(وأريج أرجـاء ولطف حـدائق) ... تحكي الفرادس من بهاها الأعجب

لا غـرو أن فـقت الـبـلاد بجنة ... (بك أحدقت وبديع ربع مخصب)

(وفـواكـه كالشـهـد لولا أنهـا) ... فـيـهـا الشفـا تغنـي عن المتطبب

تغنـي عن الصـبـــاء إلا أنهـــا ... (مـسكـيـة تزري بشـغــر أشنب)

(أعظم بما قـــد نلتـــه من رونق) ... هو مـوقف الأبصـار للمتـعـجب

فـــيـــه لنفـس الأريحي راحـــة ... (يصبـو له في الناس كل مـهذب)

وكذا صديقنا الأديب الماهر السيد عمر بري المدني:

(مكناسة الزيتون تيـهي وافخري) ... بالروض فـيك كـناس ظبي ربرب

يكفـيك أنك لـلجـمـال بأسـره ... (حزت الشفوف على بلاد المغرب)

(بمناظر يسـبي العقـول جمـالها) ... وبطرز شكل ليس يـفهـمـه غـبي

ومـلاعب تلهـو بلب ذوي النهي (وزلال مـائك والهـــواء الطيب)
(وأريج أرجـاء ولطف حـدائق) حدق الوري من حسنها لم تذهب
وزهور أنوار الربيع بما احـتـوت (بك أحدقت وبديع ربع مخصب)
(وفـواكهـه كـالشـهد إلا أنهـا) تنشي كـسكر وسط كأس مـذهب
وتخال في استنشـاق ريح أريجها (مـسكـيـة تزري بثـغـر أشنب)
(أعظم بما قـــد نلتـــه من رونق) راقت مـــدائحــــه لكل مـــؤدب
أني يغض الذوق عنه وقـد غـدا (يصبـو له في الناس كل مـهذب)

وخمس تشطير هذا بقوله:

طاب الزمان بوجـه روض أخضر الورد وجنتــه بخــد أحـــمـــر
زيتـــونه خـــال علـيـه عنبـــري (مكناسة الزيـتون تيهي وافـخري
بالروض أنت كناس ظبي ربربي)

كم فيك من لحظ يـصيد بسـحره ويصـيب شـاكلة الـكمي بنحـره
لا حـــزم فـيك مـع المدل بمكره (يكفـيك أنك لـلجـمـال بأسـره
حزت الشفوف على بلاد المغرب)

زانت بك الدنيـا فـتم كـمـالهـا وتحـسنت في نظمـهـا أحـوالهـا
قـد سلمت عند الورى أقـوالهـا (بمناظر يسـبي العـقول جـمالهـا
وبطرز شكل ليس يفـهمـه غبي)

ما حل فيك غـريب دار قد وهي ألا تفـــتـح من لهـــاك له الـلهي
بمناره مــــا إن تقـــاس بمزدهي (ومـلاعب تلهـو بلب ذوي النهى
وزلال مـائك والهـــواء الطيب)

أصبــحت بين أزاهر وشقــائق		كــقــلائد القــيــان عند الرامق
وبكل نعــت قــد حــلا للعــاشق		(وأريج أرجـــاء ولطــف حـــدائق
حدق الورى من حسنها لم تذهب)

فيك النفوس على مقاصدها استوت		من كل شـرب للـظمـا منهـا روت
ببــلابل تنسيك (مــعبــدا) إن روت		(وزهور أنوار البـديـع بما احـتـوت
بك أحدقت وبديع ربع مخصب)

أمـــا ثمـــارك إن أدلي فــنهـــا		فكـأنني للراح أفـــتـق دنهـــا
ولديك في الأعناب مـا ينهى النهى		(وفــواكـه كــالشـــهـد إلا أنهـا
تنشي كخمر وسط كأس مذهب)

روح الشجي إن روعت بـأجيجـها		وتغلغلت مـن حره بـضجيـجـهـا
فلروحــهـا طب لردع مــهـيجـهـا		(وتخـال في استنشـاق ريح أريجها
مــسكيــة تزري بثـغـــر أشنب)

حــسناء نادي رفــقــهـــا بتــرفق		يا عـاشـقي هذي الملاعب فـانتـقي
نزه عـيــونك في البـهـــيج المونق		(أعظـم بما قـــد نـلتـــه مـن رونق
راقت مـــدائحـه لكـل مـؤدب)

أمـا النعـيم فـتـحت ذيلي قـد بدا		ولثـغر أنسـي رشفـه فـقد الصـدى
لا تدخـر أنـسـا تصـابحـــه غـدا		(أني يغض الـذوق عنه وقـد غـــدا
يصبــو له في الناس كل مـهذب)

وشطرها أيضا صديقنا الأديب الفقيه سيدي اليمني الناصري الرباطي النشأة والدار والقرار:

(مكناسة الزيتون تيهي وافخري) بمفاخر تزهو بفخر مغرب
جزت السماك ترفعا حتى لقد (حزت الشفوف على بلاد المغرب)
(بمناظر يسبي العقول جمالها) تغني النفوس عن الأنيس المطرب
طاب المقام لديك من طيب الهوي (وزلال مائك والهواء الطيب)
(وأريج أرجاء ولطف حدائق) ضحكت على دمع الغمام الصيب
وبأعين من نرجس حداقها (بك أحدقت وبديع ربع مخصب)
(وفواكه كالشهد إلا أنها) تنسيك ذوقا كل ذوق أعذب
فإذا ارتشفت أو اقتطفت وجدتها (مسكية تزري بثغر أشنب)
(أعظم بما قد نلته من رونق) راق يروق لكل راء معجب
قد هذبته يد الهنا حتى غدا (يصبو له في الناس كل مهذب)

وكذا حبنا الفقيه ابن الحاج السلمي فقال:

(مكناسة الزيتون تيهي وافخري) وطئى الثريا بالجمال المعجب
أو ليس أنك فوق ما قد نلته (حزت الشفوف على بلاد المغرب)
(بمناظر يسبي العقول جمالها) أسلت عن الحسنا ونغمة مطرب
تصبو النفوس إلى مغانيك العلا (وزلال مائك والهواء الطيب)
(وأريج أرجاء ولطف حدائق) كالهيف في حلي اللجين ومذهب
فنون ما يهوي ويعشق حسنه (بك أحدقت وبديع ربع مخصب)

(وفواكه كالشهد إلا أنها) ساغت لآكلها كسوغ المشرب
مدت له عند التناول نفحة (مسكية تزري بثغر أشنب)
(أعظم بما قد نلته من رونق) يهدي لرائيه جميع المأرب
لازال عهدك والزمان رفيقه (يصبو له في الناس كل مهذب)

وخمسها الشاب الأنجب الشريف الأديب المولي عبد المالك بن شيخنا البلغيثي المذكور:

مكناسة حسناء بين الأظهر تختال في ذيل البهاء الأزهر
ظهرت محاسنها بهذي الأعصر (مكناسة الزيتون تيهي وافخري
حزت الشفوف على بلاد المغرب)

بقصورك العليا العجيب جلالها وحصونك الشما العديم مثلها
فكأنها الخضرا وأنت هلالها (بمناظر يسبي العقول جمالها
وزلال مائك والهواء الطيب)

عجبا لزخرفك القديم الرائق وبديع شكلك والبناء الشاهق
وأريجك الأبهى الأنيق الشائق (وأريج أرجاء ولطف حدائق
بك أحدقت وبديع ربع مخصب)

بينفسج وبنرجس ما بينها ورد يذكرك الخدود وحسنها
وعصافير بالأيك تبدي لحنها (وفواكه كالشهد إلا أنها
مسكية تزري بثغر أشنب)

قد فقت صونا كل فرد أبلق وحويت فضلا ما له من ممحق
وعليك ألوية الفخار تخفق أعظم بما قد نلته من رونق
يصبو له في الناس كل مهذب)

إلى غير هذا مما يطول، وليس لغايته وصول.

ثم إن ما توارد عليه هؤلاء الأدباء وغيرهم من محاسن مكناسة منظور فيه إلى الحسن الفعلى الحالي تارة وإلى الأصلي الذي عضدته آثاره أخرى، إذ لا محالة أنها كغيرها تعاورتها أطوار الزمان، وكسفت المرة بعد الأخرى بأيدي الامتحان.

وما دام في العيش خير لا بد أن يقابل كل شروق بغروب، وَمِنْ أَنْ يتقلب فصل الربيع المحبوب، في أطوار باقي الفصول وبذلك يكمل المرغوب، وعلى ذلك نبه علامة مكناسة ومؤرخها وأديبها ابن جابر الغساني بقوله:

لا تنكرن الحسن من مكناسة ... فالحسن لم يبرح بها معروفا

ولئن محت أيدي الزمان رسومها ... فلربما أبقت هناك حروفا

هذا وحيث أتينا ببعض ما امتازت به هذه المدينة من الفخر، وجئنا للمطالع المنصف بما يجده نعم الذخر، ومنحناه تلك المنح المزرية برقة الملح، وروينا الظماء من عذوبة أخبارها، فلا بد أن نأتي على المطلب الثالث ونحلي تاج مفرقها بذكر ما لا غني عنه من تراجم من حفظت ترجمته من علمائها وأحبارها، مشاهير الإسلام وحماته، وحفاظه وحاملي راياته، ونظم نثار أوليائها شم الأنوف، الباذلين مهجهم في عرفان من هو بالديمومة معروف، أولئك الذين رفعوا بانتصابهم لنفع العباد، وإرشاد الخليفة حاضرها والباد، مرتبا تراجمهم على ترتيب حروف المعجم غير مبال في نظمها بتقديم من تأخر، أو تأخير من تقدم، لا أهمل من الحروف غير حرف عدمت تراجمه، أو جهلت معالمه.

أذكر أولا ما حلي به كل واحد منهم بنصه، ثم أذيله بما وقفت عليه زائدًا من أحوال شخصه، وأطرز حلل أولئك الأعاظم، بذكر ما للناثر منهم إن وقفت

عليه والناظم. ملتزم التعرض لذكر من كان أصله منها، سواء استوطنها أو رحل عنها، ولمن كانت له ولاية أو إقبار بها، ولو كان من غير سر بها، أو هاجر إليه لما صح عنده من عموم برها، وتعجيل خيرها، واتخذ دار استيطان فأسلته عن تذكار الأهل والأوطان.

معتمدا في النقل على ما يتلي عليك من الكتب الذي عرفت جلالة أربابها. وأجمع العقلاء على أنهم أتوا البيوت من أبوابها. كنفح الطيب، ووفيات ابن خلكان، وتكملة الصلة للحافظ أبي بكر ابن الأبار القضاعي، وفهرسة مسند فاس أبي زكرياء السراج، وخلاصة الأثر للمحبي، ودرة الحجال، والرياض الربانية، والمنح البادية، في الأسانيد العالية، ونيل الابتهاج، وكفاية المحتاج، ونشر المثاني والرحلة العياشية، ودوحة الناشر والصفوة، وفهرسة ابن غازي، وتعريف السلف، وروض القرطاس، وابتهاج القلوب، ومرآة المحاسن، وممتع الأسماع، وابن خلدون، وسلوة الأنفاس، والإحاطة، وتحفة الزائر، ببعض مناقب سيدي أحمد بن عاشر، لابن عاشر الحافي، وجواهر السماط وتعطير البساط، بذكر تراجم قضاة الرباط، والجيش العرمرم، وخمائل الورد والنسرين لأكنسوس، ودوحة المجد والتمكين لمحمد الغالي الإدريسي العمراني اللجائي، ورحلة النابلسي الكبري، وفهرسة النخلي، وفهرسة ابن سالم البصري، والسلسل العذب للحضرمي، والنبذة اليسيرة النافعة، التي هي لأستار بعض أحوال الشعبة الكتانية راجعة. لشيخنا الإمام سيدي محمد بن جعفر الكتاني، والفتح الوهبي للحاج العربي بن داود، وأداء الحق الفرض في الذي يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، لأخينا النسابة المعتني مولاي عبد الحي الكتاني، وسلوك الطريق الوارية للشيخ والمريد والزاوية للإمام الزيادي، وفهرسة سيدي العربي الدمناتي وثبت الأمير الكبير، وثبت ابن الصباغ، والشجرة الشما لمولاي الزكي العلوي، وسلك

الدرلابي الفضل المرادي، وكتاب صله الصلة لأبي جعـفر أحمد بن الزبير، ورحلة الإمام العبـدري، والاستقصا، ورحـلة ابن عثمان المكناسي، المسـماة إحراز المعلى والرقـيب، وبغيـة الوعاة، والبـدور الضاوية، والدرر البـهيـة، وفهـرسة الشـيخ التاودي، وفـهرسة أبي القـاسم الميري، وذيل السلوك وعـجائب الآثار، والروض الهتون، والمعجم المخـتصر لشارح الإحياء، والقاموس، والإصابة، ومـا تلقيته من مشايخي النقـاد، وأخلائي الأنجاد، أو نقلته من كنانيشهم أو شـاهدته بالعيان إلى غيـر هذا مما يطول تعداده وقد اكـتفيت بذكـر المواد التي لي منها الاستـمداد، عن نسبة النقل في التراجم غالبا فأقول:

* * *

[المطلب الثالث]

[في تراجم السلاطين والأمراء والأعيان والعلماء]

[حرف الألف]

١ - منهم:أبو إسحاق إبراهيم بن يحيي بن أبي حفاظ مهدي الإمام المكناسي.

حاله: فقيه نحوي، مشارك نبيل، ماجد وجيه، وقور أحد الفضلاء الرحالين. دخل الشام والعراق وأفاد واستفاد وكانت له يد في الشعر والأدب. ذكره الذهبي وأورده صاحب بغية الوعاة ونسباه لمكناسة.

مشيخته: سمع من أبي الحسين بن زَرْقُون وطائفة بإشبيلية.

الآخذون عنه: أخذ عنه الحافظ الدمياطي وغيره.

ولادته: ولد سنة ستمائة.

وفاته: توفى بالفيوم سنة ست وستين وستمائة.

٢ - ومنهم: أبو إسحاق إبراهيم بن موسي المصمودي التلمساني.

حاله: كان عالما محققا مدرسا صالحا زاهدا ممن أُوتي الولاية صبيا، وحل من رياسة العلم والزهد مكانا عليا، جاهد في العلم والعبادة إلى الغاية القصوي، ورعا وزُهداً وإيثاراً، متابعا على البر، متبعا طريق السلف أحب الناس لمذاكرة العلم، كثير الرغبة في الاجتماع بأهل العلم والفضل، شديد المحبة في المذاكرة، أعلم أهل وقته بالسير وأخبار السلف والعلماء كافة من متقدم ومتأخر.

انقطع لخدمة الله تعالي فكفاه ما أهمه، له كرامات كثيرة، منها ما حدث به

---

١ - من مصادر ترجمته: بغية الوعاة ١/ ٤١٩، تاريخ الإسلام، وفيات (٦٦١-٦٧٠هـ) ص ٢١٩.

٢ - من مصادر ترجمته: كفاية المحتاج ١/ ٩٩، نيل الابتهاج ١/ ٤٢.

أصبغ، وابن حبيب دون المشهور لعذر، ثم حصل لى ألم شديد، فاعتقدت أنه عقوبة لترك المشهور، ثم زرت الشيخ وأنا متألم فقال له: مالك يا فلان؟ فقلت: ذنوبى، فقال فورا: لا ذنوب على من قلد أصبغ وابن حبيب.

وكان ربما يرد ما يهدي له من طعام فربما يتفقد المهدي فيجد موجب الرد من شبهة فيه من ضجر أهل البيت أو غيره.

قال السوداني في «كفاية المحتاج» وذكر غير واحد أنه كان خارج البلد في وقت لا يدرك فيه الباب ثم يرونه في البلد، وكان يلبس جيد الكساء فقط يعري رأسه أكثر الأوقات، وكان إذا وجد نوار الربيع أمعن النظر في ألوانه وصفته فيغلبه الحال ويتواجد ويتبختر ويقول هذا خلق الله الآية.

ولد بمكناسة الزيتون وقرأ بفاس.

مشيخته: أخذ عن الإمام موسي العبدوسي، والإمام الأبلي، وشريف العلماء أبي عبد الله التلمساني، والقاضي سعيد العقباني.

الآخذون عنه: من جملتهم أبو عبد الله بن جميل وناهيك به.

وفاته: توفي عام خمسة وثمانمائة وحضر جنازته السلطان على قدمه.

٣- ومنهم: إبراهيم بن عبد الكريم أبو إسحاق.

حاله: كان فقيها مدرسا بمكناسة الزيتون، يقرر أقوال الأئمة وكلام الناس والمختصرين، ويعلم الصبيان ويدرس المدونة.

وفاته: توفي بعد سبعة عشر وسبعمائة.

٤- ومنهم أبو إسحاق الشيخ إبراهيم بن أبي الفضل بن صواب الحجري(١) من أهل شاطبة(.

حاله: كان من أهل المعرفة بالعربية واللغة والأدب، وتجول البلاد معلما بها

---

٤ - من مصادر ترجمته: بغية الوعاة ٤٠٦/١، التكملة لابن الأبار ١٢٢/١، جذوة الاقتباس ٨٨/١، صلة الصلة ٥/ برقم ٨٤.

(١) تحرف في المطبوع إلى: «المجري» وصوابه لدى ابن الأبار الذي ينقل عنه المصنف.

تعلم الطب وقعد للعلاج بطنجة، واستقر آخر عمره بفاس في نحو ست وخمسمائة. قال ابن الأبار في «تكملته» أكثر خبره عن ابن عُزَيْر[1] ذكره ابن عياد وفيه عن غيره.

مشيخته: روى عن أبيه، وأبي عمر بن عبد البر، وأبي الحسن بن سيدة وأبي إسحاق بن خفاجة، وله فيه مدح.

وفاته: توفي بمكناسة الزيتون وهو ابن إحدى وثمانين سنة.

٥- ومنهم: أبو إسحاق إبراهيم بن عبد القادر الزرهوني.

حاله: كان من صدور كتاب الدولة الرشيدية العلوية الحسنية وأجل حملة الأقلام بها، أديبا نحريراً منشئا بليغا وجيها مبجلا، فقيها نبيها أريحيا مهذبا، ملحوظا بعين الإجلال والإكبار من عظماء دولة السلطان الأفخم مولاي الرشيد بن الشريف بن على الحسني السجلماسي.

وفاته: توفى عشية الاثنين سابع عشر شعبان عام ألف وثمانين رحمه الله.

٦- ومنهم: أبو إسحاق إبراهيم بن عبد العزيز الخياطي.

من ذرية الولي الأكبر سيدي عبد الله الخياط دفين جبل زَرْهُون.

حاله: فقيه جليل قدوة، ماجد بركة، نزيه عالي المكانة، ولي صالح متبرك به أورده في جواهر السماط وقال: إنه دفين داخل باب الفتوح من فاس، ولم يذكر له غير هذا.

---

(١) تحرف في المطبوع إلى «عزيز» بالزاي المعجمة في آخره، وصوابه لدى ابن الأبار الذي ينقل عنه المصنف.

٥ - من مصادر ترجمته: الإعلام بمن غبر في موسوعة أعلام المغرب ٤/ ١٥٦٠.

٦ - من مصادر ترجمته: إتحاف المطالع في موسوعة أعلام المغرب ٨/ ٢٧٨٤ وفيه «وفاته سنة ١٣٠٨هـ».

٧- ومنهم: أبو إسحاق إبراهيم بن القائد الطبيب الأندلسي المراكشي ثم المكناسي ثم التونسي.

أحد أطباء الحضرة السلطانية الإسماعيلية.

حاله: طبيب ماهر حكيم عظيم الشأن من أجلاء الحكماء المتقين الكاملي المهارة، الملازمين لسيدنا الجد الأكبر السلطان الأعظم مولانا إسماعيل، المرجوع إليه في المعضلات من الداء، وكانت مسائله كلها متقنة.

وكانت له بمكناس حانوت اتخذها ليقصده الناس للسؤال عن مسائل الطب ولاشتراء الأدوية منه، ثم انتقل إلى تونس واتخذ بها حانوتا لما ذكر وسمي نفسه هنالك محمدا الأندلسي، فغير اسمه لأمر معلوم أحوجه إلى ذلك، والضرورات تبيح المحظورات، كذا أخبر عنه تلميذه ابن شقرون الطبيب المكناسي صاحب الشقرونية المتداولة بين أيدي عامة الناس وخاصتهم، حسبما وقفت على ذلك بخط العلامة الثبت المتقن السيد محمد فتحا الخياط بن إبراهيم المشنزائى - بنون فزاى - الدكالى الأصل، من أولاد ابن إبراهيم الدكاليين بفاس، بيتهم بيت علم وصلاح ومتانة دين ورياسة وجلالة.

الآخذون عنه: أخذ عنه أبو محمد عبد القادر بن شقرون المكناسي مسائل كثيرة من الطب.

٨- أحمد الذهبي السلطان أبوالعباس أحمد[1] الذهبي بن فخر ملوك المغرب وأعظم سلاطينه سيدنا الجد مولانا إسماعيل بن الشريف الحسني العلوي.

آتي الترجمة قريبا بحول الله.

---

٨ - من مصادر ترجمته: نشر المثاني في موسوعة أعلام المغرب ٥/ ٢٠٠١.

(١) فى هامش المطبوع: قال الحافظ العسقلانى فى تبصير المنتبه بتحرير المشتبه: «والمشهور أن أول من تسمى بأحمد بعد نبى الله ﷺ والد الخليل بن أحمد. لكن زعم الواقدى أنه كان لجعفر بن أبى طالب ابن اسمه أحمد. أفاد ذلك أبو بكر بن فتحون فى ذيله على الاستيعاب.

حاله: كان جوادا كريما شفيقا حليما، وكل ما صدر من الشدة والقساوة وقتل الأنفس في دولته فبإلزام من العبيد وإكراه له على فعله، وقد كان قيد حياة أبيه ساعيا فيما يرضي ظاهره، استخلفه والده بقطر تادلا وغيره حسبما أوضحنا ذلك في «المنزع اللطيف» ولم يسمع عنه ما يريب مدة تقلباته في أطوار الخلافة على والده، وسيره مبسوطة بوافر العطاء الشامل للقاصي والداني.

ولما نقل الله والده إليه - وذلك يوم السبت ثامن عشرين رجب عام تسعة وثلاثين ومائة وألف - اجتمع رأي قواد العبيد ذوي الشوكة وأبطال الودايا ورؤسائها ثم العلماء والأشراف والوزراء والكتاب وصدور الدولة على بيعة المترجم فبايعوه بإلزام لهم من العبيد وزرعوا بيعته بذر الفوضي والعتو، وأوقدوا نيران الفتن.

وحملهم على اختيار المترجم دون باقي إخوته ما عرف به من الجود والبذل الواسع، حتى إن الأسير الإنجليزى البحرى «تومابلودام» حكى فى رحلته المطبوعة باللغة الإنجليزية أن العسكر فرحوا بتوليته لكونه كان يسدل لهم جم العطاء، ولم يكن والده عهد إليه كما زعم الزياني، فقد ذكر صاحب «الجيش» أن السلطان العادل مولانا سليمان كان يحكي لهم مراراً أن مولانا إسماعيل لما أيقن بالموت دعا رفيقه وعالم حضرته أبا العباس اليحمدي وأكد عليه في أن يشير عليه بمن يصلح للولاية على المسلمين من بعده، وكان آخر الأمر بعد الممانعة التامة قوله: يا مولانا، اعلم أنه ليس لك ولد، أوْلا ولد لك. فقال له السلطان صدقت والله، وودعه وخرج ولم يعهد لأحد، قال: وكان مولانا سليمان يحكي ذلك في شأن بعض أولاده، وأما قول الزياني: إن مولاي أحمد ولي العهد فليس كذلك، ومن العجب أنه قال إنه سمع هذه الحكاية من مولانا سليمان كما سمعناها منه ولا بعد فيه ثم يقول: إنه ولي العهد، مع أن مولاي أحمد رحمه الله قيل إنه كان لا ينفع نفسه لعدم صحوه فهو طافح دائما. انتهى.

ولم يعرج على العهد له في «درة السلوك وريحانة العلماء والملوك» مؤلفه

العلامـة الأصيل، المفوه الجـليل، مولانا عبـد السلام بن السلطان الأعظم سـيدي محمد بن عبد الله، ورب البيت أدري بما فيه، وأهل مكة أدري بشعابها، ولا سند ولا سلف للزياني فيما تقوّله واختلقه، وإنما التقديم والتأخير إذ ذاك كان بيد العبيد حسب أغـراضهم الشخصـية حسبـما علم بالاستـقرار من أحوالهم الاستـبدادية: أشاعوا أن والده عهد إليه كي لا تتشوف نفـوس إخوته لمنازعته الأمر، واختلقوا له طابعا باسمه وكتـبوا عدة مكاتب لسائر البقاع المغربية وطبـعوها بطابعه مظهرين أن والده عـهد إليـه بالخلافـة من بعده، ومموهـين بما كان له من الحظوة والمكانة مـدة خلافته لديه، وأنه لم يحفظ عنه إذ ذاك ما يدنس سمـعته أو ينتقد عليه، وأوعدوا من شق عصـا طاعته بما يلزم البغـاة المحاربين، وصرحوا بكينونتـهم عند أمره في الشدة والرخاء والمنشط والمكره، والحال أنهم مصرون على خلاف ذلك إن لم يكن رهين نظرهم.

ولما شاهد أهل مكناس الجـد من المترجم وأنه عـزم على تدمير مـدينتهم بما نصبه عليها من المدافع -حسبـما ذكر ذلك الأسير تومى الإنجليزي في رحلته ونقله عنه مخـتصر الرحلة صـحيفة ٩ - بايعـوه خوفا من تدمـير المدافع وصولة العبـيد وقواهم على الامتثـال ما سمعوا المترجم يعلن به من أنه لا يقبض من الرعـية غير الزكوات والأعشار فتمت له البيعة بمكناس.

وبلغ نعي والده أهل فاس - وقد كـانوا قاموا قومة شنعـاء في وجه عاملهم أبي على الروسي - فـاجـتـمع العلمـاء والأعـيـان وذوو الحل والإبرام بالضـريح الإدريسي الأزهر وبايعوا المترجم وأوفدوا عليـه ببيعتهم للعاصمة المكـناسة جماعة مؤلفة من وجوه الأشـراف والعلماء والتجار وذوي الحيثيـات، وقلوبهم مملوءة رعباً بما صدر منهم من الإيقاع بعـاملهم المذكور ونهب أمواله، معتـقدين أنه يقابلهم بما يقابل به من ارتكب ما ارتكبـوه من الإجرام لا يدرون أي باب من أبواب الاعتزار يلجون، ولما مثلوا بين يديه لم يبال بما اقترفوه ولا رفع لافتياتهم رأسا كأنه لم يكن

له أدني علم بذلك الحادث الجلل، مع أنهم قتلوا العامل وثمانين من أصحابه كما في اختصار رحلة تومي الإنجليزي. بَلْ هشَّ، وبشَّ، وأكرم، وعظم، وخص كل واحد على حدته بعطاء له بال، وأجري عليهم ببلادهم جرايات مشاهرة ومسانهة ورشح الفقيه السيد محمد المسكيني لقضاء فاس والطيب المريني لحسبتها ولعمالتها القائد محجوب العلج، ورجع الوفد الفاسي يرفل في حلل النشاط والانبساط بعد الخوف والقنوط، وفي اختصار رحلة تومي الإنجليزي التصريح بأن أهل فاس تأخروا عن البيعة، ولعله شيء تخرصه أو تأخر نسبي، وإلا فسياق أحواله يقتضي أنهم بادروا بالبيعة قبل غيرهم والله اعلم.

ثم وردت البيعات من سائر الأصقاع المغربية على الحضرة السلطانية وتلقي الوافدين على اختلاف طبقاتهم بكل بشاشة وطلاقة، وأحسن لكل فرد منهم على حدته، وأكرم مثواه، وأتبعه الكرامة حيث سار ورد كلا على منصبه الذي تركه فيه والده وأفاض المال ووصل سائر الرعية بصلات سنية فأحبته القلوب واطمأنت النفوس وابتهجت وفرحت الرعية واستبشرت.

ولما رأي العبيد أن الملك لازال قائما تسوسه ساساته المهرة الذين حنكتهم التجارب وأثمرت غروس الإخلاص والصدق للملك في قلوبهم ونبذهم مخازي الشهوة والأغراض الشخصية وراءهم ظهريا، طبق حال تنظيم المملكة أيام والد المترجم،أظلم الجو في أعينهم حيث حيل بينهم وبين ما يشتهون من نهب بيوت الأموال، وجعل الإمرة أُلعوبة بين أيديهم وكبر ذلك عليهم، وعلموا أنه لا سبيل لتحصيلهم على أعراضهم الفاسدة ما دامت المناصب عامرة بأربابها ذوي النجدة والأفعال السديدة والآراء المصيبة والسياسة المؤسسة البنيان، على تقوي من الله ورضوان.

واتفق رأي كبرائهم على أن يوسوسوا للسلطان في أركان الملك ويختلفون لهم معايب يلصقونها بجنبهم ويدسون لهم دسائس حتى يوغروا قلب السلطان عليهم ويبالغون جهدهم وطاقتهم في إغرائه على قتلهم وتظافروا على ذلك: فصار

كل من اجتمع منهم مع السلطان يبدي له دسائس في قوالب نصائح ويقول له يا سيدي: إن ملكك لازال إلى الآن لم يتم، ولا يؤمن عليك من هؤلاء العمال والوزراء والكتاب الذين كانت بيدهم مقاليد الملك أيام والدك، فإنهم لا يرونك شيئا وأنت محجوب بهم عن الرعية، ولابد من قيامهم عليك وتقديم غيرك من إخوتك وترشيحه للملك دونك، وكان المترجم يميل إليهم كل الميل لضعف فكرته عن السياسة، وتدبير أمر الملك والرياسة، أي ولكونه مغلوبا على أمره يخاف بأسهم ولا يري رأيا إلا رأيهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا.

ولما تمكنوا منه وأوغروا صدره على من بيده الحل والإبرام من ولاة أمره وأمر والده من قبله أغروه أي بعد أن أقاموا له الحجج على الفتك بأركان السياسة الذين هم للملك عماد كأبي العباس أحمد بن على اليازغي وكان عامل الجبال كلها سهلها ووعرها نافذ الحكم فيها، يرسل رسولا واحد في قضايا متعددة فتنفذ الأوامر كلها وفق ما أمر في أقرب الأوقات، ويأتي الرجل الواحد إليه بالمساجين العديدة من صياصي الجبل والقبائل العظيمة من غير قيد ولا يحدث أحد نفسه بالهروب لعلمه بنفوذ كلمته وطول يده في طول البلاد والعرض، وأنه لات حين مناص، وقد كان هذا العامل ناصحا للسلطان يجمع المال من وجوهه ويودعه في خزائن السلطان يبذل النصح ولا يعرف غشا ولا خديعة، وكان السلطان مولانا إسماعيل يعرف أمانته وصدقه وينزله منزلته ويقدره قدره ولا يسمع فيه مقالة طاعن.

وعلى بن يش: وكان قائد أهل الديوان وعامل البربر ورئيس العمال، وكان من ذوي الرأي والتدبير والعقل الراسخ، لا يقدر أحد من البربر أن يملك فرسا ولا مكحلة ولا يحوم حول ذلك، وبسبب ذلك صارت رءوس الجبال البربرية الصنعبة المسالك تمر فيها الأطفال وضعاف النساء في أمان واطمئنان لا يلحقهم أدني مروع ولا مشوش.

وابن الأشقر: وكان عاملا على جبل زَرْهُون، وعلى يده أعشار البوادي والحواضر من زروع ومواشي وزيوت وغير ذلك، وكان عليه مدار الجيوش، وإليه مرجع أمرها ذا رأي مصيب وثبات ونصح وإخلاص وتيقظ وحزم وعزم.

وحاجبه المملوك الخصي مرجان الكبير وكان بيده دفتر الداخل والخارج لا يطلع على ذلك غيره قريب أو بعيد، وكان العارف بالعوائد الجارية في الصلات مسانهة ومشاهرة، وما يدفع للجيوش وغيرهم في الأعياد والمواسم وغيرها لا يعرف ضبط ذلك وتحقيقه غيره، وقد كان محور شئون الدولة على هؤلاء الأربعة يدور لتحقق متبوعهم صدقهم وأمانتهم وسياستهم وكياستهم وعلمهم من أين تؤكل الكتف بعد السبر والامتحان والاختبار.

وبموت هؤلاء الأربعة اختل النظام وضربت الفوضي والاستبداد الأطناب، ووقع من العامة استخفاف عظيم بأمر المملكة واشتد النهب في الطرقات وأُغلقت المسالك، ولم يأمن المسافر من الوقوع في المهالك.

وحصل أهل الزيغ على غاية مناهم وكثرت الشكوي بباب السلطان والسلطان داخل قصوره ضارب صفحا عما وراء بابه لا يسمع شكوي ولا ينتصر لمظلوم من ظالم، أي لكونه أسند الأمر لرؤساء العبيد المتعصبين، وذوي السلطة ومن لا ينفذ له أمر دونهم.

ومن جملة من قتلوه وصلبوه الفقيه العلامة القاضي الوزير السيد محمد بن العياشي الذي كان بيده دواوين الحراطين[1].

---

(١) وكذا رواية صاحب الاستقصا ٧/٥٨ - ولديه: والحرطانى معناه فى عرف أهل المغرب: العتيق، وأصله الحر الثانى كأن الحر الأصلى حُرٌّ أول، وهذا العتيق حُرٌّ ثان، ثم كثر استعماله على الألسنة فقيل الحرطانى على ضرب من التخفيف.

ثم نظروا فيمن بقي شجي في نحورهم يحول بينهم وبين تمام مرادهم فلم يجدوا غير الحاجب المملوك الخصي مرجان الصغير فقتلوه، ثم قتلوا عامل مكناسة ابن عدو، ثم أشاروا بقتل من بقي ممن يشار إليه بجودة الرأي وحسن التدبير، والنصح للأمير، حتى خلا لهم الجو واتسع الخرق على المرتق.

فبموت أحمد بن على اليازغي ثار أهل الجبال وأُضرمت نيران العتو والفساد ورفضت الأوامر السلطانية وانقطعت الجبايات وانتشر العيث والنهب في الطرق واتبعت الأهواء.

وبموت على بن يشو خرج البرابر من السلاسل والأغلال وتنافسوا فى اشتراء الخيل والسلاح، ورجعوا لحالتهم الأولى من سفك الدماء وقطع الطرقات، ولم يبق لهم زاجر ولا رادع.

وبموت ابن الأشقر كف الزراهنة عن الأداءات وتحصنوا بجبلهم خوفا من البربر وصمموا على قتال من أتاهم وضاعت أعشار القبائل وزكواتهم ولم يعرف منها نقير ولا قطمير.

وبقتل مرجان الكبير جهل الخارج ولم يدر قدر الداخل وأُحرقت الدفاتر الحافظة لذلك، وبسبب ذلك نال العبيد مناهم وحصلوا على ضالتهم المنشودة.

ولما اختل النظام وتفاحشت المظالم وأكل القوي الضعيف واضطربت الأحوال، واشتبكت الأهوال، وثارت الثوار بسائر النواحي خرج المترجم من دار الملك وأفاض المال وزاد للعبيد فوق المعتاد ظنا منه أن ذلك يجدي في رتق ذلك الفتق العظيم، ثم رجع لقصوره أي حيث رأي أنه لا سبيل له لأكثر مما فعل.

قال في «نشر المثاني» ووقعت هدنة بين الناس عن الحرب، إلاّ أن أهل فاس رفضوا جميع ما كان يجري عليهم من الوظائف السلطانية وحملوا الأسلحة وركبوا الخيل، وضج الناس بالفرح والسرور، واشتغلوا بالملاهي في النزهات والتأنق في اللباس والجلوس في الطرقات أفواجا مقبلين على اللهو واللعب والسريان[1] في

(١) في نشر المثانى: «والهذيان».

كل متسع من أزقة فاس، ولم يبق للأحكام السلطانية نفوذ فيها بل في سائر المغرب، وليس للسلطان سوى الدعاء على المنابر والاسم، وكمل العام كله على هذه الحالة - يعني عام تسعة وثلاثين - وكثر في المغرب الفتن والأهوال فكان هذا هو الأصل في الفتن التي ظهرت بعده. اهـ. من النسخة الصحيحة من نشر المثاني[1] قاله في الدر المنتخب.

ومن جملة من ثار، وسعي في الأرض الفساد من الثوار: أحمد بن على الريفي واللصوص وقطاع الطريق ونهض بتلك الجيوش يريد دخول تطاوين ومبايعة أهلها له - وقائدهم إذ ذاك عمر الوقاش آتي الترجمة في حرف العين بحول الله وقوته - فقابلوه بأفواه القنابل ووقع بينهما قتال عظيم مات فيه كثير من الفريقين، قيل إنه دخلها وهمّ بأهلها فانتصروا عليه وصدوه.

والذي صححه في «الدر المنتخب» أنه لم يدخلها، وأن الكرة كانت عليه من أول الأمر، ودعا الوقاش لنفسه وكثر الهرج والمرج واشتعلت نيران الفتن، وكتب أهل تطاوين للسلطان المترجم وقصوا عليه القصص وشرحوا له ما هم فيه من الضيق والحرج وطلبوا نصرته وتعزيزهم بجيش ينكس أعلام البغاة المتمردين ويكسر شوكتهم كي ترجع المياه إلى مجاريها ويستتب الأمن في تلك الناحية.

ولما وصلته رسلهم بالكتاب وعلم فحواه، وأحاط علما بسره ونجواه عرضه على المسيطرين عليه من أعيان العبيد وهو إذ ذاك مضروب بأعلى يده من جانبهم فأجابوه بأن هذا الأمر لا يهم ولا يرفع إليه رأس، لأن عادة أهل الريف مع جيرانهم العداوة والقتال دائما، ولو علمنا أن الريفي ادعي هذا الدعوى لبادرنا إلى قتاله وأبدناه بجيوشه وصيرنا جميعهم في خبر كان، فاستصوب رأيهم قائلا هذا رأيي، ولم يدر أنهم إنما تنصلوا خوفا على أنفسهم وركونا للراحة لعلمهم أن الجيش الذي يبعثه السلطان لا يكون إلا منهم، فاختاروا الراحة وأعرضوا عن مصالح الإسلام والمسلمين، وبقيت رسل أهل تطوان منبوذة بالعراء لم يبال بها

(١) نشر المثاني - ص٠٠٠٢ في موسوعة أعلام المغرب.

أحد مسنداً الأمر لغير أهله، وإذا أخبـر بحادث جلل، يقول: كل ما قدر الرحمن مفعول.

ولما رجع رسل تطوان إلى بلدهم وأخبروهم بحقيقة الحال وأنه لاسلطان في الحقيـقة، وإنما هي فوضي منتظمـة من شهاوي وأغراض قامـوا في تحصين بلادهم على ساق واشتد القـتال بين الريفي والقبائل التي أبت من متـابعته على هواه وكان النصر حليفهم والخذلان قرين الريفي إلى أن قتل وأراح الله منه البلاد والعباد.

وفي اختصار «رحلة تومي» الإنجليزي صحائف ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ما فيه بعض مخالفة لما ذكره صاحب «الدر المنتخب» في الجملة وذلك أنه حكي أن الباشـا أحمد هو الـذي كان عامـلا على تطوان، وأن أهل تطوان ومجـاوريها من الجبال هم الـذين قاموا على العامل المذكـور مع رئيس الفتنة إذْ ذَاك بليز، فـقاموا على الريفيين ونهبوا أموالهم وقتلو منهـم من لم يدخل معهم في افتياتهم، فطلب الباشـا أحمـد الريفي الإعانة على أهل الجـبال ومن أقـاموا الفـتنة من أهل تطوان فامتنعـوا، فعند ذلك وجه إليهم عـسكر سبتة فـامتنعوا من تلبيـته وأن أخاه والي طنجة لما علم بما ذكـر لحق بأخيه أحمـد المذكور في خمسمـائة فارس، ولما وصل تطاوين ولاه أخوه أحمـد مكانه بتطاوين وترك معه أدالة من العبـيد وخرج هو في أثر الثائرين، ثم إن أهل تطاوين لم يقـبلوا أخا الباشا عـاملا عليهم فـحصروه في داره وعند ذلك أمر الأخ الذي بتطاوين بإيقاد النار في دار البارود فانهدت وانهد ما حولها من الدور،ثم هرب العامل مع لفـيف من أصحابه إلى بعض الأضرحة، ثم إلى طنجة، وأن أهل تطاوين أكلـوا داره ونهبوا أجنته وأمـتعتـه، ووجهوا بيعـتهم للذهبي وأخبروه بأن سبب قيامهم على العامل هو ظلمه لهم فليحرر.

ولما علمت القبـائل حقيـقة ما صـار إليه الأمر بعد الـسلطان الأعظم مولانا إسماعيل نبذوا الأوامر السلطانية وراءهم ظهريا وامتطوا متن الاستبداد، وماجوا في الأرض بالفساد، وأكل القوي الضعيف واشتدت شوكة البربر وعظمت ولم يبق إلا

النهب والسلب واشتد الضيق بمكناسة والسلطان بهـا، حتى صار خارجها مسلوبا، وداخلها منهوبا، تغير البرابر على سرحها وتمنع أهلها من العمل بجنتها.

ولما تيقن العبيـد أن السيل بلغ الزبى، أجمعـوا رأيهم على أنه لابد من شد الوطأة على متـمردة البرابر وكسـر شـوكتـهم قـائلين إنهم آذونا وآذوا جـوارنا واستضعفونا، ونحن ما مات سيدنا حتى تركنا أصحاب قوة وبأس شديد، يذيب رعبنا الحديد، فركب منهم ما يزيد على الخميس ألفا وأغاروا على سرح البرابر في سائر الجهات والنواحي ورجعوا لمكناسة مـن غير أن يتعرض لهم بربري ثم اجتمع رءوس البربر ووجوه العبيـد واتفق رأيهم على أن البرابر لا يتعرض لهم أحد داخل المدينة ولا خارجها، وأن البرابر لا يتعـرضون لمن أتي لمكناسة ولا لمن خرج منها. انتهى، ما يعـول عليه مما ساقه أيضا في «الدر المنتخب» وهذا بـعض ما جري عام تسعة وثلاثين الذي جلس فيه المترجم على عرش مملكة والده المقدس.

أما عـام أربعين فقـد قال العـلامة المؤرخ ابن إبراهيم الدكـالي في «تقـاليد التاريخية» ما نصه: وفي ضحي يوم الخميس رابع عشر ربيع الأول عام أربعين أغار الوداية على سوق الخميس، واشـتغلوا بالسلب والنهب وضربوا الناس بالرصاص، فانتدب أهل فاس لقتالهم من الـزوال إلى الغروب من جهة المرس، فقبض الأوداية على بعض أهل فاس وسـجنوهم بفاس الجـديد، وفي آخر النهار أخـذ أهل فاس قصبة شراكة واستولوا عليها.

ثم بالغد وقع قتال أيضا بظهر الرمكة، ثم يوم السبت وقع قتال بينهم بناحية بستيون باب الجيسة وكانت الغلبة لأهل فاس.

ثم وقع الصلح بينهم يوم الأحـد وذلك بروضة سـيدي أبي بكر بن الـعربي نفع الله به وسرحوا المسجونين بعد أن قتلوا منهم طائفة، ثم أخذ الأوداية في قطع الطريق.

ومن الغد جاء كتاب من عنـد السلطان يسأل عن الظالم من الفريقين وقرئي بمنبر مـولانا إدريس، ثم لما سمع الحياينة وشـراكة وأولاد جامع بهـذا الأمر جاءوا إعانة لأهل فاس ظنا منهم أن ما فعله الأوداية ليس بإذن السلطان، فلما تحققوا أن ذلك بإذنه انصرفـوا لمواضعهم وبقـي الأمر يروج إلى يوم الأربعاء الموفي عـشرين خرج الأشراف والعلماء بقصد الملاقاة مع السلطان.

وفي يوم الخمـيس بعده وقع قتـال بباب الفـتوح وحضـر فيه الحـياينة ومن انضاف إليـهم وبقي من خيل الأوداية نحـو من ستة وثلاثين، ووقع قـتال بالوادي المالح بباب الجيسة يوم السبت الثالث والعشرين من الشهر ومات فيه من أهل فاس نحو الستة.

وفي الرابع والعشرين جاء شـريف ممن ذهب لملاقاة السلطان وأخبر أنهم لم يتلاقوا مع السلطان وأن على ويش أمر بهم فسـجنوا إلا هذا الشريف بخصوصه، وجاء كتـاب من أخت الأمير تهددهم فـيه وتذكر أموراً تقـتضي أنهم ظالمون، ثم أجاب أهل فاس عن الكـتاب المذكور وبقي الأمر يروج إلى يوم الثـامن والعشرين قدم جماعة من عبـيد مشرع الرملة يبحثون عن حقيقـة الأمر لأن الوداية كتبوا لهم أن أهل فاس شـقوا العـصا على السلطان، فـأضافـهم أهل فاس أحـسن ضيـافة وأخبـروهم بحقيقـة الأمر، وانصرفـوا يوم السبت الموفي ثلاثين، وفي عشـية هذا اليوم وقع قـتال مع محلة جاءت من عند السلطان قـرب بستيون باب الفـتوح ولم يمت فيه أحد من أهل فاس.

ثم صار السلطان يبعث البعوث ويكثر الجيوش لحصار فاس وأمرهم بالتضييق على أهلهـا وقطع عنهم الداخل والخـارج وركب الأنفـاض والمهاريـز ليرمي بهـا البمب.

وفي ثاني ربيع الثـاني رمي البمب على فاس سـبع مرات ولم تضـر أحدا،

وركب أهل فاس نفضا بالزيات يرمي لناحية المحلة النازلة بظهر الرمكة ثم كتب أهل فاس كتابا لعبيد مشرع الرملة.

وفي زوال يوم الأربعاء رابع الشهر المذكور وقع القتال أيضا بقنطرة ابن طاطو مات فيه من أهل فاس نحو الستة.

ومن الغد وقع قتال كبير واشتد من الزوال إلى الغروب بالموضع المذكور ومات فيه من أهل فاس نحو الثمانية ومن غيرهم عدد كثير، وفي صبيحة هذا اليوم هدم أهل فاس المنزه الذي بدار أبي على الروسي ونهبوا دار صهره المزوار.

وفي الثاني عشر من الشهر كان قتال كبيز بناحية باب الحديد، وامتد من الضحي إلى الغروب، مات فيه من أهل فاس نحو الثمانية ومن غيرهم من أهل المحلة نحو أربعين رجلا ونحو الثلاثين من الخيل. وفي عشية هذا اليوم قدم الأشراف الذين كانوا مسجونين بمكناسة ومعهم مولاي المستضيء[1] وأشراف مكناسة ليوقعوا الصلح بين الفريقين، ثم ذهب مولاي المستضيء مع جماعة من أعيان أهل فاس من أشراف وعلماء وتلاقوا مع السلطان ففرح بهم وسامحهم، وقال لهم: أرسل ولدي يسكن معكم وهو أمان بيني وبينكم، وقدم الذين ذهبوا مع مولاي المستضيء يوم الأربعاء الثالث والعشرين من ربيع الثاني المذكور بين المغرب والعشاء وضجت المدينة وظنوا أنهم عَدُوّ فتبين خلاف ذلك بعد ما وقع الحزام[2].

وفي السادس والعشرين ورد أبو فارس والدُ السلطان، وتلقاه الناس بظهر هو بالناس، ثم إن بعض الشياطين من الناس أسرّ في أُذنيه أن أهل فاس عزموا على قتلك إن دخلت إليهم فنكص على عقبيه وولى هاربا، فوقعت رجفة وأخذ أهل

(١) في نشر المثاني - ص٢٠٠٤ في موسوعة أعلام المغرب، إشارة إلى بعض هذه الأحداث.

(٢) في هامش المطبوع: «يريد بالحزام أخذ الأهبة - وسيعيد هذا المؤرخ - أعنى ابن إبراهيم - مثل هذا التعبير العامي.

فاس بعض أصحابه وقتلوه وبات مولاي أبو فارس بالمحلة وتغير الناس لذلك وبالغد أرسلو إليه وألانوا له القول واصطلحوا معه وأتي إلى المدينة معهم.

وفي التاسع من جمادي الأول رحلت المحلة عن فاس بعد ما أصابتهم المشقة العظيمة من الكور والبمب. وفي يوم السبت الثالث عشر من الشهر خرج القائد المحجوب هاربا، وقد كان أهل فاس أعطوه الأمان حين كان القتال مع السلطان.

وفي عشية هذا اليوم وقع الشر أيضا بين أهل فاس والوداية عند بستيون باب الجيسة.

وفي العشرين كان آخر شر بالمحل المذكور وامتد إلى الغروب ومات كثير من الوادية ومن أهل فاس نحو خمسة عشر رجلا وجرح كثير منهم.

وفي الثالث والعشرين كان شر كبير عند باب الجيف بفاس الجديد، وذلك أن أهل فاس اتفقوا أن يذهبوا لفاس الجديد ويأخذوها قهرا، فتحزموا وخرجوا على ظهر الرمكة بعدد كثير، فلما رآهم الوداية أيقنوا بالهلاك وتحققوا أنهم لايقدرون على ملاقاتهم، ثم إن الله تعالى ألقى في قلوب أهل فاس الرعب فرجعوا من حينهم هاربين وتبعهم الوداية بالقتل والضرب والسلب والنهب، ومات منهم ما بين مفقود وساقط في الوادي ومقتول ما ينيف على عشرين.

وفي يوم السبت خامس جمادي الثانية وقع قتال بوادي المالح خارج باب الجيسة، واشتد من الزوال إلى الليل مات من أهل فاس نحو العشرين ومن الوداية أكثر من ذلك.

وفي ليلة الجمعة الخامس والعشرين رموا على فاس سبعة من البمب.

ومن الغد وقع أيضا شر بالوادي المالح فجاء الوداية بعدد كثير وانهزموا وقطع منهم أهل فاس رءوسا وقتلوا منهم ما يزيد على الأربعين، وأما الجرحى

فكثير، ومات من أهل فاس نحو العشرة، ثم في هذا اليوم نفسه رموا على فاس تسعة من البمب ونزلت في المواضع الخالية، ثم رموا في يومين بين ليل ونهار نحو الثلاثين، ثم رموا تسعا.

وفي يوم الجمعة ثاني رجب وقع حزام قبل الصلاة، وأخرج القائد عبد الوهاب الناس من المسجد خوفا على المدينة، وترك خطيب الأندلس نصر السلطان في الخطبة ونصره خطيب القرويين.

وفي رابع رجب وقع شر كبير لم ير مثله ومع الوداية قبائل كثيرة مات من أهل فاس نحو اثني عشر رجلا.

ومن الغد رموا اثني عشر من البمب.

وفي سادس الشهر جاء جيش عظيم وأحاطوا بالمدينة واجتمعوا بدار ابن عمرو وجاء موسي الجراري إلى باب الجيسة وبعث رسولا يطلب الأمان حتى يتكلم مع علماء فاس، فأجابوه لذلك وتكلموا معه حتى لم يجد حجة وانصرف مع العصر يريد أن يصلح أهل فاس مع السلطان.

وفي الثاني عشر رجب خرج علماء أهل فاس وأشرافها وجماعة من الأعيان صحبة موسي الجراري بعد ما أعطاهم رهائن من قومه تركهم بفاس وقدموا لمكناسة ولم يتلاقوا مع السلطان وإنما تلاقوا مع الدائرة ولم يحصلوا على طائل ورجعوا لفاس تاسع عشر الشهر المذكور.

وفي السابع والعشرين فتح بعض رؤساء فاس باب الفتوح ليلا وأخرج منها بعض أحمال السلع بقصد التجارة على يد بعض أشراف تافيلالت، وقبض من صاحبها نحو العشرة مثاقيل ثم بلغ الخبر للجماعة فأرادوا الانتقام ممن فعله فوقعت فيه الشفاعة، وكان ممن أراد الانتقام منه مولاي عبد الله بن إدريس وأراد عزل

الغرناطي فلم تساعده الجماعـة، فبعث إلى موسي الجراري وقال له: إن أهل فاس أرادوا مولاي إدريس فأخذت الجماعة بخاطره حتى سكن.

وفي يوم الخميس التـاسع والعشرين من الشهر وقع شر كـبير بالوادي المالح مات من أهل فاس نحـو الثلاثين، وجرح نحو الخمـسين، ومات من الوداية نحو ثلاثمائة وجـرح نحو الثمانين، وصـاروا يرمون البمب في اليـومين بعد على أهل فاس.

اهـ، ما ذكره ابن إبراهيم ونحوه في نشر المثاني.

قال في «الدر المنتخب» ولمـا ترك الأمير ما كان عليـه والده من القوة وحسن التدبير في الأمـور وقع في النكبات، حتى عزل ولـم يبق إليـه التفات، وهكذا يقع لكل ملك ترك التدبير، وعدم التفرقة بين الأمر اليـسير والعسير، اجتمع أهل فاس وغيـرهم من أعيـان القبـائل وصناديدهم - غيـر الأوداية لم تنتظم في سلكهم - واتفق رأيهم على خلع المترجم وبيعة غيره ممن يقوم بأمور المسلمين من إخوته[1]. ولما وصل الخبر بالعبيد تيقنوا أنهم إذا لـم يبـادروا للدخول فيما دخل إليه أهل فاس ومن انضم إليـهم يخرج الأمـر من أيديهم وينبذون بالعـراء ويحال بينهـم وبين ما يشتهون من الاسـتبداد ونهب بيوت الأموال وأكل أموال الناس بالباطل، فـأجمعوا أمرهم بينهم وتفاوضوا في تدبيـر حيلة يدخلون بها على أهل فاس ومن انتظم في سلكهم من عصبة القبائل، ورأوا أن لاحيلة تخلصهم إلا إظهار الأنفة والضجر من المترجم وتصمـيم العزم على خلعه لعجزه عن القـيام بتدبير أمور الرعـية حتى عم الفساد وضـربت الفوضي في سائر الإيالة الأطناب، وكتـبوا لأهل فاس والوداية، بأن السلطان عجز عن الولاية، وأنه لابد من تقـديم من يقوم بأمور المسلمين، من نبهاء إخوته المقـتدرين، وأن هذا الخرق كان وقوعه منهم وأنهم يريدون جـبر كسره

(١) نشر المثاني - ص ٢٠٠٥ في موسوعة أعلام المغرب.

على أيديهم وأن مولاي عبد المالك[1] بسوس هو أحق وأولي بالقيام بأعباء الخلافة ورتق ما تسبب فـيه أخوه المترجم من الفتق، وأنهم يـطلبون من أهل فاس والوداية الموافـقة على هذا الأمـر الذي فيـه صلاح الأمة وغـلق باب التهـور والافتـيات، فاستحسن أهل فاس والوداية ذلك منهم وتمت الحيلة عليهـم وأجابوا العبيد بتحبيذ مـا رأوا، وأنهم لا خروج لهم عـمـا أبرموه واتفق رأيهم عليـه، فـفرح العـبيـد واستبشـروا وأرسلوا إلى مولاي عبد المالك بسوس، ولما بلغه الخـبر لبي دعوتهم. وأجاب رغبتهم، وجد في المسير وطوى المراحل وصاحب الترجمة في غمرته ساه.

ولما وصل مولاي عبـد المالك لوادي بهت واتصل الخبر بالعبـيد دخلوا على المترجم لدار ملكه وألقوا عليه القـبض وأخرجوه من دار الملك وسجنوه بالدار التي كانت مـعدة لسكناه قبل ولايته على عـهد والده، وأحاطوا به شرذمـة من الحرس لحراسـته ونادوا بخلعه والضـرب على يده، وقيل: إنهم فعلوا به ذلك قـبل تعيين السلطان في سابع شعبان، ومن الغد وصل الخبر لفاس.

وفي تاسع شعبان قدم العبيد إلى مشرع الرملة والعلماء والأشراف على فاس فتهيـأ أهل فاس لملاقاتهم في ثمانين ألفا من الرماة ورحبـوا بهم وأضافوهم أحسن ضيافـة، وشرحوا لهم عجز المخلوع عن القـيام بمصالح الرعية ومـا آل إليه بسبب إهماله البلاد والعباد، من انعدام الأمن، وتساقط القوي على الضعيف، وأن رأيهم اجتمع على بيعة أخـيه المولي عبد المالك لنجدته وشجاعته وحـزمه وعزمه وضبطه وحسن سيرته وسـياسته وعدله وميله للسلم والإصـلاح بين الناس، وأنهم شهدوا منه ذلك في حـياة والده حيث خـالف عليه وبويع بتـارودانت، ففـرح أهل فاس بولايته لأنهم حر كوا معه فكان يحسن إليـهم ويواسي ضعيفهم ويصبرهم ويطيب

(١) خبر الخلع للمترجم له: أحمد الذهبي ومبايعة أخيه عبد المالك ورد في نشر المثاني - ص ٢٠٠٥ وما بعدها في موسوعة أعلام المغرب.

أنفسهم علـى ما يقاسون من أذي عمـال والده، فتوافق الجمـيع على نصره وخلع أخيه المولي أحمد، وأعلنوا بذلك في الأسواق والأندية، قيل: كان ذلك في عاشر شعبان.

وفي يوم الجـمعـة رابع عـشر منه خطـب به على المنابر في سـائر المساجـد وخلفوا بمكناسة الزيتون ولده، وأبردوا بريدا لمولاي عبد المالك يعلمه بسائر ما وقع ويحثه على تعجيل القدوم عليهم للعاصمة المكناسية، فصار الرسول يطوي المراحل متأبطا المكاتب بشـرح الواقع، وبِفَوْر وصول الخبر لمولاي عبـد المالك أسرع السير إلى أن حل بالضريح الإدريـسي الأكبر تاسع رمـضان، وهناك لحق به وفد شـرفاء فاس وعلمائهـا وأعيانها ورماتهـا مع القبائل المجاورة لهم فـأكرم وفادتهم وأنزلهم بوادي الشجرة بجنان هلال وأفاض عليهم موائد الإنعام والإكرام والصلات الضافية فسروا واستبشروا.

ومن الغد دخل مكناسة فتـلقاه وجوهها على اختلاف طبقـاتهم وقدموا إليه بيعتهم.

وفي الثالث والعشرين من رمضان شرع في قراءة صحيح البخاري في جمع من أعيان العلماء وأصدر أوامره لجميع القبائل بحضور العيد بحضرته فامتثل الكل فغمرهم موائد وصلات وعوائد.

وفي رابع شوال عزل التماق عن قضاء فاس، وولي مكانه العلامة أبا العباس الشدادي وولي العمالة العربي العسعاسي.

ولما تم له الأمر واسـتقـر على عرش ملكه بمكناس قـام أهل فاس وغـيرهم يطلبون أخذ ثأرهم من أخيه السلطان المترجم وألصـقوا به أمورا زعموا أنه ارتكبها تبعا لأهل الظلم والتعدي. قال في «الدر المنتخب» نقلا عن نشر المثاني: إن مولاي

عبد المالك، استفتى العلماء فى أمور شنيعة شنعوها على أخيه مولاى أحمد توجب القتل لمن ارتكبها وفعلها، وكثر بها الكلام على الألسنة منها طلب أهل فاس أن ينصفهم من أخيه مولاي أحمد المذكور بكونهم لم يخرجوا عنه ولا قدرة لهم على ذلك ولا على حرب من يريد ذلك ولا على موافقته بقول ولا فعل، فنهبت اموالهم وحطبت أشجارهم وهدمت دورهم بالبمب، وماتت نساؤهم وأولادهم وآباؤهم وأهلوهم بالهدم، مع أن من ينسب له الخروج عليه لم يتحقق منه ذلك ولم يثبت عليه وانما يدفع عن نفسه الوداية وغيرهم من الجيش الذين كانوا ينهبون أموالهم ويريدون الوثوب على نسائهم كما فعلوا بالبوادي والحواضر فنسبوا الخروج إليهم ليحصلوا ما أرادوا فيهم، ووشوا بأهل فاس إلى مولاي أحمد ونسبوا لهم الخروج عليه فقبل منهم ذلك من غير ثبوت لهم على أهل فاس، فأطلق يدهم عليهم فخاض العلماء في ذلك ولم تتفق أقوالهم ولا آراؤهم في شيء فلم يجيبوا عن شيء واتفقوا على أن التفويض في ذلك للسلطان يجتهد ويحكم باجتهاده، فاستشار في ذلك كاتبه أبا عبد الله محمد بن أحمد الفاسي فأجابه بأنه لم يتم موجب قتله بما طلبه به بعض الضعفاء من أهل فاس من المؤمنين فرجع عما استفتي فيه العلماء من قتله. انتهى.

ثم أرسل مولاي عبد المالك أخاه الولي أحمد المترجم مسجونا لسجن فاس الجديد، فأتي به إليه مقيدا بالحديد تاسع الشهر قيل إنه رق له بعد ذلك وسرحه وبقي مسرحا نحو ثمانية أيام، ثم بداله سجنه وإجلاؤه إلى الصحراء ظانا أنه يستريح منه، وقبض عليه ووجهه في الثامن والعشرين من الشهر المذكور، وأمر ولده بسمل عين عمه المترجم بمجرد وصوله إليه، فكان من لطف الله به أن بلغه ما أضمر له أخوه القائم عليه فهرب لزاوية أبي عثمان سعيد أحنصال بقبيلة آيت عطة، وكان قيم الزاوية إذ ذاك ولده أبو يعقوب يوسف بن سعيد - وكان من المحدثين - فأخبره برجوعه لملكه وعود الأمور إليه.

ثم لما بدا للعبيد من المولي عبد المالك مالم يوافق هواهم من التبذير وتفريق الأموال في غير مستحقها بل حتى في مستحقها وقيامه بأمور المملكة بنفسه واستروحوا رائحة عزمه على الايقاع بهم ضاق بهم المتسع وشمروا على ساق في خلعه، ورد المولي أحمد لبسط كفه وإلقائه زمام الملك بأيديهم يتصرفون في الرعايا والجبايات وبيوت الأموال كيف شاء هواهم.

ولما أَحَسَّ بذلك المولي عبد المالك أخذ في الاحتياط لنفسه وتربص الدوائر بهم، ولكن بادت حيله ولم تغن عنه احتياطاته شيئا كما سيقص عليك في ترجمته بعد بحول الله.

وفي صبيحة عيد الأضحى من العام أعلن العبيد بخلع ربقة بيعته من أعناقهم ومنعوا خطيب مشرع الرملة من التعرض لذكره في خطبته وألزموه ذكر مولاي أحمد المترجم وطيروا الإعلام إليه، ولما اتصل به الخبر أسرع المسير إليهم وفي معيته صاحب الزاوية الخنصالية المذكور وقد انضم إليهم بنو حسن وتحالفوا وتعاقدوا على بيعته والموت تحت رايته وارتحلوا جميعا إلى مكناسة حيث عرش المملكة، فهم المولي عبد المالك بالبروز إليهم ومقاتلتهم، فجهر الوداية بالخروج عليه وبيعة أخيه وشرعوا فورا في قتال جيشه، ولحق بهم العبيد إلى مكناسة يوم الاثنين رابع عشري ذي الحجة عام أربعين[1].

ثم نادي بعض رؤساء العبيد على بعض من بباب قصبة السلطان الموالي للقبة الخضراء بنصر أخيه مولاي عبد الله وكانت خناثة بنت[2] بكار المغفري - زوجة مولانا إسماعيل - هي الساكنة بتلك الدار الموالية لذلك الباب، فلما سمعت النداء بنصر ولدها فتحت الباب من ناحيتها فبينما الناس يقاتلون بنواحي مكناسة إذ سمعوا بدخول العبيد للقصبة فسقط في أيديهم، وخرج السلطان ناجيا بنفسه في

---

(١) نشر المثاني - ص ٢٠٠٨ في موسوعة أعلام المغرب.

(٢) في نشر المثاني الذي ينقل عنه المصنف «خناته» وفى الاستقصا ٧/ ٥٨: «خناثى بنت بكار المغفرى».

نحو ثلاثمـائة من أصحابه، وسلك غيـر طريق فاس المشهورة، ووقع في القـصبة نهب عظيم وأعادواالـغارة على مكناسة بمثل ذلك نهـبا وسبـيا وهتكا للحـرمات، وارتكاب سائر المحرمات، وكان ذلك ثاني اليوم المذكور[1].

ولما وصل مولاي عـبد المالك أبواب فاس اضطرب رأي أهلهـا، فمنهم من رأي أن الأولي صده عن الدخول إليها لعجزهم عن مـقاومة حرب العبيد الساعين في الأرض الفسـاد، وخافـوا أن يوقعوا بهم مـا أوقعوه بمكـناس وقصبـته، ورأي السواد الأعظم مـنهم دخوله والمقاتلة دونه، لأنـه الخليفة الذي بيـعته فـي أعناقهم وطاعته واجبة عليهم والحال أنه بين أظهـرهم فأدخلوه واستوطن دار القيطون، وما رأى الجمهور من إدخـاله هو رأي جل علمائهم، وانضم إلى أهل فاس كل من لم يخرج عن المولي عبد الملك من القبائل على ما سيبين في محله بحول الله[2].

وقيل: إن مولاي أحمد المترجم وصل مكناسة في أواخر ذي الحجة من العام المذكور، وأن مولاي عبـد المالك لما فر ترك رماة أهل فاس بقصبـة مكناسة وكانوا نحـو الألفين، وأن مـولاي أحمـد لما حل بمكناس قـبض على الرمـاة المذكـورين وقيدهم وأودعهم بالسراديب رجاء أن يرجع أهل فاس إلى طاعته، ولما اتصل الخبر بأهل فاس خرجـوا خيلا ورجالا إلى زواغـة ونهبوا للوداية جمـيع ما وجدوه من الماشية، وجاءوا بذلك لفـاس، فبيع الكبش بثلاث موزونات والبقر بثـماني عشرة موزونة فاستغاث الوداية بإخوانهم الحالين بمكناس والعبيد.

وفي أول يوم من المحرم جـاء المولي أحمد لقـتال فاس بجنود لا حصـر لها وهم لا يشكون في دخـول فاس والإيقـاع بأهلها أفظع مما فـعلوه بمكناس، ثم بدا لمولاي أحمد أن يـوجه القائد صالح الليـريني قائد الرماة المسجـونين بكتاب لأهل

(١) نشر المثاني - ص ٢٠٠٨ في موسوعة أعلام المغرب.

(٢) نشر المثاني - ص ٢٠٠٨ في موسوعة أعلام المغرب.

فاس يحذرهم ما صنعوا ويغريهم على بيعة المترجم والدخول تحت طاعته، ويعدهم بتسريح إخوانهم الرماة المسجونين، ولما وصل الليريني إليهم وقرءوا الكتاب المذكور وثبوا على الليريني فقتلوه وصلبوه على التوتة الكائنة بسوق الصفارين، وقتلوا الحاج الخياط عديل بداره بالمعادي، وتمادوا على قتل كل من ذكر المترجم حتى لم يبق لاسمه ذكر بفاس.

وفي سادس محرم نودي في وقت الصلاة بهجوم العدو وخرج الناس من المساجد وصلوا الجمعة ظهرا فكشف الغيب أن لا عدو فاطمأنوا وأقاموا صلاة الجمعة وخطبوا بمولاي عبد المالك.

وفي يوم السبت سابع محرم وقع قتال كبير بين أهل فاس والوداية والعبيد، مات من أهل فاس نحو ثمانية وجرح نحو العشرين، ومات من الوداية ومن انضم إليهم نحو أربعمائة.

قال في «نشر المثاني» وفي تاسع المحرم قدم على السلطان مولاي أحمد مَنْ بقي[1] من جيشه من قبائل المغربْ فأحاطت الجيوش بمدينة فاس كالخاتم، فلما أصبح يوم عاشوراء برز[2] جيش العبيد على فاس، وأحاطوا بها إحاطة السوار بالمعصم، وقصدوها دفعة واحدة ولم يخرج لهم أحد من أهل فاس، وانما حاربوهم من أسوارها إلا القليل خرج إليهم، فهزم الله تعالي الجيوش كلها، ولم يمت من أهل فاس أحد إلا الولي الصالح سيدي العربي بن عيشون، لأنه خرج على باب المسافرين فأصابته رصاصة فقتلته، وحكموا أنهم منعوه من الخروج أولا خوفا عليه فقال: إن لم تتركوني أخرج يدخل عليكم العبيد يشير أنه الطالب من الله تعالى أن يصرفهم عن فاس وأنه افتداهم بنفسه وأنه حصل لأهل فاس دهش

(١) تحرف في المطبوع إلى: «ما بقى» وصوابه من نشر المثاني الذي ينقل عنه المصنف.
(٢) فى نشر المثاني: «ميّز».

عظيم. ثم كتب لهم مولاي أحمد رسائل يدعوهم إلى خلع مولاي عبد المالك والدخول في طاعته فامتنعوا، وهو في ذلك مساعف للعبيد، وإلا فقد كان حاله إنما يريد الراحة لكن كان الأمر والنهي للعبيد، وليس له من الملك إلا الاسم لا المسمي لا يقطع أمراً إلا بما يأمرونه [به] وبهذا اعتذر أهل فاس وامتنعوا من الدخول تحت العبيد. ثم حمي وطيس الفتنة وبقي الحرب سجالا[١].

وورد الخبر بأن سفيان وبني مالك وشراكة وأولاد جامع والحياينة اجتمعوا يريدون أن ينصروا موالي عبد المالك لأنهم باقون على عهده ولم يخلعوه، فوجه لهم العبيد جيشا فاقتتلوا مع القبائل قرب وادي إينول[٢] فانهزمت القبائل وبقي منهم قتلي كثيرون[٣].

ومن جملة من قتل مع[٤] القبائل وزير مولاي عبد المالك مولاي المنتصر بن مولانا إسماعيل، وحمل إلى فاس ودفن بروضة سيدي الخياط بالدوح من فاس القرويين، قتله الوداية وأرسلوه مع بعض المحبوسين من أهل فاس، وقصدهم بذلك تحقق مولاي عبد المالك بهزيمة جيشه، فحينئذ يئس وانقطع رجاؤه من المدد[٥].

وفي رواية أن الذي قدم بمولاي المنتصر سيدي عبد الله القصري في الرابع عشر من المحرم ودفن ليلا، وحضر جنازته السلطان مولاي عبد المالك وأعيان المدينة، وشد العبيد الحصار على فاس، وقطعوا الماء عن عدوة القرويين وأدنوا محلتهم لسورها.

---

(١) نشر المثاني - ص ٢٠١٨ وما بين حاصرتين منه.

(٢) في المطبوع: ايناون» والمثبت من نشر المثاني الذي ينقل عنه المصنف.

(٣) نشر المثاني - ص ٢٠١٨ في موسوعة أعلام المغرب.

(٤) تحرف في المطبوع إلى: «من» وصوابه في نشر المثاني.

(٥) نشر المثاني - ص ٢٠١٨ في موسوعة أعلام المغرب.

وفي ثامن عشر محرم ركبوا نفضين على المدينة قرب سيدي الحسن الدراوي، ورموا في ذلك اليوم نحواً من أربع وعشرين كورة، وبالغد وقع قتال كبير على جميع الأبواب خصوصا باب الفتوح، لأنهم أرادوا أخذ البستيون وجاءوا إليه بالسلاليم فانهزموا، ومات من أهل فاس نحو العشرين ورموا في ذلك اليوم كورا كبير.

وفي اليوم الموفي عشرين رَمَوْا نحو خمس وأربعين كورة، وبالغد رموا نحو العشرين.

وفي يوم الأحد الثاني والعشرين وقع قتال عظيم عند سيدي الحسن الدراوي، وفيه مات الحاج عبد الرحمن المفرج قائد الأندلس ونحو العشرين رجلا بين قتيل وجريح.

وفي السادس والعشرين وقع قتال عظيم بوادي المالح بباب الجيسة من الضحى إلى الظهر مات فيه من أهل فاس ثلاثة، وجرح ستة ومن الغير عدد كثير، ورموا في ذلك اليوم من الكور والبمب عدداً كثيرا في كورة واحدة نحو سبعه أرباع، وركبوا بقصبة شراكة بالخميس أربعة عشر نفضا وكانوا يرمون بها ليلا ونهارا من كل جهاتها وأحاطوا بها بأشبارات، فكان بينهم وبينها أقل من رمية بمكحلة، وربما كان رصاصهم يبلغ سطح الدور من بعض جهاتها فيصيب من يكون بالأسطحة، ووقع ضيق عظيم بالمدينة وهدم بالبمب كثير، ومات كثير من النساء والأطفال ومن لا يستطيع منعا ولا دفعا من الرجال العاجزين عن القتال. ونهب أهل الحلة المرس الكبير الذي بين سيدي على بن حِرازهم[1] وسيدي الحسن الدراوي إلى سور المدينة وحطبوا الأشجار وتجلدوا على دخول فاس، وأخلي من المدينة الدور التي يصل إليها الرمي بالكور والبمب واقتصروا على سكني ما لا يصل إليه، ورتب أهل فاس الحرس على الأسوار وحفروا واديا خارج السور

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «حرازم» وصوابه لدى السبكى فى طبقاته ٦/ ٢٥٨.

محيطا به وآخر أبعد منه من جهة باب الجيسة، وتجلدوا للمدافعة عن أنفسهم وعن أهل المسكنة من المؤمنين الذين لا يستطيعون دفعا ولا منعا العاجزين عن القتال، وعن المنع أو القبول بالقول باللسان، متوجهين إلى الله في اللطف والنجاة وإخماد الفتن، متضرعين إلى الله لا ئذين بحمي الله وحمي رسوله وأوليائه، وظهر في ذلك لطف عظيم وأمور عظيمة وأهل المدينة يخرجون للجيش خارج السور لا يرضون بالاقتصار على السور، وكان جيش العبيد مع ما انضاف إليهم قدر مائة ألف.

ثم إن القبائل التي انهزمت بوادي إينول أعادوا الجمع لأجل مولاي عبد المالك والمدافعة عنه وكانوا ينتهزون الفرصه كيف يصلون إلى فاس من الجيش المحيط بها، واستقروا بموضع يقال له تيسة من أرض الحياينة، وكان العبيد ينهبون زرع الحياينة الذي بـأَمْرَاسِهِم ويأتون به للمحلة فخرج العبيد لنهب الحياينة على العادة، فرصدهم القبائل المجتمعة بتيسة واقتتلوا مع العبيد، فهزموا العبيد وقطعوا رءوسهم ونهبوا لهم من الدواب ما يزيد على الستمائة.

ولما وصل الخبر للعبيد أرسلوا جيشا منهم ومن الأوداية ووقع القتال أيضا بتيسة فغلبهم جيش العبيد وهزمهم وتفرقت القبائل في الجهات. ولم تتبع العبيد إلاّ سفيان لكثرة حقدهم عليهم، حتى أدركوهم فأوقعوا بهم مقتلة عظيمة فهرب سفيان لحرم وزان ظنا منهم أن العبيد لا يتبعونهم للحرم، فتبعوهم ودخلوا عليهم داخل وزان، ونهبوا الأمتعة والديار، وكانت هذه الوقعة على الناس بوزان من أعظم الوقائع وذلك في الخامس والعشرين من صفر.

ورجع جيش العبيد[1] من وزان إلى فاس ودخلهم من العجب ما أطمعهم بالاستيلاء على فاس، وقد كان العبيد حين دخلوا لقتال القبائل صادفوا الفقيه

(١) نشر المثاني - ص ٢٠١٩ في موسوعة أعلام المغرب.

السيد أحمد بن سيدي محمد القسمطيني بحوز الحياينة متوجها إلى فاس، وقد كان قاضيا بتازا فقتلوه ومثلوا به.

وفي صفر أيضا وقع قتال عظيم على جميع أبواب فاس حضر فيه مولاي أحمد السلطان وأصحابه وجاءوا من ناحية باب الجيسة، وأظهر اللمطيون في ذلك اليوم قوة عظيمة وقتلوا من الجيش ما يزيد على مائة وخمسين وجاءوا بخَيْلِهم وأسلحتهم، ومات فيه من أهل فاس نحو خمسة عشر رجلا منهم التاجر بو عزة الشرايبي.

وفي الخامس من ربيع الأول كان قتال كبير أيضا بباب الجيسة مات من أهل فاس نحو اثني عشر رجلا، وجرح نحو العشرين ومات من الفريق الآخر عدد كبير.

وفي التاسع منه كان القتال بمصلي باب الفتوح وباب المسافرين وباب الجيسة، مات من أهل فاس عدد عديد يقارب المائة ومن القبائل أضعاف ذلك.

وفي يوم الأربعاء الخامس عشر منه أو الرابع عشر سردوا جيشهم على أن يدفعوا على فاس دفعة واحدة من كل ناحية، وعلامة ذلك خروج نفض في كل محلة عند طلوع الفجر على حين غفلة من أهل فاس، فكان من قدر الله تعالي أن أخبر بذلك بعض أهل المخزن[1] بعض أهل الصلاح والولاية برسالة، فدفع الرسالة التي أتته من المحلة لأهل فاس فباتوا علىِ سهر يترقبون ذلك[2].

فلما خرجت الأنفاض كان أهل المدينة على حذر، فإذا هم من كل حدب

(١) في هامش نشر المثاني - ص ٢٠٢٠ هو: «صالح بن صالح الأودي، وكان من أصحاب الشيخ مولاي التهامي، والمراد ببعض أهل الصلاح: سيدي محمد بن التهامي المذكور، كان نازلا بحومة الشرشور»، والمخزن = الحكومة فى بلاد المغرب.

(٢) نشر المثاني - ص ٢٠٢٠ في موسوعة أعلام المغرب.

ينسلون إلى أسوار المدينة، وجاء العبيد بسلاليم كل سُلَّم[1] يسع عشرة رجال في الدرجة الواحدة، وكانوا حفروا مينة تحت بعض الأسوار قرب سيدي الحاج بودرهم، وجعلوا فيها البارود وأوقدوا فيها النار، وكان من لطف الله أن صعد السور بالبارود ورجع لمحله ولم يعمل فيه البارود صدعا فرجع العبيد في قيود الحزن ترتاع ولم ينالوا شيئًا[2].

ولما بدا النهار ووضعت الحرب أوزارها وجدت قتلي العبيد صرعي على كل ناحية، وأكثرهم بباب الفتوح، وهم عدد كبير. ومات من أهل فاس نحو الخمسين منهم الطالب عبد الواحد الجامعي، والطالب مسعود بن محمد الفيلالي، والسيد علال التونسي[3].

فمن هذه الوقعة أيس العبيد من دخول فاس عنوة، واستبشر أهل فاس وزال عنهم الفزع.

ثم صرف العبيد وجهتهم إلى استعمال الحيلة والمكيدة، وإرسال الكور والبمب[4]، وطال الأمر وانقطع من يقوم بدعوة مولاي عبد المالك من كل موضع إلا بفاس، وانقطع عنها اللحم والصابون وجميع ما يجبي إليها من خارجها إلا الزرع والإدام كانا بها [كثيرا في هذا الحصار][5].

وبقي كل من الريفيين مصابراً للآخر إلى سادس عشر ربيع الثاني، جاءت محلة عظيمة ونزلت على فاس قائدها الباشا مساهل وهم أخلاط ملتقطون من بني

(١) في المطبوع: «كل سلوم ويجانبها كلمة (كذا) والمثبت من مختار الصحاح، وفيه: السلم، بفتح اللام واحد السلاليم التي يرتقى عليها.

(٢) نشر المثاني - ص ٢٠٢٠ في موسوعة أعلام المغرب.

(٣) نشر المثاني - ص ٢٠٢٠ في موسوعة أعلام المغرب.

(٤) في نشر المثاني: «البنب».

(٥) نشر المثاني - ص ٢٠٢٠ في موسوعة أعلام المغرب، وما بين حاصرتين منه.

حسن وغيرهم ودفعوا على القلة من باب الجيسة، مات منهم من[1] لا يحصي، ومن فاس نحو العشرين.

ثم في يوم الأحد الرابع والعشرين منه وقع القتال بباب عجيسة، وبالوادي المالح، وبناحية القلل وامتد من الضحي إلى العصر، ومات من أهل فاس نحو الثلاثين، منهم القائد عبد الوهاب الغرناطي. ومن الفريق الآخر من لا يحصى. هـ بنقل «صاحب الدر المنتخب».

ولما اشتد الامر وطال وكثر الهرج والمرج وعظمت المصائب، واشتعلت نيران الفتن من كل جانب، واشتبكت وارتبكت، والمترجم وحاشيته مجدون في مراودة أهل فاس عن الخروج عن طاعة المولي عبد المالك والرجوع إلى طاعة المترجم، واختلفت آراء الأعلام والعوام في ذلك أفتي الفقيه سيدي محمد ميارة بأنه لا يحل الخروج عن طاعة مولاي عبد المالك ووافقه على ذلك الفقيه أبو عبد الله محمد ابن عبد السلام بناني وأبو عبد الله محمد بن زكري، وخالفهم أبو العباس أحمد ابن مبارك الفيلالي اللمطي قائلا بوجوب خلعه ودفعه لأخيه المتغلب، لأنه لا قدرة له على مقاومته، وبقي الأمر يروج ومال اللمطيون إلى فتوي ميارة ومن وافقه، والأندلسيون إلى فتوى ابن المبارك ومن تبعه كأبي العلاء إدريس المشاط وأبي الحسن على الحريشي.

وفي ضحى يوم الاثنين رابع جمادى الأولى ذهب مولاي عبد المالك إلى زاوية سيدي عبد القادر الفاسي موهما أنه يزور وقصده الكلام مع الأندلسيين والأخذ بخواطرهم فلم يلتفتوا إليه على عادة الغوغاء في الرجوع عن أقوالهم.

قال العلامة ابن إبراهيم الدكالي في «تقاييده التاريخية»: ثم إن بعض الطلبة اجتمعوا بجامع الأندلس مع الفقيه السيد أحمد بن مبارك وكتبوا موجبا بإخراج مولاي عبد المالك وعزله ونصر الذهبي، وجعلوا يطوفون به على الناس في

---

(١) فى المطبوع: «ما لا يحصى».

العسات فيقولون: هل تعلمون الشرع أم لا ؟ فيقولون: نعم، نعمل الشرع، فيقولون إن الشرع حكم بإخراج مولاي عبد المالك ونصر الذهبي أخيه حتى طافوا بذلك الموجب على جميع أسوار المدينة فتغير الناس بسبب هذا الفعل أشد التغيّر[1]، وبقي الأمر كذلك إلى يوم الجمعة الخامس عشر من الشهر وجاءت غوغاء الأندلسيين إلى أئمة المنابر وأمروهم أن لا يخطبوا بمولاي عبد المالك، فبعضهم ترك نصره على المنبر، وبعضهم نصره، وبعضهم قال: اللهم انصر من نصره الحق المبين، واختلفت الكلمة وكثر الهرج والقيل والقال بين الفريقين، وكاد الأمر يعظم وغلت الأسعار خصوصا الصابون بيع بخمس موزونات للرطل.

ثم اجتمع الأندلسيون واللمطيون بمدرسة الصارفين ليلا وأظهر الذين أرادوا خلع مولاي عبد المالك حجتهم وسكت المخالفون لهم فدل سكوتهم على موافقتهم وانفصل المجلس في الحين.

وفي يوم السبت السادس عشر اجتمع رؤساء الاندلسيين منهم الحاج عبد الرحمن المرابي، والحاج محمد الاندلسي، والحاج محمد يويجر، وأحمد بن عبد الوهاب الغرناطي، والمجذوب اقلال اللمطي، والحاج أحمد بودة اللمطي بروضة سيدي محمد بن عباد مع من وافقهم من طلبة الوقت وكتبوا كتابا لمولاي أحمد الذهبي واشترطوا عليه شروطا إن وفي بها خلعوا أخاه ونصروه وبعثوا له ذلك الكتاب، وبالغد أجابهم بأنه قبل ما شرطوه وذهب إليه جماعة من العلماء والأشراف وأهل الحل والعقد ففرح بهم فرحا شديداً ووعدهم خيرا.

وفي يوم الاثنين الثامن عشر قدموا من عند مولاي أحمد ومعهم كتاب لأهل فاس يشكر فعلهم ويحبذ صنيعهم ويعلن بمسامحتهم فيما صدر منهم ورد القائد المحجوب عليهم فقرأ الكتاب بصحن القرويين وأعلنوا بنصره.

ومن الغد نودي بالأسواق على المخازنية الذين مع مولاي عبد المالك بأن لا

---

(١) فى المطبوع: «أشد الغيار» وبجانبها كلمة (كذا).

يشتري أحد منهم سلاحا ولا غيره، ومن اشتري منهم شيئا لزمته العقوبة، ونودي ثانيا لما دخل مولاي عبد المالك لحرم مولاي إدريس أن لا يدخل عليه أحد.

وفي عشية هذا اليوم جاء كتاب من عند الذهبي بأنه سامح أخاه وشفع فيه أهل فاس، أنه إن أراد الخروج من الحرم الإدريسي والذهاب لتافلالت فله ذلك، ولما أخبر مولاي عبد المالك بذلك امتنع من الخروج وقال: إني في حرم الله ولا حاجة لي بالملك، فشهد عليه بذلك وأرسلت الشهادة للذهبي.

ثم إن مولاي عبد المالك سمع ممن لا خلاق له من أهل فاس يقول في حقه: إن هذا الحرم لا يجير عاصيا، وسمع أن بعض الطلبة الذين أفتوا بخلعه أفتوا بإخراجه من الضريح الإدريسى، فبعث أحد أولاده لعبيد مشرع الرملة يطلب منهم لأمان لنفسه ويخرج معهم فأجابوه كتابة لذلك.

قال ابن إبراهيم: وفي ضحي يوم الخميس الحادي والعشرين من جمادى الأولي قدم الباشا سالم الدكالي رئيس العبيد ومعه نحو الخميس من أكابرهم ودخلوا لحرم مولانا إدريس وتكلموا معه وأعطوه الأمان وأنهم لا يغدرونه، فخرج معهم قرب الزوال مع جماعة من أصحابه وكلهم على خيلهم ولما كان مولاي عبد المالك عند السقاية التي بزنقة الحرم الإدريسي لقيه بعض الأندلسيين فقال له نريد من سيدنا السماح فقال لهم: هذا السيد بيني وبينكم وانصرف.

وكان الذي جد في خلعه هم الأندلسيون، وكنا نسمع أن الذهبي بعث إليهم بدراهم كثيرة فاقتسموها بينهم وكانت العامة تقول: أهل الأندلس باعوا سلطانهم بالفلوس.

ولما كان اليوم الذي دخل العبيد للحرم الإدريسي بقصد إخراج مولاي عبد المالك ضج الناس بالمدينة وسد بعضهم الدروب وتحزب اللمطيون وحلفوا أن

لا يتركوا أحداً يخرجه كائنا من كان، ثم دخل اللمطيون على مولاي عبد المالك وخيروه في المقام بالضريح الإدريسي والخروج مع العبيد، فاختار الخروج مع العبيد.

ولما ذهب معهم للمحلة أرسلوه لفاس الجديد وتلاقي مع أخيه مولاي أحمد، فتأدب له ونزل عن فرسه وعانقه وسلم عليه وأعطاه مضمة من الذهب وفرسا سرجه ذهب وأنزله بدار ابن شقرة ففرح الناس بذلك.

وفي الغد - وهو الثاني والعشرون من الشهر - بعث مولاي أحمد أخاه مولاي عبد المالك لمكناسة مسجونا فأصاب الناس كدر لا يعلمه إلا الله.

وفي هذا اليوم ذهب أعيان فاس إلى فاس الجديد وصلوا معه الجمعة وفرح بهم وأخذوا بخاطره وقدموا له هدية وشكروا فعله وسرح لهم المساجين الذين كانوا بمكناسة بالدهاليز، وأمر أهل فاس بالصلح مع الوداية فاصطلحوا، وفي الغد وهو يوم السبت فتحت أبواب فاس كلها وأمن الناس بعضهم بعضا.

وفي يوم الاثنين الرابع والعشرين قلعت المحلة ورحلت وذهب السلطان لمكناسة بعد الزوال، وودعه أهل فاس، وبعد ثمانية أيام ذهب أهل فاس إلى مكناسة طالبين من السلطان أن يرد عليهم ما نهبه لهم الودايا من الخماسي البلدي الذي كان بالبرج بفاس الجديد على يد القصارين فلم يرده لهم.

وفي يوم الاثنين ثالث رجب جاء الفقيه السيد إدريس المشاط من عند السلطان، أنه عزل سيدي أحمد الشدادي عن خطة القضاء وولاها له فلم يقبله أهل فاس.

وفي الرابع عشر رجب جاء المشاط لجامع القرويين وصلي الظهر وجلس بمقصورة القضاء ليحكم بين الناس، فدفع عليه جماعة اللمطيين فقام هاربا.

وفي ثامن عشر رجب جاء كتاب السلطان برد سيدي أحمد الشدادي للقضاء، وعزل المشاط وقرئ على المنبر وفرح الناس.

ثم بعد إبرام الصلح مع أهل فاس مرض المترجم قيل خرج من فاس صحيحا وابتدأه المرض بمكناس، وقيل خرج من فاس مريضا حمله العبيد في المحفة لمكناس، وعلى هذا القول أعني الثاني اقتصر في نشر المثاني[1].

ولما اشتد به المرض أرسل إلى أخويه سيدي محمد بن عريبة ومولاي سليمان ابن الجامعية - على ما قيل - وجماعة من العبيد أهل مشورته وأمرهم بقتل أخيه المولي عبد المالك ليلا من غير أن يشعر به أحد، فخنقوه ليلة الثلاثاء الموفي ثلاثين من رجب وغسلوه بالماء البارد على لوح بِمِيضَأَة جامع الزيتونة.

ولما قتل مولاي عبد المالك شهيدا - رحمه الله - وشاع الخبر في الناس منهم من صدق الخبر ومنهم من أنكره، وكانوا يتبايعون بالأجل الذي هو ظهور مولاي عبد المالك حتى أفضي الأمر إلى إخراجه من قبره برد الله ثراه ووضعه على الشافر حتى شاهده الخاص والعام وزال الريب.

(١) نشر المثاني - ص ٢٠٢١ في موسوعة أعلام المغرب.

علائقه السياسة

لما لبي مولاي إسماعيل داعي مولاه، وانتقل لما قدمت يداه وجه ملك الإنجليزي القبطان «روسيل» سفيراً للمترجم معزيا ومهينا وطالبا فداء الأسارى والدوام على حسن المعاملة مع التجار الذين بإيالته المغربية والأمنية على أنفسهم وأموالهم طبق ما كان الأمر جاريا عليه بينه وبين والده الفقيد.

ولما بلغ علم المترجم أن السفير حل بطنجة كتب له بما حاصله - حسبما جاء في صحيفة ٢٧ من «تاريخ انقلابات دول المغرب بعد وفاة مولانا إسماعيل» الذي ألفه القبطان «ابريط ويت» الإنجليزي الذي ورد في رفقة السفير «روسيل» المذكور المترجم من الإنجليزية إلى الفرنسية - وبعد: فقد أخبرنا الباشا أحمد بن على بن عبد الله الريفي أنكم وصلتم إلى جبل طارق ومعكم صاحب القائد المذكور الذي كان في عاصمة مملكتكم، وأخبرنا بما تؤملون منا من تجديد العهود التي كانت بين والدنا رحمه الله وبين دولتكم، وعليه فقدم لدينا صحبة الباشا أحمد بن على وها مكاتب الإيصاء عليك بالطريق حتى تصل لدينا مصونا من كل مروع أنت ومن معك من الأصحاب اهـ. ملخصا.

والصاحب الذي أشار إليه في هذا المكتوب الذي سماه صاحب التاريخ المنقول منه ببوكلي كان وَجَّهَهُ الجدُّ المقدس مولانا إسماعيل سفيراً لملك إنكلترا وفي أيوبته من سفارته اتصل به نعي مرسله أثناء الطريق.

وكان هذا السفير من جملة أعوان القائد أحمد الريفي المذكور وهو الذي كان أشار على السلطان المرحوم بتعيينه سفيرا.

ولما حدث ما حدث بين القائد أحمد وبين أهل تطوان مما تلي عليك وعلم بذلك السفير والحال أنه تطواني الأصل والاستيطان، كبر عليه ذلك ولم يدر إلى

أين تكون وجهته، فإن قصد الريفي لطنجة ربما لا يأمن على عائلته بتطوان من التضييق بهم وسلبهم أمتعتهم وما لهم نكاية له، وإن قصد أهله بتطوان لا يدري ماذا تلد له الليالي، وقد كان كل من الريفي وأهل تطوان لما علموا بقدومه وجه إليه يأمره بالنزول من البحر لديه فازدادت حيرته، حتى هم بالرجوع من حيث جاء إلى أن تطمئن البلاد وترجع المياه لمجاريها، وقد كان هذا السفير متأبطا لهدايا مهمة من ملك الإنجليز لمرسله.

ولما اتصل الخبر بصاحب الترجمة أوفد إليه الحاج عبد القادر لبريس لجبل طارق يأمره بالقدوم لحضرته بمكناس، وعند ذلك لم يجد بدا من التوجه للقائد أحمد الريفي بطنجة فتوجه لديه ثم ذهب للحضرة السلطانية.

وفي عشري قعدة الحرام عام تسعة وثلاثين ومائة وألف كتب المترجم لقنصل الإنجليز وتجار النصارى الذين بتطوان يعلمهم بأنه ولي الباشا على بوشفرة مكان الباشا أحمد الريفي عاملا على إيالته سهلها ووعرها ماعدا طنجة والعرائش وأصيلا، فإنه أبقاها لنظر الريفي المذكور، وأنه أمر بوشفرة بسكنى تطوان وأنهم لا يرون من المذكور إلا كمال المجاملة والصيانة التامة لأنفسهم وأموالهم حسبما بصحيفة ٢٨ من تاريخ انقلابات دول المغرب المذكور.

بناءاته: منها القصبة التي أنشأها بتادلا حذو قصبة والده، واتخذ بها داره ومسجداً أكبر من مسجد والده، كما أن قصبته أكبر، وزيادته في قبة ضريح والده كما تقدمت الإشارة لذلك في البناءات المكناسية.

قضاته: منهم الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن التماق الأندلسي الغرناطي العلامة المشاور، ولي قضاء فاس بعد امتناع والخطابه بالقرويين منها سادس صفر سنة أربعين ومائة وألف، فعدل في الأحكام وتحري الإنصاف والورع ومشاورة العلماء وأخر رابع شوال من السنة المذكورة عن غير

ريبة. له من المؤلفات: حواشي على شرح الحصن، وإزالة الدلسة عن أحكام الجلسة، وجمع الأقوال في لبس السروال، قبضه الله عشية الأربعاء عاشر الأربعاء عاشر جمادى الاولي سنة إحدى وخمسين ومائة وألف، ترجمه في «النشر» «والروضة المقصودة».

عماله: منهم على بوشفرة الوديني، وأحمد الريفي، والمحجوب العلج.

وفاته: توفي مسلولا رحمه الله ليلة السبت الرابع من شعبان عام أربعين ومائة وألف طبق ما هو منقوش في رخامة ضريحه، ودفن خلف ظهر والده بقبة الضريح رحمه الله وبرد ثراه وغفر له آمين.

٩ - أبو العباس أحمد بن محمد بن حماد بن محمد بن زغبوش المكناسي التاودي[١].

حاله: كان فقيها حافظا لكتاب الله تعالي كثير التلاوة له متدينا ماهرا في معرفة الهيئة والتعديل، عمي آخر عمره فلما كان عند الموت تلا: فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد، فحدث حاضروه أن الله تعالى رد عليه بصره، قال حفيد أخيه أبو الخطاب: فلا أدري أنص لهم على ذلك أم استدلوا بالتلاوة.

ووالده محمد بن حماد هو الذي كان امتحنه يدر بن ولجوط في سبعة من أقاربه بالتثقيف إلى أن أصبحوا مذبوحين، ولا غرابة فى ذلك إذ الجاهلون لأهل العلم أعداء سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

١٠- أحمد بن عبد القادر بن أحمد بن الولي الصالح المتبرك به عبد المغيث زغبوش القرشي المكناسي النشأة والدار والإقبار.

حاله: فقيه معظم، وجيه محترم، تقي زكي، بر طاهر مرضي، من بيت مجد وفضل وعلم وديانة، وعفاف ونباهة وصيانة، تقلّد وظائف، إفرادًا وجمعا،

---

(١) في المطبوع: «التاوري» بالراء.

وتقيد بمناصب هداية ونفعا، كم نشأ فى هذا البيت الكبير من عدول، وكم تفرع من فطاحل عن تلك الأصول، وكم تفننوا في بلاغة النظم والنثر، حتى أصبح منهم روض العلم في نشر، تحمد عقباه يوم النشر، وتطيب الأكوان من ريا ذلك النشر، رمقتهم الجلالة الإسماعيلية بطرف القبول، وشملتهم عنايتها بإدراك السول وحملهم على كاهل المبرة والاحترام، وأفردهم من منشوراته بما يعد من المآثر الفخام، وناهيك بما يتلي عليك من ذلك بعد في مرسومه الأغر، فإنه شاهد صدق أغر.

١١- أحمد بن عبد الملك بن محمد بن الحسين[١] بن عميرة المخزومي بلنسي شقوري الأصل يكنى أبا المطرف.

حاله: قال ابن عبد الملك: كان أول طلبه شديد العناية بشأن الرواية فأكثر[٢] من سماع الحديث، وأخذ عن مشايخ أهله، وتفنن في العلوم، ونظر في العقليات، وأصول الفقه، ومال إلى الأدب، فبرع به براعة عد بها من كبار مجيدي النظم.

وأما الكتابة فهو علمها المشهور. وواحدها الذي عجزت عن ثانيه الدهور، ولاسيما في مخاطبة الإخوان، هنالك استولي على أمد الإحسان، وله المطولات المنتخبة، والقصار المقتضبة، وكان يعلم كلامه نظما ونثرا بالإشارة إلى التاريخ، ويودعه إلمامات بالمسائل العلمية متنوعة المقصد[٣].

---

١١ - من مصادر ترجمته: الإحاطة ١/ ١٧٣، بغية الوعاة ١/ ٣٠٣، جذوة الاقتباس ١/ ١٤٥، الديباج المذهب ١/ ١٧٩، الذيل والتكملة ١/ ١/ ١٥٠، شجرة النور الزكية ١/ ٤٧٧، عنوان الدراية - ص ٢٩٨، المقتضب من تحفة القادم - ص ١٩٧، نفح الطيب ١/ ٣٠٥، الوافي بالوفيات ٧/ ١٣٣.

(١) تحرف في المطبوع إلى: «الحسن».

(٢) فى المطبوع: «فاستكثر» والمثبت لدى ابن عبد الملك الذى ينقل عنه المصنف.

(٣) الذيل والتكملة - السفر الأول - القسم الأول - ص ١٥٢.

وقال المَقَّرِي في «نفح الطيب» لدي تعرضه له ما لفظه: قال فيه بعض علماء المغرب قدوة البلغـاء، وعمدة العلماء، وصدر الجلَّة الفضـلاء، ونكتة البلاغة[1]، التي قد أحرزها وأودعهـا، وشمسها[2] التي أخفت ثواقب كوكبـها حين أبدعها، مبدع البـدائع التي لم يحظ قبله بها إنسان، ولا ينطلق عن تلاوتهـا لسان، إذ كان ينطق عن قريحه صـحيحة، ورويَّة بدرر العلم فصيـحة، ذللت له صعب الكلام، وصدَّقت رؤياه حين وَضَعَ سيـدُ المرسلين - وهو الذي أوتي جوا مع الكلام - في يده الأقلام[3].

وقـال ابن الأبار في تحفـة القـادم في حقـه ما صـورته: فـائدة هذه المائة، والواحد يفي بالفئة، الذي اعترف باتحاده الجميع، واتصف بالإبداع فماذا يتصف به البديـع، ومعاذ الله أن أحـابيه بالـتقديم، لما له مـن حق التعليم، كـيف وسَبْـقه الأشهر، ونطقـه الياقوت والجوهر، تحلت به الصحـائف والمهارق، وما تخلت عنه المغارب والمشـارق، فحسبي أن أجـهد في أوصافـه، ثم أشهد بعدم إنصـافه، هذا على تناول العموم والخصوص لذكره، وتناوب المنثور والمنظوم على شكره[4].

وقال في الإحاطة: قلت: وعلى الجملة فذات أبي المطرف فيما ينزع إليه[5] ليست من ذوات الأمـثال، فقـد كان نسيج وحْـدِه، إدراكاً وتفنّناً، بصـيرا بالعلوم مُحَدِّثا مكثراً راوية ثَبْتاً، متبحرا[6] في التاريخ والأخبار، ريَّانا مضطلعا بالأصلين،

---

(١) في المطبوع: «البلغاء» والمثبت رواية المقري الذي ينقل عنه المصنف وهي المناسبة للمعنى.

(٢) في المطبوع: «وشمسه» والمثبت رواية المقري.

(٣) نفح الطيب ١/ ٣١٣.

(٤) نقله المقري في نفح الطيب ١/ ٣١٥.

(٥) في المطبوع: «وعليه» والمثبت لدى ابن الخطيب في الإحاطة الذي ينقل عنه المصنف.

(٦) في متن الإحاطة: «سَجِراً» وبالهامش: السجر: هو المليء».

قائما على العربية واللغة، كلامه كثير الحلاوة والطلاوة، جم العلوم[1]، غزير المعاني والمحاسن، شفاف اللفظ حر المعنى[2].

انتقل إلى العُدْوة[3]، واستكتبه الرشيد أبو محمد بن عبد الواحد بمراكش مدة يسيرة، ثم صرفه عن الكتابة وولاه قضاء مِلْيانة من نظر مراكش الشرقي، فتولاه قليلا ثم نقله إلى رباط الفتح، وتوفي الرشيد فأقرّه[4] على ذلك الوالي بعده أبو الحسن المعتضد أخوه، ثم نقله إلى قضاء مكناسة الزيتون، ثم لما قتل المعتضد انفصل عن مكناسة ولحق بَسبْتة، وجري عليه بطريقها ما يذكر في محنته، ثم ركب البحر منها متوجها إلى إفريقيَّة، فقدم بجاية على الأمير أبي زكريا، ثم توجه إلى تونس فنجحت بها وسائله، وولي قضاء مدينة الأريس، ثم انتقل إلى فاس وبها طالت مدة ولايته، فاستدعاه المنتصر بالله محمد بن أبي زكرياء، ولَطُف محله منه، حتى كان يحضر مجالس أُنسه[5].

مشيخته: روي عن أبي الخطاب بن واجب، وأبي الربيع بن سالم[6] وأبي عبد الله بن فرج، وأبي على الشلوبين، وأبي عمر بن عات، وأبي محمد بن حَوْط الله، لقيهم وقرأ عليهم وسمع منهم، وأجازوا له، وأجاز له من أهل المشرق أبو الفتوح نصر بن أبي الفرج وغيره[7].

---

(١) في الإحاطة: «جم العيون».
(٢) الإحاطة ١/ ١٧٤.
(٣) أي عدوة المغرب.
(٤) في المطبوع: «فأقامته» والمثبت من الإحاطة.
(٥) الإحاطة ١/ ١٧.
(٦) تحرف في المطبوع إلى: «سلام» وصوابه من الإحاطة والذيل والتكملة.
(٧) الإحاطة ١/ ١٧٤.

الآخذون عنه: أخذ عنه ابنه أبو القاسم، وأبو بكر بن خطاّب، وأبو إسحاق البلقينى الحـفيد، والحسن بن طاهـر بن على الشقوري، وأبو عبـد لله البري[1]. وحدث عنه أبو جعفر بن الزبير، وابن شقيف[2]، وابن ربيع، وغيرهم ممن يطول ذكره.

شعره: من ذلك قوله موريا بالعلوم:

قـد عكفـنا على الكتـابـة حـينا ... ثم جـاءت خطة القـضـاء تليـهـا
مع كل لـم يبق للـجـهـد إلا ... منزلا نائـيـا وعـيـشـا كـريـهـا
نسـبـة بـدلت ولم تتـغـيـر ... مـثل ما يـزعم المهندس فـيهـا[3]

وقوله:

يا غـائبـا سَلَبَـتني الأنس غـيـبتُـه ... فكيف صـبري وقد كـابدتُ بينهـما
دَعْـوَاي أنك في قلبي فـعـارَضَهـا ... شوقي إليك فكيف الجـمعُ بينهما[4]

وقوله:

إن الكتـاب أتي وسـاحةُ طِرْسِـه ... دوح توشح بـالبـديع مـبـرقع
وله حقـوق ضاق وقت وجـوبها ... ومن الوجوب[5] ضيق وموسع[6]

---

(١) تحرف في المطبوع إلى «البزي» بالزاي. وصوابه من الإحاطة والذيل والتكملة.
(٢) في المطبوع: «وابن شنيف» والمثبت رواية الإحاطة.
(٣) الإحاطة ١/ ١٧٧.
(٤) الإحاطة١/ ١٧٧.
(٥) في المطبوع: «العجائب» والمثبت رواية الإحاطة.
(٦) الإحاطة ١/ ١٧٧.

وقوله:

وأجات فكري في وشاحك فانثني ... شوقا إليك يَجول في جَوَّال
أنصفت غُصْنَ البان إذ لم تدعه ... لَتَأَوُّدٍ[1] مع عطفك الميال
ورحِمْت در العقد حين وضعته ... متواريا عن ثغرك المتلالي
كيف اللقاء وفعل وعدك سينه ... أبدا تخلصه للاستقبال
وكماة قومك نارهم ووقيدها ... للطارقين أسِنّة وعوالي[2]

وقوله:

أري مَنْ جاء بالموسي مواسي ... وراحة ذى القريض تعود صِفْرا
فهذا مخفقٌ إن قصَّ شِعْراً ... فهذا مخِفُقُ إن قصَّ شَعْراَ[3]

وقوله:

كبَّرت بالبشرى أتت وسماعها ... عيدي الذي لشهوده تكبيري
وكذلك الأعياد سُنة يومها ... مختصة بزيادة التكبير[4]

وقوله

بايعونا مودة هي عندي ... كالمصرات بيعها بالخداع
فسأقضي بردها ثم أقضي ... بعدها من مدامعي ألف صاع[5]

(١) فى المطبوع: «لتوادع» والمثبت رواية النفح.
(٢) نفح الطيب ١/ ٣١٥.
(٣) نفح الطيب ١/ ٣١٦.
(٤) الإحاطة ١/ ١٧٧.
(٥) الإحاطة ١/ ١٧٧.

وقوله:

شرطت عليهم عند تسليم مهجتي وعند انعقاد البيع حتما يواصل

فلما أردت الأخذ بالشروط أعرضوا وقالوا يصح البيع والشرط باطل(١)

نثره: من ذلك قوله من رسالة أجاب بها العباس بن أمية وقد أعلمه باستيلاء الروم على بَلَنْسِية:

بالله أي نحو تنحو، أو مسطور تثبت أو تمحو، وقد حذف الأصل والزوائد، وذهبت الصلة والعوائد، وباب التعجب طال، وحال اليأس لا تخشي انتقال، وذهبت علامة الرفع، وفقدت نون الجمع، والمعتل أعدي الصحيح، والمثلث أودي الفصيح، وامتنعت الجموع من الصرف، وأمنت زوائدها من الحذف ومالت قواعد الملة، وصرنا جمع القلة، وظهرت علامة الخفض، وجاء بدل الكل من البعض(٢).

مؤلفاته: له تأليف في كائنة مَيُرْقَة(٣) وتغلب الروم عليها نحا فيه نحو العماد الاصبهاني في الفتح القدسي، وكتابه في تعقبه على فخر الدين ابن الخطيب الرازي في كتاب المعالم في أُصول الفقه منه، وردُّه على كمال الدين أبي محمد عبد الكريم السِّماكي في كتابه المسمي بالتّبيان في علم البيان، واختصار نِبيل من تاريخ ابن صاحب الصلاة وغير ذلك من التعاليق والمقالات(٤).

(١) الإحاطة ١/١٧٨.

(٢) الإحاطة ١/١٧٦.

(٣) كذا في متن الإحاطة ١/١٧٨ وهو الصواب، وبهامشها: «في بعض النسخ الخطية: المرية، وهو تحريف. وكائنة ميورقة يقصد بها هنا استيلاء النصارى على جزيرة ميورقة، كبرى جزائر البليار أو الجزائر الشرقية وذلك في سنة ٦٢٧هـ، على يد ملكهم خايمي ملك أرجون». وتحرف في المطبوع إلى: «المرية».

(٤) الإحاطة ١/١٧٨.

ودون الأستاذ أبو عبد الله ابن هانيء السبتي كتابته وما يتخللها من الشعر في سفرين بديعين أتقن ترتيبهما، وسمّي ذلك «بغية المستطرف، من كلام إمام الكتابة ابن عميرة أبي المطرف»(١).

محنته: لما قتل المعتضد اغتنم الفترة وانفصل عن مكناسة قاصدا سبتة فلقّي الرفقة التي كان فيها جمع من بني ضرين فسلبوه وكل من كان معه، وكان المنهوب من ماله يعدل أربعة آلاف دينار، وكان ورقا وعينا وحليا أُصيب بما له أحوج ما كان إليه(٢) وقد استقبل الكبر ونازعه سوء الحظ(٣).

مولده: ولد بجزيرة شُقْر(٤) وقيل بِبَلَنْسِية في رمضان عام ستة وخمسين قال عبد الملك: ووهم ابن الزبير في وفاته إذ جعلها في حدود الخمسين وستمائة أو بعدها(٥).

١٢- أبو العباس أحمد بن على الزرهوني المكناسي.

حاله: فقيه علامة جليل محدث كامل ناقد أورده ابن الأبار في تكملته وغيره.

---

(١) الإحاطة ١/ ١٧٨.

(٢) فى الإحاطة: «أصيب بمالقة ما أحوج ما كان إليه».

(٣) الإحاطة ١/ ١٧٩.

(٤) جزيرة شقر كانت تطلق أيام الدول الإسلامية على الجزيرة الكبيرة الواقعة في نهر شقر Jucar قبل مصبه في البحر المتوسط جنوبي بلنسية. وكانت من أجمل البقاع في تلك المنطقة، وكانت تسمى أحيانا بالجزيرة فقط. وهو الاسم الذي استعير فيما بعد لبلدة Alcira الإسبانية الواقعة على نهر شقر على مقربة من الجزيرة المذكورة. وقد كانت جزيرة شقر موطن كثير من العلماء والأدباء.

(٥) الإحاطة ١/ ١٨٠.

١٢ - من مصادر ترجمته: التكملة لابن الأبار ١/ ١١٢.

الآخذون عنه: أخذ عنه أبو القاسم بن سمجون، وحدث عنه بموطأ مالك وأجاز له روايته قال ابن الأبار: ولا أدري أين لقيه.

١٣- أبو العباس أحمد: هو الفقيه القاضي أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد البكري.

من أهل شريش

حاله: كان فقيها جليلا استوطن سلا وولي بها القضاء، ثم بمدينة مكناسة.

مشيخته: روي عن أبي إسحاق بن قر قول.

وفاته: توفي سنة إحدى عشرة وستمائة.

١٤- الولي الصالح المولي أحمد الشبلي الشريف الحسني.

لم أقف على من تعرض لترجمته ولا على من له أدني معرفة بشيء من حاله غير ما في بعض الرسوم من تحليته بالشريف الحسني، وما هو منقوش في جبص دائرة باب مسجد ضريحه ولفظه:

ها روضة الشبلي كالمسراج ... وبهاؤها للزائرين يناجي
نزه لحاظك في بهاء محاسني ... واغنم كرائم نوري الوهاج
واعكف على عين الكرامة والهدي ... ذخر الأنام وواضح المنهاج
فإذا دخلت ضريحه فاسأل به ... تحظ بأنوار نوره المسراج
وابسط أكفك للمهيمن ضارعا ... متوسلا بسلالة الإنتاج
السيد الحسني الهمام المرتضي ... كهف الآمال وبغية المحتاج
واسأل تنل فوق الأنام جميع ما ... ترجو وتلق مواهب الفراج

١٣ - من مصادر ترجمته: التكملة لابن الأبار ١/ ٩٣، الذيل والتكملة ١/ ١/ ٣٨٧ رقم ٥٤٣.

انتهى.

يقال: إن هذه القطعة لبعض الأدباء المكناسيين من أولاد القنسود، وقصيدة فى مدحه أيضًا تأتى فيما بعد.

ويقال إن السيدة حبيبة بنت الحاج الطاهر بن العربي بادو، هي التي بنت ضريح هذا السيد ومسجده من مالها الخاص بها والخالص لها، لرؤيا رأتها وقد كانت كفيفة البصر فرد الله عليها بصرها فبنت الضريح ومسجده، وهذا إن صح يحمل على مزيد التنميق أو التجديد، وإلا فقد أسلفنا لك ما هو نص في أن باني الضريح المذكور هو سيدنا الجد السلطان الأعظم المولي إسماعيل عليه صيب الرحمات، والله أعلم بحقيقة الحال.

١٥- أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن تميم اليَفَرْنِي الشهير بالمكناسي.

أخو أبي الحسن الطنجي، شيخ أبي عبد الله محمد بن سليمان السطي.

حاله: فقيه عدل أستاذ نبيل فاضل زكي نزيه.

مشيخته: منهم ابن هاني تلميذ ابن الشاط، وابن رشيد، وأبو يعقوب البادسي، وابن الزبير، وابن سليمان الوادياشي، وأبو عبد الله محمد بن قاسم ابن محمد الأنصاري المالقي الضرير الشهير بابن قاسم نزيل مكناسة الزيتون، رحل إليه من مدينة فاس إلى مكناسة، ورحل إليه الناس للأخذ عنه، ولما قفل إلى بلاده مدينة فاس صار يدعي بالمكناسي لذالك.

وفاته: توفي بمدينة فاس سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة برد الله ثراه آمين.

١٦- أبو العباس أحمد بن العربي الغُمَاري الكَومي، قاضي مكناس.

حاله: فقيه علامة واعية موثق، وقفت على رسم تحبيس حلي فيه بالعلم

١٥ - من مصادر ترجمته: جذوة الاقتباس ١/ ١٢٢، درة الحجال ١/ ٤٦.

والجلالة، ولم أعرف شيئا من أحواله ولا سن الولادة والوفاة، إلا أنه كان متوليا خطة القضاء بمكناس سنة ٩٥٩ تسع وخمسين وتسعمائة(١).

١٧- أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر الأندلسي الأنصاري الجزيري.

نزيل سلا، ودفينها، أصله من شمينة وبها نشأ.

حاله: أفضل أهل زمانه علما وعملا، وقال ابن صعد في «النجم الثاقب» في حقه ما ملخصه: كان أحد الأولياء الأبدال، معدودا في كبار العلماء ممن جمع له العلم والعمل وألقي عليه القبول من الخلق، شديد الهيبة، عظيم الوقار، كثير الخشية، طويل التفكر والاعتبار، قصده السلطان أبو عنان وارتحل عام سبعة وخمسين فوقف ببابه طويلا فلم يأذن له وكرر ذلك مراراً فلم يأذن له، وتبعه يوم الجمعة على رجله والناس ينظرونه وهو لا ينظر فقال: منعنا من هذا الولي، ثم أرسل إليه ولده مستعطفا فأجابه بما قطع رجاءه منه. اهـ(٢).

ودونك نص ما أجابه به:

«الحمد لله من العبد الفقير إلى الله تعالي أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر وفقه الله تعالى بمنه وكرمه، إلى أمير الؤمنين أبي عنان أيده الله تعالي بتقواه ورد حاله إلى ما كان عليه الخلفاء الراشدون ومن تعرض لنصيحة المسلمين آمين، وصلى الله تعالى على مولانا سيدنا محمد وآله وسلم تسليما، أما بعد:

(١) كذا فى المطبوع. وقد ترجم صابح الأعلام بمن غبر - ٤/١٤٥٥ موسوعة - لمن اسمه أحمد بن محمد العربى الغمارى، فقال: وفى هذه السنة - أعنى سنة ١٠٦٣هـ - توفى الفقيه الأصولى أبو العباس أحمد بن الفقيه العلامة أبى عبد الله محمد العربى بن محمد الكَومى عُرف بالغُمارى، ولى قضاء بلده مكناسة فحمدت سيرته، وكان فقيها مدرسا. أخذ عن الفقيه المفتى أبى عبد الله الهوارى، ثم عن العلامة أبى عبد الله بن بد الحليم وغيرهما.
قال خال الوالد الشيخ أبو عبد الله محمد المهدى الفاسى: قرأت على صاحب الترجمة الرسالة والمختصر.

١٧ - من مصادر ترجمته: درة الحجال ١/١٤٨، شجرة النور الزكية ٢/٣٤، كفاية المحتاج ١/٣٧، نيل الابتهاج ١/٩٢.

(٢) كفاية المحتاج ١/٣٧.

فقد ورد على كتابكم المشرف بذكر الله تعالى وولدكم المكرم جعله الله تعالى من المتقين، وأنبته نباتا حسنا وعلمه علما نافعا ولا يجعله من المبعدين، من رحمة رب العالمين، وصلي الله على سيدنا ومولانا محمد الكريم، ولتعلم أني ما شككت فيكم وقد أيقنت أنكم ما أرسلتموه إلا من أجل الله عز وجل وطلب مرضاته، وبعد: فإني لم أكن للزيارة أهلا، ولا للقربة محلا، وإنما سترني الكريم بفضله، ولطف بي بحلمه، ولله الحمد على نعمته الظاهرة والباطنة، ولتعلم أنى قصدت بنصيحتى لك وجه الله العظيم خاصة فإني لا أطمع في مخلوق أن يكسبني مالا ولا جاها لاكتفائي بمولاي جل جلاله وتقدست أسماؤه.

ولتعلم يا أمير المومنين وفقك الله للخير أن الله عز وجل ناظر إليك في كل حين وفي كل ساعة وكل نفس وكل طرفة، ولابد لك من لقائه، ويسألك عما دق وجل، وينشر عليك عدله، ويسألك عن أمر خلقه وما صنعت، هذا إن طالبك جل جلاله. وأما إن عفا عنك ونشر عليك رحمته وفسح لك فلا راد لفضله ولا لحكمه جل جلاله وتقدست أسماؤه.

وليكن أمير المؤمنين مشفقا على نفسه، وليعمل في يومه لما فرط في أمسه، ومن كان يومه شرا من أمسه فيا حسرته ويا وحشته ويا فجعته، وأعظم المصائب إعراضه عن ربه عز وجل، وقد أشفق الصالحون والأولياء والمتقون على أنفسهم، كان عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالي عنه يقرأ قوله تعالى (أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) وقال الله عز وجل: (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: من يأخذها بما فيها يعني من الأجر الذي يعطي الإمام العادل إشفاقا على نفسه. وقد وقف الفضيل بن عياض بعرفة فقال: ظننت أن هذا الخلق غفر لهم حتى رأيت نفسي فيهم. وكان عطاء يقول: لو مات عطاء استراح الناس. وكسفت الشمس يوما فصاح عتبة الغلام بذنوبي كسفت الشمس. وعرك عثمان بن عفان أذن غلام له لأدب فقال: آه أوجعتني. فقال: عثمان خذ أذني فاعركها، فأبي الغلام فقال عثمان: لابد من ذلك لأن تقتص مني في الدنيا خير من أن يقتص مني في الآخرة فعرك الغلام أذن عثمان فقال له: اشدد وزد، فقال: أمير المؤمنين

إن كنت تخاف القصاص فإني أخاف أيضا، فهذا يدلك كله على شفقة الأولياء والأصفياء على نفوسهم لما علموا عدل الله عز وجل في خلقه، ولك عبرة في آبائك وأجدادك فقد صاروا إلى الله عز وجل ولا تدري ما قال لهم ولا ما قالوا له.

وروي عن عيسى عليه السلام أنه مر بجمجمة فضربها برجله وقال تكلمي بإذن الله تعالى، قال: يا روح الله، أنا ملك زمان كذا وكذا فبينما أنا جالس في ملكي على تاجي على سرير ملكي وحولي جندي وحشمي إذ بدا لي ملك الموت، فزال عني كل عضو على حاله، ثم خرجت نفسي إليه، فياليت ما كان من الاجتماع كان فرقة، وياليت ما كان ذلك إلا حسرة ووحشة.

وروي عن أبي بكر الصديق أنه قال في خطبته: أين الوضأة وجوههم، أين الصباح الحسنة وجوههم، المعجبون بشبابهم، أصبحوا تحت الثرى.

وروي عنه أيضا أنه قال في خطبته: أين الذين بنوا المدائن، وحصنوا الحصون والحوائط، أين الذين كانوا يعطون من الغلبة في مواطن الحرب قد تضعضع بهم الحرب فأصبحوا تحت التراب والآكام.

وروي عن حذيفة بن اليمان أنه قال لابن مسعود وبه ألم من آخر الليل: قم وانظر لي أي ساعة هذه، قال قد طلعت الجمرة يعني الزهرة، فقال حذيفة أعوذ بالله من صباح إلى النار.

وقال معاذ بن جبل لما حضرته الوفاة لجاريته: ويحك انظرى هل أصبحنا؟ فنظرت فقالت: لا. ثم تركها ساعة فقال لها: انظري فقالت: نعم، فقال أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار.

وقيل لعامر بن عبد الله بن قيس عند الموت وقد بكي: ما يبكيك ؟ فقال: ما أبكي فرارا من الموت ولا حرصا على الدنيا، ولكني أصبحت في صعود مهبطة ثم لا أدري أين أهبط هل إلى الجنة أو إلى النار أو يعفو الله تعالى.

وقال محمد بن واسع عند الموت: يا إخواني، عليكم السلام إلى النار، أو يعفو الله تعالى.

وروي جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ في بعض الأحاديث أن نفرا من بني إسرائيل مروا بمقبرة فقال بعضهم لبعض: لو دعوتم الله عز وجل أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتا فنسأله، فدعوا الله عز وجل فإذا هم برجل جلس بين عينيه أثر السجود قد خرج من قبر من تلك القبور فقال: ما أردتم مني؟ لقد ذقت الموت منذ خمسين عاما فما سكنت من قلبي مرارته.

وروي عن كعب الأحبار أنه قال لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو لقيت الله بعمل سبعين نبيا لخشيت لك أن لا تنجو من هول ذلك اليوم.

فعليك عافاك الله بالشفقة على نفسك فإن الدنيا لا تدوم لك، فقد كان في زمن من الأزمان على ما حكي: ملك من الملوك كان عادلا في رعيته فقد سمعه، فقالوا برحوا في الناس من كان مظلوما فليلبس ثوبا أحمر، فإني إن فقدت سمعي فما فقدت بصري، فهذا عافاك الله قد نصح لرعيته ولا أدري هل كان مؤمنا أو كان كافرا، وإن رجع أمير المؤمنين وأشفق على نفسه ورعيته رجوت أن يقبله الله تعالى وأن يمن عليه بفضله إنه جواد كريم.

وقد قال بعض المشايخ: إذا وقع منك ذنب فلا يكن سببا يقصيك عن الاستقامة مع ربك، فقد يكون ذنبك ذلك آخر ذنب قدر عليك وليطالع أمير المؤمنين الرعاية للمحاسبي، أو كتاب النصائح للمحاسبي فلعل ببركة الشيخ يكسبك الله خوفا ورحمة فيكون سبب نجاتك، وإن سمعت بأمير المؤمنين أنه اجتهد فى نصيحة رعيته وكف يد ظالمهم ونصر مظلومهم اجتهد له في السؤال لله عز وجل في الأسحار، وأطراف النهار، وليعلم أمير المؤمنين أنه لا يخلصه أحد من خدامه ولا من حشمه بل يفرون منه يوم القيامة ويفر منهم، ولا عليك في هذا الأمر إلا أن تراقب الله تعالى وتعمل بما أمرك ونهاك يسهل الله عليك الخير فعساك

تموت وأنت مقبل على الله عز وجل وهو أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وفقك الله لما يحبه ويرضاه وسخرك لخلقه ولا أدار عليك رحي المحنة، على قطب الفتنة، وصلي الله على سيدنا محمد وعلى آله فرحم الله امرءا نظر لنفسه وعمل ما يخلصه عند ربه.

فلما وصل كتابه هذا للسلطان أبي عنان رحمه الله أيس من لقائه واشتد حزنه وقال: هذا ولي من أولياء الله حجبه الله عنا.

وقد أجابه أبو عنان عن هذا الكتاب بما لفظه:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى على سيدنا محمد وعلى آله وسلم، من عبد الله المعترف بذنبه، الراجي رحمة ربه، فارس أمير المؤمنين ابن على بن عثمان ابن يعقوب بن عبد الحق وفقه الله عز وجل لطاعته، وجعله بفضله من أهل جنته، إلى وليي في الله وناصحي في ذات الله عز وجل الولي العالم الزاهد الخاشع أبي العباس أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر، أمتع الله بحياته أولياءه، ونفع بصالح دعواته أصفياءه، وأبقاه ذخرا للمسلمين ونورا يهدي إلى سبيل المتقين، وبعد حمد الله بارئي النسم، على تتابع النعم، والسلام على سيدنا محمد خاتم أنبيائه ورسله إلى خيرة الأمم، وعلى آله وأصحابه ليوث الهيجاء ونجوم الظلم، فإنه وصلني كتابكم الذي ذكرتني بموعظته، وعرفتني مصالح نفسي بنصيحته، أعرب بلسان الصدق، ودعا إلى سبيل الحق، وأيقظ من النومة، ونبه من الغفلة، فجزاك الله خيرا يا أيها القاصد وجه الله العظيم في سره وجهره، الواقف عند حدوده عز وجل في أمره ونهيه، لقد نصحتني وما غششتني، وندبتني لسعادتي وما كذبتني، فالله أسأل أن ينور بصيرتي، ويأخذ للخير بناصيتي، ويسلك بي فيما قلدني سبيل أوليائه المتقين. ويعينني على القيام بأمور عباده المسلمين.

وهأنا إن شاء الله تعالى أجتهد في كف أيدي الظالمين، وأبذل جهدي في

إنصاف المظلومين، وأبتهل إلى الله تعالى بالضراعة في إعانتي بتوفيقه، وهدايتي لنهج طريقه، وهو سبحانه يعلم - وإن كنت مسرفا على نفسي مقصرا في عملي - أني لا أُضمر إهمال مظلوم ولا إعانة ظالم، وكفي بالله شهيدا، وقد قل أعوان الحق، وكاد أن تعدم منقبة الصدق، فلا رجل ولي عملا الا ظلم وتجبر، ولا مؤتمن يركن إليه إلا خان وفجر، ولا جليس يستعان بنهاه إلا آثر دنياه، واتبع هواه، لكن بالله أَستعين في جميع الأمور، وعليه سبحانه أتوكل وإن لم أُوف بحق التوكل في الورود والصدور، ونسأله جل وعلا أن يلهمنا ما يقربنا منه، ولا يجعلنا من المبعدين عنه.

وأسألك أنت بمن كانت هذه المكاتبة ابتغاء وجهه الكريم إلا ما اجتهدت لي في الدعاء في غلس الأسحار، وأطراف النهار، أن يمكنني الله عز وجل نفسي ويلهمني رشدي، ويجعلني من الناطقين بالحق، الفاصلين بالعدل، ويبلغني تعالي أملي في جهاد الكافرين، وينيلني قصدي في حج بيت الله الكريم، وزيارة قبره عليه أفضل الصلاة وأذكي التسليم، وأن يجعل ذريتي من عباده الصالحين ومن أهل القرآن العظيم وزوار قبر نبيه، وأن يختم لي ولهم بالحسنى، ويبلغنا في طاعته جميع المنى، بفضله وجوده.

وأنا قد انتفعت بكتابك، وأنتفع إن شاء الله بنصيحتك وأجد بركة موعظتك، التي أردت بها وجه الله العظيم علام الغيوب فلا تخلني بعد من إشارتك. ولا من صالح دعواتك، ولا توحشنا من أنس جوارك، ولا تفقدنا من صالح إيثارك. وإن كنت قد استغنيت عنا فإني لا أستغنى عن مشاورتك الصالحة، ومكاتبتك الرابحة. إن شاء الله تعالى وهو سبحانه وتعالى يجزيكم أفضل الجزاء ويهدينا إلى الطريقة المثلي والسلام عليكم ورحمة الله».

وذكر المترجم ابن الخطيب في نفاضة الجراب وابن الخطيب القسمطيني في رحلته ووصفه بأوصاف عالية منها: كثرة النفور من أصحاب الولاية في الأعمال

قال: وخرجت علـى يده تلاميذ نجباء أخـيار وطريقه أنه جعل إحـياء علوم الدين نصب عينيه واتبع ما فيه بجد واجتهاد، وصدق وانقياد.

قال هـو غيـره: ولم يكن قوته إلا من نسخ «عـمدة الأحكام» في الحـديث وكان معجبـا بهذا التأليف مؤثرا لحفظه وفهمه كثـيرا ما يندب إخوانه لذلك، وكان يقوم على حـفظه وربما أقرأه تفـهما لكثـير من أصحـابه ينسخ منه ثلاث نسخ في السنة غالبا ويسفـرها بيده، وربما صنع لها أغشية من جلد بيده ويبيـعها ممن يعرف طيب كسبه بدينار من الذهب العين للنسخة ولا يأخذ إلا قيمتها.

ولم تزل حالته وبركـته في زيادة إلى أن توفى قال ابن عرفـة: ما في زماننا مبرز إلا هو وأبو الحسن المنتصر.

قال ابن عاشر الحافي فـي «تحفة الزائر»: رحل يعني المترجم له وحج ثم آب للمغرب فقدم فاسا المحروسة وأقام بها مدة ثم ارتحل إلى مكناسة. اهـ.

وفي «درة الحجـال» رحل إلى مكناسة واسـتوطنها مـدة وكانت بهـا إحدى أختيه والثانية بشمينة، وكـان أبو عنان يجري على التي كانت بمكناسة جراية تعيش بها، ثم انتقل إلى سلا وقرأ القرآن والعلم ببلده شمينة، ثم انتقل منها إلى الجزيرة الخضراء وأقـام بها زمانا مشتغـلا بتعليم كتاب الله ولقي الأكـابر من أهل المقامات كمسعود الأبله - الرجل الصالح - قال وبإشارته خرج من الخضراء.

وفي تحفـة الزائر أنه نزل برباط الفـتح بعد انتـقاله من مكناسـة دهرا طويلا بزاوية الشيخ العظيم الشأن سيدي عبد الله اليابوري، ثم انتقل للعدوة الأخرى من سلا فنزل بهـا بزاوية الشيخ أبي زكـرياء الكائنة بقرب الجامـع الأعظم وبدار المقدم عليها إذ ذاك أبي عبـد الله محمد بن عيسي تلمـيذ أبي زكرياء المذكور، وكل ذلك بعد وفاة الشيخ اليابوري. اهـ.

الآخذون عنه: منهم العارف الكبير أبو عبد الله بن عباد شارح الحكم العطائية، وناهيك به وهو من اكابر أصحابه وخيارهم أقام معه سنين عديدة قال في رسائله: «كنت خرجت يوم مولده ﷺ صائما إلى ساحل البحر فوجدت هنالك السيد الحاج ابن عاشر رحمه الله وجماعة من أصحابه معهم طعام يأكلون فأرادوا مني الأكل، فقلت: إني صائم، فنظر إلى السيد الحاج نظرة منكرة وقال لي هذا يوم فرح وسرور يستقبح في مثله الصوم كالعيد، فتأملت مقالته فوجدتها حقا وكأنه أيقظني من النوم».

وفاته: توفي سنة خمس وستين وسبعمائة وضريحه بسلا مزارة مشهورة يقصدها الزوار ويفد إليها ذوو العاهات فيكشف الله أوصابهم والأعمال بالنيات.

١٨- أحمد بن يحيي بن أحمد بن يحيي بن أحمد بن عبد المنان أبو العباس الخزرجي.

أجرى ذكره تلميذه العلامة ابن جابر الغساني في شرحه على التلمسانية في الفرائض.

حاله: وصفه تلميذه المذكور بالشيخ الفقيه العلم رافع راية الشعر والأدب في عصره القدوة الأحفل، المتفنن الأكمل، كاتب الخلافة العلية، المخصوص لديها بالمزايا السنية، وأنشده لبعض المشارقة:

مفتاح رزقك تقوي الله فاتقه   وليس مفتاحه حرصا ولا طلبا
والعلم أفضل ثوب أنت لا بسه   فاجعل له علمين الدين والأدبا

وكان إنشاده إياه البيتين المذكورين برباط الفتح من مدينة سلا أوائل عام ثلاثة وثمانين وسبعمائة. اهـ.

---

١٨ - من مصادر ترجمته: درة الحجال ١/ ٥٣.

وحكي أنه قدم مكناسة مع أبي العباس أحمد المريني بن أبي سالم ونزل في مرستان مكناسة لكونه كان خاليا فكتب له السلطان المذكور هذه الأبيات:

يا شاعرا قد خبرناه ففاض لنا ... بالشعر والكُتْب من تلقاء نجران

نبئت أنك قد بدلت دارك في ... مكناسة فشجا من[1] عندك ابنان

ما زال يتبعك الغاوون مذ زمن ... حتى لقد همت في وادي المرستان[2]

وأجابه أبو العباس المذكور بقوله:

لما بدا لي في حمي مكناسة ... مثوى الذين مضوا من الأتراب

أيقنت أني لست ذا عقل بها ... أتبعت نفسي من هوي وتصابي

فتركت داري لم أُعرّج نحوها ... ورأيت مارستانها أولي بي[3]

و[قد][4] تنسب له حكاية، وهي أنه كان ذات يوم في طريق مكناسة فبينما هو في أثنائها إذ سمع هاتفا ولم ير شخصه وهو يقول:

أسرتم[5] السابح في لجة ... ولم تفلتوا ذوات الجناح

هذا وقد عرضتم للفنا ... فكيف لو خلدتم ياوقاح[6]

فأجابه ابن عبد المنان بقوله:

---

(١) رواية المطبوع: «مكناسة فجشا من عنك انبان» والمثبت رواية المكناسي في درة الحجال.

(٢) درة الحجال ١/ ٥٣.

(٣) درة الحجال ١/ ٥٣.

(٤) من درة الحجال.

(٥) في المطبوع: «أكلتم» والمثبت رواية درة الحجال.

(٦) درة الحجال ١/ ٥٤.

بالعقل قد فضلَنا ربُّنا وسخر الفلك لنا والرياحْ
فالحوت والطير متاع لنا وما علينا فيهما من جنَاحْ
وإن غدونا عرضة للفنا فنقلتنا إلى دار الفلاح
فإنه يُفْضي إلى دعوة لدار خلد ليس عنها براحْ[1]

قال في «درة الحجال» وهذه الحكاية حدثني بها أبو راشد عن شيخه ابن إقمار[2] وعن شيخه ابن غازي وأوردها في فهرسته هكذا منسوبة[3] له.

وأوردها الصفدي ونسبها لغيره فانظره.

قال وذكري عن ولد الكاتب المذكور وهو يحيي بن أحمد أنه دخل على مخدومه أحمد المريني بمساء فقال له: مولانا نعم صباحك، فأنكر السلطان ذلك منه وتوهمه ثَمِلاً فتفطن الكاتب لما صدر منه فأنشأ يقول:

صبحته عند المساء فقال لي ماذا الكلام وظن ذاك مزاحا
فأجبته إشراق وجهك غرني حتى توهمت المساء صباحا[4]

وعطس السلطان المذكور يوما وكان ابن عبد المنان حاضرا فقال:

يرحمك الرحمن من عاطس وليهنك الحمد على عطستك
ويغفر الله لنا كلنا وليسبل الستر على حوبتك

الآخذون عنه: منهم أبو عبد الله محمد بن جابر الغساني حسبما ذكره عن نفسه في شرحه على المنظومة التلمسانية وجماعة.

---

(١) درة الحجال ١/ ٥٤.

(٢) في المطبوع: «ابن أكار» والمثبت رواية درة الحجال.

(٣) درة الحجال ١/ ٥٤.

(٤) درة الحجال ١/ ٥٤.

وفاته: توفي سنة اثنين وتسعين - بتقديم المثناة - وسبعمائة - بتأخير الموحدة عن السين.

١٩- أبو العباس أحمد بن سعيد القيجميسي - بفتح القاف والجيم بينهما ياء ساكنة مثناة تحتية فميم مكسورة فياء ساكنة فسين بعدها ياء النسبة - المكناسي الورزيغي شهر بالحباك.

حاله: كان فقيها علامة متصوفا شاعرا فصيحا ظريفا آية من آيات الله في النيل والإدراك مع حظ وافر من الأدب[1]، وله ذوق في التصوف تولي الخطابة في المسجد الأعظم من بلده مكناسة الزيتون مدة، ثم خطب بجامع القرويين بعد العبدوسي، ثم عاد لمكناسة فخطب بها، ثم عاد إلى فاس وعزل هو عن الخطابة، والفقيه القوري عن الفتوي، والقاضي الجنياري عن خطته في يوم واحد، ثم طلب للإمامة بجامع الأندلس فأبي، وقال: إن كان عزلي لجرحة فلا يحل تقديمي، وإن كان عن غير جرحة فقبولي من قلة الهمة، أي لأن منصب الخطابة في القرويين أشرف من منصب الإمامة في الأندلس، وقبول الانتقال من الأعلى للأدون انحطاط في الهمة والله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها وهذا ظاهر. وكان يدرس بالمدرسة المتوكلية المعروفة بأبي عنان، كان يسكن بورزيغة من مكناسة الزيتون ومنها ارتحل لفاس.

مشيخته: كان تلمذ وهو صغير لسيدي سليمان الذي قال فيه ابن عباد: ما أعلم أحداً في هذا الوقت أعلم منه بمواجيد القلوب، ولم يفارقه حتى توفي. وأخذ عن العلامة سيدي على بن يشو التلاجدوتي المكناسي، وعن الشيخ الأستاذ

---

١٩ - من مصادر ترجمته: التوشيح رقم ١٣ جذوة الاقتباس ١/ ١٢٧: درة الحجال ١/ ٨٨، كفاية المحتاج ١/ ٦٢، نيل الابتهاج رقم ١١٨.

(١) في المطبوع: «مع حفظ وافر في الأدب» والمثبت رواية القرافي في التوشيح.

ابن جابر الغساني المكناسي، والحافظ أبي القاسم التازغدوري، والحافظ المحدث أبي محمد العبدوسي وغيرهم.

تآليفه: منها نظم مسائل ابن جماعة في البيوع محررة بما وضع عليه الإمام القباب في رجز عذب بليغ أجاد فيه غاية قال ابن غازي: قرأته عليه وأصلح فيه بقراءتي أشياء وأجازنيه، وإنشاءاته وإفادته كثيرة.

الآخذون عنه: أخذ عنه الإمام ابن غازي حسبما أفصح بذلك عن نفسه في روضه، وحلاه بشيخنا الخطيب البليغ أبي العباس أحمد بن سعيد الغيجميسي هـ من خطه.

وفيه الغيجميسي[1] - بالغين المعجمة بعدها ياء ثم جيم فميم مكسورة مشبعة ثم سين فياء نسب - فانظر مع ما نقلناه صدر ترجمته في النسبة وفق ما صرح به السوداني في تكميليه وغيره، وكذا أخذ عنه من في طبقته.

شعره: من ذلك قوله:

حضرة[1] آس وجمع ناس ... وصفوا راح فمن عذيري

راح لها في القلوب قدمًا ... محض سرور وفيض نور

من يد ساق وأي ساق ... قدس في الحسن عن نظير

فأسكر القوم دون كاس ... وكان سكري من المدير[3]

وقوله:

بُلِّغتَ آمالا ونلت مقاصداً ... وغدوت ترجي في الأنام وترهب

بهرتْ محاسنك الأنام فأصبحتْ ... أخبار جودك عن سعود تُعرب

(١) الذى فى المطبوع من الروض الهتون - ص ٥٦: «الغفجميسى».

(٢) في المطبوع: «خضرة» بالخاء المعجمة والمثبت رواية المكناسي في درة الحجال، وجذوة الاقتباس.

(٣) درة الحجال ١/ ٨٩.

برعْت علاك وَحُزْتَ كل فضيلة[1] وَطِفـقْت من فلـك المعـالي تَقْـربُ
بَرَقَت عـيـون الحـاسـدين ونالهم من رَوْع عـــزك ذِلة وتغـلـبُ[2]

ولادته: ولد بمكناسة أوائل القرن التاسع أعني سنة أربع وثمانمائة.

وفاته: توفي سنة سبـعين وثمانمائة بفاس على ما في «جذوة الاقـتباس» عن نيف وستين سنة كما في «كناشة» سيدي أحمد زروق وفي «درة الحجال» توفي بعد السبعين وثمانمائة[3].

٢٠ - أحمد بن سعيد المكناسي يكني أبا العباس.

حاله: فـقيه خـطيب. مصقع وجـيه لبيب. أريـحي أريب. ذكره في «درة الحجال».

وفاته: توفى في المحرم الذي هو من شهور سنة اثنين وسبعين وثمانمائة.

٢١ - أحمد بن محمد الحباك المكناسي.

ذكره في الدرة.

حاله: فقـيه أستاذ نحوي كان قـوالا بالحق، وكان آيه من آيات الله تعالي، وكان لا تأخذه في الله لومة لائم.

مشيخته: أخذ عن سليمان الشهير ببوبغربين[4] اليْزَناسِني.

(١) في درة الحجال: «كريمة».

(٢) درة الحجال ١/ ٨٩.

(٣) درة الحجال ١/ ٨٩.

٢٠ - من مصادر ترجمته: درة الحجال ١/ ٨٩

٢١- من مصادر ترجمته: درة الحجال ١/ ٩٤، كفاية المحتاج ١/ ٧٣، نيل الابتهاج ١/ ١٤٩.

(٤) في المطبـوع: «سليمـان بن يومين» والمثبت من ترجـمتـه لدى المكناسى في درة الحـجال ٣/ ٣١٢.

وفاته: قال في درة الحجال: توفي مسموما فيما حدثني به شيخنا أبو راشد بعد رجوعه من حركة الصلح مع المريني. اهـ. وذلك سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة.

٢٢- أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن بن محمد بن محمد بن على بن غازي العثماني المكناسي.

حاله: إمام علامة واعية مشارك، حلاه العلامة ابن فهد في اجازة له بالشيخ الإمام العلم الأوحد. العلامة الأمجد.

مشيخته: منهم أبو فارس عبد العزيز بن عمر بن محمد بن فهد وأجازه عامة كما رأيته بخطه.

وأخذ عن والده الأمام ابن غازي وأجازه أيضا عامة ودونك نص إجازته له نقلا عن خطه:

«أجزت لولدي أحمد ومحمد وللفقيه أبي محمد عبد الواحد نجل العالم المطلق أبي جعفر أحمد بن يحيي الونشريسي، وللفقيه أبي الحسن على بن موسي ابن هارون المطغري، وللفقهاء الإخوة الجلة أبي عبد الله محمد، وأبي زيد عبد الرحمن، وأبي العباس أحمد أولاد الفقيه المحصل أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الدكالي، وللفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد الواحد الغزال جميع ما اشتملت عليه فهرستي هذه وذيلها إجازة تامة، مطلقة عامة، بشروطها.

قاله وكتبه العبد الفقير المستغفر محمد بن أحمد بن محمد بن غازي العثماني، سمح الله تعالى له بمنه والحمد لله وكفي، وسلام على عباده الذين اصطفى».

كما أجازه عامة أيضا العلامة أبو عمرو عثمان بن محمد بن عثمان الديمي المصري، وأبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن مرزوق العجيسي، حسبما أفصح بذلك والده في فهرسته وذيلها.

فرع الشجرة الزكية الولي الكبير، العلم الشهير، البركة.

٢٣- سيدي أحمد الشبيه بن عبد الواحد بن عبد الرحمن بن أبي غالب بن عبد الواحد بن محمد بن على بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن على بن حمود بن يحيي بن إبراهيم بن يحيي بن محمد بن يحيى بن القاسم بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن حسن بن الحسن بن على بن أبي طالب ومولاتنا فاطمة الزهراء بنت سيد المرسلين. وحبيب رب العالمين، وآله الطيبين.

حاله: علامة نبيل، قدوة جليل، إمام حفيل، شريف أصيل، صاحب قدم راسخ، وقدر شامخ، عارف ناسك، جهبذ مشارك، لقب بالشبيه لما بدا من علامة جده فيه، وهي الخاتم بين كتفيه، ويالها من مزية عظيمة، ومنئبة جسيمة، وقد أثنى عليه صاحب «الدرة الفاخرة» قائلا:

ثم الإمام أحمد الشبيه	وهو الإمام العارف النبيه
كان به الشبه بالرسول	بخاتم في وضعها المنقول
وجده يحيي الشريف الجوطي	بنسب أفق العلا منوط
آخر تاسع المئين ولدا	عن ابن يجبش الطريق أخذ
وهي تبلغ إلى الجيلاني	كان له بها علو الشان
مضي ثلاثة وأربعون	من بعد تسعمائة تعيينا
قبره في مكناسة الزيتون	من باب عيسي جل في العيون

مشيخته: أخذ عن ولي الله تعالى سيدي محمد بن عبد الرحيم التازي المولود سنة أربعين وثمانمائة، وسيدي عبد الله الغزواني، والشيخ أبي عبد الله

محمد الزيتوني دفين المسيلة من بلاد الجريد المتوفي سنة إحدي عشرة وتسعمائة، وعن الشيخ أبي محمد عبد العزيز القسمطيني المتوفي سنة ثلاث عشرة وتسعمائة وغيرهم.

الآخذون عنه: منهم الولي المحبوب، أبو زيد عبد الرحمن المجذوب وجماعة كثيرة وطريقته رضي الله عنه جيلانية.

ولادته: ولد رضي الله عنه وعنا به آخر المائة التاسعة.

وفاته: توفي سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة ودفن بروضة سيدي عمرو الحصيني وقبره غير معروف لدينا اليوم قالوا إنما كان يعرفه الولي الشهير مولانا عبد القادر العلمي ويقال إن الدعاء عند قبره مستجاب.

٢٤- أبو العباس أحمد بن محمد بن ميمون المسطاسي المكناسي.

حاله: كان فقيها، فاضلا نبيها، وجيها نزيها، قاضيا بالحضرة الهاشيمية المكناسية وقفت على رسم مسجل عليه بتاريخ خمس وتسعمائة محلي فيه بالفقيه القاضي بمدينة مكناسة ولم أدر وقت وفاته.

٢٥ - قاضيها أبو العباس أحمد بن أحمد بن على بن عبد الرحمن بن القاضي الأعدل الخير الدين أبي العز بن أبي العافية المكناسي.

حاله: فقيه علامة نزيه أعدل قضاة زمانه له معرفة بالفقيه المالكي.

قال في ابتهاج القلوب «وبسبب قضاء أبي العز -يعني جد المترجم - جري عليهم لقب ابن القاضي فيما نظن».

والمترجم هو جد أبي العباس ابن القاضي مؤلف «الجذوة» و«الدرة» وغيرهما من التآليف المفيدة تولي خطة القضاء بمحروسة مكناسة الزيتون.

مشيخته: أخذ عن الإمام ابن غازي وغيره.

وفاته: توفي بفاس المحروسة سنة خمس وخمسين وتسعمائة ودفن بإزاء قبر الولي الصالح أبي عبد الله محمد بن غازي رحم الله الجميع بمنه.

٢٦- أبو العباس أحمد بن علي بن عبد الرحمن بن عبد الله المنجور. المكناسي النجار، الفاسي الدار والقرار، كذا نسبه غير واحد ممن ترجمه(١).

حاله: إمام فقيه معقولي، محدث أصولي، آية من آيات الله في المعقول والمنقول وسعة العارضة والاطلاع والمهارة الكاملة في سائر الفنون، كان أحفظ أهل زمانه وأعرفهم بالتاريخ والبيان والمنطق وغير ذلك وكانت له معرفة برجال الحديث شديد العناية بالتحصيل قوي التحقيق حسن الإلقاء والتقرير، معتنيا بالمطالعة والتقييد والإقراء، لا يكل ولا يمل، شعاره الإنصاف في البحث والمذاكرة، يميل مع الحق حيث كان، صافي الذهن حاد الإدراك، مصيب الفهم، ذا خط رائق، وأدب فائق، خدم العلم حتى ألقت إليه العويصات زمامها، وبرز على الأقران، وصار شيخ جماعة الأعلام في وقته، وكان يحض على تعلم سائر العلوم ويقول: إن العلوم كلها نافعة، وكان يبحث عنها ويتعلمها حتى إنه تعلم لعب الشطرنج فأتقنه ومهر فيه وصار المشار إليه بالبنان في معرفة دقائقه وتعلم تلاحين العود فكان يحرك بجسه أوتاره أفئدة العاشقين، جمال حضرة رب العالمين، أما العقائد فهو ابن بجدتها، وانفرد عن أهل زمانه بمعرفة تاريخ الملوك والسير والعلماء على طبقاتهم ومعرفة أيامهم وكانت معه حدة في بعض الأوقات تمنع المتعلم من مراجعته، والإكثار من مباحثته.

وكان مولعا بأمثلة العامة خصوصا عامة الأندلس يستحسن لغتهم ولكنتهم

---

٢٦ - من مصادر ترجمته: درة الحجال ١/ ١٥٦، نيل الابتهاج ١/ ١٥٥.

ويثني عليهم وعلى بلادهم ويتشوق إليها وكان يقال فيه إن فهمه لا يقبل الخطأ وله صناعة في التدريس يجيد ترتيب النقول ويتأنق في كيفية الإلقاء، وكان من عباد الله الصالحين لا يفتر عن قراءة القرآن إلا في زمن المطالعة أو الإقراء أو ضروريات الإنسان، وكان أورع الناس في النقل، كاد أن لا يفارق لسانه لا أدري أو حتى أنظر أو كلام يقرب من هذا.

وكان دمث الأخلاق رقيق الحاشية متقشفا في الدنيا قانعا بما تيسر من المأكول والملبس لا يحسن تدبير الدنيا قال «في درة الحجال» صارت الدنيا تصغر بين عيني كلما ذكرت أكل التراب للسانه والدود لبنانه.

وفي «كفاية المحتاج» هو آخر فقهاء فاس لم يخلف بعده مثله، وأصله من مكناسة الزيتون كما صرح بذلك غير واحد ممن ترجمه.

مشيخته: أخذ عن اليسيتني وهو عمدته، وسقين، وابن هارون، وعبد الواحد الونشريسي، والزقاق وغيرهم ممن اشتملت عليه فهرسته.

الآخذون عنه: أخذ عنه الإمام المولي عبد الله بن على بن طاهر الحسني العلوي، وأبو المحاسن الفاسي، وأخوه العارف بالله، وولده أبو العباس أحمد، وأبو العباس ابن القاضي صاحب «درة الحجال» وغيرها. وأجازه عامة قال في درته لازمته كثيرا من سنة خمس وسبعين إلى وفاته وما فارقته إلا زمن رحلتي للمشرق أو زمن أسري فقط أو مرة أقمتها بمراكش في حياته رحمة الله عليه وأخذ عنه خلق عظيم.

مؤلفاته: منها شرح المنهج المتخب على قواعد المذهب، وحاشية على كبري السنوسي في العقائد، وأخري صغيرة عليها أيضا، وشرحان على قصيدة ابن زكري في الكلام مطول ومختصر، وفهرستان كبري وصغري، ومراقي المجد في

آيات السعد، والمختصر المذهب، من شرح المنهج المنتخب، وشرح المختصر. من ملتقط الدرر.

شعره: من ذلك قوله جوابا عن سؤال بعض السنوسيين سأل عنها قاضي الجماعة بفاس عبد الواحد الحميدي[1]:

جوابك في الأولى إباحة أكلها	ومستقذر كل يباح وَصدِّقِ
وأنكر في التنبيه نجل بشيرهم	إضافة ذا للمذهب افهم ودقق
وقد قيل في الأوزاغ يحرم أكلها	وذلك في الكافي ليوسف فارتق
وميت مجنون جري خلف حكمه	بِعِلْم كلام لا تكن غير متق
وتحقيقه أن الجنون الذي طَرَا	يصير كموتٍ فَصِّل الحَقَّ تَعْبَقِ
فآونة بعد البلوغ طُرُوَّه	وحينا يُرى قبل البلوغ فطبق
وآونةً إثر الصلاح وقوعه	وحينا لِعصيان[2] الكبير يلتقي
وحينا يدوم للممات وتارة	يُفيق فخذ حكم الجميع ووثق
ويندب للمسبوق دعوى تشّهدٍ	وِفاق إمامٍ في الثلاثة فارْتَقِ
وليس له فعل بحال واصله	بكسر لياء فاكسرِ العين ترتقي
وجمعك صاعا في القليل بأَصْوُع	وسوغ لضم[3] الواو نهجا ونمق
وإن شئت فاقلبه فيرجع آصُعا	بضابط[4] تصريفٍ فللعلم شَوِّق

---

(١) الأبيات لدى المكناسي في درة الحجال ١/١٥٨، والتنبكتى في نيل الابتهاج ١/١٥٧.

(٢) في المطبوع: «بعصيان» والمثبت من درة الحجال.

(٣) في المطبوع: «الهمز» والمثبت من درة الحجال

(٤) في المطبوع: «الضابط» والمثبت من درة الحجال.

وصـاع كعـام عـينه فـرع ضمـة وتحــريكه فـتـح فـزِنْهُ وحــقق

ومقصـود مِنْ في العود بدء لغاية فـإبليسُ مبـدا العـود عند الموقف

وجـمع سواء فـالذي منه جامـد بأفـعلـة فـاعلم يقـاس فــفـرق

ومـشتـقـه وزن الخطايا قـياسـه سـوايا به نقل فـــبـالمدح فـانطق

يعني أن المشتق جمعـه مسموع، وأما الجامد فلم يسمع له جـمع لكن قياسه أفعلة كأقبية، قال في نيل الابتهاج إثر نقله لهذا الأبيات ما نصه:

«وهذه الأبيات أرويها عن صاحبنا قاضي تامسنا إبراهيم الشاوي عنه»(١).

ولادته: ولد عام ستة وعشرين وتسعمائة.

وفاتـه: توفي يوم الاثنين سادس عـشر القـعدة الحـرام سنة خمـسوتسـعين وتسعمـائة كذا في «الدرة» والذي في نيل البتهاج أنه توفـي نصف ذي القعدة ليلة الاثنين والخطب سهل.

٢٧- أبو العباس أحمد بن عمر الحارثي السفياني.

نسبة لفخذ من قبيلة الغرب المشهور.

حاله: كان من أكابر الصالحين عارفـا بالله تعالي رطب اللسان بذكره تعالي لا يفتر لسانه عن ذكره وكان دأبه أن يخبط أطباق العزف والقفاف فلا يدخل الخيط ويخرجـه في كل مرة إلا بـكلمة الهـيللة شأنه مـراقبـة مولاه، في سـره ونجواه، والدلالة عليه.

مشيخته: أخذ عن الشيخ أبي عبـد الله محمد بن سليمان الجزولي صاحب دلائل الخيرات.

---

(١) نيل الابتهاج ١/١٥٨.

٢٧ - من مصادر ترجمته: دوحة الناشر في موسوعة أعلام المغرب ٢/ ٨١٤.

الآخذون عنه: منهم الشيخ الكامل أبو عبد الله محمد بن عيسي السفياني الأصل ثم المختاري شيخ الطائفة العيساوية، ومنهم السيد عمر بن مبارك الحصيني من قبيلة حصين - بالتصغير - دفين مكناسة الزيتون والسيد سعيد بن السايح المالكي من عرب بني مالك، وغيرهم.

وفاته: توفي في العشرة الأولى من القرن العاشر وقبره مشهور ببلدتنا المكناسية عليه مزارة جليلة خارج باب السيبة أحد أبواب المدينة.

٢٨- أحمد بن إبراهيم الأوسي الجنّان أبو جعفر.

من جملة شيوخ مكناسة الذين لقيهم ابن الخطيب عام إحدي وستين وسبعمائة حسبما ذكره في رحلته المسماة «بنفاضة الجراب».

حاله: كان فقيها عدلا اخبار يا مشاركا من أهل الظرف والانطباع والفضيلة عاقدا ناظما ناثرا مشاركا في فنون من العلم.

مصنفاته: منها المنهل المورود في شرح المقصد المحمود، في ثلاثة أسفار شرح فيه وثائق ابن القاسم الجزيري فأربي على الإجادة، بيانا وإفادة، قال ابن الخطيب ناولني إياه وأذن في حمله عنه وأنشدني كثيرا من شعره.

شعره قال في صدر رسالة يهني بها ناقها من مرض(١):

البس الصحة بُردا قشيبا   وارشف النعمة ثغرا شنيبا
واقطف الآمال زهرا نضيرا   واعطف الإقبال غصنا وطيبا(٢)
إن يكن ساءك وعكٌ تُقضي   تجد الأجر عظيما رحيبا
فانتعش دهرك ذا في سرور   يصبح الحاسد منه كئيبا

٢٨ - من مصادر ترجمته: نفاضة الجراب - ص٣٧٦.

(٢) نفاضة الجراب - ص ٣٧٦.

(٣) في المطبوع: «رطيبا» بالراء، والمثبت من النفاضة.

ومنه أيضا ما رقم في الدور الخشبي الذي بالدار التي كان نزل بها ابن الخطيب عند حلوله بالديار المكناسية وهو قوله[1]:

انظر إلى منزل إذا نَظَرَتْ — عيناك يعجبك كل ما فيه
ينبيء عن رفعة لما لكه — وعن ذكاء الحجا لبانيه
يناسب الوشي في أسافله — ما يرقم النقش في أعاليه
كأنه روضة مُدبَّجَة[2] — جاد لها وابل بما فيه
فأظهرت للعيون زخرفها — وأوقفتها على تحليه
فهو على بهجته تلوح به — ورونق للجمال يبديه
يشهد للساكنين أن لهم — من جنة الخلد ما يحاكيه

في أبيات أخر.

قال ابن الطيب: وفاتحته محركا قريحته ومستثيرا ما عنده بقولي:

إن كانت الآداب أضحت جنة — فلقد غدا جنانها الجنان[3]
أقلامه القضب اللُّدَان بدوحها — والزهر ما رقَمته منه بنان

قال فراجعني الجنان بما نصه:

يا خاطب الآداب مهلا فقد — ردك عن خطبتها ابن الخطيب[4]
هل غيره في الأرض كفؤ لها — وشرطها الكفاة قول مصيب

---

(١) نفاضة الجراب - ص ٣٧٦.

(٢) في المطبوع: «مدلجة» والمثبت رواية النفاضة.

(٣) نفاضة الجراب - ص٣٧٧.

(٤) نفاضة الجراب - ص ٣٧٧

أصـبح للـشـرط بهـا مـعــرسـا فاستفت في الفسخ فهل من مجيب؟

نثـره: قـال يخـاطب ابن الخطيب: «أيهـا السـيـد الذي يتنافس في لقـائه ويتغالي. ويصادم بولائه صرف الزمان ويتعالى[1]، وتستنتج نتائج الشرف بمقدمات عرفانه، وتقـتنص شوارد العلوم برواية كلامه، فكيف بمداناة عـيانه، جلوت على من بنات فكرك عقـائل نواهد، وأقمت بها على مـعارفك الجمـة دلائل وشواهد، واقتنصــت بِشَرَكِ[2] بديهتك مــن المعاني[3] أوابد شوارد، وفَـجَّرْتَ من بلاغـتك وبراعتك حياضا عذبة الموارد، ثم كلفتني من إجراء ظالعي[4] في ميدان ضليعها، مقـابلة الشمس النيرة بـسراج عند طلوعهـا، فأخلدت إخلاء مـهيض[5] الجناح، وفررت فرار الأعـزل عن شاكي السلاح، وعلمت أنني إن أخذت نفـسي بالمقابلة، وأدليت دلو قريحـتى للمساجلة، كنت كـمن كلف الأيام رجوع أمسـها، أو طلب ممن علته السـماء محاولة لمسـها، وإن رضيت من القريحـة بسجيـتها[6] وأظهرت القَدْر الذي كنت امتَحَتْ[7] من ركبتها. أصبحت مسخرة للراوين[8] والسامعين، ونبت عن أسمي دواوينهم كما تنبو عن الأشـيب عيون العين ثم إن أمرك يا سيدي لا يَحُلُّ وثيق مبرمـه، ولايحل نسخ محكمه، فامـتثلته[9] امتثال من لم يجد في

---

(١) في المطبوع: «ويعالى» والمثبت رواية نفاضة الجراب.

(٢) في المطبوع: «بشرارد» والمثبت رواية النفاضة.

(٣) في المطبوع: «المعالي» والمثبت رواية ابن الخطيب.

(٤) في المطبوع: «طالعنى» والمثبت رواية ابن الخطيب، وبهـامشه: «الظالع الذي أصابه الظلع وهو شبه العرج».

(٥) في المطبوع: «قبيض» والمثبت رواية ابن الخطيب.

(٦) في المطبوع: «بسيمتها» والمثبت رواية ابن الخطيب.

(٧) في المطبوع: «استمحت» والمثبت رواية ابن الخطيب.

(٨) في المطبوع: «للراءين» والمثبت رواية ابن الخطيب.

(٩) في المطبوع: «فامتثلت» والمثبت رواية ابن الخطيب.

نفسه حرجا من قضائك، ورجوت حسن تجاوزك وإغضائك، أبقاك الله قطبا لفلك المكارم والمآثر، وفصا لخاتم المحامد والمفاخر والسلام[1]».

٢٩- أبو العباس أحمد بن سعيد المِجْلَدي[2].

حاله: شيخ الجماعة في إقراء المختصر الخليلي محصل لمنطوقه ومفهومه، كثير الممارسة له، يختمه كل سنة، مستحضر للنوازل، عارف بإدراج الجزئيات تحت الكليات، ماهر في ذلك، حسن الأخلاق، لين العريكة، منصف متواضع، له إشراف تام على السير، ومشاركة وافرة في فنون عديدة نفع الله بعلمه جما غفيراً من الأعيان.

ولي قضاء فاس الجديد أزيد من أربعين سنة، فحمدت سيرته، ولم يحفظ عنه ما يشين عرضه ولا ما يغض من جلالة منصبه.

وولي قضاء مكناسة الزيتون بعد عزل القاضي أبي مدين عنها، وذلك أواسط شوال عام ثمانية وثمانين وألف كما أفصح بذلك الضعيف في «تاريخه» وقد وقفت على عدة خطابات له تدل على ذلك.

مصنفاته: منها اختصار المعيار في مجلد ضخم، وشرح على المختصر الخليلي سماه أم الحواشي يبين فيه الصورة أو لا بما فهمه ثم ينقل ما يناسبه من كلام الأئمة، ثم ينقل سائر لفظ الحواشي السابقة عليه، ومؤلف في الحسبة سماه «التيسير في أحكام التسعير» وقفت عليه في نحو الكراسة.

مشيخته: أخذ عن أبي محمد عبد القادر الفاسي، وأبي سالم العياشي وأجازه الأخير عامة كما أخذ عن غيرهما.

---

(١) الخبر بطوله لدى ابن الخطيب في نفاضة الجراب - ص ٣٧٧.

(٢) في المطبوع: «المجيلدي» والمثبت في نشر المثاني.

٢٩ - من مصادر ترجمته: نشر المثاني ٤/ ١٦٦٧ في موسوعة أعلام المغرب.

الآخذون عنه: منهم أبو على الحسن بن مسعود اليوسي كما في «نشر المثاني» وناهيك به. قال اليوسي في «فهرسته» أخذت عنه رسالة الأسطرلاب، وشيئا من الحباكية وشيئا من القلصادي، وحضرت عنده خليلا وأثني عليه رحم الله الجميع.

وفاته: قبضه الله إليه مغرب يوم الاثنين خامس عشري صفر عام أربعة وتسعين وألف ودفن ظهر الغد خارج باب محروق أحد أبواب فاس.

٣٠- أبو العباس أحمد الغماز أستاذها.

حاله: كان شديد الحفظ للقرآن العزيز يسأل عما قبل الآية فيجيب مسرعا وكان أستاذ الإقراء، وأستاذ الغناء، وكان له تلامذة يحسنون الصنعتين.

٣١- الشاب أبو العباس أحمد بن عمر بن مبارك الحصيني المكناسي.

حاله: فقيه من أعيان أهل مكناسة ذكره الغزال في تأليفه الذي تعرض فيه لترجمة الشيخ الكامل السيد محمد بن عيسي دفين خارج بَابَيْ السيبة والبراذعيين من مكناسة الزيتون قائلا فيما حكاه عن السيد محمد بن عمر بن داود المختاري أحد تلاميذ الشيخ المذكور، من أنه كان يوما بين يدي شيخه ابن عيسي إذ جاء الشيخ شاب فقيه من أهل مكناسة ومن أعيانها وعليه أثر الغبار، فجلس أمام الشيخ وصار يبكي بكاءً شديدا، فقال له الشيخ: ما يبكيك يا فقيه؟ فأخبره عن والده أنه سار إلى رحمة الله وله مدة يسيرة وأنه رآه الليلة في النوم وذكر له أنه يعذب في قبره، وأنه أمره بالتوجه إليه لعله أن يدعو الله له أن يخفف عنه العذاب، فقال له الشيخ: نعم، وبسط كفيه وقال: اللهم بجاه سيدنا ومولانا محمد صاحب الجاه العظيم عندك خفف عن والده العذاب، وأمّنّا نحن على دعائه، ثم إن الشاب قبل يد الشيخ وقام وهو مسرور وأيقن بالفرج لما يتحقق من إجابة دعائه رضي الله عنه.

ثم بعد ثلاثة أيام أقبل المترجم على الشيخ عند صلاة الصبح فصلاها خلفه وعليه آثار الفرح والسرور، ثم بعد الفراغ قام وجلس أمام الشيخ وقبل يده وقال: يا سيدى، رأيت البارحة والدى وهو فى غاية السرور، وعليه عباءة خضرا، وقال: يا ولدى قد رفع الله عنى العذاب ببركة دعاء الشيخ، فعليك با بنى باتباعه وصحبته، ثم دخل الشاب المترجم في عهده وصحبته وصار من المفتوح عليهم. قال: وهذا الشاب الفقيه هو الشيخ سيدي أحمد بن عمر بن المبارك الحصيني رضي الله عنه.

مشيخته: أخذ عن الشيخ ابن عيسي وغيره.

٣٢- أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد المكناسي الزناتي الشهير بابن القاضي.

من نسل موسى بن أبي العافية.

صرح هو بذلك في كتابه جذوة الاقتباس.

ورفع نسبه فيه إليه، ثم إلى مكناس بن وصطيف، ثم تبرأ من فعل جده ابن أبي العافية مع أهل البيت وهو ممن شمله عموم قول ابن غازي في "روضه" لدي تعداده علماء مدينة مكناسة الزيتون، إذ قال: ومنهم بنو العافية.

حاله: كان فقيها مشاركا مؤرخا ضابطا نقادا مطلعا ثبتا وجيها متقنا حيسوبيا فرضيا له معرفه بالتاريخ والفقه والفرائض والحساب والهندسة وتولي القضاء بسلا فحسنت سيرته وحمدت.

مشيخته: أخذ عن عدة شيوخ في المغرب، منهم: أبو القاسم المنجور، ومفتي مراكش أبو محمد عبد الواحد السجلماسي الحسني العلوي، وأبو زكرياء يحيي السراج، وأبو عبد الله بن جلال، وابن مجبر المساري، والشيخ القصار، والشيخ أحمد بابا السوداني. ثم رحل إلى المشرق فأخذ به عن عدة شيوخ أيضا، وكان يتردد إلى الشيخ أبي المحاسن الفاسي ويحضر مجالسه.

---

٣٢ - من مصادر ترجمته: نشر المثاني ٣/ ١٢٢٩ في موسوعة أعلام المغرب.

تآليفه: منها جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس، ومنها درة الحجال في أسماء الرجال. والمنتقي المقصور على مآثر الخليفة أبي العباس المنصور، ولفظ الفرائد من لفاظة حلو الفوائد، وله نظم ذيل به رقم الحلل لابن الخطيب، وغنية الفرائض في طبقات أهل الحساب والفرائض، والمدخل في الهندسة، ونظم تلخيص ابن البنا، وكتاب نيل الأمل فيما بين المالكية جري العمل، وفهرسته المسماة بزائد الصلاح، وله كلام على جداول الحوفي وتقاييد.

محنته: كان في رحلته إلى الحج ركب البحر فأسر بيد النصاري وأذاقوه النكال الأليم والبلاء العظيم، من الجوع والضرب والتكليف بما لا يطاق، وقد كان المنصور - رحمه الله - كتب في شأنه لقواد الثغور بالبحث عن مستقره في أي موضع من بلاد النصاري لتعلق همته العلية بإخراجه من ربقة الأسر تعظيما لقدره حسبما أخبر بذلك عن نفسه في كتابه المنتقي.

وكان أسره في يوم الخميس رابع عشري شعبان عام أربعة وتسعين، فتكون مدة أسره نحو أحد عشر شهرا، افتداه المنصور بما يعدل عشرين ألف أوقية من الذهب، بعد أن كان النصاري إنما طلبوا فداءه بكلب تعنتا.

شعره: من ذلك قوله مستعطفا ومستصرخا المنصور الذهبي لفدائه من الأسر:

تجلت عن المعاني الأسير المكبل	همومٌ سرت في الجسم في كل مفصل(١)
بذكر الإمام الهاشميّ الذي سما	بسيمة خير الخلق في كل محفل
إمام العلا المنصور فخر أئمة	به قد تحلي كل جيد معطل
به راق وجه الأرض وافتر ثغره	وحُلي جيد منه بالدر والحلي
إمام همام همه طول همة	ظبي ماله(٢) عين المعالي بصيقل

(١) نشر المثاني - ص١٢٣١ في موسوعة أعلام المغرب.

(٢) في المطبوع: «بانة» والمثبت من نشر المثاني.

فكم تضحك الخيرات في بطن كفه ... ويبكي[1] دمـاء كل رمح ومنصل

وكم جـاوز الغـايات حـتى لو أنه ... أراد الثـريـا أمـهـا في الـتنزل

فَغُـرُّ[2] الليالي مـن سناه توقدت ... ضـيـاءً بنور بـالخلافـة مـشـعل

زكيٌّ زهيٌّ للـسـمـاح سـمـاؤه ... جناح لنسـر النصر في كل مـحفل

إمام الهدى بحر الندي قسور الردى ... إلى المعـتـفي والفـاجـر المتـضلل

بحق الذي ولاك[3] ملكا فـنجني ... من الهلك يا قـصد السبـيل المكبل

وكن يا إمـام العدل في عـون حائر ... أسـيـر كـسـيـر ذي جناح مـذلل

لقـد مـزقـت أيدي الزمـان وريده ... ودارت عليـه الدائـرات كـجلجل

وأخني عليـه الدهر من كل وجهـة ... وداست علـيـه النـائبـات بأرجل

فعـافاك رب العرش يـا ملك العلا ... ودمت أمـامـا في عـلاء مـزمل

ولا زلت حج المعـتـفين وكـعـبـة ... مطافا لأهل الفضل في كل محفل

ولادته: ولد عام ستين وتسعمائة.

وفاته: توفـي عام ألف وخمـسين وعشـرين وقدر المكلاتي لوفـاته بحروف (وهو شهاب) في قوله:

وخر شهاب الدين أحمد من به ... (وهو شهاب) ظلمة الليل تنجلي

(١) في المطبوع: «وتبكي» والمثبت رواية نشر المثاني.

(٢) في المطبوع: «فعز» بالعين المهملة والزاي، والمثبت رواية نشر المثاني.

(٣) في المطبوع: «أولاك» والمثبت من نشر المثاني.

٣٣- الولي الشهير. المجذوب الكبير. سيدي أحمد بن بلعيد المدعو ابن خضراء.

من بهاليل مكناسة الزيتون.

حاله: كانت حالته حالة الغائبين المحبوبين له كرامات كثيرة. وأخبار بالمغيبات شهيرة. قال في «نشر المثاني» يتحققون ذلك أهل بلده ويتحدثون عنه بعجائب.

مشيخته: أخذ عن سيدي محمد الشرقي، قال في النشر: والتاريخ يقبله، إذ كان لصاحب الترجمة علوّ في سنّه، لأنه تقدم أن وفاة سيدي محمد الشرقي في العام العاشر بعد الألف وتوفي صاحب الترجمة عام خمسة وسبعين بموحدة وألف، فبين وفاتيهما نحو خمس وستين [سنة، وعمر صاحب الترجمة قرب المائة](٢).

والذي في لوح خشب منقوش مبني عليه صدر جدار المباح يمين الداخل لضريح المترجم أنه أخذ عن سيدي عبد السلام الشرقي، وهو أخذ عن والده سيدي محمد فيكون أخذ عن سيدي محمد بواسطة والده سيدي عبد السلام، وقد رفع سنده في ذلك اللوح إلى النبي ﷺ وعلى آله وصحبه.

وفاته: توفي عن سن عالية في منتصف رجب الفرد عام خمسة وسبعين بموحدة وألف، وضريحه بمكناسة شهير من المشاهد المتبرك بها رحمه الله ورضي عنه.

٣٤- أحمد بن عبد القادر بن عبد الوهاب بن موسي بن الشيخ سيدي محمد بن مبارك التاستاوتي(٣).

---

٣٣ - من مصادر ترجمته: نشر المثاني ١٥٢٧/٤ في موسوعة أعام المغرب.

(٢) نشر المثاني - ص ١٥٢٧ - ١٥٢٨ في موسوعة أعلام المغرب، وما بين حاصرتين منه.

٣٤ - من مصادر ترجمته: نشر المثاني ٥/ ١٩٥٤ في موسوعة أعلام المغرب.

(٣) في المطبوع: «التستوتي» والمثبت من نشر المثاني.

الولي الصالح العارف الشهير من حفدة الشيخ أبي عبد الله، محمد بن مبارك الزعري.

حاله: كان عالما عـاملا، عارفا كاملا، ممتع المجالسـة آية في نيل الفضائل. ومعـرفة حـقوق الأفاضل، فـمن ذلك أنه كانت وقـعت وحشة بينـه وبين الشيخ الكامل، العارف الواصل، سـيدي أحمد بن ناصـر، فبقي مرة يترضـاه، ويستنزل بمحاسن أدبه رضـاه. إلى أن لبي مناديه، فدعـا لتلقي تلك المنة ناديه، واسـتدعي الناس لحضور ذلك المهـرجان الدعاء العام، وذبح كل مـا ملكت يمينه من الأنعام، وأوقد لقراءة كتاب الشيخ الشموع بالنهار، وكاد أن يجري لكثرة ما ذبح من الدماء الأنهـار، وأخرج من الفـرش المرفوعـة ما قـدر عليه، وقـام عاري الرأس حـافي القدمين لقبض الكتاب الكريم الذي ألقي إليه.

وإذا لـم يـكـن مـن الـذل بـد		فـالق بـالذل إن لقـيت الـكبـارا
ليس إجـــلالك الكبـــار بذل		إنما الـذل أن تجل الصـــغـــارا

ومن ذلك أنه وفد على صاحب الترجمة فتية من أولاد الشيخ أبي يعزي في خروجهم لصيد فأكرمهم وطعموا وشـربوا وحين خرج ليشيعهم وجد كلابا بالباب أعدوها لصيدهم، فـقال: لمن هذه ؟ فقالوا: لنا، فعاتبهم حـيث لم يخبروه بها، قـــائلا: أليس بعـــار أن تكون هذه الـكلاب تصطاد لكـم وتتنزهكم ثم تـدخلون وتتركـونها ولا تخـبرونني بمكانهـا! ما هذا شأن صـحبة الـكرام، ثم أقسم أن لا ينصرفوا حـتى يصنع للكلاب طعاما وأخـذ في مداعبتـهم ومحادثتهم ومؤانـستهم حتى حـضر طعام الكـلاب، فوضعـه بين يديها ووقف عليهـا بنفســه حتى أكلت فودعهم وانصرفوا شاكرين.

قال أبو القاسم العميري: دخلت عليه في يوم الذي توفي فيه فوجدته جالسا على صندوق مرتفع عن الأرض، فقال: لي: إنما جلست هنا لأني صليت عليه هذه الصلاة يعني الظهر ويشق على إن نزلت أن أصعد لصلاة العصر فمات قبل العصر أو بعده.

ذكر لي يوما باءته وأن من قوته فيها أنه إذا كان في داره لا يصلي صلاة من الصلوات إلا بغسل من جنابة، وكان إذ ذاك متسع الحال في المناكح والسراري، وتأتّي له من ذلك ما لم يتَأَتّ لمثله، وكان له حسن بداهة في النظم حتى إنه قد يكتب الكتاب وحامله حاضر ينتظره له كأنه يحفظه.

مؤلفاته: منها نظم ممتع الأسماع وشرحه، ونظم رجال التشوف وشرحه، ونظم رجال القشيرية وشرحه، وله كتاب النزهة ضمنه رسائله في جزءين، وله ديوان شعر في ثلاثة أجزاء ضخام وقفت على جزء منها في القالب الكبير، وله أسئلة فقهية لعلماء وقته، وتقاييد مفيدة تدل على تضلعه واقتداره وشفوف مكانته وعلو همته وتفوقه على أترابه.

شعره: من ذلك قصيدته الدالية في مدح خير البرية، عارض بها دالية الشيخ اليوسي في مدح شيخ السنة وإمام الحقيقة سيدي محمد بن ناصر الدرعي ومطلعها.

عرج بأطلال الأحبة واقصد ... آثارهم يوما لعلك تهتدي
وأجز إذا جئت الديار بمنزل ... قد ضم أجداث العشير الهمد
ولهيب قلبك إن أردت شفاءه ... فأت الربوع تريح قلب الأكمد

إلى أن قال:

لولا النوى ما أقبلت من مغرب ... فوق المطايا عاشقون لأحمد

صلى عليه الله ما هبت صبا ... وبكي لرؤية وجهه ذو أكمد

بادر لزورته إذا ما اشتقته ... واذهب على الوجنات غير منكد

ودع المطي بأرجل تشم الحصي ... وسمن بالأخفاف خد الأجلد

وسمن كل مخيل من بارق ... وسمن بالركبات كل مبلد

يعطش بالفلوات مثل ضبابها ... ولهن سبح في سراب صيهد

وهي طويلة تنيف على الستمائة بيت وكان إنشاؤه لهذه القصيدة سنة خمس وعشرين ومائة وألف.

ومن ذلك قوله في ثاني ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وألف:

عظمت نعمة الإله علينا ... واستزادت فما لها من نفاد

كل يوم نري من الله فضلا ... وامتنانا ورحمة في أيادي

لو نجازي على ذنوب جنينا ... ها نزلنا منازل الإبعاد

فعفا رحمة ومنًّا علينا ... واهتدينا بنور أشرف هادي

أحمد المصطفي الذي من سناه ... زان ما في الأغوار والأنجاد

واهتدي كل سالك طرق الإر ... شاد من حاضر الأنام وباد

وارتدي كل رائد منها التو ... فيق من رائح إليه وغاد

إلى أن قال:

عجبا كيف يدرك المرء هون ... والنبي الكريم رحب النادي

لذ به متوسلا تبلغ المأ　　مول في القرب من رحيم جواد

وقوله في سنة ست ومائة وألف:

أراعك أن شمت الطلول الدوارسا　　كأن لم تري فيها البدور الأوانسا
وهل هاج منك الدمع لما رأيتها　　تذكر ظبي كان قبل مؤانسا
نعم رحل الأحباب منها وأودعوا　　جوي للحشا في كل وقت ملابسا
بكيت فلم تطف المدامع لوعتي　　وأصبحت من شوق من الصبر آيسا
وما كنت أدري البين حتى تحملوا　　ولا كنت من قبل التفرق عابسا
ولما استقلوا ظاعنين وخيموا　　بسلع أراني بعد ذلك ناكسا
كأني من شجو فقدت ابن ناصر　　ولم أر شيخا شامخ المجد رائسا

وقوله من قصيدة:

إذا أنا باينت البلاد وأهلها　　وفارقت أهلي وابتعدت عن الولد
ومت على دين النبي محمد　　فقد نلت آمالي وما خفت من كمد

نثره: من ذلك قوله في طالعة الجزء الثالث من ديوانه الشعري ولفظه: «الباب الرابع من أبواب هذا الكتاب الشامخ المقدار، في ذكر ما فتح الله به علينا من مستملحات الأشعار، وهو باب اتسعت دائرته، وقويت عارضته، وجمع من رقيق المعاني، ودقيق البيان اللساني ما فيه مستراح للالباب، وارتاح للأحباب، فما شئت من جد مفروغ في قالب الهزل منسوج على منوال الجد الرفيع، فروضته الغناء لا تنفد أزهارها، ولا تفرغ من الثمار أشجارها، دانية المرام، غير مستصعبة على الأفهام، وقد رأيت أن أبتدئه بقصائد نبويات وأخري بذكرى الصالحين مشرفات، ثم أسكبه سكبا، وأذكره فاكهة وأبا، متاعا لكم ولأنعامكم، ونزهة لأرواحكم وأجسامكم، والله المستعان، وعليه التكلان.

مشيخته: منهم السيد عبد الكريم الجزيري أخذ عنه سند المصافحة، وهو عن سعيد قدورة، عن سعيد المقري، عن أحمد حجي، عن محمد الوهراني، عن إبراهيم التازي، عن صالح الزواوي، عن محمد الشريف الفاسي نزيل الجزيرة، عن والده عبد الرحمن وعاش أربعين ومائة سنة، عن أحمد بن عبد القادر القوصي، عن أبي العباس الملثم وهو صافح المعمر وهو صافح رسول الله ﷺ.

وله سند في المصافحة عن سيدي عبد القادر الفاسي وأجازه، وقال له: صافحتك بما صافحني به الأشياخ إلى أنس بن مالك قال: صافحني رسول الله ﷺ فلم أر خزا ولا قزا كان ألين من كف رسول الله ﷺ الحديث فيه روايات.

قال صاحب الترجمة في كتابه «نزهة الناظر» وصافحني أيضا سيدي محمد ابن ناصر الدرعي، وأجازني عن أشياخه الذين صافحوه إلى النبي ﷺ. اهـ. بنقل صاحب الأزهار النادية ومن معتمد إمام السنة، وأعظمهم عليه منة، شيخ الشريعة والحقيقة سيدي محمد بن ناصر الدرعي وعلى يديه فتح له.

الآخذون عنه: أخذ عنه العلامة الطيب السيد عبد القادر بن العربي بن شقرون المكناسي، وأحمد بن أبي عسرية بن أحمد بن أحمد بن يوسف الفاسي في خلق.

محنته: سجن سنة أربع ومائة وألف بحبس فاس الجديد، لوشاية بعض أقاربه به للسلطان الأعظم سيدنا الجد الأكبر مولانا إسماعيل ثم سرحه وحمله ذلك على استيطان مكناسة الزيتون فرحل إليها، ولم يزل بها إلى أن توفي بها.

وفاته: توفي رحمه الله ليلة الأربعاء فاتح رجب سنة سبع وعشرين ومائة وألف، ودفن قرب روضة الشيخ عبد الله بن حمد خارج باب البراذعيين، وقبره هنالك مزارة شهيرة عليه بناء لأباس به، وله عقب ببلاد زعير يقال لهم القادريون.

٣٥- أبو العباس أحمد الخضر بن أبي عبد الله محمد بن أبي محمدعبد القادر زغبوش المكناسي النشأة والدار.

حاله: فقيه عدل ثقة مبرز وقور، صالح فالح بار مشكور، محمود الغريزة والطبع، معدود فيمن يترقب به للمعضلات الدفع، نبيه العقل وجيه في عهد الفضل، نجدة في الفهم، عمدة فيما يلم، منظور إليه من الجلالة السلطانية الإسماعيلية بعين الإكبار، مسبول عليه من لدنها رداء الوقار والفخار، وناهيك بمن يبجله ذلك الإمام، وأعظم بمن كان له منه ذمام.

فقد وقفت على ظهير إسماعيلي يبرهن عما للمترجم من شفوف المكانة لدي سيدنا الجد المذكور ودونك نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وآله وسلم تسليما، من الأمر العلى الإمامي المؤيد المنصور الإسماعيلي أمير المؤمنين، المجاهد في سبيل رب العالمين، الشريف الحسني، وبداخل طابعه إسماعيل بن الشريف الحسني الله له صدر هذا الظهير الزعيم، والآمر المطاع الجسيم، وهو الذي أعلن لماسكه بالرتبة المخصوصة بالتنويه، وشيد للمعتمد على الله وعليه مباني الاجتباء والتنويه، من الاعتناء الإمامي السلطاني الإسماعيلي الشريفي أبرم الله معاقده، وأجمل من إحسانه الجميل مساعيه ومقاصده، آمين يا رب العالمين.

يستقر بحول الله وقوته بيد الأرضي الأحظي المرضي الأبر الأحفل الأنبل خديم الجناب الأسمى، والملاذ الأحمي، أبي العباس أحمد الخضر نجل الفقيه العدل أبي عبد الله محمد نجل الفقيه العدل أحمد بن عبد القادر دعي بزغبوش، حفيد الولي الصالح الزاهد الناسك قطب المشايخ الأعلام، وتاج الأولياء الصالحين الكرام، سيدي مغيث نفعنا الله ببركاته، وأفاض علينا وعلى بنيه من أسراره ونفحاته، اقتضى له ما يتوخي به الولاء الصريح، والصفاء الصحيح، من تكريم واضح الرسوم والإيثار، وتتميم لمواهب الاستصفاء الآمنة من الإبتار، اعتناء بقدره الذي سمت به رياسة أسلافه في أعلى المظاهر، ومتت بطرق العلم والعمل والمحبة

في جانب الخلافة المؤيدة بالود الباطن والظاهر، فاتخذ حفظه الله هذا الأمر الكريم راية يتناولها باليمين، لا يعتريها بحول الله ومنه الانفصام إلى يوم الدين، إنعاما عليه بالعناية والتوقير الذي لا ينسخ حكمه، ولا يبيد بحول الله وقوته على تعاقب الأيام رسمه، رعيا لما له من الخدمة والسبقية والنصيحة التي لاحت غررا في وجه الزمان البهيم، والأمور التي توسل بها أدام الله عليه نعمته في الحديث والقديم، ومن كثرة الاعتناء بشأنه والتنويه بمقدار حكمه.

وقع له أيده الله بعد صلاة الجمعة من تاريخه بمحضر العلماء الجلة وفقهاء الملة والأشراف والكتاب والحجاب وأعيان القواد، المتصرفين تصرف الحق في البلاد، أن لا حكم عليه لأحد مدة حياته، فبينه وبين مولانا الإمام فيما ذا عسي أن يكون من تصرفاته، ولا كلام له مع أحد من القواد ولا من العمال والولاة بوجه من الوجوه، اللهم إلا إذا كانت بينه وبين أحد من الناس دعوي شرعية فأحكام الشرع العزيز تجري على كل مسلم بمقتضاها، ولا سبيل لمؤمن موحد أن يتعداها أو يتخطاها، بهذا قضي وأمر صاحب الأمر المطاع وألزم أن يخط هذا في الدواوين والرقاع حكما التزمه أيده الله بروراً بخديمه المذكور، فلا سبيل لمن يتعقبه على مر الليالي والدهور، والواقف يعمل به والسلام وكتب في العشر من رمضان عام ثلاثة ومائة وألف.

ومن عظيم منزلة المترجم لدى السلطان المذكور، وكمال رفعه على ألوية البرور، أن كتب له كتابا بخط يمناه أعرب لـه فيه، عما له من شرف المكانة لديه، مما هو فوق مناه حسبما وقفت على ذلك فتدبر تدبر الخبير، وأنقد نقد الذكي البصير، لما لهذا الإمام العظيم الشان من إنزال الناس منازلهم وإعطاء كل مستحق ما استحق مما هو الأولى به والأحق.

وعلى نهجه وطريقه في اعتبار المترجم والتنويه بقدره، وإشادة منار فخره، نهج ولده وخليفته سيدنا الجد مولانا زيدان فقد وقفت على كتاب حافل له أصدره بتقرير ظهير والده والأمر بالوقوف عند حدّ أوامره المطاعة بالله بتاريخ عشري قعدة

الحرام، عام أربعة ومائة وألف، تركت نصه اختصارا ووقفت على تحليته في بعض العقود الحبسية بأوصاف عالية غالية.

٣٦- أبو العباس أحمد بن محمد بصري.

حاله: فاضل محلي بالأحظي الأجل، الأنوه الفقيه النبيه الأمثل، كان بقيد الحياة في العصر الإسماعيلي حسبما يظهر من ظهير إسماعيلي منوه فيه بقدر بيتهم الفخيم بتاريخ ربيع النبوي عام اثني عشر ومائة وألف، محلي فيه المترجم بالأوصاف المذكورة وسيأتي نص الظهير في ترجمة محمد بن عبد الرحمن بصري خاتمة الحفاظ والقراء من حرف الميم بحول الله.

٣٧ - القاضي أبو العباس أحمد بن ناجي السجلماسي الأصل المكناسي الوفاة والإقبار.

حاله: فقيه علامة محقق مشاور، معظم للعلم وذويه، ذو جاه ووجاهة، وعلو مكانة، ونفوذ كلمة عند سائر الطبقات، ولي قضاء فاس وعزل عنه وكان يتعاقبه مع القاضي أبي عبد الله بردلة، وقد كان أواخر القرن الحادي عشر تولي قضاء الرباط، وسلا، ثم قضاء فاس، ثم قضاء مكناسة. وقفت على عدة رسوم بخطاباته والتسجيل عليه محلي فيها بأوصاف عاليه.

ووقع في أيام قضائه أن اليهود جاءوا إليه بنسخة رسم وأدلوا بها لديه، ينتهزون الفرصة فيه بخطابه عليه. ويتعززون بما وصلوا منه إليه، وحين صدروا عنه ثار في أثرهم بالطلب، فأخذوا واستخرج منهم الرسم المجتلب، وانتهى الخبر لمولانا إسماعيل فنالت عقوبته جميع من بإيالته من اليهود. وأغرمهم عليه أموالا بوظيف غير معهود، ونص ما في تلك النسخة بعد البسملة والصلاة:

«هذا ما عهد به مولانا محمد رسول الله ﷺ لموسى بن حيي بن أخطب وأهل بيت صفية زوج النبي ﷺ، لهم أمن الله عز وجل وأمن رسوله لشاهدهم

---

٣٧ - من مصادر ترجمته: نشر المثاني ١٩٤٣ في موسوعة أعلام المغرب.

وغائبهم وذامهم لا يحصرون ولا يغزون، ولا يطأ أرضهم جيش، ليس عليهم نزل ولا ربط ولا كسح، وعلى من أحب رسول الله أن يؤمنهم لذمة الله وذمة رسوله، ولهم ربط العمائم وأمر على اليهود، ثم لهم بعد هذا ما افترض رسول الله ﷺ أربعة دراهم في الشهر إن كان عليهم مقدرة فمن خالف كتابنا هذا الذي كتبناه لهم، وعهدنا الذي عاهدناهم، فذمتي منه برية وأنا بريء منهم، وأنا خصيمهم يوم القيامة فمن خاصمني خاصمته، ومن خاصمته كان في النار وكتب علي بن أبي طالب ورسول الله ﷺ «في جلد أحمر طوله ثلاثون إصبعا وعرضه عشرون وعدد أسطره عشرون.

ومما فيه «شهد الله على ذلك وعتيق ابن أبي قحافة وعبد الرحمن بن عوف والأقرع بن حابس، وكتب معاوية بن أبي سفيان شهادتهم في ذي قعدة سنة تسع من الهجرة والسلام على من اتبع الهدى»

وبعده مقابلات بأصولها على اختلاف الأزمنة المارة بشهادة من باشر ذلك وخطابات من أئمة أعلام باستقلالات إلى سنة اثنتين وأربعين وألف.

وقد أبطل أعيان علماء الوقت هذا الرسم منهم الإمام سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي قائلا إنه مخالف لأسلوب السلف وفصاحتهم، ولنهج ذوي التوثيق من المتأخرين وصناعتهم، ومصادم للإجماع، ولما عليه العمل في سائر الأزمنة والبقاع، فإنه ﷺ أوصى بإخراج اليهود من جزيرة العرب من غير استثناء فأجلاهم الفاروق من غير تخصيص، وضربت الجزية عليهم زمن الخلفاء الراشدين كذلك، ولا يجوز اتفاقهم على تضييع حق ولا تهاونهم بتنفيذ عهد عهده رسول الله ﷺ، خصوصا وقد أشهد عليهم الخليفتين أبا بكر وعليا ومن معهما ولاتفاق أئمة الأعصار، وعلماء الأمصار، بعدهم على عهد ذلك وعدم نقله حتى ينقله إلينا بعد ما نيف على ألف ومائة سنة اليهود، إخوان القرود، وأيضا أحكام أهل الذمة معروفة ملحوظة، والشروط التي عليهم محفوظة منها أن لا يتشبهوا بلباس المسلمين في العمائم ونحوها، وأن يشدوا الزنانير كما ذلك مبسوط في شروط الفاروق رضى الله عنه على نصارى الشام حين صالحهم.

روى ذلك ابن حبان وغيره، وعليها اعتمد سائر أئمة المذاهب الإسلامية في أحكام أهل الذمة وأجمعوا على ذلك، نقله ابن حزم الذي إجماعاته أصح الإجماعات، وكذا نقل الماوردي الإجماع على أن يهود خيبر كغيرهم في الجزية وأيضا تاريخ ذلك الرسم بتسع من الهجرة مخالف للمعروف من أن التاريخ بها إنما حدث في خلافة الفاروق وسائر كتبه ﷺ المنقولة في السير فإنها خالية عن التاريخ إلى غير هذا من دلائل الكذب التي احتفت بالرسم المذكور ويطول تتبعها ملخصا. اهـ. وقد عضد هذا الجواب وصححه سيدي محمد القسمطيني وغيره من أهل تلك الطبقة، انظر فهرسة أبي القاسم العميري ونوازل الشريف العلمي.

الآخذون عنه: منهم أبو العباس أحمد الحافي السلوي.

وفاته: مات بمكناسة الزيتون عام اثنين وعشرين ومائة وألف ودفن بضريح السيدة عائشة العدوية المتبرك بها حية وميتة

٣٨ - أبو العباس أحمد بن محمد العربي بن محمد الكَومى عرف بالغماري.

أورد ذكره أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي في مؤلفه الموسوم بالإعلام بمن مضى وغبر في القرن الحادي عشر من الأعلام.

حاله: حلاه أبو محمد عبد الله في كتابه المذكور بالفقيه الأصولي وقال: كان فقيها مدرسا ولي قضاء مكناسة فحمدت سيرته.

مشيخته: أخذ عن أبي عبد الله الهواري، وأبي عبد الله بن عبد الحليم وغيرهما

الآخذون عنه: منهم أبو عبد الله محمد المهدي الفاسي حسبما أفصح بذلك صاحب الإعلام المنقول عنه قائلا: قال خال الوالد الشيخ أبو عبد الله محمد المهدي الفاسي: قرأت على صاحب الترجمة الرسالة ومختصر خليل، فكان ينقل

---

٣٨ - من مصادر ترجمته: الإعلام بمن غبر ٤/ ١٤٥٥ في موسوعة أعلان المغرب.

على الرسالة شرح ابن عمر، وابن ناجي، وعلى المختصر شرح بهرام الأوسط، وشفاء العليل لابن غازي كل ذلك باللفظ هـ.

وفاته: توفي سنة ثلاث وستين وألف كما قاله في الإعلام

٣٩ - أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن يعقوب الوَلاّلي - بفتح الواو وتشديد اللام دفين مكناس.

حاله ونسبه: فقيه نبيه، علامة وجيه نزيه، قدوة مشارك، دراكة فهامة ناسك، أحد الأعلام علما وعملا ومتانة دين، واتباعا لسنة سيد المرسلين، كان يدرس بقصبة الحضرة السلطانية الإسماعيلية من مكناسة الزيتون، وكان يجيد التعبير عن كل ما يريد متبحرا في العلوم عقليها ونقليها محققا لها.

نسب نفسه في كتابه «مباحث الأنوار» فقال «قبيلة بني وَلاَّل هم قومنا الذين نشأ أجدادنا منهم، وأسلهم من بني عطَّاء، قبيلة كبيرة معروفة بأقصى جبال ملوية، وفيهم إخوة قبيلتنا يسمون لديهم ببني ولاّل أيضا، وبنو عطّاء مشددا بوزن فَعّال - أصلهم من العرب كما تقرر ذلك في كتاب أنساب القبائل الموجودة بأيدي الفقراء أهل الصومعة، بل أخبرني بعضهم أن بني عَطّاء أصلهم من أخص العرب وهم قريش، وكل ذلك لا بعد فيه لتبدل أحوال القبائل العربية وتنقلها من أرض إلى أرض، ومن رفع إلى خفض، فتتبدل الألسن بتبدل البلد» انتهى بنصه[1].

مشيخته: تفقه بالزاوية البكرية واتصل بالولي العارف سيدي محمد بن عبد الله السوسي وانتفع به، وصحب العارفين سيدي أحمد اليماني وسيدي أحمد بن عبد الله معن وتردد إليهما، وأخذ عن الإمام اليوسي الحسن بن مسعود المنطق ومنظومة الأخضري في البيان

٣٩ - من مصادر ترجمة: نشر المثاني ١٩٥٦/٥ في موسوعة أعلام المغرب.

(١) نشر المثاني - ص١٩٥٦.

الآخذون عنه: منهم أبو القاسم بن سعيد العميري، والعلامة الطبيب السيد عبد القادر بن العربي بن شقرون المكناسي، وناهيك بهما أخذ الأول عنه منظومته في علم الكلام وغيرها.

مؤلفاته: منها شرحه العجيب على مختصر المنطق للشيخ السنوسي، ومنها شرحه المعروف على منظومة الأخضري المعروفة بالسلم، وشرحه على جمل الخونجي، وشرح رسالة السيد الجرجاني، وشرح تلخيص المفتاح صدره بشرح خطبة مختصر السعد، وشرح علي لامية الأفعال، وحاشية على المحلي، وشرح على روضة الأزهار للجادري في التوقيت، ومباحث الأنوار في سلسلة الأخيار.

وفاته: توفي ثاني رجب عام ثمانية وعشرين ومائة وألف ودفن بمكناسة الزيتون رحمه الله وفسح له في عدنه.

٤٠ - أبو العباس أحمد بن أبي يَعْزَى الأودي قاضيها.

حاله: فقيه جليل كان متوليا خطة القضاء بهذه الحضرة المولوية الإمامية بتاريخ ثامن شعبان عام تسعة وثلاثين ومائة وألف، وقفت على ظهير شريف، مولوي منيف، يتضمن الأمر لناظر الوقت الحاج الطيب المسطاسي بتنفيذ إعانة له على القضاء من أحباس المسجد الأعظم قدرها ثلاثون أوقية بالتاريخ المذكور.

٤١ - أبو العباس أحمد الصيقال المكناسي

حاله: قال في حقه عصريه أبو العباس أحمد المنجور لدى تعرضه لذكره في ترجمة شيخه ابن هارون من فهرسته: الشيخ المسند أحد عدول مكناسة.

٤٢ - أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد الشدادي الشريف الحسني الإدريسي العمراني.

حاله: كان مفتي الأنام، وأعدل قضاة الزمان، ووحيد عصره وأوانه

وأفضلهم وأزكاهم، وأجلهم وأسماهم، علاّمة متبحراً في الفقه والنحو والحديث والتفسير صدر المحافل، في جمع الفضائل، مرجوعا له في النوازل، محتجا بما يقوله إذا خفيت الدلائل، له نظر في الفقه لا يجارى، ولإدراكه في حقائق مشكلاته الشأو الذي لا يدرك فلا يبارى، مجالسه العلمية نزهة الأفكار، لا يقع من أهل النجابة إلا عليها الاختيار، تصدى للتدريس بفاس وغيرها من حواضر المغرب وبواديه، وأسدى من وافر تحقيقه على الطالبين ففازوا بسابغ أياديه، تولى أولا الفتوى بمكناسة وأقام فيها مدة، ثم نقل منها إلى قضاء الجماعة بفاس الإدريسية وفاس المرينية مع الإمامة والخطابة بالقرويين، ثم أخر عن قضاء فاس خاصة، ثم عن قضاء فاس الجديد لغير ريبة، ثم بعد مدة ولي القضاء والإمامة والخطابة بزاوية زرهون إلى أن توفي.

مشيخته: أخذ عن سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي، وأبي علي اليوسي، وأبي عبد الله المسناوي، وأبي العباس ابن الحاج، وأبي عبد الله محمد العربي بردلة، وأبي عبد الله القسمطيني وغيرهم.

الآخذون عنه: جماعة منهم القاضي أبو القاسم العميري لازمه مدة إقامته بمكناسة الزيتون، ومنهم الشيخ أبو عبد الله محمد التاودي بن سودة المري قرأ عليه المختصر من البيوع إلى الوديعة والعارية، وسمع عليه بعض التفسير من أوله إلى سورة النساء، وغيرهما من فحول أئمة العلم.

مؤلفاته: له فتاوى لم تجمع ولو جمعت لأفادت ولاة الأحكام، وغاظت متعصبة الحكام، وشرح على لامية الزقاق، وتقييد على ابن عاصم، وتقييد على ـ العمل الفاسي ـ قال في نشر المثاني: فمن تلك الأبحاث استفاد أهل عصرنا وشرحوا الأنظام التي ذكرنا فهو بسبق حائز تفضيلا.

قلت: المعروف له والموجود بأيدي الناس هو حاشية شرح ميارة على الزقاق ولا يعرف له شرح مستقل لها أعني الزقاقية.

وفاته: توفي على ما في «فهرسة القاضي العميري» و«الروضة المقصودة في الزاوية الزرهونية الإدريسية». قال في الروضة خامس عشر جمادى الثانية سنة ست وأربعين ومائة وألف. والذي في نشر المثاني أنه توفي بفاس ودفن خارج باب المحروق بين المدينتين، وبني أهله عليه قبة وبلغنا أن له عقبا بطنجة. انتهى.

قال شيخنا الكتاني في «سلوة الأنفاس» ويشكل عليه ما تقدم من أنه توفي بالزاوية الزرهونية إلا أن يقال بنقله بعد الموت منها إلى هذه الحضرة ودفنه بها، ويكون قوله في النشر: توفي بفاس غلطا نشأ له من عدم التحقيق لوفاته، بدليل أنه لم يعينها بسنة والله سبحانه وتعالى أعلم. اهـ.

قلت. ولا يعرف له قبر بالزاوية المذكورة وذلك مما يؤكد كونه مدفونا بفاس.

٤٣- الفقيه سيدي أحمد بن عزو.

٤٤- الفقيه سيدي أحمد الحزميري.

٤٥- الفقيه سيدي أحمد بن سعيد السوسي.

٤٦- الفقيه السيد أحمد بن مومو.

٤٧- الفقيه السيد أحمد بن مسطار.

كل هؤلاء الشيوخ الأعلام الخمسة كانوا بقيد الحياة في حدود الخمسين ومائة وألف بحاضرتنا المكناسية حسبما وقفت على ذلك في زمام مرتب العلماء الشهري وأسماؤهم مسطرة فيه بالتاريخ المذكور، ولم أقف لواحد منهم على ترجمة بعد البحث الشديد.

٤٨- السيد أحمد بن عبد الرحمن زغبوش الفقيه النبيه العدل الرضي الثقة.

٤٩- أبو العباس أحمد بن العباس النسب السيد الأتقى، الزكي الأنقى.

٥٠- أبو العباس أحمد بن عبد القادر النسب الفقيه المعظم. المرتضى المحترم. التقي الأصعد، الزكي الأسعد.

٥١- أبو العباس أحمد بن الولي الصالح سيدي مغيث زغبوش القرشي الفقيه المرتضى الزكي الأحظى.

أما أحمد بن عبد الرحمن زغبوش أول الأربعة فهو من أهل النصف الثاني من القرن الثاني عشر.

وأما الثلاثة بعده ففيما بين ذلك وبين الألف فيما يظهر من ذكرهم في عمود نسب بصداق مؤرخ بأواخر رجب عام تسعة وثمانين ومائة وألف وتحليتهم فيه بما ذكر.

٥٢- أبو العباس أحمد بن سعيد العميري.

حاله: من أعيان علماء الدولة الإسماعيلية، وحاملي لواء التدريس وبث العلم في صدور الرجال بها، وهو أحد الأعلام الذين شهدوا في عقد توثيق عرى الإخاء الصادر بين الأخوين الأكملين مولانا أحمد المدعو الذهبي وسيدنا الجد مولانا زيدان ابني الأمير الذي طار صيته في بقاع المعمور سيدنا الجد الأكبر، مولانا إسماعيل بندب والدهما لهما لذلك، وهذا العقد بعينه تحت يدي تاريخه منتصف رمضان عام سبعة وثلاثين ومائة وألف شهد فيه على إشهاد سيدنا الجد الأكبر بذلك وهو على كرسي مملكته بمكناس جمع وافر من العدول والفقهاء والقضاة منهم المترجم.

مشيخته: منهم والده، وأبو علي بن رحال، ومن في طبقتهما من المعاصرين لهما.

الآخذون عنه: أخـذ عنه العلامة أبـو عبد الله مـحمد بن مـحمد بن عـبد الرحمن بصري المكناسي المتوفي يوم السبت خامس شعـبان عام ستة وثمانين ومائة وألف كما بثبت ولده «إتحاف أهل الهداية».

وفاته: لم أقف على تاريخ وفـاته بيد أنه كان بقيد الحـياة سنة سبع وثلاثين ومائة وألف.

٥٣- أحمـد بن عبـد الرحمن المجـاصي الشهـير بالمكناسـي الشيخ الأسـتاذ المقرئ الصالح.

حاله: كان أستاذاً صالحا مقرئا فقهيا أديبا نحويا.

الآخذون عنه: أخذ عنه ابن عباد القرآن العظيم بحرف نافع، وتفقه عليه في كثيـر من الجمل لأبي القاسم الزجاج وفي كـتاب التسهيل لابن مـالك وغير ذلك ذكـره مسند فـاس أبو زكريا يحـيى بن أحـمد السـراج في ترجمـة ابن عبـاد من «فهرسته» ولم يذكر له وفاتا.

٥٤- أبو العباس أحمد بن عبد الملك[1] البوعصامي.

حاله: مجذوب غـائب غيبة اتصال من صغـره ساكت لا يتكلم مع أحد إلا ما قل، وكان بعـد موت أبيه تارة يكون بمكناسة التي هي مـقر والده وتارة يذهب لفاس ثم في آخر عمره بـنحو العامين استقر بفاس بحومة السـياج منها حتى توفي هنالك.

وفاته: توفي ليـلة الخميس حـادي وعشري ربيع الأول عـام تسعـة ومائتين والف.

---

٥٤ - من مصادر ترجمة: إتحاف المطالع - ص٢٤٥٣ من موسوعة أعلام المغرب.

(١) تحذف في المطبوع إلى: «عبد المالك» وصوابه من إتحاف المطالع.

٥٥- الشريف أبو العباس أحمد بن علي بن الحسن بن محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن علي بن طاهر بن مولانا الحسن الحسني العلوي.

حاله: له معرفة بالعلوم وبالأخص الفقه والنحو نشأ بالصحراء ببلد أسلافه الكرام، ورحل لحج بيت الله الحرام، وزيارة جده عليه من ربه أزكى الصلاة والسلام، ثم ارتحل لمكناسة الزيتون واستوطنها وصاهره السلطان ببنت السلطان مولانا سليمان تعرض لذكره صاحب «الشجرة الزكية» وقال إنه حي بمكناسة في عصر تأليفه المذكور وهو من علماء الدولة العبد الرحمانية.

٥٦- أبو العباس أحمد بن أحمد الحَكْمِي الأصل الرباطي النشأة والدار المكناسي الوظيفة.

حاله: حامل لواء التحقيق في زمانه، جهينة المعقول والمنقول، المرجوع إليه في الأدب والفروع والأصول، حلو النسيب بديع الترسيل إذا نظم سحر الألباب، وإذا نشر استولى على الأرواح بخالص اللباب، بديع الإنشاء سيال القريحة بارع في الإملاء، مع شجاعة وإقدام. وتقدم في الرماية والسباحة والمسابقة، يشهد له بذلك الخاص والعام، كثير العبادة والتلاوة والتهجد بالأسحار، معمر أوقاته بالدروس العلمية مع كثرة الأذكار، والصلاة على النبي المختار، واثق بربه محسن ظنه فيه لا يهتم لنائبة ولا يضجر لها، يتلقى ما تبرزه الأقدار بقلب سليم.

رحل لفاس، وأخذ عن جلة أئمتها الأكياس، ثم رجع لبلده فأكب على التدريس، وأفادة الناس بإبراز كل نفيس، ثم أسند له قضاء العدوتين: سلا، والرباط، وذلك عام أربعة عشر ومائتين وألف ومكث في ولايته هذه نحو الخمس سنين، ثم أعفي عشية يوم السبت الثالث والعشرين من جمادى الثانية عام تسعة

٥٦ - من مصادر ترجمته: إتحاف المطالع - ص ٢٤٨٥ في موسوعة أعلام المغرب.

عشر ومائتين وألف وولي مكانه العلامة سيدي الطيب بسير - آتي الترجمة في حرف الطاء - بحول الله ثم خوطب بالقضاء مرة ثانية فامتنع من القبول فألزمه الكبراء أن يقبل فامتنع واعتذر عن ذلك بأنه كان يفاوض في القضاء الأول الفقيهين: الغربي والمير، وقد ماتا معا رحمهما الله كذا في «تعطير البساط».

ووقفت في بعض مقيدات مؤرخ سلا السيد محمد بن علي الدكالي الأصل السلاوي النشأة والدار نقلا عن أحد نبغاء تلاميذه السيد محمد بن التهامي بن عَمْرو الرباطي، أن المترجم ولي قضاء مكناس ولفظه لدى تعرضه لترجمة القاضي بسير: وقال معاصره الأديب ابن عَمْرو الرباطي إنه أخذ عن قاضي العدوتين ومكناسة الفقيه المشارك السيد أحمد الحكْمِي الرباطي رحمه الله وانتفع به نفعا بيناه. انتهى. من خطه وانظر إن صح ذلك هل كان قبل ولايته بالعدوتين أو بعدها أجرى ذكره العلامة أبو إسحاق التادلي في تاليفه «أغاني السقا في علم الموسيقى» وأفاد أنه كانت له مشاركة حتى في علم الأغاني والألحان ونوبات الموسيقى وذكر له فوائد علمية، في خلال. مؤلفاته الأدبية وذكره الزياني في فهرسة أبي الربيع السلطان مولانا سليمان وغيرها.

مشيخته: أخذ عن الشيخ بناني مُحَشِّي الزرقاني وأجازه عامة، وعن الشيخ محمد الشيظمي ومن في طبقتهما.

الآخذون عنه: منهم نجله السيد صالح والسيد الطيب بسير، والسيد محمد ابن عَمْرو، والسيد محمد بن عبد الرحمن الشرشالي، والقاضي ابن جلون وغيرهم من عيون أعيان العلماء.

شعره: من ذلك قوله يمدح العلامة أبا حفص سيدي عمر بن محمد المكي بن الشيخ المعطي الشرقي:

للبين ما بين أفلاذ الحشا أثر   وللمشوق إلى نحو الحمي نظر

وآية الصدق في دعوى المحبة أن يرى المشوق وفي عبراته عبر
ومن يكن يرتجي يوما يسر به فوصلكم منتهي الآمال يا عمر

ومن ذلك ما رآه صديقنا ابن علي السلاوي منسوبا إلى المترجم يمدح النبي ﷺ به:

دعتني فتاة الحي بادية نحرا هلم إلى نحو السعادة في الأخرى
فلبيتها والدمع يهمي وأضلعي يفتتها بعد المزار بمن أحرى
فقالت وقد ماطت عن الوجه برقعا على حسننا إن شئت[1]...
ألا تقدم يا أخا العشق إنني أنا كعبة العشاق مرضية الذكرى
فإن شئت أن تهوى جمالي فلا تعد بعيدي إلى ليلى ولا تذكر الزهرا
وكن خاليا عما سواي وعندما توفي بشرط الحسن أمنحك البشرى

ومنها في التخلص لمدح رسول الله ﷺ.

فقالت وقد حان الرضا وتبسمت عليك بمن أسرى إلى مانح الاسرى

ومن ذلك قوله في المنام حسبما رأيت ذلك بخط بلديه تلميذه العلامة السيد محمد بن التهامي ابن عمرو في كناشة له منها نقلت:

شم بارقا سحرا بالجو قد لاحا واشرب عليه من الأفراح أقداحا

وقد أمر تلميذه المذكور بالزيادة عليه فخمسه بقوله:

نفديك أهلا وأموالا وأرواحا يا من بسر علوم الشرع قد باحا
بشراك قدرن طير السعد إفصاحا

(١) كذا في المطبوع.

«شم بارقا سحراً بالجو قد لاحا واشرب عليه من الأفراح أقداحا»

وعش بريا من الأكدار في سعة لدى رياض عن الأسوا ممنعة

ترى الأعادى بأشلاء ممزعة

«واهنأ بأمن مع الإقبال في دعة وارقب لما أثلث الأيام إصلاحا»

وقوله مخاطبا العلامة الأديب سيدي سليمان بن محمد الحوات وطالبا منه قراءة الخزرجية معه كما وجد ذلك بخط المطلوب منه ومن خطه نقلت:

كم ذا نعاني وفرط الشوق أفنانا وطالما بت أرعى النجم يقظانا

أكفكف الدمع حينا ثم أرسله جمرا على الخد يصلي القلب أحيانا

ذا لوعة برماح الحب طاعنة أسى ولم أر مثل الحب مطعانا

وفكرة بسهام الحب راشقة وحيرة وزفير ليس ينسانا

ولي إذا ما أناجي الربع عن شحط أنين صب يواري الحب كتمانا

تلك الديار وما شوقي لساحتها إلا لألقي مني قلبي سليمانا

بدر المعالي رياض الأنس لا برحت أخلاقه تشتهي حسنا وإحسانا

بحر طما فصفا للفكر مشربه وعاد بالعلم فياضا وملآنا

يزري بنظم اللآلي نظمه وكذا نثاره لم يزل بالحسن فتانا

ليهن مولاي ما أولاه خالقه من الفتوحات ما لم يعط إنسانا

طابت بمدحك يا ابن المجد أنفسنا وإن نواف قبولا منك أغنانا

ومنتهى السول أن تسمح لناظمها ببث علم غدا للشعر ميزانا

أزكى السلام على علياك ما سجعت ورق تردد فوق الغصن ألحانا

وما ترنم حادي العيس ينشدها كم ذا نعاني وفرط الشوق أفنانا

وفاته: توفي بعد طلوع الفجر من يوم الثلاثاء تاسع عشر رمضان عام ستة وعشرين ومائتين وألف ورثاه ولده القاضي صالح بقصيدة ،طولة لكنها دون الأولى، كما رثاه تلميذه ابن عمرو، ومطلع الأولى:

عز المصاب وسله وانهض إلى ما أحتاج للتأنيس والإكرام

ومطلع الثانية لابن عمرو:

كفى الرزء خطبا أن يحل عرى الصبر ويرخص من دمع الوري غالي التبر

٥٧ - أبو العباس أحمد العمراني الفقيه الشريف.

حاله: فقيه جليل وجيه تولى الخطابة بالمسجد الجامع الإدريسي بعد وفاة خطيبه سيدي الفاطمي بن عبد القادر، وتولى نيابة القضاء بالزاوية الإدريسية.

٥٨ - أبو العباس أحمد المكناسي.

الشيخ الصالح الشهير شيخ الغماري الذي أخذ عنه والد صاحب «أنس الفقير وعز الحقير» رواية نافع في القراءة وحدثه برجز ابن بري عن مؤلفه ووالد صاحب الأنس المذكور هو القاضي أبو العباس أحمد بن الخطيب القسمطيني.

٥٩ - مولاي أحمد بن عبد المالك العلوي.

قاضي الجماعة بالحضرتين فاس ومكناس.

حاله: له مشاركة في الفقه والتصريف واللغة والتاريخ والأدب والتوثيق والمعرفة الكاملة بصناعة الأحكام، حلاه ابن عبد السلام الناصري: بسيدنا الشريف الأجل، العلامة الأفضل، نور النبراس، سيدنا ومولانا أبي العباس، وقال في حقه تلميذه العلامة الثبت صاحب الإشراف على بعض من بفاس من مشاهير

---

٥٩ - من مصادر ترجمته: إتحاف المطالع ٧/ ٢٥٢٣ في موسوعة أعلام المغرب.

الأشــراف، ما لفظــه: قاضــي الجماعة بالحضــرتين الإدريســيــة والمولوية شيخنا أبو العباس مولانا أحمد بن عبد المالك، له مشاركة في الفقه والتصريف واللغة مع المعرفة التامة بصناعة القضاء والوثائق واستــحضار نصوص المختصر وقضايا التاريخ والأدب. انتهى.

وكان متوليا خطة العدالة بهذه الحضرة المكناسية، ثم ولاه السلطان أبو الربيع مولانا سليمان عام أربعة وثلاثين ومائتين وألف ورشحه لخطبة جامع قصبته المولوية أوائل محرم فاتح سـبعة - بموحدة - وثلاثين ومائتين وألف، حسـبما وقفت على تاريخ التــوليــتين بخط يده ومنه نقلت، وقــد كــان قبل ذلك من عــدول مكناســة المبرزين، مـتصــدرا للشهــادة وقفت على عدة رســوم بخطه وشهــادته وكثـير من خطاباته والتسجيل عليه.

وكانت توليته لقضاء فاس البالي وتأخيره عن قضاء مكناس فاتح شعبان عام سبعة وثلاثين ومائتين وألف حسبــما ذلك بظهير السلطان أبي الربيع مولانا سليمان الصادر لولده خليفته مولاي الحسن، ودونك لفظه بعد الحمدلة والصلاة.

«ولدنا مولاي الحسن السلام عليكم ورحــمة الله وبركاته، وبعد: فنأمرك أن توجه لحضرتنا العــالية بالله قاضي مكناسة ولد عمنا مولاي أحــمد بن عبد المالك بمجرد وصول كــتابنا هذا إليك فورا فورا ليلا أو نَهارا مع جــروان أو مجاط، ومن أتى معه من البربر فقد سامحناه وأمناه وأهل مكناسة يجتمعون ويتفقون على رجل يرضونه لأنفــسهم منهم أو من غيرهم، ويولونه عليــهم، وأما مولاي أحمــد فقد وليناه أمــر القضــاء بفاس البــالي، وفي ثالث شعــبان عــام سبع وثلاثين ومــائتين وألف».

ولم يزل على خطتــه بفاس إلى أن بويع المولى عــبد الرحمن بــن هشام ثم رجع لمكناس ناجيا بنفسه من أذى غوغــاء أهل فاس كذا في بعض التقاييد الموثوق بصحتها.

مشيخته: أخذ عن عمه المولى عبد القادر بن محمد بن عبد المالك «شارح الهمزية» و«العاصمية» وأجاز له ابن عبد السلام الناصري في الطريقة الناصرية في رابع رمضان عام تسعة ومائتين وألف، وأخذ عن سيدي أحمد بن عبد العزيز الهلالي، وعن غيرهم من شيوخ فاس.

الآخذون عنه: منهم المؤرخ النسابة القاضي أبو عبد الله محمد الطالب بن حمدون بن الحاج السلمي الفاسي صاحب «حواشي المرشد المعين» وغيرها من التآليف المتوفى بعد عصر يوم الجمعة سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف بفاس، وشيخ الجماعة بمكناس الحاج مبارك بن عبد الله الفيضي.

مؤلفاته: له «تأليف في تحريم السكر» ويقال: إنه كان لا يقبل شهادة من يشربه لأن ما جهل حكمه يجب التوقف عنه حتى يعلم حكم الله فيه وقد حكي الغزالي في «الإحياء» والشافعي في «رسالته» الإجماع على أن المكلف لا يجوز له أن يقدم على فعل حتى يعلم حكم الله تعالى فيه هذا ملحظ المترجم، وإن كان التعويل على خلافه، وله أيضا «مجموعة خطب» و«تقييد على الخطبة» التي أملاها السلطان العادل مولانا سليمان لما كان بهذه الحضرة المكناسية عام خمسة وثلاثين ومائتين وألف لما طلب منه أولاد الشيخ الكامل محمد بن عيسى دفين خارج باب السيبة من مكناس إقامة الموسم على المألوف عندهم حسبما وقفت على هذا التعليق مع مجموعة الخطب بخط يده في مبيضته وسنورد الإملاء المقيد عليه بحول الله في محله.

نثره: من ذلك قوله في بعض خطبه التي أنشأها «الحمد لله الجزيل الفضل، العظيم البذل، الحكم العدل، الذي لا يسأل عما يفعل، ومن سواه عن أفعاله يسأل، نحمده تعالى على ما أولانا من النعم، ونشكره جل وعز على ما زوى عنا من النقم، ونستعينه ونستغفره من جميع الذنوب، التي أورثتنا الأحزان والكروب،

ونشهـد أن لا إله إلا الله وحده لا شـريك له، ونشهـد أن سيـدنا محـمدا عـبده بالهدي ودين الحق أرسله، صلى الله عليه وعلى جميع الصحابة والآل، ومن لهم بإحسـان تال، صلاة تقينا جمـيع البلايا، وتكفر عنا جـميع الخطايا، من يطع الله ورسوله فقد سـعدو فاز، ومن يعص الله ورسوله فما له في عرصـات القيامة من مفاز. . . إلخ».

ومن خطبة أخرى قال: «الحمد لله المجيب من دعاه، ومن توكل عليه كفاه، ومن احتمى به حمـاه، ومن التجأ إليه آواه، نحمده حمـدا من غير عدو لا تناه، ونشكره على ما أنعم به وأولاه، ونستعينه ونستـغفره من كل ما جنيناه، ونشهد أن لا إله إلا الله، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ومصطفاه، صلى الله عليه وعلى آله وصحابتـه ذوي الثناء والجاه، وعلى كل منيب أواه، صلاة تملأ أرجـاء العرش وما حواه، وتحول بها بيننا وبين الشر ومن نواه، من يطع اللـه ورسواه فياسعداه، ومن يعص الله ورسوله فيا ويلاه، نسأله تعلى أن يجعلنا ممن لطاعته اجتباه. . .إلخ».

ومن صدر خطبة أخرى «الحمد لله الملك المعبود، المقر بوحدانيته أهل الإيمان والجحود، نحمده تعلى ونثني عليه بما أثنى عليه أحب خلقه إليه، اللهم لا أحصي ثناء عليك أنت كمـا أثنيت على نفسك ونشكره شكرا نستـوجب من فضله المزيد، ونستعينه ونسـتغفره من كل ذنب به الكاتب علينا شهـيد، ونشهد أن ل إله إلا الله وحده لا شريك له الفعال لما يريد، ونشهد أن سيدنا مـحمداً عبده ورسوله الحميد المجيد. صلى الله عليه وعلى من تبعه فيما أوحي إليه صلاة نستوجب بها من الله تعالى رضاه، ويلطف بنا بها فيما قدره وقضاه، من يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما، ومن يعص الله ورسوله فقد ساق إلى نفسه عذابا أليما». . .إلخ.

وفاته: مات بمـكناس لعشر ليال خلت من رجب سنة ألف ومـائتين وإحدى وأربعين ودفن بروضة سيدي عبد الله القصري الولي الشهير.

ثم أرادت زوجته أن تدفن بنتها معه فوقع بينها وبين أرباب الروضة شيء فأخذته ودفنته في دارها ودفنت البنت في محله، ثم بلغ الخبر لأمير الوقت جدنا من قبل الأم المولى عبد الرحمن بن هشام فقال: القبر حبس على صاحبه وأمر برده لمحله المذكور وإخراج البنت منه، أخبر من حضر من أهل الروضة أن البنت لما أخرجت من القبر كان الناس يسدون أنوفهم من شدة النتن، وأما هو فلم يوجد له شيء من ذلك لا أولا ولا ثانيا، وجسده لم يتغير ووضع يده على الكفن فوجده كالعنكبوت. وقبره في الروضة المذكورة معروف أخبرني بذلك شيخنا العرائشي.

٦٠ - أبو العباس أحمد بن الرضي بن عثمان المكناسي.

حاله: نابغة زمانه، علامة مشارك محدث نقاد فصيح بليغ، ذو ملكة واقتدار، ناظم ناثر، محاضر محبر نحرير، وجيه نزيه، استكتبه السلطان الأعظم سيدي محمد ابن عبد الله في بساط ملكه وقَدَّره قَدْرَه وأسبل عليه أردية الإجلال والإكبار.

ذكره أبو القاسم الزياني في خاتمة «يستانه» من جملة كتاب الحضرة السلطانية المحمدية ووصفه بالمشاركة، وحلاه النسابة الثبت المطلع سيدي سليمان الحوات: بالأديب البليغ الهمام فيما وقفت عليه بخط يده وذكر له أشعارا رائقة فائقة تدل على مهارة الرجل ومكانته في العلم والأدب والتفنن في أفانين البلاغة وحسن الصياغة.

وهو من جملة العلماء المحدثين الذين نقلهم السلطان المذكور لمراكش وفرقهم على مساجدها بقصد تدريس العلم بها، وبثه في صدور رجالها، والذين يحضرون مجالس دروسه الحديثية وغيرها كما في «الترجمانة الكبرى» وناهيك بمن رشحه ذلك السلطان الطائر الصيت في المشارق والمغارب المتضلع في سائر الفنون المقتدر الريان.

مشيخته: أخذ عن أبي حفص الفاسي المتوفي منسلخ رجب عام ثمان وثمانين ومائة وألف المدفون بزاويته بالمخفية من مدينة فاس، والشيخ أبي عبد الله محمد التاودي ابن سودة، وأبي عبد الله محمد بن الحسن بناني المتوفي سنة أربع وتسعين ومائة وألف وغيرهم، ممن هو في طبقتهم من أعلام عصره.

شعره: من ذلك قوله مخاطبا شيخه أبا عبد الله محمد بن الحسن بناني:

أبدرا لاح بين الشهب بدرا ... فنارت منه نيرة الشموس
وروضا فاح مندله سحيرا ... فأحيا نشره ميت النفوس
وبحرا خاض بحر العلم حتى ... انثني بالجوهر الصدفي النفيس
بمالك من طريق الفخر شنف ... مسامعنا بمختصر السنوسي
وألبس عاري الطلاب مما ... به حشيته أسنى لبوس
وبرد غلة الصادي بأحلى ... مذاقا من معتقة الكئوس
ولا تردد يد الأبيات صفرا ... وجد بمني ولو يوم الخميس
بقيت لفك مشكل كل فن ... ففتحك في المجالس والطروس
ولا تنفك بين الناس تاجا ... أبا عبد الإله على الرؤوس

وقوله:

وأشنب أبدى الحسن فيه بدائعا ... أزاهرها تجلى على غصن القد
ترى العود إن جسته منه أنامل ... كغيداء قد تاهت فرنت من الوجد
على أنه مهما ترنم منشدا ... أراك حلول الروح في الحجر الصلد
فديتك بدرا في سما الحسن كاملا ... به بين أرباب النهى وريت زندي

وقوله مخاطبا بعض بطارقة الملك وخاصته، وواسطة عقد جهابذ الوزراء من دولته، على لسان بعض من لا يصل لمحتاجه من الأمير، إلا بواسطة هذا الوزير، وقد بلغ به الاحتياج الغاية، والإملاق فوق النهاية:

عـمـــاد الملك مـا أعـلى منارك ... ومـا أجرى من الجـدوى بحـارك
بك القلم استـطال علي رمـاح ... فـلا لـسن يشق له غـــبـــارك
وصـرت من المكـارم في مـقـام ... تخـذت به ذرى الجـوزا وجـارك
فكم طـوقت من در الأمـــاني ... مـخـانق عاطل أضـحى جـوارك
وإني مـــزقت ثوبـي الليـــالي ... وأودت في نـوائبـــهـــا تدارك
فـلا زالـت تخـاطبك المعــالي ... هلم مـــعظمـــا يا بـن المبـــارك

وقوله يرثي شيخه أبا حفص الفاسي:

الدمع يروي عـن فـؤاد الأكـمـد ... بمسلسل وبمرسـل وبمسنـد
فاجـعل حديث الدمع عندك حـجة ... واطرح مـقـالة جـاهل لم يرشـد
وابك العلوم أصـولهـا وفـروعهـا ... وابك الدروس ولا تكن كـالجلمـد
وابك السماحة والصباحة والفصاحة ... والبــراعـة واليــراعـة تهـتـدي
وابك المجـادة والجـلالة والمكانة ... والمهـــابـة والنزاهـة تسـعـــد
وابك المآثـر والمفـــاخـر والعـــلا ... وابك المواهـب والمناقب تحـمـد
أو مـا فقـدت الدين والدنيـا معـا ... لما فـقـدت حـيـاة أفـضل سـيـد
عظم المصـاب بفقد مـن ساد الألى ... قـد أحْـرَزوا رُتَب العـلا والسـودد
بحـر المعارف والـعوارف والهـدى ... كـهف المريد السـالك المسـتـرشـد

نور العلوم وتاجها وبهاؤها وضياؤها قطب الشيوخ الرشد
العالم العلامة الفهامة النسابة الأسمى الولي المهتدي
عمر أخو التحقيق والتدقيق والتحرير سبط العارفين الزهد
من معشر فوق السماك منارهم شم الأنوف من الطراز الجيد
ورث التقى والعلم ليس كلالة بل سيداً عن سيد عن سيد
لله يوم فيه غابت شمسه يوم يشيب الطفل قبل الموعد
المسلمون جميعهم بنفوسهم وبمالهم يفدونه أن لو فدي
ما شاءه الرحمن كان وإن ما لم يقضه في خلقه لم يوجد
ياليت شعري من أرجي بعده أم من به أجلو ظما قلبي الصدي
أم من يزيح جهالتي وضلالتي وكآبتي عند اشتباه المقصد
أم من يفرج كربتي أم من يؤ نس وحشتي في غربتي وتفردي
أم من يزيل تولهي وتلهفي وتفجعي وتوجعي وتنهدي
بخل الزمان بمثله هيهات لا يسخو به طول المدى والمسند
أسفا لأيام مضت في سلوة ومسرة أوصافها لم تنفد
ولألفة ومودة ومواصلات عذبة في كل وقت مسعد
ومجالس قد أشرقت أنوارها وتلألأت فيها وفي كم مشهد
يا جملة الإخوان صبرا إنه من لم يذق ما ذاقه فكأن قد
والله يسقيه سحائب رحمة ويتيحه الفردوس دار الخلد
وينيلنا ذاك المقر تفضلا معه وينعم بالنعيم السرمدي

فالمرء مع محبوبه هذا الذي | يروي حديثا للنبي محمد
صلى عليه الله خير صلاته | والحمد للباقي العلي الأوحد

وقوله:

شعر نظامك أم رياض الآس | متهذب الأخلاق والأنفاس
فكأنما ألفاظه نشر الصبا | أم كالمدامة طرسه كالكاس
لولاك ما حط القريض لثامه | عن ثغره متبسما للناس
لازلت موفور المجادة والسنا | طودا على متن المكارم راس

وقوله مادحا مخدومه السلطان العظيم المقدار سيدي محمد بن عبد الله برد الله ضريحه:

غرام لا يحيط به بيان | وشوق ليس يشرحه لسان
وقلب لا يزايله اضطراب | عظيم كيف يمسكه العنان
لحي الله المتيم لا يبالي | بما يلقى وإن عظم الهوان
أطارحه الهوى آثار قوم | عليها الحصر يقصر والبيان
تقروا مسلكا صعبا تساوى | به البطل المسود والجبان
ولكن لو لناظرهم تبدى | سنا الملك المؤيد ما استكانوا
مليك في بساط الحسن شدت | مناطقها لخدمته الحسان
بطاعته قضوا لما رأوها | سبيلا فيه رشدهم استبانوا
وقلبهم رأينا الشمس تعنو | له وبذا لعمرك ما تهان
تقبل أَخْمَصَيْهِ لَدَى شروق | وإن غربت كما شهد العيان

بديع الحسن من لحظيك هل لي … إذا سددت أسهمها أمان

أعارت أعينا حورا وثارت … بصارمها يحدده سنان

فكم مثلي صريع هوى لديها … طريحا لا يطاوعه بنان

أخدك ما أرى أم غض ورد … وثغرك ما تنظم أم جمان

كأن سناه بالآجال يقضي … لبارق مبسميك به اقتران

تعالى الله حتى البرق يهدي … لمكر لاَ تُمَاكِره القيان

يؤمل أن يخادعه عسى أن … بضوء من ثناياه يعان

ولو أبدى قوامك بعض لين … لسارع بالسجود إليه بان

بلى في كل عضو منك معنى … تنزه أن يكفيه لسان

وما ظني (وبعض الظن إثم) … على الدنيا تجود بك الجنان

متى يأمن أنال البدر حسنا … بقرب منك يسعدني الزمان

رعاك الله من زمن تقضى … وغصن الوصل توجه افتنان

بربع كنت آلفه رياضا … وبعدك ما به قمري يزان

فلا صحبت رياح اليمن ركبا … بنور سناك عن عيني ران

أما علموا بأن الدهر حق … عليه كما يدين فتى يدان

مطايا الشوق أتبعهم كأني … أسايرهم بذاتي حيث كانوا

لمن أشكو ضني يعتاد جسمي … ولا أشكو إذا ناب امتحان

معاذ الله أن أسلو بشيء … سواك ولا تنسيه دنان

فكم أودعته صدرا فسيحا … عسى أن لا يبين له عيان

قسمت العمر أجزاء لعلي على حمل الغرام به أعان
أرجي الوصل أحيانا وحينا أشخصه فيعروني افتنان
ولو أهل الصليب رأوه يوما على قدر بدين هداه دانوا

وقوله مخاطبا بعض الأدباء وهو مريض:

أحبتنا حتى الحروف تحرفت وحتى يراع السلم قد حارب الحيرا
فأصبح معمور الرسائل منكم مهامه لا تنفك موحشة قفرا
وعذبتمونا بالجفا دون زلة كأنا جنينا الود في دينكم وزرا

وقوله:

ذوو الذوق إذ كانوا بروضهم مكثا بأجمعهم قالوا فجئت به بثا
إذا موهت أقلام ذي أدب فمن خشونة طبع المرء يستعمل البحثا
وليس كلام الشاعرين بعمدة يحث على تحقيقه ذو النهى حثا
مغالطة حينا وحينا خطابة وحينا وحينا فهو لم يستدم مكثا
وقد عده أهل اللطافة وردة تشم فإن تضمم تكسبها رثا
فكن ناهقا إن لم تذق ذوقهم ولا تحثث علينا من فويهك الروثا

وقوله مخاطبا شيخه أبا عبد الله التاودي ابن سودة:

إن أكن في العلوم روضا نضيرا فلقد كنت ثم لازلت مائي
أو أكن هاديا فعلمك نور أو أكن نَجْمًا[1] فأنت سمائي

---

(١) في متن المطبوع: «قمرا» وبهامشه «كذا» وما أثبته مناسب عروضيا. ولعله مناسب للسياق. والبيتان من المديد.

وقوله:

ملئت بجـهل جـاهل قد جـهلتـه ... ومن ظن فيك العلم في الناس جهلا

وهب عندك العلم الذي أنت تدعي ... ولا خيـر في علم من أسـفل أُدخلا

وقوله وقد أبدع:

أهذي سطور أم بحـــور تدفـقت ... فأكـسبت الـبحـر المحيط وجـوما

أهذي مـعان أم غـوان ترقـرقت ... فـأطلعـهـا لـيل الحـداد نجـومـا

فـتـشـرق نورا يهـتـــدي بسنائه ... وتحـرق سـراق القريض رجـومـا

وقوله:

رويدا فـما قـول الوشـاة يضيـر ... وأنت على رغـم الأنوف أمـيــر

ولا يوجب الهجـران والعذر بين ... وأنت بما في الحـــالتين خـبـيـر

فـما لك يـا بدر الجمـال تركـتنا ... وقد نميت في جنـح السقام يسـير

وقوله متغزلا:

لهـفي على تلـك العـشـايا التي ... قـضـيـتـهـــا تحت وريف الظلال

مــــــا بين أزهـار زهت بـالرذا ... ذ أو بين أنهـــار جـــرت بالزلال

والورق في الأوراق راقــــصــة ... وجـــامـــات الراح براح الغـــزال

قـــد أودعت في خـــده لونهـــا ... وأثرت رقـــتـهـــا في الشـمـــال

وأكـــسبت ألحـــاظه فـــعلهـــا ... وطعـمـــهـــا المرشف عـند النوال

لازلـت فـي سـكـر لـواحـظـه ... فكيف أقـــوي سكر بـنت الدوال

وكلمــــا رمت اقـــتطـاف جنى ... من وجنتـــيـه رشـقـتني النبـال

فإن رجعت القَهْقَرَى لدغت عقارب الصدغين مني القذال
وإن أحم حول حمى ثغره تلسعني النحل فضاق المجال
من منقذي من أسر طلعته من عاذري في حب بدر الكمال

ولم أقف على تاريخ وفاته.

٦١ - أبو العباس أحمد بن علي العلوي.

نزيل زَرْهُون.

حاله: فقيه معدل موقت فاضل جليل نزيه.

مشيخته: أخذ عن السلطان الأعدل مولانا سليمان كما للزياني في «جمهرة التيجان».

٦٢ - أبو العباس أحمد بن المجذوب ابن عزوز المكناسي.

قاضيها الأعدل.

حاله: فقيه جليل عالم فاضل تولى الأحكام الشرعية، بهذه الحضرة المرعية، المولوية السلطانية مدينة مكناس، وقفت على رسم مسجل عليه بتاريخ متم سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف، وغالب الظن أنه هو الذي تولى الخطة بعد المترجم قبل الذي يليه، لأن آخر تسجيل وقفت عليه للمتقدم في أول سنة سبع وثلاثين وأول تسجيل للمترجم متم السنة المذكورة.

٦٣ - أبو العباس الحاج أحمد بن محمد المعروف بالمزيان.

ابن عامل سَلاَ، والرباط القائد بناصر الصفار الفاسي الأصل المكناسي الولادة والمدفن.

حاله: فقيه بركة ذاكر معمر صالح متبرك به رحالة مشغول الوقت بالذكر

والعبادة، حج ثلاث حجج، الأولى عام ثلاثة عشر ومائتين وألف، ودخل مصر وبغداد، ولقي أهل الفضل واستفاد وأفاد، ورجع لمسقط رأسه ,أقبل على عبادة ربه وإفادة خلقه، اعتقده عوام الناس وخواصهم وكان السلطان المولى عبد الرحمن ابن هشام يحبه ويحله ويذهب لزيارته في منزله.

مشيخته: أخذ بالمشرق عن الشيخ إبراهيم شهاب الدين العباسي الإسكندري عن الشيخ مرتضى، وبالمغرب عن سيدي العربي بن المعطي الشرقي، وسيدي محمد بن أحمد المنوني من ذرية سيدي علي بن منون، وعن مولاي عبد الرحمن الإمام عن أبي العباس أحمد الحبيب، عن شمهروش الجني ،وعن أبي محمد ابن عبد الله بن بوبكر عن التونسي العوني الفرجي، عن شمهروش وعن غير هؤلاء من فحول النقاد، وسراة المشايخ الأمجاد.

الآخذون عنه: منهم السلطان الأعظم مولانا عبد الرحمن بن هشام وأفاده وأجازه بقراءة وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم إلى العالمين [الآيتان ٥١، ٥٢ من سورة القلم] وقال له: انو بها إصلاح أولادك ورعيتك وانضمام ملكك وانقياد العالم لك، يذكرها دبر كل صلاة سبع مرات كما وجد ذلك بخط نجل السلطان المذكور مولاي العباس ومن خطه نقلت، ومنهم قاضي مكناسة السيد العباس ابن كيران، ومولاي المهدي بن عبد المالك، والسيد عبد الكبير بن المجذوب الفاسي دفين شالة، والشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المدعو الكبير الكتاني، ومولانا العباس بن عبد الرحمن بن هشام وغيرهم.

وفاته: توفي عام ثمانية وسبعين ومائتين وألف ودفن بداره بأقصى درب قبالة ضريح سيدي عبد الواحد الأشقر بالحومة المعروفة قديما بالقطانين بالبيت المقابل للمداخل بالركن الأيمن منه.

٦٤ - **السيد أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن الطيب بصري.**

المكناسي النشأة والدار، الولهاصي الأصل شيخ أشياخ شيوخنا.

حاله: بيته بيت علم وإجلال وإكبار، وحسب ومروءة ووقار، ملحوظة بعين الاعتبار، كان ذا حظ وافر من النحو والفقه، بارع الخط له همة عالية، وزهد وورع يعلم الصبيان، وتخرج على يده عدة من حملة القرآن، ومنه فشا بارع الخط بالحضرة المكناسية حتى كان يضرب بجودته المثل واستكتب آخر عمره مع بعض قواد مجاط.

وفاته: توفي في بلاد زعير بالوباء العام عام خمسة وثمانين ومائتين وألف ولم يعقب رحمه الله.

٦٥ - **أبو العباس أحمد بن علي السوسي.**

العلامة المشارك النفاعة.

حاله: علامة مشارك نقاد مدرس نفاعة، أخبرني ابن حفيده شيخنا محمد السوسي أنه حدثه غير واحد من ذويه وقرابته أن المترجم كانت له يد طولى في علم الأوفاق وسر الحرف، وأنه رحل إلى الحج، وأن قدومه من بلاده الساقية الحمراء كان في دولة السلطان أبي الربيع مولانا سليمان، وأن السلطان المذكور هو الراغب في مقدمه عليه، وأنه وجه من طرفه من يأتيه به من مسقط رأسه، ولما ورد وجد السلطان بالحضرة المكناسية فأكرم مثواه ونُزُلَه وأنزله بمدرسة الجامع الأزهر المعروف اليوم بجامع الأروى بطلب من المترجم، وأنه لما سمع بمقدمه العارف بالله مولاي عبد القادر العلمي توجه إليه بقصد زيارته على عادته رضى الله عنه مع فضلاء وقته المشار إليهم بالخير والصلاح، فلما اجتمعا سأل كل منهما صاحبه عن اسمه ونسبه عملا بسنة خير الأنام في ذلك.

---

٦٤ - من مصادر ترجمته: إتحاف المطالع ٧/ ٢٦٣٩ في موسوعة أعلام المغرب.

وأخذ سيدي عبد القادر العلمي عن المترجم سر أسماء الله الحسنى كما أخذ هو عن العارف العلمي المذكور، قال حفيد المترجم العلامة السيد المفضل بن المكي ابن أحمد المترجم: ولم أقدر أن أسأله يعني العارف العلمي عما أخذه الجد المذكور عنه أهابك إجلالا . . . إلخ.

وبعدما طالت مدة إقامته طلب من الأمير المذكور أن يرده لمحله ومسقط رأسه فامتنع من ذلك كليا، وزوجه بشريفة توفيت في الحين ثم بأخرى رجراجية.

الآخذون عنه: منهم ولده العلامة المشارك السيد المكي أما وفاته فلم تحفظ.

قلت: ولا يعرف له خبر ولا أثر من غير هذه الطريق بعد البحث الشديد وقرب العهد وبقاء غير واحد ممن عاصر المولى عبد القادر العلمي وضبط من أخذ عنهم ومن أخذوا عنه ومن تدبج معهم، وأغرب من هذا وأعجب كون المترجم بهذه المثابة القعساء وما مات حتى خلف ولده من أعيان علماء وقته وعدولهم المبرزين وهو لا يضبط زمن وفاة والده ولا تعيين قبره بل ولا في أي روضة دفن.

٦٦ - الأستاذ السيد أحمد بن عبد الله بن محمد بن يوسف بن محمد الكبير ابن الشيخ محمد - فتحا - الناصري.

حاله: كان فقيها علامة مشاركا متفننا ذا سمت حسن، وهدى مستحسن، لسانه رطب بذكر الله.

وفاته: توفي سنة أربع وثمانين ومائتين وألف.

٦٧ - السيد أحمد بن عبد الله الناصري: المقرئ من ذرية سيدي محمد الصغير ابن الشيخ سيدي محمد.

حاله: كان أستاذا مقرئا فقيها متضلعا خيرا دينا مشاورا في علم القراءات يقصده الناس للأخذ عنه والاستفادة منه كثير التلاوة والأذكار، لم يتخلف عن

دروس مشايخه العلمية، إلى أن اخترمته المنية، وكان متخذا دكانا بالصباغين يجلس فيه لإفادة الناس، وكانوا ينسلون إليه من كل حدب لأخذ علم القراءة وغيره عليه، وكان مقتصرا في إقرائه على المنطوق والمفهوم وتقييد ما يحتاج للتقييد انتفع به خلق كثير من المقرئين وغيرهم.

مشيخته: أخذ القراءات عن الأستاذ الزموري، والأستاذ عياد البخاري والعلوم النقلية والعقلية عن ابن الجيلاني السقاط، وهو عمدته وعمن في طبقته من الأعلام.

٦٨ - أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن الطاهر بن محمد فتحا ابن أحمد الكنكسي الشهير بالجبلي.

الأغزاوي أصلا المكناسي منشأ واستيطانا كذا قال عن نفسه.

حاله: فقيه وجيه ميقاتي ماهر له معرفة بالفقه والنحو والتوقيت والتعديل وما يرجع لذلك، وأسند إليه ذلك في غير محل حسبما صرح بذلك في عدة تقاييد له وقفت عليها بخطه، ولي التوقيت بمنار أبي عثمان سعيد بن أبي بكر المَشْنَزَائى(١) دفين خارج باب وجه عروس من مكناسة، كما ولي توقيت منار مولانا إدريس الأكبر بزاوية زرهون.

ومما وقفت عليه من فوائده صدر مؤلف له في المولد النبوي قوله:

لما أن من الله علينا وألهمنا إلى الاشتغال بجمع ما قد قيل وصنف في المولد الشريف وذلك من أفضل الأعمال، والاشتغال به من أنجح الأفعال، وقد ورد في فضله ما يفوق أوقار الجمال، وقد وجب على كل مسلم أن يعرف نسب رسول الله ﷺ ويعلمه لأهله وأولاده ويحفظه عن ظهر قلبه إن أمكنه ذلك، وإلا نظراً أو

---

٦٨ - من مصادر ترجمته: إتحاف المطالع ٧/ ٢٥٤٨ في موسوعة أعلام المغرب.

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «المشترائى» وصوابه من دوحة الناشر فى الموسوعة ٢/ ٨٨٠.

كيـفما أمكن، ولا يهـمله إلا من لا خير فـيه أو ممن حجب عن الـله فكما يجب على المسلم معرفة الله عز وجل بحفظ الستة والستين عقيدة فكذلك يجب عليه أن يعرف مولد رسول الله ﷺ ورضاعه وبعثه للناس وجـهاده وما وقع من يوم مولده إلى يوم موته باختـصار من القول، هذا لِلأُمِّيِّ، وأمـا القارئ فيتعين علـيه البحث على ذلك والإطناب فيه فليس بعـد قراءة كتاب الله شيء أفضل من قـراءة شمائله وأيام مولده ورضاعه. انتهى الغرض، ومن خطه نقلت.

مشيـخته: أخذ عن أبي عـبد الله بن حلام إمام مـسجد أبي العبـاس أحمد الشبلي المترجم فـيما مر، والحمـادي، وخميش، والشيخ أبي الفـتح حمدون ابن الحاج السلمي، كذا قال عن نفسه فيما نقلته من خط يده.

مؤلفاته: منها «النفحات الوردية والمطيبات الطبيعية في تاريخ مكناسة الزيتون المولوية» لكنـه لم يكمل، وقـفت على الموجـود منه فـي ورقـات بكناش لبـعض أصدقـائي الأعلام. «وروض الورد والزهر في مولد المصطفى خـير البشـر» وقفت على بعضه بخطه. وغير ذلك.

وفاته: توفي أواسط القرن الثـالث عشر وقد كان حيـا تاريخ ثمانية وأربعين ومائتين وألف.

٦٩ - أبو العباس أحمد بن علي بن أحـمد بن علي بن عبد الكريم بن علي ابن طاهر بن مولانا الحسن الحسيني العلوي.

قاضي مكناسة الشريف الأصيل.

حاله: كان إمـاما عادلا له همة عليـة، ونفس أبية، حسن السيـرة صلبا في أحكامه مـحدثا مسنداً راوية ممتازا بين أئمـة التحرير، بالإتقان والنقـد بدون نكير، خطيب بليغ مصقـع، رحل إلى الحج وزيارة جده خير الأنام وكان مـتصدرا لخطة

الشهادة بسماط عدول هذه العـاصمة العلوية، ثم رشح لخطة القضاء، وقفت على تحليته في رسم مسجل عليه بتاريخ أربعة عشر ومائتين وألف بما لفظه:

الفقـيه الأجل، العلامـة الأفضل، الحـافظ الحجة الأكـمل، المدرس القدوة البركة الأمثل، الشـريف المنيف العلوي المبجل، قاضي الجماعة بالحضـرة الهاشمية الإمامية مدينة مكناسة الزيتون وهو أحمد بن علي الحسني. انتهى.

وآخر مسجل عليه أيضا بتاريخ واحـد ومائتين وألف وآخر بتاريخ ستة عشر ومائتين وألف، وآخر بتاريخ ثمانية عشر ذكره في «الشجرة الزكية» وغيرها.

شعره: من ذلك قوله مرتجزا:

يا ربـنا مـــبلـغ الآمـــال ... ودافـــع الــكـــروب والأهـــوال
يا ذا العطا والجـــود والإحـســان ... يا واســع الفـــضـل والامـــتـنان
إنا فـــقـيـــرون إلى رحـمـــاك ... وأنت أولى مـن حـــبـــا بذاكـــا
ونحن في غـم شـديد وحـــزن ... مما أصـــــابنا بـهــــذه الـفتن
قـد عـــمنا جـزع من قـــد نزلا ... من الطـغـاة فـــوقنا وأســـفـــلا
وبلـغت قـلوبـنا الحـناجـــــرا ... كـــمـا ترى يـا ربنا كن ناصـــرا
كـادت قلوب ضـعـــفـا النسـاء ... تـــذوب ممـــا حـل مـــن بـــلاء
يرق من حـــالتـــهن الحـــجـــر ... ودمـــــعــهـــن لؤلؤ منـتـــشـــر
وبلغ السـبـل الزبي والوادي طم ... عـلـى قَـــرِيِّه وذا الخطب أدلـهم
وقـــد علمنـا أن مـــا حل بـنا ... فـــإنما أصـــابنا من كـــســـبنا
لكن عـــفـوك الجـمـيل أوسع ... والرحـــمـــة العظمى لكـل تسع
فـــلا تؤاخـــذنا بذنـب إنّا ... عليـك يا رب قـد اعـــتـــمـدنا

ليس لنا مال ولا من نلجأ　　إليه غيرك فأنت الملجأ

فبدلن ما نخاف أمنا　　وكف كف الظالمين عنا

وشتتن شملهم تشتيتا　　ولتكفناهم بما قد شئتا

بجاه مولانا رسول الله　　محمد كهف الوري الأواه

صل عليه ربنا وسلم　　وآله مع الصحاب الأنجم

والتابعين لهم بإحسان　　ومن على نهجهم من إنسان

وفاته: توفي ليلة الأربعاء ثالث ربيع النبوي عام أربعة وعشرين ومائتين وألف بالحضرة، ودفن بضريح سيدي بو كتيب برد الله ثرى الجميع بفضله آمين.

٧٠ - أبو العباس أحمد بن مبارك.

وزير السلطان الأعدل مولانا سليمان وأحد مواليه الذين نشئوا في خدمته من نعومة الأظافر إلى زمن المشيب.

حاله: رجل صالح، تقي نقي فالح، لا يعرف لهواً ولا لعبا، كان أوحد زمانه صدقا وأمانة ونصحا وإخلاصا لمخدومه، مع متانة دين ولين جانب، وتواضع للقوي والضعيف، ورفق وحنان على الضعاف والأيتام والأرامل، محافظ على الصلوات جماعة في أوقاتها لا تستفزه الدنيا بزهرتها، ولا يكبر في عينه شيء من زخرفها الفاني مقبل على شأنه قائم بأعباء مأموريته أحسن قيام، مواظب على قراءة دلائل الخيرات في سائر أوقات فراغه عالي المكانة تام النفوذ مسموع الكلمة مطاعها في سائر المملكة المغربية.

ومع ذلك خرج من الدنيا كيوم ولدته أمه قال في «الجيش العرمرم»: حدثنا السلطان العادل يعني المولى سليمان وقد ذكره يعني المترجم يوما وأكثر من الثناء

عليه حتى قال: والله لولا أنني كفنته وجـهزته ما وجد ما يكفن به فإننا وجدنا في صندوقه الذي وجدنا مفتاحه معلقا عليه ستمائة مثقال، ووجدنا زماما بخطه عليه من الدين ستمـائة مثقال فقـضينا ذلك الدين بتلك الدراهم فخرج من الدنيـا كيوم وضعته أمه مع ما ظفر به من الشهادة. انتهى.

قال فمن سمع هذا وتحققه فليـعلم أن من سبقت له السعادة لا يضره شيء، فهذا رجل قد خـاض في غمرات الدنيا وقام في مقام مجـموع الفتن وقرعة المظالم والسيئات التي تستفز الرجـال، وتهد الجبال، ووقف مع الذين قيل إنهم دعاة على أبواب جهنم، فلم يتـعلق به من تلك الأدناس شيء وأدرك الفوز الذي وقف دونه أطماع السابقين فسبحان المتفضل الكريم، الواسع العليم، ومن تشوق إلى البرهان، على ما ذكـرناه يقال له طلبك البرهـان على مثل هذا مما لا تقول به أولو العـقول والأذهان، فهل رأيت هذا الرجل شيد القصور أو غرس البساتين أو تأصل الأصول أو ادخر الذخائر أو استعد للنوائب كما يفعله من عمر دنياه.

ولم يبال بما تخرب من أخراه، عافانا الله بفضله آمين. انتهى.

وقال: ما نقلت عنه قط مظلمـة ارتكبها ولا موبقة تعمـدها ولا مسألة خان فيها مخدومه أو لـبس عليه فيها أو مضرة كتمها عنه اتباعـا لهواه أو موبقة لغيره، كان سلطانه العادل يذكـر ذلك عنه ويمدحه به في كثير من المقـامات وكانت وزارته ممتدة بطول ولاية سيده نحوا من ثلاثين سنة ولا أظنه فاتته صلاة في جماعة حضراً وسفراً ولا يفارقة دلائل الخيرات في قبه كلما وجد فسحة من الأشغال أخرجه وقرأ ما تيسر منه مع ملازمة أوراده وإقامة الرواتب المشروعة هكذا رأيناه.

وأما مـباشرته للناس ومـلاقاة الضعـفاء وذوي الحاجـات والضرورات فكان أرحم وأرفق بهم من الوالدة بولدها ولا يخاطبـهم إلا بالسيادة والتبـجيل، وأما أن يقهر أحدا أو يسبه فإنه في البعد الأبعد عن ذلك.

وكان هو ووالده وإخوته مماليك لمولانا السلطان العادل رحمه الله أعطاهم له والده سيدنا محمد رحمه الله فنشـأ الوزير المترجم في كفالته، وتخلق بأخلاقه من زمن الصبا إلى مماته، وكـانت حياته مقرونة بسعـادة السلطان العادل، فإنه من يوم قتل رحمه الله انتثر نظام مملكته واختلت أسبابها فلم تزل في اضمحلال حتى انطفأ سراجها.

وكان قتله عبيد البخـاري ظلما وعدوانا بعد رجوع السلطان من وقعة زيان. وكان السلطان بعد قتله يقـول في كثير من الأمور: لو كان أحمـد حيا ما وقع هذا ولكان هذا. انتهى الغرض. وبالجملة فترجمة الرجل طويلة الذيل، ومحامده بعيده النيل.

وفـاته: توفي سنة خـمس وثلاثين ومـائتين وألف ضربـه عبـيـد البخـاري برصاصة بغابة حمرية ودفن يمين الخـارج على باب أبي العمائر، ولا زال على قبره إلى الآن بناء كان أحدثه بعض حفدته رحمه الله.

٧١ - أبو العباس أحمد بن الطاهر بادو.

المكناسي النشأة والدار والوفاة.

حاله: صالح فاضل صوفي سني ناسك ذاكر متبتل منحاش لأهل الله محب في الصالحين، معتقد في أهل الفضل والدين، لا تأخذه في الله لومة لائم، كانت له وجاهة ومكانة قعـساء عند سيدنا الجد السلطان أبي زيد بن هشام مـحمول لديه على الصـدق والأمانـة، يرشحـه للمـهمـات ويفـوض له في الأمور ذات البـال وبالأخص فيما يرجع للأحباس.

وقفت في الحوالة الحبسية على عدة ظهائر من السلطان المذكور بالموافقة على ما وافق عليه المترجم وإمضاء ما أمضـاه، وإيجاب العمل بمقتضاه، من ذلك ظهير

مثبت أصله بصحيفتي ٧٦ و٧٧ من حوالة الزاوية العلمية بتاريخ ٢٢ حجة عام ١٢٨٦.

ولي ببلده خطة الحسبة وقام بوظيفها فوق ما يطلب منه جهده وطاقته، وقفت على جواب عن مكتوب له لقاضي مكناس أبي عيسى المهدي ابن سودة بخطه حلاه فيه: بالفقيه الفاضل الصوفي بتاريخ فاتح جمادى الأولى عام سبعة وسبعين ومائتين وألف، وقد كان له جاه واحترام عند الخاصة والعامة من أهل بلده وغيرهم وينتمي نسب قبيلهم للعارف بالله أبي عبد الله محمد بن مبارك التستاوتي على ما في بعض العقود الحبسية القديمة.

٧٢ - أبو العباس أحمد بن عمر بن العربي بن عمر.

أصله من أولاد غدو، فرقة من صنهاجة، قدم جده الأعلى عمر المذكور من الجبل واستوطن قصبة هدراش وتولى إمامه وخطبة مسجدها، وكان معتقدا عند أهلها معظما ملحوظا بعين الإجلال والاعتبار.

حاله: كان فقيها زاهدا ناسكا ذا جد واجتهاد، وكانت فيه دعابة، وله مكاشفات، وأحوال خارقات، ظهرت على يديه كرامات، حدثني بها غير واحد من مشايخي الجلة الذين وقعت لهم معه وشاهدوها منه المرة بعد المرة، وكان حسن الصوت مجوداً لكتاب الله حلو التلاوة. أخبرني صاحبنا الفقيه أبو العباس الناصري قاضي الأحواز المكناسية أنه حدثه أن من جملة أوراده اللازمة كل يوم ذكر ثلاثين ألفا من اسمه تعالى الحي القيوم، واسمه تعالى اللطيف أربعة آلاف وأربعمائة وأربعة وأربعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم خمسمائة مرة وعلى رأس كل مائة يقرأ سورة الإخلاص والمعوذتين وربما كرر الاسم اللطيف العدد المذكور سبع أو ثماني مرات في بعض الأيام.

ولادته: ولد بمكناسة ولازم ضـريح الشيخ محـمد بن عيسى شـيخ الطريقة العيـساوية حـتى أسند إليه التقـديم عليه وقـام بخدمتـه أتم قيام وأحـسنه، ثم لما تفاحشت البدع من أهل النسـبة العيساوية وتكرر نهيه لهم وهـم يسـتعيرون له أذناه صـماء، وعـينا عمـياء، وبالأخص في تماديهم عـلى اللحن الفاحش في حـزبهم المعروف لديهـم بـ «سبحـان الدايم» تنازل عن ذلك التقـديم ولازم داره وصار لا يخرج إلا للجمعة، وأقبل على عبـادة ربه حتى أتاه اليقين، وكان يشار إليه بالمهارة الكاملة في علم الأسـماء والأوفـاق واستخـدام الجان تقـصده الزوار من الجـهات القريبة والبعيدة.

مشيـخته: أخذ الكتـاب العزيز عن الفقـيه البوسدراوي، والشـريف سيدي محمـد ابن إدريس البوعناني، والفقه عن العـلامة الشيخ الحاج مبـارك الفيلالي، وحصل ما قسم له من المعلومـات وأخذ الطريقة العيساوية عـمن تصدر لتلقينها إذ ذاك من مشاهير مقدميها.

الآخذون عنه: أخذ عنه ابن عمنا العلامـة النقاد، المتأني الذي له كل صعب انقاد، سيدي محمد بن أحـمد العلوي قاضي زَرْهُون سابقا قراءة آية الكرسي عند النوم إحدى عشرة مـرة حسبما أخبـرني بذلك مشافهة ومكاتبة، وشـيخنا العلامة المشارك المطلع أبو العباس أحمد بن المأمون البلغيثي قاضي مكناسة الحالي أخذ عنه الصلاة المشهورة وهي: اللهم صل على سيدنا محمد طب القلوب ودوائها، وعافية الأبدان وشفائها، ونور الأبصار وضيائها، وعلى آله وصحبه وسلم حسبما شافهني بذلك وبما وقع له معه من المكاشفات مـرارا، وحدثني عنه أنه نعي له نفسه وذلك أنه ودعه ذات يوم عام ١٣٠٩ فأنشده المترجم:

يا مزمعـا بالرحـيل عنا　　　كان لك الله خير واق

أسعدك الله في ارتحالك　　　أمنـك الله في المهالك

فائدة: من خط بعض العلماء ما صورته: وحكي عن بعض التابعين أنه كان إذا ودع مسافرا أنشده هذين البيتين. انتهى.

وقال بعض العلماء هذان البيتان ما أُنشدا قط على أحد يريد سفراً إلا رأى في سفره نجاحا. انتهى.

وحدثني شيخنا البلغيثي أيضا أنه زار هو وشريف من سكان فاس المترجم يوما من الأيام، وكان ذلك الشريف من خاصة أصحاب البركة الأشهر سيدي محمد الغياثي وبمجرد ما وقع بصر المترجم عليه سأله عن حال شيخه الغياثي قائلا في سؤاله له هل لازال سيدي محمد الغياثي منفردا في داره لا يقبل دخول أحد عليه فيها؟ فأجابه بنعم ولَوْ هِرَّة، فقال المترجم: الله الله يهديه أنا والله لا أحب إلا أن تكون الخودات معي واحدة تعضني وواحدة تنشدني وقلبي مع الله، ثم اتفق اجتماع شيخنا البلغيثي بعد ذلك بمدة مع الغياثي فجرى ذكر المترجم فأثنى الغياثي خيرا، ثم سأله شيخنا المذكور هل له به معرفة ؟ فقال: أعرفه في عالم الأرواح.

وفاته: توفي في الساعة الحادية عشرة من صبيحة يوم الاثنين فاتح جمادى الثانية عام أحد عشر وثلاثمائة وألف ودفن بزاوية المولى التهامي بالبيت المقابل للداخل بإزاء قبر الشريف المتبرك به حيا وميتا سيدي محمد العربي الوزاني رضي الله عنه.

٧٣ - الوزير الأعظم أحمد بن موسى بن أحمد بن مبارك.

الوزير ابن الوزير ابن الوزير.

ولادته: ولد سنة سبع وخمسين ومائتين وألف.

مشيخته: أخذ عن السيد فضول السوسي، والحاج محمد جنون وغيرهما

من فحـول أهل العلم بفاس ومكناس وغيـرهما من البلاد، وكـان جل أخذه على طريق المذاكرة والمباحثة.

حاله: كـان شعلة ذكاء ونبـاهة فقيـها حازمـا ضابطا عـفيف الأزار، طاهر الذيل، سياسيـا آية في الدهاء وحسن التدبير كثير الصـمت، محافظا على الطهارة والصلاة في أوقـاتها مع الجـماعة، صلبـا في دينه، كثيـر الأذكار، حـريصا على التعـرف بالأخيار، طلق الوجه ظاهر الـبشر متـواضعا بشوشـا، ذا مكايد وحيل، مستـبدا بالأمور، لا يشاور إلا فيـما تتوقف الأنظار فيه على الأخـذ برأي غيره ذا حزم وعزم وثبات، مَجَالِسُه لا تخلو من العلماء ومذاكرتهم.

حجـابته: تولي الحجـابة عن الخليفة السـلطاني بفاس المولى إسمـاعيل أخ السلطان المولى الحسن، ثم الحجابة لدى الجلالة الملوكية الحسنية، وفيها تدرب على الخدمة الملوكية وحنكته التجاريب وعلم من أين تُؤكل الكتف.

إسقاطه وزارة الجامعيين وسبب ذلك:

ثم صار وزيراً صـدراً في الدولة العزيزية وفيـها علا كـعبه وارتفع صيـته، وأوقع بأعدائه أولاد الجامعي واستَنْزلهم من وظائفهم، وذلك بعد أن قاسى أهو الا وشدائد قيـد حياة مخـدومه الأعظم السلطان مولانا الحسن، كـان اتهمهمـا بأنهما اللذان سعيا في إفساد ذات البين بينه وبين السلطان المذكور حتى انحرف عنه، وهمّ بالإيقاع به لولا أن المنية حالت بينه وبين ذلك والواقع خلاف ذلك كله.

وحقيقة الأمر أن السلطان مولاي الحسن لما ولى الحاج المعطي منصب الوزارة العظمى أنف المتـرجم من ذلك، إذ كـان يرى أنه ليس بكفء لذلك المنصب وقـد تحقق السلطان باستياء المترجم و إطلاقه لسانه بالطعن والتنقيص، وأنه قال: إن هذا الرجل فقد عقله يعني السلطان فأسرها في نفسه ولم يبدها له، وصار يحض الحاج

المعطي ويوصيه بمخالفة المترجم والغض منه والتضييق به وعدم المبالاة فأظهر له من الغلظة والجفاء امتثالا لما أمر به ما زاده حنقا، وأخذ لنفسه بالأحوط، فكان كلما ازداد الوزير غلظة وجفاء للمترجم زاد في إظهار اللين وخفض الجناح والخضوع والانحياش له ولأخيه السيد محمد الصغير وزير الحربية وهو يتربص بهم الدوائر وهم لا يشعرون، بل يعتقدون أن زمام الأمر بيدهما وأن الجو خلا لهما حتى صمم السيد محمد الصغير المذكور على القبض عليه بالرباط فمنعه من ذلك أخوه الصدر الحاج المعطي، وقال لا يسمع علينا أننا عقب موت السلطان فتحنا باب الشهوات والتوصل إلى الاغراض الشخصية، على أنه لا شيء بيننا وبين هذا الرجل والسلطان الذي كان يأمرنا بمضادته وعدم اعتباره قد لبى داعي مولاه.

هذا والمترجم يدبر لهما الحيل ونصب شبك المكايد القاضية عليهما بالقاضية، فنسب لهما الخوض فيما لا تحمده عقباه.

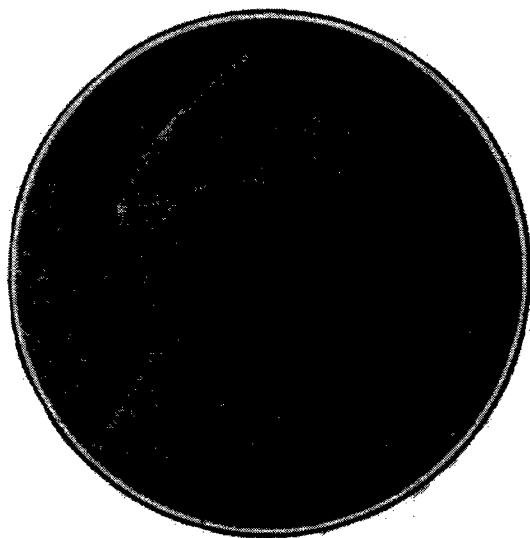
من ذلك أنه لما لبي السلطان مولانا الحسن داعي مولاه وبويع لولده المولى عبد العزيز بالمحل المعروف بالبروج من قبيلة بني مسكين استبد بالرأي دونهم، وصار يتداخل فيما هو خارج عن خطته اعتمادا على ما يعلمه من اختصاصه بالسلطان المولى عبد العزيز وتيقّنه بعدم خروجه عن أمره، وأنه لا يركن لأحد سواه، وكان يعلم ذلك كل من له أدنى مسكة من بقية الوزراء، ولذلك تسارعوا لمحالفته، وتعاهدوا على تعزيزه ونصرته، والتزم هو لهم ببقاء كل واحد منهم بمحله وعلى وظيفه ما عدا الحاج المعطي الصدر و محمد الصغير وزير الحربية، فإنهما كانا على خط مستقيم في مخالفته ومضادته، فأشاع عليهما أنهما يرغبان الناس في نقض بيعة السلطان المولى عبد العزيز المذكور وهما في سكرتهم يعمهون، لا يعلمان أن المترجم لهما بالمرصاد يترقب انتهاز الفرصة في المكر بهما ولا يصدّه عن ذلك إذ ذاك إلا خوف انتشار الفتنة لقوة حزبهما من جيش شراكة وأولاد جامع والقوة الحربية كلها تحت سيطرتهما.

ولما فشا ما رماهما به من خلع السلطان استفتى العلماء في شأنهما وقرر لهم أن مرادهمـا شق العصار وافتـراق كلمة الجماعـة، فأفتى البعض بالقـتل والبعض بالتخليد في السـجن وأسر ذلك في نفسه ولم يبده لهـما ورأى أنه لا يتم له مراده فيهما إلا بعد حلول السلطان عاصمة سلفه المكناسية.

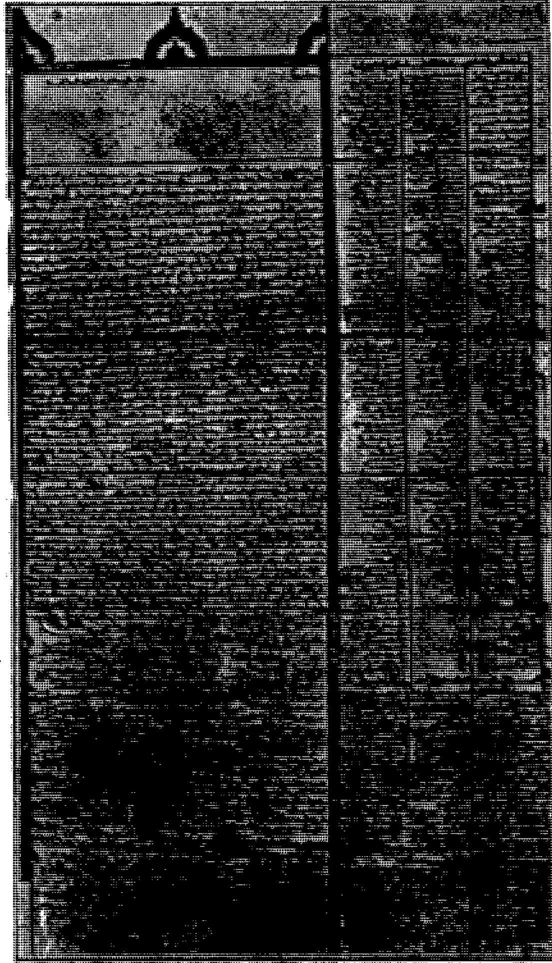
ولما نهض السلطان مـن الرباط صمم أولاد الجـامـعي على التـوجه لفـاس وقالا: إنها قاعدة المغرب، وصـمم المترجم على التوجه لمكناس، وقال: إن العادة قاضـية بالمرور بها لكونهـا دار الملك ومقـر الجيوش ووسيـلة لزيارة مولانا إدريس الأكبر، فجنح السلطان لما صمم عليه صاحب الترجمة وزيف قول غيره.

ثم لما حل السلطان بعـاصمة سلفـه المكناسية، دخل علـيه وهو على أريكة ملكه الوزير الصـدر الحاج المعطي المذكـور بصكوك الأوامـر السلطانية على عـادة الوزراء في تقديم المكاتب للتـوقيع عليها، فأمـره السلطان بدفعها للمتـرجم فامتنع وأبى، وطلب الأمير بالتمشي معه على العـرف المألوف الذي كان يتمشى معه عليه والده السلطان المقدس، فقـال السلطان مجيبا له: افعل مـا آمرك به فغضب وترك الصكوك مطروحة بإزائه وخرج، فـعند ذلك تم للمترجم ما أراد فأمر الأمـير قائد مشوره وهو إذ ذاك إدريس بن العـلام البخاري بأن يأمر الوزير الجـامعي بالانسلاخ عن كل ما يرجع لوظيفه ولزوم داره هو وأخوه، وذلك أمر دُبِّرَ بلَيْلٍ.

وكان من جـملة ما خاطبـهم به رئيس المشور المذكور، عـلى لسان السلطان المنصور، قوله: لقد طغيتم في البلاد وكَفَرْتم نِعَمَ ما أَسْدَاه لكم مولانا المقدس من النعم، وارتكبـتم بدل المجازاة بالإحـسان العـقوق، وقد بلـغ سيدنا أيده الـله ما صمـمتم عليه من شق عـصا الطاعة وإيـقاد نار الفتن، ولولا رعاية مـحبة سـيدنا المقدس فيكم وقرابتكم منه لأذاقكم سيـدنا شديد النكال وأليم العذاب، قوما اذهبا لحال سـبيلكما، فلم يسـعهما إلا الانصـراف ولزوم محلهمـا، واتفق أن كان يوم طردهما عن شريف الأعتاب يوم الثلاثاء.



السلطان السابق مولانا عبد العزيز



بيعة أهل فاس للسلطان مولاي عبد العزيز

ثم بعد ذلك أمر باشا مكناس حم بن الجيلاني بن حم البخاري بإلقاء القبض عليهما، وذلك صبيحة يوم الجمعة ثم على صهرهما العربي الزبدي واستئصال أموالهما وأثاثهما، وبيعت تركتهما في العواصم المغربية، وبعد إلقاء القبض عليهم بذل المترجم العطاء للوفود وأسدى للضعفاء والمساكين بكل ناحية، ولاسيما مكناسة وفاس ووجه بالمقبوضين مقيدين لسجن ثغر تطاوين، إلاّ الأخير فنقل لآسفي سجينا.

وبسجن تطاوين مات الحاج المعطي وكانت مدة اعتقاله ثلاثة وثلاثين شهرا، ومن عجيب الاتفاق أن مدة وزارته كانت كذلك ثلاثة وثلاثين شهرا.

وبقي به أخوه محمد الصغير إلى أن سرح أواخر الدولة العزيزية، ونقل لطنجة وبقي في حكم الثقاف بها في أتعس عيش، إلى أن اخترمته المنية.

وأما الزبدي فقد سرح بعد وفاة المترجم بأيام قلائل ولحق بالسلطان المولى عبد العزيز بمراكش، فأكرم وفادته ورده لوظيفه السابق، وأنزله بعرصة مولايعلي الشهيرة بحومة الكتبية ولم يزل على وظيفه إلى أن بارح السلطان، مراكش ووجهته محروسة فاس، وذلك في شعبان عام تسعة عشر وثلاثمائة وألف فكلف بإتمام حساب ما بيع من متخلف المترجم وحساب بناءاته التي كان السيد محمد بن عبد الهادي زنيبر مكلفا بها وتصفية ذلك أمر كله، فلم يزل في مأموريته هذه إلى متم عام ١٣٢٠، فأصدر له الأمر السلطاني بالقدوم لفاس، ولما لحق بالجلالة طلب الخدمة بوطنه رباط الفتح فأسعفت رغبته وعين أمينا على الديوانة والمستفاد وخليفة مستقلا عن عامل الثغر الرباطي، وبقي على وظائفه المذكورة إلى أن حل الركاب السلطاني بالثغر المذكور عام خمسة وعشرين وثلاثمائة وألف، فأمر عندئذ بالطلوع لمحل خدمته بالبساط الملوكي، وأقر زيادة على ذلك علي أمانة المستفاد وأذن له في جعل ولده نائبا عنه.

ولما جاءت الدولة الحفيظية عينته لوظيف الحسبة ببلده الرباط والخلافة الباشوية وأمانة الديوانة بها، ثم أعفي في عام ١٣٣١، ثم عين للأمانة بديوانة آسفي عام ١٣٣٢.

ثم طلب الانتقال فنقل لديوانة القنيطرة إلى سنة ١٣٤٢، ولم يزل على وظيفه هذا إلى أن لقي ربه عام ستة وأربعين.

وزارته وصدارته العظمى:

هذا وبالقبض على أولاد الجامعي استقام أمر الملك لصاحب الترجمة وصفا له الجو وطأطأت له الرءوس ولم يبق له منازع في الوزارة العظمى، واستبد بأمر الملك كله وجعل أخاه السعيد وزيرا للحربية وأخاه إدريس حاجبا، ولم يترك معه وزيرا أجنبيا إلا الفقيه السيد محمد المفضل غريط كان أبقاه على وزارة الخارجية، وأبا الحسن على المسفيوي أبقاه على وظيفه وزارة المظالم، وقد كان يجامله ويحترمه.

ولم يزل على وظيفه إلى أن لبى داعي مولاه، وإلا صديقه الحميم المخلص السيد عبد السلام بن محمد التازي الرباطي فإنه بقي في وظيفه أمانة الأمناء (وزارة المالية) كما كان قلده مولاي الحسن إياه بفاس في رمضان عام ١٣٠٧ إثر وفاة أخيه السيد محمد التازي الرباطي الشهير المترجم في الاستقصا [٤: ٢٥٦]، وقد كان المترجم يركن له ركونا خاصا مشهورا سيما في الخارجية إلى وفاة المترجم التي صادفته مريضا بمراكش فاستعفى بعده.

وذهب للحج وأكرمه السلطان وأعانه على رحلته الحجازية، ثم ألقى عصا تسياره بالرباط إلى أن استدعاه السلطان مولاي عبد العزيز إلى فاس في العشرة الأخيرة من جمادى الأولى سنة ١٣٢٢ وقلده أمر النيابة بطنجة عوض النائب



وزير خارجية الدولة الحسنية والصدر الأعظم سابقا

السيد محمد المفضل بن محمد غريط

الحاج محمد الطريس، على أن خليفته قائد سلا الشهير السيد عبد الله بن سعيد ورجع للرباط لتهيئة الأسباب ومعه المكاتب السلطانية لعمال المغرب وولاته باعتماد أوامره في مأموريته، فدخله يوم الأحد ٢٧ شعبان عامه في يوم مشهود، وجمع محشود، حيته فيه أبراج العدوتين وحُصُونهما بالمدافع الرسمية.

ثم توالت الأحداث التي اقتضت تأخير ذاك وتتابعت تترى، فاستدعي السيد عبد الله ابن سعيد المذكور إلى طنجة آخر رمضان منه، وصعدت السفارة الافرنسية لفاس في شوال منه ثم استدعيت وفود مدن المغرب ومراسيه إلى فاس أواخر القعدة منه للمذاكرة في مطالب السفارة، ثم قدم غليوم إمبراطور الألمان إلى طنجة يوم الجمعة ٢٤ محرم ١٣٢٣ لمعاضدة السلطان ومعارضة السفارة الفرنسية، فقابله ابن سعيد المذكور إذ كان الطريس بفاس، ثم عقد المؤتمر الدولي بالجزيرة الخضراء في شوال منه ورئيس الوفد المغربي الطريس، وما يتبع ذلك من الحوادث فبقي التازي المذكور بالرباط إلى أن لقي ربه ليلة الخميس ٢٧ صفر عام ١٣٢٥ محمود المساعي مشكور الأعمال «والذكر للإنسان عمر ثاني».

ولما نهض السلطان من مكناس لفاس أعفى الوزير غريط وولى مكانه عبد الكريم بن سليمان وكان كغيره لا يقطع أمراً دونه قلّ أو جل، وأضاف عمالة فاس لإدريس بن العلام قائد المشور السلطاني، حيث إنه كان عونا له على الإيقاع بأولاد الجامعي زيادة على وظيفة.

بعثة السفارة لأسبانيا وما حصل لها:

وفي تاسع عشري رجب عام ١٣١٢ موافق ٢٦ يناير سنة ١٨٩٥ وجه الوجيه الحاج عبد الكريم بن محمد المدعور بريشة التطواني سفيراً لدولة الإسبان لإدخال إصلاحات وتعديلات على الوفق الممضي بمراكش بين جلالة السلطان المقدس مولانا الحسن والجنرال (مرطنيس كبو) النائب عن دولته المذكورة فيما يتعلق



سفارة الحاج عبد الكريم بريشة وابن سليمان لدى دولة اصبانيا

بحرب مليلية، وعززه بالسيد عبد الكريم بن سليمان، ولما وصلا لمدريد اقتبلتهما الدوائر الرسمية أحسن مقابلة وأكرمت وفادتهما واعتنت بشأنهما غاية الاعتناء رغما عن كون الشعب ينظر لهم شزرا، وأفكاره لا ترضى بمطالبهم.

ولما حل وقت الملاقاة الرسمية مع الملكة وخرج السفير من محل نزوله للركوب في العربة المعدة له بقصد ما ذكر، اعترضه رجل إسباني بلباس مدني ولطمه على جيده على حين غفلة لطمة كادت تذهب ببصره فرجع السفير من طريقه وامتنع من الملاقاة مع الملكة التي كانت في انتظاره، ووقع القبض على المتعدي وبعد البحث عنه ألفي جنرالاً متقاعداً مختل العقل اسمه (يكل فونتينس) وفي الحين حكم عليه من المحكمة ببقائه طول حياته محجرا في المارستان.

ثم قدم على السفير كثير من المستعطفين ما بين وزراء وكبراء وألح عليه في الاستعطاف غاية طبيب السلطان المقدس مولانا الحسن (روبيلو) والترجمان بسفارة إسبانيا بطنجة (منويل سيبدرا) واعتذروا له وأظهروا تحسرهم على ذلك الواقع الفظيع، ولم يزالوا معه حتى لان وتوجه معهم للقصر الملوكي.

ولما وصله أبي أن يدخل لملاقاة الملكة حالة كون شرفه ممسوسا فخرج إليه صديق وداده رئيس الوزارة الصنيور (ساقاسطا) والجنرال (مارتينس) وأقنعوه بما يرضي دولته ويحفظ شرفه فساعدهم إذ ذاك على ذلك، وتقدم لغرفة استقبال الملكة ولما دخلها أجملت الملكة استقباله فوق العادة جبراً لخاطره، ومن غريب ما يذكر في ملاقاته هذه أن الملكة نزلت عن كرسيها وصافحته وهي قائلة: (يا سعادة السفير أتأسف من صميم فؤادي على التعدي الذي وقع عليك وإني أشعر بألم تلك اللطمة داخل قلبي).

ولما تم الاقتبال على أحسن حال ورجع السفير لمحل نزوله تواردت عليه الوفود من المجامع وإدارات الجرائد وزاره كل الوزراء مطيبين لخاطره ورجع الذين

كانوا ينظرونه شزراً من أخص المتأسفين، وقامت جملة الجرائد وأندية الشعب والأحزاب الساسية ومجلس الأمة ضد ما وقع من التعدي الشنيع فلم يسع السفير المذكور إلا أن أَبْرَقَ إلى جلالة السلطان مرسله بواسطة النائب أبي عبد الله محمد الطريس بما لفظه: إن ما يصلكم من التعدي علي هو شيء لا أهمية له ولا يمس عاطفة الوداد الإسباني المغربي، ولا يرى جنابكم العالي إلا ما يسره فتقرر بمجلس النواب وشُورَى الوزراء أنه من شرف إسبانيا واللائق بنخوتها جبر خاطر السفير والاحتفال به كما يجب، وهكذا انقلبت لهجة الأمة كلها فكان لهذه الحادثة أثر عظيم في تعديل العقد المراكشي الممضي من الدولتين في ٢٤ أفريل ومن أهم تعديلاته إسقاط ٠٠٠، ٤٠٠، ١ ريال (دوروس) من ٠٠٠، ٣٠٠، ٢ التي كانت مقررة به، وبعد أن كان سيدفع بكيفية خاصة تعدل دفع المقدار في ستة أشهر الموالية للتعديل وعلى ما قرره مؤرخو الإسبان وصرحوا به في عدة مواضع أن دولة المغرب نجحت في هذه السفارة نجاحا لم يتقدم له مثيل.

ثم بعد هذا عينت له بأَخَرَةٍ خصوصية تحمله لطنجة زيادة في إرضائه وتكرمته، ولما وصل طنجة ورجعت الباخرة غرقت بما فيها على مقربة من طنجة.

ولما رجع من مدريد رفع نتائج أعماله للمترجم فاستحسنها واستعظمها وأجازه باسم السلطان بخمسين ألف ريال (خمسمائة ألف فرنك) وسماه نائبا في جمعية السفراء بطنجة لسن قوانين إدخال الإصلاحات للمملكة، ولم يزل على وظيفه هذا إلى أن ختمت أنفاسه يوم الجمعة عاشر محرم عام ١٣١٥ موافق يوليو سنة ١٨٧٨.

استخلاصه طرفاية من الإنجليز: وفي ثاني وعشري قعدة العام أوفد عن إذن السلطان لطرفاية صاحبنا الفقيه الميقاتي الحيسوبي السيد العلمي بن أحمد بن رحال بصفة كونه ميقاتيا والحسين بن خلوق الأودي بصفة كونه مهندسا، وإدريس بن

عبـد الجليل خليفـة باشا فاس إذ ذاك بصـفة كـونه أمينا، والعدل السـيد العـباس التطواني آل أبي عـبـد الله ابن مـرزوق دفين أصـيـلا، والنجـار الطالب الحـسين المباركي، والـبناء الحاج موسى مـارسيل الرباطي، والحـاج محـمد زنيبـر السلوي الطبجي، والرئيس البحري وخمسة وعشرين عسكريا بقصد حيازة المرسى التي كان أحدثها الإنجليز بطرفاية افتياتا وتمكينه مما كان صرفه على بناء ذلك المحل.

وذلك دار بوسط البحر محمولة على الأزهرية وهي على هيئة فندق بالفوقي والسفلي وبهـا هريان عظيمان لخزن الـبارود والقرطوس، وبسطح الدارستـة مدافع وقصبـة مربعة بها دور ثلاث إحـداها كبيرة شـبيهة بالمرسى المذكورة مـعدة لسكنى رئيس تلك المرسى، والثانية صغيرة كان يسكنها البشير بن بيروك الودنوني، والثالثة يعمرها العـسكر على هيئة قشلة إلا أنهـا بدون فوقي وبوسط القصبـة خيام بعض العرب يدعون الأفيكات.

والسـبب الوحيـد في مـد أعناق الأجانب للبنـاء بذلك الشاطئ هو بيـروك الودنوني التكني والد البشير المذكـور، وكان ذلك في دولة سيدنا الجد السلطان أبي زيد عبد الرحـمن بن هشام حسبمـا وقفت على التصريح بذلك في ظهـير أصدره السلطان سيدي محمد لصنوه المولى العباس ودونك لفظه:

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومـولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما ثم الطابع الفخم بداخله محمد بن عبد الرحمن الله وليه.

«أخانا الأعز الأرضى مولاي العبـاس حفظك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد: فـإن بيروك التكني كان على عهد سيـدنا ومولانا قدسه الله تواطأ مع بعض النصارى على البناء بشـاطئ أرضهم، فبلغ خبـره لمولانا فوجه له نور الله ضريحه من ذكره وحلفه في المصحف الكريم على أن لا يعود لذلك. ولا يسلك مع الكفار تلك المسـالك، وظهر منه من التوبة مـا أوجب اعتباره ومـراعاته

عند سيدنا ونفـذ له دارا بالصويرة، وكان محـررا من الإعطاء على سلعه التي ترد على الثغر الصويري تألفا له، وبقي على ذلك إلى أن لقي الله تعالى.

ثم خلفه من أولاده خلف أضـاعوا تلك الوصايا، وأرادوا أن يعـرضوا بلاد المسلمين للرزايا، ويبيـعوا دينهم بدنياهم، فـتواطئوا مع النصارى جنس الصـبليون على البناء هنالك، فسمـعت تلك القبائل المجاورة لهم بذلك واتفـقت على قتالهم إن لم يرجعوا عن غيهم.

ولا يخـفى ما يتـرتب على ذلك من الفتن والأهوال واتسـاع دائرة القتـال، وعليه فيتعين الكلام مع الصبليول في هذا الأمر الذي يجر إلى ما لا يليق ليرجعوا عنه إن بدءوك بالكلام فـيـه وإلا فلا، ومن المعلوم أن أهل تـلك البلاد من جـملة رعيتنا وإيالتنا، فليس لأحـد منهم أن يفعل في شبر منها ما شـاء ولا تسلمها تلك القبـائل ولو أفناهم القتال عـن آخرهم، ومرادنا أن تبـقي هذا الأمر مكتومـا حتى يبدأك به الصبليول، فإن بدءوك به فتجد عندك ما تقول لهم وتردهم به، وها كتاب المرابط السيد الحـسين الأليغي يصلك فطالعه لتعلم ما ذكـر فيه، وإن ذكروا لك أن أهل تلك الجهة هم الطالبـون لذلك والراغبون فيه فأجبـهم بأن الأمر بخلاف ذلك وبأن قبائل تلك النواحي رمت ولد بيروك عن قوس واحدة، ولـبس معه أحد فيما رام فعله، واذكر لهم في ذلك ما يليق أن يذكر، وإن لم يذكروا لك شيئا فلا تذكر لهم شيـئا، ونسأل الله أن يرد كـيده في نحره وقد أخـبر خديمنا الطالب عـبد الله أبهي بمثل ما أخبر به المرابط المذكور، ونسأل الله أن يعجل بهلاكه آمين والسلام في ١١ من ربيع الأول عام ١٢٧٨» هـ. من أصله بلفظه.

وأدى السلطان في استـرجاع ذلك ابرات ٥٠٠٠٠ خمسين ألف حـيزت من طنجة بعـد أن كانوا طلبوا ريال ١٠٠٠٠ عشـرة آلاف وقديما قيل إن للتأخـير آفة ووقع الاتفاق على ذلك بشروط نصها:

«الحمد لله وقع الاتفاق بين الواضعين اسمهما عقب تاريخه وهما الفقيه الوزير الأعظم الأجل المبجل السيد أحمد بن الفقيه الوزير المنعم السيد موسى بن أحمد والكبلير المنيسطر (ارنيط ماسن ساطوا) على الشروط الخمسة التي ستذكر أسفله في شأن شراء المخزن لزينة البناء الذي للكبانية النجلزية المسماه (نرف وست افرك) بالمحل المعروف بالطرفايا الكائن ببلاد قبيلة تكنة.

(الشرط الأول) إذا اشترى المخزن زينة المحل المذكور من الكبانية المذكورة لا يبقى كلام لأحد في الأراضي التي من وادي درعة إلى رأس بوخادورا المعروف بالطرفايا المذكورة، وكذلك فيما فوق هذا المحل من الأراضي لكون ذلك كله من حساب أرض المغرب.

(الشرط الثاني) المخزن يعطي الكلمة لمخزن النجليز أنه لا يعطي شيئا من الأراضي المذكورة أعلاه لأجنبي إلا بموافقة مخزن النجليز.

(الشرط الثالث) إذا اشترى المخزن زينة البناء الذي بالمحل المذكور أعلاه من الكبانية المذكورة أعلاه يكون شراؤه لذلك عاما شاملا لزينة البناء حجراً أو خشبا الذي بالبحر والذي بالبر، كما يكون شاملا أيضا شراء المخزن لذلك لجميع ما اشتمل عليه جميع البناء المذكور الذي في البر والذي في البحر من مدافع وغيرها، ولا يبقى كلام لأحد في ذلك ولا في تلك الأراضي، والثمن الذي يعطيه المخزن في ذلك للكبانية المذكورة قدره خمسون ألف ابره نصفها معجلا عند عقد هذه الشروط، والنصف الآخر مؤجلا عند حيازة المخزن للمحل المذكور من الكبانية المذكورة.

(الشرط الرابع) مخزن المغرب إذا حاز المحل المذكور من الكبانية المذكورة بالشراء يبقيه مفتوحا للبيع والشراء والمخزن لا يبني فيه من بيت ماله دورا ولا خزائن للتجار لسكناهم ولوضع سلعهم، ولا يجعل فيه فلائك للوسق والوضع إلا

إذا اقتضى نظره الشريف جعل ذلك وقت ما شاء، وتكون أعشار السلع الداخلة له والخارجة منه مثل أعشارها بمراسي الكوشطة.

(الشرط الخامس) من أراد من التجار الإتيان بسلعته للمحل المذكور وأتي بكتاب من باشدور جنسه يعطيه المخزن طرفا من الأرض بذلك المحل بالكراء عن مدة من عشرين عاما وحيث تنصرم يصير للمخزن».

وكتب وزير الخارجية قبل ذلك لباشدور النجليز بما لفظه:

«الحمد لله: لمحل العاقل الناصح الساعي في الخير بين الدولتين المحبتين منيسطر دولة (كريت ابريطن وانبريز) الهند الفخيمة الكبلير فلان، بعد مزيد السلام فقد انهينا لحضرة سيدنا العالية بالله ما تطلبه الكبانية الإنجليزية من أداء خمسين ألف ابرة في الخسارة الواقعة لها في تعاطيها التجارة بالطرفايا بسبب تعرض ولاة المخزن لها في تجارتها، ووقوع التعطيل لها فأمرتني الحضرة الشريفة أن نجيبك بأنها قبلت أداء الخمسين ألف ابرة المذكورة للكبانية من قبل ذلك مقسطة على خمس سنين، بحيث تدفع للكبانية خمس العدد المذكور كل سنة وهو عشرة آلاف ابرة وتبقى قصبة نزول الكبانية بالطرفايا موقوفة كما كانت قبل وختم في ١٠ رجب عام ١٣٠٨ محمد بن محمد غريط لطف الله به.

ثم كتب تحت الشروط المذكورة يطلب من الباشدور المذكور ما لفظه:

«وبعد فقد أطلعت شريف علم مولانا نصره الله بالشروط الخمسة المرقومة أعلاه الواقع الاتفاق بيننا وبينك عليها في شأن حضرته الشريفة زينة المحل المذكور أعلاه، فسلمها أيده الله وأمضاها كما سلم أيضا شراء تلك الزينة لحضرته العالية بالله من الكبانية المذكورة أعلاه، بالخمسين ألف ابرة نصفها معجلا ونصفها عند حيازة المخزن للمحل المذكور، وذلك بعد مضي ستة أشهر أولها شهر شوال

وآخرها شهر ربيع الأول الآتيان، وأمرني نصره الله بالكتابة لك بهذا وبأن المخزن له أن يوجه لـلمحل المذكور مـن الآن قبل أن يحوزه أناسـا من قبله وحـيث يريد توجيههـم يعلمك لتمكنهم من كتابك لمن هناك من النجليزيين بـقبولهم وختم في ١٦ من رمضان عام ١٣١٢».

وكان ذهاب هذا الوفد المذكورة أفـراده في البابور المسمى بـ »التريكي« الذي كان اشتراه السلطان مولاي عبد العزيز ونفذت للوفد الكساوي بالصويرة.

وكان وصـولهم لطرفاية زوال يوم ١٠ محـرم فاتح ١٣١٣ فوجدوا البـاخرة الإنجليزية في انتظارهم حاملة سائر ما كان لهم من القوة بتلك المرسى، وبمجرد ما أرسى البابور في المرســى جاءتهم الساندة حـاملة كبراء تلك المرســى الذين بيدهم الحل والربط من الدولة الانجليـزية فيـما يرجع لـذلك ثم توجهـوا بالمكلفين الذين جاءوا من قبل السلطان للمرسى المذكورة بقصـد تسليم البناء المحدث جميعه ودفع مفـاتيحه، ولم يـتركوا لهم من الشـئون الحربيـة عدا المدافع والبـارود والقرطوس ومركبا دقاوء، أي كبيرا وبعض المؤن وسافروا حينا لبلادهم.

وبقي الوفد المخـزني بتلك المرسى ومكثـوا هنالك نحو السنة وكـانت المئونة تأتيهم من الصويرة على رأس كل ثلاثة أشهر.

ولما استقر بـهم النوى وجه لهم الشيخ ماء العينين ولده أبا عبـد الله السيادة وهو أكبر أولاده إذ ذاك وفي معيـته صهره عليّ ابنته الشيخ الأمجد وحـفيده السيد المحفوظ في لفيف من الأتبـاع يهنيهم بسلامة القدوم ويستقـدمهم عليه ووجه إبلا تحملهم إليه.

وكان وصـول هذا الوفد إليهم صـبيحـة الاثنين ٢٢ محرم وأقـام مع الوفد السلطاني أيامـا خمســة ثم لبوا دعـوته، وكان نهوضـهم يوم السبت ٢٧ مـحرم، ووصلوا لخيام الشيخ المذكور يوم الجمعة ثالث صفر وكانت المسافة التي قطعوها في

الوصول إليه ستة أيام كاملة، ومحل نزوله يسمى ذي النبط من ناحية الساقية الحمراء، فأكرم وفادتهم ونحر لهم ناقة هائلة على عادة الكرام، وكان جل ما يقدمه إليهم من الطعام النوع المعروف بالشعرية، وحضروا صلاة العصر مع الشيخ، ولما فرغوا من الصلاة قام بعض تلامذة الشيخ وهو العلامة الأديب السيد إبراهيم بن محمد البواري حول زرب المسجد وأنشد:

أهلا بهم من خمسة أعلام … بل خمسة كقواعد الإسلام
رسل الأمير ابن الأمير إمامنا … عبد العزيز ابن العزيز الإمام
من خصه المولى بأعلى رتبة … تلك الخلافة رحمة الأنام
لازال مخصوصا بكل فضيلة … إذ خصنا بأئمة الأقوام
هم خنصر مع بنصر وسطاهم … سبابة كبراهم الإبهام
يده إلينا مدها مبسوطة … بمواهب مشكورة الإنعام
لا تنس أن تذكرهم وسراتهم … أعني ثلاثة سادة خدام
ولأنتم من عند شيخ فاضل … ماء العيون المصطفى بمقام
ساقي الورى ساقية الحمرا متى … عز الوري أسقاء ضيف ظام

وكانت مبارحتهم لمحل الشيخ يوم الثلاثاء سابع عشر الشهر المذكور على غير الطريق الذي ذهبوا عليها، حيث إن الشيخ أخبرهم أنه مأذون من قبل الأمير بذلك والبلاد كلها رمال تجد اليوم جبالا منها فإذا هبت الريح نسفتها نسفا ونقلتها لموضع آخر.

وطرفاية هذه هي آخر حجرة المغرب، وسميت طرفاية بذلك لوجود أشجار ثلاثة من الطرفاء بها وهي بلسان الروم (دكاب جوبي) عرضها ٢٨ وطولها ١٢

ودقائق ٥٢ على ما حرره رئيس تلك المرسى، وطرفاية معتدلة في سائر الفصول ومهما بعد الإنسان عنها بنحو نصف ساعة يجد حرارة عظيمة.

أخبرني صاحبنا ابن رحال أنه كان مسافرا في بعض الأيام وهو راكب جملا فصارت تنزل عليه نقط في غاية الحر فإذا هي دموع الإبل تحملها الرياح وتلقيها عليهم.

وليس بها ماء عَدَاَ بِئر ملح تأتي للسقي منه القوافل ليلا وتسافر به لخيامها، أما الوفد السلطاني فإنه كان يأتيه الماء الكافي من الصويرة، وأهل طرفاية يتخذون أحجارا مثل القصع يملأونها من ذلك الماء الملح فوق آنية أُخرى فينزل الماء من تلك الأحجار للآنية فيستحيل عذبا.

وكان في نية السلطان أن تبقي تلك المرسى مفتوحة يعمرها التجار وغيرهم وفق ما قترح الإنجليز، ولذلك وجه النجار والبناء والمهندس ولكن أمر ذلك لم يتم.

ثورة الرحمانة بزعامة مبارك ابن سليمان:

وفي أواخر ربيع الأول من السنة المذكورة، نهض من فاس لتمهيد نواحي مراكش الذي أضرم نيرانها فساد تلك القبائل على ما يأتي بيانه، ورتب قواد قبائل الحوز بعد أن نظم جيشا عرمرما رأس عليه الشريف سيدي محمد الأمراني المترجم فيما يأتي بحول الله، ومعه عمال دكالة وباقي عمال الحوز، وخيموا على الرحامنة وندبوهم للصلح وحذروهم وأنذروهم عقوبة المخزن واشتداد شوكته وخوفوهم سطوته، فلم تنفع تلك المساعي ولم يرفعوا لمقامهم رأسا واستعظموا عصبيتهم وتمادوا على عيثهم وتمردهم، ولما قربت الجنود المولوية من مراكش اختل أمر تلك الجموع الزائغة وانهزمت، وقد كان السلطان حشد الجيوش والقبائل المغربية برابر وأعرابًا بخيلهم ورجلهم وأصحبهم معه.

ولما خيم على الرحامنة بوادي أم الربيع وأحاطت بهم الجيوش السلطانية المشار لها، بعد أن قسمها سبعة ملاحم، عقد عليها للشرفاء وكبراء الجيش كأعمام والد الجلالة العزيزية المولى الأمين، والمولى عبد القادر، والمولى عبد المالك فأوقعوا بالخارجين وقعة شنيعة وجاسوا خلال ديارهم ولم يسعهم غير الرضوخ للطاعة، والدخول فيما دخلت فيه الجماعة، وأدوا المغارم ذات البال، وأسلموا عددا كثيرا من رؤسائهم أسرى وجه بهم في السلاسل والأغلال للحضرة المكناسية، ورجع عليهم العمال الذين نزعتهم الغوغاء عصبية مبارك بن الطاهر بن سليمان الرحماني - وكان عاملا للسلطان مولاي الحسن علي درعة وأعمالها - الذي سعي في الأرض الفساد وخرب مدينة دمنات وغيرها، وشن الغارات على مدينة مراكش وهم غير مرة باقتحامها عنوة، ولولا قيام عاملها القائد (ودة) قيام الأبطال المخلصين ومبالغته في الدفاع عنها جهده وطاقته لخربت وديست سراتها وذوو الحيثيات فيها بالأقدام.

وأُتي بركن الفساد الزعيم المذكور من زاوية سيدي علي بن إبراهيم بتادلا وذلك في رمضان عام ١٣١٣ ثلاثة عشر وثلاثمائة وألف وفي معيته ولده الفاطمي وأخوه سليمان فجعل في قفص من حديد وأُحدق به مع حزبه وكاهنهم مَـهِيمَر - بفتح الميم وكسر الهاء مشبعة بعدها ميم مفتوحة فراء ساكنة - الحرس المخزني المسمى بالمسخرين، وبسبب ذلك انطفأت نيران البغي والفساد، وانكسرت شوكة أهل العتو والإلحاد، ووظفت عليهم أموال طائلة وعدد عديد من الخيل والسلاح، ودفعوا ذلك عن يد وهم صاغرون، وكان الرجل منهم يأتي بفرسه ومكحلته ويسلم كلا للمكلف بحوزه من قبل المخزن، ويأتي الرجل بنفسه ويسلمها للسجان فيدخله السجن إلى أن ضاق بهم، ففرقوا في سائر السجون المغربية وأكثر ما كانوا بسجن الصويرة.

وقد كتب المترجم بنبأ هذا الفتح الباهر لسائر الأمصار والأقطار وكان من



الخليفة مولاي الأمين في قضية غوغاء الرحامنة

جملة من كتب له بذلك ابن عمنا النقيب قبلي مولاي زيدان ودونك لفظ الكتاب بعد الحمدلة والصلاة:

محبنا الأعز الأرضي نقيب الشرفاء ، مولاي زيدان، أمنك الله وسلام عليك ورحمة الله عن خير مولانا نصره الله، وبعد: فموجبه إعلامكم بأن سيدنا المنصور بالله لما نهض من الرباط، في عز وظفر وانبساط، مر بمحلته المنصورة السعيدة في جيوشه وعساكره الموفرة ذات الأعداد العديدة، على قبيلة الشاوية فوجدهم بفضل الله على غاية من الاستقامة مبتهجين بطلعته السعيدة ومن ببلادهم في عز كامل، وحفظ شامل، إلى أن خيم بعين كيسر من بلاد أولاد ابن داود وأقام هنالك مدة في استنشاق أخبار فساد الرحامنة ورئيسهم النحيس بن النجس، فلم تكن إلا مدة يسيرة حتى صار قوادهم القدماء يأتون للحضرة الشريفة ويتلاحق بهم أهل الصلاح الباطني منهم متبرئين من سعيهم في الفساد ومصرحين بأنهم كانوا مجبورين عليه من الفاسد الكبير وشيعته، ومعلنين بالتوبة والإنابة.

وهنالك كانت الأخبار تتوارد بأن المرجفين لا زالوا يستحيلون قدوم الجناب الشريف للحوز وينكرون ذلك ويحسبونه عظيما وهو عند الله هين، وبإثر ذلك نهض أعزه الله في جيوشه السعيدة ونزل بمحلته المنصورة على ضفة وادي أم الربيع، في زي بديع، ومكث هنالك أياما قلائل وأذن للمحلة في العبور وبقي هو دام علاه في الساقة إلى أن تكامل العبور، وعبر هو بعدهم في جنده الداخلي وخيم على الضفة الأخرى بتراب الرحامنة، فغشيهم من اليم ما غشيهم، وسقط في يدهم ما كانوا يدبرونه، ولم يسعهم إلا إعطاء يد الانقياد والقدوم للمحلة السعيدة خاضعين متذللين تائبين مصحوبين بالمشايخ والمتجالات والذبائح والعارات، ملتزمين بكل ما يؤمرون به ويشترط عليهم، ولا غرض لهم إلا في الإبقاء على أنفسهم، فوظف عليهم نصره الله أربعمائة ألف ريال وعشرين ألف

ريال وألفا من الخيل بسروجها وعدتهـا وألفين من العسكر، فالتزموا ذلك وشرعوا حينا في الدفع، ولم تكن إلا مـدة يسيرة حتى أكملوا الخـيل والعسكر وجل المال، ولم يبق منه إلا البعض ولا زالـوا يدفعون، وفي أثناء هذه الإقـامة أمكن الله من الفاسـد الغوات الدمناتي الذي كان حـامل راية فساد النحـيس بن النجس وأُتي به فطيف به في المحلة السعيدة على حمار وصفد وسجن.

وبعـده أُتي بسالم الـرحمـاني كاتـب الفاسـد المذكـور فألحق بالغـوات في السجن، وكانا كالبشيرين بحصول رفيقهما الفاسد الكبير، فلم تكن إلا مدة يسيرة حتى أمكن الله منه كذلك، وأتي به للمحـلة السعيدة مصفدا ذليلا حقـيرا، فعاينه سيدنا المنصور بالله، وجمع عليه كبراء الجيوش والعـساكر السعيدة وأعيان الحضرة وقواد القبائل، فعاينوه على هذه الحالة المقررة، ثم أُركب على جمل أعرج وطيف به في المحلة السعيدة عاري الرأس والصـفع في قفاه وسخط الله ينزل عليه من كل ناحية حـتى كاد أن يموت من العذاب، ثم صفد من يده ورجـله وعنقه وسجن في قفص من حديد كالخنزير أو الكلب العقور.

ولا زال أيده الله ينظر في أمـره بعد أن جمع القـضاة والعلمـاء على نازلته وحكموا عليه بما حكم به الشرع في المحـاربين، وسجلوا الحكم ولم يبق من فضل الله وسعـادة مولانا المنصور بالله من يشار إليـه بفساد في الحوز أصـلا فقطع دابر القـوم الذين ظلموا والحـمد لله رب العـالمين، وحتى رفـيقـهم دحان الصنهـاجي السرغيني الذي كان معهم على الضلال ساقـته العناية قبلهم في خفارة ولد سيدي ابن داود تائبا خاضعـا متذللا، فاقتضت المصلحة تأمـينه لظهور أدلة صدق توبته، وولاه سـيـدنا نصـره الله على إخـوانه، وهو الآن على غـاية من الاسـتقـامـة، وأعلمناكم بهذا على سبيل الإجمال والتعجيل، ريثما ترد المكاتب الشريفة بتفصيله لما نعلمه من تشوفكم لأخبار ذلك، ولتسـروا بحقيقة الواقع، ولم يبق إن شاء الله

إلا دخول سيدنا أعـزه الله لحضرته الشريفة المراكشية رافـلا في حلل العز والسعادة والإقبـال، بمنة الله الكبيـر المتعـال، وهو المسئـول سبـحانه أن يحسن فـي الباقي كالمـاضي ويجزي الأحـوال على ما يراد ويرضى، وعلي المحـبة والسـلام في ١٨ شعبان الأبرك عام ١٣١٣ أحمد بن موسى بن أحمد لطف الله به.

ثم بعد استئصال شأفه العـتاة المفسدين دخل المترجم بالمحاة المظفرة للحضرة المراكشية منتصف العشر الأواخر من رمضان عام ١٣١٣.

ثورة الأعشاش:

ثم في فاتح ربيع الثاني عام أربعة عشر نهض لناحية الشاوية لفرقة الأعشاش منها فنزل بسـاحتهم إلى أن قـضى وطره منهم، وألقي القبض على أركان بغـيهم واستصفى أمـوالهم واستولى على ذخائرهم وحز منهم نحـو ثلاثمائة رأس وقبض على خمس عـشرة مائة رجل منهم وأودعـهم السجون، وبقـيت شرذمة متـحصنة بالكهوف من أولاد مـحمد فتحـا إلى أن هلك أكثرهم جوعـا، ثم ارتحلت المحال عنهم فـرجع أهل الغرب لبـلادهم يرأسهم سيـدي محـمد الأمـراني وأهل الحوز رجعوا في معـية المولى الأمين بن عبد الرحمن بن هشام، وصـاحب الترجمة إلى مراكش، وكـان نزول هذه المحال بالمحل المعـروف بصخـرة الدجاجـة وأودع الثائر الفتان المذكور سجن مصباح، ولم يزل به إلى أن لقي ربه.

قصوره وجنّاته:

ثم لما خـلا الجو للمتـرجم وطأطأت له الرءوس العـتاة وتمهدت لـه البلاد، واستبعد سراة العباد، وجبـيت له الأموال الطائلة وامتص العمال دام الرعية صرف همته لتشييد القصور وغرس الجنات بفاس ومكناس ومراكش، وأنشأ بمراكش جنانا متـسع الأكناف سمـاه (أجدال) وغرسـه بأنواع الأشجار والأزهار، وأنبـع له عينا

خاصة به وعمل صهريجا يجتمع فيه الماء للسقي منه، ولازال قائم العين إلى الحين الحالي، ومن قصوره المدهشة بمراكش (قصر الباهية) المعد اليوم لسكني المقيم العام بالديار المغربية.

عبقريته السياسية:

وبالجملة فقد كان المترجم في الدهاء آية، وفي السياسة بحراً ليس له من غاية، علم الخاص والعام رسوخ قدمه في التثبت والمهارة في تدبير الشئون الملوكية، ولا غرابة في ذلك إذ ليس لغيره من معاصريه ما له من الاطلاع على النواميس الملوكية والخبرة بسرائرها وسرها تغذي بلبان ذلك من ثدي أبويه وجده، وشب في ذلك وشاب، وقد ساعده السعد فاشرأبت له الأعناق، وطأطأت له الرءوس، وخضع لسطوته المشروف والشريف، وامتلأت قلوب الحواضر والبوادي مهابة منه ورعيا، ولم يبق ناه ولا آمر سواه، واستولى بسبب ذلك على نفيس الذخائر الملوكية ولكنه صانها أي صون.

أمانته: أخبرني صديقنا العدل الرضي السيد العلمي بن أحمد بن رحال وقد كان من جملة خاصة الملازمين لبابه المطلعين على حركاته وسكناته البيتية العالمين بتفاصيل خزائنه وذخائره أن المترجم لما حانت وفاته أمر صاحبه الخصوصي الطالب حمان بن عبد العزيز المكناسي أحد أصحاب الفراش السلطاني، أن يحمل بعد موته جميع ما بداره من الأموال السلطانية والذخائر الملوكية ويذهب به للقصور المولوية، ويحضر معه الوصيف ابن يدر أحد أصحاب الوضوء، إذ كان هو الواسطة في نقل تلك الأموال والذخائر من القصور السلطانية إلى القصور الوزيرية وأن مفاتيح الصناديق الحاوية لتلك الذخائر النفيسة الغالية كان المترجم سلمها للسلطان مولاي عبد العزيز لما أحس بعضال دائه وأيقن بمبارحة دار الفناء.

كما أخبرني بعض العدول بأن الطالب حمان المذكور أطلعه على كناش إحصاء الأموال السلطانية التي كانت مصونة بدار المترجم وطلعت للدار السلطانية مختوم ذلك الكناش بخط صاحب الترجمة وأن ذلك القدر هو الذي دخل عليه للجناب السلطاني العالي من العمال وغيرهم.

وقد تفرقت تلك الأموال شذر مذر، ولم ينفع حذر من قدر، انتهبها الخائنون وبذروها في شهواتهم وحرم منها المستحقون، وكان ما كان مما لست أذكره وما مكث السلطان بفاس، حتى أصيبت المالية بداء الإفلاس، وقضت الظروف، بالافتراض من الدول للوازم المصروف، وما قدر على الجبين، يستوفى ولو بعد حين.

وابن عبد العزيز المذكور هو الذي صار خليفة لحاجب الدولة العزيزية أبي العباس أحمد الركينة ثم صار في الدولة الحفيظية أمين الصائر على الدار السلطانية بالحضرة المكناسية وأمين مستفادات أسواقها، ثم انفرد بأمانة الصائر فقط أوائل المخزنية الدولة اليوسفية.

ثم إن المترجم لما صفا له الجو وتم له الاستبداد رشح سائر إخوته للوظائف المخزنية الهامة كالحجابة لإدريس، ووزارة الحرب لسعيد، واستأثر بالسلطة الاستبدادية التي كانت عاقبتها خراب بيته وبيوت عائلته والمغرب أجمع.

وفاته: توفي بمراكش سابع عشر المحرم عام ثمانية عشر وثلاثمائة وألف، وحضر السلطان فمن دونه جنازته، ودفن داخل قبة ضريح جد العائلة الملوكية المولى علي الشريف حذاء ضريح القاضي عياض رحم الله الجميع ورضي عنهم وعنا بهم آمين.

وقد رمز لتاريخ وفاته الأديب الشهير أبو العباس أحمد بن المواز رئيس الاستئناف العالي أخيرا بقوله:

قضى ابن موسى وزير الملك أحمد من   تبقي مآثره في السن الزمن
وسط المحرم من عام يؤرخه   فالخير زف له من واهب المنن

متخلفه وما وقع فيه:

ولما لبي داعي مولاه أمر السلطان بحيازة جميع متخلفه عقارا وغيره لبيت مال المسلمين، وقفت على عدة ظهائر سلطانية أُصدرت لأمناء الصائر بكل مدينة من مدن الإيالة ببيع أصوله، منها ظهيران لأمناء دار عديل بفاس دونك نص أولهما بعد الحمدلة والصلاة والطابع الشريف:

خدامنا الأرضين أُمناء الصائر السعيد بدار عديل المعفيين والجدد والمكلفين معهم ببيع الأملاك المتخلفة عن كاتبنا الطالب أحمد بن موسى وفقكم الله، وسلام عليكم ورحمة الله، وبعد: فقد وصل كتابكم صحبة تقييد بيان أملاك المذكور التي بخارج المدينة وعلى من وقفت عليه بالسمسرة والثمن الذي وقفت به وصار بالبال، فنأمركم ببيع جميعها لمن وقفت عليه على الضابط في ذلك بعد حيازة جميع الثمن ممن نزلت عليه من غير تأخير شيء منه، ومن عجز عن أداء شيء منها حالا أُمضوها لغيره الذي يعجل جميعه، وأشهدوا البيع للمشترين لها نيابة عن جنابنا العالي بالله والسلام، في ٧ محرم الحرام فاتح عام ١٣٢٠.

ونص الثاني بعد الحمدلة والصلاة والطابع:

نأمر خدامنا الأرضين أُمناء صائرنا السعيد بدار عديل أن يمضوا البيع في أملاك كاتبنا الطالب أحمد بن موسى لمن وقفت عليه في السمسرة بالثمن الذي بينتم، كما نأمركم أن تشهدوا البيع في كل منها لمشتريه على الوجه الشرعي بعد

حيازتكم ثمنه منه نيابة عن جانبنا العالي بالله والسلام في ١٦ صفر الخير عام ١٣٢٠ هـ.

ومع الأسف فقد مدت في ذلك أيدي الخائنين، وتفرق شَذَرَ مَذَرَ، ولم يصل للمخزن من أمتعته المبيعة بأسواق المدن بعد سمسرتها إلا النزر اليسير، كما مدت أيدي النهب والاختلاس في أموال وأمتعة غيره ممن صدر الأمر بحيازة أموالهم لبيت المال كابن العلام قائد المشور السابق الذكر والفشار، ولم يقع الاقتصار على أخذ أموال من ذكر من المستخدمين وضمها لبيت المال، بل مدت اليد العادية في كل من له أدنى علقة واتصال بهما من الأقارب والأباعد، وكل من لباشا ذلك الوقت فيه شهوة وغرض بدعوى أن المذكورين أمنا عندهم من أموالهما وامتعتهما فأخفوها، وبسبب ذلك توصل لغصب أموال كثير من الناس، ولم يقدر أحد من المنهوبين على النطق ببنت شفة فيما أصابه خوفا على نفسه من بطش ذلك الباشا المستبد الظلوم.

ولما تفاحش ذلك وبلغ للجلالة العزيزية أمر الأمين السيد الحاج محمد بن عبد السلام المقري الذي هو الصدر الأعظم الآن بالبحث عنه والإعلام بحقيقة الواقع فيه، فأجاب بعد البحث بأن جميع ما بلغ لشريف العلم صحيح، وأن دخوله على تلك الدور يكون أولا من غير الأمناء المكلفين معه ليستبد بما شاء من مال ومتمول، ثم يدخل ثانيا مع الأمناء والعدول أو يوجه من ينوب عنه وأن ضرره قد عم أهل البلَد ولم يقدر أحد منهم على رفع الشكاية به للحضرة السلطانية، وأن الفشار له الاطلاع التام على ما كان بدار ابن العلام وبسؤاله يظهر ما استبد به ذلك المستبد لنفسه وخان فيه السلطان، ثم تبرع المسئول المذكور بطلب إراحة أهل البلد من جوره وتفاحش ضرره بعزله عنهم حسبما ذلك مبسوط في جوابه بخط يده وهو بتاريخ ١٢ ربيع الثاني عام ١٣١٩.

اختلال الأحوال بعده:

وبموت صاحب الترجمة حدثت حوادث وفظائع يشيب لها الرضيع ووقع الدخيل في الدولة واختل النظام وفسدت الأحوال، وتراكمت الأهوال، وتنمرت الذئاب، وفرزنت البيادق، واتسع الخرق على الراتق.

ولما استحكمت الفوضى وأشرفت الأمور على الانحلال وانتشرت الحمايات بالإيالة المغربية أي انتشار، وكثر تشكي الدولة الفرنسية من مسألة الحدود الجزائرية، وجدت الدول ذات المصالح بالمغرب السبيل للإلحاح في طلب الإصلاح، واقترحت على الدولة المغربية بفارغ صبر النظام ونصب ميزان العدل وفتح الطرقات بين العواصم لتسهيل المواصلات، وكانت الحكومة بينة العجز عن تنفيذ ذلك كله مع عدم امكان تأجيله لوقت آخر.

فعند ذلك ظهر للسلطان أن دعا لفاس جماعة من أعيان مدن المغرب الكبرى كمكناس ومراكش ورباط الفتح وسلا وطنجة وتطوان فأقاموا بحضرته بفاس كنواب الأمة يترددون كل صباح ومساء على أبواب القصور السلطانية حيث مجلس الوزراء، لأجل المفاوضة في الشئون الكبرى التي أحاطت بالبلاد، فكانت هذه الجماعة لا يحسن أعضاؤها سؤالا ولا يفقهون جوابا وإذا استشيروا أجابوا بقولهم الخير فيما اختاره سيدنا السلطان، فكان وجودهم وعدمهم على حد السواء، وقد أنفقت عليهم الخزينة أموالا طائلة.

بعث السفارات لأوروبا ونتائج ذلك:

ولما وقف تداخل الدول عند هذا الحد، وكانت قضية الاستيلاء على قصور توات قريبة العهد قرر رجال الدولة توجيه سفراء مندوبين لعواصم أوروبا لطلب النصير من الدول العظام مثل فرنسا وإنجلترا وألمانيا عن كيفية بث النظام.



سفارة وزير الحربية سابقا السيد المهدي المنبهي لإنجلترا - الجلوس من اليمين المنبهي المذكور وعن يمينه قائد بعثة الحرابة الإنجليز القائد مكلين الواق من اليمين مستشار السفارة باشا الرباط الحالي السيد عبد الرحمن بركاش

فانتدب زعيم الدولة إذ ذاك ووزير حربيتها المهدي بن العربي المنبهي للذهاب إلى إنكلترا، وعين خليفة له ومستشارا لديه السيد عبد الرحمن بركاش باشا الرباط الآن، والسيد الزبير سكيرج ترجمانا، والسيد محمد بوستة كاتبا.

ولما وصلت هذه السفارة للوندرة أقامت بها نحو شهر وفي تلك المدة عقدت شروطا رسمية تحتوي على أربعة فصول:

الأول: بناء القناطر وإصلاح ما تلاشى منها بسائر الإيالة المغربية.

الثاني: تشييد المنارات بالمراسي المغربية لعموم النفع بها.

الثالث: تسريح وسق الحبوب بحراً من مرسى إلى مرسى.

الرابع: وسق البطاطا والخضر بأسرها من مرسى طنجة إلى مراسي الأجانب من حيث هي.

وهذه هي الشروط الرسمية، وهناك شروط ومعاهدات سرية التزم رئيس السفارة للدولة البريطانية بالوفاء بها على ما قيل.

وانتدب السيد عبد الكريم بن سليمان وزير الخارجية سفيرا لفرنسا وروسيا وألمانيا وبمعيته أبو عبد الله محمد فتحا الجباص الوزير الصدر سابقا، والأمين بناصر غنام كاهية النائب السلطاني بطنجة الحاج محمد الطريس التطواني.

ولما اجتمع السفير بأعيان الدولة الفرنسية وعرض رغائب الدولة المغربية أُجيب عن ذلك بما حقق لديه أن ما ألصقه بعض الدول بجانبها وقرره في شأنها محض افتراء وزور، وأنه لا داعي إليه سوى إرادة إيقاد نار الفتن بين الدولتين وتحقق لديه أنه لا تعلق لقضية قصور توات بالسياسة الفرنسية وإنما سبب الاستيلاء عليها ما عولوا عليه من اتصال قطر الإيالة الجزائرية بوطن السودان بالسكك الحديدية، وبعد استيفاء الغرض المقصود من الدولة الفرنسية توجهت السفارة للدولتين المذكورتين.

ثم بعد قضاء الوطر وفق المراد انقلب السفراء بما لديهم من المعلومات وقرروا للسلطان ورجال الدولة ما كان من سفارتهم وما رجعوا به من المقاصد المطلوبة.

ثم بإثر ذلك زار إمبراطور ألمانيا (غليوم الثـاني) مدينة طنجة فأوفد السلطان لمقابلتـه وتهنئته نيـابة عنه سمو عم والده مولاي عـبد المالك بن عبـد الرحمن بن هشام وبعض الأعيان فـاستاء لذلك الإمبراطور المذكور إذ كـان اعتقاده أن السلطان يقابله بنفسه، وذلك ما كانت تقتضيه المجـاملات السياسية وتوجبه مصلحة المغرب الوطنية، وكان نزوله بطنجة يوم الجمعة الرابع والعشرين من محرم ١٣٢٣.

كما زار قبله ملك الإنجليـز (ادوارد السابع) جبل طارق وذلك بعد زوال يوم الأربعاء تاسع محرم فاتح عام ١٣٢١، فأوفد السلطان لمقابلته وتهنئته نيابة عنه باشا فاس القـائد عبد الرحـمن بن عبد الصـادق الريفي، وكانت مقـابلة النائب الريفي الملك في عشية اليوم نفسه بدار حاكم مدينة جبل طارق، حيث كان نزول الملك.

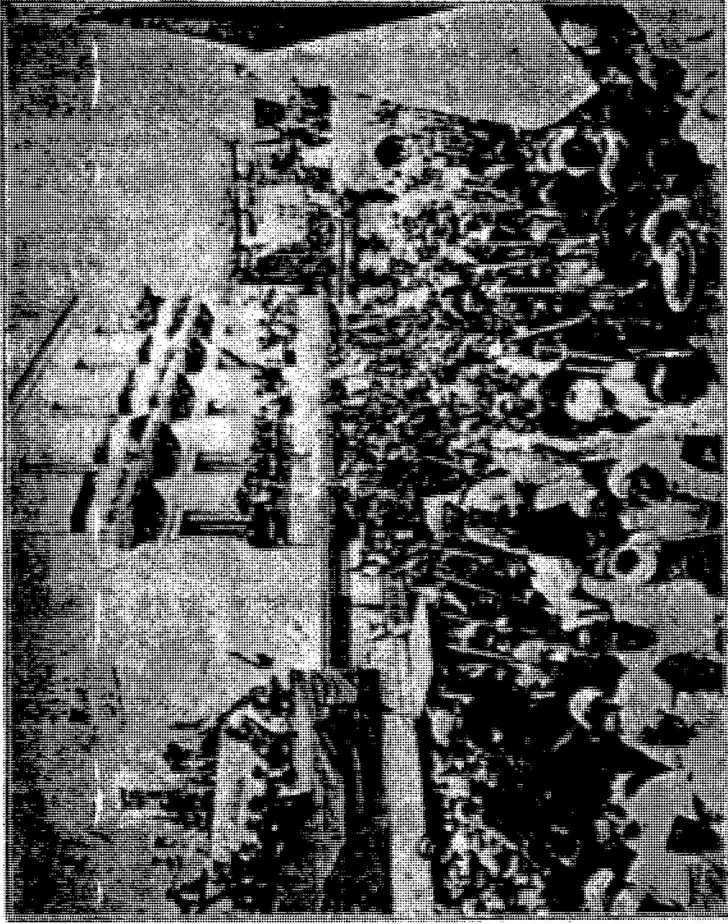
ومن نتائج سفارة ابن سليمان لفرنسا تعديل مسألة الحدود الجزائرية المغربية، وكان الذي رشح للوقوف على تصفـيتها الجباص المذكور بصفة كـونه رئيسا والسيد أحمد السعيـدي باشا مكناس الحالي معينا أول والسيد محـمد نجل الجباص المذكور معـينا ثانيا، والسيد مـحمد بن عـبد الواحد المندوب المخزني بوجـدة وباشا الدار البيضاء سابقا كاتبا أول والفقيه السـيد محمد الهواري قاضي طنجة والعضو الأول بالاستئناف الأعلى سابقا كاتبا ثانيا، والسيـد لزبير سكيرج مهندسا واستمر مكثهم في هذه المأمورية من آخر سنة ١٣١٨ إلى آخر سنة ١٣٢١.

وفي الوقت نفسه تخلت الحكومة المغربيـة عن القبائل الثلاثة: أولاد جرير، وذوي منيع، والقنادسة لعمالـة الجزائر لما كانوا يحدثونه ويتسببـون فيه من القلاقل والمشاكل مع الرعايا الجزائريين.



استقبال الإمبراطور غليوم الثانى بطنجة

(١) الخليفة السلطان مولاى عبد المالك بن عبد الرحمن، (٢) السيد أحمد بن الموّاز خليفة الوزير الصدر، (٣) مولاى إدريس البوكيلى خليفة وزير الخارجية، (٤) باشا طنجة حمزة بن هيمة الأسفي، (٥) السيد عبد الله بن سعيد السلاوي، (٦) السيد الحاج أحمد الطريس خليفتا النائب بطنجة، (٧) الباشا عبد الكريم الشركي، (٨) سيدي العربي الناصري، (٩) السيد الطالب معنين، (١٠) سيدي محمد القادري، (١١) السيد أحمد جفالف، (١٢) الحاج عبد السلام بن عبد الصادق، (١٣) السيد محمد غنام، (١٤) السيد اللبادي، (١٥) السيد العربي ملين، (١٦) السيد المهدي التازي ووراءه مولاي أحمد الصابونجي أعضاء دار النيابة وأمناء الديوانه وعدولها.



زيارة الإمبراطور غليوم الثاني لطنجة



الفتان أبو حمارة الجيلاني الزرهوني

ثم بإثر هذا وقع اتفاق الوزراء على أنه لا يختص واحد منهم بإبرام شيء أو نقضه من كل ما يتعلق بالأمور السياسية والأحكام المخزنية إلا بعد اجتماعهم على ذلك واتفاقهم عليه، وكل من وقع منه استبداد بنقض أو إبرام تجري عليه العقوبة الصارمة ويطرد من البساط الملوكي، وتعاهدوا على ذلك وتحالفوا، وكل من تولى أمر شيء يحلف يمينا مغلظة بالمصحف الكريم أنه لا يخون فيما أُسند إليه، ومن كان متوليا كذلك يحلف هذه اليمين حتى حلف سائر الموظفين.

كما اتفق رأيهم على إنشاء الترتيب الجاري به العمل الآن فلم يتم أمر ذلك، إذ لم يكن وقع عليه اتفاق جميع الدول الأجنبية.

وظهر في قبيلة بني مسارة اختلال وانحراف عن الطاعة، وكذلك قبيلة بني عروس وغيرهما من القبائل الجبلية التي أفضى بها الحال والاشتغال بالمحال إلى أخذ صبي وصبية من أبناء الإسبان بنواحي أصيلا على وجه التعدي، فجهز السلطان جيشا لإرغامهم على الرجوع إلى الطاعة، ورأس عليه الشريف المولى عبد السلام الأمراني وعززه بالآغا[1] الحاج علي السوسي بمن معه من العساكر، وما بلغوا أُمنيتهم من الانتقام من جميعهم حتى طلع طالع نحس الفتان أبي حمارة بتازا.

ثورة أبي حمارة:

ومن الأحداث العظيمة بعد وفاة المترجم الوزير أحمد بن موسى حادثة قيام الجيلاني الزرهوني المدعو أبا حمارة التي كانت أعظم حادث وأقوى سبب في فاس الدولة ووهن قوتها المادية والأدبية بل فشل ووهن المغرب كله.

أصل هذا الفتان المارق من مدشر أولاد يوسف أحد المداشر الشهيرة بجبل زَرْهُون، قدم في أول أمره فاسا وانتظم في سلك أعوان القائد عبد الكريم ولد أب

---

(١) الآغا: كلمة تركية الأصل، تعنى: الأخ الأكبر، وفى اللغة التركية العثمانية تعنى: سيد ورئيس وقد منح هذا اللقب لكثير من الموظفين وبخاصة العسكريين.

محمد الشـركي، ثم انتقل للخدمة مع الخليفة اللسلطاني بفـاس رفيقنا في الطلب أبي حفص عمـر بن السلطان مولانا الحسن، وكـان أيا خدمته مع الخليـفة المذكور يرافق السيد المهدي بن العربي المنبهي.

ولما تولى المنبهي المذكور الخدمة مع صاحب الترجمة لم يزل يتقرب إليه حتى صار من أخص الناس به وأقـرب أعوانه إليه لنباهته وحـزمه وشدة ملازمـته حتى حصل بعـد وفاة المترجـم على رتبة الوزارة، جاء الفـتان المذكور إلـى المنبهي زمن وزارته يمت إليه بسابقيـة التعرف والصحبة فلم يصادف منه قبـولا حسنا، فأقسم إذ ذاك الجيلاني الثائر يمينا ليرجعن أميرا، حيث صار رفيقه المنبهي وزيرا.

وخرج من حينه يجوب البلاد في صفة ناسك متقشف يدعو إلى الله ودخل الجزائر وجاب أكنافها وأكثر التردد بين وهران ومـعسكر ولقي أبا محمد عبد القادر ابن عدة أحد شيوخ الطريق ثَمَّةَ، وذلك بمدينة غيلـزان قرب مستغانم، ولازمه مدة فبث له هذا الشيخ من التعاليم ما صيّـره متأهلا لإيقاد نيران الفتن بالأرض المغربية وذلك عام تسعة عشر وثلاثمائة وألف.

وفي عام عشـرين دخل وجدة على الصفة المذكـورة، وتردد بين قبائل آنكاد وقرر لمن اتبعه ودخل في شبكة تدجيله مقاصـده، ثم حل بثغر طنجة متخذا حلية المتصوفـة شعارا، والتصنيع بزيهم دثارا، فتظاهر بين بعـض بسطاء العقول بالنسك والخشـوع، وربما قطع أمامهم ليلـه بالسجود والركـوع، ومتى قام للرقص مـعهم اعتـراه ذبول وتوله، واصفـرار وتدله، وأسمـعهم من رقـيق الأزجال، مـا يطرب سامعه في الحال، وربما نطق بعبارات، كأنه من ذوي الإشارات.

ولما عزم على مـبارحة طنجة راود من كان يـجالس فيها من الخـياطين على مصاحبـته، ليكون من أعوانه وبطانته، فلم ينخدع الخيـاط لدعوته، ولم يتابعه في غوايته، فغادرها إلى الموضع الذي اختاره لنشر دعوته، وأظهر النأفف من الحكومة

المخزنية، وأنها ذات خضوع للتمدن الأوربي، واختلق أشياء من هذا القبيل توجب النفرة من الحكومة ورؤسائها فوجد من أولئك الرعاع الساذج آذانا صاغية وقلوبا قابلة لما يبذر فيها من البغض والعداوة للسلطان ورجال دولته.

وفي عام واحد وعشرين دخل مدينة فاس يتجسس الأخبار ويتطلع على الأحوال، ولقي بعض من له به معرفة وصداقة فعرفه بأن الملأ يأتمرون به وأن في ظهوره بالمدينة خطراً، فخرج لقبيلة الحياينة حاملا على أتان كتبا وأوراقا متلاشية، فصادف بالقبيلة المذكورة موسم أبي عبد الله محمد - فتحا - ابن الحسن الجاناتي معمورا بجموع أعيان القبائل الزناتية من غياثة والتسول والبرانيس وغيرهم، فأخذ ينشر بينهم معايب الدولة ورؤسائها ويحبب لهم الخروج عليها، ورفض طاعة المخزن والسلطان ويرمي الجميع بالعار والشنار ويلصق بهم ما هم برآء منه.

فوجد من بسطائهم من اتبعه ونقل أقواله الكاذبة، ونشرها في الآفاق الشاسعة، فصادفت قلوبا خاوية، فتمكنت فيها العداوة والبغضاء للمخزن ورجاله وأصبحوا يسعون جهدهم وطاقتهم في الانتقام من السلطان وأرباب دولته، ويرون أن الخروج عليه وخلع ربقة طاعته من أعناقهم قربة وطاعة لله تعالى وخدمة للدين والوطن، ثم بعد الموسم انتقل لجبل غياثة ونزل على أهل الطاهر منهم.

وكان لهذا المعتدي الأثيم معرفة بفنون من السحر أضل بها كثيرا من الغوغاء، وصار يدعي أنه هو المولى محمد نجل السلطان المقدس مولانا الحسن وصنو السلطان المولى عبد العزيز، وأنه إنما يتستر باسم غيره خوفا على نفسه ممن استولى على ملك والده واستبد به واستعبد الرعية التي أمر الله السلطان بحمايتها ورعايتها والذب عنها والسعي وراء مصالحها، واشتغل ببيع دينه بدنياه، ومال كل الميل لشهواته ولذاته وتتبع أغراضه الشخصية، وفتح باب كنز زوره وبهتانه، وزعم

أن قسطاس العـدل لا يقوم إلا على يده، وأنه قام يطلـب ملك أبيه إذ هو أحق به من غيره.

وبذلك ازداد مكانة في قلوب الرعـاع والذين لا يعلمون، وقـوي استـيلاؤه على بعض سخفة العقول ومن في قلبه مرض من طاعة المخزن، فالتفت عليه أولا سفهـاء تلك القبيلة وبايعـوه على نصرة الدين، ولما فشا أمـره أهداه بعض أشراف تلك القبائل فـرسا من عتاق الخيل وخـباء وصار يكثر في كل مجـتمع الثناء عليه فاعتز الأعيان بذلك، وتهافتوا عليه، وإذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه.

ولما رأى الزنيم إقـبال الناس عليه وحـصولهم في شـبكة تدجيله وشـعوذته وتيقن أن أفئدتهم هواء، أخذ عليهم المواثيق والعـهود على تعزيزه ونصره وحمايته من كل من يرومـه بسوء، فـحـالفوه على أن لا يخـالفـوه وأن يضحـوا أنفسـهم وأموالهم وأولادهم دونه شأن ضعفاء الأحلام سـخفة العقول المتمسكين بأذيال كل دجال أفاك.

ولما حصل على ضالته المنشودة من الاستيلاء على عقولهم وتيقن بصلاح ما بذر في قلوب أولئك الأغـبيـاء الأغمـار من التـمرد عن طاعـة المخزن والعـداوة والبغضاء له ولسائر أتباعه والمنتمين إليه، وكان من جملة من ركن إليه وقام بدعوته وتسابق إلى الإعلان بنصرته قبيلة غياثة، ولما تمت له البـيعة بها تهافت عليه زعماء تلك النواحي من التسول والبرانيس وصنهـاجة ومن جاورهم، فطير الإعلام بذلك عاملها وهو إذ ذاك الحـاج عبد السلام الزمراني للحضـرة السلطانية، وطلب إمداده بقوة عـسكرية يبـادره بها قبل اضـطرام نار فتنتـه وتفاحش ضـرره، فقوبل طـلبه بالرفض ولم يرفع لمقـاله رأس، وأهمل الثـائر حتى استـفـحل أمره ونسلت إليـه سماسرة الفتن والمتمردون من كل حدب وصوب.



مولاي الكبير نجل السلطان مولانا الحسن رحمه الله

فعند ذلك جهز له السلطان جيشا عـرمرما يرأسه صنوه مولاي الكبير ووجه له به، فنزلت المحلة بإزاء عين القـدح من بلاد الهبـارجة، وما اسـتقـر بهم الثوى حتى هجمت عليـهم محال الزنيم الفتـان صبيحة يوم الثـلاثاء وكان من دعاته في سائر حـروبه استـقبال المحلة التي يروم قـتالهـا يوم الاثنين وابتداءها بالقـتال يوم الثلاثاء، كذا أخبرني من حضر جميع معاركه فانهزمت جيوشه أمام الجنود المخزنية هزيمة شنيعة، وأسر منه خـمسة أنفار وقطعت سبعـة رءوس ووجه بالكل للحضرة السلطانية بفاس.

ولما اتصل الخبر بذلك لفاس فرح الناس واستبشروا، وظنوا أن الأمر قد تم، فأصدرت الأوامر لمـولاي عبد السلام الأمراني الذي كان نازلا بجـيش كثيف ببني مسارة بالإتيان بما مـعه من الجيوش والتخييم بها مع مـولاي الكبير المذكور باوطى بوعبان ونهض السلطان لمراكش.

ثم في يوم السبت من رمضان ساقت المحلة لهم مقتفية إثر الفتان بجبل غياثة من ناحية قصـبة بني مطير فانهزمت المحال المخزنيـة هزيمة لم تعهد قبل، ولما علم السلطان بذلك رجع من وجهـته ودخل فاسا وعقـد لسيدي محـمد الأمراني على جيش جـرار من العساكر الأبـطال، وأمره باللحوق بالمحلة التي هزمت، ثم عـقد لعامله عـيسى بن عمـر العبدي على جـيش من المحال الحوزية له بال وألحـقه بهم أيضا، ولما لحـقت المحلتان الأخيرتان بالمحلة الأولـى اتفق رأيهم على النهوض من أوطى بوعبان والـتخييم على قبـيلة التسول، حيث لـم يتمحض للمحـال المخزنية منهم صداقة ولا عداوة قالوا: إذا نزلنا عليهم نقـدمهم أمامنا لقتال الفتان، وبذلك يظهر ما تكن صدورهم فإن قاتلوه ضممناهم إلينا، وإلاّ ابتدأناهم بالقتال، فنهضوا ونزلوا بمحـل يسـمي قـعــدة الأرانيب علي رأس وادي اللبن، وكــان ذالك يوم الأربعاء، ثم وجـهوا للتسول يـأتون إليهم مرارا فلم تقع منهم إجـابة، فعند ذلك

صممت المحال المخزنية على محاربتهم، ونهضت إليهم يوم السبت، وكانت الحرب بينهم سجالا في ذلك اليوم ثم رجعت المحال لمحل نزولها.

وفي عشية يوم الأحد ورد الفتان علي التسول وقابل الجند المخزني، ثم أصدر أوامره لقبية الحايينة بمناوشتها القتال مع المحال السلطانية، فإذا ساقت إليه يأتون هم من خلفهم ويحولون بينها وبين الأخبية والأمتعة فيهجم عليهم هو وجنودة، فإذا انهزموا يجدون الحياينة من خلفهم فلا يجدون خلاصا، وإذا كان العكس وتقدموا يقع الطعن والضرب فيهم من ورائهم فيفشلوا وتذهب ريحهم على كلا الأمرين.

وفي يوم الاثنين مر المارق الفتان أمام المحال المخزنية كالمتفرج تقاد خلفه تسعة من عتاق الخيل مسرجة فرمتة المحال المخزنية ببعض قنابلها فلم يلتفت لذلك.

وفي يوم الثلاثاء بدأت المناوشة بين الجيشين مع الزوال، ثم اشتبك القتال وارتبك ودام إلى غروب الشمس، وكانت الكرة على المحال المخزنية وتشتتت شذر مذر، ودخلت فاسا مهزومة شر هزيمة، جلها حفاة عراة، واستولى الثائر على الأسلحة و الخيام والمئونة والدواب، وكان هذا الحادث المحزن في رمضان، ولما دخلوا فاسا على الصفة المذكورة عظم المصاب ووقع أهل الديوان الملوكي في حيص بيص، ثم جهزوا محلة أخرى وأمروها بالتخييم بالمحل المعروف بالمطافي قرب وادي سبو، من قبيلة أولاد جامع، وخيمت أحزاب الفتان على ضفة وادي ايناون بثلاثاء النخيلة، وفي يوم الخميس ساقت إليه المحال المخزنية فانكسرت جموعه وترك جل ما كان أخذ من الحال المخزنية في الهزيمة قبل، وفر نحو عين مديونة، وهجم على المحلة المخزنية التي كانت منتظمة من الشراردة وشراكة فأوقعت به فهرب وترك موتى أحزابه صرعى فريسة للذئاب والغربان

ومن الغد اقتفت المحال أثره بعين مديونة فمزقت جموعه الباغية كل ممزق، وبعد ثلاثة أيام أعادت المحلة السلطانية السوقة لهوارة الحجر فأوقعت بهم وأزاقتهم أليم النكال والنكاد.

ثم بعد هذا حشد وزير الحربية المهدى المنبهى جنوداً جرارة تنتظم من القبائل المغربية من أقصى بلاد السوس وتافيلات إلي حضرة فاس وترأسها هو ورئيس المشور القائد إدريس بن يعيش، وتوجها بها لمدينة تازا التي اتخذها الفتان محل كرسي إمارتة، وخطب به علي منابرها باسم مولاي محمد الحسن، ولما خيمت تلك الجنود المجندة التي تربو علي السبعين ألف مقاتل بوادي الحضر هجمت عليها التسول والبرانيس شيعة الفتان ليلا فردتهم المحال الخزنية ناكصين علي الأعقاب، ولما أصبح الصباح اقتفت آثارهم وأخذت منهم المساجين وطردتهم طرد الرعاء للذئاب.

ودخل الجنود المخزنية مدينة تازا عنوة وفعلت بالمستضعفين من أهل البلد الأفعال التي تخجل منها المروءة ولا ترضاها الإنسانية، فقد افتضت الأبكار. وهدمت الديار، وذلك في شهر صفر الخير سنة ١٣٢١.

وكان دخول المنبهي المذكور بجنودة تازا بمساعدة الشيخ أبي هاشم المدني الوركيني السملالي الحسني المعتمد عند أولئك القبائل النافذ الكلمة فيها ولكنه لم يتخذ الاحتياطات اللازمة للخروج بعد الدخول، وفاته أن يسلك، مع المستضعفين من أهل تازا مسلك اللين والمجاملة فكان ما سيمر بك بعضه.

ثم بعد دخول تازا رجع المنبهي الذي كان يرأس هذه المحال مع ابن يعيش لفاس والفتان إذ ذاك بوجدة كان قد احتلها بدون قتال في ربيع النبوي عام واحد وعشرين وثلاثمائة وألف حيث إن عاملها كان ملتجئا بمغنية.

وذلك أنه لما ظهر أمر أبي حصيرة عبد القادر العتيكي اليزناسني الذي ثار بالمقام - محل بالظهراء - وزعم أنه الولي عبد العزيز السلطان هرب من لوندرة

وحج وجاء يعين أخاه مولاي محمد (أبا حمارة) عقد السلطان المزكور لعمه مولاي عرفة علي شرذمة وأعطاه مالا ووجهــه لتجهيز جيش من العرب وبربر بني يزنانس محافظة علي وجدة من أبي حصيرة المذكور.

ولما اجتمع الجـيش توجه عامل وجدة أحمد بن كـروم المكناسي الجبوري به إلى برديل قرب دار البشير ومسعود، وبمجرد ما أقبل عليه أبو حصيرة انهزم ورجع إلى وجدة فحمل منهــا ما يعز عليه والتجأ إلى مغنية هو ومــولاي عرفة فاقبل أبو حمــارة من الريف بعد طرده لسـيدي محــمد الأمراني من جـنادة وسلوان واحتل وجدة وبويع لــه بها وخطب به على منابرها باسم مــولاي محــمد وهيــأ بها لوازم الإمارة من صيوان ومظلة وأتباع وأرباب الخدمات الخصوصية، وبينما هو يهيئ هذه التراتيب إذ بلغه خبر دخول عسكر المخزن مدينة تازا فسقط في يده.

وبينما هو يهيـئي أسباب الانقلاب إلى المغـرب اذ وصلت لحدود وجدة من طريق الجزائر هيئة من حكومة المخزن مؤلفــة من الحاجب أحمد الركينة بصفة كونة رئيسا علي تلك المحال المخزنية والقائد عبــد الرحمن بن عبد الصادق الريفي بصفة كونة مـعينا ومسـتشارا، فـنزلوا بمغنية وجعلوا يخـابرون رؤساء القـبائل وأعيـانها ويحبذون إليـهم الرجوع عن غيهم، وبسب مـا نثروه من الدرهم والدينار أمكنهم استجلاب رؤســاء قبائل آنكاد وترجيعهم لطاعــة السلطان والبراءة من الدعي الثائر واسترجعوا مدينة وجدة وطردوا عنها حمية الثائر وجعلوها مركز أعمالهم.

ثم إن ابن عبدالله الصادق المزكور دس للركينة عند السلطان ما أوجب عزله عن رياسة الحال واسترجاعه لفاس وإسناد الأمر في ذلك للداس.

ولما بقي الثـائر مع من بقي معـضدا له مــن اللقطاء السقطاء بين ناريــن أكد العزم إلى الجهــة الغربية وقصد تازا، فبيــنما هو في الطريق إذ وافاه الطيب بن أبى عمامة في جمــاعة من ذويه وفي معيته عبد المالك بن عـبد القادر بن محيي الدين

الذي جاء لتلك النواحي من فجيج يقصد ترويض النفس والسياحة ونزل على أبي عمامة.

فلما ظهر هذا الثائر اشتاقت نفسه أن يطلع على كهنه على عادة رجال الحرب فتقوي بهم ونزل ماوية ولما قرب من قصبة مسون من أرض هوارة لقيتة مقدمة جيش تازا التي كان يرأسها القائد المدني ابن محمد الأجلاوي، وكان قد أنزل بالقصبة المزكورة حامية من الجيش تحت رياسة القائد عبد الملك المتوكي فوقع بين الفريقين معارك أصيب فيها الزنيم برصاصة أعجزته عن القيام والقعود ففرّ به أنصاره جريحا لقبيلة البرانيس، وعسكروا بوادي الأربعاء من بني فراسن من التسول في أوعار وحصن حصين، ودام القتال بين أشياعه والمحلة المخزنية بتازا وانقطع خط الرجعة بين من بتازا وأوطي بو عبان إلى أن دخلت سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة وألف واندمل جرح المارق الفتان ودخل تازا من غير مقاوم ولا معارض.

ثم إنه لما كان خرج الفتان من وجدة عمرها الجيش السلطاني الذي كان بمغنية مع فرقة عسكرية وجهت مددا من فاس على طريق طنجة ومنها نزلت بالغزوات ثم سعيدة عجرد ثم وجدة من غير قتال أيضا وذلك في ربيع الثاني عام ١٣٢١ واحد وعشرين.

ولما ضاق المتسع بمن بتازا من الجنود المخزنية وذاقوا بسبب ذلك من العذاب ألوانا وكابدوا من الأهوال والخصاصة، وعدم القوت ما تحدثت به الركبان، وتيقنوا أن الفئة الباغية أجمعوا أمرهم وصمموا علي الأخذ بثأرهم منهم فيما فعلوه بتازا من الأعمال الوحشية، طيروا الإعلام للسلطان بما وقعوا فيه وطلبوا منه أن يمدهم بمدد يخلصهم من الورطة التي ورطوا أنفسهم فيها، فرأى أنه لا بد له من التوجه لإنقاذهم بنفسه فحشد الجنود من الأغوار والنجود، وأفاض فيها العدة والمال، وعزز تلك الجنود بعساكره الوافرة وسار إلى أن خيم ببلاد الحياينة وهناك انضم إليه الجيش السابق الذي كان بأوطى بوعبان.

ثم نهض إلى قبيلة التسول فتفرقت أتباع المتمرد الزنيم فى وعر تلك الجبال ورموا بالقنابل المحرقة وشدد عليهم فى الحصار، ولكن لم يمكن اجتثاث أصل عيثهم بالكلية حيث حان إبان[1] البرد والمطر، ورأى الأمير أن تمادى جيوشه على الحصار فيه أعظم خطر، انقلب إلى فاس وكتب لإيالته بشرح أسباب أوبته. ودونك لفظ ما كتب به بعد الحمدلة والصلاة.

وبعد، فقد كان الغرض من نهوض ركابنا الشريف هو القيام بما أوجبه الله من إخماد فتنة المفسدين، وتربية قبيلة التسول وأشكالهم المعتدين، وقد خيمت جيوشنا السعيدة على أوديتهم وهضابهم، وخفقت بنودنا المنصورة على جبالهم وشعابهم، ونحن نحاول استرجاعهم من الغى إلى الرشاد، ونسترعى عليهم قبل أن يعمهم من الهلاك ما لا يمكنهم معه استنجاد، وكررنا عليهم زحف الصوكات من جهات متعددة، وأشهدناهم أثر سطوة الله المتجددة، وضيقنا عليهم المذاهب، حتى أوهنهم الحصار فى كهوف الشواهق ومغارات المسارب، وفى كل صوكة يقع فيهم عدد من الجرحى والقتلى، وتبلغ فيهم العقوبة مبلغا يزيدهم محنة وهولا ولما كان سبب تماديهم على ما هم فيه من الضيق والمحنة هو استعظامهم لما فرط منهم من الشقاق والفتنة، حتى عدوا ذلك من الذنوب التى لا تسلم من عاقبتها عواقبهم، ولم يعتبروا أن المقصود عندنا هو استرشادهم لما تصلح به أحوالهم، وتتطهر به عقائدهم.

ورأينا استمرار الحرب عليهم يفضى بهم إلى عموم الهلاك والتدمير، مع أن المراد هو إنقاذهم من مصارع الضلال بتربية واسترشاد وتحذير، وتحققنا ببقاء الفاسد الفتان فى حكم العدم، من الجرح الذى لم يطق معه من تحريك يد ولا قدم.

وحل مع هذا إبان الشتاء الذى أشفقنا منه على المسلمين لاضطرارهم إلى

(١) إبان الشيء: أوانه.

حراثة أقواتهم واقتناء معيشتهم وضرورياتهم، أمرنا محلتنا السعيدة التى كانت مخيمة بتازا للتوجه إلى نواحى وجدة وآنكاد، وتكميل الغرض بها هنالك فى حسم مواد، ووردنا وجهتنا السعيدة لمحروسة فاس، مصحوبين بعناية الله التى هى عمدة التدبير وجنة الاحترس. ريثما نجدد تقويم الحركة والاستعداد، ونترقب ما يظهر من أحوال هؤلاء الأوغاد، فإن أراد الله بهم خيرا وتابوا وأنابوا فذاك، وإلا فننهض لهم فى الإبان الذى يقتضيه بما لا قبل لهم بحول الله، وأعلمناكم لتعرفوا حقيقة الواقع وتأخذوا حظكم من فرح الأوبة فى عناية الله التى ليس لها من دافع، ونسأله سبحانه أن يحتسب اجتهادنا فى حياطة دائرة النظام والدين، إنه ولى التدبير والمستعين والمعين، والسلام فى فاتح شعبان عام واحد وعشرين وثلاثمائة وألف.

أما المحال التى كانت بتازا فقد أصدر السلطان أمره إليها بعد رجوعه لفاس بالذهاب لوجدة، وبعد رجوع السلطان لفاس ردت أحزاب الفتان وجهتها للمحال الحالة بوجدة وذلك عام اثنين وعشرين.

ولما وصلها نزل بلاد بنى بوزكو فرقة من زناتة، وبعث إليه رئيسهم حمادة البوزكاوى بالطاعة، فطلب منه مصاهرتة على ابنته، فأجابه لذلك واقترح عليه أن يوجه أعيان القواد والوزراء لمصاحبة العروس، فوجه الثائر من أعيان حزبه الخاسر نحو السبعين.

ولما دخلوا دار الرئيس المذكور هش وبش وبالغ فى الإكرام وبسط الموائد وعدد الأطعمة فأكلوا وشربوا وانبسطوا، ثم عرض عليهم دخول الحمام وأنه أحماه وهيأه لهم فتجردوا من سلاحهم ودخلوا الحمام زرافات فاستحال حماما، فكانوا طعمه لحد سيفه، ثم لحق الرئيس حمادة من ليلته فى أهله وأولاده بمدينة وجدة ودخل فى عموم المحلة المخزنية بها.

ثم فارق الطيب البـوشيخى أبا حـمارة واستأذن مـعتمـد الدولة بوجدة ابن الصادق المذكور فى اللحوق به، فأذن له، وتوجه إليه وفى معيـته رفيقه الأمير عبد المالك فى طائفة من فرسانه، وكان منهم فى خـدمة السلطان وحاربه طائفة الفتان، ما سارت به الركـبان، رغما عن كون أبى عمـامة والد الطيب لم يرض عن صنع ولده وظل مواليا للفتان بسائر قبيله وأتباعه فكان عمدته فى حروبه، ومساعده فيما ظهر بعد ذلك من الخطوب وقسيمه فى ذنوبه، ثم وقع الخلاف والنكران، بين أبى عمامة والفتان، ففارقه أبو عمامة وأبعد النجعة بقومه ونزل بأطرف الظهرة.

هذا ولما اتصل خبر مذبحة دار البوزكاوى باثائر قـصد محل وقوعها وضربه وعـاث فيـه، ثم نزل على وجدة وشب القـتال بيـنه وبين المحلة التى بها، وكـان الحرب سجالا ودام مـتواصلا بقية السنة وجـزءا من سنة ثلاث وعشرين، ثم رجع الثائر لقصـبة سلوان وخرجت المحال من وجدة وذهبت للمـحل المعروف بالجزيرة قرب مليلة.

ثم رجع ركن الفـســاد أبو حمـارة لبـلاد الريف مكسـور الجناح، فى عناء وجناح، ثم رجع لنواحى فـاس وتازا تارة فى انطفاء واخرى فى انضـرام والأموال الباهظة تصرفها الدولة فى سبيلـه، حتى نضب ما فى خزائن الدولة وفرغت أفئدة بيـوت أموالهـا واضطرت للاسـتقـراض من دول أوروبا بعـد ثرواتها الضـافيـة، واقترضت منهم فعلا مرات متعددة والرؤساء النهاب يملئون جيوبهم وأوعيتهم من الآلاف المؤلفة من الدراهم والدنانير إلى زمن الدولة الحفيظية.

ثم أفـاق من نومـتـه، وتوهم أنه آن زمـان بلوغ أمنيـتـه، فنهض إلى بلاد الحياينة، وصـار يشن الغارة المرة بعد الأخرى على القبـائل المجاورة لفاس إلى أن بلغ لأولاد الحاج، فنظم السلطان المولى عبـد الحفيظ جنودا مجندة من أبطال ذوى حزم وعـزم ووجههـا إليه، فلما التـقى الجمعـان كانت النتـيجة بتـبديد جمـوعه



الفتان أبو حمارة الجيلاني الزرهوني في قفصه

والاستيلاء على أمـواله وذخائرة وغنيمة عياله وعبيـده ثم القبض عليه و الإتيان به حقيراً مهانا.

وكان الظفر به بمدشر أولاد كنون من قبيلة بنى مسارة فى زريبة السيد عمران عشيـة يوم الأحد خامس من شعبان عـام سبعة وعشـرين وثلاثمائة وألف، موافق ثانى عشرى غـشت سنة تسع وتسعمائة وألف،ودخل لفـاس فى قفص من حديد على جمل ضحى يوم الثلاثاء المتصل الولاء بيوم القبض عليه.

وكان الذى تولى القبـض عليه عسكرى من قبيلة الشـاوية من طابور بوعودة يسمى الـعشى، ولما ظفر بـه نزع له المفاتيح التى كـانت بطوقه والخـاتم الذى كان بإصبعه ثم تسلط عليه النهاب والأوباش وسلبوه من كل ما يطلق عليه شئ وتركوه مكشـوف العورة وأذاقوه ألـيم النكال، ولولا أن القائد الناجم كـفهم عنه لأتـلفوا مهجته، هكذا أخبرنى من حضر الواقعة وعاين ما ذكر من الثقات الأثبات.

ولما مثل بين يدى السلطان مولاى عبد الحفيظ أظهر من التجلد و الوقاحة ما لا مزيد عليـه، ثم بنيت له دكة بمشور باب البوجـات، ووضع عليه قفصـه وشُهِرَ أيامًا حتى رآه الحاضر والباد، وأقيمت عليه الفرجات والأفراح فى سائر البلاد، ثم بعد ذلك أدخل للقـصور السلطانيـة بفاس، وكان ذلك آخـر العهد به، وبهـا قتل تنفيذا للحكم الشرعى المتعين فى شأنه الذى كان التخـيير فى كيفيته للإمام، فأعدم رمـيا بالرصـاص فى أصح الروايات خـلافا لما يشـيـعه بعض ذوى الأغـراض من الأوروبيين وغـيرهم، من أنه طرح للأسود التى كـانت بالقصر السلطانى فـمزقت شلوه.

ولما لم يشهـر قتله أمام الجمـهور صار بعض الحمـقى يعتقدون عـدم موته، ولاسيما خاصته كصهره محمد بن شلال الريفى القلعى، فإنه كان يجزم بعدم موته ورجوعه يوما مـا لسطوته، فحمله اعتقاده الفاسـد على منع أخته التى كانت تحت

الثائر المذكور من التـزوج بغيره لئلا يرجع ويجدها متزوجـة فنعوذ بالله من الجهل والغباوة.

ثورة الريسولي:

ومن ذلك ثورة أبي العـباس أحـمد الريسـولي الذي كان في أول أمـره من اللصوص النهاب قطاع الطريق بالعقبة الحمراء وما والاها.

وقـد اتفق أن كـان بين النائب السلطانـي بطنجـة الحاج مـحـمـد الطريس التطواني، وبين عامل طنجة الحاج عبد الرحـمن بن عبد الصادق منافسة وشحناء، فوشى الطريس بالعامل الذكور للسلطان زاعما أنه المغرى للريسولي على العيث في الطرقات وأنه يشاطره جـميع ما سلب ونهب، وذلك محض زور وافتـراء فأصدر السلطان عند ذلك بالعامل أمرا باتا بالقبض على اللص المذكور وإلا فيكون مسئولا ولما بلغه هذا الكتاب ضاق به المتسع وصـار يضرب أخماسا في أسداس، ولما رأى أن لا ملجأ ولا منجى له إلا بنصب حبال المكر والخديعة، أوعز لبعض الخاصة من أصحاب الريـسولي بأنه يريد أن يرشح المذكور شيـخا ولكن لابد من أن يدفع عن تسنم ذلك المنصب مبلغا من الدراهم لا يقل عن ثلاثين ألف بسيطة حسنية، فنشط الخدن لتولية صاحبه واسـتعظم العدة وصار يطلب من العامل الحط من ذلك القدر وهو يشدد ويظـهر الإباية من أن يضع ولو شـيئا مـا، ثم ذهب الصديق لصـديقه وأخـبره بما راج بينه وبيـن العامل في شـأنه فـارتاح لذلك، وأجاب لأداء العـدة المذكورة، وإنما يطلب دفـعها مقسطة، ثم تأبط ثلاثة آلاف بسـيطة حسنية ليقـدمها بين يدي نجواه للعامل، وتوجه مع الواسطة.

فلما أخبر العامل بما ذكر أمر بإنزال الريسولي بمحل معدل الضيوف الأعيان، وكلف من يذهب إليه بالطعام والشـراب وأظهر الاعتناء الزائد ودخل هو لداره مع الواسطة.

ثم نادى بعد الأبطال من خاصة أنواعه يسمى عبد السلام الأشخر وقال له: إنى أريد القبض على الريسولى، وأنه لا يقوم بهذه المأمورية غيرك، وإننى لم أفضى بهذا السر لبشر من خلق الله سواك، ولا يقبل منك عذر فيه بحال، فإن فهت بهذا أو توانيت فيه فإنك تقبض مكانه وتذوق ألم طويل المحن، فأجاب الشرطى بالسمع والطاعة، واختار من أصحابه من يعتمد على إخلاصه وشجاعته وأفضى إليه بما شافهه به العامل، وقال له: إنى إذا حضر الطعام وناولته الطست ومد يده للغسل أسقط عليه وأضمه إلى فإذا رأيتنى فعلت ذلك أدركنى وأعنى فيه فتوافقا على ذلك.

ولما مد الشرطى يده فى المسجون قال له: إنه مسجون السلطان فمد يده لجنبه يريد سل سكين كان متأبطا له فنزعه العون الآخر منه وأوثقوا يديه خلف ظهره، وذهبوا به للسجن، وجعلوا عليه السلاسل والأغلال ثم أعلموا العامل بالواقع، فارتاح بذلك وسر به، ثم وجه به سجينا لثغر الصويرة.

وبعد مدة جاء أقاربه وبنو عمه وتطارحوا على الطريس فى الشفاعة فيه فأسعف رغبتهم وتشفع فيه للسطان فسرح، ولما رجع لمحله ضاق المتسع بالعامل وشيعته فطلب الانتقال فنقل لعمالة فاس.

وعاث الريسولى وزاد عتوا وفسادا وصار لا يرقب فى إنسان إلا ولا ذمة، كم أباد من عائلات وأراق من دماء فى سبيل شهواته وأغراضه الشخصية! وأوقد من فتن حبا فى الرياسة حتى أهلك البلاد والعباد وأسر (القرونيل مكليل) الحراب الشهير فى الدولتين الحسينة والعزيزية ودعا بالملك لنفسه وخطب به على منابر تازروت وما والاها، والتفت حوله الصعاليك وسخفاء العقول وسماسرة الفتن اللذين حبب إليهم تقدير الراحة والسلم العام وصار آونة يجنح للإسبان وأخرى يكون عليهم، وقد تفننت الجرائد والمجلات فى نشر تفاصيل أخباره داخل الإيالة المغربية وخارجها فلا حاجة بنا لجلب ذلك وتتبع وقائعه.

ولم يزل على طيشه وتمرد إلى أن ابتلى بداء الاسستقاء واستفحل فيه، وأعيا الأطباء علاجـه وصار كالزق يمج منه الماء المنتن مـجا حتى كان يضطر إلى تغـيير ثيابه وفـراسة فى اليوم مـرات، ولا يمكن تحويله من محل إلى آخـر إلا بجعله فى إزار يحمل فيه ودام على ذلك سـتة عشر شهرا وهو مع ذلك مسـموع الكلمة نافذ الأمر صحيح اللسان بذاء، لا يقيم لأحد وزنا.

ثم فى أوائل رجب عام ١٣٤٢ أحدق لفـيف من الريفيين أشباه مـحمد بن عبـد الكريم الريفى بداره بتازروت، ودخل عـليه قوادهم وأشـياخـهم بعد أن دام البارود بينهـم يوما وليلة، هلك فيـه عدد عديد من الأنـفس واتخذوا له محـملا حملوه فـيهم على عـواتقهم إلى مـرسى وادى (لو) ببنى سعيـد على حد غـمارة وركبوا به البحر وذهبوا به إلى آجدير، ثم أخرجوا عائلته وسائر نسائه من تازروت بكل احترام ووقار ووجهوا بهن لشفشاون.

وفى تاسع رمـضان العـام لبى داعى مـولاه، وبعد ذلك نـقلت عائلتـه من شفـشاون إلى (سنادة) وبقيت هنالك إلى أن قامـت قيامة ابن عـبد الكريم فنقلت لتطوان، ولاذت به إلى الآن ولله فى خلقه شئون.

مقتل الدكتور موشان واحتلال وجدة:

ومن ذلك أيضـا ثورة قتل الدكتـور موشـان الفرنسى بمراكش، وذلك كـما قدمـنا أن بموت المترجم وتسنم المناصب الـعليا غـير مـستـحقيـها ظهـرت الأوابد واختلفت العقـائد، وتطلعت رءوس كأنها رءوس الشياطين، وتغـير نظام الحكومة بالمرة، ووقع الانقـلاب الفجائى فى هيـئتـها، ولم يجد السلطـان فى دائرته رجلا يعتمـد عليه ولا بطلا يكل الأمر إليه، فجرت الأمـور على غير المراد، وإذا أبرمت الأقدار الإلهية أمـرا فليس له من راد، وعادت الفتنة الحوزية لشبابهـا، وكثر القتل والنهب والسلب بالطرقـات، واذداد ذلك فشـوا ونموا بمبارحـة سلطان المولى عـبد

العزيز للديار المراكشية ومقامه بالعاصمة الفاسية وذلك عام تسعة عشر وثلاثمائة وألف ١٣١٩.

وتعدد رفع الشكايات للحضرة السلطانية بما لحق الناس من الأضرار وتورطوا فيه من الأخطار، بسبب سلب الأمن وتكاثف العيث فى الطرقات، وقتل القوى للضعيف، فألقيت شكايتهم فى زوايا الإهمال وكتمها أولو الأمر من الديوان المخزنى عن السلطان واشتغلوا بلذاتهم وشهواتهم ولم يرفعوا لما يرفع إليهم ويقرر لديهم رأسا، ولا قرأوا لعاقبته الوخيمة حسبانا فكانت النتيجة فراغ الأفئدة من خوف سطوة السلطان وشديد بأسه ومهابة صولته وبطشه وتلاشى نفوذ ولاة أمره من قواد وعمال وخصوصا بمراكش، وبقى الناس كالفوضى لا سراة لهم.

فاتفق أن ركب الطبيب المذكور علم دولته بباب محله بعرصة موسى، وذلك يوم السبت رابع صفر عام خمسة وعشرين وثلاثمائة وألف على ما حقق لى بعض الأعلام من عدول مراكش، والذى قرأته فى بعض التقاييد أن ذلك يوم الثلاثاء خامس صفر المذكور فى الساعة الواحدة بعد الزوال، وفى الحين تسارع إليه همج الرعاع وقتلوه بالضرب والحجارة والعصى وتركوا جثته ملقاة على الأرض بباب داره، وانتشروا فى أزقة المدينة يسرقون ويخطفون، واغتنم اللصوص النهابون تلك الفرصة لما علموا من أن من فرص اللص ضجة السوق والمجانين من الأوباش، وكثيرا ما هم يضحكون ويمرحون، ومن علم أن الفتنة أشد من القتل وتيقن المثال وذلك أول شرر لا ينطفىء وقع فى المغرب بكى واستبكى وتكلم وتألم.

ثم لما اتصل بالعامل هذا الخبر المحزن والحادث الجلل وهو إذ ذاك الحاج عبد السلام الورزازى قام من حينه يبكى بكاء الثكلى، ووجه قوة كافية من أعوانه لتسكين روعة البلد، وذهب هو بنفسه فى لفيف من أعوانه لمحل القتيل، ووقف

عليه حتى جهز ووضع فى تابوته وحمل لمضجعه، وحضر فى معية العامل المذكور من كان بمراكش من الأوروبيين .

ثم فى يوم الجمعة الرابع عشر من صفر المذكور بقى احتلال وجدة من غير مقابلة ولا مشاغبة أخذا بثأر اقتيل وطلبا للإنصاف من الفعلة والفصال فيما لها من الحقوق والدعاوى غير ما ذكر مما هو مسطور فى ظهير سلطانى خوطب به القائد عبد الرحمن بركاش وأعيان الصويرة ودونك لفظه:

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله ثم الطابع الشريف بداخله عبد العزيز بن الحسن الله وليه وبدائرته:

ومن تكن برسول الله نصرته إن تلقه الاسد فى آجامها تجم
من يعتصم بك يا خير الورى شرفا الله حافظه من كل منتقم

«خديمنا الأرضى القائد عبد الرحمن بركاش وأعيان أهل الصويرة المحروسة بالله وفقكم الله وسلام عليكم ورحمة الله ،وبعد فإن طبيبا فرنسويا كان مقيما بمراكش فركب علما بالمحل الذى هو به فتسارع الرعاع إليه وقتلوه، ومن قبله كان جرح فرنسويا آخر ببلاد تكنة، وكذلك فى طنجة كان قتل آخر من كبراء فرنسا، وكذلك بفاس جرح آخر».

ولما بلغ ذلك الدولة الفرنسوية حصل لها انزعاج واغتاظت لذلك وها لها ما وقع من هذه الحوادث التى يؤدى إليها طيش الرعاع الذين لا يعرفون مزية الهدنة والسكينة، ولا يتدبرون عواقب النزاع، ولا ينظرون لما نكابده من حسن المهادنة وسياسة الدفاع، مع أن ذلك لا حق له فيه من جهة الشروط، وأن المخزن قادر على رفع ما تشوشوا منه من غير ضرر منهم لصاحبة بطريق الإنصاف، وحملها الغيظ على احتلال عسكرها بوجدة طالبة الإنصاف، وقبض الحق فى هذه القضايا

و الفصال فيـما لها من الحقوق و الدعاوى وعلقت خروجـها من وجدة على إيقاع الفصال فى ذلك.

إذ حلولها مؤقت لأجل ما تطلبه من المعوضات لأجل ذلك وها نحن جادون فى مباشـرة وجوه الفصائل مـعها بما يقتضـيه الحق لها فى ذلك، ومجـتهدون فى ارتكاب العـلاج المخلص من ذلك، حتى يـخرج عـسكرها من وجدة بحـول الله ولأجل هذا كنا نحذركم ونحـذر غيركم من رعيتنا السـعيدة ونبالغ فى الاسـترعاء والإنذار خشية التورط فى مثل هذا، ونؤكـد عليهم فى إعلام جانبنا الشريف بكل ما تشوشـوا منه، ورفع أمره إلينا ليتـدارك على الوجه الأسلم من غير افـتيات ولا مديـد فى أحد، وعلى كل حـال فلا يأخـذكم هول ولا يروعكم تشويش، فـإننا بحول الله مهتمون بهذا الأمر، ومبالغـون فى معالجة حتى يخرج بسلام، فليسكن جأشكم ويطمـئن بالكم، لأننا لا نألو جهـدا فى صيانتكم والدفـاع عنكم بأموالنا ورجالنا بحـول الله حالا واسـتقبـالا، كمل الله المراد، ربنا وآتنا مـا وعدتنا على رسلك ولا تخذنا يوم القـيامة إنك لا تخلف الميـعاد، والسلام فى ١٨ صفـر عام ١٣٢٥». انتهى. من أصله.

ثم بعـد مدة قـدمت على مراكش لجنة أوروبيـة بقصـد البحث فى السـبب الداعى لقتل ذلـك الطبيب ومن تولى قتلـه والحامل عليه، فـهيأ لهم عـامل البلد المذكور مـأدبة فاخرة، ولما أحضـر لهم الطعام امتنعـوا من الأكل، وقالوا إنما أتينا للمباحثة لا للمواكلة، فلم يزل يلين لهم القـول ويلاطفهم ويستعطفهم حتى أكلوا وزال ما بهم، ثم بعد الفراغ من الأكل بحثوا العامل عمـا ذكر بحثا مدققا، فحقق لهم أنه لا علم له بشيء ما أصلا حتى وقعت الواقعة.

وقد كـشف الغيب بعد ذلك أن الذى أغـرى على قتله هر رجل من الألمان كان قـاطنا بمراكش، له إلمام ببعض العلوم الإسلامـية، وكان كـثيرا ما يتـذاكر فى

تفسير القرآن ويتردد على العلماء ويحبب للمغفلين سيرة دولته، أوعز هذا الألمانى لبعض الأغبياء الساقطين أن الطبيب المذكور عازم على نصب الراية الفرنسية بمحله، وتلك دسيسة يدسها لهم، وحضهم على منعه من ذلك والتعرض له والقيام فى وجهه ولو أدى الحال إلى قتله فإنه لا ينتطح عليه عنزان.

ثم بعد مدة أمر السلطان بتوجيه ولد العامل المذكور صديقنا الفقيه البركة السيد محمد للمحاكمة بطنجة، ثم بعد أخذ ورد وبحث وتنقير اتضحت براءة العامل من كل تهمة ألصقت بجنبه فى قضية القتل، وأنه لا مسئولية عليه ولا على أحد من أولاده وعشيرته.

وبعد ذلك صدر الأمر بإلقاء القبض على المتهمين بالقتل فوقع القبض على خمسة عشر رجلا، وأودعوا سجن مراكش، ثم نقلوا لسجن الصويرة وذلك فى يوم السبت الخامس عشر من ربيع الثانى ثم نقلوا لسجن طنجة، ثم ردوا لسجن الصويرة بطلب من النائب الفرنسى بها حسبما وقع التصريح بذلك فى ظهير سلطانى، ودونك لفظه بعد الحمدلة والصلاة والطابع الكريم:

«خديمنا الأرضى القائد عبد الرحمن بركاش وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله، وبعد: فبعدما كان ورد لطنجة على يديك مساجين أهل مراكش المقبوضون فى قضية الطبيب موشان القتيل بمراكش، جاء نائب الفرنسيس فى ردهم للصويرة ليكون بحثهم بها على يد القنصل المكلف بالقضية، وقد اقتضت المصلحة المساعدة على ما ذكر، وأمرنا خديمنا النائب الحاج محمد الطريس بتوجيه المساجين المذكورين بحرا إليك صحبة من يعينهم لمصاحبتهم، ونأمرك أن تقبلهم وتختلى بهم بنفسك حتى تستوعب كلامهم وتستخرج ما فى بواطنهم لتكون على بصيرة ثم تدعهم السجن، وإذا كتب لك خديمنا المذكور بالتنبيه على ما تسلكه فى شأنهم بما يثبت أقدامهم عند مباحثاتهم، فنأمرك أن تجرى فى ذلك على ما تقتضيه المصلحة

مع الأخذ بالحزم والاحتياط ، وإذا طلب القنصل المذكور إحضارهم للبحث، فإن أمكن أن يكون بحثهم بمحضرك فهو أولى، وإلا فيكون بمحضر من يمكن حضوره من نوابك النبهاء ولا تحتاج لزيادة إيضاح فى بيان المقصود مما ذكر، والسلام فى ٨ رجب عام ١٣٢٥».

احتلال الدار البيضاء:

ومن ذلك واقعة الدار البيضاء التى هى من أعظم الوقائع الشنيعة المفتتة للكبد القاضية على قوى المغرب المادية والأدبية بالوهن والانقضاء، تلك الواقعة التى تنفس بها صبح الخطوب فى أعماق القلوب، قام بحمل أعباء طامتها الكبرى جهال رعاع الرعية وأخلاط الأوباش وسفهاء الأحلام، من سخفاء عقول قبيلة الشاوية الذين لا يتدبرون العواقب، ولا يعلمون أن الإنسان لا يحصد إلا ما بذر.

وذلك أن الدولة المخزنية المغربية لما انهد ركن سياستها المتين بموت صاحب الترجمة، فرزنت فيها البيادق ووسد الأمر لغير أهله، وصارت الرءوس أذنابا والأذناب رءوسا، وانفجرت براكين الاستبداد التى هى ثمرة الإفراط فى الضغط، وفشا ذلك فى الحواضر والبوادى وعم جميع البلاد، ونامت الصقور، وصرخت الديكة، وادعى الصعلوك أنه ابن جلا، وأينعت أغصان التشاجر والتنافس فى أفخاذ من قبيلة الشاوية المذكورة، وارتأت أن الخروج عن طاعة السلطان متجر ربيح، وتمكن فى قلبها حب البغى والعدوان، وجار القوى على الضعيف، وغدا الفساد فى كل آونة يزداد، ورؤساء الدولة لا يستطيعون لرتق ذلك الفتق حيلة ولا يهتدون سبيلا بل هم فى غمرة ساهون، وعن الأخذ الأحوط لاهون، إلى أن مدّ يد العداء بعض الرعاع من سماسرة الفتن الموقدين لنارها من جوار الدار البيضاء وبالأخص مديونة وأولاد زيان، كما عينهم ظهير سلطانى شريف دونك لفظه:

«خدامنا الأرضين أمناء الوضع بمرسى الدار البيضاء المحروسة بالله، وفقكم الله وسلاما عليكم ورحمة الله وبعد وصل كتابكم بشرح الواقع هنا كم من رعاع مديونة وأولاد زيان وأنكم قائمون على ساق فى ترتيب العسة لحراسة الديونات وخزائنها وصار بالبال، فقد بلغ ذلك لشريف علمنا وأمرنا فيه بالمتعين، ولتردوا البال لصيانة الديوانات والخزائن، والسلام فى ٢٧ جمادى الثانية عام ١٣٢٥».

وقد عاث المذكورون بأطرافها وقتلوا عددا من النصارى خارجها بسبب جلوس مراقب فرنسى مع أمناء مرسى الثغر المذكور للمراقبة على المداخيل المعينة لهم التى هى ستون فى المائة من مَدْخول المراسى كما ينبئ عن ذلك ظهير شريف عزيزى دونك نصه بعد الافتتاح.

«خدامنا الأرضين أمناء الموضوع بمرسى الدار البيضاء، وفقكم الله، وسلام عليكم ورحمة الله، وبعد: فنأمركم أن تكونوا تدفعون للأمين الطالب العربى بن كيران ما يتحصل لجلب المخزن فى مدخول الأربعين فى المائة السالمة له كل يوم بيومه، وأن تكونوا تعلمون جنابنا العالى بالله فى كل أسبوع بقدر ما حازه فيه وأن يكون ابتداء إجرائكم هذا العمل من يوم التاريخ الذى هو الثامن والعشرون من رمضان هذا، والسلام فى ٢٨رمضان عام ١٣٢٦».

وهذا القدر عليه كانت وقعت المصادقة من الجناب العزيزى والدولة المقرضة له دولة فرنسا، ولم يزل عتو أولئك الغوغاء يتفاحش حتى أوجس القنصل الفرنسى بالثغر المذكور فى نفسه خيفة اضطر بسببها إلى إنزال بعض عسكرهم من مركب حربى كان لهم هناك، فلما نزلوا تعرض لهم بعض أهل الطيش بالضرب، وجرحوا منهم كبيرا وخمسة أنفار من العسكر، على ما سيمر بك إيضاحه.

وكانت المدة التى وقع الاتفاق بين السلطان مولاى عبد العزيز وبين الدولة الفرنسية على جلوس أحد الفرنسيين مع أمناء الديوانة بصفة كونه مراقبا خمسة أعوام حسبما وقع التصريح بذلك فى ظهير عزيزى شريف دونك لفظه:

بعد الحمدلة والصلاة والطابع الكريم:

«خديمنا الأرضى القائد عبد الرحمن بركاش وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله، وبعد فلأجل مصلحة تحسين خدمة المرسى وزيادة الضبط فى عملها اقتضى نظرنا الشريف على وجه الاختيار تنفيذ إجراء عمل المراقبة بالفعل على يد أرباب القرض الفرنسوى الجارى بجلوس أحد الأعضاء منهم بالديوانة السعيدة مع أمنائها لمدة خمس سنين من تاريخ الشروع فى العمل، وقد أصدرت شريف أمرنا للأمناء المذكورين بقبوله للجلوس معهم وتمكينه من التصرف على مقتضى ضابط خدمته وعليه فنأمرك بقبوله لذلك والكون منه على بال وشد عضده فيما يتوقف عليه من أمور تكليفه الراجعة لخدمة المرسى، وضبط جميع أعمالها، والسلام فى ١٠ جمادى الأولى عام ١٣٢٥».

ثم ثار كمين الفتن ولم يزل شرر شره يتطاير إلى أن عمد ذات يوم لفيف من تلك القبيلة الباغية المتمردة لشاطئ البحر ،حيث يبنى المرفأ لمرسى ثغر الدار البيضاء الذى كان وقع الاتفاق على بنائه بين السلطان أبى فارس عبد العزيز وإحدى الشركات الفرنسية، وذلك لما رأى السلطان أن من المصلحة العائدة على بلاده وتوسيع نطاق تجارة رعيته وغيرها ممن يتجر بها من الدول الأجنبية الأوربية النازلين بإيالته، بناء المرفأ لتلك المرسى بناء نظاميا على الطراز العصرى، وبكل أسف فإن القابض على زمام إدارة الحكومة لم يتخذ فيما رامته الاحتياطات اللازمة لردع المفسدين وكسر شوكتهم بترشيح رجال حنكتهم التجارب للوقوف على تنفيذ ذلك الأمر المهم كما يجب، بل عزلت باشا ذلك الثغر الذى كان يعرف من أين تؤكل الكتف، وعينت خلفا عنه أبا بكر بن بوزيد السلوى، فحقد المنزوع وتجرد لإغراء إخوانه على إيقاد نيران الفتن وتشويش راحة البلد فأجابوه لذلك، والباشا الجديد أخلد إلى العجز، وأظهر غاية الجبن، وأبان عن عدم لياقته وكفاءته لما رشح له.

ولما تم الاتفاق على الوجه المذكور شرعت الشركة المذكورة فى مد السكك الحديدية لسير القطار المعد لحمل الأنقاض اللازمة للبناء رفقا بالعملة وتسهيلا عليهم فاتخذ أولئك الرعاع الأخساء مكايد توصلهم لتكسير ذلك القطار شأن العتاة الأغبياء الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ،المقرون تدبيرهم بتدميرهم وأعانهم على سوء فعلهم قرينهم اللعين.

ولما وقع القطار فى شبكة مكرهم بجعلهم أحجارا وأعوادا فى ممره انقلب وتكسر ومات بسبب ذلك تسعة من العملة الفرنسيين وأسبانيين وإيطاليين، فمن الفرنسيين سائق القطار وهو المسمى (ربات) ورئيس الخدمة بمعدن الحجر ثم ذهبوا للمعدن وقتلوا من وجدوا به من العملة وذلك يوم الثلاثاء التاسع عشر من جمادى الثانية عام خمسة وعشرين وثلاثمائة وألف موافق ٣٠من يوليو سنة ١٩٠٧.

ثم إن أولئك الهمج لم يقفوا بخبثهم عند ذلك الحد بل دخلوا البلد ومدوا يد النهب والقتل وجاسوا خلال الديار والأسواق ،وعززهم من استهوته الشياطين ممن هو على شاكلتهم من العسكر المخزنى المنظم الذى كان هنالك وأخلاط أهل البلد، فلم يتركوا بابا من أبواب الفحش إلا وطرقوه، ولا نهجا من مناهج الفسوق إلا سلكوه، نهبوا الديار والدكاكين والأبناك والملاح وأوقدوا النار فى جميع تلك الأمكنة، وبالأخص جهة باب الرخى، وذلك بعد نهب ما بها من أموال ومتمول، ودام القتل والهرج والمرج بالبلد ثلاثة أيام بلياليها فعظم الخطب، واشتد الكرب، والولاة الذين بيدهم السلطة المخزنية أغلقوا عليهم أبواب بيوتهم وناموا وتركوا عيون العدا ساهرة.

ولما تلاطمت أمواج الفساد، واضطرمت نيران الفتن وماج الناس بعضهم فى بعض وبلغت القلوب الحناجر، واختلط الحابل بالنابل، وجهت الدولة الفرنسية إحدى بوارجها المعدة للمياه المغربية المسماة (كليلى عدد٦٦) حاملة لفرقة حربية

لحراسة قنصليتها طبق ما أشرنا إليه تنتظم تلك الفرقة من ستة وستين جنديا، فأخبر القنصل الذى كان تم عامل البلد إذ ذاك وهو بوبكر بن زيد السلاوى المذكور بنزول الفرقة المذكورة للصدد الذكور وحذره من التعرض لها بسوء وأعلمه أنها إذا مست بسوء، فإن البارجة الفرنسية لابد من أن تضرب البلد فتكون العاقبة وخيمة.

فاستشار العامل المذكور فى ذلك مولاى الأمين بن الأمير مولانا عبد الرحمن بن هشام الخليفة السلطانى فى ذلك الحين هنالك، فأجابه بأنه لا دخل له فى صعود ولا هبوط، وإنما هو مكلف بحماية البلد من عيث فساد الشاوية، ثم جمع العامل المذكور بعض أعيان البلد وفاوضهم فى الأمر فأشاروا عليه بغض الطرف عنهم تحرزا من وقوعه فى ورطة المسئولية التى لا تحمد عقباها مع السلطان.

فاستحسن رأيهم الفاسد، ونظرهم الكليل الكاسد، فأمر أحد أعوانه المدعو البدوى بأن يأذن للمكلف بفتح باب مرسى الثغر قبل الوقت المعتاد لفتحه، والمكلف إذ ذاك المدعو محمد ـ فتحا ـ ابن القلوبى، فامتثل ما أمر به، ولما فتح الباب وجد القارب الحامل لتك الفرقة على الشاطئ والعسكر شاكى السلاح فرام سد الباب فى وجهه ثم التفت أحد البوابين الذين كانوا هناك قيل لم يعرف وقيل هو محمد الحيانى المسفيوى لمن حوله من حرس وقال قوموا اضربوا على أنفسكم وأولادكم يا كلاب، فإن النصارى جاءت لأخذ بلادكم فقام بعض منْ لا يبصر رشده من الحمقى وأطلق بندقة، فى وجهه تلك الفرقة. ثم عزز فعلة المشئوم أحد المكلفين بحراسة الصقالة من رماة المدافع وهن محمد وشت - بنتح الواو وسكون الشين المعجمة والتاء المثناة - الحداد حرفة بكورة إذ كان العامل المذكور أوعز لهم ضرب تلك الدارعة، إذا هى ابتدأت الضرب.

فعند ذلك تراصت تلك الفرقة على صف واحد وأطلقت بنادقها على من

رام مقاومتها واقتحمت باب المرسى ودخلت البلد عنوة بعد أن تركت المبتدئين لها بالضرب صرعى، وجرح بعض الضباط منهم وهو الفسيان (بلاند) السمى باسمه الشارع الممتد من ضريح أبى الليوث إلى الباب المجاور للسقالة القديمة المقابل الآن للبستان العمومى الكائن بحومة أبى الحسن علال القروانى صاحب المزارة الشهيرة إلى الآن بذلك الثغر، واثنان من البحارة، ثم إن الفرقة المذكورة توجهت لدار قنصليتها شاهرة سلاحها تطلق بنادقها على كل من صادفته فى طريقها.

ولما وصلت دار القنصلية وجدت الحرس المخزنى المعد لحراستها على الباب فقام وأدى التحية العسكرية، فأطلقت فيه تلك الفرقة مكاحلها وارتقت على سطوح الدار وصارت تتابع طلقاتها النارية على سائر المارة من جميع الجهات حيث كانت تعتقد عداء الكل، كما أن الدارعة المذكورة صات تمطر البلاد بوابل كور مدافعها المدمرة وذلك قبيل بزوغ شمس يوم الاثنين خامس عشرى جمادى الثانية من العام المذكور، موافق خامس غشت سنة سبع وتسعمائة وألف.

وفى زوال اليوم نفسه وردت على الثغر المذكور دارعة أخرى تسمى (دوشيلة) حاملة لفرقة عسكرية أخرى أنزلتها تعزيزا للأولى تنتظم من مائة وعشرين جندى يرأسها الكمندان (مانجان)، وشاركت الدارعة كليلى فى إطلاق القنابل على المدينة، وفرق الكمندان المذكور العس على دور القناصل الأجنبية كالسويد والإنجليز والبرتغال وأسندت إليه قيادة الجيش النازل ونظم البوليس فأحسن التنظيم والإدارة.

هذا والمخزن باذل جهده فى تطمين قلوب الرعية ونشر المكاتب لعمالة وولاة أمره بتحقيق الحقيقة وتقريرها لأولى العصبة من القبائل.

قرأت فى ظهير سلطانى عزيز بالتاريخ المذكور مخاطب به باشا الرباط فى وقتنا الحاضر، حبنا السيد عبد الرحمن بركاش باشا الصويرة إذ ذاك بعض ما يتعلق

بما شرحناه جلبنا نصه هنا تتميما للفائدة ودونك لفظه بعد الحمدلة والصلاة والطابع المنيف:

«خديمنا الأرضى القائد عبد الرحمن بركاش وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله، وبعد فإن بعض الرعاع من القبائل المجاورين لثغر الدار البيضاء مدوا يد العداء بخارجه بسبب جلوس المراقب الأجنبى مع أمناء الثغر المذكور، وصاروا يتحدثون فى ذلك بأقوال غير مقبولة ولا معقولة لجهلهم بحقيقة الأمر وعدم معرفتهم إياه، لأن جلوس هذا المراقب مع من ذكر تقدمت له نظائر عديدة فى عهد سيدنا الجد رحمه الله، وفى حياة سيدنا المقدس بالله للمراقبة على مال السلف الذى كان بحوزته من المراسى فى السلف الذى اقترض منهم وقتئذ، ولما توصلوا به انصرفوا لحالهم وهكذا هؤلاء المراقبون الذين جلسوا الآن بالمراسى فإنهم فإنما جلسوا للمراقبة على مال سلفهم الذى اقترضه منهم المخزن على القاعدة الجارية فى ذلك من قديم الأعصار، وبمجرد ما يتوصلون به ينهضون لشأنهم كذلك ولا ضرر على المسلمين.

ولو كنا نعلم حصول أدنى ضرر لهم من ذلك ونحوه لدفعناه عنهم بأى وجه أمكن، نعم إن حدث عندهم ما فهموا فيه ضررا فليرفعوه لحضرتنا الشريفة على يد عاملهم لننظر فيه، فإن ظهر وجه لكلامهم ينفذ الأمر فيه بما يتعين، وإلا يجابون بما يرفع عنهم الإيهام والإشكال، وعليه فنأمرك أن تكون على بال من القبائل الذين بناحية ذلك الثغر إن حركوا معك كلاما فى ذلك لتجيبهم بما قرر لك على الوجه الذى يفهمون منه المقصود ولا يبقى عندهم إشكال فى حقيقة الأمر بحول الله، وها نحن كتبنا لهم بذلك أيضا حسبما يصلك لتتركه تحت يدك احتياطا إن حدث ما يوجب دفعه لهم تجده تحت يديك، وإلا فاتركه عندك حتى تنكشف تلك العوارض ورده لحضرتنا الشريفة والسلام فى ٢٥ جمادى الثانية عام ١٣٢٥».

ثم فى اليوم نفسه فى الثانية بعد الزوال وردت بارجة إصبانية صغيرة من جزر كنارية على الثغر المذكور حاملة لفرقة عسكرية لحماية قنصليتها أيضا، وعززت الدارعتين الفرنسيتين فى صب هاطل الكور على البلد، وكان الضرب بالغا حده فضج الناس وافتتنوا ولم يجدوا ملجأ ولا منجى وظل بعضهم يموج فى بعض كأنهم سكارى يعربدون ونار الفتن تتوقد وشرر زفيرها يتطاير فى قلوب العجزة من الرجال والنساء والصبيان.

ولما جل الخطب وطم أمرهم الخليفة المولى الأمين المذكور بعد الموافقة مع القنصلية الفرنسية بالخروج للمحل المعروف بالسور الجديد الذى كان محل تخييمه بالقوة التى كانت إلى نظره من عساكر وخيل ورماة، وصرح لهم بأن كل من حل به فهو آمن على نفسه وماله فانقسم الناس قسمين:

قسم ائتمر بما أمر به الخليفة المذكور فخرج مسرعا إلى السور الجديد حيث القوة المخزنية ومثوى الخليفة السلطانى الذى جاء لحياطة البلد وذويها.

وقد كان هو دخل المدينة يوم الجمعة بقصد إطفاء نار الفتن وإجلاء البادية عن البلد ونزل بدار المخزن هناك وأقام بها يوم السبت والأحد وفى صبيحة يوم الاثنين وقعت الواقعة.

ولما خرج من خرج للسور الجديد حيل بين مولاى الأمين الخليفة المذكور وبين ما أراد من اللحوق بعائلتة والقوة التى كانت معه لتفاحش عيث المفسدين فى الطريق ولم يبق معه بالمدينة غير وصيف وطباخ.

وفى عشية يوم الأربعاء سابع عشر موافق سابع عشرى جمادى المذكور أطلقت الدارعتان الفرنسيتان قنابلهما على الملتجئين بالسور الجديد حيث رأت أحزاب العتاة المسدين تجمهرت حولة ورامت الهجوم على من به وقصدهما تبديد

جموعهم وتشتيتهم حتى لا يلحق من بالسور منهم أدنى أذى وعزتهما الدارعة الإصبانية فسار الكور ينزل على المفسد والمصلح وعم البلاء واشتبك وارتبك لعدم إمكان التحرز ولأن الخبث إذا كثر هلك الصالح والطالح فهلك عدد عديد من أولئك البؤساء المرعوبين الجياع العطاش المسلوبين المنهوبين الذين كانوا بالسور الجديد، وولى الثوار ناكصين على الأعقاب ولم يبق واحد منهم يروج بالمدينة ولا يحوم حول السور.

وفى عشية ذلك اليوم نزل بالبلدة المذكورة القائد الجنرال (درود) واحتل البلد بخيله ورجله، وتم الأمر على يده وانتشر الهدوء والسكون.

ثم بعد ذلك نزلت فرقة من العسكر الإصبانى للاحتلال أيضا واتخذت المساجد أروية لربط بهائمها وألواح الصبيان الذين يقرءون القرآن حطبا وبالغت فى الإفساد والتدمير داخل المدينة وخارجها.

أما القسم الآخر فإنه انقسم إلى قسمين: قسم خرج ناجيا بنفسه إلى البادية للاستيجار بمن له به صداقة وسابقية مودة عساه أن يؤمن روعته، ويرحم لوعته، وقسم التجأ بدور بعض القناصل فانقلب على الحضرى الناجى بنفسه البدوى الأجلف الذى كان صديقا حميما عدوا مبينا فكان الحضرى يلقى صفيه البدوى فيحن له ويرتاح لرؤيته فيبادره بجفائه الغريزى المركوز فى طبعه الخشن ويقابله بكل شدة وقساوة ويجرده من كل ما عسى أن يكون عليه من الثياب أو بيده من المتاع قل أو جل، ويتركه مكشوف العورة صفر اليدين ويقول له أنا أولى بسلبك من غيرى بلغ بهم الإفراط فى الخبث والدناءة إلى أن شقوا بطن امرأة حامل وأخرجوا جنينها منها ظنا منهم أنها ابتلعت نقودا، ومخضوا شريفا مخضا ذريعا لاتهامهم إياه ببلع نقود كذلك.

وكم افتضوا من أبكار واسترقوا من أحرار، فمن جملة من استرق وبيع



الخليفة مولاي الأمين رئيس لجنة التعويضات ببزته الرسمية بالوسط وعن يمينه الأمين الصديق احرضان الطنجي وعن يسره الأمين بناصر غنام الرباطي مع نواب الدول والتراجمة والكتاب.

عبد الكريم نجل صديقنا ناظر الأحباس فى ذلك الحين بذلك الثغر السيد إدريس الفيلالى، ثم بعد أخذ ورد أدى والده لمن كان اشتراه قبل مائة ريال سكة حسنية.

ثم بعد انجلاء غياهب هذا الحادث المدلهم جمعت أكداس تلك الجثث المنتنة وذلك ثامن غشت وألقيت فى أخدود وصب عليها الكاز وأطلقت النار وردم رمادها ورفاتها بالمحل الذى صار الآن جنانا عموميا مقاومة لتلك الروائح الكريهة المؤذية، وتحفظا عما ينشأ عنها من الأضرار الفتاكة المعدية المعدمة، وكان المكلف بجمع تلك الجثث والأشلاء المعين (بريط) الفرنسى الولوع بجمع الآثار العتيقة والنقود الثمينة الشهير إلى الوقت الحاضر بالدار البيضاء .

أخبرنى أنه مات من اليهود نيف وأربعون، وجرح منهم خمسون، واختطف من فتياتهم مائه وخمسون كما اختطف من المسلمات عدد عديد.

وبعد إطفاء نيران الفتن بالدار البيضاء قام أهل الحمايات بطلب تعويض ما ضاع لهم فى الواقعة ومن نهبت له عشرة ادعى بالآلاف وشددوا فى ذلك وأفرطوا، فأصدر السلطان ظهيرا بتشكيل لجنة تنظر فى الخسائر وعين أعضاء من الوطنيين والأجانب وإليك نص الظهير.

بعد الحمدلة والصلاة.

«يعلم من كتابنا هذا أعلى الله مقداره، وثبت على الهدى مزاره، أننا أذنا بتشكيل جمعية بثغر الدار البيضاء للنظر فى الخسائر الحاصلة بالثغر المذكور وقت حادثته للأهالى والأجانب وتحقيق الحق عنها وإبطال الباطل وتقدير التعويضات اللازمة فى ذلك بموجباتها، وعيّنا من قبل جانبنا الشريف عمنا الأرضى مولاى الأمين للرياسة عليها وخديمنا الطالب بناصر غنام معتمدا أولا والطالب الصديق احرضان معتمدا ثانيا والطالب الحسن كاتبا ليقوموا بالمتعين فى ذلك مع الأعضاء

المعينين من قبل الدول المحترمين ذوى العلاقة بالموضوع ويجروا فى تحريرهم كذلك على طريق العدل والإنصاف ويعينوا المختبرين والمفتشين المحليين لأعمال الأبحاث الابتدائية، وأضفنا لأعضاء المخزن المحامى والمستشار إبراهيم بمنت والترجمان كرم والسلام، صدر به أمرنا الشريف فى ٢٧ ربيع الثانى عام ١٣٢٦ .

والأعضاء الأجانب المشار إليهم فى الظهير هم: معتمدوا ألمانيا وإصبانيا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا والبرتقال وهؤلاء مع نواب المخزن هم الذين لهم الحق فى النظر فى كل دعوى تعرض على بساط اللجنة، بخلاف النواب الخصوصيين، وهم نواب أميريكا والنمسا وبلجيكا والسويد والدانمرك وهولندا، فلم يكن لهم حق فى سن ضابط ولا إبداء رأى فى غير دعاوى تابعيهم، وقد ناب عن السويد معتمد دولة الألمان وعن الدانمرك المعتمد البريطانى.

أما الدولة العلية العثمانية فكان ابتدأ بمباشرة دعاوى تابعيها وهى أربعة دعاوى معتمد فرنسا بصفة نائب الرئيس ثم بعد أن أعلنت قنصلية إنجلترا بالثغر أنها كلفت رسميا بحماية رعايا تركيا رجع إلى مباشرة الدعاوى المذكورة معتمد إنجلترا (المستر تورون).

فكان عدد الدعاوى التى عرضت على البحث ٣٥٠٦، والقيمة المدعى بها فرنكات ١٧،٣٦٦،٤٧٨،٢٦ والقيمة التى حكمت بها اللجنة فرنكات ١٣،٠٦٩،٦٤٢،٥٧ .

ثم أضيف لذلك دعاوى تقدمت على المواضع والأملاك التى احتلتها الجنود الفرنسية الإصبانية وعدد دعاويها ٦١ والقيمة التى حكمت بها اللجنة الدولية فرنكات ١٩٥، ٨٥،٧١٠ .



رئيس اللجنة التنجيزية لأداء غرامة الدار البيضاء الخليفة السلطاني سيدي محمد الأمراني عن يساره الحاج عبد الرحمن لحلو وعن يمينه الأمين السيد العربي بن كيران هؤلاء الثلاثة مغاربة وعن يسار الحاج عبد الرحمن لحلو طيطوتي نائب إيطاليا وبينه وبين الخليفة السلطاني ثورن الإنجليزي ورريو الفرنسي ولابليخا الإصباني وبين الخليفة السلطاني وابن كيران شامبير ونفرو ومكري الفرنسي كاتب اللجنة.

ولم يتم أمر ذلك حتى جاءت الدولة الحفيظية، وتخلى الخليفة المولى الأمين عن وظيف الخلافة، وولى مكانه أبو عبد الله محمد الأمرانى آتى الترجمة، وفى مدة توليتة تمت المسالة ووقع الأداء بطنجة.

هذا وأما أبو زيد عامل البلد المذكور فقد ألقى عليه القبض وثقف على ظهر الدارعة «كليلى» عقوبة له على ما أجرم ثم سرح بعد.

ووقع القبض على بعض النهاب، وأعدم البعض منهم حينا ودفن ما يزيد على ثلاثمائة من المسلمين، ووجد بين الأسوار وتحت أطلال الهدم والردم والجهة التى خرقت عدد عديد من الجثث.

ثم بعد التطهير بالحريق ابتدئ فى تنظيم أمور الديوانة، وكان المتولى للأمر إذ ذاك (الكمندان منجان) وعلال بن عب الطنجى خليفة الخليفة السلطانى المذكور.

وأما السور الجديد - الذى ذكرنا أن الناس التجأوا إليه لما دهاهم من ضرب الدوارع الحربية ما دهاهم - فهو عبارة عن فسيح يحتوى على عدة هكتارات محاط بالسور من جهاته الأربع، بها أبراج محكمة البناء كان بناه السلطان المقدس مولاى الحسن وقصده أن يتخذ قصبة تختط بها دور الأجانب الأوروبيين النازلين بذلك الثغر من قناصل وتجار وغيرهم سعيا وراء جلب الراحة إليهم، وإبعادا لهم عمن يخالفهم فى العوائد ويباينهم فى الذوق، إذ لا تتم الراحة للإنسان إلا بجعله مع مجانسه وملائمه وتمكنه مما اعتاد على الطراز الذى ألف من غير منتقد ولا مشغب وكان بناؤه إياه على يد الأمينين محمد بن سعيد المعروف بالكدر، ثم الحاج عبد الخالق فرج محتسب الرباط الشهير بالمواقف والمناقب والغيرة الوطنية والصدق والإخلاص والأمانة، ثم لما مات السلطان البانى ولم يتم ما كان أراد بقى المحل معدا لتخييم الجيوش المخزنية وقتما مرت بذلك الثغر، وقد تفسح فيه أهل

البلد عند فراغه من الجيوش وبالأخص فى زمن الربيع، وتقام به نزهة سلطان الطلبة، ثم بعد الواقعة أحدث فيه شارع عمومى.

واتخذ بجانب منه مستشفى عسكرى لا زال قائم العين إلى الآن.

ولقد كان لهذه الحادثة الحالكة دوى ورنة فى العالم تناقلتها ألسنة الجرائد الرائجة فى ذلك العصر عربية وعجمية وذهب الكتاب فى أسبابها كل مذهب كل على حسب أغراضه الشخصية ومغامزه السياسية والحقيقة وراء جل ما حبروا وخبروا.

ومدينة الدار البيضاء هذه هى المعروفة فى كتب التاريخ قديما باسم آنفا، وهى واسطة بلاد تامسنا وإحدى عواصم برغواطة، قد كان بعد تقلص ظلمهم أنزل بها يعقوب المنصور الموحدى عرب جشم بن معاوية وسليم وبنى هلال بن عامر، وقد هلك أكثر هؤلاء بالأندلس فى واقعة الناصر الموحدى فى قضية العقاب، فقل عددهم ووقع الفراغ المحسوس فى وطنهم، فلما كانت دولة بنى مرين عمد يعقوب ابن عبد الخالق لنقل طوائف من أهل المغرب الأوسط لما غلب على بنى زيان واستولى على جنوب بلادهم إلى جنوب الزاب، فكان ممن نقلهم لضواحى آنفا قبيلة المذاكرة من عرب سويد الهلاليين إخوة رباح، ومن المذاكرة قبيلة صبيح كان منهم فى دولة بنى مرين الوزراء وأرباب الدولة، ونقل معهم أوزاعا من توجين ومزاب من زناتة ومغراوة من زناتة أيضا، وأشغلهم بالقيام على إبل الدولة وشائها، فأطلق عليهم اسم الشاوية وذلك سنة ست وسبعين وستمائة وجعلوا مقر رياستهم مدينة آنفا ،فلم يلبسوا أن خالفوا على الدولة وقطعوا السابلة وأساءوا الجوار مع غيرهم، فزحف إليهم أبو ثابت بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المرينى سنة سبع وسبعمائة فأرغمهم على الطاعة وقبض على ستين رجلا من شيوخهم وأودعهم سجن قصبة آنفا، وقطع رءوس عشرين من عتاتهم قاطمى السبيل وصلبهم على أسوار آنفا.



باشا الدار البيضاء بوبكر ابن بوزيد على ظهر الباخرة أسيرا

وفى سنة ست وسبعين وستمائة نزل عليها أسطول البرتغاليين فهد أسوارها وخرب أبنيتها وصيرها أثراً بعد عين وذهب لحال سبيله، ثم نزل إليها سنة عشرين وتسعمائة فأسس بناءها وسماها بلغته الدار البيضاء، وكان اسمها فى القديم البيضاء كما ذكره أبو عبيد.

ولم يزالوا بها إلى أن أخرجهم منها السلطان سيدى محمد بن عبد الله سنة أربع وخمسين ومائة وألف، وعمرها بقبائل الشاوية أهل الناحية ،ولم يزل لملوك دولتنا من حفدته وبنيه اهتمام بها وبنظائرها من الثغور المغربية وحياطتها شرعا وسياسة إلى الدولة العزيزية.

ولنذكر لك جزيئات على سبيل التمثيل ليقاس عليها.

فمن اهتمامها أى الدولة العزيزية بحياطتها لو وجدت على ذلك أعوانا وأكفاء ما وقفت عليه فى ظهائر عديدة دونك لفظ أولها بعد الحمدلة والصلاة والطالع العزيزى الشريف.

«خدامنا الأرضين أمناء مرسى الدار البيضاء، وفقكم الله، وسلام عليكم ورحمة الله، وبعد: فقد أخبر الأمين الطالب عبد السلام والزهراء الرباطى بأن المهراسين الذين بالبرج اليزيدى أحدهما ملقى على الأرض والآخر بمحل الإشارة خارج البرج على سرير مكسر، وكانت له طبلتان تلاشى فراشهما واندثر بناؤهما بإهمالهما وتراكم الأزبال حولهما من النوائل والبناءات، وعليه فنأمركم بالوقوف على عين المحل الذى به مهراز الإشارة وتنظيفه وتصوينه ورده لحالته القديمة وتجديد سرير المهراسين كما كانا بما يحتاج إليه ورد البال لذلك فى المستقبل، وقد أمرنا العامل بالوقوف معكم وشد العضد فى ذلك والسلام فى١٧ جمادى الثانية عام ١٣٢٥».

ونص ثانيها:

«خدامنا الأرضـين أمناء مرسى الدار البـيضاء حـرسها اللـه، وفقكم الله، وسـلام عليكم ورحمـة الله، وبعد: فـقد بلـغ لعلمنا الشريف أن مـحل ترسيـة الفلائك بتلك المرسى مفتقر للتحـسين و الإصلاح، وأن صائر حصول المقصود من ذلك قوم بنحو سـبعة آلاف فرنك وعليه فنأمركم أن تشـرعوا فى إصلاح ذلك بما تحسن به هيئته من الصفات المرادة والسلام فى ٣٢ شوال الأبرك عام ١٣٢٥».

وينضاف إلى مـا ذكر من حـياطتهـا اهتمامـها بحـياطة الطرق والأطراف، ويكفى فى التنبية فـيه ظهيران شريفان وقـفت عليهما دونك لفظهما بـعد الحمدلة والصلاة والطابع الشريف :

«خدامنا الأرضين أمناء مـرسى الدار البيضاء المحروسـة بانله، وفقكم الله، وسلام عـليكم ورحمـة الله، وبعد: فـقد أخـبر القـائد قاسم 'الأودى أن المئـونة مقطوعة عن إدالة إخوانه الذين بقصبة الـصخيرات من وقوع الحادثة هناكم، وعليه فنأمـركم أن تبينوا مـا توفر لهم من المئـونة فى المدة التى لم يتوصلوا بهـا وتكونوا تؤدونها لهم على العادة والسلام فى ٥ قعدة عام ١٣٢٥».

«خدامنا الأرضـيين أمناء مـرسى الدار البيضـاء المحروسة باللـه وفقكم الله وسلام عليكم ورحـمة الله، وبعد: فقـد أخبرنا القائد قـاسم الأودى إدالة إخوانه الذين بقصبة الصخيرات يسألون للأمناء قبلكم من قبل مئونتهم واجب أربعة أشهر كمـا يسألون لكم واجب سـتـة أشهر دفـعتم لهم منهـا واجب شهر واحـد وعليه فنأمـركم أن تدفعـوا لهم ما يسـألونه لكم وللأمناء قـبلكم من قبل ذلك والـسلام فى٢٢حجة الحرام عام ١٣٢٥».

ونص آخر بعد الحمدلة والصلاة:

«خدامنا الأرضين أمناء مرسى الدار البيضاء المحروسة بالله، وفقكم الله، وسلام عليكم ورحمة الله، وبعد: فقد أخبر القائد إدريس بن العربى الأودى أن إدالة إخوانه الذين بقصبة الصخيرات يسألون من قبل مئونتهم المنفذة لهم بالمرسى هنا كم واجب عشرة شهور وقد لحقهم الضرر من ذلك وعليه فنأمركم أن تبينوا الواقع فى ذلك وذمة من توفرت لهم هذه المدة وقدر ما توفر لهم فيها والسبب فى عدم تمكينهم منها لنرى فى ذلك السلام فى ٣٢ حمادى الأولى عام ١٣٢٦».

وكذا اهتمامها بضبط الصادر والوارد الذى يكفى فى التنبيه عليه ظهيران شريفان وقفت عليهما ودونك لفظهما بعد الحمدلة والصلاة والطابع السلطانى:

«خدامنا الأرضين أمناء مرسى الدار البيضاء المحروسة، وفقكم الله، وسلام عليكم ورحمة الله، وبعد: فقد طلب من على جنابنا الفريلية الصبنيوليون إتمام الإنعام عليهم بعد بحث حوائجهم الخاصة بهم المسرح لهم دخولها بدون أعشار واستظهروا بظهائر شريفة لأسلافنا الكرام مصرحة بعدم فتح صناديقهم التى ترد لهم، وقد ساعدناهم على طلبهم ونأمركم أن تجروا حوائجهم مجرى حوائج القناصل فى دخولها من غير فتح ولا تفتيش والسلام فى ٢١حجة عام ١٣٢٥».

لفظ الثانى:

«خدامنا الأرضين أمناء مرسى الدار البيضاء المحروسة، وفقكم الله، وسلام عليكم ورحمة الله، وبعد: فالسلاح الذى تسرحون إدخاله للمرسى على مقتضى ضابطه نأمركم بأن تكونوا تقبضون من صاحبة ما يلزمه فى أعشاره بحسب عشرة فى المائة، لأن مضمن ما يأتى به إليكم من طنجة هو التسريح فقط لا إسقاط الأعشار، والسلام فى ٢٢ ربيع الثانى عام ١٣٢٦».

ومن اهتمامها بالملاجئ الخيرية فيها وأمر المسجونين ما وقفت عليه فى ظهائر شريفة عزيزة نص أولها:

نأمر خديمنا الأرضى ناظر أحباس الولى الصالح سيدى أبى الليوث بمحروس ثغر الدار البيضاء أن يكون يدفع الأجرة المتعارفة للمعلمين الذين يختانون الصبيان اليتامى وأولاد الضعفاء بالزاوية القادرية هنالك، وأن يكسوهم بما يناسب حالهم كل عام وقت الاختتان من فتوحات الولى المذكور والسلام فى ٨ ربيع الثانى عام ١٣١٦ .

ونص الثانى:

«خديمنا الأرضى ناظر الشيخ أبى الليوث بمحروسة ثغر الدار البيضاء، وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله، وبعد: فقد بلغ علمنا الشريف أن المرضى من الأفاقيين وأهل البلد الذين لا مأوى لهم يمرضون فى الطرقات وينقلون لبيوت خارج المدينة ويبقون هنالك حتى يموتوا جوعا وعطشا، وقد اقتضى نظرنا الشريف جمعهم بالبيوت التى قرب ضريح الشيخ المذكور، فنأمرك أن تجمعهم فيها وتخص الرجال ببيوت منها والنساء ببيوت منها كذلك بعد أن تصلح ما لا بد من إصلاحه منها وتزيد ما يتوقفون عليه من البيوت وتكون تدفع لكل مريض خبزتين أو ثمنهما فى كل يوم، ومن توفى منهم يقوم بتجهيزه ناظر المواريث، ومن حصلت له العافية بتوجه لحاله وتسقط مئونته، ومن زاد تزاد له مئونة أمثاله، وهكذا وقد أمرنا الخديم أحمد المديونى بالوقوف فى ذلك وشد العضد فيه حتى ينفذ شريف أمرنا على مقتضاه، والسلام فى ٦ قعدة عام ١٣١٨».

ونص الثالث:

«خديمنا الأرضى ناظر أبى الليوث وأحباس الدار البيضاء الطالب إدريس

الفيلالى وفـقك الله، وسلام عليك ورحمـة الله، وبعد: فقد وصل جـوابك عما أمرت به من تنفـيذ الخبز لـلمرضى والأفاقيـين وجعل البيـوت لهم، بأنك نفذت ترتيب الخبز لهـم من مستفاد الضـريح المذكور غير أن العامل أطـلعك على كتاب شريف بأن الصائر يكون من ربيعة الشـيخ مع أن الربيعة تفتح على يد أمناء المرسى والقاضى ويفـرق ما يوجد فيـها، فالثلث على الضـعفاء القاطنين بجـوار الشيخ، والباقى يصير فى ختان اليتامى وأبناء الضعفاء، وتعين عليك أن تصير على المرضى مما تحت يدك من المستفاد مبادرة لامتثال ما أمرناك به والعمل على ما يصدر لك فى المستـقبل، وعليه فإن الذى يكون عليـه عملك هو أن الصائر يكون ثلثـاه من وفر الأحباس الكبرى، والثلث الواحد هو الذى يكمل من فتوحات الولى المذكور، وما عداه من بقيـة الفتوحات ينفـذ فى مصالحه ووظائفه المعـهودة فيه، فليـجر عملك عليـه، وقد كـتبنا للقـاضى والأمناء والعـامل بمثله، والسلام فى ١٥ قـعدة عـام ١٣١٩».

ونص الرابع:

الحمـد لله وحـده وصلى الله على سيـدنا ومولانا مـحمـد وآله ثم الطابع الشريف بداخله عبد الحفيظ بن الحسن وفقه الله.

«خديمـنا الأرضى ناظر أحبـاس الدار البيضـاء وفقك الله، وسـلام عليك ورحمة الله، وبعد: فنأمرك بتنفيذ عدد الخبز الذى كان يدفعه أمين المستفاد كل يوم للأفاقيـين الذين بسجن البلد بعد تسـرادهم مرتين فى كل شهر، وصـير ذلك من جملة صوائر الأحباس، وقد كـتب لعامل البلد بذلك، والسلام فى ٢٨ محرم عام ١٣٢٩ استقل».

ونص الخامس:

«خدامنا الأرضين أمناء مرسى الدار البيضاء المحروسة وفقكم الله وسلام عليكم ورحمة الله، وبعد:

فقد أخبرنا باشادور الفرنسيس أن المقبرة المعدة لدفن الأجانب هنالك ضاقت عليهم وطلب زيادة بقعة أخرى بجوار المقبرة المذكورة وبمحل آخر يكون طولها خمسين مترا وعرضها كذلك ليجعلوه مقبرة لذلك، وقد ساعدنا ونأمركم أن تجتمعوا مع عمنا مولاى الأمين وأمين المستفاد والناظر وتتفاوضوا فى تعيين بقعة هنالك تصلح لما ذكر فى مجاورة المقبرة القديمة أو بمحل آخر وتبينوا قدرها وتوجهوا لشريف حضرتنا صورتها ليظهر، وقد كتبنا لعمنا المذكور والخدام المذكورين بمثله، والسلام فى ١١ قعدة ١٣٢٥».

ونص السادس:

«خديمنا الأرضى ناظر أحباس ثغر الدار البيضاء المحروسة، وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله، وبعد: فقد أخبر باشادور الفرنسيس أن المقبرة المعدة لدفن الأجانب هنالك ضاقت عليهم وطلب زيادة بقعة أخرى بجوار المقبرة المذكورة أو بمحل آخر، يكون طولها خمسين مترا وعرضها كذلك ليجعلوها مقبرة كذلك، وقد ساعدنا ونأمرك أن تجتمع مع عمنا الأرضى مولاى الأمين والخديم المديونى وأمناء المرسى وأمين المستفاد وتتفاوضوا فى تعيين بقعة هنالك تصلح لما ذكر فى مجاورة المقبرة القديمة أو بمحل آخر، وتبينوا قدرها وتوجهوا لشريف حضرتنا صورتها ليظهر، وقد كتبنا لعمنا المذكور والخدام المذكورين بمثله، والسلام فى ١١ قعدة عام ١٣٢٥».

ونص السابع:

«خدامنا الأرضين أمناء مرسى الدار البيضاء المحروسة بالله، وفقكم الله، وسلام عليكم ورحمة الله، وبعد: وصل جوابكم عن أمرنا الشريف الصادر لكم بالاجتماع مع عمنا الأمين والخديم المديونى وأمين المستفاد والناظر للمفاوضة فى تعيين البقعة التى طلب باشادور الفرنسيس زيادتها لدفن موتى الأجانب بها بجوار مقبرتهم القديمة ثمة، بأنكم اجتمعتم لذلك وبعد المفاوضة خرجتم لتعيينها صحبة القبطان نائب الفرنسيس ثمة وترجمان قنصلهم، فاختاروا البقعة التى سميتم ونفذ لهم القدر المطلوب منها وميزوه وشرعوا فى الدفن فيه وصار بالبال، والسلام فى ٢٦ صفر عام ١٣٢٦».

ومن اهتمامها بالتعليم ونشر العلم ما وقفت عليه فى ظهائر تتعلق بنصب المدرسين وتنفيذ الرواتب لهم وللخطباء دونك نص أحدها:

«خديمنا الأرضى ناظر أحباس الدار البيضاء حرسها الله، وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله، وبعد: فنأمرك أن تنفذ للطالبين المدرسين الواردين لهناك من فاس بقصد التدريس وبث العلم دارا من دور الأحباس لنزولهما وعشرين ريالا للواحد من مدخول الأحباس فى كل شهر حتى تكمل مدتهما وهى سنة واحدة ليعين بدلهما عند انقضائها بحول الله على يد قاضى فاس والسلام فى ١٦ جمادى الأولى عام ١٣٢٦».

ونص الثانى:

«خديمنا الأرضى ناظر أحباس الدار البيضاء المحروسة بالله الطالب إدريس الفيلالى وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله، وبعد: فقد أصدرنا أمرنا الشريف لقاضى فاس بتعيين فقيهين مدرسين وتوجيههما على يد خليفة العامل ثمة واصلين

للثغر المذكور بقصد بث العلم ونشره وتدريسه به والتمشى على الضابط المبين بطرته، وأمرنا أمناء دار عديل لتوجهه لهم من وفر الأحباس المذكورة بعد بيانه، وعليه فنأمرك أن توجه لهم ما يدفعونه لهما فى ذلك عند تبيينهم ذلك لك بفور وصوله إليك على يد العامل ثمة ليوجهه لهم بواسطة خليفة عامل فاس، فقد أمرناهما به كما نأمرك أن تعين لهما محلا مناسبا لهما للنزول وتنفذ لهما المئونة التى تحصل لهما للكفاية بها من الأحباس بعد إعلام جانبنا العالى بالله بقدرها والسلام فى ١٣ صفر عام ١٣١٦».

والضابط المشار له هو ما لفظه فى أول النهار نصاب فى المختصر بما يناسب المبتدئين، ومن الساعه العاشرة إلى الزوال نصاب فى التحفة كذلك، ومن الظهر إلى العصر نصاب فى النحو بالألفية، وبين العشاءين نصاب فى الرسالة أو المرشد، وفى بكرة الخميس أو الجمعة نصاب بالجرومية لصغار المتعلمين. انتهى.

ونص الثالث:

«نأمر ناظر الأحباس بالدار البيضاء حرسها الله أن يكون يدفع من مستفادها آخر كل شهر لكل واحد من الفقيهين السيد محمد بن الطاهر بنانى، والسيد محمد بن محمد الصنهاجى ثلاثين ريالا فى مرتبه الشهرى إعانة له على تدريس العلم الشريف بها والسلام، صدر به أمرنا المعتز بالله فى عشرى رجب الفرد الحرام عام ١٣١٦».

ونص الرابع:

«خديمنا الأرضى ناظر الأحباس بمحروس ثغر الدار البيضاء، وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله، وبعد: فقد أمرنا بإبدال الفقيهين المدرسين هنالك السيد محمد بنانى، والسيد محمد الصنهاجى، ونأمرك أن تدفع لكل منهما خمسين ريالا من وفر الأحباس صلة، والسلام فى ٢٥ رجب عام ١٣١٨».

ومن اهتمامها بضبط أحباسها ما وقفت عليه في عدة ظهائر تتعلق بضبط أملاك أحباسها والإسراع لتدارك إصلاح ما يفتقر للإصلاح من رباعها وضبط المتصرفين فيها ورفع حساباتها دونك لفظ أولها:

«خديمنا الأرضى ناظر الأحباس بالدار البيضاء حرسها الله، وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله، وبعد: فنأمرك أن تجعل تقييداً لجمع رباع الحبس الذى على يدك هنالك كل محل على حدته، وتقييد ما بإزائه اسم مكتريه وإن كان رعية فنبه عليه، وإن كان حماية فكذلك واذكر اسم حاميه، وإن كان أجنبيا فبين اسمه وجنسه، وقيد أمام اسم المكترى الكراء الذى يدفعه فى ضلع وما يساويه اليوم كراء فى ضلع آخر، ومن كان متقاعدا عن الأداء نبه عليه وبين سبب تقاعده، ثم قيد عقب ذلك المنفذ منها بدون كراء وبيد من هو، وهل يعتمره المنفذ له أو يكريه على يده، وهكذا إلى أن تاتى على جميعها على الوجه المذكور، ووجه التقييد بها واصلا لحضرتنا الشريفة والسلام فى ٢٨ جمادى الأولى عام ١٣١٥».

ونص الخامس:

بإمضاء النائب أبى عبد الله محمد بن العربى الطريس:

«الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله، محبنا الأرضى ناظر أحباس الدار البيضاء: أمنكم الله، وسلام عليكم ورحمة الله عن خير مولانا نصره الله، وبعد: فقد دعت الحاجة لمعرفة الأجانب وأهل الحمايات المتقاعدين على أملاك الأحباس هنا كم الممتنعين من إعطاء الواجب عليهم فيها، وعليه فبوصول هذا إليكم بينوا لنا كل من بيده ملك لجانب الحبس وهو متقاعد عليه ممتنع من أداء كرائه مع بيان قدر الكراء الذى يساويه كراؤه الآن، وعجلوا بذلك وعلى المحبة والسلام فى ١٠ رمضان المعظم عام ١٣٢٤ محمد بن العربى الطريس لطف الله به».

ونص السادس:

بعد الحمدلة وما يتبعها من السلام والطابع السلطانى العزيزى الكريم:

«خديمنا الأرضى ناظر الأحباس بالدار البيضاء حرسها الله، وفقكم الله، وسلام عليكم ورحمة الله، وبعد: فنأمرك أن تشرع فى إصلاح ما لابد منه من رباع الأحباس المتهدمة والمتخربة لما تقدم وقوعه هنالك وتتمشى على الضابط الممهد فى إصلاحها بعد تقديم الأهم فالأهم منها، ومراعاة المصلحة فى كل شيء، وقد أمرنا العامل بشد عضدك فيه والسلام فى ١٣ قعدة الحرام عام ١٣٢٥».

ونص السابع:

«خديمنا الأرضى ناظر أحباس الدار البيضاء، وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله، وبعد: فنأمرك أن توجه لشريف حضرتنا العالية بالله حساب مدة خدمتك بالأحباس المذكورة داخلا وخارجا مبنيا على آخر محاسبة صدر بها أمرنا الشريف إن كانت، وإلا فمن يوم تصرفك إلى تاريخه مع بيان القدر الموفر الذى تحت يدك، كما نأمرك بأن تكون توجه لشريف أعتابنا عند استهلال المحرم من كل سنة نسخة من الحساب داخلا وخارجا مفصلا بكناش خاص والسلام فى ١٧ صفر عام ١٣٢٣».

ومن اهتمامها بالتجارة والعدل فيها من غير مراعاة الجنسية ما وقفت عليه من ظهائر تعيين بقعة لنشر التجار الأجنبيين ما يشترونه من الجلود فيها، وظهير إنشاء بنك مغربى، وظهيرى إنشاء البوسطة، وظهير إنشاء المعاملة بالواردين ودونك نصوصها على التتابع، فلفظ الأول:

«خدامنا الأرضين، أمناء مرسى الدار البيضاء المحروسة، وفقكم الله، وسلام عليكم ورحمة الله، وبعد: فقد كان طلب تجار الأجناس بذلك

الثغـرالبيـضاوى المحوط تعـين بقعة لـغسل الجلود ونشرها هنالـك، وكنا أصدرنا شريف أمـرنا لكم وللعامل والناظر للمـفاوضـةفى تعيين مـحل يصلح لذلك من محلات المخـزن أو الأحباس، ويكون التجار يؤدون كـراءه، ثم جدد الآن باشادور الألمان طلب تجـاره ذلك، وعليه فنأمـركم أن تجتـمعوا مع خـدامنا العامـل وأمين المستفـاد وناظر الأحباس وتتفـاوضوا فى تعيين بـقعة لما ذكر مما لا ضرر فـيه على المخزن ولا على أهل البلد بـعد اتفاقكم مع التـجار عليهـا وعلى قدر الكراء الذى يؤديه التجار فيه، وتعلمونا بذلك وقد أمرنا الخدام المذكورين بمثله والسلام فى ٢٨ قعدة عام ١٣٢٥».

ولفظ الثانى:

«خديمنـا الأرضى ناظر الأحباس بالدار الـبيضـاء المحروسة، وفـقك الله، وسلام عليك ورحـمة الله، وبعـد: فقد أخـبر نائب الألمان بأن التـجار هنالك لما طولبـوا بعدم نشر الجـلود فى المحل الذى ينشرونهـا به حرصـا على تنظيف البلد احتاجـوا لمحل آخر ينشرونها به وطلبوا تعـيين محل بحومـة السور الجديد هنالك لذلك، وقد أجيب بكون بقعة السور الجديد حوطها المخزن لغرض مهم ولا يمكن استعمالها فيما طلبوه، وأن أمرنا الشريف صدر بتعيين محل يصلح لما طلبوه وعند اختياره يحوطه ناظر الحبس ويكون التجار الذين ينشرون فيه يؤدون كراءه للحبس، وعليه فنأمرك أن تجتمع مع خديمنا القائد بو بكر بن بو زيد وأمناء المرسى والمستفاد وتتفاوضوا فى تعيين محل مناسب لمـا طلبوه كالمحل الذى لجانب الحبس قبالة باب الرخى الفاصل عن محل الخزائن التى ستبنى للتاجر لام أو غيره، وإن يكن خارج البلد فهو أولى، ثم بعـد اختياركم للمحل اللائق تشرع فى تحـويطه ويمكن التجار منه ويطالبون بأداء الـكراء عنه للحبس، وقد كـتبنا للعامل والأمناء بمـثله، ولتعلم بالمآل فى ذلك، والسلام فى ١٨ رجب عام ١٣٢٤».

ولفظ الثالث:

«خديمنا الأرضى ناظر أحباس الدار البيضاء المحروسة، وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله، وبعد: فقد كان طلب تجار الأجناس بذالك، الثغر البيضاوى المحوط تعيين بقعة لغسل الجلود ونشرها هنالك، وكنا أصدرنا شريف أمرنا لك وللعامل وأمناء المرسى بالمفاوضة فى تعيين محل يصلح لذلك من محلات المخزن أو الأحباس، ويكون التجار يؤدون كراءه، ثم جدد الآن باشادور الألمان طلب تجارهم ذلك، وعليه فنأمرك أن تجتمع مع خدامنا العامل وأمناء المرسى وأمين المستفاد، وتتفاوضوا فى تعيين بقعة لما ذكر مما لا ضرر فيه على المخزن ولا على أهل البلد بعد اتفاقكم مع التجار عليها وعلى قدر الكراء الذى يؤديه التجار فيها وتعلمنا بذلك، وقد أمرنا الخدام المذكورين بمثله والسلام فى ٢٨ قعدة عام ١٣٢٥».

ولفظ الرابع:

«محبنا الأعز الأرضى الأمين السيد إدريس الفيلالى، أمنك الله، وسلام عليك ورحمة الله عن خير مولانا نصره الله، وبعد: فلا يخفى أن من جملة ما تضمنه وفق المؤتمر الدولى تأسيس بنك بالمغرب يسمى بالبنك المخزنى مؤلفا رأس ماله من بانكات الدول الذين حضر أعضاؤهم لجمع المؤتمر المذكور، وحيث لم يكن بهذه الدولة الشريفة بنك حالى يتولى دفع ما نابه فى رأس مال البنك المخزنى من السهم المغربى، أنعم سيدنا أيده الله على بعض أعيان تجار رعيته السعيدة ليتولوا دفعه ويكون لهم السهم بالبنك المخزنى، ويستمدون نفعه على قاعدة أرباب السهام بالأبناك وليس من مقتضيات السياسة الوقتية والمصلحة الراجعة لجانب المخزن والرعية تسليم السهم المغربى لبقية الدول والإعراض عنه بالكلية، وقد رشح أيده الله للنيابة عن أرباب السهم المغربى بالبنك المذكور الأمين الحاج إدريس بن

جلون، وتوجه لما هو بصدده من ذلك العمل بطنجة ملتزما بواجب السهم المغربى ودفع ربعه حالا، وحيث كنت من جملة المقسط عليهم السهم المذكور فيأمرك مولانا أيده الله بمجرد وصول هذا إليك أن توجه للأمين المذكور واجبك فى ربع السهم وقدره خمسون ابرة سكة الفرنك يجب فرنك ١٢٥٠ وبنفس ما يعلمك بتوجيه الربع الثانى وجهه له من غير تأخير، وهكذا إلى أن تكمل له واجبك فى ذلك وقدره مائتا ابرة، وما توجهه له من ذلك يكون يجيبك عنه بالتوصل وحلوله محله ليكون جوابه حجة لديك كما تكون مصارفتك معه فيما ينوبك من الربح فى ذلك وعلى المحبة، والسلام فى ١٢ حجة الحرام عام ١٣٢٤ محمد التازى».

ولفظ الخامس:

«خديمنا الأرضى ناظر أحباس ثغر الدار البيضاء المحروس بالله، وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله، وبعد: فإن سفير الفرنسيس بشريف أعتابنا أخبر بأنهم توقفوا على محل متسع لترتيب بوسطاهم هناكم به وطلب جعل تأويل معهم فى محل المخزن المعروف بأروى الأمناء ثمة إما بالكراء أو غيره ليجعلوه محلا للبوسطة، وعليه فنأمرك أن تقف مع خدامنا أمناء المرسى وأمين المستفاد ثمة على عين المحل المذكور، وتخطوا صورته على حالته الآن وتوجهوها لشريف حضرتنا وتبينوا قدر مساحته وقدر كرائه الآن وما يساويه من الكراء بعد أن يبنى على كيفية البوسطى وقدر ما يصير على بنائه ليظهر، وقد كتبنا لخديمينا المذكورين بمثله والسلام، فى شوال عام ١٣٢٥».

ولفظ السابع:

«الفقيه الأرضى السيد أحمد بن سودة سددك الله، وسلام عليك ورحمة الله، وبعد: فقد اقتضى نظرنا الشريف تأسيس ضابط لعقد المعاملات التى تكون بين تجار الأجناس وبين المشترين منهم بالواردين على وجه يرتفع به الضرر عن

الجانبن، وهو أن لا يبيعـوا لأحد شيئا بـ (الوردن) إلا بشهـادة عدول ثقات يعينهم القاضى لذلك بكل بلـد، بحيث لا يشهدون إلا بإذنـه مع إذن العامل لذلك على شرط أن يكون المشتـرى مليا وأن يضمنه أربعة من أهل خطتـه، ومن لم تكن بيده هذه الشهادة العـدلية بإذنه وإذن العامل وبهذين الشـرطين وادعى، على أحد بشيء فلا تقبل دعواه ولا شيء له، نعم من أراد أن يبيع لأحد شيئا بدون هذين الشرطين بعد تقـريرهما له وطلب من القاضى والـعامل الإشهاد فـقط من غير ضـمان ولا ثبوت ملاء فيشهد عليـه أولئك العدول أنه رضى ذمة ذلك المشترى بعد أن علم أنه ليس بملى وليس له ضـامن وأنه منه إليه ولا يدعى بدعـوى فيه إن تـعذر له شيء عنده بخسارة أو عدم أو نحو ذلك، وكذلك يكون هذا الضابط بعينه فى المخالطات التى تكون بغيـر الواردين من سائر المعاملات، وعليـه فنأمرك أن تحضر مع الـباشا حين يسـتدعيك لتأسـيس هذا الضابط المذكور عند ظهور أحـد من تجار الأجناس هناك بقصد إرادة المعـاملة مع الناس بالواردين أو بغيرهما، وتحـضروا تجار مكناس حرسها الله من مسلمين ويهود وعراف الحرف وتقرروا لهم أمره، وتعين أربعة من ثقات العدول وصدورهم وتبـين أسماءهم لوصيفنا الباشا المذكـور، وتقصر عليهم الإشهاد بما ذكر بعد أن تشترط عليهم أن يـستأذنوك فى كل شهادة، وكذلك الباشا لتكون على الشرط المذكـور والضابط المحصور وتحذر من عـداهم من الإقدام على الإشهاد لشيء من ذلك ومـن خالف منهم تلزمه العقوبـة الشديدة، وخذ فى ذاك بالجزم ورد البال والتيقظ وعدم التساهل، لأن العدول فى عهدتك وقد كتبنا للباشا بهذا وأكـدنا عليه فى الوقوف عنده والاحـتياط فيـه والمضى معك على مقتـضاه، والسلام فى ٢٣ صفر عام ١٣١٣».

ومن اهتمامهـا بضبط ماليتها مـا تقدم من ضبط أمنائها والمراقبيـن عليها ما وقفت عليـه فى ظهيرى تعـيين أجور الأمـينين والعدلين وظهيـر توجيه حـسابات مسـتفادات المرسى كل أسبـوع ،ودونك لفظ الأول بعد الحمـدلة والصلاة والطابع السلطانى:

«خديمينا الأرضين أمينى الموضوع بمرسى الدار البيضاء المحروسة بالله وفقكما الله، سلام عليكما ورحمة الله، وبعد: فنأمركما أن تكونا تقتصران فى أجرتكما على مائتى ريال تثنية مشاهرة لكل منكما وفى أجرة العاملين معكما على مائة ريال مفردة مشاهرة لكل واحد منهما وذلك من شهر تاريخه، والسلام فى ٧ صفر عام ١٣٢٦».

ونص الثانى:

بعد الحمد له والصلاة والطابع المنيف:

«خدامنا الأرضين أمناء مرسى الدار البيضاء، وفقكم الله، وسلام عليكم ورحمة الله، وبعد: فلأجل مصلحة تخفيف صوائر المرسى من حيث هى: اقتضى نظرنا الشريف أن يكون قدر راتبكم الشهرى وراتب العدول معكم مائتى ريال بالتثنية وعشرين ريالا للأمين الأفاقى معكم، ونصفها وهو مائة ريال وعشرة ريال للعدل الأفاقى معكم، ومائة وخمسون ريالا للأمين البلدى منكم، ونصفها وهو خمسة وسبعون ريالا للعدل البلدى معكم، وعليه فنأمركم بأن يكون عملكم فى تصيير الرواتب المذكورة على مقتضى ما ذكر ولتثبتوا نسخة من كتابنا هذا بمحله من كناش ضابط خدمة المرسى ليتمشى عليه الأمناء بعدكم، والسلام فى ١٧ صفر الخير عام ١٣٢٦».

ولفظ الثالث:

بعد الحمدلة والسلاة والطابع السلطانى:

«خدامنا الأرضين أمناء موضوع مرسى الدار البيضاء المحروسة بالله وفقكم الله، وسلام عليكم ورحمة الله،وبعد: وصل كتابكم بمحصل الأسبوع المغيا بسابع شهره وصار بالبال زكاه الله ونماه والسلام فى ٢٣ جمادى الثانية عام ١٣٢٦».

فهذه جملة يعتبر بها غيرها استطردناها تنبيها على أن أمراءنا كان لهم الشغف بضبط ما ولوا عليه لو أسعدهم الدهر بولاة أهل كفاءة واقتدار مثل صاحب الترجمة.

البيعة الحفيظية:

ولم يزل أمر الدولة ينحل، ونظامها يختل، إلى أن قام بعض رؤساء من أعيان القبائل الحوزية يدبر فى رتق ذلك الفتق عسى أن ترجع المياه لمجاريها، فأداه اجتهاده إلى أن ذلك لا يتم إلا بجمع الكلمة على مبايعة الخليفة السلطانى الذى كان بين أظهرهم بالحضرة المراكشية فى ذلك الحين وهو المولى عبد الحفيظ لحزمه ونجدته ونباهته وتيقظه وعلمه، فأعلنوا بنصره وخلع أخيه المولى عبد العزيز بمراكش صبيحة يوم الجمعة سادس رجب عام خمسة وعشرين وثلاثمائة وألف، وفى ذلك قال الأديب السيد عبد الله التادلى الرباطى مؤرخا:

قد بدا عبد الحفيظ المرتضى ... ملكا ما مثله قبل ملك

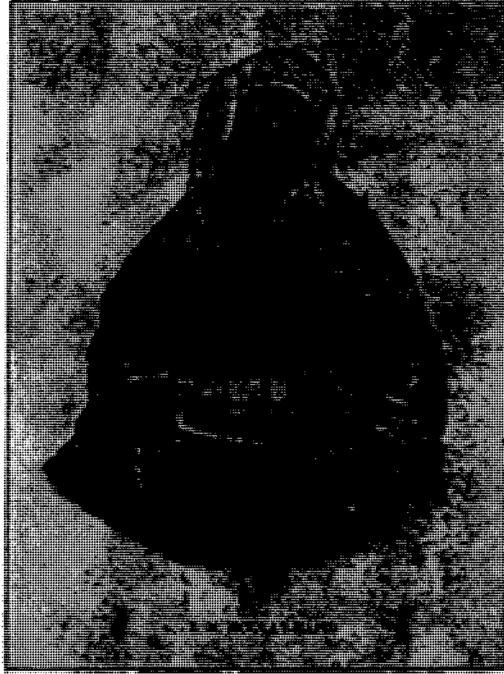
سأل الإقبال ما تاريخه ... قلت يا إقبال (بشر بالملك)

١٢٠٢، ١٢٣

١٣٢٥

وأسباب الخلع والبيعة مبنية فى صك بيعتهم التى وقعت بعد أخذ فتوى العلماء فى المخلوع وكفاءته وتلت بيعة مراكش بيعة الجديدة وآسفى، إلا أنهما أعيدتا بعد لطاعة المخلوع.

ولما قدم المخلوع للرباط بنية استرجاع طاعة مراكش إليه أعلن بخلعه أيضا بفاس يوم الجمعة ثانى وعشرى قعدة الحرام عام خمسة وعشرين المذكور بعد استفتاء العلماء فى شأنه وإفتائهم بوجوب عزله ليقضى الله أمرا كان مفعولا، ومن



السلطان السابق مولانا عبد الحفيظ

الغد بويع بها للمولى عبد الحفيظ بعد هرج ومرج تركت لغيرى تفصيله، وكان ذلك على شروط مندمجة فى عقد البيعة وهى من إنشاء أبى العباس أحمد بن عبد الواحد بن المواز صدر الكتاب وواسطة عقدهم ودونك لفظها:

الحمد لله الذى جعل كلمة الحق هى العليا، وأرشد المؤمنين من عباده لاتباع مقتضياتها أمرا ونهيا، وفضل الأمة المحمدية على سائر الملل والأجناس كما فضل آل بيته الكريم على الناس، وشرف هذا الوجود بمن يرقيه الله من خيارهم منصب الخلافة، فيتبع فى الشريعة والعدل والسياسة سنة جده، ويقتفى فى ذلك الكرام أسلافه، تصديقها لقوله ﷺ ولاية أهل بيتى، أمان لأمتى.

نحمده سبحانه أن تفضل على المسلمين بالهداية لقبلة الرشاد، والتمسك بحبل التوفيق والإسعاد، والعدول عن مواضع الزيغ والتفريط والعناد، ونشكره أن هدى خاصة الأمة وعامتها لتقليد من يوفى بالعهود الشرعية، ويقوم بحفظ الدين ومصالح الرعية.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذى يؤتى الحكمة من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء.

ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الشفيع فى أمته يوم يتميز القاسطون من المقسطين، والحافظون للأمانة من المفرطين، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين اجتهدوا فى كشف غياهب الضلال، وكانوا يميلون مع الحق حيث مال، ولا يحابون من يتساهل فى أحكام الشريعة بحال.

أما بعد: فإنه لما أراد الله تعالى أن يزيح ليل الجهالة عن عباده، وأن يجدد الدين بمن يطلعه شمسا فى أرضه وبلاده، ليعود عز الإسلام لشبابه، ويبقى استناد الإمارة العلية إلى سنته وكتابه، وتعلقها من الشرع بأسبابه، تدارك سبحانه

الوجود، وأعز العالم الموجود، واستطارت الأنوار المضيئة للأغوار والنجود، بمبايعة من يُعيد الله به شمس الخلافة إلى برج شرفها، ويرد به نقطة العدل والحلم إلى مركزها، ويحيى به أثر الخلفاء الراشدين، ومكارم الأسلاف الكرام المهتدين، وهو من حاز من الأوصاف الكاملة غايتها، وبلغ من المزايا الجسيمة نهايتها، فاكتسى العلم لباسا، والشجاعة أتراسا ،واتخذ العلم أساسا، والحلم شعارا، والكرم دثارا، والدين قواما، والسياسة الشرعية نظاما، مولانا أمير المؤمنين ابن مولانا أمير المؤمنين الذى جعله الله خير آية ناسخة، وأثبت له فى الكمالات قدما راسخة، نخبة الخلافة العلوية، وجوهرة عقد المملكة الاسلامية، المتفاءل باسمه، فى حفظ الإسلام ورسمه، أبو المعالى مولانا عبد الحفيظ بن مولانا الامام المقدس بالله سيدنا الحسن ابن ساداتنا الملوك الكرام، المقدسين فى دار السلام، لما ألقى الله له فى قلوب الخلائق من الحب الجميل، والاعتقاد الذى هو بنصرة الدين كفيل فحبذا من إمام تهتز لذكره أعطاف المنابر، وتتقلد من شريف دعوته بأبهى من نفيس الجواهر، وتستضئ البلاد بإكليل شرفه الزاهر، وتسكن العابد تحت ظله المؤيد الوافر، أبقى الله أيامه، بقاء يستصحب النصر دوامه وخلد له ولأعقابه هذا الأمر الكريم إلى يوم القيامة، فانتدب من وقفت بهم مطية التوفيق، على حضرة الإخلاص والتصديق، وأخذت بهم أزمة السعادة إلى حيث الفوز برضا الله ورسوله حقيق، من جميع أهل فاس الإدريسية، لا زالت مصونة محمية، وسائر أشرافهم ورماتهم وعلمائهم وقضاتهم وكبرائهم ونقبائهم ومرابطيهم وصلحائهم وأعيانهم وخاصتهم وعامتهم وكذلك أهل فاس الجديد، لشمول التوفيق لهم والتسديد، على تقليد الجمع بيعة مولانا أمير المؤمنين المذكور، المختص بالسعد الباهر واللواء المنصور بيعة تؤسس على تقوى من الله ورضوان، ويشهد عقدها الكريم ملائكة الرحمان.

فبايعوه كلهم على الأمن والأمانة، والعفاف والديانة والعدل الذى يشيد

للمجدار كانه، مبايعة شائعة على عقدها الكريم بحكم الوفاق، وعموم الاتفاق، والمواثيق الشديدة الوثاق، وبجميع الأيمان، الصادقة الإيمان، أعطوا بها صفقة أيديهم، ورفع العقيرة بها مناديهم.

وندبوا إليها سائر القبائل التى بنواحيهم، عارفين أن يد الله فوق أيديهم وأمضاها الكل المجموعى والجميعى على السمع والطاعة، والانتظام فى سلك الجماعة إمضاء يدينون به فى الجهر والسر، والعسر واليسر، والتزموها رغبة منهم وطوعا، واستوعبوا شروطها أصلا وفرعا، وجنسا ونوعا، خالصة صادقة وعدة من الله بالخير لهم سابقة، وسعادة بالحسنى لاحقة، أبرءوا عقدها، وأحكموا عهدها، وعرضوا عليها أفرادا وأزواجا، وزمرا وأفواجا، وناداهم داعى السعادة إعلانا، لقوله تعالى «فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا».

وكيف لا وهو المتصف بالكفاية الشرعية التى بينت فى كتب الفقه بأن يكون مهتديا إلى مصالح الأمور وضبطا، ذا نجدة فى تجهيز الجيوش وسد الثغور، وذا رأى مصيب فى النصر للمسلمين، لا تروعه هوادة النفس عن التنكيل لمستوجبى الحدود. انتهى.

فقد جعله الله زمام الأمور ونظام الحقوق والقطب الذى عليه مدار الدنيا وهو حمى الله فى بلاده، وظله الممدود على عباده، به يمتنع حريمهم وينصر مظلومهم وينقمع ظالمهم ويَأْمَنُ خائفهم قال تعالى:

الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف. الآية، وقال أبو هريرة رضى الله عنه: «لما نزلت آية أطيعو الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم قد أمرنا بطاعة الأئمة وطاعتهم من طاعة الله»، وفى الحديث عن مولانا على كرم الله وجهه: «إمام عادل خير من مطر وابل» وفى الحديث السلطان ظل الله فى الأرض ورمحه، وفى الحديث من أجل سلطان الله أجله الله

وفى الحديث المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وفى الحديث: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» وسئل سهل أى الناس خير؟ فقال: السلطان، لأن لله فى كل يوم نظرتين نظرة إلى سلامة أموال الناس، ونظرة إلى سلامة أبكارهم فيطلع فى صحيفته فيغفر له ذنوبه

وفى السراج ليس فوق السلطان العادل منزلة إلا نَبِىٌّ مرسل أو ملك مقرب.

وقالت الحكماء: أسوس الناس برعيته من قاد أبدانها بقلوبها وقلوبها بخواطرها وخواطرها بأسبابها ولا غرو أن مولانا أمير المؤمنين، الذى انتظمت بيعته فى أعناق المسلمين، أجل من صدقت فيه ظنونهم ونياتهم، وتوجهت إليه آمالهم وأمنياتهم، ومدت له الرعية أزمتها، وقدمت إليه الوفود أعنتها، راجين من شريف همته، وكريم عنايته، أن يلبسهم رداء نعمته. وينزلهم ظل كرامته، ويعمهم بسيرة المعدلة، ويشملهم بالحلم والفضل والرحمة المكملة، ويسعى جهده فى رفع ما أضر بهم من الشروط الحادثة فى الخزيرات، حيث لم توافق الأمة عليها ولا سلمتها ولا رضيت بأمانة من كان يباشرها ولا علم لها بتسليم شىء منها وأن يعمل وسعه فى استرجاع الجهات المأخوذة من الحدود المغربية وأن يباشر إخراج الجنس المحتل من المدينتين اللتين احتل بهما ويزين صحيفته الطاهرة بحسنة استخلاصهما، وأن يستخير الله فى تطهير رعيته من دنس الحمايات والتنزيه من اتباع إشارة الأجانب فى أمور الأمة، لمحاشاة همته الشريفة عن كل ما يخل بالحرمة.

وإن دعت الضرورة إلى اتحاد أو تعاضد فليكن مع إخواننا المسلمين كآل عثمان وأمثالهم من بقية الممالك الإسلامية المستقلة، وإذا عرض ما يوجب مفاوضة مع الأجانب فى أمور سلمية أو تجارية فلا يبرم أمرا منها، إلا بعد الصدع به للأمة، كما كان يفعله سيدنا المقدس الحافظ للذمة، حتى يقع الرضا منا بما لا يقدح فى دينها ولا عقائدها ولا فى استقلال سلطانها.

وأن يوجه أيده الله وجهته الشريفة لاتخـاذ وسائل الاستعداد، للمدافعة عن البلاد والعباد، لأنهـا أهم ما تصرف فيه الدخائر والجـبايات، وأوجب ما يقدم فى البدايات والنهايات، وأن يقر بفضله العيون والنفوس، برفع ضرر المكوس، ويحقق رجاء خـدامه وكـافة رعاياه بالذب عن حـرماتهم ودمـائهم وأموالهم وأعـراضهم وصيانة دينهم وحياطة حقوقهم، وتجديد معالم الإسلام وشعائره بزيادة نشر العلم، وتقويم الوظائف والمساجـد، وإجراء الأحباس على عملها القـديم، وانتخاب أهل الصلاح والمروءة والورع للمناصب الدينية.

وكف العمال عن الدخـول فى الخطط الشرعية، وترك مـا أحدث من الجمع المستلزم لاستبـداد الرؤساء بتنفيذ مراداتهم فى القضايا والأغـراض لما تحقق والحمد لله من كمال أوصاف مولانا الإمام، واعتماد المسلمين على كفايته فى الأمر الخاص والعام.

فهـو أيده الله العضب الكافى، ورأيه العلاج الشـافى، ومما يقتضيـه حسن سيرته وكمال وفائه جميل الصنع بشريف القرابة وتقريب الصالحين، واعتبار مقادير الأشراف وأهل الـعلم والدين وإقرار ذوى الحـرمة على مـا عهد لهم مـن المبرات والاحترام، وظهـائر الملوك الكرام، وإبعاد الطالحين، وإخساء المفـترين والواشين، ومعـاملة المؤمنين، بما تعودوه منه من أسـلافه المقدسـين، من إيثار العـفو والحلم والأناة. وتجديد مـآثر الخير فى حـالة العز والثبـات وحسن الظن بسـيدنا أيده الله حمل أهل مملكته الشريفـة المتيمنين بكريم بيعته المنيفة علـى أن صدعوا لجلالته بما أثرت فيه مضرته، عالمين أنهم لا يكشف مـا بهم إلا عناية مولانا المنصور وهمته، ومستـسلمين مع ذلك إلى الله بالقلوب الخاشعـة، ومبتهلين بالأدعيـة النافعة، أن يعرفهم الله خير هذا العقد الكريم بدءا وختاما ويمنحهم بركته التى تصحبهم حالا ودواما، لا رب غيره ولا خير إلا خيره، أشهـدوا على أنفسهم بما فيه عنهم عموما

والواضعون أشكالهم عقبه خصوصا وهم عارفون قدره وأكمله وفى فاتح ذى الحجة الحرام عام خمسة وعشرون وثلاثمائة وألف.

ولما خرج المولى عبد العزيز المخلوع إلى إرجاع مراكش لطاعته انكسر ورجع إلى الدار البيضاء، فبايعت طنجة أخاه المذكور يوم الأحد ٢٤رجب ١٣٢٦ ثم العرائش والعدوتان سلا، والرباط ـ وكانت بيعتهما فى يوم الثلاثاء ٢٦ رجب المذكور ـ ثم الجديدة وآزمور يوم ٢٨ منه ثم الصويرة يوم الأربعاء ١٢ شعبان عامه وهكذا.

وكانت هذه البيعات مبعث ارتياح واستبشار من الناس بسلطانهم الجديد العالم فطفقوا يتفاءلون باسمه ويرجون أن يكون له من اسمه نسبة فتحفظ البلاد من أرزاء التفكك والانحلال، ويعود لها ما انتقص من أطرافها، وقال الشعراء فى ذلك مظهرين شعور الأمة فكان من جملة ما قيل قول الأديب الكبير السيد أحمد ابن قاسم جسوس:

بشرى الخلائق لا تزال تزيد   هذا زمان كل آنه عيد

ذهب العناء جميعه وتتابعت   زمر الهناء بسيطها ومديد

والبشر باد والسرور موفر   والأنس يبدى ما يشا ويعيد

وهى قصيدة من غرر منشآته.

وقد حققت الأيام بعض ما كانوا يرجون على يديه، فقبض على أبى حمارة كما تقدم تفصيل ذلك قريبا، ولجسوس المذكور قطعة فى ذلك يقول منها:

لله من نبأ غدت أفراحه   تترى لدينا بالنعيم الطيب

نبأ الشقى المارق الفدم الذى   كم شب من نار بقطر المغرب

نبـأ الخبـيث أبى حمـارة والذى هو فى المـنابت لم يـكن بالطـيب
أشقـى الورى فى عصـره وقداره وغـــروره بتـــمــــرد وتـوثب

ولكن الفتق كان فوق قدرة الراتق فـرغما عن هذا كله لم يزل الأمر ينحل، والرعية تتجرأ وتتمرد، إلى أن كان مما لست أذكره.

هذا بعض مما حدث بموت المترجم أحمد بن موسى.

ولو تتـبعـنا الأحداث التى وقـعت بموته وتفـاصـيلها لاحـتـجنا لمجلدات، وبالجمـلة فترجـمة هذا الرجل طويلة الـذيل، بعيدة الـنيل، ما أجدرها بـأن تفرد بالتأليف ولبعض الشامـيين نزلاء المغرب فيه تصنيف سماه «الثغـر البسام» فى مآثر الوزير «أحمـد بن موسى الهـمام» فى مجـلد وسط أتى على تفاصـيل من أحوله وسياسته ومزاياه وترجم لعدة من علماء المغرب بفاس والرباط.

٧٤ - أحمد أبو العـباس ابن الحاج عبد القادر بـن علال العرائشى المكناسى النشأة والدار والإقبار.

حاله: له معرفة بالفقه والنحو والفرائض، ومهارة تامة فى الحساب والتوقيت والتعديل، ومـعرفة الطوالع وأحكام النجوم والأوفـاق والرمل، تولى خطة الكتابة مع شيخه العلامة الحاج المختـار بن عبد الله، ثم الأمانة على أمراس خزن الحبوب والزيوت المولوية التى تجبى من أعشار الإيالة المغربية ثم الكتابة مع محتسب مكناس الحاج محمد بن العربى أجانا، ثم انسلخ عن ذلك كله وأقبل على تدريس الحساب والتوقيت والتعديل، ودرس القلصادى، ومنية ابن غازى، والمقنع وروضة الأزهار، وعمل الربع المجيب، والرسالة الستينيـة فى الضرب، والقسمة، وتسهيل المطالب، ومنهـاج ابن البنا، وابن العاشـر، والجروميـة، والألفيـة وغيـر ذلك فنفع الله به أقواما.

---

٧٤ - من مصادر ترجمته: إتحاف المطالع فى موسوعة أعلام المغرب ٨/ ٢٨٢٤

مشيخته: اخذ عن العلامة الحاج المختار مختصر خليل والألفية، وعلى غيره ممن هو فى طبقته من أعـلام وقته، وأخذ التعديل والحساب والتـوقيت وغير ذلك عن موقت مكناس السيـد الجيلالى[1] الرَّحالى، وعن ميقـاتى فاس السيد إدريس الحبابى، وبه كان كامل إنتفاعه.

الآخذون عنه: أخذ عنه الأستاذ المعدل أبو محمد عبد القادر بن المعطى دعى الصبيع بالتصغير، والوجيه الميقاتى الطالب العلمى بن رحال والعدل الفقيه ابو على الحسن المنونى، والطالب مصطفى بن موسى وخلق.

وفاته: توفى رحمه الله فى ذى الحجة عام ثمانية عشر وثلاثمائة وألف ودفن بالزاوية الناصرية من الحضرة المكناسية.

٧٥ - أحمد بن الطالب بن سودة المَرِّى.

قاضـيهـا أبو العبـاس، وسودة بفـتح السين وسكـون الواو كما فـى شرح القاموس، وضم السين هو الجارى على الألسنة.

حاله: كان أعـجوبة الدهر، وفريد العصر، فـقيها مشـاركا بحرا لايدرك له ساحل، جبلا راسخا فى العلم والإتقان والتحـرير والتحبير، عزيز المماثل، فارس مقدمة الفنون، محيط بعنوان تراجمها وأبواب وأسرار سرها المصون، عارفا بمعانيها وبديع محاسنها مع بيـان ما انطوت عليه من فصيح الكلام وبليغـة، من غير تنافر ولا مخالفـة قياس فى تأديته وتـبليغه، حسن الإلقـاء والتعبير، لا تـكدر قاموس إملاءاته دلاء الباحثين، جهبذ حلاحل، بعيد الشأو فى تحرير عويص المسائل.

تولى نيابة قضاء مكناسـة الزيتون بطلب من أخيه قاضيهـا أبى عيسى المهدى حسبما وقفت على جواب الوزير إذ ذاك للقاضى المذكور بإسعاف رغبته ونصه بعد الحمدلة:

---

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «الجيلانى» وصوابه من إتحاف المطالع فى الموسوعة ٨/ ٢٧٨٩.

٧٥ - من مصادر ترجمته: إتحاف المطالع ٨/ ٢٨٣٣ فى موسوعة أعلام المغرب.

«محبنا الأرضى، العلامة الأحظى، السيد المهدى بن سودة، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته عن خير مولانا نصره الله، وبعد: فقد أنهينا لمولانا أيده الله ما ذكرت لنا فى شأن ما أردت من إستنابة أخيك الفقيه السيد أحمد فيما يكون من الدعاوى الصغار، فأذن لك فى ذلك أثمر الله غرسه والسلام، فى رابع رجب الفرد عام خمسة وسبعين ومائتين وألف محمد الصفار وفقه الله».

ثم تولى خطة القضاء بآزمور مؤقتا عام خسة وثمانين ومائتين وألف على عهد السلطان سيدى محمد، ودونك نص ظهير توليته بعد الحَمْدَلَة والصلاة والطابع السلطانى المحمدى:

«أحباؤنا أهل آزمور كافة أعانكم الله وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد: فإننا قلدنا الفقيه السيد أحمد بن سودة خطة القضاء بذلك الثغر السعيد على سبيل قضاء الحاجة مدة محدودة، وأياما معدودة، وأمرناه بفصل الخصوم، ومطالعة الرسوم، والحكم بمشهور مذهب الإمام مالك، أو بما به العمل سالكا فى ذلك أوضح المسالك، فعليه بتقوى الله العظيم ومراقبته، فى سره وعلانيته، وعليكم بالسمع والطاعة، وتنفيذ جهده قدر الاستطاعة، والله ولى التوفيق، والهادى إلى سواء الطريق، والسلام فى متمم رجب الفرد عام خمسة وثمانين ومائتين وألف».

ثم طلب الإعفاء بواسطة الحاجب السلطاني إذ ذاك موسى بن أحمد فأسعف السلطان رغبته، وقفت على جواب الحاجب المذكور له عن طلبه ولفظه بعد الحمدلة والصلاة:

«محبنا الفقيه العلامة القاضى أبا العباس سيدى أحمد بن الطالب بن سودة سلام عليكم ورحمة الله عن خير مولانا نصره الله، وبعد: فقد وصلنا كتابك مجددا العهد بنا وسائلا عن أحوالنا، فأنا سائل عنك كذلك ونطلب الله أن يسلك

بنا وبكم أحسن المسالك، وعلمنا أنك تتشفع لنا بمولانا نصره الله فى نقذك مما كلفت به لأنك أتيت على الأمر المحدود وطالبا أن تكون من العلماء الناشرين للعلم بالقرويين إذ هو الأسلم لدينك والأزكى لدنياك، ومستغيثا أن تحشر فى زمرة ورثة الأنبياء لا زمرة القضاة، فقد أنهينا ذلك لمولانا نصرة الله ويسر الله فى قضاء الغرض، وكتب مولانا أيده الله لنجله وخليفته الأسعد مولانا الحسن حفظه الله بأن ينظر من مراكش فقيها يصلح للغرض المذكور، وقد توجه له كتاب سيدنا أعزه الله بذلك وعلى محبتكم وطالب صالح دعائكم، والسلام فى رابع قعدة عام ١٢٨٥، موسى بن احمد لطف الله به».

ثم عين فى جملة من عين من الأعلام للتوجه لطنجة بقصد فصل قضايا الأجانب مع الأهالى.

ثم فى سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف ولى قضاء ثغر طنجة فى ثانى ربيع الثانى حسبما يظهر توليته ودونك لفظه:

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ثم الطابع السلطانى الشريف بداخله الحسن بن محمد وليه ومولاه:

يعلم من كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره، وجعل فيما يرضيه سبحانه لفه ونشره، أننا بحول الله وقوته، وشامل يمنه ومنته، ولينا خطة القضاء بثغر طنجة المحروس بعناية الله الفقيه الأجل الأرضى السيد أحمد بن سودة لما علمناه فيه من الجد والتحرى والوقوف فى حقوق العباد، واتباع طريق الرشاد، وأسندنا له النظر فى فصل الخصوم، وتصفح الرسوم والحكم بمشهور مذهب الإمام مالك، رضى الله عنه أو ما به العمل، فنعهد إليه أن يراقب الله تعالى فى ذلك، وأن يسلك فيه أحسن لمسالك، وأن يقوم بأمره فى حق المشروف والشريف، والقوى والضعيف،

فنسأل الله أن يسدده ويوفقه لما فيه رضناه أمين، والسلام فى ثانى ربيع الثانى عام ١٢٩٢».

ثم فى ثالث قعدة الحرام عام ثلاثة وتسعين - بتقديم المثناة على السين - ومائتين وألف أسند إليه النظر فى جميع القبائل المضافة لطنجة وفوض له فى قضاة باديتها بالتولية والعزل، ودونك نص الظهير الصادر له بذلك:

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه، ثم الطابع الشريف بداخله الحسن بن محمد بن عبد الرحمن، الله وليه وبدائرته:

ومن تكن برسول الله نصرته إن تلقه الأسد فى آجامها تجم

من يعتصم بك يا خير الورى شرفا الله حافظه من كل منتقم

يتعرف من كتابنا هذا أسمى الله قدره، وأعز أمره، وجعل فيما يرضيه سبحانه لفه ونشره، أننا بحول الله وقوته، وشامل يمنه ومنته.

ولينا الفقيه السيد أحمد بن الطالب ابن سودة خطة القضاء بطنجة حرسها الله وبجميع القبائل المضافة إليها المحسوبة من عمالتها، وأذنا له فى تصفح الرسوم، والفصل بنى الخصوم، والحكم من مذهب الإمام مالك بالمشهور أو ما به العمل عند الجمهور.

وفى تفقد أحوال قضاة بادية العمالة المذكورة، وعزل من لم يصلح منهم، وتولية من يصلح فعليه بتقوى الله ومراقبته، والتحرى جهد استطاعته، وليتذكر ما ورد فى حق أهل العدل من الوعد بالثواب والجنة، وفى حق أهل الجور من الوعيد بالعقاب والمحنة، وقوله عليه الصلاة والسلام قاضيان فى النار وقاض فى الجنة، ويعلم أن الله تعالى يراه، وأن جميع أحكامه تعرض عليه فى أخراه ،ونطلب الله أن يسدده ويوفقه لما يحبه ويرضاه.

والسلام فى ٣ ثالث قعدة الحرام عام ١٢٩٣ .

ثم ولى ضاء مكناسة الزيتون والخطابة بجامع قصبتها السلطانية عام أربعة وتسعين ومائتين وألف، وفق ما بظهير توليته ونصه بعد الحَمْدَلَة[1] والصلاة والطابع السلطانى الحسنى:

يعلم من كتابنا هذا الراقى فى أوج اليمن والسعادة قدره، النافذ بعزة الله فى البسيطة نهيه وأمره، أننا بقوة الله وحوله، ومنته وطوله، ولينا الفقيه الأرضى السيد أحمد بن الطالب ابن سودة خطة القضاء بمكناسة الزيتون وزهون، وأذنا له فى تصفح الرسوم، وفصل الخصوم، والحكم بينهم من مذهب الإمام مالك بالمشهور، أو بما جرى به العمل عند الجمهور فعليه بتقوى الله ومراقبته، والتحرى جهد استطاعته، وليتذكر وعدا منجزا ووعيدا، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود له أن بينها وبينه أمدا بعيدا، ويعلم أن الله تعالى سائله عما حكم به وقضاه، وأنفذه وأمضاه، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله، ونطلب الله تعالى أن يوفقه لما يحبه ويرضاه.

والسلام فى عاشر رمضان عام أربعة وتسعين ومائتين وألف.

وأسند له تولية النظر فى محاسبة نظار جبل زرهون ومكناس وقفت على إقرار السلطان المولى عبد العزيز له على ذلك، ودونك لفظه بعد الحَمْدَلَة والصلاة والطابع السلطانى:

أقررنا بحول الله وقوته ماسكه الفقيه الأرضى القاضى السيد أحمد ابن سودة على ما تضمنه كتاب سيدنا المقدس الذى بيده من الإذن له فى محاسبة كافة نظار مساجد مداشر زرهون على نسق محاسبته مساجد مكناس ومسطرتها عندهم إقرارا تاما، وفى خامس عشرى صفر الخير عام اثنى عشرة وثلاثمائة وألف.

---

(١) حمدل: قال: الحمد لله.

كما كان تولى قبل ذلك الخطابة بضريح الإمام الأشهر، مولانا إدريس الأزهر، وبقيت بيده إلى أن لبى داعى مولاه ثم صارت لولده من بعده إلى الحين الحالى.

ورحل المترجم إلى الحج عام سبعة وستين ومائتين وألف على عهد السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام فى رفقة أنجاله المذكورين فى ترجمة أخيه القاضى أبى عيسى المهدى رحمه الله فحج وزار، ولقى فطاحل مشايخ تلك الديار، ودخل مصر والإسكندرية وتونس وأفاد واستفاد.

مشيخته: أخذ بفاس عن أخويه الحاج المهدى، والحاج عمر، وعن الشيخ الطالب ابن الحاج، والقاضى ابن كيران، والشيخ بدر الدين الحَمُّومى والفقيه الكردودى، والفقيه ابن عبد الرحمن، وسيدى عبد السلام بو غالب وغيرهم.

وبمكة عن الحافظ العارف أبى عبد الله محمد بن على السنوسى الجغبوبى الطرابلسى.

وبالإسكندرية عن الشيخ مصطفى ابن محمد الكبابطى الجزائرى المتوفى بالإسكندرية سنة ثمان وستين ومائتين وألف.

وبتونس !الشيخ محمد بن أحمد النيفر وأجازه الثلاثة الأخيرون عامة وغيرهم.

الآخذون عنه: أخذ عنه جل بل كل شيوخ العلم بمحروسة فاس ومكناس وغيرهما من بلاد المغرب كشيخنا أبى عيسى المهدى الوزانى العمرانى مفتى الديار الفاسية، وشيخنا العلامة أبى العباس أحمد بن المأمون الشريف البلغيثى قاضى مكناسة الحالى، وشيخنا الناقد الخبير أبى العباس أحمد بن الجيلالى[1] الفيلالى الأمغارى ومن فى طبقاتهم، وشيخنا العلامة أبى عبد الله محمد بن عبد السلام

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «الجيلانى».

الشريف الطاهرى المكناسى قاضى مكناسة سابقا انتفع به كثيرا، وكان يخصه بدروس بداره كما أخبرنى لذاك قدس الله ثراه شفاهيا، وشيخنا الفقيه العلامة السيد الحاج المختار بن عبد الله، وحبنا المعقولى الناظم الناثر الغالى بن المكى السنتيسى، وشيخنا ابى عبد الله محمد بن الحسين العرائشى، ووالدنا روح الله روحه، وخلق.

تآليفه: منها حاشية على صحيح البخارى حكى لى غير واحد من شيوخى أنها فى أعلى طبقة من النفاسة والتحرير، وتحرير المقال، وشرح على الشمائل، وحاشية على المنطق لم تكمل، وشرح على الهمزية إلى قوله ليته خصنى برؤية وجه، وختمته لصحيح البخارى وغير ذلك.

ومن بديع ما وقفت عليه من استنباطاته ما نقلته من خطه على هامش رحلة العياشى لما تكلم على تاريخ أخذ السلطان سليم مصر: قد رام بعض الناس استخراج دولة سيدنا ومولانا وإمامنا المنعم علينا بكل طارف وتليد مولانا الحسن أبقى الله فخره وعلاه، من حديث: «لا تزال طائفة من أمتى». . .إلخ فاستخرج من ذلك ما تمجه الأسماع، ففكرت فى ذلك فألفيت على طائفة من أمتى هو عدد دولة الحسن ابنى وبنيه بعد فانتظم الحديث هكذا: لا تزال دولة الحسن ابنى وبنيه بعد ظاهرين على الحق. . . إلخ، ولما أطلعته أعزه الله ونصره على ذلك أثابنى عليه بعطية سنية لها بال، كثر الله خيره وأدام عزه ونصره ومتعنى والمسلمين بطول حياته آمين، وذلك فى شوال عام ١٣٠٥ .

ومن مفاداته أيضا الدالة على عنايته بالتقييد ما لفظه ومن خطة نقلت:

الحمد لله الذى استقر عليه عمل سيدنا ومولانا أمير المؤمنين، مدة تنيف على العشر سنين، فى سرده لصحيح الإمام البخارى فى الثلاثة الأشهر أنه يقرأه فى ستة وثلاثين نصابا، وبيان أول كل نصاب هكذا، ١ بدء الوحى ٢ الوضوء ٣

التيمم ٤ المواقيت ٥ الصف الأول ٦ أبواب العيدين ٧ فضل الصلاة بمسجد مكة ٨ الزكاة ٩ سقاية الحاج ١٠ فضائل المدينة١١ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا ١٢ كتاب الشرك ١٣ الهبة للولد ١٤ وابتلوا اليتامى ١٥ الجهاد بإذن الأبوين ١٦ بدء الخلق ١٧ ولقد آتينا لقمان الحكمة ١٨ مناقب عثمان ١٩ هجرة النبي ﷺ ٢٠ غزوة الحديبية ٢١ حديث كعب بن مالك ٢٢ سورة الأنعام ٢٣ سورة لقمان ٢٤ سورة والشمس وضحاها ٢٥ قوا أنفسكم و أهليكم نارا ٢٦ وهزى اليك بجذع النخلة ٢٧ الرقى بالقرآن ٢٨ الأدب ٢٩ أحب الأسماء إلى الله ٣٠ الوضوء عند الدعاء ٣١ الأيمان والنذور ٣٢ فمن لم يستطع منكم طولا ٣٣ تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح ٣٤ كتاب التمنى ٣٥ عالم الغيب والشهادة ٣٦ والله خلقكم وما تعلمون.

ولادته: وجدت بخطة أنه ولد ليلة الثلاثاء تاسع عشرى رجب عام واحد وأربعين ومائتين وألف:

وفاته: فى بفاس عن خطته اثر شروق شمس صبيحة يوم الجمعة فى الساعة السابعة عاشر رجب عام واحد وعشرون وثلاثمائة وألف، ودفن بعد العصر من يومه بزاوية الشرادى قبالة درب الدرج[1] من فاس.

٧٦ - أحمد بن إدريس الخطابى أبو العباس المرابط الزرهونى.

من زاوية مولانا إدريس.

حاله: فقيه ماجد، تولى نيابة القضاء بزاوية زرهون عن أبى عباس بن سودة المترجم قبله يليه واستمر على نيابته إلى أن توفى عنها.

مشيخته: أخذ عن جمع من شيوخ فاس، وسمع البخارى على العلامة سيدى الفضل الحسنى الشبيهى بزرهون.

(١) فى المطبوع: الدروج، والمثبت من ترجمته فى الموسوعة.

وفاته توفى ببلدة ليلة يوم الأربعاء الخامس او السادس من جمادى الثانية عام ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف.

٧٧ - أحمد بن الفاطمى بن محمد بن محمد بن النقيب مولاى عبد القادر الشريف الإدريسى الشبيهى.

من زاوية زرهون.

حاله: نشأ فى عفاف وصيانة، ومهر فى علم الحساب، وله معرفة بالهيئة والتعديل والتنجيم والجدول والأسماء حسبما ذلك بخط ولده المولى محمد، تولى رياسة فن الحساب فى وقته، وأكب فى آخر عمره على العبادة والتلاوة والأذكار، والتهجد فى الأسحار، والاعتكاف وملازمة الزاوية الدرقاوية والمسجد الجامع ولم يزل على ذلك إلى أن لبى داعى مولاه.

مشيخته: أخذ عن الشيخ عبد الله ابن الخياط العطار شهر بـ«اسى الخياط» وعن الإمام النظار شيخ الجماعة بفاس سيدى محمد بن عبد الرحمن الفيلالى الحجرتى، وأبى العباس أحمد بن محمد المرنيسى، وسيدى أحمد بنانى، وسيدى عبد السلام بو غالب، وسيدى محمد بن حمدون بن الحاج السلمى المرداسى ومن فى طبقتهم من شيوخ فاس وقاداته، وكان يحضر دروس أخيه العلامة مولاى الفضيل، وأخذ الطريقة الدرقاوية عن سيدى مالك بن خدة دفين الزاوية.

الآخذون عنه: أخذ عنه علم الحساب ولده سيدى محمد، وجماعة من طلبة الزاوية الإدريسية

ولادته: كانت ولادته قبل ولادة أخيه سيدى الفضيل بثلاثة أعوام، وذلك أواسط العشرة الخامسة من المائة الثالثة بعد الألف.

وفاته: توفى رحمه الله بفاس القرويين سادس عشرى قعدة الحرام عام أربعة

وعشرين وثلاثـمائة وألف، ودفن بروضة بنونة بسيـدى على بو غالب، رضى الله عنه وأرضاه

٧٨ - أحمد بن محمد بن عزوز أبو العباس.

حاله: كان فقيها وجـيها عدلا مبرزا موثقا فرضيا حيـسوبيا ماهرا، له معرفة حسـنة بالنوازل، ويحفظ التـحفـة ولاميـة الزقاق حـفظا متـقنا، من أجل الناس وأتقاهم، يقصده وجهاء بلده وغيرهم فى مهمات إشهاداتهم.

مشيـخته: أخذ عن الـسيد الحاج المهـدى بن سودة، وأخيه الحـاج احمد، والحاج مبـارك، وابن الجيلالى(١) السقاط، والمـفضل ابن عزوز، والسيـد المختار الأجراوى ومن فى طبقتهم من جلة الشيوخ.

وفـاته: توفى فى ربيع الثـانى عـام ثلاثة وعشـرون وثلاثمـائة وألف ودفن بالزاوية الجيلالية من بلدة مكناسة الزيتون.

٧٩ - أحمـد بن شيخ الجمـاعة فى وقتـه بمكناس السيـد مبارك بن عـبد الله السلجلماسى.

حاله: كان فـقيها عالما نحريرا أسـتاذا، رحل إلى درعة واستوطنها واسـتفاد فيها وأفاد.

مشيخته: أخذ عن والده وغـيره ممن فى طبقته من الشيوخ، يروى عن والده دلائل الخيرات، وهو يرويه عن أبى حفص عمر بن المكى الشرقاوى عن شمهروش الجنى، عن مؤلفه ابن سليمـان وبالسند إلى شمهروش عن النبى ﷺ يروى: اللهم صل وسلم على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم تسليما بقدر عظمة ذاتك فى كل وقت وحين، وأن مـرة واحدة منها تعدل بستمائة فدية من النار. انتهى. أجاز له والده عامة.

---

(١) تحرف فى المطبـوع إلى: «الجيلانى» وصوابه من ترجـمته فى إتحاف المطالع فى المـوسوعة ٨/ ٢٧٦١.

الآخذون عنه: منهم صديقنا المؤرخ الناقد السيد عبد الحفيظ بن الطاهر الفاسى أنه أجازه عامة.

وفاته توفى بدرعة عام خمسة وعشرين وثلاثمائة وألف.

٨٠ - أحمد بن الحاج رحال البخاري.

حاله: لين العريكة رقيق الطبع حسن الخلق والخلق مزحه جد مشتغل بما يعنيه عدل رضى وجيه نزيه، حيى نبيه فقيه، مجود تال ذاكر خاشع ناسك، محب فى آل بيت الرسول، لا يفارق نبهاء أعيانهم حتى كان يعتقد من لا يعرفه أنه شريف النسبة، تولى خطة العدالة عام سبعين ومائتين والف وكان يقرئ الصبيان، وينوب عن أمين أمناء الحضرة المولوية المكناسية السيد بوعزة بن العربى الفشار فى خطة أبى المواريث وغيرها، نسخ بخط يده كتابا عديدة، وكان له إلمام بالحساب والتوقيت، أخبرنى ولده العدل الرضى السيد العلمى أنه أخبره أنهم من ذرية ولى الله سيدى عبد القادر المدعو بوالكرينات - بالكاف المعقوده دفبن دار ام السلطان وأحاله فى رفع نسبهم إليه على عمه شقيق المترجم الأستاذ السيد عياد ،ومع الأسف فإنه لم يلق بالا للسؤال عن ذلك، وفات استدراك تحقيق ذلك بموت الوالد وشقيقه.

مشيخته: أخذ عن شيخ جماعة القراء فى وقته بالحضرة المكناسية الأستاذ السيد اليزيد والعدل البركه السيد ابن يشو البخارى وغيرهم.

الآخذون عنه: منهم ابن عمنا العلامه الأصيل مولاى إدريس ابن السلطان مولانا سليمان المترجم فيما يأتى كان يكتب له كل يوم نصف حزب من القرآن فى لوحه ويكرر معه كذلك خمسه أحزاب مياومة بضريح سيدى محمد الغمارى المترجم فى المحمدين.

وفاته: توفى أواخر شوال الأبرك سنة تسه وعشرين وثلاثمائة وألف ودفن بوسعة ضريح سيدى عمرو الحصينى رضى الله عنه.

٨١ - أحمد بن محمد بن المأمون بن هشام بن محمدبن عبد الله بن فخر الملوك وجد سلاطين المغرب المولى إسماعيل.

حاله: كان وجيه نبيها حييا أريحيا تاليا لكتاب الله ذا تؤدة وصوت حسن مائلا إلى الأدب ماهرا فى الحساب ومعرفة أحكام الزناتى والرمل والجدول ومخالطة فن التنجيم.

مشيخته: أخذ عن شيوخنا الجلة منهم السيد محمد القصرى، والسيد محمد ابن الهادى الفيلالى، وسيدى حسن بن اليزيد وشيخنا العرائشى، وعن السيد فضول العرائشى موقت مسجد الضريح العلمى وغيرهم.

وفاته: توفى رحمه الله عام ثلاثين وثلاثمائة وألف، ودفن بالضريح الإسماعيلى.

٨٢ - أحمد بن الجيلالى[1] الطَّهَارى.

من أهل الزاوية الإدريسية.

حاله: كان فقيها عدلا تولى نيابة القضاء ببلده مرتين ثم أعفى ومات فجأة وذلك أنه صبيحة يوم وفاته خرج للتفسح مع عياله فى بستان له بضواحى الزاوية وظل به مع أهله فى أنس ونشاط وبعد أن تناول الغذاء معهم تقدمهم فى الرجوع لمنزله فأدركته منيته فى الطريق فمات من حينه قبل وصوله لمنزله.

وفاته: توفى عشية يوم الخميس سادس عشرى رجب عام ثلاثة وثلاثين وثلاثمائة وألف.

---

٨٢ - من مصادر ترجمته: إتحاف المطالع فى الموسوعة ٨/ ٢٨٨٨.

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «الجيلانى» وصوابه من ترجمته فى إتحاف المطالع.

٨٣ - أحمد بن القائد محمد الشاذلي البخاري.

حاله: كـان فقيهـا حيسـوبيا ماهرا متـضلعا فى جمـيع أنواعه وله المام تام بمهمات فن الهندسة وجـهه السلطان سيدى محمد لقـراءة الفنون المذكوره بحاضرة فاس.

مشيختـه: أخذ عن الولى أحمد الصويرى المتوفى بمراكش عام ثمـانية عشر وثلاثمائة وألف وعمن فى طبقته من المتضلعين المشار لهم فى الفن.

الآخذون عنه: منهم السيد مـحمد بن المدنى المكلف فى دور الدولة العزيزية بخزائن العدة والسيد محمد الرجراجى وغيرهما.

وفاته: توفى عام سبعة وثلاثين وثلاثمائة وألف بالحضرة المكناسية.

٨٤ - أحمد بن العالم - اسما - ابن عبد الله الشريف القا:رى.

الرباطى النشأة والدار والوفاة.

حاله: كان علامة نقادا أديبا نزيها وقورا حييا متواضعا ذا سكينة وتؤدة بساما فى وجوه الطلبـة، صدر لخطة الشـهادة أواخر المائة الثـالثة عـشرة، ولم يزل على ذلك إلى أن توفى، وكان مـن ذوى الوجاهة التامـة مبجـلا عند سائر قـضاة بلده وحكامهـا وكافـة أهاليهـا واستخـدم خدمـات سلطانية فى بعض البلدان كـطنجة والعرائش والحديدية ومراكش ومكناسة الزيتون وكانت خدمته بمكناسة أواخر الدولة العزيزية ورحل لحـج بيت الله الحرام، وزيارة روضة الحـبيب الأعظم عليـه أفضل الصلاة وأتم السلام، أواخر هذه المائة.

مشيـخته: أخذ عـن شيخ الجماعـة برباط الفتح أبى إسحاق السـيد إبراهيم التادلى المتوفى بعد غروب يوم الخميس لسـبع عشرة خلت من ذى الحجة عام أحد عشر وثلاثـمائة وألف، ودفن بمحل درسه من دار سكناه رحمـه الله تعالى ورضى عنه لازمه فى كثير من دروسـه الفقهية والحديثية والعربية، وأخـذ عن الفقيه المفتى

السيد الجيلالي[1] ابن إبراهيم الرباطي المتوفى في أواسط جماى الأولى عام ستة وثلاثين وثلاثمائة وألف، وعن الفقيه الصوفى العلامة الشهير السيد الحاج عمر عاشور المتوفى فى ذى الحجة عام أربعة عشر وثلاثمائة وألف، وعن العلامة الأجل القاضى السيد على دنية الرباطى المتوفى عام ستة وعشرين وثلاثمائة و ألف.

تآليفه: منها شرح على المرشد المعين من مطولات الشروح أكثر فيه من النقول.

وفاته: توفى رحمه الله أواخر عام سبعة وثلاثين وثلاثمائة وألف، ودفن بزاويتهم القادرية من رباط الفتح، أفادنى بجميع ما ذكر عنه بلديه العلامة النظار أبو حامد المكى البطاورى مكاتبه.

٨٥ - أحمد بن الصديق المعروف بالتواتى.

نسبه لتوات البلدة الشهيرة الشريف الحسنى العلوى.

حاله: شاب نشأ فى عبادة الله عالى الهمة ذو نفس أبية، وأخلاق نبوية مصطفية، فقيه نبيه، علامة مشارك وجيه نزيه، ذو مروءة وديانة، وعفة وصيانة، رحل إلى الحج عام تسعة وعشرين وثلاثمائة وألف، وهاجر لمدينة جده عليه الصلاة وأزكى التسليم، وطاب له بها المثوى، ودرس بمسجدها النبوى وأفاد واستفاد، لقيته أيام رحلتى لتلك الديار المشرفة وكان لى خير رفيق، وأجل صديق، مدة مقامي بالمدينة المنورة على مشرفها أفضل صلاة وأزكى سلام ما فارقنى ولا فارقته مدة من ثلاثة أشهر كملا.

مشيخته: أخذ بمكناسة عن علمائها الجلة كشيخنا العرائشى، وشيخنا السوسى، وسيدى محمد الشبيهى وغيرهم.

---

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «الجيلانى» وصوابه من ترجمته فى إتحاف المطالع فى الموسوعة ٨/ ٢٩٠١.

وبفاس عن شيخنا العلامة الناسك السيد الفاطمى الشرادى حفظه الله وغيره.

وبالمدينة المنورة عن عالمها ومسندها شيخنا السيد أحمد البرزنجى، وعن شيخنا البركة القدوة سيدى محمد بن جعفر الكتانى أبقى الله وجوده، والعلامة المحدث المفسر شيخنا الشيخ توفيق الأيوبى الأنصارى الشامى، وعن صديقنا العلامة المفضال الشيخ عمر حمدان المحيرثى التونسى، وخلنا الشيخ الزاهد الناسك المعقولى عبد الباقى الهندى وغيرهم من فطاحل أهل العلم الجلة.

الآخذون عنه: منهم الفقيه النجيب حسن الأخلاق محبنا فى ذات الله حمزة التكريتى وجماعة.

وفاته: توفى بالأرض المقدسة دمشق الشام بعد خروج المجاورين بالمدينة وغيرهم من أهاليها فى الحادثة الشهيرة التى تتفطر لها الأكباد.

٨٦ - أحمد بن العربى بن الحنفى بن الطالب بن العربى بن الطالب الشريف الحسنى العلوى الأمْرانى يدعى صميم.

حاله: مجذوب مصطلم ساقط التكليف، ورد من بلدة تافيلات وهو بأتمه وكان يتعاطى حرفة الدباغة فى أول أمره مشتغلا بما يعنيه تاركا لما لا يعنيه إلى أن حل به ما حل فسار لا يكلم أحدا ولا يأوى إلى أحد، يسكن دكانا خربا متهدما، حدثنى غير واحد أنه كان يأتى لمن يبيع الخبز ويأخذ منه ما شاء من غير أن يؤدى له ثمنا ولا يجد ذلك البائع نقصا فى مدخوله، دام معه على ذلك أعواما، وأنه جاءه يوما بعض أوباش الأخلاط وسار يهزأ به ويسخر منه وهو يطلب البعد منه فلما لم يرعو رفع يده يهدده وأومأ لبطنه كأنه يريد أن يطعنه من غير أن يمسه، فصاح ذلك المستهزئ وخر مغشيا فحمل لمحله فمات من حينه.

---

٨٦ - من مصادر ترجمته: موسوعة أعلام المغرب ٨/ ٢٩٣٠.

وفاتـه: توفى عشـية يوم الخمـيس عاشـر ربيع الثانـى عام واحد وأربعـين وثلاثمائة وألف، ودفن من الغد بالضريح الإسمـاعيلى بعد أن صلى عليه بالجامع الأعظم بعد خطبة الجـمعة، ولم يتخلف أحد من أهل الفـضل والدين عن تشييع جنازته رحمه الله رحمة واسعة.

تم الجزء الأول

الجزء والصفحة

رقم الترجمة	الجزء والصفحة
٣٠- أحمد الغماز.	١/ ٣٨٠
٣١- أحمد بن عمر الحصينى.	١/ ٣٨٠
٣٢- أحمد الزناتى الشهير بابن القاضى.	١/ ٣٨١
٣٣- أحمد بن بلعيد بن خضراء.	١/ ٣٨٤
٣٤- أحمد بن عبد القادر التاستاوتى.	١/ ٣٨٤
٣٥- أحمد الخضر زغبوش.	١/ ٣٩٠
٣٦- أحمد بن محمد بصرى.	١/ ٣٩٢
٣٧ - أحمد بن ناجى القاضى.	١/ ٣٩٢
٣٨ - أحمد بن محمد العربى الغمارى.	١/ ٣٩٤
٣٩ - أحمد بن يعقوب الوَلاّلى.	١/ ٣٩٥
٤٠ - أحمد بن أبى يَعْزَى.	١/ ٣٩٦
٤١ - أحمد الصيقال.	١/ ٣٩٦
٤٢ - أحمد الشدادى.	١/ ٣٩٦
٤٣- أحمد بن عزو.	١/ ٣٩٨
٤٤- أحمد الحزميرى.	١/ ٣٩٨
٤٥- أحمد بن سعيد السوسى.	١/ ٣٩٨
٤٦- أحمد بن مومو.	١/ ٣٩٨
٤٧- أحمد بن مسطار.	١/ ٣٩٨
٤٨- أحمد بن عبد الرحمن زغبوش.	١/ ٣٩٨
٤٩- أحمّد بن العباس.	١/ ٣٩٩
٥٠- أحمد بن عبد القادر.	١/ ٣٩٩
٥١- أحمد بن مغيث.	١/ ٣٩٩

رقم الترجمة	الجزء والصفحة
٨٣ - أحمد بن القائد محمد الشاذلى.	٥٣٩/١
٨٤ - أحمد بن العالم القادرى.	٥٣٩/١
٨٥ - أحمد بن الصديق التواتى.	٥٤٠/١
٨٦ - أحمد بن العربى الأمْرانى.	٥٤١/١
٨٧- إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل.	١١/٢
بحث فى أول من ضرب السكة قبل الإسلام وبعده وأول من ضرب السكة المركنة	١٩/٢
٨٨ - إدريس المعروف بإدريس الأنور.	٢٧/٢
٨٩ - إدريس بن السلطان سليمان.	٣٠/٢
٩٠ - إدريس بن التهامى أجانا.	٣٢/٢
٩١ - إدريس بن الطيب منون.	٣٥/٢
٩٢ - إدريس بن الطيب بوعشرين.	٣٦/٢
٩٣ - إدريس بن أحمد بن مسامح.	٣٨/٢
٩٤- إدريس بن أحمد الخطابى.	٣٩/٢
٩٥- إدريس بن أحمد البخارى.	٣٩/٢
٩٦- إدريس بن المكى البخارى.	٣٩/٢
٩٧- إدريس بن حفيد برادة.	٤٠/٢
٩٨- إدريس بن القائد محمد الفيضى.	٤١/٢
٩٩- إدريس بن اليزيد المقرئ.	٤١/٢
١٠٠- إدريس بن إدريس الوزير الأديب.	٤٢/٢
١٠١- إدريس بن بوعزة الميسورى.	٥٢/٢
١٠٢- إدريس الأمرانى.	٥٣/٢

رقم الترجمة		الجزء والصفحة

رقم الترجمة		الجزء والصفحة
	حوادث سنة ١٢٩٧	٢/ ٢٣٥
	حوادث سنة ١٢٩٨	٢/ ٢٣٦
	حوادث سنة ١٢٩٩ وحركة موسى الأولى	٢/ ٢٤٧
	حوادث سنة ١٣٠٠ ونصيحته الدينية	٢/ ٢٥٩
	حوادث سنة ١٣٠١ ومسألة ماء وادى فاس	٢/ ٢٧٨
	حوادث سنة ١٣٠٢	٢/ ٢٨٣
	حوادث سنة ١٣٠٣ وحركة سوس الثانية	٢/ ٢٨٤
	حوادث سنة ١٣٠٤	٢/ ٢٩١
	حوادث سنة ١٣٠٥ وحركة بنى مجيلد	٢/ ٢٩٢
	واقعة آيت شخمان	٢/ ٢٩٨
	حكم البغاة المحاربين	٢/ ٣٠٢
	حوادث ١٣٠٦ و١٣٠٧ وحركة الريف وتطوان وطنجة	٢/ ٣٠٥
	حوادث ١٣٠٨	٢/ ٣٠٨
	حركة تافيلالت	٢/ ٣١١
	عدد الحركات الحسنية	٢/ ٣٢٢
	علائقة السياسية والسفارة الزبيدية للدول الأربع	٢/ ٣٢٤
	الكلام على بقية علائقه السياسية:	
	مع فرنسا	٢/ ٣٧٨
	مع إسبانيا	٢/ ٣٩٠
	مع إيطاليا	٢/ ٤١٨
	مع إنجلترا:	٢/ ٤٢١
	مع ألمانيا:	٢/ ٤٢٤

رقم الترجمة		الجزء والصفحة
	مع الدولة العثمانية	٢/ ٤٢٧
	مع البرتقال	٢/ ٤٣١
	مع أمريكا والبلجيك	٢/ ٤٣٣
	مع البابا	٢/ ٤٣٤
	ذيل فى وثائق تتعلق بقضايا مع نواب تلك الدول	٢/ ٤٣٥
	مؤتمر مدريد ووفقه	٢/ ٤٧٩
	ضربه السكة الحسنية	٢/ ٥٠٦
	اهتمامه بالمعادن وخوضه فيها	٢/ ٥٣٩
	سعيه لإدخال الفنون العصرية للمملكة المغربية وإرساله وفود الطلبة للديار الأوربية	٢/ ٥٤٣
	قيامه بصيانة حصون الثغور المغربية وجلب ما تحتاج إليه من المقومات الحربية واستخدام المتخرجين فى الهندسة من البعثة المغربية	٢/ ٥٤٩
	الكلام على بقية استعداداته الحربية وذكر قوته العسكرية واهتمامه بالاطلاع على المخترعات العصرية وما كان على عهده بالعدائر والهوائر السلطانية	٢/ ٥٦٩
	استعداده البحرى	٢/ ٥٨٤
	ضبط أوقاته وتقسيم أيامه وترتيب نظام مملكته وذكر رجال دولته	٢/ ٥٩٠
	كيفية ترتيب الملاقاة	٢/ ٦٠٦
	كيفية تعمير المشور	٢/ ٦٠٦
	الهيئة الرسمية وما تتألف منه	٢/ ٦٠٧
	قواد الجيش العامل	٢/ ٦٠٨

رقم الترجمة		الجزء والصفحة
١٥٣	- الطيب بن إبراهيم بسير.	٣/ ١٠٤
١٥٤	- الطيب بن أحمد غازى.	٣/ ١١١
١٥٥	- الطيب البيجرى.	٣/ ١١٤
١٥٦	- الطيب الزكارى.	٣/ ١١٤
١٥٧	- الطيب الفيلالى.	٣/ ١١٤
١٥٨	- الطيب بن عبد الرحمن كدران.	٣/ ١١٥
١٥٩	- الطيب الحناش.	٣/ ١١٥
١٦٠	- الطيب بن عبد السلام الواسترى.	٣/ ١١٥
١٦١	- الطيب بن عبد الرحمن زغبوش.	٣/ ١١٨
١٦٢	- الطيب بن محمد فتحا بن بصرى.	٣/ ١١٩
١٦٣	- الطيب بن اليمانى بن أحمد بوعشرين.	٣/ ١٢٠
١٦٤	- الطيب بن إدريس بن الفضيل.	٣/ ١٢٤
١٦٥	- الطالب بن عبد الواحد البوعنانى.	٣/ ١٢٤
١٦٦	- الطاهر بن عثمان المكناسى.	٣/ ١٢٦
١٦٧	- الطاهر بن محمد بن المكى.	٣/ ١٢٦
١٦٨	- الطاهر بن الحاج الهادى بن العناية.	٣/ ١٢٧
١٦٩	- الطاهر بن الهادى بن أحمد المجذوب.	٣/ ١٤٣
١٧٠	- الطيب بن العناية بَنُّونَة.	٣/ ١٤٣
١٧١	- الطيب بن عبد الله الإسماعيلى.	٣/ ١٤٤
	(حرف الكاف)	
١٧٢	- الكمال بن أبى زيد.	٣/ ١٤٧
١٧٣	- الكامل بن عبد الله بن الطاهر بن محمد.	٣/ ١٤٨

رقم الترجمة	الجزء والصفحة
(حرف الميم)	
١٧٤ - مبارك بن سالم الشيظمى.	٣/ ١٥٥
١٧٥ - مبارك بن عبد الله الفيضى.	٣/ ١٥٦
١٧٦ - محمد بن الشريف العلوى السلطان.	٣/ ١٥٩
الكلام فى الإمامة والخلافة	٣/ ١٦٦
١٧٧ - محمد بن عربية السلطان.	٣/ ١٧١
١٧٨ - محمد بن عبد الله السلطان.	٣/ ١٧٩
مولده وشيوخه وحجته	٣/ ١٧٩
صفته وحاله	٣/ ١٧٩
خلافته بمراكش	٣/ ١٨٤
بيعته، وبعض حوادث أيامه	٣/ ١٨٦
حوادث سنة ١١٧٣	٣/ ١٩٣
حوادث سنة ١١٧٤	٣/ ١٩٣
حوادث سنة ١١٧٥	٣/ ١٩٦
حوادث سنة ١١٧٦	٣/ ١٩٧
حوادث سنة ١١٧٧	٣/ ١٩٧
حوادث سنة ١١٧٨	٣/ ١٩٨
حوادث سنة ١١٧٩	٣/ ١٩٩
حوادث سنة ١١٨٠	٣/ ٢٠٠
حوادث سنة ١١٨١	٣/ ٢٠٠
محبته للعلم واعتناؤه بأهله	٣/ ٢١٨
اختياراته المذهبية وما رأى من المصلحة حمل القضاة والمدرسين عليه	٣/ ٢٢٤

رقم الترجمة		الجزء والصفحة

رقم الترجمة	الجزء والصفحة
١٩٦- محمد بن يحيى بن جابر الغسانى.	٣/ ٦٨٠
١٩٧- محمد بن أحمد التلمسانى شهر بالحباك.	٣/ ٦٨٦
١٩٨- محمد بن قاسم بن محمد القورى.	٣/ ٦٨٦
١٩٩- محمد القطرانى.	٣/ ٦٨٨
٢٠٠ - محمد بن أبى البركات الحسنى.	٣/ ٦٨٩
٢٠١ - محمد بن سعيد القيجميسى.	٣/ ٦٨٩
٢٠٢ - محمد بن عيسى بن حرزوز.	٣/ ٦٨٩
٢٠٣ - محمد بن عبد العزيز المعروف بالحاج.	٣/ ٦٨٩
٢٠٤- محمد بن على بن أبى رمانة.	٣/ ٦٩٠
٢٠٥ - محمد بن عبد الله بن محمد اليفرنى.	٣/ ٦٩١
٢٠٦- محمد بن أحمد بن غازى العثمانى.	٤/ ٧
٢٠٧ - محمد فتحا بن عيسى الفَهْدى السفيانى.	٤/ ٢٠
٢٠٨- محمد بن مخلوف الضريسى المكناسى.	٤/ ٣١
٢٠٩- محمد بن قاسم الكتانى الحسنى.	٤/ ٣١
٢١٠- محمد بن أبى القاسم بن أبى العافية.	٤/ ٣٢
٢١١- محمد بن محمد بن غازى الملقب غازى.	٤/ ٣٤
٢١٢- محمد بن حسين العبدلى السهلى شهر بأبى الرَّوَايَن.	٤/ ٣٥
٢١٣ - محمد بن قاسم بن أبى العافية الشهير بابن القاضى.	٤/ ٣٩
٢١٤- محمد بن محمد بن أبى العافية الشهير بابن القاضى.	٤/ ٣٩
٢١٥- محمد بن عبد الرحمن بن بصرى المعروف بسيدى بصرى.	٤/ ٤٠
٢١٦- محمد بن فتحا بن أبى المحاسن.	٤/ ٤٦
٢١٧- محمد فتحا بن محمد المدعو العشير.	٤/ ٤٧
٢١٨ - محمد الوقاد المكناسى.	٤/ ٤٧

رقم الترجمة		الجزء والصفحة
٢٨٧	- محمد بن عبد السلام بن عبود.	٤/ ٢٩٠
٢٨٨	- محمد بن محمد بن عبد الله غريط الوزير.	٤/ ٢٩٢
٢٨٩	- محمد أمزاج.	٤/ ٢٩٨
٢٩٠	- محمد بن هاشم العلوى.	٤/ ٢٩٩
٢٩١	- محمد بن محمد التهامى.	٤/ ٣٠٠
٢٩٢	- محمد بن الهادى بن عبود.	٤/ ٣٠٢
٢٩٣	- محمد العياشى.	٤/ ٣٠٣
٢٩٤	- محمد بن المجذوب بن عزوز.	٤/ ٣٠٤
٢٩٥	- محمد بن محمد المصمودى.	٤/ ٣٠٥
٢٩٦	- محمد بن الهادى الشريف الحسنى العلوى.	٤/ ٣٠٦
٢٩٧	- محمد بن محمد بن العناية بن فقيرة.	٤/ ٣٠٦
٢٩٨	- محمد بن محمد بن محمد بن فقيرة.	٤/ ٣٠٧
٢٩٩	- محمد الأمرانى.	٤/ ٣٠٧
٣٠٠	- محمد الزهنى.	٤/ ٣٠٨
٣٠١	- محمد الأمرانى البيصارة.	٤/ ٣٠٩
٣٠٢	- محمد بن على النيار.	٤/ ٣٠٩
٣٠٣	- محمد بن محمد بن الجيلانى السقاط.	٤/ ٣٠٩
٣٠٤	- محمد بن عبد الله الغريسى.	٤/ ٣١١
٣٠٥	- محمد الخرزة .	٤/ ٣١٢
٣٠٦	- محمد بن عبد الله بن محمد العلوى الإسماعيلى.	٤/ ٣١٢
٣٠٧	- محمد بن المعطى المسطارى.	٤/ ٣١٣
٣٠٨	- محمد بن إدريس الواسترى.	٤/ ٣١٧
٣٠٩	- محمد بن الخليفة التونسى المعروف بالرقاع.	٤/ ٣١٧

رقم الترجمة	الجزء والصفحة
٣٥٦ - منانة مزوارة.	٤/ ٣٦١
٣٥٧ - المصطفى بن محمد الكبير العلوى.	٤/ ٣٦٢
٣٥٨ - المعطى بن العناية الغربوى.	٤/ ٣٦٤
٣٥٩ - المعطى الشاوى.	٤/ ٣٦٤
٣٦٠ - المعطى بن محمد بن الهادى بن عبود.	٤/ ٣٦٦
٣٦١ - مغيث زغبوش.	٤/ ٣٦٧
٣٦٢ - المفضل الفلوسى الزرهونى.	٤/ ٣٦٨
٣٦٣ - المفضل بصرى.	٤/ ٣٦٩
٣٦٤ - المفضل بن عزوز.	٤/ ٣٦٩
٣٦٥ - المفضل السوسى.	٤/ ٣٨٠
٣٦٦ - المستضىء السلطان.	٤/ ٣٨٥
٣٦٧ - مَسْلَمَة السلطان.	٤/ ٤٠٠
٣٦٨ - مسعود الطليطى الموقت الأندلسى.	٤/ ٤٠٧
٣٦٩ - مسعود بن جلون.	٤/ ٤٠٨
٣٧٠ - مسعود البريشى.	٤/ ٤٠٩
٣٧١ - المهدى الزريهنى.	٤/ ٤٠٩
٣٧٢ - المهدى بن عبد المالك العلوى.	٤/ ٤٠٩
٣٧٣ - المهدى الكحاك.	٤/ ٤١٠
٣٧٤ - المهدى بن الطيب بصرى.	٤/ ٤١١
٣٧٥ - المهدى بن الطالب بن محمد فتحا.	٤/ ٤١١
٣٧٦ - المهدى بن على الإسماعيلى.	٤/ ٤١٨
٣٧٧ - المهدى بن فضول بصرى.	٤/ ٤٢٠
٣٧٨ - موسى بن محمد بن معطى العبدوسى.	٤/ ٤٢٠

رقم الترجمة	الجزء والصفحة
وفاته	٤/ ٥٤٦
بعض ما قيل فيه من المديح	٤/ ٥٤٧
علائقه السياسية	٤/ ٥٤٩
٣٨٩ (ب) - عبد الله بن عمر الحضرمي.	٤/ ٥٥٧
٣٩٠ - عبد الله بن حماد زغبوش.	٤/ ٥٥٧
٣٩١ - عبد الله التادلي.	٤/ ٥٥٩
٣٩٢ - عبد الله بن أبي مدين الحاجب.	٤/ ٥٦٠
٣٩٣ - عبد الله بن الحسن اللخمي عرف بابن الأصفر.	٤/ ٥٦٢
٣٩٤ - عبد الله بن حمد.	٤/ ٥٦٣
٣٩٥ - عبد الله بن العريف.	٤/ ٥٦٦
٣٩٦ - عبد الله بن محمد بن معطي العبدوسي.	٤/ ٥٦٧
٣٩٧ - عبد الله بن محمد اليَفَرْني.	٤/ ٥٦٩
٣٩٨ - عبد الله الخياط.	٤/ ٥٦٩
٣٩٩ - عبد الله بن إبراهيم بن الجندوز.	٤/ ٥٧٢
٤٠٠ - عبد الله بن أحمد، ابن القاضي.	٤/ ٥٧٣
٤٠١ - عبد الله مولى الرئيس ابن حكم.	٤/ ٥٧٣
٤٠٢ - عبد الله بن علي المعروف بالحجام الصبيحي.	٤/ ٥٧٤
٤٠٣ - عبد الله الجزار.	٤/ ٥٧٥
٤٠٤ - عبد الله بن محمد الحاج الدلائي.	٤/ ٥٧٧
٤٠٥ - عبد الله القصري.	٤/ ٥٧٩
٤٠٦ - عبد الله بن محمد الخياط.	٤/ ٥٨٠
٤٠٧ - عبد الله بن العرفاوي.	٤/ ٥٨٢
٤٠٨ - عبيد المظلوم.	٤/ ٥٨٣

رقم الترجمة	الجزء والصفحة

رقم الترجمة	الجزء والصفحة
٥٠٥- على بن حبق.	٥/ ٥٣٢
٥٠٦- على بن عمر.	٥/ ٥٣٣
٥٠٧- على بن حماد زغبوش.	٥/ ٥٣٣
٥٠٨- على بن إبراهيم الخياط.	٥/ ٥٣٣
٥٠٩- على بن قاسم الوقاد.	٥/ ٥٣٤
٥١٠- على الزرهونى.	٥/ ٥٣٥
٥١١- على بن أحمد المكناسى.	٥/ ٥٣٥
٥١٢- على بن عمر ابن العربى.	٥/ ٥٣٥
٥١٣- على بن حمدوش.	٥/ ٥٣٦
٥١٤- على بن سعيد العميرى.	٥/ ٥٥٢
٥١٥- على بن عبد الرحمن بن عبود.	٥/ ٥٥٣
٥١٦- على بن صانبة البخارى.	٥/ ٥٥٥
٥١٧- على بن زيدان.	٥/ ٥٥٥
٥١٨- على بن صالح.	٥/ ٥٥٨
٥١٩- على بن محمد المسفيوى.	٥/ ٥٥٩
٥٢٠- على بن الشاد الأمرانى.	٥/ ٥٦١
٥٢١ - عمر بن عثمان الونشريسى.	٥/ ٥٦٢
٥٢٢- عمر الحراق.	٥/ ٥٦٣
٥٢٣- عمر الوقاش.	٥/ ٥٦٧
٥٢٤- عمر الخطاب.	٥/ ٥٧٣
٥٢٥- عمر بن عبد العزيز الخطاب.	٥/ ٥٧٤
٥٢٦- عمر بن مبارك الحصينى.	٥/ ٥٧٤
٥٢٧- عمر الكوش.	٥/ ٥٧٥